AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01112 6038

03-B3837
pwt 9-22-03

RL
Library of
The American University
at Cairo

العالم العربي

تأليف

الدكتورة نجلاء عز الدين

DS
62
E992
1953
EZZedine, Najla
al-'Alam al-'arab.

اشترك في ترجمته

الأساتذة

محمد عوض ابراهيم — الدكتور محمد يوسف نجم

محمد دويك — برهان الدين الدجاني

مقدمة بقلم

الدكتور وليم أرنست هوكنج

تصدير بقلم

حسن جلال العروسي المحامي

دار احياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

٩٥٦
ع ن ع

هـذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من أصحاب هذا الحق .

This is an authorized translation of " THE ARAB WORLD "
by Najla Ezzedine. Published by Henry Regnery Company.
Copyright, 1953 by Henry Regnery Company.

36596

إلى ذكرى
والـــدي

نجلاء عز الدين

محتويات الكتاب

صفحة

تصدير : « هذا الكتاب وهذه المؤلفة » بقلم حسن جلال العروسى ـ المحامى

مقدمة الدكتور وليم أرنست ١

الفصل الأول ـ البيئة ١٣

الفصل الثانى ـ التراث الثقافى ٣٣

الفصل الثالث ـ العرب والغرب فى العصور الوسطى ٥٩

الفصل الرابع ـ الأفول ٨٧

الفصل الخامس ـ نهضة فى الحياة العربية ٩٥

الفصل السادس ـ التيارات المتضاربة ١١١

الفصل السابع ـ الثورة العربية ١٣٣

الفصل الثامن ـ مصر منذ عام ١٩١٨ : النضال السياسى ١٤٩

الفصل التاسع ـ مصر : الحالة الاجتماعية ١٦٩

الفصل العاشر ـ سورية ولبنان ٢٠٧

الفصل الحادى عشر ـ العراق ٢٥٣

الفصل الثانى عشر ـ المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية . ٢٧٥

الفصل الثالث عشر ـ فلسطين ٢٩٣

الفصل الرابع عشر ـ المغرب ٣٦٩

الفصل الخامس عشر ـ المرأة العربية ٤١٣

الفصل السادس عشر ـ نحو الوحدة العربية ٤٣٣

الفصل السابع عشر ـ تنافس الدول فى البلاد العربية ٤٦٩

الفصل الثامن عشر ـ الجهاد الأكبر ٥١٣

تصدير

هذا الكتاب وهذه المؤلفة

بقلم
حسن جلال العروسي المحامي

لقد سمع من به صمم شكوانا من تحيّز الرأى العام العالمى ـ وبصفة خاصة الأمريكى ـ ضد العرب ، ومضت سنين طويلة ونحن لا نفتأ نبدئ ونعيد الحديث عن أساليب الصهيونية فى الدعاية لقضيتها ولوجهات نظرها ، وكيف أنها تتحكم لحد كبير فى دوائر الصحافة والنشر والإذاعة والإعلان وغير ذلك فى العالم كله . فهل آن لنا أن نفعل شيئاً أكثر من الجأر بالشكوى ؟

أما أن الدعاية الصهيونية العالمية نشيطة نشاطا خارقا وتستعمل نفوذها واتصالاتها وعملها وأموالها فى بث دعواها وفى تشويه موقفنا ، وفى الافتراء وتزييف الحقائق ، فهذا كله صحيح ، ولكن الرأى العام العالمى فى معظمه ـ والأمريكى بصفة خاصة ـ ليس إلا ضحية بريئة من ضحايا اختلال التوازن بين طرفين متقابلين يعرض كل منهما وجهة نظره ضمن إمكانيات متفاوتة واتصالات لا تكافؤ للفرص فيها .

أنقنع بالشكوى السلبية و ببذل القليل الذى نبذله الآن ضمن إمكانياتنا المعقولة ؟ أم أن هناك طريقة أو طرائق أخرى يتعين علينا الالتجاء إلى ما هو ميسر

منها حتى يأتى الوقت الذى نستطيع أن نهتدى فيه إلى ما هو أقوى وأكثر فعالية وتأثيرا ؟

إن موضوع دعايتنا العالمية هو واحد من موضوعات الساعة ؛ وما من شك فى أن حكومة مصر وحكومات البلاد العربية جمعاء توليه نصيبه موفورا من العناية والدرس ؛ وهو بعد موضوع متشعب ، معقد ، متعدد الجوانب ، وهو بذلك مما لا تتسع كلمة قصيرة محددة الغرض كهذه الكلمة للإفاضة فى الحديث عنه ؛ ومن ثم فإننى لمست الموضوع لمسا خفيفا من حيث اتصاله بهذا الكتاب الذى يعد بحق وسيلة ، قائمة وباقية على الزمن من وسائل التعريف بالعالم العربى وبقضيته وببلاده كخير ما يكون التعريف الصادق الموضوعى ، وفى هذا الكتاب وفى شخصية مؤلفته أكثر من موضع للطرافة التى تضفى عليه أهمية خاصة .

فمؤلفته « الدكتورة نجلاء عز الدين » عربية سورية مسلمة ؛ وهى تنتمى إلى عائلة من أعرق العائلات المعروفة ، لا فى سوريا فحسب بل فى مصر ولبنان وغيرهما من البلاد العربية ، وهى وعائلتها من هذه الناحية تمثل الفكرة العربية والوحدة العربية تمثيلا صادقا ؛ إذ من بين أفرادها المصرىّ والسورىّ واللبنانىّ ومن إليهم . ومن ناحية أخرى فالدكتورة نجلاء خرّيجة جامعات أمريكا ، ولعلها كانت أول فتاة عربية تنال شهادة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعاتها ، وهى ليست مجرد ثمرة من ثمرات المعاهد العلمية الأمريكية فحسب ، ولكنها كذلك وثيقة الاتصال بالفكر الأمريكى وبالحياة الأمريكية بحكم إقامة طويلة فيها وإجادة للغة لا تكاد تتأتّى إلا لقلة قليلة من غير الأمريكيين .

ماذا عسى أن تكون دلالة ذلك المنطقية إذا خرّجنا النتائج من الأسباب والظروف ؟ أحسب أن للقارئ عذرا إذا انتظر من هذا الكتاب أن يكون مزيجا من الاتجاهات الفلسفية ، والإعجاب الطاغى بكل ما هو أمريكى ، والمشاطرة الفكرية لوجهات النظر الغربية ، والنقد السافر أو المستتر للمغالاة فى القومية أو التطرف فى التمسك بوجهات النظر العربية .

هذا ما كان يحق للقارئ أن يتوقعه من الكتاب ومؤلفته ، وهو هو ما خشيت أن يكون قبل أن أقرأ الكتاب ؛ فقد خيل إلىّ أن هذه المؤلفة العربية مولداً ، الأمريكية تعليماً وتفكيراً ، لا بد ـ بمنطق الأشياء ـ أن تتأثر بتكوينها العلمى والفكرى فيأتى كتابها شيئاً « بين بين » فلا يتنكر لماضى مؤلفته ، ولا لحاضرها ، فيبدو نتاجا خليطاً مائعاً لا صدق فى تمثيله ، لا للبيئة التى يصفها الكاتب ، ولا للبيئة التى يتجه إلى قرائها بالحديث .

إننى موقن بأن القارئ سيدهش ويعجب عند ما ينتهى من قراءة هذا الكتاب ؛ ففى الكتاب مواطن كثيرة تستفز العجب والإعجاب ، والدهشة والتساؤل ، ولست أرغب فى تسهيل مهمة القارئ بإرشاده إلى هذه المواطن أو بعضها ؛ فإننى جد حريص على أن يقرأ الكتاب كله ، وأن يقرأه قراءة درس وإمعان ، ولكننى مع ذلك حريص على أن أشير بصفة خاصة إلى ما جاء فى الفصل الثامن عشر بعنوان « الجهاد الأكبر » وقد تناولت فيه المؤلفة المرحلة الأخيرة من حياة مصر السياسية المعاصرة

واستعرضت فيه ما حققه الرئيس جمال عبد الناصر لمصر وللقومية العربية فى عرض منطقىّ قوىّ لعل أدعى ما فيه إلى التأمل أنه يمثل ـ كأقوى ما يكون التمثيل ـ القومية العربية ؛ إذ لا أحسب أن قلما مصريا يستطيع أن يصوّر وأن ينفعل وأن يعبّر عن هذه « الخصوصية » المصرية تعبيراً أفضل من هذا القلم السورى . أما الفصل السابع عشر ففيه تناولت الأحداث الأخيرة حتى إلغاء العرض الأمريكى لتمويل السد العالى وتأميم القناة والعدوان الثلاثى على مصر ، وليستمع معى القارئ إلى تلخيص المؤلفة للموقف بعد خيبة العدوان الثلاثى على مصر . وبه اختتمت الفصل المذكور :

« لقد أكدت الحرب ضد مصر أنه لم يعد فى الإمكان النظر إلى العالم العربى من خلال زاوية استعمارية ، أو اعتبار الاهتمام به وقفا على الدول الغربية ؛ فالاتجاه الأكيد فى المنطقة يسير نحو انتقال السلطة النهائية من الدول الاستعمارية ـ وأخصها بريطانيا ـ إلى الشعوب العربية نفسها . وكل من ساعد على إنجاز هذه العملية يساهم فى قضية السلام بإبعاد منازعات الدول الأجنبية للسيطرة على المنطقة كما يكسب الصداقة المخلصة من سكانها ـ تلك الصداقة التى لا تشترى بالعون الاقتصادى ولا تستبدل بالأحلاف والتكتلات العسكرية ـ . والشعوب العربية الحرة ستستعمل قوتها ـ وهى قوة بدأ الناس يدركون إمكانياتها ـ فى سبيل الدفاع عن حريتها وفى سبيل

القيام بواجباتها الدولية فى عالم أصبحت فيـه قضية السلام مرتبطة ارتباطا لا ينفصم بحرية الشعوب كلها » .

هـذه هى ترجمة الطبعة الأخيرة للـكتاب ، وهى طبعة مزيدة ومنقحة لا شك فيما سيكون لها من أثر فى إنارة الرأى العام الأمريكى وتمـكينه من صحة الإحاطة بقضية العالم العربى كما هى وكما ينبغى أن تعرف ، وهى تخرج إلى عالم النشر فى وقت هيأت فيه الأحـداث الخطيرة الأخيرة الرأى العـام العالمى كله للتعرف على تفاصيل القضية العربيـة ، لا بحسبانها قضية محلية منفصلة عن مصير العالم وتطورات النزاع الدولى واتجاهاته نحو الحرب والسلام ، بل بوصفها واحدة من أهم القضايا المؤثرة فى الموقف العالمى العام . والـكتاب بهـذه المثابة ـ فى نسخته الأمريكية ونسخه غير العربيـة ـ مساهمة كبيرة فى توجيه الرأى العام العالمى ومساعدته على صحة الإلمام بوجهة نظر لم تتح له فرصة الإحاطة بها من قبل .

وقد يكون ممـا يساعد القارئ على تقدير قيمة الـكتاب العلمية وآراء المختصين من الـكتّاب والنقّاد فيه أن نشير هنا إلى بعض ما قوبل به هذا الـكتاب عند ما طبع لأول مرة :

كتب Richard M. Saunders فى مجـلة Canadian Forum ، أبريل ١٩٥٤ :

« إن لهذا الـكتاب أهمية عظيمة بالنسبة إلى الأحوال العالمية الحاضرة .

ومن الأمور ذات المغزى أن مؤلفته هى أول فتاة عربية حصلت على الدكتوراه فى الفلسفة ، وهـذا فى ذاته دليل على تلك الحركة العميقة التى نشاهدها فى كل بقعة من بقاع العالم العربى . وقليلون هم الذين عندهم ما يؤهلهم للـكتابة فى هـذا الموضوع كالدكتورة نجلاء عز الدين ، وهى فى كتابتهـا عن قومها وحضارتها إنمـا تصدر عن عقل مدرب تدريبا دقيقا ذى خبرة طويلة فيما هو خارج عن تلك الحضارة ، إذ لاشىء يزيد الإنسان معرفة بوطنه كالاغتراب عنه .

« فى الفصول الأولى من الـكتاب تصف الدكتورة عز الدين بيئـة العرب الجغرافيـة وتراثهم الثقافى الغنى ، وهى تعلق على الأمر الثانى أهميـة كبيرة ، وذلك حق ، لأن الحضارة العربيـة هى من الوجهة التاريخية إحدى حضارات العالم الـكبرى ، وإلى هذا التراث الثقافى يتطلع العرب اليوم ليجدوا فيه المصادر للتجديد الفـكرى وليقيموه أساسا لـكيانهم كشعب .

« ومعظم الـكتاب ، أى نحو ثلاثة أرباعه ، مخصص لبحث التطورات التى حصلت فى العالم العربى منذ عام ١٩١٤ ، وهنا نجد تحليلا دقيقا نفّاذا للأحداث الصاخبة التى هزت ذلك الجزء الستراتيجى من العالم . ومما هو جدير بالاهتمام بنوع خاص ذلك الفصل المبحوث فيه عن فلسطين ، وهذا الفصل ، وإن كان ينمّ عن اتجاه عربى قوىّ ، إلا أنه يؤلف بحثا رصينا متزنا اتزانا عجيبا . والفصول الثلاثة الأخيرة هى أيضا ذات أهمية كبيرة ، أى فصل « نحو الوحدة العربية » ، وهو يبحث فيما يحس به العرب من دافع قوى لتحقيق وحدتهم السياسية ، وفصل « القوى فى العالم العربى » وهو يبحث عدا أمور أخرى ، مسألة حساسة هى التغلغل الشيوعى فى هذا الجزء من العالم ، وفصل

« الجهاد الأكبر » وهو يظهر الحركة الأساسية الروحية الاجتماعية التى يتمخض بها المجتمع العربى اليوم .

« إن كل من قضى فى الشرق الأوسط مدة من الزمن يدرك صدق النبرة التى ينجلى عنها هذا الكتاب ، والكتاب ضرورة أولية لجميع الذين يرغبون فى إدراك حقيقة التفكير السائد فى هذه البقعة ذات الأهمية القصوى للسلم العالمى . وهو يكفى وحده لأن يعطى فكرة جلية عن العقل العربى ومخاوفه وآماله وأمانيه » .

وكتب George Britt فى مجلة New York Times Book Review ، ٨ نوفمبر ١٩٥٣ :

« يمكن التدليل على مقدار تحرر المرأة الشرقية اليوم بما نجده فى هذه الدراسة التى جاءت بها فى الوقت المناسب الآنسة عز الدين عن العالم العربى ، فيما صارحت به الغرب على مستوى لم يفقه ما ورد على ألسنة رجال السياسة . وهو يحمل رسالة مهمة لجميع الذين يشعرون بالمسئولية عن أعمال حكوماتهم .... وقيمة الكتاب الرئيسية ، وهى كبيرة ، هى فى إظهار الوضع القومى العربى الحديث ، وهو وضع متيقظ واسع الفكر . تلك ناحية يتعين على الغرب أن يعالجها وينبغى عليه أن يتفهمها .... إنها حقا لمفخرة من المفاخر ، ... وقد لفت نظرنا إلى ذلك وليام أ . هوكنج بقوله فى مقدمته : « إن الشعوب العربية قد لازمت صفتها الخاصة بها وقتا أطول من أى جزء مماثل من العالم المتمدن المعروف » . وهذا الماضى الذى لا يزال راسخا فى الأذهان هو أحد الأركان المتينة التى تقوم عليها الأمانى العربية .

« وهنا نجد الناحية التى ينظر منها أحد العرب إلى العالم ـ عربية قديرة ، لها ما يؤهلها لممارسة الزعامة عشرات السنين باعتدال بنـاء ، بصورة تعكس التأويل الأساسى للأحداث والاستجابات العاطفية لدى الرأى العام . وإن الشعب العربى مما له اليوم عند الأمريكان من أهمية كبيرة ، لا فائدة من التقرب إليه دون تفهم هـذا الوضع ، وقد وضعت المؤلفة الأمور فى نصابها دون إشكال ، فأجملت هذا الوضع وأوضحته فى فصلها الممتاز . تنافس الدول فى البلاد العربية . »

وكتب تشارلز عيساوى فى مجلة The Moslem World :

« لقد كنا ننتظر كتابا كهذا بفارغ الصبر .... وهى أول محاولة جرت لرسم صورة إجمالية للشعب العربى فى مجموعه وفى أوضاع حياته الحاضرة .

« والمؤلفة لها كل المؤهلات للعمل الذى نهضت به .... فمعرفتها الوثيقة بعدد من الأقطار العربية تبلورت وصقلتها دراسة جامعية عالية ، إذ نالت شهادة كلية فاسار فى التاريخ ، والد كتوراه فى عـلم السلالات البشرية من جامعة شيكاغو ، واشتغلت بتحرير النصوص العربية التاريخية العائدة إلى العصور الوسطى . . فـكانت نتيجة هذا الإعداد ـ والسنين الطوال من العمل المـكد ـ كتابا صادرا عن علم واسع ، سهل المطالعة ، يتوهج حنوا على موضوعه إلى درجة لا يطالها سوى المرأة ... وخلاصة القول أنه من أنفس الـكتب الجديرة بالمطالعة » .

وكتب Joseph C. Shipman فى مجلة Library Journal مدينة نيويورك ، ١٥ اكتوبر ١٩٥٣ :

« إن الدكتورة عز الدين ، وهى أول فتاة تنال شهادة الدكتوراه فى الفلسفة ، تكتب بحيوية وحنو ومعرفة شخصية وثيقة بالعالم العربى ... كتاب تجدر مطالعته لأنه يؤلف دراسة نزيهة من الطراز الأول من وجهة نظر العرب » .

وكتبت مجلة The Christian Century شيكاغو ، ٢٠ يناير ١٩٥٤ :

« وكتابها عرض شامل لتاريخ العرب وحضارتهم ومجتمعهم وساستهم وآمالهم . وليس أفضل منه دليلا إلى تفهم روح العالم العربى وإدراك واقعه ... والمؤلفة حريئة فيما تؤمن به ولا تروغ عن مواطن الخلاف » .

وكتب Laurence Griswold فى مجلة World Affairs وشنطن ، ربيع ١٩٥٤ :

« إن الدكتورة عز الدين ، التى قال عنها وليام . ا . هوكنج فى المقدمة : إنها كتبت هذا الكتاب بعاطفة كما كتبته بروح المسئولية العلمية ، إنما جمعت إلى ذلك صفاء الإدراك والتعبير مما يجعل الكتاب ذا فائدة لا تقدر لكل من أراد الاطلاع على أحوال الشرق الأوسط . . . . لقد جاءت بمادة التاريخ الأساسية وأسبغت عليها من الإيناس ورقة الشعور ما يدل على أن العرب قوم ليسوا بدوا أشبه بأشخاص الأساطير أو بسكان مدن ألف ليلة وليلة . إن للعرب مشاكل ، وهى لا تقتصر على مشاكلهم الخاصة

التى رافقت آدابهم المستمرة من العصور الوسطى حتى حاضرهم الشائك . بل تشمل أيضا مشاكل حرصت على إثارتها أمم لا تزال تنظر إلى أراضيهم وأموالهم بأنها غنيمة مشروعة » .

وكتبت مجلة United Nations World نيويورك ، أبريل ١٩٥٤ :

« هـذا دليل ممتاز إلى الوضع العربى الحاضر ، وهو يشتمل على تحليل صاف لمبادئ القوميين العرب وأهدافهم » .

وكتبت مجلة Current History ، أبريل ١٩٥٤ :

« هذه مقدمة ممتازة للبلدان الناطقة بالعربيـة . . . تنتقد المؤلفة انتقاداً لاذعاً ، الدور الذى تلعبه الدول الـكبرى فى هـذه البقعة ، ولـكنها لا تشتطّ أبدا » .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن هذا الـكتاب فى طبعاته الأولى قد حقق بالفعل خدمة جليلة لقضية العرب فى أمريكا ؛ فقد لاحظت بعض المؤسسات العامة الأمريـكية المسئولة عن المعاونة فى حسن توجيه الرأى العام الأمريـكى وتبصيره بالحقائق العالمية ـ لاحظت غزو الـكتب الصهيونية أو التى تأخذ بوجهة نظرها للمـكتبات العامة فى أمريكا ، وخلو هذه المـكتبات من الـكتب التى تعرض وجهة النظر العربية ، ولذلك اتجهت بعض هذه المؤسسات ـ كدأبها ـ إلى شراء عدد كبير من هذا الـكتاب وتوزيعه على المـكتبات العامة ومكتبات

الجامعات . وذلك على سبيل الإهداء . وهى تفعل ذلك عادة بشرطين : أولهما أن تُثبتَ الكتب المهداة على هذا النحو فى سجلات المكتبات ليتسنى لروادها الإحاطة بوجودها ، والثانى أن تعرض هذه الكتب بحيث تسهل رؤيتها والاطلاع عليها ، أو استعارتها .

إننى فخور بصفة خاصة بمساهمتى المتواضعة فى نشر ترجمة هذا الكتاب بالعربية ، وأنا إلى ذلك كبير الأمل فى أن نتعاون جميعا ـ حكومات وهيئات وأفراداً كل فى نطاقه ـ على تعميم الإفادة من هذا الكتاب فى نسخته الأصلية أوفى نسخه المترجمة ، وأتمنى أن يهدى كل من له صديق ممن يتكلمون الإنجليزية إليه نسخة من هذا الكتاب لما فى ذلك من بث وعى المعرفة الصحيحة لقضايا العالم العربى . ولقد كان هذا الكتاب واحدا من الكتب التى كنت أداوم على إهدائها إلى أصدقائى فى الخارج : فى أمريكا وفى غيرها من بلاد العالم ، وأستطيع أن أقرر أن هذه التجربة قد نجحت نجاحا كبيرا وما زلت أتلقى إلى اليوم خطابات كثيرة لا تقتصر على الشكر بل تتضمن الكثير من التعليقات والمناقشات المثمرة .

أما النسخة العربية فإن أهدافنا من نشرها كثيرة : منها أن تتاح لكل قارئ عربى الإحاطة بصورة واضحة سهلة لمختلف بلاد وطنه الأكبر ـ العالم العربى ـ وهى إذ تُعرَض فى هذا الإطار المشترك تثير الكثير من المقابلات

والمقارنات والتأمل والدراسات . ثم إن هذا الكتاب دفاع بليغ عن فكرة القومية العربية والوحدة العربية ، وهو بهذه المثابة تحية لسياسة الرئيس جمال عبد الناصر الرشيدة ، وصدى صادق للدعوة إلى معرفة العالم العربى لنفسه ، ولما يريد ، ولما ينبغى له أن يعمل .

•••••••

مقدمة

بقلم

الدكتور وليم أرنست هوكنج

فى هـذا العالم الفسيح شعوب معرفتنا بها واجب علينا محتوم ، وشعوب فى معرفتها بهجة لنا وسرور ، وشعوب معرفتنا بها تجمع بين الواجب والسرور ، ومن هذه الفئة العرب ، من أى النواحى أتيتهم .

لقد أسبغ إخواننا العرب ، طيلة قرون عدة ، طابعا ومعنى ورونقا على الشرق الأوسط بأجمعه . وهذا الطابع لم يكن فى يوم من الأيام جامدا ولا وضيعا ولا ظاهرا تمام الظهور ، وقد وصفه بعضهم بأنه لا يخلو من الغموض ، له أبعاده الخاصة من الجلال والعمق ، واستعداداته الذاتية للتوحيد بين العقل والعاطفة توحيدا هو روح التاريخ . إن فى قبضتهم ملتقى طرق قارات ثلاث ، وسيكون لمواقفهم السياسية أثر فى مجرى التاريخ العالمى ـ بمـا فى ذلك تاريخنا نحن ـ إلى زمن طويل . ونحن بحاجة إلى معرفتهم من نواح عدة : ناحية العالم ، والسياسى ، ورجل الأعمـال ، والأديب ، والفنان ، والفيلسوف ـ وكذلك ناحية المرأة ، وهى قد تجمع بين كل هذه ، ويقينا إنها تزيد عنها .

وها قد مرت قرون عدة على الوقت الذى كان يستطاع فيه تحديد موطن العرب أو أصلهم فى الجزيرة العربية ، كما كانت الحال أيام اليونان والرومان ، وعلى الزمن الذى كان فيه أهل البداوة رمزا لأى جزء كبير من العرب . غير أننا لا نستطيع أن نفصل فصلا تاما بين مدلول كلمة «العرب» وبين ذلك السحر المادى الذى تنطوى

عليه تلك الأرض الخشنة والذى كان ذا أثر بعيد فى جعل بلاد العرب التاريخية بمنأى عن تطفلات الأغيار وفى تيسير الاتصال الهادىء المباشر بين الإنسان المتوحد و بين الأبعاد التى لا نهاية لها والأسرار البعيدة الغور المكنونة فى سماء الليل . وهنا يتبادر إلى الذهن ما قاله والتر بيجهود بصدد حياة الأمم ، من أن « كل شىء عظيم يجرى إعداده فى الخفاء » ، فى رحم جغرافى يحميه من تقلبات ماهو خارج عنه من حوادث الأيام .

ولا يمكن تحديد العرب على وجه الضبط بالإسلام ، وذلك لأسباب ثلاثة : أولها أن امتداد الإسلام تجاوز العالم العربى بكثير ، وثانيها أن الشعوب العربية فيها عدد كبير من المسيحيين وسواهم من العرب غير المسلمين ، وثالثها أن المسلمين اليوم يضعون لأنفسهم قواعد جديدة للتوفيق بين روح العصر الحديث ومعضلات التقيد بمناهج السلف . إلا أن انتشار الإسلام ذلك الانتشار الصاعق هو الذى أوجد الدولة العربية التاريخية ، وطبعها كلها إلى يومنا هـذا بطابعه وروح حضارته بمؤازرة اللغة العربية و بقدرته العجيبة على تقبل الثقافات الأجنبية . ليس كل المسلمين وليس كل العرب يؤدون فريضة الحج ، ولـكن مكة والمدينة تظلان قبـلة الروح ، ولهما من عظيم الحرمة مايقاس برفض قبول « السائحين » إليهما ، فالمسلمون من هـذه الناحية من أشد شعوب العالم ترفعا .

و إذا كانت اللغة مقر النفس ، كما قال بعضهم ، فإن اللغة العربية مقر وهيكل فى وقت واحـد . فعند ما اتخذ العباسيون بغداد عاصمة لخلافتهم ، مجاورين بذلك الفرس ، شرع العرب بشغف كبير فى المزج بين الفـكر الفارسى و بين أنظمة العرب الفلسفية (وكان النتاج العجيب لهذا الامتزاج صوفية شعرية يشك فى صحة تقيدها بأصول الدين) ، وشرع الفرس من ناحيتهم ، و بذلك الشغف عينه ، فى التفـكير والـكتابة باللغة العربية ، فـكتب عمر الخيام الشعر العربى كما كتب

رباعياته الفارسية . أما اللغة العربية ـ وربما كانت اليوم الدليل الأكثر فائدة للتعريف عن العرب ـ فهى من أجمل اللغات وأكثرها دلالة ، وقد كانت مع اللاتينية فى العصور الوسطى إحدى اللغتين الدوليتين فى حقلى العلم والسياسة . إنها لغة حافظت على نقاوتها بالرغم من المغريات الكثيرة التى أرادت أن تنحط بها إلى لهجات محلية ، وذلك لأنها لغة القرآن وبها شىء من قدسيته . وحتى عهد قريب ، ظل الألوف من الأولاد الصينيين فى إقليم يونان يحفظون القرآن غيبا باللغة العربية ، وهذه هى الحال نفسها فى أجزاء أخرى بعيدة من العالم الإسلامى .

وهنا نتساءل : أمن المفيد أم من الضار أن تكون هذه العلامات الفارقة فى تلك الدرجة العالية من الاستقرار : اللغة ، والموطن ، والتاريخ ، والشرع الإسلامى ، وفيما يختص بالأكثرية الكبيرة ، التوجه نحو مكة ، والدين الذى جاء فى كتاب عزيز ؟ وإذا اضطربت هذه العلامات الفارقة فهل يقضى على العالم العربى بأن يفقد طابعه وتماسكه ؟ إن الأمر الواحد الأكثر أهمية فيما يتعلق بهؤلاء الناس ، بالنسبة إلى الأوضاع السياسية الراهنة ، هو أنهم على موعد مع « التغيير » إله العصر الحديث . فهم فى طور النمو ، وعليه فلم يعد من الممكن أن نسمهم بما كانوا فيه بالأمس ، بل بما سيصبحون فيه غدا . غير أن الثقافة العربية يجب أن تظل وطيدة الأركان ، ولسنا نستطيع ، أنا وأنت ، أن ندرك مدى ذلك الغد مالم نتوصل أولا إلى تقدير روعة الماضى ـ دون الحنين إليه إذا أمكن ـ والجلال الرفيع الذى يمتاز به حتى هذا الحاضر القلق ، الذى سيولد منه المستقبل .

وإنه لفخر للعرب وكسب لنا جميعاً أن تكون الشعوب العربية قد لازمت صفتها الخاصة بها وقتا أطول من أى جزء مماثل من العالم المتمدن المعروف . فحتى عام ١٩٢٠ ، كان القادم إلى فلسطين يشعر فى الحقيقة بأنه يزور أرض شاول وداود ، وقد تعود به الذكرى فى بعض الأماكن إلى إسحاق ورفقته ، وأنبياء العهد القديم ، ومريم ويوسف وابنهما نجار الناصرة . ولكن الأمر لم يعد كذلك ،

فقد أصاب القوم ما أصابنا نحن ـ ولكن بأكثر ضراوة وأقل إشفاقا ـ إذ غمرتهم القوى العالمية الطاغية المزودة بالنافذ من آلات الانتقال والمواصلات (هى ولا شك آلات « التقدم ») فأدركتهم ضرورة الإسراع فى تهيئة أنفسهم لأدوار عالمية جديدة . وإذا كنا نحن فى أميركا نحجم ـ وهذا هو الواقع ـ عن توريط أنفسنا فى أوروبا وآسيا وأفريقيا إلى الحد الذى تتطلبه الأحوال الحاضرة منا ، فقلما ندرك هذا الإحجام من أناس هم أقل منا بما لا يقاس حبا فى التغيير . وإنى من أولئك الذين يحبون أن يأتى التغيير إلى العالم العربى متثاقلا بطيئا . ولا يعنى ذلك وجوب مقاومة التغيير ـ إذ يعلم الله أنه لازم ـ بل إنه يجب أن يأتى دون أن يفرحوا بطرح الماضى أو أن يلجأوا إلى الثورة لنبذه ، كى لا تنتقص كرامة الحاضر ولا ينكر جميل الماضى ، لأن ذلك العالم العربى ، كما نستطيع أن نلمسه حتى الآن ، كان وما يزال عالما فيه من النبل والسحر ما يندر وجوده ، وحالما تنبعث فيه ضوضاء العصر الحديث المادى المتعجرف ، فإن هنالك شيئا يوشك أن يفقد تماسكه ، شيئا قد يمضى ولا يستطيع العالم استعادته إلا بعد لأى ، أو لا يستطيع أبدا . اقرأ تاريخ العرب . اقرأه بروح المحبة ، لا من أجل الحقائق فحسب ، بل لكى تدرك فى خاطرك دورا عظيما من أدوار الاختبار البشرى ، اقرأه لتجد نفسك فى العالم العربى ، عالم الروح والخيال والتأمل .

وهنا أود أن أذكر أمراً أو أمرين قد لا تراهما الدكتورة عز الدين بالشكل البارز الذى يراهما به غير العربى ـ وهى عربية ولذا فإنها تستنشق هذه الأشياء كما تستنشق هواء الوطن .

إننى أعرف وأذكر بالامتنان ما هو الكرم العربى ، وكذلك أعرف تعالى العرب عن طغيان مقاييس الزمن التى تقيدنا . فالأميركى المرتبط بساعته (وإن كان يخيل إليه أن ساعته مرتبطة به) ربما وجد فى ترسل مضيفه العربى فى البقاع وتمهله

ما يبعث على الانزعاج ، غير أنه فى الوقت عينه يجد فى ذلك روعة وانعتاقا . قلت لمضيفى : إنى مرتبط بموعد بعد ثلاث ساعات فى زحلة وهى على بعد مئة ميل ، فأجاب : « إذن فلنبادر إلى الاتصال بمعلم المدرسة ، إذ أن فى هذه الأنحاء آثارا رومانية ترغب ولا شك فى مشاهدتها ، وهو يعرفها معرفة جيدة ، فإذا شئت المكث هنا أسبوعا واحداً فقط ، استطعنا أن نتفحصها بدقة . . . »

و إنه ليساورنى جمال المبانى ذات الصبغة العربية الخاصة ، المنتشرة فى العالم أجمع من التاج محل إلى الحمراء ، ولا يقتصر ذلك على المساجد الجميلة فى دمشق والقدس والقاهرة . . . أما المدينة التى أتحرق شوقاً لزيارتها مرة أخرى دون سائر مدن العالم فهى مدينة حماة ذات الصبغة العربية الخالصة الواقعة على ضفاف العاصى ، حيث تجد (مع شىء من المبالغة) كل بوابة وكل مدخل حديقة مختلفا عن سواه ، وكل شباك مرسوما ومحفوراً على حدة ، وحيث النواعير القديمة تملأ الجو بموسيقاها ليلا نهارا . وفى حماة أيضا لى صديق عربى مسلم ، وغرفة الجلوس فى بيته قائمة فوق إحدى النواعير الصغيرة مباشرة . وقد بلغت مدة مكوثى معه أولا وأخيراً ساعة أو نحو ساعة فى هذه الحياة الفانية ، تحدثنا فيها عن القرآن وعن الأفكار التى جاء بها الإسلام إلى البشر . وعند ما افترقنا كانت قد قامت بيننا رابطة لن تنفصم عراها أبدا . إن الحقيقة عند العرب لا تختفى بين مئات الأشياء الخارجة عنها . فالإنسان يواجه الإنسان مباشرة بلا توسط بينهما . فهل هذا الأمر نفسه شىء خارجى أو من التفاصيل الشخصية التافهة ؟ إنه يلوح لى قريبا إلى صميم الموضوع ، إذ ما هى الحضارة إذا لم تكن تعنى قابلية الاتصال السريع بين الفكر والفكر عبر كل حواجز الجنسية والتاريخ ؟

⁂

وحالما نكتسب الإدراك العميق لما كانت عليه الثقافة العربية فى أيام مجدها ، أيام حفظت للعالم الغربى بأجمعه علوم اليونان وفلسفتهم ـ أفلاطون وأرسطو ـ ولما هى عليه فى امتدادها الحاضر فى معاهد الرياض ودمشق ، والموصل وبغداد ،

والقاهرة (الأزهر) ، وتونس والمراكز الأخرى ، فاننا نصبح شديدى الاهتمام بمستقبل هذه الثقافة . إننا نبغى الفصول الحديثة من هذا التاريخ ، كما هى مسرودة فى هـذا الـكتاب ، ليس فقط من أجل الانقلابات الاقتصادية والسياسية ، وليس فقط من أجل تقطيع الوطن العربى بخطوط التقسيم الاعتباطية بسبب أطماع الدول الأوروبية (تلك الأطماع التى تجسمت فيما مضى فى معاهدات سرية انفجرت كالقنابل فى إدراك الرئيس ولسن الذى كان يعلق الآمال الـكبار على حق الشعوب فى « تقرير مصيرها ») ، وأيضا بسبب طغيان بركان من أوروبا انفجر فغمر أرض فلسطين ، وليس فقط من أجل النضال الذى نهض به الوعى القومى العربى ، من خلال هذه التقسيمات لإدراك بعض أشكال الوحـدة ، ولـكننا نبغيها المسألة الـكبرى ، وهى : « ما هو مصير الثقافة العربيـة ؟ » ماذا سيحدث لها فى زحمة أنظمة الحياة الأخرى ، كما فعلت الحياة الفرنسية فى عهد نابليون فلم تـكن النتائج بوجه عام هادمة بل محررة ، لأن الحياة واللغة الفرنسيتين كانت لهما حينذاك روح استطاعت الروح العربيـة أن تجد فيها ملجأ وغذاء [1] . ما هو مدى إدراك دول الغرب أن هنالك روحا عربيـة ، تلك الدول التى يتوقع أن ترتبط مصالحها المالية والسياسية بتقـدم العرب المادى فى حال انصرافهم عن المغريات القتالة التى يلوح بها اخطبوط الشمال ؟ وإن هذه الروح هى التى يجب أن تقرر الأنظمة السياسية فى الشرق الأوسط الجديد ، لا العكس ، وإنه يجب أن لا يسمح للمصالح المشتبكة التجارية والسياسية ، العربيـة المحلية منها والغربية ، وبفرض طابعها الموسوم بالتعدد والانفصال والعلمانية ، على الروح العربية .

ولـكن ما الذى يستطيع أن يحول دون الاستمرار فى تقطيع أوصال العالم العربى بفرز الجماعات الاعتباطية وتسميتها بأسماء قومية تحت ضغط هـذه القوى

---

(١) وهى ما تزال تفعل فعلها هذا فى بعض الأحيان . انظر مثلا كتيبا من الشعر العربى نقله إلى الفرنسية واصف بطرس غالى من القاهرة بعنوان Les perles éparpillées .

الخارجية ، إذا لم تكن شاعرة بالروح العربية ؟ هناك عاملان قد يحدثان فى عملهما معا بعض الأثر . فالعامل الأول هو أن يصبح عند كل فريق إدراك أقوى لمدلول القومية ، ولحق الوجود القومى المستقل ، وذلك بسبب أن تلك القوة العظيمة التى ندعوها « القومية » ، والتى جعل منها دعاة الوحدة العالمية هدفا لسهامهم ، تلعب دورا لا غنى عنه فى النظام البشرى العام ، و إنها ليست عبارة عن فورة ذاتية (كما تبادر إلى الذهن لأول وهلة من مبدأ « حق تقرير المصير » الذى دعا إليه ولسن) ، بل هى واجب محسوس ، و إنها تتضمن رسالة تاريخية تتمثل فى مجموعة فريدة من الشرائع والعادات ـ فهى اختبار فى المعيشة يستطيع جميع البشر الإفادة منه . والعامل الثانى ظهور النذر من داخل الأقطار العربية تشير إلى مايجب أن تكون رسالة العرب ـ منها صوت جورج انطونيوس فى كتابه « نهضة العرب » ، أو صوت عالم مصر الضرير طه حسين الذى ، دون أن يسقط من الحساب الأسس الواقعية والاقتصادية التى يقوم عليها المجتمع الحديث ، يرى أن مجد القومية العربية والمبرر السياسى لوجودها يرتكزان على مساهمتها الثقافية الفريدة المنبثقة عن أصولها التاريخية . وعندما يتكلم العالم العربى بحزم وعن وعى ذاتى لرسالته ، فإن هنالك على الأقل أملا فى أن تنفتح بصائر تلك القوى الخارجية التى تعمل الآن عملها فى تقرير مصائر العرب بوساطة المساومات والمشروعات والتنازلات والإيعازات فتدرك أن ليس فى الثروة النفطية العربية أو العراقية ما هو خاص بالعرب ، بل إن هنالك أشياء لها كل الخصائص العربية ، منها توحيد القرآن بين الشرع والدين ، وشعر ابن الفارض ، و « تهافت الفلاسفة » للغزالى ـ أجل ، ومنها كتاب ألف ليلة وليلة ، والأفكار الثابتة أمد الدهر التى جاء بها بعض المجددين وأصحاب البدع كالحسين ابن منصور الحلاج ، الذى صلب فى بغداد عام ٩٢٢ لأنه علم الكفر بقوله : « أنا الحق » ، وذلك خروج على السنة الإسلامية باتجاه أديان التجسد ، ولهذا

الاتجاه مدرسة فكرية خاصة به ومستقبل لا يعرف مداه . إن هدية العرب الثقافية إلى العالم ـ وقد كانت فيما مضى منحصرة فى الوعى الدينى ، والتصوف العميق البعيد الغور ، والينابيع التى لم تنضب قط من مدهشات الشعر الأصيل ـ ستظل تستمد مما هو أزلى فى هذه المصادر نفسها فتخرج الشرائع والدساتير والأنظمة الاجتماعية العربية ، بالإضافة إلى أدب جليل القدر ، ولكن بالقدر الذى تصادفه تلك العبقرية القومية من العرفان والتشجيع ، من الداخل ومن الخارج .

⁂

غير أنه من بين هذه القوى الخارجية ، لا نجد فى الماضى القريب واحدة سوى الولايات المتحدة عرفت روح البلدان العربية وعنيت بها بنوع خاص ، فهل ما يزال فى استطاعة أميركا أن ترى هذه الروح وأن تعمل لخيرها ؟ هذه هى المسألة التى تبرز الآن بكثير من الإلحاح . لقد كنا حتى الآن أصدقاء العرب ، أصدقاء بالجسم والروح ؛ واعتبرونا هم أصدقاء مخلصين ، ورحبوا بمدارسنا العظيمة فى القاهرة و بيروت وغيرهما . وقد أتيح لى أن أزور مدارس القرى ، كمدرسة قب الياس الواقعة على المنحدر الشرقى من جبال لبنان ، وأن أتحدث إلى المعلم والطلاب حديثا وديا لأننى أميركى ، إذ كان سكان الأقطار العربية فى ذلك الحين يعتبرون الأميركان أهل مروءة ونجدة . وما يزال هـذا الاعتبار سائدا حيثما يستطيع بنو قومنا ومؤسساتنا الإعراب عن حقيقتهم ، غير أنه بوجه عام أصبح متزعزعا ، بل إنه فى بقاع واسعة انقلب إلى العكس ، فما هو سبب ذلك ؟ حصل فى نيويورك منذ زمن ليس ببعيد اجتماع سياسى جرى فيـه بحث التقسيم المقترح لفلسطين فسألت صديقا لى كان حاضرا ذلك الاجتماع عن سبب ضعف الدفاع عن قضية العرب فى تلك المناسبة ، أما جوابه فما أزال أذكره بالكثير من الخجل ، إذ قال : « يجب ألا تنسى أن لا ناخبين عربا فى هذه البلاد ! » لا ناخبين عربا ! إذن هل السياسات العامة فى هذه الأمة الموسومة بالديموقراطية تقوم على الرشوة التى يلجأ إليها أصحاب الأصوات الانتخابية والضغط

الضمنى على المرشحين للوظائف العامة ، لا على عدالة القضية نفسها ؟ إذا كان الأمر كذلك فإننا نكون قد فقدنا قدرتنا على مساعدة الشعوب العربية الجديدة فى إيجاد كيان سياسى جديد يتفق مع عبقرية هذه الشعوب .

على أن هنالك ناحية أخرى آمل أن تبقى ماثلة فى الأذهان . وللتدليل عليها أود أن أعيد حديثاً لا أملك عنه سوى رواية شفوية ؟ وهو حديث أومن بصحته فى الأساس : عند ما كان النقاش يدور حول فكرة الانتداب وكان توزيع الانتدابات بوساطة المعاهدات السرية مطروحا على بساط البحث فى فرساى ، أقبل رئيس الجامعة الأميركية فى بيروت الدكتور بلس على الرئيس ولسن وأخبره عن الأثر العميق الذى أحدثته فى جميع أنحاء الشرق الأدنى مناشير الحلفاء التى جاء فيها أن حكومتنا تنوى أن تمنح كل شعب صوتاً ـ لا الصوت الوحيد ، بل صوتاً فى تقرير السلطة التى تحكمه . قال الدكتور بلس : « لست أطلب سوى شىء واحد ، هو أن نبر بهذا الوعد » . ولما رأى الرئيس ولسن أن الدول الثلاث الأخرى من بين الدول الأربع لم تكن عندها أية مقترحات لمعرفة رغبات سكان المناطق المنسلخة عن تركيا ، صرح أن الولايات المتحدة ترى أن شرفها يقضى عليها باتخاذ الخطى اللازمة لمعرفة تلك الرغبات ، حتى ولو اضطرت إلى العمل منفردة . ولذلك عمد دون موافقة زملائه إلى تعيين « لجنة كنغ ـ كراين » التى قامت باجراء تحقيقات محلية عام ١٩٢٠ . ولست أقول إن ذلك كان أقوم السبل (لى بحث بهذا الموضوع فى مكان آخر) [١] ، بل أقتصر على القول إنه كان إعرابا عن حسن نيتنا نحو الشعوب العربية فى الشرق الأدنى ، وإن الروح التى انطوى عليها ذلك العمل لا تزال ، فى اعتقادى ، الباعث الموجه لحكومتنا . وإن كل خروج عن

---

(١) Spirit of World Politics ص ٢٥٤ و ٢٥٥ و ٢٦٠ و ٢٦٧ .

ذلك السبيل يعود إلى الجهل بمجمل الظروف لا إلى فقدان النية الحسنة ، وهذا الجهل مرده فى الدرجة الأولى إلينا كشعب ، ثم إلى حكامنا . أما دواء هذا الجهل فهو التوسع فى نشر أمثال مايحتوى عليه هذا الكتاب .

توجد فى هذا المجال كتب أخرى حديثة ومفيدة ، ولكن لا يوجد ماهو مساو تماما لكتاب الدكتورة عز الدين ، فهى تعرف وجهة النظر الخاصة ، ذات الأهمية المطلقة ، التى للمرأة العربية . إن الأسرة ، من بين جميع المؤسسات البشرية ، هى قلب المجتمع ، وهى فيما يختص بالأسرة العربية أكثرها تعرضا للقوى العلمانية التى جاءت فى ركاب التطورات الحديثة فى كل مكان . والدكتورة عز الدين تعرف أميركا ومعاهدها الثقافية معرفة شخصية ، ولا يكفى القول إنها نالت شهادة الدكتوراه بالفلسفة من جامعة شيكاغو ، بل إنها أول سيدة فى أى قطر عربى نالت هذه الشهادة ، وهى تعرف فى شخصها الحيوية المتجلية الآن فى مادعوته بالروح العربية ، لعجزى عن إيجاد اسم أصلح ، وإن فى هذه الشعلة الحيوية التى لا يمكن تحديدها من القوى الكامنة لخير الأجيال المقبلة ما لا غنى للعالم عنه . وليس قصدها هنا أن تكتب رسالة جامعة يرجع إليها العلماء ، بل إن لها غرضا أسمى ناشئاً عن خبرتها الواسعة بهذا الجمهور القليل الاطلاع ، وهو أن تجمع معا كل ماهو ضرورى ، أولا ليدرك هذا الجمهور كنه الروح العربية فى ماضيها وحاضرها ، وثانيا لفهم القضايا التى تمس الحياة القومية العربية فى حاضرها ومستقبلها .

وسيلاحظ القارىء أن هذا الكتاب كتب بوحى العاطفة كما كتب بروح المسئولية العلمية . وإننى أحثه بنوع خاص على الانتباه إلى عنصر العاطفة هذا الذى لا غنى عنه ، والذى بدونه لا يحيا أى تاريخ ، ولا يمكن لأى كتاب أن يحرك برسالته أحدا . إن العاطفة وحدها هى التى تستطيع أن توصل إلى الغير

الشعلة الحيوية فى حياة العرب ، وإن عاطفة أصحاب الهمم الكبيرة وحدها هى التى تستطيع إحداث التغييرات التى تصنع التاريخ .

فإذا شئت أن تعرف العرب ، فاقرأ هذا السجل لتجد نفسك فى العالم العربى ، عالم الروح الذى يؤمن لك مباشرة الإحساس الشافى بالأزليات التى يفتقر إليها العالم الحديث أكثر مما كان يفتقر إليها حتى عالم العصور الوسطى عندما شعر لأول مرة بقوة العرب .

مادیسن ، نیوهامشیر ٣٠ من مارس ١٩٥٣

الفصل الأول

البيئة

تعتبر البقعة جزءا من التراث العربى إذا كانت العربية لغة التخاطب اليومى بين سكانها . وليس هذا التعريف اعتباطيا ولا من قبيل إلقاء الكلام على عواهنه، وذلك لسبب ثابت تاريخيا هو أنه حيثما كانت اللغة العربية هى السائدة ، فإن القوم الذين يتخاطبون بها يشارك بعضهم بعضا ـ عبر المساحات الشاسعة التى يقطنونها ـ فى ذخيرة من الآراء الشائعة بينهم ، من دينية واجتماعية وفكرية . إنهم يعيشون فى مجتمع تكونت فيه مجموعة مشتركة من العقائد والشعائر والتقاليد والذكريات خلال ألف وثلاثمئة سنة ، هذا إلى أن أكثر هذه الأراضى كانت فى وقت ما من تاريخ العرب تؤلف وحدة سياسية أيضا .

والأقطار العربية تشغل مركزا ذا خطورة بينة فى جغرافية العالم ، فهى تحتل مداخل قارتين عظيمتين : آسيا وأفريقيا ، وقد ظلت حلقة الاتصال بين الشرق والغرب قرونا عدة .

تحد الأقطار العربية من الشرق سلسلة جبال زغروس الفاصلة بين العراق وإيران ، ومن الغرب المحيط الأطلسى وراء ساحل مراكش ، ومن الشمال حدها الطبيعى سلسلة جبال طوروس التى تفصل تركيا عن الهلال الخصيب ومن الجنوب المحيط الهندى وأدغال أفريقيا والصحراء الكبرى .

وتشمل الأقطار العربية فى آسيا : جزيرة العرب والهلال الخصيب الذى يتألف نصفه الشرقى من العراق ونصفه الغربى من سوريا باعتبارها وحدة جغرافية طبيعية تمتد من جبال طوروس فى الشمال إلى صحراء سينا فى الجنوب . وبين قرنى الهلال

الخصيب تقع بادية الشام وهى امتداد للمستطيل الصحراوى وشبه الصحراوى العظيم الواقع إلى الجنوب ، أى الجزيرة العربية نفسها . وفى أفريقيا استوطن العرب وادى النيل مصره وسودانه ، وانتشروا على طول الساحل من مصر إلى مراكش . وأفريقيا الشمالية هى المغرب العربى المؤلف من ليبيا وتونس والجزائر على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ومراكش على ساحل المحيط الأطلسى فى المغرب الأقصى .

إن الأراضى التى تشتمل على مساحات شاسعة كهذه لا بد وأن تحوى ضروبا كثيرة من مختلف أنواع المناخ ، والهيئة ، والتربة ، والغلال ، والموارد الطبيعية . وقد نسجت الطبيعة ضمن نطاق هـذه الأراضى وشيا زاهيا بالألوان والأشكال ، فمنهـا الجبال والأودية ، والصحارى ، والواحات ، وجنة عدن ، والقفر الموحش ، والحقول التى تناولتها الأيدى بالتشذيب والاستثمار ، إلى جانب بقاع لم تخضعها يد الإنسان بعد . على أن الخاصية الكبرى لهذا الوشى الكثير الأشكال ، والصورة التى لا تكاد تختفى إلا لتعود جلية ليس على أطرافه فقط بل متغلغلة حتى إلى قلبه أيضا ، هى صورة الصحراء التى تصل إلى جميع أجزائها .

فيحسن بنا إذن أن نصف باختصار كلا من الأقسام التى يتألف منها هذا المجموع العظيم . ومن المناسب أن نبدأ الوصف بجزيرة العرب ، مهد الشعب العربى.

جزيرة العرب عبارة عن مستطيل كبير مساحتـه مليون وربع المليون من الأميال المربعة . ويحد الجزيرة خليج البصرة وبحر عمان من الشرق ، والمحيط الهنـدى من الجنوب ، والبحر الأحمر من الغرب ، وأما فى الشمال فإنهـا تندمج تدريجيـا فى بادية الشام . والعرب يدعونها الجزيرة العربية لأنهـا ، على حد قول جغرافيي العرب فى القرون الوسطى ، محدودة فى الشمال بالمياه ، أى نهر دجلة ، ومنعطف نهر الفرات ، والبحر الأبيض المتوسط . وهذه الوحدة الكائنة بين جزيرة العرب والهلال الخصيب أمر أقر به قدماء الكتاب قبل ظهور علم الجغرافيـا عند العرب

بقرون عديدة فقد وصف بلينيوس جزيرة العرب بأنها بلاد عظيمة الاتساع لا تقل عظمة عن أية بلاد أخرى فى العالم أجمع ، وقال : إنها تمتد إلى جبل أما نوس وإنها تضم داخل حدودها مدينتى الرها وحران [١] وهـذا التعريف الذى يجعل الهلال الخصيب داخلا ضمن جزيرة العرب نفسها موافق تماما لواقع الجغرافيا الطبيعيـة والبشرية لتلك المنطقة . فمن الناحية الطبيعية ، تعتبر الـكتلة الشمالية جزءا لا يتجزأ من المنطقـة الصحراوية الـكبرى الواقعة إلى الجنوب والتى يحيط بحافتها إطار من الأرض الخصبـة كأنه دخيل عليها . أما القوم الذين استوطنوها منذ أقدم العصور فأغلب الظن أن أصلهم الأكبر يعود إلى الجزيرة ، وعلى مرّ العصور توالت الإمدادات على ذلك الأصل من الرحل النازحين من صحراء الجنوب .

غير أننا سنتكلم عن الجزيرة فى اصطلاحنا هنا باعتبارها وحدة منفصلة عن الهلال الخصيب :

إن جزيرة العرب جزء من الـكتلة الصحراوية التى تخترق قارتى أفريقيا وآسيا . أما البحر الأحمر فى الغرب وخليج البصرة فى الشرق فليسا سوى أخدودين فى المسطح الصحراوى العظيم . والجزيرة هضبة أكثر ارتفاعا فى الغرب ثم تأخذ فى الانحدار انحداراً خفيفا نحو الشرق . وفيها بقاع منخفضة حارة رطبة ـ تهامة ـ محاذية للبحر الأحمر وراءها سلسلة جبلية تمتد ألف ميل فى موازاة الساحل من خليج العقبة عند رأس البحر الأحمر حتى الأراضى الداخلية عند مضيق باب المندب فى مدخل المحيط الهندى . وفى الشمال يبلغ ارتفاع جبال الحجاز نحو ٩٠٠٠ قدم ، والجزء الأوسط من السلسلة فى عسير يرتفع نحو ١٠٠٠٠ قـدم ، وفى اليمن يبلغ ارتفاع أعلى القمم ١٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر .

واليمن ـ وفيها أعلى مرتفعات الجزيرة ـ هضبة منحرفة تشمل مساحات واسعة

---

(١) Pliny Natural History, Bk. V ch. 21; Bk. VI ch. 32

يتراوح ارتفاعها بين ٧٠٠٠ و ١٠٠٠٠ قدم . ومع أن البلاد واقعة فى المنطقة الاستوائية ، إلا أن شتاءها بارد ، وصيفها يلطف من حره الارتفاع الكبير . ويبلغ معدل سقوط المطر فى أكثر مناطقها ٢٠ بوصة وقد يبلغ ضعفى هذا الرقم فى القمم العليا .

إن المنطقة الساحلية قاحلة ، ولكن الهضبة ذات تربة غنية خصبة ، وأجزاؤها المنبسطة الفسيحة وسفوحها ذات التدريج المتقن هى موضع زراعة نشيطة ، ففيها ما عدا الحبوب كالحنطة والشعير والذرة أنواع كثيرة من الخضر والفواكه كالعنب والتين والمشمش والرمان والجوز ، وما زالت زراعة بن مخا الشهير قائمة وإن كانت على نطاق أضيق من ذى قبل . وتربى فيها المواشى ، وجلودها أهم صادرات تلك البلاد . وعاصمة اليمن صنعاء [١] الواقعة فى المنطقة الجبلية ، ومن مدنها الحديدة ومخا وهما ميناءان صغيران على البحر الأحمر .

وقد سبق لليمن فى العصور القديمة والوسطى أن استولت منتوجاتها على أسواق العالم ، وفى العصور القديمة كانت اليمن مركز مدنية بلغت درجة عالية من التقدم ترتكز فى المقام الأول على تجارة مزدهرة . وكانت ثروتها مضرب الأمثال فى العالم اليونانى الرومانى فاكتسبت بذلك اسما تحسد عليه هو « بلاد العرب السعيدة » . ولقد أنفق الرومان مبالغ ضخمة من الذهب فى شراء عطور بلاد العرب وتوابل الشرق وحريره مما كان يصل إليهم عن طريق العرب ، فنرى بلينيوس يندب الكنوز التى كانت تنفق بذلك الإسراف فى اقتناء البضائع العربية إشباعاً لترف الرومان ونسائهم [٢] وأراد الرومان السيطرة على تلك التجارة الرابحة فعزموا على اخضاع اليمن لنير روما ، فوجهوا إليها جيشا من مصر فى أيام أوغسطوس قيصر ،

---

(١) تعز الآن .

(٢) Pliny: Bk. XII ch. 41

غير أنه ما كاد هـذا الجيش يبلغ أطراف اليمن الشمالية حتى فتكت الحمى والحر والعطش ، فعادت فلول تلك الحملة المشئومة تحمل معها ذكريات القفار الموحشة ، ولم يحاول الرومان بعد ذلك فتح بلاد العرب السعيدة .

وتقع عسير فى شمال اليمن وهى أيضا هضبة ، والقسم الأكبر منها يزيد ارتفاعه عن ٥٠٠٠ قدم . وتسقط على أعاليها أمطار معتدلة وتجرى مياه الأمطار فى مجار قصيرة خلال بضعة أشهر من السنة فتنحدر إلى الوديان العميقة . والسفوح العليا مدرجة ومهيأة لزراعة الحبوب والبن والنخيل والموز والكرم ، وتكثر فيها الأعشاب مما يجعلها مرعى طيبا للمواشى .

وإلى الجنوب والشرق من اليمن تقع مستعمرة عدن ومحمياتها . وتشمل المستعمرة ميناء عدن والأراضى الداخلية التابعة لها ، وملحقتين هما ميمون (بريم) وجزائر كوريا موريا عند مدخل البحر الأحمر . أما المحميات فتمتد إلى منطقة ظفار وتشتمل على أراضى نحو عشرين شيخا وأميرا تربطهم ببريطانيا معاهدات .

وضمن المحمية الشرقية تقع حضرموت الغنية بذكرياتها التاريخية . وكانت فى العصور القديمة كاليمن تتجر مع بلدان البحر المتوسط وكانت لها مدنية زاهرة راقية كما تشهد بذلك آثار مدنها القديمة وبقايا شبكات الرى المتقنة . وحضرموت بلاد البخور الثمين ، وهو مادة بلغ من عظيم قيمتها لدى الأقدمين أن كانت تساوى زنتها ذهبا ، وبلغت شهرتها مسامع هيرودوتس المتشوقة ، فذكر بما عرف عنه من الاستمتاع أنواعَ التوابل العربية والطقوس التى كانت تجرى أوان قطافها والأساطير التى حيكت حولها ثم ينهى وصفه بقوله : « أما توابل بلاد العرب فلا حاجة للاسترسال فى الكلام عنها ، فالبلاد كلها تعبق برائحتها فترسل من عبيرها شذى عجيبا »[1]

(١) Herodotus, Bk. III ch.113

والعطور العربيـة داعبت خيال الـكتاب والشعراء منذ أقدم العصور واحتفى بها ملتن بأبيات قال فيها ما معناه : « فى عرض البحر تهب الرياح الشمالية الشرقيـة فتحمل معها عبير سبأ من السواحل العطرة فى بلاد العرب المبـاركة . وتسر كثيرا بهذا العائق فتتبطأ فى سيرها ، ويبسم البحر فراسخ عديدة فرحا بالعبق المشكور »[١] .

وحضرموت منخفض تتخلله الوديان ، وهى جداول تجف فى الصيف . ويعمل الناس هناك على جنى أكبر فائدة ممكنة من التربة الفقيرة والمـاء القليل الميسور فيزرعون الحبوب والخضر والفواكه ، وهنالك أيضاً التبغ وأكثره معد للتصدير ، والعسل من أهم منتجات البلاد ، وثروة البدوى الماشية .

وقد اشتهرت حضرموت بأهلها ذوى النشاط والإقدام الذين دأبوا على المغامرة وعلى المهارة فى المتاجرة ، ومنهم عدد كبير فى الخارج ، فى إفريقيا الشرقية والهند وأندونيسيا ، أما كبرى جواليهم وأوفرها غنى فهى فى جاوه ، ولـكنهم يعودون إلى حضرموت بدافع الحنين إليها ، حتى من كان منهم مولودا فى الخارج . وقد ابتنى المغتربون العائدون مدنا ذات حدائق فى حضرموت ، فيها المساكن والدارات المجهزة بالـكهربا والمعدات الصحية الحديثة والمسابح فى الحدائق[٢] .

وفى شرق حضرموت تقع سلطنة مسقط وعمان التى يمتد ساحلها ألف ميل على المحيط الهندى وخليج عمان . وقد جعل امتداد الساحل هذا من أهل عمان ملاحين بالفطرة كسائر العرب الجنوبيين الذين دعوا باسم «أروام» المحيط الهندى .

وخلف ساحل عمان الضيق جبال تندمج وراءها الهضبة مع الصحراء . ويبلغ

---

(١) Paradise Lost, iv, 159 f.

(٢) Philby, Sheba's Daughters, pp. 176 - 178 ؛ انظر أيضاً مقال هارولد انغرامز بعنوان — Political Development in the Hadra maut فى مجلة International Affairs ، عدد أبريل ١٩٤٥ ، ص ٢٣٦ — ٢٥٢ .

ارتفاع أعلى قمم هذه الجبال نحو عشرة آلاف قدم ، ويسقط عليها الثلج أحياناً وتهطل الأمطار غزيرة نسبيا فى منطقة الجبل الأخضر حيث السفوح مدرّجة ومزروعة . وغلتها الرئيسية التمر وهو يعتبر مع السمك المجفف أهم صادرات تلك البلاد .

وميناء مسقط التى تكتنفها الجبال من أشد بقاع العالم حرارة ، على أن شدة الحرارة والرطوبة من مميزات جميع السواحل المحيطة بالجزيرة العربية .

وبين عمان ورأس خليج البصرة إقليم ساحلى منبسط متموج ذو تلال قليلة الارتفاع . ومن الجنوب إلى الشمال يقع الساحل المهادن وشبه جزيرة قطر ـ وهما عبارة عن مجموعة من المشيخات تربطها ببريطانيا معاهدات هدنة دائمة ـ والأحساء وهى مقاطعة تابعة للملكة العربية السعودية . أما الكويت الواقعة فى الطرف الشمالى الشرقى من الجزيرة العربية فتكاد تكون كلها صحراء . وفى الكويت والأحساء آبار النفط التى تقدر بأنها أغنى منابع العالم . وقد اكتشف النفط أيضاً فى قطر وجزر البحرين وتحت البحر تجاه الساحل الغربى من خليج البصرة . وكانت مصائد اللؤلؤ قبل عهد النفط أهم مصادر الدخل فى الكويت والبحرين ولا تزال إلى يومنا هذا تزود أسواق العالم بأجود اللآلىء .

وإذا غادرنا المقاطعات الساحلية وصلنا إلى نجد وهى هضبة وسط الجزيرة العربية تكتنفها الصحارى من كل جانب وأشد هذه الصحارى رهبة الربع الخالى ، وهو الصحراء العظيمة فى الجنوب الممتدة إلى حضرموت . ونَجْدٌ نفسها تتمتع بجو صحى جاف منشط وهى تمتاز بسلالتين : رجال القبائل الذين عرفوا ببسالتهم ، والجود العربى الأصيل . وفى العصر الحديث قامت فى نجد الوهابية وهى حركة تجديد فى الدين . ونجدٌ موطن عبد العزيز بن سعود ، الملك العظيم الذى توصل إلى إقرار السلم والوحدة بين القبائل وصهر فى بوتقة واحدة القسم الأكبر من الجزيرة العربية وجعل قلبه نجداً .

وأخيرا نلتفت إلى الحجاز ، وهو من ناحية أكثر هذه الأقطار أهمية ، فهو مع جدبه وفقره موضع تكريم العرب داخل الجزيرة وخارجها و ٤٠٠ مليون من المسلمين أنى وجدوا ، ذلك لأن الحجاز مهد الإسلام وفيه الحرمان الشريفان : مكة والمدينة . و إلى مكة تتجه يوميا أنظار عشرات الملايين من المسلمين بالصلاة والتعبد. والحجاز مستودع الذكريات الأولى للأمة العربية ، أيام ظهرت تلك الأمة من ظلمات الجاهلية و بلغت وحدتها واستولى عليها شعورها برسالة عظيمة تعلن بها للملأ بشرى التآخى بين الناس واحترام كرامة الإنسان . فكان من المناسب ، إذن ، أن تكون الإشارة التى أعطيت لتحرير العرب فى العصر الحديث قد صدرت عن الحجاز ؛ إذ أن الرصاصة الأولى التى أطلقتها الثورة العربية على الأتراك انطلقت من مكة فى شهر يونيو عام ١٩١٦ . والحجاز اليوم جزء من المملكة العربية السعودية .

والقسم الأكبر من الجزيرة العربية قفر ، والحضر من السكان متمركزون على السواحل فى مواقع تجتذب إليهم السحب التى تروى أرضهم العطشى فتحييها . هذا إلى أن وقوعها بالقرب من البحر أتاح لسكانها فرصة الاتجار مع العالم الخارجى . وفيما عدا الواحات المتناثرة فإن داخل الجزيرة مرتع فسيح للبدو ومرعى لأغنامهم .

وأهم غلال الأراضى المزروعة التمر ، وأشجار النخيل تغطى تسعين فى المئة من الأراضى المزروعة ، والتمر هو الغذاء الرئيسى فى جميع أنحاء الجزيرة . أما الأماكن المحظوظة كجبال اليمن والطائف فى جبال الحجاز فتنجح فيها زراعة فواكه المنطقة المعتدلة التى تنتج ثمارا طيبة وفيرة ، مما يجعل تباينا بارزا بينها و بين القفر المحيط بها .

والعراق ، وهو النصف الشرقى من الهلال الخصيب ، تبلغ مساحته ١٧٥٠٠٠ ميل مربع . وهى بلاد النهرين التوأمين : دجلة والفرات ، والنهران يخترقان العراق من أقصى الشمال إلى الجنوب و يسير كل منهما فى مجرى مستقل حتى نحو مئة ميل من خليج البصرة حيث يلتقيان عند القرنة ويكونان نهرا واحداً واسعا صالحا للملاحة

هو شط العرب . هنا ، فى مكان ما بالقرب من ملتقى النهرين ، على ما روته الأساطير ، موقع جنة عدن حيث سقط الإنسان و بدأ سيره فى طريق طويل حافل بالكد والألم ، نرجو أن يؤدى ، لا إلى هلاكه وعودته إلى الذرات التى خلق منها ، بل إلى بلوغ حياة أفضل مما عرفنا حتى الآن .

ينقسم العراق إلى منطقتين مناخيتين وطو بوغرافيتين ؛ فالقسم الشمالى جبلى فى الشرق ، جوه بارد شتاء ولطيف صيفا وتسقط عليه أمطار غزيرة . وجبال كردستان مغطاة فى بعض أقسامها ببقايا الغابات ، وفيها تزرع أنواع مختلفة من الأشجار المثمرة زراعة واسعة . وإذا ما تتبعنا الأرض جنو با وجدناها تميل إلى مرتفعات وتلال وتنقص كمية المطر نقصانا كبيرا . وفى السفوح مراعى الأغنام والماعز،ومن أهم صادرات العراق الماشية والصوف والجلود .

والمنطقة الثانية سهل يحتل نحو ثلثى مساحة العراق ، وهو منبسط ومرتفع قليلا عن مستوى سطح البحر ، حار جاف ، و يعتمد اعتمادا كليا على الرى من النهرين ، وفيه يزرع القمح والشعير والأرز ، و يزرع فيه القطن بمقدار أقل ، وأهم صادراته التمر ، وأر بعة أخماس التمر الصادر إلى أسواق العالم يأتى من العراق ، فمن بغداد إلى خليج البصرة ، تحف بجانبى كل من دجلة والفرات أشجار النخيل الباسقة المهيبة . وقد اشتهرت البصرة فى أنحاء العالم بثمرها وهى مدينة جميلة وسط خمائل النخيل يخترقها عدد لا يحصى من أقنية الرى التى تشكل فيها شبكة مائية كبيرة . وهذه الخمائل توقظ فى النفس ذكريات الرخاء والنعيم وكانت ر بوعها مسرحا للكثير من المغامرات المقصوصة فى « ألف ليلة وليلة » .

وفى العراق حقول نفط غنية ، فالحقل الشمالى فى كركوك ينتج النفط منذ عام ١٩٣٤ وقد ا كتشف حديثا حقل آخر فى جوار البصرة .

أما النصف الغر بى من الهلال الخصيب فقد ظل قرونا عديدة يعرف باسم سوريا ،

إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى فزالت وحدته ، غير أننا فى وصفنا البيئة الطبيعية لتلك المنطقة ، نرى من الأفضل أن نعالجها كوحدة غير متجزئة .

من خليج الإسكندرونة إلى سينا يمتد سهل ساحلى فى محاذاة الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وهذا السهل ضيق فى الشمال والوسط ، وتعترضه على أبعاد متفاوتة تلال ترتفع فجأة من البحر ، ثم يأخذ فى الاتساع كلما تقدمنا نحو الجنوب إلى أن يبلغ اتساعه حده الأقصى وهو ٢٠ ميلا فى منطقة غزة .

وعلى موازاة الساحل تمتد سلسلة من الجبال ، القسم الشمالى منها يدعى جبال النصيرية ؟ ووسطها جبال لبنان ، ويفصل بينهما سهل عكار الذى يخترقه « النهر الكبير » المدعو قديماً « الوثيروس » . وأعلى مافى هذه السلسلة لبنان الذى ينتهى بقمة يزيد ارتفاعها عن ١١٠٠٠ قدم ، وهو ينحدر نحو الجنوب وينتهى دون فاصل إلى هضبة الجليل . ويفصل مرج ابن عامر الجليل عن هضبة اليهودية التى تندمج فى النقب ، وهى أيضاً هضبة يقل ارتفاعها قليلا عن اليهودية .

ووراء هـذه السلسلة وادٍ هو عبارة عن خندق جيولوجى عظيم يمتد من تركيا إلى خليج العقبة ، ويعرف فى شمال سوريا باسم « الغاب » ويجرى فيه القسم الأوسط من نهر العاصى ، ووسط هذا الخندق يضم وادى البقاع بين سلسلتى جبال لبنان ولبنان الشرقى . والبقاع هضبة أعلى ارتفاعها عن سطح البحر ٣٠٠٠ قدم عند بعلبك ، والجبال الواقعة شرقى البقاع وغربيه ترتفع ٥٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ قدم عن مستوى بعلبك ، وهى مغطاة بالثلوج فى أكثر أيام السنة . ويستمر الخندق جنوبا حتى يبلغ أقصى انخفاضه فى حوض الأردن ، وهو أعمق منخفض برى فى العـالم . وبين بحيرة طبرية والبحر الميت توجد البقعة المسماة بالغور وهى كلها تحت مستوى سطح البحر . وتبلغ أعمق نقطة فيهـا ١٣٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحر ، عند ساحل البحر الميت .

و إلى الجهة الشرقية من الخندق ترتفع جبال أعلاها جبال لبنان الشرقية وجبل الشيخ ، يفصل بينهما مضيق يجرى فيه نهر بردى . وارتفاع جبل الشيخ يزيد عن ٩٠٠٠ قدم وتغمره الثلوج أكثر أيام السنة ، وهذا هو سبب تسميته بهذا الاسم .

و بين جبال لبنان الشرقية والصحراء هضبة متموجة تنحدر تدريجيا فى الشمال حتى تبلغ حوض الفرات ، وفى وسطها غوطة دمشق الخصبة التى يرويها نهر بردى وهى متاخمة للصحراء . و إلى الجنوب من دمشق هضبة حوران التى ترتفع حتى تلال جبل الدروز . أما هضبة شرق الأردن فتنحدر شرقا وجنوبا حتى تندمج فى بادية الشام .

و يخترق هذه الجبال عدد من الأنهار والمجارى الصغيرة التى تنحدر من التلال وتجرى فى السهول ، وتأخذ أنهر العاصى والليطانى والأردن معظم مجراها فى وادى الخندق . وفيما عدا نهر الفرات الذى يجرى فى سوريا مسافة ٤٢٠ ميلا ، فإن نهر العاصى أكبر أنهار المنطقة ، وهو ينبع من السفح الشرقى من جبال لبنان و يجرى شمالا مخترقا سهول حمص وحماه ثم ينثنى نحو الغرب فيجرى مسرعا فى المضيق الكائن بين جبال أمانوس النصيرية إلى أن يصب فى البحر الأبيض المتوسط على بعد بضعة أميال غرب أنطاكية .

والليطانى منبعه قريب من منبع نهر العاصى . وهو يجرى جنوبا جاذبا إليه مافى البقاع من جداول ثم ينثنى انثناء حادا نحو الغرب فيخترق الجبال فى واد سحيق إلى أن يبلغ البحر الأبيض المتوسط بالقرب من صور .

والأردن ، وأهم روافده اليرموك ، هو المصدر الرئيسى لتموين فلسطين وشرق الأردن بالمياه .

و بالنظر إلى اختلاف طوبوغرافية المنطقة فإن مناخها أيضا يختلف اختلافا كثيراً ، ولذا ففى معظم أنحائها تظهر فصول السنة واضحة جلية ، إذ تسقط الأمطار بين

سبتمبر ومايو ، وهى غزيرة عند الساحل وعلى الجبال الغربية ثم تتناقص سريعا من الغرب إلى الشرق و بأقل سرعة من الشمال إلى الجنوب .

ويبلغ متوسط مايسقط من المطر على ساحل لبنان ٣٦ بوصة وهو ضعف ما يسقط فى الداخل ، وعلى الساحل الفلسطينى يبلغ المتوسط ٢٣ بوصة وهو على الجبال أقل قليلا مما هو على الساحل المجاور .

وفى الأحواض تكون الأمطار معتدلة فى بعض الجهات وقليلة فى الجهات الأخرى ولا سيما فى وادى الأردن . أما فى جبال لبنان الشرقية فالأمطار كافية إلا أنها تتناقص فى الهضبة الداخلية حتى تبلغ المناطق شبه الصحراوية حيث المتوسط السنوى ١٠ بوصات أو أقل .

والطقس فى الساحل لا يختلف عما هو عليه فى أى جزء آخر من حوض البحر الأبيض المتوسط ، فالشتاء معتدل ممطر والصيف خال من الأمطار حار رطب . وفى الجبال نجد الشتاء بارداً والصيف لطيفاً منعشا . أما فى الداخل فالمناخ من النوع القارىّ ، شتاؤه بارد وصيفه حار ، مع فرق كبير فى الحرارة بين الليل والنهار . و بالرغم من ارتفاع درجة الحرارة فى المناطق الداخلية ، فإن الصيف فيها أخف وطأة منه على الساحل لأن هواء الليل فيه لطيف بارد .

وهذا التنوع فى المناخ وشدة التباين فى الارتفاعات جعل فى المنطقة تنوعا كبيراً فى الحياة النباتية ، ففى منخفض الأردن نباتات المناطق الحارة، وفى أعالى الجبال نباتات الأجواء الباردة ، وفى الساحل تكثر زراعة الحمضيات والموز ، ومنحدرات الجبال والتلال مدرجة تدريجا متقنا ومزروعة بالخضر وأشجار الفاكهة . وتزرع السهول الداخلية باستثناء بعض الأماكن المحولة إلى بساتين ، بالحبوب على نطاق واسع ، وهنالك زراعة الزيتون المنتشرة انتشارا واسعا ، إذ تنمو أشجار الزيتون على سفوح الجبال وفى المنطقة الساحلية والسهول الداخلية كلها من جبال نابلس حتى منخفضات

أعالى نهر العاصى . وبالنظر إلى نقص الدهن الحيوانى بوجه عام فإن الزيتون وزيته من أهم مصادر الغذاء . وشجرة الزيتون تعتبر عند العرب شجرة مباركة ، وقد دعيت كذلك فى آية من أروع آيات القرآن الكريم (١) .

وكانت سفوح الجبال فى العصور القديمة مكتسية بالغابات حتى البحر ، وقد ذهبت هذه كلها إلا بقايا صغيرة ، وفيها بعض أنواع السنديان والصنوبر والعرعر والأرز .

وبادية الشام غنية بأنواع النبات ، إذ دلت الأبحاث التى لم تستكمل بعد على أن فيها ما لا يقل عن ألفى نوع من النباتات ذوات البذور (٢) .

أما الموارد المعدنية فضئيلة فى هذه المنطقة ، إذ لم يعثر فيها على أى معدن بكميات تجارية ، ما عدا المحاليل الكيموية فى البحر الميت . ومن المعتقد أن طوبوغرافية الجزيرة فى القسم الشمالى الشرقى من سوريا ملائمة لوجود النفط . ولكن لم يعثر على شىء منه حتى الآن (٣) .

ومصر تبلغ مساحتها ٣٨٦٠٠٠ ميل مربع ، ولا يصلح للزراعة سوى جزء لا يتعدى ٣½ فى المئة منها . وتنحصر الأراضى القابلة للزراعة فى شقة ضيقة على جانبى النيل وفى الدلتا وواحة الفيوم . وعلى بعد مئة ميل من البحر يتسع وادى النيل فيشكل الدلتا . وفيما عدا ذلك نجد المنطقة الخصبة مكتنفة بالصخور المرتفعة فتضيق

---

(١) « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » — النور ٣٥ .

(٢) E. B. Worthington : « Middle East Science », London 1946, p. 87

(٣) إن هذا الوصف لسوريا مأخوذ فى أكثره عن كتاب

BW. . Fisher : The Middle East — A Physical, Social and Regional Geography, 1950

كثيرا . ولا يزيد أقصى اتساع الوادى عن الثلاثين ميلا ، وفى بعض النقاط لا يتعدى عرضه الميلين . ووراءه من كلا الجانبين صحراء قاحلة ليس فيها سوى بعض الواحات المتباعدة . ولا يكاد يعرف المطر فى جنوب مصر ، أما فى الشمال فهو نادر . وكل الاعتماد فى الرى على نهر النيل الذى يفيض على جانبيه فى شهرى أغسطس وسبتمبر فيغمر الأراضى حاملا إليها طبقة من الغرين الثمين تأتى بها مياه الفيضان .

إن الأراضى المروية مستثمرة زراعيا إلى أبعد حد ، وأهم منتجاتها القطن الذى يؤلف مع مشتقاته ٨٠ فى المئة من صادرات البلاد . وأكثر أنواع القطن المصرى أجود مما يزرع منه فى أية بقعة أخرى من بقاع العالم . وهنالك منتجات أخرى ذات أهمية كالحبوب والأرز وقصب السكر . وقد انتشرت زراعة الفاكهة والخضر فى السنوات الأخيرة انتشارا كبيرا .

وما زالت ثروة مصر المعدنية فى أولى مراحل نموها ، وقد أنتجت حقول النفط حتى الآن ما يكفى لسد حاجات مصر . ويوجد نوع من الحديد الجيد بالقرب من أسوان فى مصر العليا ، وفى منطقة البحر الأحمر مناجم الفوسفات والمنغنيز والنحاس .

وإلى الجنوب من مصر يقع السودان وهو إقليم متسع الرقعة تبلغ مساحته مليون ميل مربع . وتختلف الأحوال الطبيعية فى السودان اختلافا كبيرا ، ففى الشمال صحراء لا مطر فيها تمتد على جانبى المنطقة الخصبة فى وادى النيل ، وإذا اتجهنا جنوبا وجدنا الصحراء قد تحولت إلى أرض شبه صحراوية فيها الأعشاب الصالحة للمرعى . وأواسط السودان منطقة نصف حارة تكثر فيها الأمطار ويكثف النبات ، فيها تزرع الذرة البيضاء والصفراء وتخصب المراعى ، وفيها الغابات الكبيرة التى تمد أسواق العالم بالصمغ العربى . ويقع جنوب السودان فى المنطقة الحارة حيث الأمطار الغزيرة قد حولت الكثير من الأراضى إلى مستنقعات وغابات .

وتسقط الأمطار فى جميع أنحاء السودان فى فصل الصيف ، فيبلغ معدل سقوط المطر فى الجنوب ٦٠ بوصة فى السنة ، ويعقب الأمطار فصل طويل من الجفاف يعم جميع أنحاء القطر .

وأهم حاصلات السودان القطن ويزرع فى الغالب فى الجزيرة وهى مثلث بين النيل الأزرق والنيل الأبيض . ومن الحاصلات الأخرى الموز والتابيوكا والحبوب والفول السودانى والسمسم .

وتمتد صحراء مصر الغربية إلى هضبة ليبيا وهى بلاد تكاد تكون كلها صحراوية ما عدا بعض أجزاء السهل الساحلى وعدد قليل من الواحات المتناثرة .

إن منطقتى ليبيا : طرابلس و برقة ، متشابهتان فى الطوبوغرافية والمناخ ، والسهل الساحلى يتسع فى طرابلس ، وإلى الجنوب من الساحل سلسلة تلال تدعى « الجبل » تنحدر الهضبة وراءها تدريجيا حتى تندمج فى الصحراء .

والأمطار فى هذه المنطقة قليلة غير منتظمة ، ومما يزيد فى جفافها هبوب «القبلى» وهى رياح جنوبية حارة تهب فى الربيع والصيف .

وفى المنطقة الساحلية تكثر أشجار النخيل ، تتخللها مزارع الخضر والحبوب أما فى برقة فالسهل مزروع زراعة واسعة بالشعير وفيه بعض البساتين ، وفى الواحات توجد أشجار النخيل وغيرها من شجر الفاكهة .

إن بعض أقسام المنحدرات الشمالية فى الجبل مشجرة تشجيراً حسنا ، غير أن النباتات شبه الصحراوية هى الغالبة على طرابلس و برقة كليهما ، ففى طرابلس تقوم تربية المواشى على نظام نصف حضرى ، وفى برقة يغلب نظام المرعى وتقوم ثروة البلاد فى الدرجة الأولى على الحاصلات الحيوانية .

وتتشابه تونس والجزائر كثيرا فى المناخ والطوبوغرافية والموارد . وتونس أصغر

رقعة من الجزائر بكثير ، إذ أن مساحتها ٤٨٠٠٠ ميل مربع فى حين أن مساحة الجزائر تبلغ ٨٤٧٥٠٠ ميل مربع ، غير أن معظم أراضى الجزائر واقعة داخل الصحراء الكبرى . وفى كلا القطرين مناطق ساحلية خصبة تكثر فيها أنواع الفاكهة والخضر ، وهنالك سهول فسيحة تزرع شعيرا وحنطة . وتمتاز أرياف الجزائر بحقول الكرم والتبغ ، وفى تونس تسود زراعة الزيتون ، ففيها نحو عشرين مليون شجرة زيتون منتشرة فى السهول وعلى سفوح التلال فى جميع أنحاء القطر ، وفى الواحات ملايين من أشجار النخيل .

وتكسو الجبال غابات السنديان والصنوبر وشجر الفلين . والفلين أهم الحاصلات الحرجية . وهنالك مساحات واسعة من البردى تمتد آلاف الأميال ، والبردى صادر كبير القيمة وهو يستعمل فى صناعة الورق الجيد .

وتربية المواشى عامة فى تلك الأنحاء ، إذ تجد الملايين من الأغنام سائمة على سفوح التلال وحتى داخل الصحراء ، ومن أهم الصادرات اللحوم والصوف والجلود .

وفى المنطقة بعض الثروة المعدنية ، وأهمها الفوسفات ، ويأتى ثلث فوسفات العالم من تونس والجزائر ومراكش ، وفيها معادن أخرى كالحديد والرصاص والزنك والنحاس والزئبق والمنغنيز والفضة والإثمد .

عند مراكش تبلغ الحدود الغربية للأراضى العربية ، ومراكش مطلة على البحر الأبيض المتوسط وعلى المحيط الأطلسى ، ومساحتها ٢٢٠٠٠٠ ميل مربع من السهول البحرية والجبال والقفار ، والسكان يتمركزون فى السهول الخصبة ، ومهنتهم الأولى الزراعة فينتجون الحبوب والخضر والفاكهة ، أما الأشجار فأكثرها الكرم والزيتون واللوز ، وفى مراكش تكثر أشجار النخيل ، شأنها فى ذلك شأن سائر أفريقيا .

وترتفع من السهل تدريجيا جبال الريف ، ومن ورائها ترتفع فجأة جبال الأطلس . وترى ملايين الأفدنة مكسوة بالغابات ونبات الحلفاء .

وفى المناطق الجبلية الفسيحة مرعى لملايين الأغنام والماعز ، وقد اشتهرت مراكش بجودة جلود أغنامها وصوفها ، وهى غنية بمواردها المعدنية ، فمناجم الفحم فيها كثيرة وفحمها جيد ، وتحتل مراكش المرتبة الرابعة فى العالم فى إنتاج الفوسفات ، وهى من البلدان القليلة التى تنتج الكوبالت . ويكثر فيها المنغنيز ، وأقل منه الرصاص والزنك والحديد . وتنتج مراكش أيضا شيئا من الذهب والفضة ، وفيها أيضا النفط بمقادير قليلة ولكنه من النوع الجيد .

هذه لمحة عن البيئة الطبيعية التى يعيش فيها العرب .

فى البلدان التى وصفناها يعيش نحو سبعين مليونا من الناس ، وأكبر مجموعة منهم تسكن مصر حيث يزدحم عشرون مليونا [١] فى الرقعة الضيقة المحاذية للنيل ، مما جعل مصر من أكثر دول العالم كثافة فى السكان . ويقدر عدد السكان بثمانية ملايين فى السودان ونحو عشرين مليونا فى أفريقيا الشمالية . أما عدد سكان الجزيرة العربية فلا يعرف بالضبط ، ولكن هنالك تقديرات عريضة تقول إن فى المملكة العربية السعودية نحو ثلاثة ملايين وثلاثة أو أربعة ملايين فى اليمن وفى مستعمرة عدن والمحميات نحو ٧٥٠٠٠٠ ، وفى سلطنة مسقط وعمان ٥٠٠٠٠٠ ، وفى الساحل المهادن ١٠٠٠٠٠ وفى الكويت ١٥٠٠٠٠ وفى البحرين ١١٠٠٠٠ . وفى الهلال الخصيب خمسة ملايين فى العراق [٢] وخمسة ملايين أيضا فى سوريا ولبنان ونحو مليون ونصف فى فلسطين وشرق الأردن .

إن لفظة « العرب » لا ترمز إلى فكرة عنصرية ، بل إلى وحدة ثقافية ، فالذين

---

(١) ١٩٠٨٧٨٥٧ حسب إحصاء ١٩٤٧ ، والعدد يقارب ٢٣ مليونا حسب التقديرات الأخيرة .
(٢) ٤٧٩٩٥٠٠ حسب إحصاء ١٩٤٧

ندعوهم اليوم بالعرب منحدرون من أصول عِرقية عدة يغلب عليها اثنان هما العِرق السامى فى آسيا الغربية والعرق الحامى فى أفريقيا الشمالية وكلاهما فرعان من عنصر البحر المتوسط . وفى رأى بعض الثقات أن الجزيرة العربية هى الموطن الأصلى للساميين . وقد حدث فى فترات متقطعة من التاريخ أن ضاقت أرض الجزيرة بسكانها المتكاثرين فأخذت موجات منهم تزحف من ذلك الخضم المقفر إلى أراضى الهلال الخصيب . وكان من أمر هذه الموجات المتتابعة أن جاءت بالأكاديين الذين دعوا فيما بعد بالبابليين ، إلى مابين النهرين ، والعموريين إلى سهول سوريا الشمالية ، و بالفينيقيين والكنعانيين إلى الساحل السورى ، و بالآراميين إلى أواسط سوريا ، و بالعبرانيين إلى تلال فلسطين ، و بالأنباط إلى البطراء ، وبعدد كبير من القبائل إلى شرق الأردن وجنوب البحر الميت ، منهم المؤابيون والعمونيون والأدوميون الذين عرفوا على الأخص من أخبار حروبهم مع بنى إسرائيل . ولكن حتى الموجة الأولى من الساميين ، التى جاءت فى الألف الرابع قبل الميلاد ، وجدت الأرض مأهولة بأقوام ينتمون إلى أصول عرقية مختلفة ، فكان السومريون فى بلاد ما بين النهرين ، وشعب آخر شبيه بالأرمن يسكن فى تلال سوريا . وجاءت بعد ذلك سلالات أخرى ، منها عنصر يمت بأصله إلى شعوب أوروبا الشمالية ، استوطن شمال سوريا وأقام فيها مملكة الميتانيين القديمة التى ازدهرت حوالى ١٥٠٠ قبل الميلاد ، وقد حاول البعض نسبة الأكراد إلى هؤلاء ، ومنها موجة من شعب بحرى غربى جاء من جوار بحر ايجه واستوطن الساحل الكنعانى خلال القرن الثانى عشر قبل الميلاد. هؤلاء هم الفلسطينيون الذين دعيت فلسطين باسمهم [١] .

وكان فى أفريقيا أيضا ساميون ، إذ ارتحل عدد منهم إلى مصر قبل أيام الأسر الفرعونية على أن العنصر الحامى يغلب هناك ، حيث اختلطت به بعض العناصر

---

(١) Olmstead : History of Palestine and Syria, PP. 131, 257

الزنجية . وفى شمال أفريقيا اختلط الأصل الحامى بجنس أشقر قدم فى الألف الثانى قبل الميلاد ، تميز أفراده بطول القامة واستطالة الرأس و بياض البشرة ، وهم يشبهون سكان أوروبا الشمالية الغربية (١) .

هـذه هى البيئة التى توطن فيها العرب فى القرن السابع للميلاد ، وهم آخر موجة سامية خرجت من الجزيرة . وقبل ذلك بقرون عدة كانت بعض القبائل العربية قد نزحت إلى الهلال الخصيب وتوطنت فيه ، وازدهرت فى سوريا والعراق ممالك عربية كالبطراء، وتدمر، والحيرة، وغسان ، غير أنه من ٦٣٠ إلى ٧٠٠ بعد الميلاد بزغ عهد جديد فيه انتظمت هذه الأقطار المتعددة وشعوبها وحضاراتهـا فى المجتمع العربى الـكبير . وكما اختفت الفوارق العنصرية فى مجتمع أنـكر كل تفريق مبنى على أساس العنصر ، كذلك انصهرت جميع الحضارات المختلفة فى بوتقة واحدة فنتجت عنها حضارة جديدة شديدة الفعالية ، وكان الطابع الغالب عليها ناشئا عن سماحة الإسلام وشمول دعوته .

---

(١) Carleton Coon, The Races of Europe, pp. 474—489; Toynbee, Survey of International Relations in the Islamic World, 1925, p. 92, n. 2

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

الفصل الثانى

التراث الثقافى

التراث العربى تتصل جذوره بنظامين متباينين من نظم المعيشة : التقاليد الصحراوية ، وحضارة مجتمع ثابت قديم قدم تاريخ الإنسان نفسه . فمن الصحراء أخذ العربى مجموعة من الصفات ذات قيمة إنسانية عظيمة : حبه للحرية وشعوره بالمساواة ، واعتماده الوثيق على نفسه فى مواجهة مصاعب حياته اليومية .

والحياة فى الصحراء لا تتعدى حد الكفاف . فالطعام المعتاد للبدوى قصعة من اللبن وحفنة من التمر ، وإذا أصاب لحم الإبل يوما فتلك وليمة ، أما الحنطة وغيرها من الحبوب فمن الكماليات النادرة ، والماء قليل إلى درجة أنهم يدعون المطر رحمة الله .

وبيت البدوى خيمة من الشعر ، ومتاعه لا يكاد يبلغ حمل بعير . وهو دائما فى ترحال يبحث عن المرعى لأغنامه وعن آبار الماء القليلة المتباعدة .

وقد بلغ من قسوة البيئة الطبيعية أن قطعت دابر الضعفاء ، فالضعيف لا حياة له فى محيط كهذا . أما الباقون منهم فلهم طابعهم المميز ، فهم نحفاء الأجسام أقوياء العضلات ، وملامحهم المتناسقة بارزة فى وجه كوجه الصقر . وهم شديدو الفطنة ، أبدا على حذر ، وقد شحذت مصاعب الحياة مواهبهم فهم ذوو صلابة وجلد بالغين ، مزاجهم كالفولاذ مرونة وقوة .

ولما كان الثراء غير معروف لديهم ، انعدمت بينهم الفوارق الطبقية ،

فنتج عن هـذا الشعور بالمساواة احترام النفس الذى بدوره حبا عرب الصحراء تلك المهابة وذلك الاتزان اللذين شد ما أعجب بهما من اتصل بهم من الأغراب . وما السهولة والرقة اللتان بهما يستقبل العربى من يراهم لأول مرة ويخاطب الناس أيا كان مقامهم سوى المظهر الطبيعى لثقته بنفسه وشعوره بأن الناس جميعا متساوون .

والقانون العشائرى شرعة شرف أكثر منـه مجموعة أحكام ، وفى مقدمة الفضائل التى يوليها مقام الكرامة ، الشجاعة والوفاء ، والكرم إلى حد اقتسام آخر ما يملك ، والثأر لمظلمة وقعت ، وحماية الضعفاء وغوث الملهوفين حتى من كان منهم عدو الأمس ، أو قد يكون عدو الغد .

وتنحصر السلطة فى شيوخ العشيرة الذين ينتخبون رئيسا لهم من الأسرة الأشد نفوذا ، وبذلك يجمعون بين مبدأى الانتخاب والوراثة . ويشترك جميع رجال العشيرة فى المداولات واتخاذ القرارات الهامة فى مجلس العشيرة لا فرق بين رفيع ووضيع ، ولكل أن يعرب عن رأيه بحرية .

والزعامة عمل شاق يتطلب مجموعة نادرة من المزايا ، ففى الزعيم أو السيد يجب أن تتجسد فضائل قومه ومثلهم العليا بأكمل صورها ، وعليـه فى القتال أن يكون فى المقدمة ، مجازفا بحيـاته ليذود عنهم ، وفى السلم عليـه أن يكون رهن إشارتهم ليصرّف شئونهم بالحكمة والعدل . وبيته مفتوح أبدا وسماطه ممدود لكل من شاء مشاركته فى طعامه . وعليه أن يكون رقيبا على نفسه فلا يبدو منه ما يدل على تفوقه بل يعامل قومه جميعا على قدم المساواة ويظهر الإيناس والاحترام لكبيرهم وصغيرهم . وهم إلى ذلك يذكرونه على الدوام بأنهم هم الذين رفعوه إلى سدة الزعامة وبوأوه مقام السيادة ، وأنهم مصدر سلطته ومرجعها الأخير . وقد لخصوا هذه الفلسفة بالمثل السائر : سيد القوم خادمهم .

إن سلطتـه عليهم ترتكز على القوة المعنوية ، وهو يمارسها ، لا بالتدابير

القسرية ، بل بالاقناع . ومن هنا برزت الأهمية التقليدية لموهبة الكلام والقدرة فى التأثير على نفوس السامعين و إقناعهم . وقد أتاحت مجالس العشيرة والاجتماعات بين القبائل فى الأسواق الموسمية فرصا كثيرة لإظهار البلاغة ، فكانت كل قبيلة تفاخر القبائل الأخرى بعدد خطبائها وشعرائها وتفوقهم على سواهم . وكانوا يعتبرون أكثر القبائل حظا تلك التى أخرجت أفضل الخطباء والشعراء ، وهم لسان الرأى العام فى الصحراء ،يتغنون بمدح قبيلتهم ،و يدافعون عن حقوقها ، ويهجون أعداءها، ويذيعون شهرتها حيث سارت الركبان .

وكانوا يفضلون الشعر على النثر ؛ إذ كان العرب يطربون لوقع أوزانه ورنة قوافيه ، وفوق ذلك فهو ألصق بالذاكرة من النثر ، وذلك من الاعتبارات الهامة فى مجتمع لا يكاد يعرف الكتابة فأصبح الشعر مستودع الحكمة الموروثة ، وواسطة تداول التجارب المتراكمة لدى الجماعة ، حتى إنهم دعوه « ديوان العرب » . وكان الشعر أيضا مدرسة الفضائل عندهم ، به استقامت أخلاقهم وانغرست فيهم المزايا التى كانوا يحترمونها (١) .

بالإضافه إلى الثقافة البدوية ، نمت فى الجزيرة العربية مدنية متحضرة قبل الإسلام بمئات السنين ، وكان مقر هذه المدنية الركن الجنوبى من الجزيرة حيث ازدهرت مدة ألفى سنة من حوالى ١٥٠٠ ق . م . إلى ٥٠٠ ب . م . وكانت تضارع المدنيات المعاصرة القائمة فى حوض البحر الأبيض المتوسط وفى حوض دجلة والفرات . و يظهر من الآثار الكتابية التى لم يكتمل توضيحها بعد أن « المعنيين » وضعوا أسس الحياة المتحضرة فى تلك المنطقة ، ثم تلاهم السبئيون والحميريون وهم أشهر منهم . ولقد تغلب هؤلاء على صعوبات الأرض بنشاط وذكاء مدهشين ،

(١) Henri lammens : le berceau de l' Islam

تشهد عليهما آثار منشآتهم . فالسدود التى بنيت لحصر المياه والشبكات الواسعة التى أنشئت لتأمين الرى تدل على علم واسع بالهندسة وكفاية فيها . وهنا أيضا أقيمت أقدم ناطحات السحاب وما تزال إلى يومنا هـذا من أبرز ما يستلفت الأنظار فى تلك البقاع .

ووجد العرب الجنوبيون أن الاتصال والتجارة مع العالم الخارجى ضرورة لا ستمرار حياتهم وتحسينها والطرق التجارية التى كانت تلتقى فى جنوبى الجزيرة من الهند وأفريقيا والبحر المتوسط لعبت دورا كبيرا فى مدنيّة حوض البحر المتوسط ، وأسس العرب الجنوبيون جوالى فى شمال الحجاز وفى الصحراء الشمالية الغربية فـكانت أسواقا لتجارتهم مع بلدان البحر المتوسط ، وجاءوا إلى هذه المراكز الصحراوية بما عرف عنهم من شغف بالبناء ، ونحتوا لأنفسهم فى التلال الصخرية بيوتا ومعابد ما تزال آثارها الرائعة باقية حتى اليوم .

ومع أن المدنية العربية الجنوبية انهارت قبل بدء التاريخ المـكتوب عند العرب الشماليين ببضعة قرون ، إلا أن ذكرياتها ظلت محببة إلى النفوس فأوحت بأساطير ازدادت عجائبها على كر الأيام .

وقبل الإسلام أيضا ازدهرت ممالك عربية عدة خارج الجزيرة ، فى الهلال الخصيب . فتسلم الأنباط التجارة البرية بين خليج البصرة والبحر المتوسط ، وقد تأثروا بالمدنيات القائمة عند طرفى الطريق التجارى ، كما يستدل من الآثار الرائعة التى خلفتها عاصمتهم البطراء . ومملـكة الأنباط هذه ، التى كانت فى وقت ما تمتد من البطراء إلى دمشق ، أصبحت ولاية رومانية فى الأعوام الأولى من القرن الثانى للميلاد .

أما التدمريون ، الذين هم أيضاً أقاموا دولتهم على تجارة القوافل ، فبلغوا ذروة قوتهم وازدهارهم فى القرن الثالث للميلاد ، حين كانت ملـكتهم زنوبيا الشهيرة

تحكم مملكة تمتد من آسيا الصغرى إلى مصر . ولا تزال فى تدمر آثار جليلة تأخذ بالألباب فى ذلك الاطار الصحراوى .

وقبيل الإسلام ازدهرت مملكتا الحيرة وغسان ، الأولى فى جنوبى العراق ، داخل نطاق نفوذ الفرس ومدنيتهم ، والثانية فى المنطقة التى هى اليوم القسم الجنوبى الشرقى من سوريا وشرق الأردن ، وكانت خاضعة للدولة البيزنطية . وهكذا فإن العرب قبل الإسلام توغلوا فى الهلال الخصيب ، لا كبدوٍ رحل ، بل لينشئوا دولا قوية زاهرة .

ولما كان العربى يعيش فى صحراء قاحلة ، فإنه تخيل ثم اعتقد أنه فى الأيام الخالية كانت أرضه أعظم بقاع الدنيا خصبا وأحسنها تربة ، حيث الماء غزير والحياة رخاء . وتخيل أن القوم السالفين كانوا عمالقة يطاولون النخلة الباسقة ، وأن بيوتهم كانت هائلة الكبر يبلغ ارتفاعها عشرات الأذرع ، مساكن تليق بأولئك العمالقة . وهكذا استقرت فى تقاليد ابن الصحراء ذكرى ماض بعيد متحضر ، واستمرت هذه الذكرى ، وبقى فى قرارة نفسه شوق إلى أطايب تلك الحياة .

كانت تسكن مكة قبيل بزوغ فجر الإسلام قبيلة قريش . وقد اشتهرت قريش فى الجاهلية ، غير أنه قدر لها أن تحتل مكانة أعظم فى الإسلام . وكانت مكة المركز الدينى للعرب الوثنيين ، وكانت قريش تحتل مقاما رفيعاً من جراء سدانتها للأماكن المقدسة . غير أن قبيلة قريش نالت قسطها الأكبر من القوة والثراء من تجارتها المنظمة الواسعة النطاق ، إذ أن مكة ، وهى واقعة عند منتصف الطريق التجارى بين اليمن والشام ، كانت قد تسلمت مقاليد التجارة التى سيطر عليها العرب الجنوبيون قرونا عدة . وبلغت قريش فى تجارتها هذه اليمن جنوبا ثم عبرت البحر الأحمر إلى الحبشة ، وفى الشمال اتجرت مع العراق وبشكل أقوى وأعم مع الشام . أما فى الجزيرة نفسها فكان لقريش اتصال عظيم بمعظم القبائل ذات الشأن .

واقتضت التجارة إقامة تنظيم محكم ، دربت إدارته قريشا وهيأتها لتولى زعامة العرب عندما جاء الإسلام فبث فيهم الشعور بالوحدة القومية .

وكان يقوم فى مكة نظام سياسى سليم هو أشبه شىء بجمهورية التجار . وكان يمارس السلطة العامة الملأ ، أى مجلس الشورى ، وفيه تناقش الشؤون العامة بكل حرية وتفصيل كما يجرى فى مجلس القبيلة .

وفى أوائل القرن السابع بعد الميلاد بدت طلائع ثورة اجتماعية فى مكة ، وكان بطل هذه الثورة رجل منهم ولد وترعرع بينهم وأشرب تقاليدهم واتصف بصفاتهم ، ولكنه اختلف عنهم فى أنه كان موحى إليه يحمل رسالة من الله . وكانت الرسالة الإسلامَ ، وكان الرجل محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وباعتناق الإسلام تولد بين العرب شعور بالتضامن سما على المنازعات القبلية والعصبيات العشائرية ، وكان نتاج ذلك مولد الأمة العربية التى منحها الدين الجديد هدفا هو أبعد وأسمى من العرب أنفسهم ، ودلهم على غاية رفيعة من شأنها أن تخلق العالم خلقا جديدا . فانفتحت مواهبهم وانطلقت قواهم المكبوتة من عقالها ، ووجدت حيويتهم الحبيسة منذ قرون منفذاً لها فى أداء رسالة رفعت الأمة إلى مقام الخلود ودفعت العالم خطوة كبيرة إلى الأمام .

وإذ كان مطلع القرن السابع يشهد توحيد شعب عظيم فى الجزيرة العربية ، كان يشهد أيضاً الانحلال والتفسخ فى العالم المحيط بهم . فى ذلك الوقت ، كانت دولتا الفرس والروم أعظم دول العالم ، وكانتا ما تزالان محافظتين على مظاهر الهيبة عندما جاء العرب يقرعون عليهما الباب ، وكانت أراضيهما شاسعة ، وجيوشهما مدربة ، وموارداهما المادية أكثر بكثير مما كان يملكه العرب . غير أن ذلك البناء الضخم كان نَخِراً فى الداخل ، إذ أن الحروب المستمرة بين الدولتين أنهكت قواهما وكادت تودى بهما . وكان كاهل الرعية مثقلا بالضرائب والتكاليف

المختلفة لمتابعة الحرب وسد نفقات البلاط الباهظة و إعالة الطبقة العليا التى لم تكن تأتى بعمل مثمر . وكان الدين قد فقد طلاوته ففقد بذلك قدرته على إحياء القوة والرجاء فى نفوس تابعيه . ففى فارس كانت الديانة الزرادشتية الرسمية موالية للحكام وكان كهنتها يؤلفون طبقة أخرى ممتازة تعيش من كد الشعب وشقائه . وفى ولايات الإمبراطورية البيزنطية ـ غرب آسيا وشمال أفريقيا ـ طغت الطقوس الجامدة والمراسم الشكلية على ما كانت عليه الديانة المسيحية فى أول عهدها من جمال وقوة ومحبة شاملة فنفخت روح الغطرسة العقائدية بين رجال الا كليروس وروح البغضاء بين المذاهب المتناحرة .

ذلك هو العالم الذى قدم إليه العرب حوالى عام ٦٣٠ م ليقلبوا النظام القائم فيه . وفوجىء الفرس والروم بأخبار الغزوات العربية الأولى ، إلا أنهم لم يذعروا لها لا ستخفافهم بقوة العرب . ولكن عندما تكللت هذه الغزوات بالنجاح زادت مخاوفهم ، غير أنهم اعتقدوا بأن إظهار القوة من جانبهم كفيل بالقاء الخوف فى قلوب العرب ، وأن بضع هدايا كافية لردهم إلى البادية التى أتوا منها .

وقد حصل حادث له مغزاه قبل إحدى الوقائع فى جنوب العراق فى سرادق القائد الفارسى رستم ، بينه و بين الرسول الذى كان قد طلب إلى العرب أن يوجهوه إليه . جلس رستم على سرير فخم ، وقد لبس التاج واتشح بالحلل الموشاة بالذهب وأحاط به الحراس والقادة فى سرادق يسطع بمظاهر الأبهة الشرقية . ودخل عليه عربى رث الثياب وتوجه توا إلى السرير وجلس بجانب رستم . ولما أنزلوه قسرا من هذا المكان الرفيع قال : إنّا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى . أما الآن فقد علمت أن بعضكم أرباب بعض ، وأن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون . فأخذ رستم يباهى بقوة الفرس ويذكر العربى بفقر قومه ومسكنتهم ، وعرض أن يعطيه ورفاقه أعطيات من التمر والثياب ، وأضاف رستم بلهجة السلطان : فإنى لا أشتهى أن أقتلكم أو آسركم . فقال الرسول : إن

العرب ولا ينكرون أنهم كانوا قوما فقراء منسيين إلى أن أرسل الله إليهم برحمته الواسعة إليهم رسولا أخرجهم من الظلمات إلى النور . وهم الآن حاملو رسالة النور هذه إلى شعوب العالم أجمعين (١) .

والأقطار التى جاء إليها العرب كانت ناضجة بثمار تاريخ قديم ، إذ شهدت نهوض الإنسان من الكهوف والغابات وتابعته فى سيره المتواصل منذ تلك العصور السحيقة . فإنه فى جهة ما من هذه البقاع شرع الإنسان القديم فى كفاحه ليؤسس لنفسه وطنا على وجه الأرض . أما منشأ السيرة فغابات شمال وادى النيل وأهوار دجلة والفرات ، فقطعت الغابات وجففت الأهوار وحلت محلها الحقول الخصبة ، ونشأت تدريجيا جماعة منظمة لها فنونها وكتابتها ومقومات معيشتها . وتلا ذلك انفتاح الشعور الوجدانى وتكوين ناموس الأخلاق . وفى هذه البقاع أيضا اقترب الله من الإنسان معرفا عن نفسه بسلسلة متتابعة من الوحى كانت الأساس فى توجيه حياة البشر الروحية .

وتتالت الحضارات والدول فازدحمت بها هذه البقعة ، فجاء أولا المصريون والسومريون ، وعقبهم البابليون والأشوريون ، وخلفهم الحثيون والفرس ، ثم جاءت المدنية الهلينية فوفقت بين نتاج عبقرية اليونان والرومان وبين ما أنتجته عبقرية شرق المتوسط ، غير أن ذلك العالم كان قد ناء بشيخوخته .

جاء العرب بعزم الشباب الواثق بنفسه ، القوىّ فى عنفوانه ، الخالى من الأثقال والأكدار ، فنفخوا فى العالم الهرم روحا جديدة فانتعشت أعضاؤه وعادت إليه الحياة ، فهنا رسالة عامرة بالرجاء والأمل بحياة أفضل . فاستفاقت الشعوب ونفضت عنها غبار العصور وحطمت الأصفاد التى كانت تكبلها ، فكانت ولادة مجتمع لم يجعل فروقا بين الأسود والأبيض ، والغنى والفقير ، والسيد والعبد . كل الناس سواسية أمام

---

(١) الطبرى ، الطبعة الأوروبية ، السلسلة الأولى ، المجلد الخامس ، ص ٢٢٦٧ ـ ٢٢٨٥

الله ، وكلهم فرض عليهم أن يتموا غاية الله وينفذوا قصده . واتحد الناس من جميع الألوان والأجناس ومن مختلف أنواع الحضارة ودرجاتها عاقدين الخناصر والقلوب والأذهان على بناء مدنية هى من أزهر مدنيات العالم وأكثرها فعلا للخير .

كان هذا المجتمع ، بلا ريب ، مجتمعا مسلما ، فيه للدين الأثر الأكبر فى توجيه حياة كل فرد ، وكان الله قريبا ، يشعر الإنسان بوجوده فى كل مكان. وكان للناس بالله القريب منهم علاقة مباشرة وثيقة ، ألم يقل القرآن الكريم إن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ؟ وكلمة الاسلام معناها الاستسلام إلى مشيئة الله ، ولكنه استسلام منشؤه الوثوق الراسخ بمقاصد خالق حكيم رحيم ، فإن الله ، وإن يكن هو القادر المتعالى ، إلا أن وصفه بالرحمن الرحيم أكثر شيوعا بين الناس . وهذا الفناء فى مشيئة الله بعث الهدوء والطمأنينة فى حياة المؤمن ، فلا قلق ولا تبرم ، لعلمه أن أمر الله نافذ وأنه خير لعباده . والمؤمن يتحمل المصائب والصعاب بصبر جميل ، فهو يرضى بقضاء الله ، ولكن دون أن ينوء به .

وقد نشأ عن هذا الاعتقاد شعور المؤمن بالألفة والاحترام نحو سائر الناس فكلهم قريبون من الله ، وكلهم أدوات لتنفيذ مشيئته .

والحياة الصالحة قوامها العمل الصالح . والجماعة المسلمة مسئولة عن حسن حال أفرادها ، ولذلك كانت الزكاة إحدى دعائم الاسلام ، وهى ضريبة تفرض على الغنى لمنفعة الفقير ، والعطاء عمل مبارك ، واكتناز المال مكروه مذموم عند الله والناس ، وهذا ما يفسر قيام المؤسسات الخيرية العديدة المعروفة بالأوقاف، والغايات المختلفة التى كانت تهدف إليها ، فكان بعضها يطعم الفقراء ويؤوى المساكين . وكان الباعث على هذه العطايا المحبة والرحمة ، وكانت تعطى دون تقتير إلى اليتيم والمسكين والضعيف ، ومنها ما أنفق فى تأسيس وتمويل المستشفيات والمدارس والمكاتب ، ومنها ما صرف على حفر آبار المياه العذبة على الطرق الصحراوية ،

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

وإقامة « الخانات » والمنازل فى المراكز الكبيرة والصغيرة الواقعة على الطرق العامة ليستريح فيها المسافرون ويجددوا نشاطهم .

كانت العامة فى حالة حسنة ضمن هذا المجتمع ، فكان الناس ينتقلون بحرية بين طبقاته ، ولم تكن هنالك من حواجز تعترض سبيلهم، أو تحول دون تقدمهم ، أو تقف بينهم وبين بلوغهم تمام النمو . ولم تكن الفرص وقفا على طبقة محظوظة ، كما أن نتاج العمل وثمار الذكاء لم تكن ملكا للخاصة وحدها ، وفى التاريخ أمثلة كثيرة عن أفراد ارتفعوا من أدنى الدرجات إلى أعلى المراتب فى خدمة الدولة ، أو طلب العلم ، أو السعى وراء الروحيات.

وكانت الإنسانية السمحة التى اتصف بها الإسلام سبب نجاحه السريع وسيطرته على المؤمنين به ، إذ أنه فك عقال الفقير والمظلوم ، وحطم الحواجز التى كانت تحول دون نمو البشر ، وأسبغ على الحياة معنى ونفخ فيها روح الكرامة والشعور بالقيمة . « فحيث حل الإسلام تأكدت قيمة الفرد ، ونهض الناس معتزين بكرامة لا تقهر »[1] .

ومع أن الرابطة التى تجمع بين هذا العديد من الأجناس والحضارات كانت دينية ، وكانت هذه الجماعة أخوة إسلامية ، إلا أن هذا المجتمع كان يؤمِّن لأتباع الديانات الأخرى مكانا معترفا به ضمن تلك الجماعة العالية . ولم يكتف بعدم التعرض لأهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ فى ممارسة عبادتهم ، بل إنه أتاح لهم أمر تنظيم أنفسهم فى طوائف مستقلة ضمن الدولة الإسلامية . وكان الإسلام بوصفه أحدث الأديان التوحيدية الثلاثة يعتبر نفسه تتمة للدينين الأقدمين ، فاحترم كتبهما وأنبياءهما ، وسير الأنبياء جزء من كتب الإسلام الدينية ؛ فهى كثيرة الورود فى القرآن الكريم ، ثم إن تعاليم أئمة الدين والمتصوفين كثيرا ما كانت تستند إلى

---

(١) Harrison : The Arab at Home, p. 250.

هذه السير ، وكان الرسامون يزينون المخطوطات بصور الأشخاص والمشاهد المأخوذة من العهدين القديم والجديد . وجاء فى القرآن الكريم عن عيسى أنه كلمة الله ، وروح الله ، وعن مريم أن الله ألقى إليها بكلمته ، والمسلم المتدين لا يذكر عيسى ومريم إلا بقوله « سيدنا عيسى » أو « سيدتنا مريم » ويتبع ذلك بالدعاء « عليه السلام » أو « عليها السلام » .

وكان هذا التسامح العربى على نقيض ما انطوى عليه الحكم البيزنطى من تعصب طائفى ، وهو أحد الأسباب التى مهدت السبل أمام التوسع العربى وساعدت على الإسراع فيه . وبعد الفتح بقليل كتب أحد بطاركة الكنيسة الشرقية يقول : « إن العرب ، الذين منحهم الله السيطرة على العالم ، هم الآن ، كما تعلمون ، بين ظهرانينا ، غير أنهم ليسوا أعداء المسيحية ، بل هم على العكس يمتدحون ديننا ويكرمون كهنة الرب وقديسيه ويقدمون المنافع لكنائسنا وأديارنا »[1] . أما الطوائف المسيحية المنشقة عن الكنيسة البيزنطية الرسمية والتى كانت تلك الكنيسة تضطهدها وتحاول طرحها خارج حماية القانون ، فقد وجدت فى المسلمين غوثا من عند الله .

وكان النصارى واليهود يشغلون مراكز هامة فى بلاط الخلفاء والأمراء . فكان يوحنا الدمشقى ، وهو أحد كبار اللاهوتيين فى الكنيسة الشرقية ، مستشارا لدى الخليفة الأموى عبد الملك ، كما كان والده من قبل ، واستمر فى وظيفته تلك حتى اعتزل العالم وترهب فى دير مار سابا بجوار القدس . وخلال وجود يوحنا فى البلاط كان يشترك فى الجدل بين المسيحيين والمسلمين بصدد المقارنة بين فضائل الديانتين . وهذه المباحثات الودية مع أهل الكتاب أمر دعا إليه القرآن الكريم

---

(١) نقله فيليب حتى فى كتابه :
History of Syria, Including lebanon and Palestine, 1951,pp. 523 - 524

وشجعه اتساع مدارك الحكام . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[١] « ولاَ تجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتى هى أحسن ، إلاَّ الذينَ ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحدٌ ونحنُ لهُ مسلمونَ »[٢] » .

وكان أكثر حكام المسلمين استنارة الخليفة العباسى المأمون ، الذى كادت تنطبق عليه صفات الملك الفيلسوف التى أشار إليها أفلاطون . ففى حضرته وبتوجيهه كان يقوم الجدل الدينى والفلسفى ، وفى عام ٨١٩ ترأس مجلسا اجتمع فيه علماء الإسلام والنصرانية ودافع كل منهم عن عقيدته . ومما يدل على أن هذه المجادلات لم تقتصر على أوساط البلاط ، تلك المحاورات التى كتبت لإرشاد أتباع كل من الديانتين فى الرد على حجج أخصامهم ، وكذلك ألفت الكتب فى الديانة المقارنة ، وهى وإن كانت إسلامية بحتة ، إلا أنها كانت تنم عن إدراك واسع وتفهم للديانات الأخرى .

ولم يقتصر المجتمع الإسلامى على التسامح بل تعداه إلى الإقرار بفوائد الاختلاف ضمن الإطار العام ، وكان يرحب باختلاف الآراء والأفكار ويشجع الذكاء ويستفيد منه أيا كان مصدره . وعمد أهل الذمة بدورهم إلى المساهمة فى إغناء الثقافة المشتركة ، إذ كان تاريخهم يؤهلهم للقيام بدور حملة تراث حوض المتوسط وناقليه ومترجميه . فقد ازدهرت فى مصر وسوريا والعراق المدارس المسيحية والأديرة حيث كانت تقوم الدراسات العلمية ، واشتغل الرهبان بترجمة العلوم والفلسفة من اليونانية إلى السريانية ، ولا سيما فى المركزين الشهيرين نصيبين وحران فى فى شمال العراق . ولما أصبح المسلمون على استعداد لدرس المدنية الهلينية

---

(١) سورة النحل ١٢٥ .

(٢) سورة العنكبوت ٤٦ .

واقتباسها ، سارع علماء النصارى ، بكفاية وحماسة ، إلى الاشتراك فى ترجمة العلوم اليونانيـة . وكان أشهر المترجمين حنين بن إسحاق وابنه إسحاق بن حنين ، وهما مسيحيان .

وهذا النشاط المشترك لم يكن مقصورا على المسائل العقلية ، بل امتد إلى نواحى الحياة العادية ، فـكانت العلاقات بين المسلمين والنصارى ودية ، وكان المسلمون يشاركون النصارى فى الاحتفال ببعض الأعياد المسيحية ، وكانت هذه الاحتفالات مدعاة للـكثير من السرور والبهجة عند العامة . وكان المسلمون يكرمون القديسين وكثيرا ما كانوا يزورون أضرحتهم للدعاء وتقديم النذور . وفى الجامع الأموى بدمشق ضريح قيل إنه يحوى رفات يوحنا المعمدان ، والجامع الأموى هـذا من أكثر أماكن العبادة حرمة فى العالم الإسلامى .

قامت حكومة الدولة خلال القرن الأول للإسلام على التقاليد الموروثة عن الجاهلية ، وعلى تعاليم الدين الإسلامى . وأيد الإسلام تراث الصحراء فيما يختص بالحرية ، وكره السلطة الوراثية ، والمساواة بين الجميـع : « يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ »[1] . وقال الـكتاب الـكريم : «الملك لله وحده» ،وقد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالأخذ بمبدأ الشورى على اعتبار أنه الأصلح للمجتمع الإسلامى . وكان العرب لا ينفكون يجاهرون بارتيابهم بحكم الفرد وكرههم له ، ويرثون لحال الأمم التى وضعت نفسها تحت رحمة رجل واحد . وكان شعراؤهم ـ وهم صحافيو ذلك الزمان ـ يعبرون عن هـذا الشعور فى معرض وصفهم للحكام الذين كانوا يتهمونهم بالميول الاستبدادية ، فيسمونهم باسمين ممقوتين هما كسرى

(١) سورة الحجرات ١٣

وقيصر ، طاغيتا ذلك العصر . وكانت الفصاحة وقوة الإقناع بالحجة لا تزالان تحتلان مكانهما البارز فى الحياة السياسية ،فأصبحت المساجد مجالس لاجتماع الناس بحكامهم ولاتخاذ المقررات الهامة على نطاق لم يكن يجرى حتى فى البلاط نفسه .وكان الزعماء الناجحون من كبار خطباء العصر ، و بقيت الخلافة ، ولو نظريا ، وظيفة انتخابية ، ولكل مسلم حسن الخلق سديد الرأى حق الانتخاب .وحفلة تنصيب الخليفة تعرف بالبيعة؛ وهى عمل طوعى مؤداه الاعتراف بالخليفة والولاء له . وكان الخليفة يعتبر الأول بين أنداده ، وكان الناس يخاطبونه باسمه دون أى لقب أو تفخيم ، حتى فى أيام الوليد بن عبد الملك الخليفة العظيم صاحب الفتوحات . وفى كتب الأخبار الصينية بتاريخ سنة ٧١٣ حديث زيارة وفد عربى من اثنى عشر شخصا إلى البلاط الامبراطورى وما أحدثه تصرف هؤلاء العرب الأباة المعتزين بأنفسهم من دهشة لدى الامبراطور وحاشيته عندما مثل أعضاء الوفد بين يديه ورفضوا أن يسجدوا له .[1] فقد كان الشعور بكرامة الإنسان متأصلا فى نفوس العرب إلى درجة أنهم لم يكونوا ليتصوروا إنسانا يذل نفسه أمام أحد غير الله .

غير أنه فى أوائل القرن الثانى للهجرة بطل اشتراك الشعب اشتراكا عمليا فى تسيير الشئون العامة ، إلا عند الخوارج الذين تمسكوا بمبدأ بقاء الحكم فى أيدى عامة المؤمنين . وقد ساهمت العناصر الأعجمية فى المجتمع الإسلامى فى إبطال هذا الاشتراك ، إذ كان عدد الأعاجم يكثر ونفوذهم يزداد باستمرار ،وهم قوم ذوو مواهب وكفايات ، إلا أنهم اعتادوا حكم الملوك والمستبدين . أما العرب أنفسهم فانصرفوا إلى غير ذلك من الشئون والمصالح وأشاحوا بوجههم عن الناحية السياسية فى مجتمعهم. ولكن بالرغم من أن الديموقراطية السياسية انتبذت مكانا قصيا ، بقيت الحياة

---

(١) Gibb, The Arab Invasion of Kashgar A. D.715 Bulletin of the School of Oriental Studies, University of London, Vol. II (1922), p. 469.

الديموقراطية مزدهرة فى الحقلين الاقتصادى والاجتماعى ، كما أن الشريعة بقيت فى جميع الأوقات مطبقة على الجميع لا يستثنى من أحكامها أحد حتى ولا الخليفة نفسه .

كان النشاط العربى طوال قرون عدة يمتاز فى جميع نواحى الحياة بالحيوية والإبداع والقدرة الهائلة على الإنتاج .

ولم يكن للعرب ، عندما أخذوا بالتراث الفكرى فى حوض المتوسط وآسيا الغربية ، أى نتاج علمى ، أو نظام فلسفى ، أو مجموعة قوانين ، بل كان لهم ذهن حاذق ناشط للاستطلاع والتنقيب والدرس ، فعكفوا على درس المدنية القديمة بشغف وغيرة فأثبتوا بذلك كفايتهم كطلاب علم وأصبحوا مع الزمن أساتذة المدنية ومؤلفى كتبها فى أوج تألقها .

وكانت لهم ثروة أخرى كبيرة القدر ، هى اللغة العربية ، التى كان لها من غناها ومرونتها ما جعلها قادرة على النمو والتكيّف إلى ما لا حدّ له ، فكانت لذلك أهلا لأن تصبح أداة لمدنية عظيمة . واللغة العربية فاقت بقدرتها على الإبداع والاستيعاب اللغات الشائعة فى ذلك العصر ، فكان من اليسير عليها الحلول محل تلك اللغات . فانتشرت انتشارا سريعا ، واستقرت استقرارا دائما فى البلدان التى هى قلب العالم الإسلامى . وفى العصور الوسطى كانت العربية واسطة التخاطب وأداة التعبير الفكرى من آسيا الوسطى إلى أسبانيا ، وبلغ من سيطرتها حتى فى البلدان القصية كتلك الواقعة فيما وراء النهر على حدود الصين أن الناس لم يقتصروا على إيجاد نتاج ضخم من المؤلفات الأدبية والعلمية والدينية باللغة العربية ، بل نظموا بالعربية الشعر الغنائى ـ وهو أقرب أنواع الشعر إلى ذاتية الفرد ـ معبرين به عن إحساس ذاتى صميم بأسلوب فى غاية الجمال والرقة .

وكان من أمر انتشار اللغة العربية بين مسيحيى أسبانيا أن أثار شكوى مريرة من

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

أسقف قرطبة الذى رأى الشبان ينصرفون عن اللاتينية وعن قراءة الكتب الدينية وينكبّون على الشعر العربى .

ووجد الشعر مرتعا وسيعا خصبا ، يدل على ذلك ما ورد فى الأغانى عن جيش أموى توجه لمحاربة الخوارج ، وفى فترة ما توقف القتال وانصرف الطرفان عن متابعة العمليات الحربية ليشترك المتحاربون فى مناظرة حول المفاضلة بين اثنين من كبار شعراء العصر : جرير والفرزدق .

والعرب متعلقون تعلقا وثيقا بلغتهم فيطربون لأوزانها وتأخذهم النشوة بما يجدون فيها من جمال رائع ، ويفتتنون بما يسمونه فيها « السحر الحلال »[1] . واللغة العربية اليوم هى من أمتن روابط الوحدة العربية .

وكان الدافع إلى تتبع العلم وتوسيع نطاقه ذا مصادر متعددة ، ففى متناول اليد تراث عظيم ، وكان الذهن العربى ، لحسن الحظ ، قادرا على إدراك تلك العظمة ، مستعدا لأن يأخذ ويتعلم . وكانت اللغة العربية المتفتحة للآراء والمفاهيم الجديدة قادرة على النمو والتوسع لسد حاجات العلوم المتزايدة واللحاق بآفاقها الدائمة الامتداد . والدين الإسلامى أوصى الناس بطلب العلم ولو فى الصين . ولما لم يكن فى الإسلام كهنوت منظم ، كان على الفرد أن يصبح مرشدا ومعلما دينيا لنفسه ، فكان من الضرورى لذلك أن يستطيع قراءة الكتاب الكريم . وكان تعليم الناس القراءة يعتبر عملا جليلا ، وهنالك أحاديث عديدة منسوبة إلى النبى ﷺ ، فيها حث للمؤمنين على طلب العلم والسعى إلى أقاصى الأرض فى طلبه .

وأقام المجتمع الدعائم التى استندت إليها الحياة العلمية ، فأنشأ المعاهد العديدة المخصصة لطلب العلم وترويجه وأجرى عليها الأرزاق الكثيرة . وأسس الخلفاء : « بيوت الحكمة » وجهزوها بالمكتبات واستقدموا إليها أفضل العلماء وعهدوا إليهم

---

(١) كل أنواع السحر الأخرى محرمة ومكروهة .

بترجمة الكتب وتأليفها وجمعها . وكانت هنالك مدارس وجوامع أسسها الخلفاء والسلاطين ووزراؤهم ، أو مواطنون عاديون ذوو يسار أحبوا أن ينفقو أموالهم فيما يرضى الله . وقيل إن المدارس كثرت فى خلافة هارون الرشيد إلى درجة أن امحت الأمية من بين الناس[١] . والمدرسة اسم يطلق على معهد للتعليم العالى ، وهو مرادف من بعض النواحى للجامعات الأوروبية فى أواخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث . وكانت هذه المدارس المنتشرة فى أنحاء العالم الإسلامى تعد بالعشرات ، فبغداد وحدها كان فيها ثلاثون مدرسة ذات أوقاف واسعة على ما رواه ابن جبير ، الرحالة العربى الأندلسى الذى عاش فى القرن الثانى عشر للميلاد . وقال الرحالة الشهير ابن بطوطة الذى زار مصر عام ١٣٢٦ : إن مدارس القاهرة كانت من الكثرة بحيث لم يستطع حصر عددها ، وإنه وجد عددا منها فى مدن مصر الصغرى[٢] .

وكانت هذه المعاهد بوجه عام تتمتع بأوقاف تؤمن معيشة الطلاب وتعليمهم ، وكانت المدارس الفنية الكبرى تشتمل على منازل للطلاب ومطابخ وحمامات ومستشفيات ومكتبات . وكانت تصرف للطلاب الأرزاق الكافية ويعطون الملابس الجديدة فى مناسبات معلومة وأدوات الكتابة والمخصصات النقدية ، وتؤمّن لهم العناية بصحتهم ونظافة أبدانهم . ولم يكن دخول المدرسة وقفا على الأغنياء أو على طبقة خاصة ، بل كان العلم فى متناول الجميع ، حتى الوضيع والفقير .

وكانت المستشفيات تعنى بالمرضى وبتدريس الطب فى جميع فروعه ، وكانت

---

(١) Margaret Smith : An Early Mystic of Baghdad, p. 3

(٢) رحلة ابن بطوطة Voyages d' Ibn Batuta 4 Vols., texte et traduction par C. Defremery B. R. Sanguinetti, 1853—1858, I, p. 70

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

مجهزة بالمكتبات والمختبرات والمستوصفات، و بعضها أنشئ لا بالنظر إلى صحة المريض الجسمية فحسب ، بل بالنظر أيضا إلى حاجاته العاطفية والنفسية . وقد حفظت كتب التاريخ وصفا مطولا للمستشفى الذى بناه السلطان قلاوون أحد سلاطين المماليك . وكان هذا المستشفى فى موقع جميل تحيط به حدائق تجرى فيها الأنهار ، وكانت غرفه واسعة نيّرة ، وأعدت فيه الحجرات البهجة للمجانين. وكانت تعزف الموسيقى للتخفيف من آلام المرضى ، و يطلق أذان الفجر قبل وقته بساعتين ليبدو الليل قصيرا لأولئك الذين حرمت أوجاعهم عليهم الكرى . (١) .

ونمت المكتبات نمو المدارس سواء بكثرة عددها أو بالخدمات التى كانت تؤديها عن طريق نشر العلوم وجعلها فى متناول كل من رغب فى الحصول عليها ، وانتشر الميل إلى الكتب ، واشترك فيه الملك ورجل الشارع . ولم يكن الناس يبخلون بالجهد ولا بالمال فى سبيل اقتناء الكتب ، وكانوا يسعون وراءها إلى أقاصى البلدان . وكانت هنالك أنواع عدة من المكتبات ، فبعضها أنشأه الخلفاء ، وأشهر هذه المكتبات ثلاث : المكتبة العباسية فى بغداد ، والمكتبة الفاطمية فى القاهرة ، والمكتبة الأموية فى قرطبة ، والبعض الآخر مكتبات خاصة ، أو تابعة للمساجد والمدارس والمستشفيات والزوايا ، ومنها ما كان قائما بنفسه لخدمة الجمهور ، غير تابع لأية مؤسسة . وكانت الكتب تسجل فى فهارس وتوضع على الرفوف ، تحت تصرف كل قارىء ، وكانت المكتبات تقدم لقرائها الحبر والقرطاس مجانا . وكانوا يعيرون الكتب بشروط سهلة ، فقد ذكر ياقوت ـ الرحالة الشهير فى القرن الثالث عشر للميلاد ـ فى مجال وصف مكتبات مرو ، وكان عددها عشرا ، أنه كان دائما يحتفظ فى بيته بمئتى مجلد أو أكثر ، دون أن يدفع تأمينا عنها ، ويقول ياقوت إن إحدى

---

(١) Joseph Hell : The Arab Civilization, translated by. S. Khuda Bukhsh, 1926, pp. 117-8

هذه المكتبات أسسها رجل بدأ حياته ببيع الفاكهة والأزهار [١] .

وبعض هذه المكتبات كان كبيرا جدا ، فمكتبة طرابلس الشام التى أتلفها الصليبيون كانت تضم ، على ما قيل ، ثلاثة ملايين مجلدا [٢] ولم يكن إتلافها سوى مقدمة لما حل بالكتب من جراء الأعمال التدميرية التى أتاها المغول عندما اجتاحوا ديار الإسلام .

ومن المؤسسات التى يجدر ذكرها ، والتى يتفق قيامها وروح ذلك العصر ، دكاكين الوراقين . كان الوراقون نساخين ، يتاجرون بالكتب والورق ، وكانوا على العموم من ذوى الثقافة . وكانت دكاكينهم ملتقى أهل الأدب ، وكثيرا ما كان يأتى أحد الشغوفين بالعلم فيستأجر الدكان ليلته ويعكف على القراءة والنسخ حتى صباح اليوم التالى .

والعرب أخذوا عن أهل الصين صناعة الورق وحسنوها . وكان رخص الورق بالنسبة إلى الرق وغيره من مواد الكتابة عاملا فعالا فى نشر استعماله بين الناس وبالنتيجة فى تعميم العلوم .

وكان للعلم مقام كبير فى المجتمع ، فكان الحكام يتبارون فى العطف على العلماء وإكرامهم ؛ إذ كان وجود هؤلاء فى البلاط مما يزيد فى شهرته ، وكثيرون من رجال الدولة كانوا هم أيضا من أهل العلم .

وأقبل الناس على السفر والسياحة فى أنحاء العالم الإسلامى المترامية الأطراف وحتى إلى ماوراء بلاد الإسلام ، سعيا وراء العلم ، وكانوا ينتقلون من مركز إلى آخر بحثا عن الأساتذة لا عن المعاهد . وبعض هؤلاء الباحثين لم ينقطعوا عن بحثهم طوال حياتهم ، لأنه كان ثمة دائما أستاذ جليل يجب أن تشد إليه الرحال . وقد وجدت

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة ووستنفلد ، المجلد الرابع ، ص ٥٠٩ — ٥١٠ .

(٢) Arnold and Grohman : The Islamic Book, p. 32

حرية التنقل هـذه لا بفضل وحدة الإسلام السياسية ؛ إذ لم تلبث هذه الوحدة أن انفصمت عراها ، بل بفضل وحدة اللغة والثقافة التى كانت تنفى عن المسافر الشعور بالغربة أينما حل .

وعلى الصعيد الاقتصادى نرى صورة مجتمع نشيط مزدهر . فـكانوا يكرمون العمل فى جميع أشكاله ، وهنا أيضا نجد فى القرآن الـكريم والحديث الشريف دليلا على مفهوم العمل عند المسلمين . فالله أعطى الإنسان الدنيا ليستخدمها ويتمتع بها ، وفى حديث عن الرسول (ﷺ) إن طلب الرزق ، كطلب العلم ، فرض دينى يجب على المسلم . وكان الصوفيون ـ وهم أبعد المؤمنين عن شئون هذه الدنيا ـ يرون أن العمل أفضل عند الله من حياة عقيمة يقضيهـا المرء فى الصلاة وفى البقاء عالة على المجتمع . وكان يعتبر اليسر المـادى عونا على الحياة بالله والخضوع لمشيئته ، لأنه يوفر للمؤمن مادة ينفقها فى سبيل الله ومنفعة عباده .

واحترام الإسلام للعمل شبيه بموقف المذهب الـكلفينى المسيحى منه ، سوى أن المسلمين لم يعتبروا الثراء دليلا على رضا الخالق ، كما كانت الحال بعد تطور المذهب الـكلفينى .

وقد شهد فى القرون الوسطى جغرافيو العرب الذين ساحوا إلى أقاصى بلاد الإسلام بمـا وجدوه من رخاء شامل فى مجتمع يعج بكل أنواع النشاط المنتج . فـكانت الزراعة قائمة على قدم وساق ، حتى إن بعض الأقطار كان يبدو كأنه بستان واحد . وكان المسافر يسير أياما وليالى متواصلة فى ظلال الأشجار الوارفة ، فى أراض تعهدتها يد الإنسان بالعناية والرعاية . وكانت القرى والدساكر منتشرة على ضفاف الأنهار كعقود الزمرد .

ونشأت المدن بسرعة عجيبة ، وقامت الأسواق فى كل مكان ، ففى مصر ، على

ما رواه ابن بطوطة ، كانت الأسواق متصلة فى سلسلة مستمرة من الإسكندرية إلى القاهرة ، ومن القاهرة إلى أصوان فى مصر العليا .

وازدهرت أيضاً الصناعة فوفرت صنوف المنتجات لمجتمع كان ينشد الجودة والجمال فيما يستعمله من أدوات يومية ، وكان للصناع المهارة والوقت اللازمان لإنتاج هـذه الأدوات . والـكثيرون من الصناع كانوا أهل فن ، فسكبوا فى إنتاجهم كل مايتصف به العمل المبدع من محبة وشغف ، وجنوا من ذلك كل ما فى الإبداع من لذة وفخر ، وهذا مايفسر الجمال الرفيع الذى اتسمت به منتجاتهم كالآنية والمصابيح والآجر والسجاد وغيرها من الأشياء العادية الاستعمال ، فجعل منها تحفاً فنية .

وكانت الصناعات والحرف منظمة فى نقابات ، وكانت هذه ذات أهمية اجتماعية كبيرة ، إذ أنها حافظت على مستوى الصناعة وحالت دون المزاحمة غير المشروعة فأثبتت بذلك صلات الود بين الأفراد ، ولمـا كانت النقابات قائمة على أسس دينية وأخلاقية فإنها فرضت على أعضائها الشعور بالواجب تجاه صنعتهم وتجاه زملائهم فيها . وكان الصناع المسلمون يتصفون بالاستقامة والرصانة ، و بالتعاون فيما بينهم . وكان يغلب على مجتمعهم التضامن وروح الواجب ، بالرغم من تفاوت الثروة والمرتبة بين الأفراد ، وكان هـذا المجتمع يؤمن ، حتى لأقل أعضائه شأنا ، مكانا فى النظام الاجتماعى .

وكانت النقابات إلى ذلك مراكز للفوران الاجتماعى والسياسى ، وكانت على صلة بحركة القرامطة من ناحية تأكيدها للمساواة الاجتماعية ومحاربتها الظلم . وكان فى صفوف النقابات من المتعلمين عدد لا بأس به ، وقد كان هؤلاء يشتركون عن رغبة فى المناظرات والمجادلات الأدبية والدينية ، وظهر عدد من الـكتب فى مختلف الصناعات ، كتبها الصناع أنفسهم .

والنقابات هيئات ذات استقلال داخلى لها نظمها الخاصة ورؤساؤها وضرائبها ،

وكانت تشرف على الانضباط والأمن بين أفرادها . فكانت بذلك دعامة هامة من دعائم الإدارة الحكومية ، و بالمقابلة ، كان الحكام يحترمون استقلال النقابات وتقاليدها .

و بالنظر إلى غنى النقابات وتضامنها الاجتماعى ووضعها المستقل ، نجد أنه كان عند أعضائها ، سواء كأفراد أو كجماعات منظمة ، شعور بالكرامة و بالشخصية المستقلة ، و إدراك لحقوقهم واستعداد لتأكيد هذه الحقوق . وكثيرا مايحدثنا التاريخ عن قيام النقابات بعمل مشترك لوضع حد لتعسف الحكام[1] .

أما النشاط التجارى فكان يفوق النشاط الصناعى والزراعى ، إذ جاوز حدود العالم الإسلامى بكثير . ففى أور با امتد إلى شواطىء البلطيق حيث اكتشفت كميات كبيرة من النقود العر بية ، وفى الجنوب توغل تجار العرب إلى قلب أفريقيا ، وفى الشرق نشطت تجارة العرب مع الهند والصين برا و بحرا .

وكان النشاط التجارى داخل الأقطار الإسلامية عظيما . وهنا أيضانجد أن الوحدة القائمة فى جزء وسيع من الأرض جعلت التنقل حراً سهلاً وأدت إلى كثرة تبادل السلع . ومما كان يسهّل انتقال الأموال والأشخاص و يساعد على توطيد الأمن ، طرق المواصلات التى أنشئت فى البدء لأجل البريد وغير ذلك من الأغراض الإدارية. وكان السفر طابعا اتسم به ذلك المجتمع فى مختلف نواحى نشاطه ومساعيه ، واستولى على الناس حب المغامرة فاقتحموا الأهوال وذللوا الصعاب فى البر والبحر ، ولما كان الدين يفرض على كل من يستطيع من المسلمين الحج إلى مكة والمدينة مرة واحدة فى العمر على الأقل ، فان الجماهير اندفعت فى طريق الحج إتماما لهذا الركن من أركان

---

(١) H. A. R. Gibb and Harold Bowen : Islamic Society and the West, London, 1950, pp. 276–8. Louis Gardet : Humanisme Musulman d' hier et d' aujourd' hui, Ibla, Revue de l' Institut des Belles Lettres Arabes, Tunis, 1944, p. 32.

الإسلام الخمسة . وكانوا يسيرون بطيئين متمهلين ولا يكتفون بزيارة البلدان الواقعة على طريق الحج بل غالبا ما يتجاوزونها إلى أبعد منها ، وكان بعضهم لا يعود إلى وطنه إلا بعد سنين . ومن الناس من كان يسافر طلبا للعلم ، وكان هؤلاء أقل عددا من الحجاج ، غير أن سيلهم إلى مراكز العلم لم ينقطع . وكان أناس يسافرون فى طلب الرزق وسعة العيش فى البلدان النائية . وقد روى سعدى فى كتابه « كلستان » قصة تعطى القارىء فكرة عن حياة أحد التجار النشيطين الأثرياء فى القرن الثالث عشر . لقى سعدى هذا التاجر فى مدينة كيش على خليج البصرة ، وحدثه التاجر عن تجارته فقال إن له عميلا فى تركستان ووكالة فى الهند ، وأنه كان ينوى القيام برحلة أخيرة يستقر بعدها ، وفى تلك الرحلة يأخذ الكبريت الفارسى إلى الصين ، والخزف الصينى إلى بلاد الروم ، والوشى الرومى إلى الهند ، والفولاذ الهندى إلى حلب ، والمرايا الحلبية إلى اليمن ، والبرد اليمانية إلى فارس [1] .

ولما كان السفر منتشرا بين الناس فقد أحدث نتائج بارزة دائمة ، إذ أنه قوّى شعور التضامن داخل المجتمع الإسلامى بأن أتى بالناس من أقاصى بلاد الإسلام وجمع بعضهم ببعض فى مهد الدين الإسلامى فى الجزيرة العربية ، وبالسفر أيضا ازدادت المعارف واتسعت آفاقها إذ أصبح بالإمكان درس الناس وبيئاتهم المختلفة ، ونمت الثروة وكثر الرخاء وبالنتيجة توسعت المدنية وتشعبت بمطالبها وحاجاتها المتكاثرة يوما عن يوم .

وأخيرا فان دوام السفر والترحال من بلد إلى بلد أنتج مجموعة من الكتب الخلابة فى وصف الرحلات . والكثير من هذه الكتب كان مبنيا على الواقع والملاحظة وكان صحيح الرواية غنيا بالمعلومات إلى حد يدعو إلى الإعجاب . أما البعض الآخر ، وإن كان له أساس فى الواقع ، فكان مسرحا للخيال الخصيب والتصور

(١) كلستان ، الفصل ٣ ، الحكاية ٢٢ .

الجامح ، ومن هـذه الفئة الأخيرة قصص السندباد البحرى ، والفئة الأولى أشهر ما فيها رحلات ابن بطوطة التى استوعبت قرابة ثلاثين سنة من عمره وقادته من مدينـة سبتة مسقط رأسه على ساحل الأطلسى إلى الصين ، ومن ضفاف الفولغا إلى أواسط أفريقيا . وأبرز ما فى كتابات ابن بطوطة أنها مشبعة بشعور إنسانى عميق ، فـكان المؤلف نفسه يوجه جل اهتمامه إلى الناس ومجتمعاتهم ، وكان الناس يبادلونه هذا الشعور بحسن معاملتهم إياه حيثما حل .

إن المجتمع الذى أنشأه العرب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا استمر فى تماسكه حتى اليوم بالرغم مما جابهه من أحداث الزمان ومصائب الأيام ، ودوامه هذا ناجم عن بعض المفاهيم الأساسية التى غرس هذا المجتمع جذوره فيها ، وأولها وأهمها إنسانيته الواسعة التى شملت الجميع أيا كان عرقهم ولونهم على قدم المساواة فى أخوة إسلامية واحدة ، أما الذين ظلوا خارج الحظيرة الإسلامية وتمسكوا بالأديان المنزلة فقد تقبلهم ذلك المجتمع بصدر رحب واحترم عقائدهم وأساليب حياتهم . ولو أن العرب انتظموا فى طبقة منعزلة وانـكمشوا على أنفسهم لانقرضوا على مرور الأيام كما انقرض غيرهم من الفاتحين قبلهم وبعـدهم . غير أنهم بالنظر إلى تحررهم من العصبيات الطبقية والعرقية الخانقة ، اختلطوا بجميع أصناف الشعوب واستطاعوا بالرغم من قلة عددهم بالنسبة إلى السكان الأصليين فى البـلدان التى قدموا إليها ، أن يصهروا فى بوتقة واحدة الملايين من البشر والعديد من مختلف الحضارات .

إن البلدان الواقعة فى أطراف العالم الإسلامى ، وإن بقيت متمسكة بالإسلام (باستثناء اسبانيا) ، إلا أنها انفصلت عن المجتمع العربى ، ولـكن قلبها ظل عربيا ، وهو يشمل البلدان التى شهدت قيام وسقوط البابليين والأشوريين ، والفينيقيين والآراميين ، وقدماء المصريين ، ورأت الفاتحين يأتون ويمضون ، كالفرس ،

والروم ، والرومان والبيزنطيين الذين ظلوا غرباء عن حياة الشعب فلم يلبثوا أن دالت دولتهم .

أما العرب فجاءوا واستقروا وقد أصبحوا جزءا أبديا لا يتجزأ من البلاد كجبالها وسهولها ومظاهر الحياة النامية فى تربتها . وقد تعرضوا لأشد الكوارث والفواجع عند ما اكتسح بلدانهم المغول ، وخندق الصليبيون فى وسطهم ، وتحكم فيهم الأتراك العثمانيون ، غير أنهم صمدوا لتلك النوازل ، واستفاقوا بعد كل نكبة ، فصانوا مجتمعهم وحافظوا على كيان حضارتهم .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل الثالث

العرب والغرب فى العصور الوسطى

فى النصف الأول من القرن السابع للميلاد ظهر العرب على المسرح الدولى فى دور رئيسى ، وفى السنين المئة التى تلت استقروا فى جزء كبير من العالم المعروف حينذاك ، فوصلوا فى الشرق إلى أبواب الصين ، وفى الغرب توغلوا فى بلاد الغال إلى ما وراء جبال البرانس ، وفى الشمال قرعوا أبواب عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، وفى الجنوب بلغوا فى توسعهم المحيط الهندى والصحراء الأفريقية .

وكان الجزء الأعظم من هذه الأراضى يقع فى الشرق ، وكان الشرق حينذاك أعظم شأنا فى أمور العالم من الغرب . فنتج عن ذلك أن ظهر القسم الأكبر من النشاط العربى فى البلدان الواقعة إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط .

وكانت التجارة بوجه عام تمر عبر المحيط الهندى أو تتحرك جيئة وذهابا عبر القارة الآسيوية ، وكذلك كان شأن العلاقات فى نواحى الحياة الأخرى ، كتبادل الأفكار ، وامتزاج الفنون ، وتعاطى القيم الاجتماعية .

ولا يعنى هذا أن أوروبا كانت خارج ذلك النطاق ، بل بالعكس ، فإن أجزاء منها دخلت ضمن الإطار الذى أنشأه العرب ، وتأثرت الحضارة الأوربية بالحضارة العربية إلى مدى أبعد مما يدركه العامة ، إذ أن الحضارتين ، بالرغم من جميع نواحى الاختلاف بينهما تتشابهان فى كثير من الأمور الأساسية ، فلكل منهما جذور فى تراث البحر الأبيض المتوسط الذى كان منذ أقدم العصور ممرا تتصل بواسطته سواحله الآسيوية والأفريقية والأوروبية .

وقد ربط الرومان هذه السواحل بعضها ببعض فى فلك الوحدة الرومانية ، وكان

الاغريق قبلهم قد أنشأوا وحدة ثقافية من النوع الذى يبقى بعد أن تصبح الممالك هباء منثورا . وهذه الثقافة المعروفة بالهلنستية كانت نتاجا مشتركا وثمرة من ثمار العقل الاغريقى والشرقى ، وأهم مراكز إبداعها كانت فى الأقطار الواقعة شرقى البحر المتوسط ، وساهم فى تكوينها والنهوض بها عدد كبير من العلماء والفلاسفة فى سوريا ومصر (١) .

وحمل السوريون المدنية الهلنستية إلى قلب أوروبا ، ففى القرون الأولى بعد الميلاد استقر فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا سوريون من ساحل البلاد وداخلها ، وأنباط وتدمريون من مدن القوافل الواقعة فى بادية الشام والصحراء العربية ، وفى فرنسا أنشأ السوريون جوالى كبيرة فى باريس ونار بون وبوردو وتور وأورليان ، وفى إيطاليا استوطن عدد كبير منهم مدينتى رافينا وروما وغيرهما . وحمل وجود جماعة كبيرة من السوريين فى روما الكاتب الساخر جوفنال على القول متهكما : إن نهر العاصى أصبح يصب فى التيبر . وكان السوريون فى تلك العصور أسياد التجارة فى أوروبا فجلبوا إليها بضاعتهم وبضاعة البلدان التى تقع ما وراء بلادهم . ورافق نقل البضائع نشر التجار لثقافتهم . ويظهر أثر الشرق على الأخص فى الدين والفن (٢) .

وفى العصر السلامى قوى اتجاه التيارات الثقافية من الشرق إلى الغرب واتسع مداها ، وقد استعملنا لفظتى العرب والإسلام مترادفتين فى هذا الفصل ، لسبب واضح هو أنهما كانتا كذلك فى العصر الذى نحن بصدده الآن . وأن الدين الإسلامى ، وهو القوة العظمى التى صهرت مختلف الأجناس والثقافات فجعلت منها

---

(١) Sarton, The Unity and Diversity of the Mediterranean World Osiris II, 1936, P.430

(٢) Sarton, Osiris, II PP. 427 ff. J. W. Thompson : An Economic and Social History of the middle Ages, P. 156 W. Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, 2 vols. tr. Furcy Raynaud, 1923, I pp. 20—21.

وحدة اجتماعية متراصة ، نزل فى الأصل على العرب و بوساطتهم انتشر فى العالم خارج الجزيرة العربية . وكانت اللغة العربية واسطة التعبير والفكر فى جميع دنيا الإسلام كما كانت لغة التخاطب اليومى فى جزء كبير من ذلك العالم . هذا إلى أن العرب ، وهم أقرب الشعوب الإسلامية إلى أوروبا ، هم الذين حملوا الحضارة الإسلامية ونقلوها إلى الغرب .

ولا يتسع هذا الفصل ، حتى ولا هذا الكتاب نفسه ، للاسترسال فى وصف الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى ، فاقتصرنا على النواحى التى كان لها تأثير مباشر على أوروبا المعاصرة ، وعلى إبراز الصفات والآثار التى أصبحت تراثا دائما لكل من ينتمى إلى الحضارة الغربية .

تعتبر العصور الوسطى عادة أنها عصور مظلمة ، وفى هذا الاعتبار تجاهل للنشاط الثقافى الجارى حينذاك فى الشرق الأدنى وتأثيره على أوربا ، وهو يعطى صورة مغلوطة مشوهة عن تطور الحضارة الغربية . والحقيقة هى أننا إذا درسنا الثقافة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى ، وجدنا أن تلك العصور تضاهى فى إشراقها أى عصر آخر من عصور الإبداع والإنتاج فى التاريخ .

ولقد ألقى جورج سارتون نورا ساطعا نفاذا على هذه الحقبة من التطور البشرى ، ففى كتابه العظيم « مقدمة لتاريخ العلم » تتبع بمعرفة قلّ نظيرها و إدراك نادر المثال نمو الأفكار وتفتح أذهان البشر من الصين عبر آسيا وأوربا إلى أرلندة خلال ألفى سنة من التاريخ ، من هوميروس حتى آخر القرن الثالث عشر للميلاد ، وفى هذا البحث الشامل نجد النتاج العقلى للحضارة العربية الإسلامية فى الطليعة الأولى . وهذا البحث مقسوم إلى أنصاف قرون كل منها يحمل اسم المفكر الذى نبغ فيه فى سياق تقدم الفكر ، وتحمل هذه الحقبات أسماء الكثيرين من علماء العرب وفلاسفة الإسلام .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ولم تكد تمضى مئة سنة على خروج العرب من صحرائهم ، أى فى القرن الثامن للميلاد ، حتى أصبح العراق مركزا لأعظم نشاط فكرى فى ذلك العصر ، إذ أنه بالنظر إلى ما اتصف به المجتمع العربى الجديد من قوة فنية وعزم متوقد . تقاطر أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان وأقصاها إلى مدن العراق المنشأة حديثا ، البصرة والكوفة و بغداد . والنصف الثانى من هذا القرن هو عصر جابر بن حيان المعروف عند الأوربيين فى العصور الوسطى ، وهو من أعظم رجال العلم فى تلك العصور . ومن خلال أدغال الأساطير والخرافات التى نشأت حول شخصه وعمله نستطيع أن نتبين عقلا علميا رأى أهمية التجارب العلمية بصورة أوضح مما رآها أى من قدماء الكيمويين ، ودوّن آراء جد صائبة فى أساليب البحث الكيموى . وتأثير جابر واضح فى جميع سياق تاريخ الكيميا فى أوربا[١] .

والنصف الأول من القرن التاسع يعرف بعصر الخوارزمى ، وهو من أعاظم الرياضيين فى كل العصور ، « وكان أثره فى الفكر الرياضى أبعد من أثر أى كاتب آخر فى القرون الوسطى »[٢] . وجعل استخدام الأرقام الهندية فى العد أوسع انتشاراً وأكثر إتقانا ، وكان من مؤسسى علم الجبر على القواعد التى ارتكز عليها نهائيا[٣] .

وهذا العصر هو عصر الإشراق العقلى فى بغداد فى عهد الخليفة المأمون الذى أنشأ دارا للحكمة تضاهى فى مداها وأهميتها متحف الإسكندرية الذى أنشىء فى القرن الثالث قبل الميلاد . وكان المأمون يبعث برسله للتفتيش عن المخطوطات ويعهد إلى كبار علماء العصر بترجمة ذخائر المعرفة اليونانية إلى العربية، فتقدمت علوم الرياضيات والفلك والطب تقدما عظيما وغنى علم الجغرافيا بالرحلات والنشاط التجارى .

---

(١) Sarton, Introduction to the History of Science, I, P. 532, Meyerhof, The Legacy of Islam, ed. by Sir Thomas Arnold and Alfred Guillaume, 1931, P.327

(٢) Sarton, op. cit. I. P. 545.

(٣) Ibid. P. 563 ; E. Wiedman, Al-Khwarizmi, In Encyclopedia of Islam.

و بين الشخصيات اللامعة التى تزين هذا العصر يبرز الكندى ، الذى ينسب إليه ٢٧٠ مؤلفا فى الرياضيات والفلك والطب والفيزياء والموسيقى والفلسفة والجغرافيا. وقد ترجم عددا من تآليفه إلى اللاتينية إمام مترجمى العصور الوسطى جيرار من مدينة كريمونا . وقال كاردان ـ وهو أحد فلاسفة عصر النهضة ـ عن الكندى إنه أحد العقول الاثنى عشر الأشد ذكاء (١) .

ودعى النصف الثانى من القرن التاسع باسم الرازى ، وهو يعد فى مرتبة كبار الأطباء فى كل العصور لمعرفته الشاملة ودقة ملاحظاته فى الفحص الطبى. وله موسوعة فى الطب اليونانى العربى دعاها « الحاوى » وهو كتاب طبع مرارا فى ترجمته اللاتينية وكان له أثر عظيم فى الطب عند الأوربيين . وتعتبر رسالته فى الجدرى والحصبة أول بحث واضح عن هذين الداءين ، وقد ترجمت إلى اللاتينية ثم إلى عدد من اللغات الأخرى بينها الإنكليزية وطبعت نحو ٤٠ مرة بين عام ١٤٩٨ و ١٨٦٦. وما زالت مفكرته السريرية التى دون فيها أحوال مرضاه محفوظة ، وقد طبق أسلوبه الاختبارى هذا على جميع العلوم التى بحث فيها (٢) .

وكان القرن التاسع فى رأى سارتن قرنا إسلاميا بسبب التفوق العارم لمؤلفات العلماء والباحثين المسلمين على ما أنتجته الأقطار الأخرى ، واستمر هذا التفوق طوال القرن العاشر . ولم تكن الكتب المكتوبة باللغات الأخرى ـ اللاتينية واليونانية والعبرية ـ تشمل من الجديد سوى النزر اليسير ، « فجميع الاكتشافات الجديدة والآراء الحديثة نشرت بالعربية » التى كانت « الوسيلة الدولية للتقدم العلمى» (٣) .

---

(١) De Botr : The History of Philosophy in Islam pp. 97—106, and his article on Al—Kindi in E. I.

(٢) Meyerhof, The Legacy of Islam, PP. 323-5 Sarton, op. cit. I. p. 609 ; de Boer, op. cit. pp. 77-80 : Kraus and Pines, Al-Razi in E. I. : Grunebaum, Medieval Islam, pp. 333 - 334

(٣) Sarton, op. cit. I pp 543 and 619

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وسمى سارتن النصف الأول من القرن العاشر باسم المسعودى المؤرخ والجغرافى، « بلينيوس العرب » ، والنصف الثانى باسم أبى الوفاء الفلكى الرياضى . وكان هذا القرن عصر نشاط فلسفى عظيم ، وكان إمام فلاسفة العصر الفارابى [١] المعروف بالمعلم الثانى ، إذ كان أرسطو المعلم الأول . ولهذا العصر مجموعتان عظيمتان من العلوم هما « مفاتيح العلوم » للخوارزمى ، و« رسائل إخوان الصفا » [٢] . وكلتاهما شاملتان تعكس علوم العصر . ومن الكتب الممتعة « الفهرست » ، وهو عبارة عن لائحة بالكتب التى عرف بها أحد الوراقين ابن النديم وكان كثير الأسفار [٣] . والفهرست سجل رائع للإنتاج العقلى ، وهو يثير فينا الأسف لما أصابنا من خسارة لأن الكثير من المؤلفات التى أشار إليها المؤلف فقد ، أو لم يعثر عليه كله ، أو فى شكله الأصلى .

واستمر نشاط القرن العاشر واشتد فى القرن الحادى عشر الذى بلغت فيه الحركة الفكرية ذروتها فى القرون الوسطى ، وكان الإسلام فى طليعة الجنس البشرى . إن الانتقال من الحضارات الأخرى إلى المدنية العربية الإسلامية « يكاد يشبه الانتقال من الظل إلى الشمس المشرقة ، ومن عالم ناعس إلى آخر متفجر بالنشاط » [٤] . وقد بلغ من كثرة كبار زعماء الفكر أن حار مارتن فى اختيار واحد يطلق اسمه على ذلك العصر من بين الأعلام الكثيرين المتساوين فى الفضل . وأخيرا رأى أن يطلق على النصف الأول من القرن الحادى عشر اسم البيرونى . « وهو أحد كبار علماء الإسلام ومن بين كبار العلماء فى جميع العصور » [٥] وكانت معارفه تشمل كل شىء ، فكان فيلسوفا ورياضيا وفلكيا وجغرافيا ورحالة . وأعظم من اتساع معارفه أسلوبه العلمى الحديث الذى تميز بالنقد الصارم والبحث الدقيق ، وكان

---

(١) De Boer, op. cit. pp.106-128

(٢) انظر أيضاً مقالته « إخوان الصفا » فى دائرة المعارف الإسلامية De Boer, op. cit. pp. 81-96

(٣) Grunebaum, op. cit. P. 41 (٤) Sarton I. p. 695

(٥) Ibid, p. 707

إلى جانب ذلك رحب الصدر بالثقافات الأخرى ، محبا للحقيقة جرىء الفكر . وهى صفات عز نظيرها فى القرون الوسطى ، وقل وجودها حتى فى عصرنا الحاضر .

ويضارع البيرونى فى عظمته معاصران أحدهما ابن الهيثم « أعظم علماء الطبيعة المسلمين وأحد كبار علماء البصريات فى جميع العصور »[١] . وقد أثر مؤلفه الرئيسى « البصريات » تأثيرا كبيرا على العلم فى الغرب وخاصة على روجر باكون وكبلر[٢] . « وكانت مباحثه فى البصريات والهندسة والفيزيولوجية أهم ماحدث منها بين العصور القديمة والقرن السادس عشر »[٣] . وكان الآخر ابن سينا « أعظم أطباء عصره ومن أعاظم أطباء جميع العصور » . والكثيرون من المسلمين يعتبرونه أشهر علمائهم وأمير المعارف كلها . وله موسوعتان عظيمتان إحداهما فلسفية « كتاب الشفاء » والثانية طبية « القانون » وهما تمثلان ذروة الفكر فى القرون الوسطى ، وكان للقانون تأثير شامل على الطب الأوروبى ، وقد ترجمه إلى اللاتينية جيرار الكريمونى فأصبح مرجعا للأطباء وبقى ستة قرون المرجع الأعلى فى البلدان المسيحية كما كان فى البلدان الإسلامية . وطبع هذا المؤلف الضخم فى أوروبا ست عشرة مرة فى الثلث الأخير من القرن الخامس عشر ، وأكثر من عشرين مرة فى القرن التالى . وأما شروحه باللاتينية والعبرية واللغات الدارجة ، مخطوطة ومطبوعة ، ومختصراته فأكثر من أن تحصى . واستمر استعماله فى أوروبا حتى أواخر القرن السابع عشر وما زال مستعملا فى الشرق حتى عصرنا هذا . « وأغلب الظن أنه مامن مؤلف طبى تناوله الناس بالدرس كهذا الكتاب »[٤] .

---

(١) Sarton I. p. 721

(٢) Meyerhof, The Legacy of Islam pp. 333-5 De Boer, op. cit. pp. 148-153

(٣) Sarton, I. p. 698

(٤) Sarton, I. p. 700 - 710 ; II p. 66, Meyerhof ; The Legacy of Islam pp. 329—330.— De Boer : op. cit. pp. 131—148

والنصف الثانى من القرن الحادى عشر هو عصر عمر الخيام الذى عرفه الغرب وأحبه لرباعياته ، ولكنه يعرف عند مواطنيه بأنه من أعظم الرياضيين والفلكيين .

وعاش فى هذه الفترة الغزالى ، وهو من أرفع العلماء روحا فى الإسلام ، وأكثر فلاسفة المسلمين ابتداعا . وحياته عظيمة كمؤلفاته ، إذ كان يسيطر عليها دأبا فى البحث عن المعرفة ، ورغبة جارفة فى بلوغ الحقيقة . وفى المرحلة الأولى من بحثه أصابه عذاب أليم لما ساور نفسه من شكوك عميقة حادة . وعندما أتقن علوم عصره كما كان يفهمها و يلقنها أصحاب الفرق الدينية والمذاهب الفلسفية المختلفة ، لم يفلح فى أن يجد فيها الراحة واليقين . غير أن بحثه تتوج بالظفر ، إذ كشف للغزالى ضعف الفلسفة والعقائد وأخطاء الفلاسفة وعلماء الدين ، وقاده بحثه إلى تناول نشيط للحقيقة التى كان يبحث عنها .

كانت الفلسفة فى زمن الغزالى معناها فلسفة أرسطو كما كانت مطبقة على الدراسات الدينية التى انصرف إليها العالم الإسلامى وتبناها مسيحيو أوروبا فى القرون الوسطى واستمرت محورة نوعا ما بفلسفة القديس توما الأكوينى ، وهى الفلسفة الدينية الرسمية لجزء كبير من العالم المسيحى حتى يومنا هذا . وكان علم الدين فى عصر الغزالى قد أصبح إلى حد كبير مرتعا للسفسطات الفقهية . وإلى جانب ذلك امتزجت محبة آل البيت بمعتقدات وحركات دينية قديمة فتكون منها اعتقاد بدكتاتورية الحقيقة بصورة شخص معصوم عن الخطأ . كل هذا قصر بالطبع عن إرضاء فكر الغزالى الثاقب فى بحثه الصادق عن الحقيقة الحية . وقد أدى به بحثه من جهة إلى رفض أستاذية لامعة فى المدرسة النظامية فى بغداد ، ومن جهة أخرى إلى حياة تشبه حياة غاندى تتناوبها فترات كان ينسحب فيها انسحابا تأمليا بعيدا عن الناس ، وفترات كان يعود فيها إلى التعليم والإرشاد بين الناس الحيارى فى

تفكيرهم [١] . وبهذا وجد نفسه مدفوعا أكثر فأكثر إلى مصاحبة الصوفيين المخلصين ، وهنا وجد ما كان يصبو إليه : وجد الإيمان الحى والبحث المستمر فى الاقتراب من المنبع الخلاق للحق والخير والجمال الذى هو الله .

وبعد القرن الحادى عشر بدأ يشارك فى شرف الزعامة العقلية الفكر الذى أخذ بالتفتح فى أوروبا ، غير أن قادة الفكر فى القرن الثانى عشر كانوا فى غالبيتهم مسلمين . أما اعتماد أوروبا على الحضارة الإسلامية فخير دليل عليه رجل يمثل أوروبا فى ذلك العصر ، هو جيرار الكريمونى المترجم « الذى يذكرنا بأن روح التقدم كانت تنطوى بمقدار كبير على الحكمة فى جمع ثمار الحضارة الإسلامية » [٢] .

وفى القرن الثالث عشر آلت زعامة الفكر إلى أوروبا ، وإن بقى العرب دون جدال أسياد الفكر فى عدد من العلوم هى الفلك والرياضيات والنبات والصيدلة وبعض فروع الطب وأهمها طب العين .

ولم يكن الجهد العلمى سوى ناحية واحدة من حياة الجماعة العربية النشيطة ، فالاتصال بالعرب أثر فى حياة أوروبا من وجوه لا تحصى ، وتعددت وسائل نقل الثقافة . وكانت الحركة التجارية من أكثر هذه الوسائل استمرارا وأشدها مفعولا . ولم ينقطع إلا نادرا سيل الحجاج إلى الأرض المقدسة وإن تضاءل فى بعض الأوقات . وقرب الصليبيون بين الشرق والغرب بالرغم من التعصب الذى خلقوه بشكل عنيف . وكان الصليبيون الذين استقروا فى المشرق على اتصال يومى بالعرب وكانوا يعتمدون عليهم لسد حاجاتهم اليومية ، فقامت الزراعة على كواهل الفلاحين المحليين ، وكانت الفنون والحرف والصناعات فى أيد وطنية ، وكذلك التجارة المحلية والخارجية . هذا إلى أن العرب والإفرنج كانوا يجتمعون معا فى الاحتفالات الشعبية والأعياد

---

(١) Toynbee : A Study of History, III, 248–332

(٢) Sarton, II p. 276

والمباريات وسوى ذلك من الحفلات العامة ، وخفت حدة التعصب وحل محله التسامح المتبادل والتقدير . ويلاحظ الفرق بين الصليبيين المستوطنين و بين القادمين الجدد من أوروبا فى وجهة نظرهم نحو المسلمين كما يظهر من المصادر العربية المعاصرة ككتاب أسامة بن منقذ[١] . وهو ظاهر أيضاً فى تواريخ الحروب الصليبية التى كتبها مؤرخو الافرنج الذين عاشوا فى المشرق ، وتلك التى كتبها أوروبيون لم يعرفوا الشرق قط ، فحين كان تاريخ جاك ده فترى يقطر غضبا وحقدا ، فإن تاريخ وليام الصورى يدل على تفهم للعرب و إدراك لدنيا الإسلام .

ولقد وجد الصليبيون فى المشرق ثقافة أرقى من ثقافتهم . فكانت الحياة هنا أغنى وأكثر إشراقاً وتنوعا ، وكانت الأرض تنتج عدداً كبيراً من أنواع الحاصلات والفاكهة لم يكن الأوربيون يعرفون منها إلا بعضها ، وكانت البضائع على اختلاف أنواعها تتكدس فى الأسواق والحوانيت ، فبعضها من صنع الصناع وأرباب الحرف الوطنيين ، و بعضها مستورد من جهات قاصية ، وكانت المساكن فى بنائها وأثاثها تحتوى على وسائل الراحة التى لم يكن الأوروبيون يألفونها ، وكان الناس فى حاجاتهم اليومية يستخدمون أنواعا كثيرة من الأوانى والمعدات ، وكانت الملابس حلوة زاهية ، والطعام يعد بعناية واتقان .

وكانت النظافة العامة والمحافظة على الصحة أفضل بكثير مما كانت عليه فى أوروبا ، وكانت الحمامات العامة ظاهرة رئيسية فى المدن ، وكثرت المستشفيات والعيادات ومخازن الأدوية ، وكانت تصون الصحة العامة سلسلة من القوانين المحكمة الدقيقة تتناول الأسواق والمؤسسات العامة من كل الأنواع وتشمل تحضير و بيع المأكولات والمشروبات والأدوية والعقاقير . ويقوم المحتسب بملاحقة وتنفيذ

---

(١) Hitti : An Arab - Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades : Memoirs of Usamah Ibn Munqidh 1629

هـذه القوانين ، وهو من كبار موظفى الحكومة . والكتب العديدة المكتوبة عن واجبات وأغراض الحسبة تعطينا صورة حية عن حياة المدن الراقية الجيدة التنظيم .

ومن الصعب تقدير نصيب الحروب الصليبية فى نقل الثقافة العربية إلى أوروبا . فهم دفعوا بالتجارة دفعا قويا إلى الأمام وأنعشوا أوجه النشاط فى مدن إيطاليا التجارية كالبندقية وجنوى و بيزا وغيرها . وفى هذه الفترة دخلت إلى أورو با أنواع كثيرة من غلال آسيا وانتشرت فيها ، فمنها قصب السكر والموالح وغيرها من أشجار وحاصلات المشرق التى انتقلت إلى بلدان غربى البحر المتوسط ، ووجدت المنسوجات والرياش وجميع أنواع السلع طريقها إلى الأسواق الأوروبية ، كما أدخلت إليها أنواع جديدة من الألوان والأصباغ والعطور ، وكان من الطبيعى أن يرافق إدخال السلع الجديدة انتشار أزياء جديدة (١) .

و يظهر أثر الحروب الصليبية فى الحمامات البخارية العامة التى بدأت تنشأ فى أورو با ، وفى تأسيس المستشفيات على غرار تلك التى أنشأتها المنظمات الدينية فى الأراضى المقدسة .

و إذا كان الصليبيون قد أخفقوا فى نقل آثار العرب العلمية والعقلية فإنهم مع ذلك نشطوا الحياة العقلية فى أورو با وحركوا نتاجها الأدبى بتوسيع آفاق المعرفة والخيال ، فوضعوا تحت تصرفها مصدرا لا ينضب أفاد منه المؤرخون والقصاصون واستمد منه الإلهام الفنانون والشعراء والمغنون أجيالا عدة .

غير أن أكثر وسائل هذا النقل فعالية كانت بوساطة المركزين اللذين أنشأهما العرب فى أورو با نفسها ؛ وهما أسبانيا وصقلية .

امتدّ حكم العرب فى صقلية طوال القرنين العاشر والحادى عشر ، غير أن

---

(١) Ernest Barker : The Legacy of Islam, pp. 60– 61

الحضارة التى أتى بها العرب استمرت بعد انقراض حكمهم ، فتشبعت صقلية بالمدنية العربية الإسلامية ، واستقر العرب لا فى المدن فحسب بل فى الأرياف أيضا ، والذين منهم مارسوا الزراعة جاءوا إلى الجزيرة بمعلوماتهم الزراعية وأدخلوا إليها محصولات جديدة ، وأتى الصناع وأرباب الحرف بأساليب وأشكال جديدة فتحسنت بذلك الصناعات والحرف ، وترك الاتصال اليومى بالعرب أثرا فى عادات السكان الأصليين وأخلاقهم ، ونشطت الحياة العقلية باتصالها بالعلوم والمعارف العربية .

وبعد الفتح النورماندى استمرت صقلية فى إشعاع الثقافة العربية ، وظلت الجالية الإسلامية ردحا من الزمن عنصرا هاما من عناصر السكان . وترك النورمانديون إدارة البلاد على ما كانت عليه واحتفظوا بالعرب فى المراكز العليا ، وكان العرب قابضين على أعنة التجارة والصناعة ، وكانت العربية تستعمل فى الوثائق الرسمية إلى جانب اليونانية واللاتينية ، وكانت تسك بها النقود وتحفر على الأبنية ، ويتكلم بها متعددو واللغات من سكان الجزيرة[١] .

وكان الملوك النورمانديون أنصارا للعلم والفن فأحاطوا أنفسهم بالعلماء من مسلمين ونصارى ويهود وبتشجيعهم المستنير ترجمت كتب العلوم العربية ، وبفضل اتصالهم بسائر إيطاليا وغيرها من أقطار أوروبا انتشرت الأفكار العربية انتشاراً واسعا .

وكان روجر الثانى أكثر ملوك عصره استنارة ، ويعود الفضل الأكبر فى مجده العلمى إلى تقريبه الإدريسى ، وهو أحد كبار جغرافيي العرب ولد فى سبته على ساحل شمال أفريقيا . وكتاب الإدريسى المعروف بالكتاب الروجرى يتضمن أدق وصف للعصور الوسطى[٢] .

---

(١) Hitti, History of the Arabs. pp. 602–614

(٢) Sarton, op. cit. II, pp 140, 191

وخلف روجر هـذا حفيده فريدريك الثانى هوهنشتاوفن الذى ورث أيضا استنارة جده . و بوصفه ملك صقلية وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة وملك القدس فقد كان أقوى حكام العالم المسيحى ، وتحوم السياسة الأوروبية حول بلاطه الذى كان أيضا فى طليعة المراكز العقلية فى أوروبا . ولم يكن فريدريك سياسيا عظيما فحسب ، بل أيضا عالما ذا شأن ، وفيلسوفا ونصيرا للعلم . وكانت روحه روح انطلاق و إقدام، واشتدالنفوذ الإسلامى فى أيامه ، وكان يراسل العلماء فى مختلف الأقطار العربية ، و يصطحب العلماء المسلمين فى رحلاته فى إيطاليا وألمانيا والأراضى المقدسة . وفى ١٢٢٤ أسس فريدريك جامعة نابولى وأهدى إليها مجموعة فريدة من المخطوطات العربية ، و بتشجيع منـه ترجمت مؤلفات أرسطو وابن رشد وأرسلت نسخ عن الترجمات إلى جامعتى باريس و بولونيا . وعمل أيضا على نشر المدنية العربية بتوثيق الروابط السياسية والاقتصادية بين مملـكته والدول العربية فى المشرق وشمالى أفريقيا . وكان يدرك عدم جدوى الحروب الصليبية فحاول التوفيق بين المسيحية والإسلام ، وكانت بعثاته السلمية إلى الأراضى المقدسة أشد أثرا من الحروب الصليبية ، ومع ذلك حرمت الـكنيسة هذا الرجل خمس مرات على الأقل فى حياته ومرة أخرى بعد وفاته [١] .

وواصل ابنه مانفرد نشاط أبيه العلمى ، واستولى بعـده على الملك شارل دانجو فتبع آثار الملوك النورمانديين فى تشجيع وتنشيط العلوم العربية ، وفى عهده ترجمت موسوعة الرازى الطبية الـكبرى إلى اللاتينية .

ومع أهمية صقلية كمركز أمامى للثقافة العربيـة فى أوروبا ، فإن اسبانيا فاقتها ، إذ فيها ازداد واكتمل ازدهار هذه الثقافة . فبعد فتح الأندلس عام ٧١١ أصبحت اسبانيا من أنفس الأقطار العربية وظلت مدة من الزمن مركزا لخلافة نافست خلفاء بغداد فى أوج عزهم . واستمر حكم العرب فى اسبانيا حتى عام ١٤٩٢ عندما سقطت

(١) Ibid, II pp. 575–577 ; Haskins, Studies in Medieval Science, pp. 224–36

غرناطة معقلهم الأخير فى اليوم الثانى من العام الذى اكتشف فيه كولمبس أميركا . و بعد سقوطها بقى المسلمون حتى أخرجوا جملة واحدة فى مطلع القرن السابع عشر .

وقصة العرب فى أسبانيا هى فصل من تاريخهم ينظرون إليه حتى اليوم بالفخر والحنين .

ولم يكد يتم الفتح حتى استقر القاهر والمقهور فى حياة من التعاون المثمر المبدع ، ودخل العرب بشغف فى حياة البلاد التى أتوا إليها بذخيرة من النشاط ومجموعة كبيرة من الصناعات ، فازدهرت الأرض وكثر سكانها وانتعشت الزراعة والصناعة والتجارة انتعاشا لا عهد لها به . ومما يدل على تقدم الزراعة علما وتطبيقا ما كتبه ابن العوام وهو عربى من أشبيلية ألّف فى القرن الثانى عشر أهم كتاب زراعى فى القرون الوسطى . وهنا ، كما فى صقلية ، جاء العرب بنباتات جديدة منها القطن وقصب السكر والرز وعدد من أشجار الفاكهة كالمشمش والدراق والرمان ومجموعة من الحشائش والأعشاب العطرية وأكثرها انتشارا الزعفران. ونهضت صناعة الحرير بإدخال تربية دود القز ، وانتعشت من جديد غابات الزيتون التى كانت معروفة لدى الرومان ، كل ذلك بفضل إنشاء وتعهد شبكة للرى كثيرة الفروع واسعة النطاق .

ويمثل الجغرافيون المعاصرون أسبانيا بحديقة مترامية الأطراف تكسوها أشجار الفاكهة والأزهار ، وقد أثبت المؤرخون الحديثون ما رواه أولئك (١) .

وبقراءة أدب ذلك العصر يحس الإنسان بتعلق فى تلك الأرض يملك على الناس مشاعرهم ، وشوق لحياة الريف حتى بين سكان المدن . وكان لكل مدينة كبيرة ضواحيها القروية حيث كانت لسكان المدن بيوتهم الريفية وسط جنائن كانوا يلجأون

(١) Levi - Provençal, L' Espagne musulmane au Xème Siècle, pp. 164 ff.
Sarton, op. cit. II, 56

إليها طلبا للراحة فى جمالها الهادىء ونضارتها . وقد استوحوا من حبهم للأرض لونا من الشعر يعرف بالنوريات والروضيات ، أى شعر الزهر والروض ، يصف الطبيعة مع شعور رقيق بنواحى جمالها و إحساس لا يشو به التكلف (١) .

ولم تتخلف الصناعة عن الزراعة ، فالمهارة التى أعطت منتوجات دمشق والقاهرة و بغداد شهرتها ورواجها كانت جزءا من الحضارة التى أتى بها العرب إلى أسبانيا ، فأسسوا عددا من الصناعات وأخرجوا منتوجات ذات قيمة فنيـة عظيمة ، منها المنسوجات والخزف وأشغال المعادن والأوانى الزجاجية وتجليد الـكتب وأشغال الجلد وحفر الخشب والميناء . واستخدم الحرير المنسوج فى أسبانيا لصنع ملابس الملوك وحلل الأساقفة . أما صناعة الخزف الشهيرة ومقرها الرئيسى بلنسية فقد كانت لها سوق واسعة ، ومن أسبانيا دخلت هـذه الصناعة إلى فرنسا ، وتوجد نماذج لها هى تقليد عنها، شمالا حتى هولندا . واشتهرت طليطلة بصناعة السيوف التى كانت تضاهى سيوف دمشق ، وقرطبة بالجلد الشهير بالقرطبى . وازدهرت أيضا الفنون الصغرى ، ومن نتاجها ازدانت قصور أورو با و كنائسها (٢) .

أما صناعة الورق التى ابتدعها الصينيون فهى مدينة إلى العرب بوسع انتشارها ، إذ أتوا بها إلى أسبانيا ومن هناك وجدت سبيلها إلى سائر أورو با فأصبح بذلك من الممكن تنمية صناعة الطباعة فى عصر النهضة .

ومشت التجارة جنبا إلى جنب مع الزراعة والصناعة المزدهرتين ، فتدفق سيلها بين أسبانيا وسائر الأقطار العر بيـة فى الشرق ، وجلب التجار بضاعتهم إلى أسبانيا من الجهات القاصية مثل خراسان فى أواسط آسيا ، كما كانت المنتوجات الاسبانية معروفة فى جميع البقاع الممتدة من أورو با إلى شرق آسيا .

---

(١) Levi - Provençal, op. cit. pp. 174-5

(٢) J. B. Trend, The Legacy of Islam, pp. 13 - 16

كان الرخاء ظاهرا فى كل مكان ، فى المدن وفى الأرياف . ومن أروع أدلة هذا الرخاء النشاط العمرانى فى البناء ، الذى لم يبق منه اليوم سوى بضعة آثار كجامع قرطبة وقصر الحمراء وبرج اشبيلية ، وكلها ناطقة بأمجاد ملك العرب فى أسبانيا . وكانت قرطبة درة العالم الغربى فى العصور الوسطى ، بمساجدها التى بلغ عددها الثلاثة الآلاف ، وحماماتها العامة الثلاثمائة ، ومكتباتها السبعين ، ومدارسها المجانية العديدة ، ودكاكين الوراقين ، وقصورها الفخمة ، وشوارعها المضاءة المعبدة ، وضواحيها المتعددة . ولم تكن قرطبة فريدة بين مدن أسبانيا، بل كانت لها منافسات جديرات هن غرناطة واشبيلية وطليطلة .

وانعكست صور الرخاء المادى فى أخلاق الناس وأذواقهم ، ولم يكن حسن الأدب مقصورا على طبقة خاصة من الناس بل شمل جميع طبقات السكان ، وكان التأدب بين الناس خلقيا وخاليا من الذلة . وكان حبهم للجمال الطبيعى يعادل إحساسهم بالأشياء الجميلة التى هى من صنع الإنسان ، وهذا ما يفسر العناية والذوق الرفيع اللذين تجليا عندهم فى صنع الملابس ، والرياش وسوى ذلك من الأشياء الدائمة الاستعمال .

وإننا نلتقط من شعر ذلك العصر ما ينم عن حياة سارة راضية . وللتعبير عن البهجة والهناء اللذين كانا يخامران نفوس الأندلسيين ، ابتدعوا نوعا جديدا من الشعر العربى هو الموشحات التى تفردت بها أسبانيا وانتشرت انتشارا واسعا باللهجتين العامية (الزجل) والفصحى . وكانت خفيفة بهيجة غاية فى الرقة ، قريبة من الموسيقى بالقدر الذى تسمح به الكلمات ، وغالبا ما كانت تلحن وتغنى . ويبدو أن الشعر كان ولعا عند الناس ، وكانت القدرة على ارتجاله شائعة حتى بين الأميين ، وشغف الناس بالموسيقا والرقص شغفهم بالشعر . وحتى العصر الحاضر يحتفل الأسبان بالمواسم التى جاءت إليهم من أيام العرب .

واختلطت الأجناس والثقافات اختلاطا حرا فى شبه الجزيرة الأيبرية . واعتنق العديد من القوط الدين الاسلامى وصاروا لا يتميزون عن سائر المسلمين من الأجناس الأخرى وتمسك الآخرون بدين أسلافهم ولكنهم عاشوا بجوار المسلمين واختلطوا بهم فى الشئون اليومية ، وسموا « المستعربين » لأنهم اتخذوا مناهج العرب وتكلموا لغتهم . ولم يأت القرن العاشر حتى أصبح الإسلام عظيم الأثر فى حياة أسبانيا من الأساس .(١) وما من وصف يمكن إيراده عن تحمس الأسبان للثقافة العربية أفضل مما كتبه الفارو أسقف قرطبة فى منتصف القرن التاسع ، إذ قال متأسيا : « إن إخوانى المسيحيين يبتهجون لأشعار العرب وحكاياتهم ، ويدرسون مؤلفات علماء الدين والفلاسفة المسلمين ، لا بقصد إفحامهم بل ليكتسبوا أسلوبا عربيا صحيحا أنيقا . فأين هو العلمانى الذى يقرأ تفسير الأسفار المقدسة باللاتينية ؟ ومن هو الذى يدرس الأناجيل والأنبياء والرسل ؟ وا أسفاه ! إن الشبان المسيحيين المعروفين بمواهبهم لا يعرفون أدبا ولا لغة سوى العربية . إنهم يقرءون ويدرسون الكتب العربية بشغف ويجمعون منها مكتبات بثمن عظيم ، ويشيدون فى كل مكان بآداب العرب . وعند ذكر الكتب المسيحية يحتجون باحتقار أن مثل هذه الكتب غير جديرة بعنايتهم . إنه لأمر مؤسف حقا ! لقد نسى المسيحيون لغتهم وليس فى الألف واحد منهم يستطيع أن ينشئ بلاتينية متوسطة خطابا إلى صديق ، أما بالعربية ، فالكثيرون منهم يستطيعون التعبير بكثير من الإتقان وحتى نظم أشعار تفوق فى صحتها الشكلية أشعار العرب أنفسهم »(٢) .

ظلت أسبانيا الزعيمة العقلية لأوروبا قرونا عدة تحت حكم العرب ، وكانت من أهم مراكز الفكر فى العالم العربى الإسلامى . وكان خلفاء قرطبة أنصارا عظاما

---

(١) J. B. Trend : The Legacy of Islam p. 28

(٢) Dozy : Spanish Islam P. 268

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

للعلم ، فتحوا المدارس وجمعوا الكتب من أقاصى البلدان ، وانتشر بين رعاياهم تذوق الكتب والعلوم . ويقال إن من ذوى الدخل الضئيل من كان يحرم نفسه الطعام ويرتدى الرث من الثياب ليتمكن من شراء الكتب (١) .

وتمشيا مع التقليد الإسلامى كان العلماء يرحلون طويلا فى طلب العلم من مراكزه فى الشرق ، وكما كانت البضائع المادية متبادلة بين أسبانيا والأقطار العربية الشرقية ، كذلك جرى تبادل العلماء والأفكار جيئة وذهابا فى سيل متصل .

ومن الأندلس العربية انتشرت الثقافة الإسلامية فى سائر أجزاء شبه الجزيرة الأيبرية وفى أوروبا . وهاجر المستعربون شمالا إلى الممالك الأسبانية المسيحية حيث ضمنت لهم ثقافتهم الراقية وظائف عالية فى البلاط وفى الإدارة المدنية والكنسية (٢) . وكثر الزواج بين الحكام المسلمين والأسر المسيحية المالكة . وكان حملة الثقافة العربية إلى أوروبا جماعة متباينة منهم الأساتذة والرهبان والتجار والجنود وأسرى الحرب والسياسيون والسفراء والمغنون والراقصون . وكان القرن الثانى عشر هو أعظم عصر تم فيه هذا الانتقال ، مع ملاحظة أن المعرفة العربية نفذت إلى قلب أوروبا قبل ذلك بمائتى سنة .

وفى القرن العاشر كانت خلافة قرطبة فى ذروة قوتها ومجدها وتبودلت السفارات بين الخلفاء وأباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وفى منتصف القرن أرسل أوتو الأول الكبير إلى عبد الرحمن الثالث سفارة يرأسها راهب عالم من دير غورزا بالقرب من مدينة متز فى اللورين ، وبقى المبعوثون ثلاث سنوات فى قرطبة حيث يرجح أنهم تعرفوا إلى العلوم العربية وعند رجوعهم أخذوا معهم بعض المخطوطات

---

(١) Ribera, Disertaciones Y Opusculos, I. pp. 197 f.

(٢) Miguel Asin, Islam and the Divine Comedy, translated and abridged by Harold Sunderland, 1926, P. 243, N. 1.

العلمية . وفى هذا القرن اشتهرت مدارس اللورين فى جميع أوربا وتزعم دير غورزا الإصلاح الدينى وإحياء العلوم ، وأم هـذا المركز الأساتذة الرهبان من ألمـانيا وإيطاليا وفرنسا وانجلترا واسكتلندا وإيرلندا . وهنا بدأت بذور العلم العربى تنبت ثم ذاعت فى الأجزاء الأخرى من أوروبا وخاصة فى انكلترة حيث وجد الـكهنة اللوثارنجيين حظوة لدى الملك كنود الـكبير وعينوا فى وظائف إدارية مختلفة . ومن ذلك الوقت ولأجيال عدة منح الأساتذة اللوثارنجيون وظائف كبيرة فى كنائس انـكلترة ومدارسها ، وكان العلم العربى خلال القرن الثانى عشر يدرس فى مدرسة كاتدرائية هير فورد بالإضافة إلى الفنون الحرة وعلوم الدين (١) .

وتحتل انكلترة منزلا كبيراً فى نشر العلم العربى فى أوروبا خلال القرن الثانى عشر ، وتبرز من بين جماعة كبيرة من الفلاسفة الانـكليز والمترجمين عن العربية أسماء أديلارد أوف باث وما يكل سكوت وروجر با كون .

كان أديلارد أوف باث من أقدم المترجمين وأعظمهم ، ويحتمل أن يكون تعلم العربية خلال زيارته لصقلية وسوريا ، وكان شديد الإعجاب بالعلوم العربية فا كتسب منها اتجاها علمانيا عقلياً (٢) .

وتعلم مايكل سكوت فى إسبانيا ثم دخل فى خدمة فريدريك الثانى ملك صقلية وترجم العلوم والفلسفة من العربية وكان أحـد مؤسسى فلسفة ابن رشد اللاتينية (٣) .

وكان روجر با كون ، كسلفه أديلارد أوف باث ، كثير الإعجاب بالعلوم

---

(١) J. W. Thompson : The Introduction of Arabic Sciences into Lorraine in the Tenth Century, Isis, XII. 1929, pp. 134–193 ; Mary C. Wellborn, Lotharingia as a Center of Arabic and Scientifie Influence in the 11th Century, Isis, XVI, 1931, pp. 188–199.

(٢) Haskins, Studies in Medieval Science, pp. 10, 66 ; Sarton, op. cit. I, p. 563.

(٣) Sarton, op. cit. II, pp. 491 ; 579–582.

العربية وأشار على طلبته بهجر مدارس أوروبا والالتحاق بمدارس العرب[١] .

وكانت طليطلة أهم مراكز نشر الثقافة العربية وقد أهلتها ظروف عدة لاحتلال هذا المركز ، إذ عاش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود جنبا إلى جنب تحت حكم العرب وبعد استيلاء المسيحيين عليها ، هذا إلى أن جالية فرنسية كبيرة استوطنت حيا بكامله من البلدة ، واستمر المسلمون بعد الفتح المسيحى على أعمالهم المعتادة تحت حكم أسيادهم الجدد . وفى طليطلة وغيرها من الأماكن التى استعادها المسيحيون كان للمسلمين أثر بارز فى الزراعة والتجارة والفنون والحرف والتنظيم المدنى ، واحتلوا مكان المستعربين فى نقل الثقافة الإسلامية ، والمستعربون أنفسهم استمروا على مناهجهم العربية وظلت العربية اللغة المسيطرة فى طليطلة حتى آخر القرن الثانى عشر ، وكان من لا يزال يتكلم بها ويكتبها بعد ذلك بقرنين من الزمن .

وفى القرن الثانى عشر صارت طليطلة مركزا عظيما للترجمة تحت رعاية أسقفها العالم ريموند الأول واجتذبت مدارس الترجمة فيها عددا من العلماء من سائر إسبانيا ومن أقطار أوربية أخرى : فرنسا وإيطاليا وهولندا وإنكلترة واسكتلندا ودلماسيا .

وكان القسم الأوفر من الترجمات من العربية إلى اللاتينية ، وترجم مقدار لا بأس به إلى العبرية والبعض إلى اللغات الدارجة وأغلبها الأسبانية والبورتغالية .

وكان أكبر هؤلاء المترجمين جيرار الكريمونى ، أبو الدراسات العربية فى أوروبا ، وكان نشاطه عظيما وإليه ينسبون ترجمة ثمانين مؤلفا تقريبا بعضها ضخم كقانون ابن سينا . ومن بين ما ترجم مؤلفات الكندى والفارابى والخوارزمى

---

(١) Farmer, The Legacy of Islam, P. 371.

والفرغانى والزرقانى وابن الهيثم والرازى وابن سينا [١] .

ولم ينقض القرن الثانى عشر حتى أصبحت علوم العرب فى أكثرها بين أيدى الأوروبيين ، وبذلك أبصر اللاتين النور بعد الظلام ، وخير شاهد على تأثير ذلك قيام الجامعات التى لم تظهر قبل ذلك لعدم وجود الكافى من العلوم ، وقد أمدت الثقافة العربية بمادتها الغزيرة وروح البحث العقلى الجامعات بالمجال الضرورى والفرصة اللازمة ، وتداخلت الحضارتان الإسلامية والمسيحية فى القرن الثانى عشر مكونتين قلب أوروبا الجديدة ، وعليه يصح وصف القرن الثانى عشر بأنه عصر نهضة [٢] .

وفى القرن الثالث عشر ، خلال حكم الفونسو العاشر المستنير الملقب بالحكيم ، استمر نقل الثقافة العربية إلى العالم المسيحى بمزيد من النشاط ، فجمع الفونسو حوله العلماء المسلمين والمسيحيين واليهود ، وبمعاونتهم ومناصرته وتحت إشرافه ترجمت مؤلفات ضخمة وأخرجت تصانيف كثيرة ، وكان هذا الملك المسيحى رسول العلم العربى ؛ فبنى مدرسة فى مرسية ليلقى فيها حكيم مسلم محاضراته على الطلاب المسلمين والمسيحيين واليهود ، وأسس فى أشبيلية مدرسة لاتينية عربية علم فيها الأساتذة المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب [٣] . وكان الفونسو نفسه عالما ألف كتبا فى الفيزياء والفلك ونظم مدائح للعذراء مريم وهى من أنفس مجموعات الشعر فى القرون الوسطى . وهذه المدائح مكتوبة بالصورة الشعرية الخاصة بأسبانيا المسلمة ، أى الموشحات والأزجال ، أما الترقيم الموسيقى المرافق لها فهو عربى الأصل ، على حد

---

(١) Héskins, op. cit. pp. 14–15, Sarton op. cit. II 338–344, Meyerhof The Legacy of Islam, P, 347.

(٢) Sarton, op. cit. II, Pt. 2. P. 285, Nordstrom : Moyen Age et Renaissance P. 81.

(٣) Asin, op. cit. pp. 245–246.

قول العالم الأسبانى ريبيرا ، وهو يمثل فنًّا موسيقيا راقيا [١] .

وقد اعترف زعماء الفكر الأوروبى فى القرن الثالث عشر بتفوق الحضارة الإسلامية ، وينسب روجر با كون تغلب العرب على المسيحيين إلى جهل هؤلاء باللغات السامية والعلوم التطبيقية التى كان العرب أساتذتها . [٢] وكان الفكر العربى ذا تأثير عميق فى كبار الأساتذة المسيحيين ، فكان أساس التعليم فى جامعة باريس أرسطوية ابن رشد كما وردت من طليطلة ، وكذلك أقر البرت الكبير بتفوق الفلاسفة المسلمين وشرح مؤلفاتهم للطلبة الذين كانوا يشهدون محاضراته فى باريس وكولونيا [٣] وكان من بين طلبته القديس توما الأكوينى الذى به بلغ الفكر المسيحى فى القرون الوسطى ذروته ، وكان القديس توما نفسه يستلهم الفلسفة الإسلامية ، [٤] وفى فكرته عن رؤيا السعادة أثر قوى للفلاسفة المسلمين ، ومن قبل عرف الغزالى رؤيا السعادة بأنها اكتمال الفهم ، وقد ردد العالمان الأسبانيان ريموندلول وريموند مارتين صدى ماتصوره الغزالى وابن رشد وابن العربى فى تخيلاتهم عن الجنة [٥] .

ولما أخفقت الحروب الصليبية جرت محاولة للتقرب من المسلمين عن طريق البعثات الدينية . على أن التدريب على التبشير يقتضى معرفة بالإسلام فكان هذا دافعا آخر لدرس الثقافة الإسلامية ، فدرس الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان اللغةالعربية والدين الإسلامى قصد التبشير للمسلمين ، وأسست دراسات للغة العربية

---

(١) Trend : The Legacy of Islam, P. 35 ; Ribera : Music in Ancient Arabia and Spain, pp. 6–8.

(٢) Asin : op. cit. P. 257,

(٣) Sarton, op. cit. II, P. 934.

(٤) Asin, op. cit. pp. 160–161.

(٥) Ibid, pp. 139–150.

وغيرها من اللغات السامية فى جامعات أوروبا الجديدة لإعداد المبشرين للعالم الإسلامى .

وفى هذا العصر المتشبع بالحضارة الإسلامية أخرج دانتى «الكوميديا الإلهية». وليس من المحتمل أن يكون العلم الإسلامى الذى أعجبت به أوروبا وسعى إليه زعماء الفكر فيها قد فات دانتى ولم يترك عنده أثراً ، فالأدلة تشير إلى عكس ذلك .

والكوميديا الإلهية لها مثيلات إسلامية سبقتها ببضعة قرون ، فكان موضوع الإسراء إلى السماوات مألوفا فى الأدب العربى ، وفى القرآن الكريم ذكر إسراء النبى ﷺ ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن هناك إلى السماوات العلى ، ووصف هذا الإسراء وصفا مفصلا فى الحديث ، وأوحى بعدد من الأساطير . وقدخبر الصوفيون هذه السعادة فهم أيضاً صعدوا إلى عرش الله وتمتعوا بمشاهدة الحضرة .

ولدى مقارنة الكوميديا الإلهية بمثيلاتها الإسلاميات تظهر مشابهات بارزة ، فالترتيب العام لجحيم دانتى ونعيمه مواز تماما لما عرف به المسلمون الجنة والنار . ويرى آسين أن تصاميم الجحيم والفردوس تبدو كأنها من صنع مهندس مسلم واحد[1] . ثم إن الروايتين تتشابهان تشابها مدهشاً لا فى تخطيطهما العام فحسب ، بل وفى تفاصيلهما الزخرفية والوصفية والروائية . وفضلا عن الاتفاق فى الشكل ، فإن روحا مشتركة تتخلل القصتين ، والمعنى الأخلاقى نفسه المنبثق عن الكوميديا الإلهية موجود عند متصوفى الإسلام . والرحلة السماوية ترمز إلى تجديد النفس بالإيمان وممارسة الفضائل الدينية وبلوغ السعادة القصوى المتمثلة فى رؤيا الحضرة . وفى كلتا الروايتين ينتصر الإدراك المثالى للسماء ، حيث التأمل

(١) Asin, op. cit. Introduction, pp. XIII, XIV and pp. 68–70

السعيد فى جوهر الله هو الهدف الأخير والجزاء الأسمى للمتقين [١] .

ولم يأت القرن الثالث عشر إلا وقد انتقلت أساطير الإسلام الدينية مع النظرات الشعبية والفلسفية بشأن الحياة الأخرى إلى مجموعة الثقافة الأدبية المشتركة التى كانت فى متناول أفضل العقول فى أوروبا [٢] . وكان عقل دانتى متفتحا على آراء عصره ، وكان عصره « مشبعا بالعلم والفن الإسلاميين » [٣] . وفضلا عن المصادر الأدبية التى كانت فى متناول دانتى فإنه يحتمل أن يكون قد أخذ معرفته بالإسلام عن أستاذه برونينولاتينى وكان هـذا عالمـا واسع الاطلاع أخذ معرفته بالثقافة العربية مباشرة خلال إقامته فى طليطلة كسفير لفلورنسا فى بلاط الفونسو الحكيم [٤] . وكانت طليطلة تحت حكم الفونسو مشربة بالحضارة الإسلامية .

إن تمجيد بيانريس ، وهو الغاية الصريحة من الكوميديا الإلهية ، له سوابق فيما صدر عن متصوفى الإسلام من تعابير انجذابية ، فعروس الصوفى الروحية هى الملاك الحارس لحبيبها وفاديته الروحية . ومن مكانها الأرفع ترعاه بعنايتهـا وتقوده فى طريق الفضيلة وتوحى إليه روح الكمال وازديادا فى محبة الله ، وطوال حياته الدنيوية تبث فيه الشجاعة والطمأنينة والرشد فى كفاحه لبلوغ الصلاح . وأخيراً عندما يحرره الموت من هذه الأرض و يرفعه إلى السماء ، يجدها بجمالها المشرق تنتظر لقياه فى الجنة . والحبيبة عند متصوفى الإسلام رمز الحكمة الإلهية ، والشغف بها كناية عن اتحاد النفس الصوفية بالله [٥] .

وهذه الصورة الكمالية عن المرأة لا تقتصر على أوساط المتصوفين ، بل نجدها

---

(١) Ibid. P. 74.

(٢) R. A. Nicholson ; The Legacy of Islam. pp. 227 – 228.

(٣) Asin, op. cit. Introduction, P. XVL

(٤) Ibid. pp. 252 – 254

(٥) Ibid. pp. 129 – 130, 274 – 275.

فى الجزيرة العربية فى صدر الإسلام ، وخاصة عند بنى عذرة فى شمال الحجاز ، ومن هنا نشأت عبارة « الحب العذرى » . ويصف شعراء ذلك العصر العاشق بأنه يذوب وجدا دون أن يفكر فى لمس حبيبته . وهذا التفسير المجرد للحب لقى قبولا واسعاً وهو ينعكس فى أدب العرب فى الشرق وفى إسبانيا . ونجد مؤلف « كتاب الزهرة » ابن داود الأصفهانى ، وهو فيلسوف فقيه عاش فى القرن التاسع الميلادى يحلل الحب ويدافع عنه بوحى الحديث القائل : « من عشق فعفّ فكتمه فمات فهو شهيد »[1] . وكان ابن حزم من كبار ممثلى الحضارة الإسلامية فى إسبانيا ؛ إذ أنه كان عالما فقيها مؤرخا أديبا وشاعرا فذا ، فكتب حوالى عام ١٠٢٢ كتاب « طوق الحمامة » ، وهو كتاب فى الحب مشبع بالعذرية فى أصفى معانيها . وقد أورد ابن حزم فى كتابه قصصا واقعية عن العشاق من جميع طبقات المجتمع الإسلامى فى اسبانيا . وكتاب « طوق الحمامة » يصور مجتمعا عالى التهذيب يعتبر فيه الحب من شئون الروح ، غاية فى الرقة والحنان والسمو ، وصفات العاشق الصبر وضبط النفس والعفة ، وهو يتقرب إلى حبيبته بالوداعة والاحترام ، ويعبدها عبادة تكاد تكون صوفية . ويزيل الحب الفوارق الاجتماعية فيخضع له الملوك . ومن شأن الوداعة والألم أن يسمو بالمرء ، وهذه علامة الحب وصفته ، أما جوهر الحب فاتحاد الروحين ، وهذا الاتحاد ، على ماوصفه ابن حزم ، هو : « حظ رفيع ، ومرتبة سرية ، ودرجة عالية ، وسعد طالع ، بل هو الحياة المجددة ، والعيش السنى ، والسرور الدائم ، ورحمة من الله عظيمة »[2] .

وحب المرأة الروحى العذرى الذى نشأ فى الجزيرة العربية وحمله العرب إلى

---

(١) H. A. R. Gibb, The Legacy of Islam, P. 187 ابن داود الأصفهانى : كتاب الزهرة ، اعتنى بنشره لويس نيكل وابراهيم طوقان ، بيروت ١٩٣٢ ، ص ٦٦ .

(٢) Leon Bercher : Ibn Hazm al-Andalusi, Texte Arabe et Traduction Française, P. 152.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

اسبانيا ألهم شعراء الغزل فى بروفانس والحركة الأدبيـة الإيطالية المعروفة باسم « الأسلوب الحلو الجديد » ، وشعراء الغزل الأوروبيون مدينون بالنسق الأدبى والعاطفى فى أغانيهم لاتصالاتهم باسبانيا المسلمة . وهؤلاء الشعراء الذين نشروا عبادة المرأة والفروسية الأوروبية باحترامها للمرأة وإدراكها للحب بأنه قوة تبعث النبل ، هم أخلاف ومقلدو الشعراء والمحبين فى بلاد العرب ومن أتى بعدهم فى الشرق وفى أسبانيا (١) .

والاتصال بالعرب أنتج ألوانا أخرى من الأدب ، فخروب الحدود أوحت بأغنية رولان وأقاصيص السيد المحارب . وكان التجار والحجاج والمسافرون إلى أسبانيا وأقطار المشرق يأتون بأحاديث عما شاهدوا وما سمعوا ، وكانت الأمثال الغنائية ، وهى ضرب شائع من القصص فى القرون الوسطى ، كثيرة الذيوع بين العرب . وأثرت حكايات ألف ليلة وليلة فى أدب المغامرات ، ولولاها « لما وجدت قصة روبنسون كروزو ، ولا رحلات غوليفر على الأرجح » (٢) ولقد فرضت حكايات ألف ليلة وليلة نفسها على التراث الأدبى فى الغرب فهى من بين الكتب الأدبية القديمة الأوسع انتشارا ، وقد ترجمت إلى جميع لغات غرب أوروبا وطبعت مئات المرات ، ويتساوى الشغف بقراءتها عند الكبير والصغير ويحبها العالم والبسيط .

وأخيرا أثر العرب فى الموسيقى الأوروبية . كانت الموسيقى عند العرب فنا راقيا جداً واسع الانتشار . ومع أن بعض المذاهب الدينية لم ترض عنها ، إلا أن محلها فى العبادة كان معترفاً به عند الغزالى وهو الحجة الثقة . وكانت الموسيقى تعتبر مساعدة للطب لتأثيرها الملطف على المرض ، وقد أدخلت إلى المستشفيات لفائدتها العلاجية ، وكانت جزءا أساسيا من التربية الإسـلامية ، هـذا إلى أنهـا

---

(١) Grunebaum, « The Arab Contribution to Troubodour Poetry », Bulletin of the Iranian Institute, Dec. 1946, pp. 138–151.

(٢) Gibb : The Legacy of Islam, P. 201.

كانت فوق كل شيء فن الشعب . وكانت الاحتفالات العـامة تصحبها الموسيقى كما كانت تصحب حفلات الأعياد المنزلية والوقائع العائلية . ولدى قراءة ألف ليلة وليلة أو كتاب الأغانى ، ينطبع فى ذهن المرء أن الموسيقى لم تكن تنقطع أبدا .

وكان لجهود العرب تأثير على النظريات الموسيقية وعلى الآلات أيضاً ، وقد أخـذت أوروبا عن العرب عدداً من الآلات الموسيقية ، منهـا العود والقيثارة والرباب والنقارة والصنج والطنبور والطبل والبوق ، واحتفظ أكثرها بالأسماء العربية . وعمل بعض كبار الفلاسفة والعلماء المسلمين على ترقية نظرية الموسيقى فاختبروا النظريات التى كانوا ورثوها على ضوء علومهم الراقية فى الرياضيات والفيزياء وأدخلوا عليها تحسينات جمة .

والموسيقى العربية النظرية والعملية وصلت إلى أوروبا عن طريقين ؛ فاللون الشعبي منها انتقل بالسماع مع الأغانى والقصائد التى ألهمت شعراء الغزل فى أوروبا ، والنظريات انتقلت بوساطة التراجمة وكانت تدرس على اعتبارها واحدة من الدراسات الأربع[1] .

وهكذا فإن الحضارة الإسلامية العربية ، التى ظلت قوة مبدعة طوال قرون عديدة ، ساهمت مساهمة أساسية فى الفـكر الأوروبى . والحياة الأوربية . فـكانت الروح العلمية عند العرب ، وحبهم للمعرفة ، وبحثهم المجد عن الحقيقة وتعلقهم بها ، واهتمامهم الشديد بالعالم الحى الحاضر ، وحيويتهم المتدفقة وتمتعهم بالحياة ، كل ذلك كان من أمارات النهضة التى اهتمت وأعجبت بالعالم الطبيعى ، بعكس العصور الوسطى التى كانت منغمسة بعالم ما وراء الطبيعة ومنشغلة بالحياة الأخرى . « عندما

---

(١) وهى الهندسة وعلم الفلك والحساب والموسيقى (Quadrivium)

جاءت النهضة وامتلأت روح الإنسان ثانية بالحماسة للمعرفة واندفعت بشعلة العبقرية ، واستطاعت أن تجدّ وتسرع فى العمل وفى الإنتاج والاختراع ، كان ذلك بفضل العرب الذين حفظوا وأكملوا مختلف فروع المعرفة ، وأبقوا روح البحث العلمى وجعلوا تلك الروح تواقة طيعة ومستعدة لاكتشافات أبعد مدى »[١] .

إن آثار المفكرين المسلمين العرب كالفارابى والغزالى وابن سينا وابن رشد وابن خلدون وكثيرين غيرهم ، والمتصوفين كابن العربى والحلاج وابن الفارض ، ومؤلفات الرياضيين والفيزيائيين وأصحاب النظريات الموسيقية والبيولوجيين والأطباء والجغرافيين والرحالة ، والآثار المعمارية كقبة الصخرة — « وهى سمفونية من الخطوط ، والألوان » — والجامع الأموى فى دمشق وجامع قرطبة والحمراء ، كل ذلك وغيره كثير هو جزء أساسى من جهد الإنسانية المتمدنة فى حقل الثقافة[٢] .

وكثرة عدد الكلمات ذات الأصل العربى فى اللغات الأوروبية ، كلمات تتعلق بشتى ميادين النشاط العقلى ، بالفن المعمارى والفنون الأخرى ، بالمهن المختلفة والزراعة والصناعة والتجارة ، بالحكومة والإدارة وبشئون الحياة اليومية ، هذه المصطلحات تدل على الأثر الدائم الذى تركه العرب فى جميع نواحى الحياة .

كان أثر العرب فى أوروبا فى القرون الوسطى كخميرة حررت الروح وأيقظت الدافع الابتكارى النائم ، وعندما انتقل التفوق إلى الغرب لم تمح أسس الحضارة الإسلامية بل اتخذها الغربيون ونموها . « وهكذا فإن الانتصار الغربى لم يعن تغيير هدف الجنس البشرى أو اتجاهه ، بل تغيير فى القيادة فحسب »[٣] .

---

(١) Carra de Vaux : The Legacy of Islam, P. 377.

(٢) Gardet : Ibla, 1944, pp. 3—40.

(٣) Sarton, op. cit. II pt. 2. P.

الفصل الرابع

الأفول

كان المجتمع العربى بين القرنين الميلاديين السابع والثالث عشر ، يعج بالحيوية والإبداع الشاملين لكل ناحية من نواحى حياته. وعبر العرب عن إمكاناتهم تعبيرا وافرا ومثمرا فى الدين والفلسفة والعلم والفن ، وفى جميع المظاهر الأخرى للحضارة . وفى هذه القرون الطويلة كلها عاش العرب فى مجرى التاريخ والأحداث العالمية . وكانوا فى طليعة الجهد الإنسانى الرامى إلى الوصول لأهداف ذات قيمة كلية شاملة .

وتبع ذلك فترة طويلة من الركود ، عاش العرب فيها على هامش الزمان ، بل فقدوا الصلة بالقيم الخلاقة والحرة فى تراثهم ذاته . ولقد قدمت أسباب كثيرة لتفسير التأخر الذى أصاب المجتمع العربى عقب فترة الإبداع المدهشة .

إن نشوء المدنيات وسقوطها من المظاهر العامة فى التاريخ . ويبدو أن لكل مدنية حدا ، إذا وصلته ، أخذ الشعلة منها مجتمع فتىّ وسار فى الدرب حتى يحين وقت تتضاءل فيه حيويته فيأتى شعب نشيط جديد ويواصل السعى الإنسانى .

وعلى أى حال ، فإن الزعامة الفكرية التى كانت بيد العرب فى القسم الأكبر من العصور الوسطى انتقلت فى القرن الثالث عشر إلى أوربا . ومنذ ذلك الحين تقدمت أوربا وازدادت رقيا ، وحققت فتوحات عظيمة فى حقول الفكر . فالنهضة، والإصلاح الدينى ، وعصر الاستكشاف ، وكشف العالم الجديد ، وفتح آسيا وأفريقيا ،والثورة الصناعية ،وانتصار العقل والتنور على التقليد والتوكيد ،والفتوحات

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

العلمية والثقافية ، أعدت العالم الغربى ، وجهزته بالوسائل ، لتحقيق مركز السيطرة الذى توصل إليه على العالم كله .

وتتالت الكوارث فى داخل المجتمع العربى . فالغزو المغولى الذى اجتاح العالم الإسلامى فى القرن الثالث عشر حطم كيان المجتمع .وقد تحدث المؤرخون المعاصرون عن الخراب الذى نجم عنه باستفظاع وأسى . ففى العراق تهدمت الحكومة والإدارة المدنية ، وانهارت وسائل الرى . وقام البدو ، المتحفزون أمام أى وهن فى السلطة الحاكمة ، فزادوا فى الدمار والفوضى . وأحرقت بغداد ، مدينة الثقافة والثروة ، ودمرت مدن سوريا الجميلة . ونالت المدارس والمكتبات التى تنمو فى أرجائها الحياة العقلية ـ نالت مصير المدن التى كانت تزينها . فأحرقت الكتب أو ألقيت فى الأنهار حتى لقد قيل ـ بشىء من المبالغة الواضحة ـ بأن الكتب التى ألقيت فى دجلة عند بغداد شكلت جسرا كان الناس يمرون عليه للوصول من إحدى ضفاف النهر إلى الضفة الأخرى .

وفى القرن التالى أصابت البلاد الإسلامية نكبة جديدة وهى الطاعون الذى انتشر فيها مرتين ، مخلفا وراءه آثارا من الموت والشقاء . وفى نهاية القرن حلت بالأحياء مصيبة جديدة لا تقل هولا عن الطاعون ، وتلك هى غزوة تيمورلنك وجموعه المغولية . فاهتزت أسس الحياة المادية ،ليس فقط بنتيجة دمار المدن والمزارع وتضاؤل السكان ، بل ربما كان لنقل المهرة من الصناع إلى سمرقند ـ عاصمة المغول فى آسيا الوسطى ـ أثر أفعل وأبقى . فأخذت الصناعات فى الاندثار بسبب حاجتها إلى الصناع الماهرين .

وأفاق العرب جزئيا من صدمة الغزو المغولى ، واستقر المغول أنفسهم وأنشأوا بالتدريج مجتمعا منظما احترم الفنون وشجعها . والحكم المغولى الذى شمل الصين وجميع البلاد الواقعة غربها حتى القفقاس ، ساهم فى الرفاه المادى وأدى إلى ازدهار التجارة والصناعة من جديد ، وكان العرب وثيقى الصلة بهذا العالم المغولى .

على أن الأهم من المصائب التى جاءت من الخارج هو نضوب روح الإبداع والمغامرة فى داخل المجتمع العربى ذاته . فالفضول العقلى الحاد الذى كان مميزا للقرون السابقة ، والسعى المتلهف الذى لا يكل وراء المعرفة ، ولذة المغامرة ـ هـذه كلها اندثرت تحت غشاء كثيف وقاس من الجمود والتقليد . فأبعـدت حرية الفـكر وحلت التقليدية فى مكانها . واعتبر السعى المجد وراء الحقيقة زندقة وكفرا ، وطمس المفـكرون الجريئون المغامرون الذين ظهروا فى العصور السالفة ، وانصرفت العقول إلى وضع الملخصات والشروح حول الأمور التى كانت معروفة ، والتى لم تـكن فائقـة الأهمية للتقدم الإنسانى ، وذلك بدلا من الالتفات إلى فتح حقول جديدة للمعرفة .

غير أن المجتمع العربى استطاع أن يجمع قوة مكنته من طرد المغول والصليبيين من دياره . وخرجت مصر من هـذه الحروب أقوى دولة عربيـة . إلا أن مصر استنزفت قواها بالاحتراب الدائم بين حكامها المماليك . فلقد أصبحت الدولة فى عصر المماليك ، وكأن لا مسوغ لوجودها ولا غرض لها سوى الحرب . وقسمت أراضيها نفسها بين أصحاب النفوذ من هؤلاء الأمراء المتحاربين ورجالهم . فأصبح المجتمع على مستوى الحـكام مجتمع سلب وعداء مستحكم ، أما الرجل العادى فإنه فقد الأمن وتعرض للظلم .

مع ذلك فمن الخطأ أن ننظر إلى هذه الفترة نظرة قاتمة تماما . فالحياة لم تتوقف ، بل استمرت فى جريانها ، وإن كانت سرعة هـذا الجريان قد انخفضت وحيويته قد تضاءلت . فهناك نواح من النشاط المستمر تستحق الذكر والملاحظة .

فبينما كان السكان القرويون يكدون فى إقطاعات المماليك ، ويعانون الظلم وفقدان الأمن ، كانت حياة المدن على جانب نسبى من الازدهار والحرية . فالأمن والازدهار النسبيان فى المدن كانا ناجمين عن تنظيم سكان المدن فى نقابات تضم جميع

طبقات سكان المدن وتشملهم بحمايتهـا . ويشهد المؤلفون والرحالون المعاصرون بازدهار المدن فى هـذه الفترة . فان الرحالة ابن بطوطة ، الذى عاش فى القرن الرابع عشر ، ومؤرخ مصر المقريزى الذى عاش فى القرن الخامس عشر ، وما كتب فى عصر المماليك من حكايات « ألف ليلة وليلة » ، والأوصاف المتعددة الأخرى ، تصف لنا الأسواق العامرة والمدن التى تعج بالنشاط التجارى والصناعى .

والفترة الواقعة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر كانت فترة تجارة واسعة ناشطة ، درّت على العرب ثروات كبيرة ، بصفة كونهم وسطاء بين الهند والصين من ناحية وأوربا من ناحية أخرى . واستمرت سيطرتهم على المحيط الهندى حتى نهاية القرن الخامس عشر ، عندما كانت سفنهم تمخر عباب هذا المحيط وتشاهد دوما فى موانئه . وعنـد ما قام فاسكودا جاما برحلته إلى الهند عام ١٤٩٧ ، فان ملاحا عربيا يدعى أحمد بن ماجد هو الذى أرشده فى طريقه . وكان قسم كبير من البضائع الشرقية المحملة بطريق البريمر بالعراق فى طريقه إلى الموانىء السورية ، حيث يشحن بعـد ذلك إلى أوروبا ـ أما معظم البضائع فـكان يأتى بطريق البر حيث يمر بعدن وبجدة فى بعض الأحيان ، ويفرغ فى مصر فيتسلمه التجار الأوربيون ويشحنونه إلى أوربا . وبلغت العلاقات التجارية مع أوربا ، وبالأخص مع الجمهوريات الإيطالية ، ذروتها . فـكانت الأساطيل التجارية للبندقيـة وجنوا وبيزا وأمالفى وغيرها من دويلات المدن تتنافس تنافساً شديداً للمتاجرة مع بلاد المشرق . وتقدمت المدن الفرنسية ـ مارسيليا ومونبلييه ونار بون وغيرها ـ لنيل نصيبها من هذه التجارة المربحة . وفعلت أسبانيا مثل ذلك فعقد ملوكها معاهدات تجارية مع سلاطين مصر . وكان التبادل التجارى يجرى أيضا مع قبرص والامبراطورية البيزنطية من بلاد شرقى البحر المتوسط .

ونشطت الصناعات فى هذه الفترة نشاطا قويا ، وكان من بينها صناعة النسيج

والأوانى المعدنية والخزف والزجاج والسجاد والجلود والورق . و بقيت الصناعة تعتبر فنا من الفنون فكانت تنتج أنواع البضائع ذات الجمال والقيمة الدائمين . وكثير من المنتجات الجميلة للفنون الإسلامية الفرعية ، أنتجت فى هذه الفترة .

وازدهر الفن المعمارى ، إذ أن المماليك كانوا من عظام البنائين ، وتوافرت لديهم الوسائل لتحقيق رغباتهم لإقامة المبانى الخالدة ، فبنيت بعض المساجد الرائعة فى القاهرة فى هذا العصر ، وكان الكثير منها مدارس . واستمر هذا العمل البنائى حتى نهاية القرن الثامن عشر .

واستمر التقليد العلمى من غير انقطاع . ففى مصر ازدهرت مدرسة فى الدراسات التاريخية والدينية وأنتجت عددا وفيرا من المؤلفات . فالسيوطى وحده ينسب إليه ستون وخمسمائة من المؤلفات ، تعالج موضوعات متنوعة كالقرآن والحديث واللغة والتاريخ والفقه والفلسفة . وكانت مؤلفاته هذه تقرأ فى العالم الإسلامى كله من الهند إلى مراكش . و بقى منها إلى يومنا هذا ستة عشر وثلاثمائة من المؤلفات بعضها كبير الحجم . ويعتبر المقريزى أعظم المؤرخين وذلك لا ستقصائه الصبور ولوصفه للحياة فى عصره ـ ذلك الوصف الذى تغلب عليه الدقة . ووضع مؤلفان شهيران عن إدارة المماليك هما زبدة كشف الممالك للظاهرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى . وهذان المرجعان يعطيان فكرة طيبة عن الإدارة الحكومية فى عصر المماليك [1] .

وكان هذا عصر الأدب الشعبى . فمجموعة حكايات « ألف ليلة وليلة » المجمعة من أصول متعددة والمكتوبة فى تواريخ مختلفة ، نالت شكلها النهائى فى هذا الوقت . وقصة عنترة ، بطل الصحراء ، وتغريبة بنى هلال التى تروى مغامرات قبائل بنى هلال و بطولتها ، وأساطير لقمان حكيم العرب قبل الإسلام ، نالت انتشارا واسعا ، وحببت إلى الناس رواة القصص وفنهم الذى نال التقدير والإعجاب

(١) H.A.R. GIBB : Arabic Literature, An Introduction, 1926, pp. 105 – 106

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

ومن مظاهر استمرار الحيوية توسع الإسلام إلى أندونيسيا وجزائر الملايو، وتغلغله فى شرقى أفريقيا وغربيها. فلقدجاء الإسلام إلى هذه المناطق على أيدى التجار الذين كانوا ينقلون ثقافتهم مع بضائعهم، وكانوا يبشرون بدينهم أينما حلوا (١).

وكان المغرب فى هذه الفترة مركزا مهما من مراكز المدنية الإسلامية. وشابهت المدن الرئيسية: تونس وفاس ومراكش مراكز العلم فى المشرق العربى، إذ أن توطن عرب أسبانيا فى أفريقيا الشمالية بعد طردهم من أسبانيا نشط الثقافة والعلم. وقد كتب أحد المؤرخين الجزائريين تاريخا فى غاية الأهمية فى القرن السابع عشر. وهذا المؤرخ هو المقرّى ومؤلفه التاريخى الأدبى الضخم يعتبر من أهم المصادر عن أسبانيا المسلمة. وكانت حياة المقرّى منطبقة على تقاليد العلماء؛ إذ أنه صرف معظم وقته فى الترحال إلى مصادر المعرفة طلبا للعلم. فبعد أن درس فى فاس ومراكش، رحل شرقا وحج مرات عديدة، ودرس فى مكة والمدينة. ودرّس وتعلم فى القاهرة والقدس ودمشق، واستقر أخيرا فى القاهرة، وتوفى فيها سنة ١٦٣٢.

غير أن مفخرة المغرب هو ابن خلدون، وهو من أعظم رجال المدنية العربية. وقد كتب مقدمته الخالدة بالقرب من تلمسان فى الجزائر فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر. وابن خلدون هو مؤسس فلسفة التاريخ كما أنه سبق دوركهيم (Durkheim) وغيره من مؤسسى علم الاجتماع الحديث بخمسمائة سنة. وفى المقدمة التى كتبها لتاريخه الكبير وضع فلسفة للتاريخ تعتبر من غير شك، أعظم ما وضعه من نوعها، أى عقل فى أى زمان أو مكان (٢).

---

(١) GIBB: op. cit., P. 115.

(٢) Toynbee: A Study of Htstory III, 322 انظر أيضا: Charles Issawi: Ibn Khaldun, An Arab Philosophy of History, Wisdom of the East, John Murray, 1940.

ومن مشهورى رجال المغرب ابن بطوطة الرحال ، الذى يزودنا بأوسع المعلومات عن الحيـاة الاجتماعية والثقافية فى العالم الإسلامى فى العصر الذى تلا الغزو المغولى . ويحتوى مؤلفه على ملاحظات دقيقة ووصف صادق لما شاهده فى رحلاته التى دامت ثلاثين عاما فى العالم الإسلامى ، ووراء العالم الإسلامى .

وفى عهد الاحتلال التركى الذى ابتدأ فى مطلع القرن السادس عشر أخـذت البلاد العربية تتقهقر باستمرار . وقد تم الاحتلال التركى فى نفس الوقت الذى اكتشفت فيه الطرق التجارية الجديدة التى ربطت أوربا مباشرة بالهند ، وبالتالى خففت من أهمية دور العرب بوصفهم وسطاء لتجارة الشرق المربحة . وهذا التغيير فى طرق التجارة أصاب سكان المدن بضربة قوية وكان أحد أسباب الانحلال العام الذى رافق السيطرة التركية . وكان فساد الحـكم سبباً آخر لهذا الانحلال . ولقد قاسى الناس كثيراً من ظلم الحـكام وفسادهم ، خصوصاً فى الأرياف حيث أخذ الناس يهربون من قراهم ويلتجئون إلى المدن ، فتضاءل عـدد السكان الريفيين وتقهقرت الزراعة . ورافق التدهور الاقتصادى وسوء الحـكم العام إهمال لطرق المواصلات ، فأدت هـذه الأسباب مجتمعة إلى تقويض القانون ، وانعـدام الأمن والنظام .

ذلك ما كان من أمر الانحلال ، حتى إنه عندما غزا نابليون مصر فى نهاية القرن الثامن عشر ، لم يكن فيها من السكان سوى مليونين ونصف وكانت مدنها قد ضمرت إلى حجم القرى الـكبيرة ، واندثرت صناعاتها التى طبقت شهرتها الآفاق فى العصور السابقة ، ولم يبق سوى بعض الحرف البدائية .

وسارت الحياة العقلية فى مجرى متجمد لا انحراف عنه . وكان هذا اللون من العلم التقليدى يدرس فى عدد من المراكز أهمها وأشهرها جامعة المسجد الأزهر . وللأزهر مكانة فريدة فى الثقافة الإسلامية بوصفه محافظا على اللغة العربية

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصحى وعلى مذاهب أهل السنة من المسلمين . وأصبح الأزهر بعد الغزو المغولى مركز العلم الرئيسى فى العالم الإسلامى وأخذ يضم فى أرجائه طلبة من جميع أرجاء العالم الإسلامى الواسع . وفى الوقت الذى جاء فيه نابليون إلى مصر كان الأزهر يضم طلبة من شمال أفريقيا والنوبة و بلاد السنغال ، وساحل الصومال ، ومن المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، ومن اليمن وسوريا والعراق ، ومن تركيا وكردستان وخراسان وأفغانستان وجاوه و بورنيو والهند . وبالطبع كان هنالك طلبة من جميع أنحاء القطر المصرى .

وكان الألوف العديدة من المسلمين يجتمعون سنويا فى مكة لأداء فريضة الحج ، وكان بعض هؤلاء يبقون فيها لمتابعة الدراسات الدينية طيلة العمر . وفى القرن التاسع عشر كانت حلقات العلم مازالت من المناظر المألوفة فى الكعبة المشرفة . حتى إن العالم والرحال الهولندى سنوك هورجرونيه (Snouk Hurgronje) الذى عاش فى مكة سنة ١٨٨٤ـ ١٨٨٥، تأثر كثيرا من مشهد الطلبة المختلفى الأعراق وهم مجتمعون جنبا إلى جنب لتلقى العلم على أساتذة وفدوا من جميع البلاد .

كانت هذه الفترة طويلة وقاتمة ، ولكنها لم تكن فترة رقاد ولا انتهت بيقظة مفاجئة ، بل حملت فى داخل ذاتها بذور البعث والتجدد وربّت المصلحين الذين حركت أعمالهم وأفكارهم أعمق الأثر فى بعث الفكر فى القرن التاسع عشر .

الفصل الخامس

نهضة فى الحياة العربية

قدّم الدين أول الحوافز لبعث المجتمع . فلقد قامت جميع محاولات الإصلاح التى تمت قبل القرن التاسع عشر على أيدى نفر من رجال الدين . وكان المصلحون الدينيون أشد أثراً بين جميع القوى والتيارات العاملة للإصلاح .

وهذا من الأمور الطبيعية ؛ إذ أن الدين ، رغم فقده الكثير من نقائه الأصلى ومن سلطانه ، فإنه بقى مع ذلك قوة كبيرة فى حياة الناس ، بل لعله كان أهم قوة فى حياتهم . ولقد ساير الكثيرون من رجال الدين أخطاء عصرهم ، ولكن أصحاب الشكيمة القوية بينهم ، وهم أقلية صغيرة من غير شك ، تشبثوا بكرامة رسالتهم وبواجبهم . فوقفوا فى وجه الحكام من غير خوف أو وجل ، وانتقدوا سوء تصرفات هؤلاء الحكام ، وذكروهم فى جرأة وشجاعة بواجباتهم تجاه الشعب .

وظهر فى نجد مصلح دينى كان له أثر واسع وبعيد هو محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابى . وقد عاش محمد بن عبد الوهاب فى القرن الثامن عشر ، وحصل على العلم التقليدى ورحل مسافات طويلة طلبا للعلم ، ومرّ فى رحلاته بالمدينة والبصرة وبغداد وكردستان وهمذان وأصفهان وقمّ . وبعد أن درس الفقه والفلسفة والصوفية عاد إلى موطنه مبشرا بالإصلاح ، فدعا إلى العودة إلى الإيمان فى نقائه وبساطته الأصليين ، وإلى اطراح البدع التى تراكمت عليه مع الزمن حتى طمست شكله الأصلى ومعناه . وكانت تعاليمه ترمى إلى تنقية الإيمان وبعث المؤمنين .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ومع أن الوهابيين جاءوا بعقيدة لا تلين ، واعتبروا غيرهم من المسلمين كفرة مما جعل المسلمين الآخرين من جانبهم يتهمونهم بالضلال ، إلا أن أثر الإحياء الوهابى أخذ ينتشر بالتدريج متجاوزا شبه الجزيرة العربية إلى جميع البلاد الإسلامية .

وقد وصلت الوهابية إلى الهند عن طريق السيد أحمد الذى حج إلى مكة سنة ١٨٢٢ وتأثر بتعاليم محمد بن عبد الوهاب وعاد إلى الهند مبشرا بالمذهب الجديد .

وهنالك زعيم دينى ثان اطلع على الوهابية أثناء حجه إلى مكة وهو سيدى محمد ابن على السنوسى الجزائرى . وعندما عاد السنوسى من جزيرة العرب استقر فى برقة حيث أسس الطريقة السنوسية ، وأقام دولة دينية . ولقد كانت دعوة السنوسيين إلى الاجتهاد دعوة جديدة فى عصر تجمد فيه الدين بالتقليد .ولقد أصبح السنوسيون أهم عنصر فى تاريخ برقة الحديث .

وقد أثرت الوهابية أيضا على حركة الاصلاح الدينى فى مصر من خلال محمد عبده الذى نادى بقوةٍ بالعودة إلى أصول الدين و بفتح باب الاجتهاد الذى أغلقه ضعاف العقول من العلماء الراغبين بالتقبل الأعمى لكل ما جاء به السلف .

وقد أدخل الاحتكاك بالغرب عناصر جديدة وسارع خطى الإصلاح . إذ رافق حصول هذا الاحتكاك هزة قوية بغزو نابليون لمصر ، فخرج جيش المماليك لملاقاة الفرنسيين ، وشاهدوا لأول مرة جيشا مصريا أفضل تدريبا وتجهيزا من جيشهم بكثير . وكان المماليك من المحاربين الأشداء ، فقابلوا الغزاة بثقة وكبرياء . إلا أن المعركة ما لبثت أن انقلبت إلى هزيمة منكرة واتضح أن النصر كان حليف التدريب الأفضل والسلاح الأقوى .

غير أن انتصار نابليون الأولى لم يلبث أن اصطدم بمقاومة من سكان المدن . وحاول نابليون أن يكسب المصريين إلى جانبه فزعم أنه إنما جاء لطرد المماليك الغرباء

عن مصر ولتأسيس دولة عربية ، وتحدث عن أمجاد مصر الماضية وإمكانياتها العظيمة للمستقبل . ووزع نشرات مطبوعة بالمطبعة العربية التى استحضرها معه من فرنسا . غير أن الشعب لم يكترث لتصريحات نابليون وبياناته . فالمماليك وأسيادهم الأتراك كانوا من المسلمين ولذا فإن الشعب لم يعتبرهم غرباء فى عصر كانت القومية مجهولة فيه بعد .

وكان للزعماء الدينيين نصيب موفور فى تنظيم نضال الشعب وتوجيهه ضد فرنسا . وتمكنت القوى المختلفة المشتركة فى المقاومة ، وهى القوى المحلية ، والجيوش التى أرسلها السلطان ، والأسطول البريطانى ، والقوات البرية البريطانية ـ إذ أن بريطانيا عقدت حلفا مع السلطان ضد نابليون ـ تمكنت من طرد الفرنسيين .

علق نابليون آمالا واسعة على غزو مصر . فلو نجحت حملته لأصبحت فرنسا سيدة البحر الأبيض المتوسط وسيطرت على ثروات مصر وقوضت دعائم القوة البريطانية بتهديدها لطريق الهند .

ويتضح اهتمام نابليون العظيم بالحملة المصرية من استعداداته الواسعة لها . فهذه الاستعدادات لم تكن عسكرية فحسب ، بل اشتملت على تعبئة عدد من العلماء الذين كلفوا بدراسة مصر ومناخها ، وطبوغرافيتها ومواردها المعدنية ، ومنابتها وحيوانها ، وآثارها التاريخية ، وبكل ما له علاقة بالمعرفة الشاملة بأرضها وإمكاناتها .

وكان فى عداد البعثة العلمية عدد من أعاظم الخبراء ، بينهم الرياضيون والفلكيون والجغرافيون والجيولوجيون وعلماء المعادن والكيميون وعلماء النبات والحيوان والطبيعة ، والمهندسون والنحاتون والموسيقيون والأدباء . وأعدت لهم مكتبة ومجموعة من الأجهزة العلمية .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وطلب نابليون من هؤلاء العلماء أن يبدأوا عملهم حال وصولهم . وأنشأ معهد مصر (Institut d' Egypte) على غرار معهد فرنسا (Institut de Frauce) وكان أعضاؤه من كبار العلماء المرافقين للحملة ومن ضباط الجيش الذين كانت لهم معرفة واسعة بأى من فروع العلم . وكانت غاية معهد مصر هى زيادة المعرفة بمصر عن طريق الدراسات والنشرات . وقد قسم إلى أربعة فروع هى فروع الرياضيات والعلوم الطبيعية والاقتصاد السياسى والفنون والآداب ، وقد حفظت أبحاث المعهد فى نشرته الضخمة « وصف مصر » (Description d'E gypte) المكونة من مجلدات عديدة .

وكان المجهود العلمى أفضل وأكفأ ما فى حملة نابليون . فبقى فى مصر عدد من العلماء بعد جلاء نابليون وجيوشه ، وساعد هؤلاء فى العملية التى ابتدأها محمد على بنشاط كبير لتقريب مصر من العصور الحديثة . وعاش معهد مصر إلى يومنا هذا .

وبمجىء محمد على بزغ فى مصر عصر جديد . فلقد شقت الظروف المؤاتية له الطريق ، وحقق هو الباقى بمواهبه الفذة .

ومحمد على جندى ألبانى هبط مصر سنة ١٨٠١ مع الجيش التركى لمحاربة نابليون . وشاهد الصراع بين مختلف العناصر التى كانت تبتغى السيطرة فى مصر . وشاهد ما كان المماليك يعانونه من انحلال بنتيجة احترابهم الدائب وتآمرهم بعضهم ضد الآخر البعض ، واعتباطية حكمهم وفساده ـ ذلك الحكم الذى أوقع بسكان البلاد أذى بليغا . أما الأتراك فكانوا ضعفاء وفاسدين و بعيدين عن سكان البلاد . وكانت خصومتهم المستمرة مع المماليك سببا فى زيادة ضعف كل منهما .

وكان هنالك عنصر ثالث هو الشعب ذاته . وكثيرا ما نسمع بأن الشعب كان ضحية ضروب من السلب وسوء المعاملة اللذين كان يحتملها بالصبر والاستسلام . ولكن قلما نرى الوجه الآخر للصورة ، وهو اشتراك الشعب فى الأحداث الهامة .

بل كون الشعب فى بعض الأحيان هو المقرر لمصير هذه الأحداث ونتائجها .

فلقد شاهدنا كيف أنه كان بين رجال الدين دوما من دافعوا بشجاعة عن الشعب ضد الظلم والطغيان . ولقد نظم أبناء الشعب فى بعض الأحيان المظاهرات وسخروا من حكامهم وهددوا حكمهم . وانتظم التجار والصناع وغيرهم من الطبقات والفئات التى تقطن المدن فى نقابات قوية ، كانت تضع لنفسها القوانين والأنظمة وتسير بموجب التقاليد الموروثة . وكان لهذه النقابات سلطة واسعة على أعضائها . وكانت من بعض النواحى تشكل وحدات مستقلة داخل الدولة ، تخافها الحكومة وتحترمها . وكان سكان المدن يصنعون أنواع السلاح ويحتفظون بها ، وقد اشتركوا فى الحروب ضد الصليبيين والمغول .

فعند ما غزا نابليون مصر ، وعند ما غزت بريطانيا مصر بعد ذلك عام ١٨٠٧ ، دافع سكان القاهرة والاسكندرية وغيرها من المدن عن أنفسهم ضد الغزاة . والطريقة المألوفة التى اتبعت فى تنظيم هذا الدفاع هى أن تقوم كل نقابة بجمع الأموال من أعضائها و بتجهيزهم بالسلاح . وكان الأغنياء يتطوعون بالدفع عن الفقراء الذين لا يمتلكون شيئا يقدمونه ، بينما يبذل الجميع جهدا مشتركا موحدا .

ولقد نصب الشعب محمد على واليا على مصر بعد أن ثار الشعب على المماليك والوالى التركى وخلع هذا الوالى سنة ١٨٠٥ . والاتفاق الذى عقده زعماء الشعب مع محمد على دليل على تيقظ الشعور لدى هؤلاء الزعماء بأهميتهم ومسؤوليتهم . وقبول محمد على بهذا الاتفاق يظهر مدى شعوره بحاجته إلى تأييد الشعب ، ولو موقتا . وقد طالب الاتفاق الوالى بأن يحكم بموجب أحكام الشريعة وأن يزيل المظالم والأعمال غير المشروعة ، وأن يستشير زعماء الشعب فى جميع أعماله، فإذا لم يحافظ على هذه الشروط كانوا أحرارا فى خلعه .

كان تعيين الوالى حقا من حقوق السلطان وسلطة من سلطاته . ولم يكن

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

أحـد يتصور أن يقوم عامة الناس بعزل نائب السلطان ووضع رجل آخر من اختيارهم فى مكانه .

وعندما أخبر الوالى الذى عينه السلطان بقرار الشعب أجاب بقوله : إن السلطان هو الذى عينه ولذلك فلن يعزل بأمر من الفلاحين . غـير أن السلطان انحنى أمام رغبة الشعب ، حتى لقد جاء فى « الفرمان » — أو الإرادة السنية — بتعيين محمد على حا كما على مصر أنه إنما عين لهذا المنصب لأن علماء الدين وأبناء الشعب أرادوه .

واستمر منافسو محمد على فى مؤامراتهم . فحاول الأتراك من جانبهم أن يعزلوه ، وحاول المماليك مثل ذلك من جانبهم أيضاً ، وكانوا يلقون تأييداً فى محاولتهم هـذه من الانـكليز . فإن بريطانيا التى أصبحت المعارض الرئيسى لمحمد على فى السنوات التالية كانت حتى فى هذا الوقت تشعر بقلق من وجوده . فتفاوض ممثلوها فى استانبول مع السلطان لعزله ، ودخل مبعوثوها لدى المماليك باتفاقية معهم تنص على أنه فى حالة عزل محمد على يصبح الباشا التركى حا كما بالاسم فقط ، بينما تبقى السلطة بيد زعيم المماليك على الألفى ، حليف بريطانيا . فهاجم المماليك القاهرة وأصدر السلطان فرمانا بعزل محمد على وتعيين وال جديد . غير أن يقظة محمد على وتأييد الشعب له وانقسامات المماليك فيما بينهم أحبطت هـذه المؤامرات .

ورجع محمد على فى هذه الأزمة إلى زعماء الشعب ، فاستجابوا له بأن أصدروا بيانا ينادى بمقاومة المماليك الطغاة وبالولاء لمحمد على والتأييد له وباستحسان أعماله . وقد أرسل محمد على هـذا البيان إلى الاستانة وأرفقه بهدية ـ أو رشوة ـ سخية . فصدر فرمان جديد بإعادة تعيينه . وقد جاء فى هذا الفرمان ، مثل ما جاء فى الفرمان الأول بتعيين محمد على ، أن تأييد الشعب هو الذى ثبت محمد على فى مركزه .

وكان محمد على مصمما على القضاء على قوة المماليك فى مصر . فحاربهم فى المقاطعات وأوقع بهم الهزائم . أما الذين كانوا منهم يقيمون فى القاهرة فإنه دعاهم إلى وليمة فى القلعة حيث أعمل فيهم القتل . وبعد أن أتم محمد على تحطيم المماليك اتجه إلى بذل الجهد والنشاط لبناء دولة قوية وحديثة فى مصر .

ولقد اعتقد محمد على بالدولة الأبوية ، إذ اعتبر نفسه قادرا على إدارة شؤون الدولة بكفاية تامة ، فلما استتب له الأمر لم يعد يسمح بأى تدخل فى أعماله . وكانت مؤهلاته المدهشة قد جعلته الرجل المناسب لقيادة دولة منطلقة من العصور الوسطى . وكان له نشاط لا يعرف الكلل ، فضلا عن جلده ومثابرته ، فبقى على أتم اليقظة والانتباه ، وأشرف بنفسه على المشروعات والخطط التى ابتدأ بها . وزار أنحاء البلاد كلها مفتشا عنها ، وزار أعمال البناء المتعددة ليشاهد بنفسه كيف تنفذ أوامره . وقد بلغ من نشاطه أنه قام بالرحلة الطويلة الشاقة إلى السودان وهو فى السبعين من عمره . وكانت إرادته حديدية ، فإذا عزم على أمر لم يبق مجال للتردد فى العمل أو فى اتخاذ القرار . وعندما فكر فى إقامة سد على النيل عند الدلتا ، أخذ المهندسون ، وقد هالتهم ضخامة المشروع ، يعددون الصعوبات التى يتضمنها فقال لهم محمد على : « هذا صراع بينى و بين النهر العظيم ، وسأخرج منه ظافرا منتصرا » .

وكان واسع الاهتمام نافذ البصيرة ، فلازمه شوق دائم للمعرفة أيا كان مصدرها. وقد ظل أميا حتى بلغ الأربعين من العمر ، ولكنه ابتدأ فى تعلم القراءة والكتابة بعد أن اضطلع بمسئولية حكم مصر . ومع أنه تربى ضمن التراث العثمانى القديم ، وكان عديم الاختبار بالعالم الخارجى ، إلا أنه أدرك أهمية التقدم الأوربى وعمل بنشاط لا مثيل له فى سبيل اقتباس الطرق والوسائل الأوربية . وفى مدة حكمه الطويل أرسل بعوثا من الشبان المصريين للدراسة فى أوربا ، وعين الخبراء الأوربيين لإدارة مشروعاته المختلفة ، وسمح لرجال الأعمال والتجار الأوربيين بدخول مصر ، وكثيرا

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ما كان يقضى أوقات فراغه بالتحدث مع الأوربيين محاولا أن يتعلم ما يمكنه تعلمه منهم . وكان النظام والتنظيم أهم ما فى حياته فأدخلهما إلى الحكم والجيش وإلى سائر مؤسسات الدولة ومشروعاتها .

واعتقد محمد على أن أهم سند للدولة هو الجيش القوى ، فضلا عن أنه احتاج إلى مثل هذا الجيش لتثبيت مركزه . ولما كان قد شاهد تجارب المماليك والأتراك مع الجيش الفرنسى ، فقد انتبه إلى الحاجة لتطبيق نظم التدريب الحديثة وإدخال الأسلحة الحديثة إلى الجيش .

وكان الجيش المصرى الذى أنشأه محمد على منظما على أسلوب الجيش الفرنسى ؛ إذ قام بتنظيمه نفر من الضباط الفرنسيين . وقد لزمه عند تأسيسه أن ينشىء صناعات الأسلحة والذخيرة ، فأقام مصانع عدة للمدافع والبنادق والمتفجرات ، وقد بلغ بعض هذه المصانع مستوى أحدث المصانع الأوربية فى تنظيمه ونوعية إنتاجه .

وإلى جانب الجيش لم يكن بد من إنشاء أسطول قوى . فأقيمت أحواض لبناء السفن فى بولاق بالقاهرة ، وفى الإسكندرية أيضا . وكان محمد على متعلقا بأسطوله ومهتما به ، فشعر بالحزن العميق عندما دمر هذا الأسطول سنة ١٨٢٧ بعملية مشتركة قامت بها أساطيل بريطانيا وفرنسا وروسيا فى معركة نافارينو أثناء الحرب اليونانية التركية . وبعد ذلك بسنوات قليلة عوض الأسطول المفقود بأسطول بناه العمال المصريون بأحواض السفن المصرية . فأصبحت مصر فى عهد محمد على أكبر قوة بحرية فى شرقى البحر الأبيض المتوسط .

أما النظام التعليمى الذى أنشأه محمد على فقد قصد منه بالدرجة الأولى أن يخدم الجيش ويعد الموظفين المدربين للحكومة .

فأنشىء نظام من المدارس الابتدائية والثانوية والفنية . وكان هذا النظام

التعليمى على شكل هرم معكوس يبتدىء فى القمة وهى المدارس الفنية . أما السبب فى ذلك فيعود إلى رغبة محمد على فى الإسراع بتدريب الموظفين الكفاة ـ وكان طلبة المدارس الفنية يأتون من الأزهر ، ثم أنشئت بعد ذلك المدارس الثانوية ، وأخيرا أنشئت المدارس الابتدائية .

وقد أنشئت مدرسة الطب ، وهى أولى المدارس الفنية التى أسسها محمد على ، سنة ١٨٢٧ وانخرط فيها مئة طالب اختيروا من الأزهر ، وكان أساتذتها ثمانية من الأطباء الفرنسيين الذين يعملون ضباطا فى الجيش . وساعد الأساتذة فى مهمتهم عدد من التراجمة كانوا يحضرون الدروس ويترجمون المحاضرات إلى اللغة العربية . واتبع فى التدريس نفس برنامج كلية الطب فى باريس ، واستعملت نفس الكتب المدرسية وجعلت مدة الدراسة ست سنوات ، كما هى الحال فى باريس ، وألحق بالمدرسة مستشفى ومكتبة ومتحف وبستان نباتى لاستنبات الأعشاب والنباتات الطبية .

وفى خلال السنوات العشر التالية أنشئت مدارس أخرى للعلوم الطبية ؛ وهى مدرسة التوليد ومدرسة الصيدلة ومدرسة البيطرة .

وأبحرت أول بعثة للدراسة الطبية إلى باريس سنة ١٨٣٢ وكانت مؤلفةمن اثنى عشر طالبا ، وقد رافقها كلوت بك مدير المدرسة الطبية . وقضى الطلبة ثمانى سنوات فى باريس وعندما عادوا إلى وطنهم ، عين بعضهم أساتذة فى مدرسة الطب ، وعين البعض الآخر فى الجيش والمستشفيات . وبذل هؤلاء الرواد فى علم الطب جهداً كبيراً فى ترجمة الكتب الطبية . وفى عقدين من الزمن ترجمت عشرات الكتب الطبية إلى اللغة العربية .

وأسست مدرسة خاصة للترجمة سنة ١٨٣٦ ، وكانت من أهم المؤسسات التى أنشأها محمد على . وأصبحت هذه المدرسة التى عرفت بمدرسة الألسن ، والتى كان

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

يشرف على إدارتها رفاعة الطهطاوى ـ وقد اشتهر باندفاعه وجده ـ أصبحت مركزا مهما لنشر الثقافة والعلم فى مصر . فترجمت عشرات الكتب التى تبحث فى مختلف الموضوعات، وأصبح المحتوى الفنى للفكر الغربى فى متناول القارىء العربى .

ومن المؤسسات الثقافية المهمة مطبعة بولاق المؤسسة سنة ١٨٢١ . وبما أن الفرنسيين استردوا معهم المطبعة العربية التى كانوا قد استحضروها أثناء الغزو النابليونى لمصر فى نهاية القرن الثامن عشر ، فإن مطبعة بولاق تعتبر أقدم مطبعة عربية فى العالم العربى كله[١] .

واشتملت المؤسسات الفنية على مدارس للهندسة ، والتعدين ، والفنون الصناعية ، ومدارس حربية وبحرية . وأنشئت سنة ١٨٣٧ دائرة حكومية للاشراف على نظام التعليم والمدارس ، هى ديوان المدارس .

وطلب العلم الأوربى فى البلاد الأوربية ذاتها حيث أرسلت بعوث متعددة ذهب أولها سنة ١٨١٣ وآخرها سنة ١٨٤٧ بالقرب من نهاية حكم محمد على . وبلغ عدد الطلبة المصريين الذين اشتركوا فى هذه البعوث ثلاثمائة وتسعة عشرة طالبا درسوا الطب ، والحقوق ، والإدارة المدنية ، والعلوم الطبيعية ، والكيميا ، والرياضيات ، والهندسة ، والآليات ، والطباعة ، وعلم المعادن ، والزراعة ، والرى ، وصناعات النسيج والصباغة ، والعلوم الحربية ، وصناعة الأسلحة والملاحة وبناء السفن ، وأرسل معظم الطلبة إلى فرنسا ، أما الآخرون فذهبوا إلى بريطانيا وإيطاليا والنمسا . وكان محمد على يراقب باهتمام أعمال هؤلاء الفتيان الذين أوفدهم ليتدربوا ويصبحوا من الخبراء . فطلب إليهم أن يبعثوا التقارير بانتظام عن تقدم دراساتهم ، وكان يقرأ التقارير ويراسل الطلبة بنفسه ، فيخبرهم بدقة وتشديد عما

---

(١) أنشئت مطبعة عربية فى حلب سنة ١٧٠٢ حسب قول الأستاذ فيليب حتى فى كتابه :
History of Syria, P. 677.

ينتظره منهم ، ويوبخهم إذا وجد سبباً للتوبيخ ، ويلح عليهم بتحصيل كل مايمكنهم تحصيله من المعرفة ، وأن لا يضيعوا بالعبث لحظة واحدة من لحظات إقامتهم فى باريس « مدينة العلم والنور » .

ومن الشخصيات الفذة التى اشتركت فى هذه البعوث رفاعة الطهطاوى الذى رافق أربعين طالبا من طلبة البعثة إلى باريس سنة ١٨٢٦ وكان إماما لهم . وكان رفاعة ينتمى إلى عائلة فقيرة تقطن مصر العليا وحصل التعليم الدينى التقليدى الذى كان ينتهى بالأزهر . وفتحت باريس لناظريه عالما جديدا ، عالما ملأه بالإعجاب والحماسة دون أن يخل بالقيم التى كان يعتقد بها أو يقلل من ارتباطه بتقاليده . وكان بالغ الاهتمام بالدراسةشديد الحماسة لها ، مثالا للطالب الذى يريده محمد على ، فانغمس فى عمله بكل جوارحه وثابر على القراءة والكتابة والترجمة . والتقى فى باريس بعدد من مفكريها البارزين من بينهم البارون دى ساسى كبير مستشرقى ذلك العصر . وزار مختلف المؤسسات والآثار التاريخية فى العاصمة الفرنسية . ودوّن ملاحظاته فى وصف بهيج يظهر لنا فيه ملاحظا حادا ودقيقا ، ذا بصيرة نفاذة وعقل منفتح . وكان رفاعة واضح الميل للحركات الحرة وللحكومة الدستورية . وهو يصف ثورة عام ١٨٣٠ فى باريس وانتصار الطبقة المتوسطة ويبدى تحمسا لها . وثابر رفاعة بعد عودته إلى مصر على عادته فى العمل الدائب المتحمس . وكان وطنيا مندفعا فهم الوطنية على أنها حياة توهب لخدمة البلاد .

واهتم محمد على بالرفاه المادى للبلاد بما عرف عنه من همة وكفاية . فنمى الزراعة ، ركن حياة البلاد الاقتصادية بتوسيع الرى وإدخال المحصولات الجديدة . فرممت مشروعات الرى القديمة ، وفتحت ترع جديدة وأقيمت سدود وأنظمة على النيل فى منطقة الدلتا ، وزرعت الأشجار بأعداد كبيرة ، ومن بينها أشجار الزيتون والتوت . واستحضر عدة مئات من خبراء حرير القز من سوريا ولبنان لإنشاء

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

صناعة للحرير فى مصر . أما القطن الذى عرف فى مصر قبل ذلك ، فإنه كان قد أهمل ولم يبق منه سوى أنواع رديئة ، فأدخل محمد على أنواعا جديدة وأصبح القطن منذ عهده محصول مصر الرئيسى . ووسعت زراعة النيلة وقصب السكر والكتان . وقدأدت هذه التحسينات إلى زيادة واسعة فى ثروة البلاد و إلى ازدياد سكانها بشكل ملحوظ[١] . ووجهت الهمة ذاتها إلى تنمية الصناعة ، فأدخلت الصناعة المعتمدة على الآلات وأنشئت المصانع الحديثة . وكان لمصانع السلاح وأحواض السفن المقام الأول بين مشروعات محمد على الصناعية ، وكانت المعامل تنتج الأنوال والمغازل وغيرها من الآلات . وأقيمت فى الاسكندرية مصفاة للسكر ومصنع للزجاج . وكانت مصانع النسيج تنتج مختلف أنواع الأنسجة الصوفية والحريرية والقطنية .

وكانت مصر ، على مدى تاريخها الطويل ، مشهورة بصناعاتها ، إلا أن هذه الصناعات اضمحلت فى أثناء الانحلال العام الذى شمل الاقتصاد والسياسة والثقافة والذى وقع قبل القرن التاسع عشر . وقد استجلب محمد على إلى القاهرة بضع مئات من مهرة الصناع من الآستانة لإحياء الصناعة وتأسيسها من جديد . وأرسل عشرات من الشبان المصريين لتعلم فنون الصناعة الحديثة فى أوربا ، وعين الخبراء الأوربيين مديرين لمشروعاته الصناعية[٢] . ونشطت التجارة أيضا من جراء تنمية الزراعة والصناعة . فوسع ميناء الإسكندرية ، ومخرت الأساطيل المصرية عباب البحر الأحمر ومياه شرقى البحر الأبيض المتوسط ، وأعيد فتح الطريق البرى بين السويس والقاهرة ، وأنشئت المحطات على طول هذا الطريق .

وفكر محمد على فى مشروع جرىء بإنشاء دولة عربية تقتطع من الولايات العربية فى الإمبراطورية العثمانية ويكون هو رأسا لها . وكان يعرف ضعف حكومة

---

(١) Crouchley : The Economic Development of Modern Egypt. P. 61.

(٢) Bonné : State and Economics in the Middle East, pp. 240—241
A.A.I. El-Gritly : The Structura of Modern Industry in Egypt, 1948, P. 364.

الآستانة ، ويدرك كل الإدراك نوايا الدول الأوربية حول هـذه الإمبراطورية المتعفنة . واعتبر محمد على نفسه وريثا لقسم من الأملاك العثمانيـة على الأقل ، وذلك بوصفه عثمانيا ومسلما وعظيم المؤهلات . وحاول فى بادىء الأمر تقديم الخدمات المهمة إلى السلطان على أمل أن يقدر السلطان تلك المعونة القيمة التى تقدم إليه فى أوقات الشدة ، فيعترف له بمشروعاته . ولذلك فقد أقدم على تجريد حملة الوهابيين فى الجزيرة وعلى اليونان ، عند ما أعلن الوهابيون واليونانيون ثوراتهم الناجحة ضد الأتراك . غير أن قوة محمد على أثارت شكوك السلطان ومخاوفه بدلا من أن تنال رضاه . فوقع التصادم بينهما ونجم عنه قيام حرب فى عقد ١٨٣٠ بين والى مصر والسلطان . وقاد المعارك إبراهيم باشا نجل محمد على الأكبر فطرد الأتراك من سوريا بسهولة وأوقع بهم هزائم ساحقة فى بلاد الأناضول ذاتها ، وكان فى طريقه إلى الآستانة عند ما تدخلت الدول الأوربية وأوقفت تقدمه المظفر .

وتقدمت روسيا ، وهى المستعدة دوما لتمزيق الإمبراطورية العثمانيـة ـ تقدمت إلى السلطان تعرض عليه الحماية وأرسلت سفنها الحربية وجنودها . وسارعت بريطانيا إلى تأييـد السلطان ودافعت عن بقاء الإمبراطورية العثمانيـة ، وذلك رغبة منها فى إحباط نوايا روسيا ، وخوفا من أن تنشأ فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط دولة فتية يحكمها حاكم طموح وعالى الهمة . وتلا ذلك حرب بين محمد على والدول ، وقد نجم عن هذه الحرب خسارته لسوريا . وفى معاهدة لندن المعقودة سنة ١٨٤١ اعترفت تركيا والدول بأن حكم محمد على لمصر هو حكم متمتع بالاستقلال الداخلى ووراثى .

كان محمد على حاكما أوتوقراطيا ، يحدوه طموح شخصى قوى . وقد قصد من حروبه فى آسيا وأفريقيا وأوربا أن يؤمن لنفسه ولخلفائه السلطة والمجد والعرش الراسخ ، غير أن هـذه الحروب استنزفت مصر وخلّفت عبئا ثقيلا على المصريين .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وارتكزت سياسته الاقتصادية قبل كل شيء على أساس تأمين الإيراد الضرورى للحملات العسكرية . ولذلك فقد فرضت الاحتكارات على جميع موارد البلاد تقريبا ، بحيث أصبح محمد على مالك الأرض والتاجر الأوحد والصناعى الأوحد . وحتى نظام التربية الذى أنشأه وضع لتأمين حاجات الجيش ، وعند ما خف النشاط العسكرى أغلقت بعض المدارس .

وأخفقت حروب محمد على فى تحقيق الغاية التى شنت من أجلها ، غير أنها خلفت فى الشعب المصرى أثرا عميقاً ، فان الخدمة فى الجيش أوقدت الكرامة بين الفلاحين والطبقة الدنيا من أبناء المدن ، وأيقظت الانتصارات التى ربحوها على حكامهم الأتراك ثقتهم بأنفسهم .

وكان غزو السودان سببا فى فتح هذا البلد للاستكشاف وللاتصال بالعالم الخارجى ، فأنشئت مدينة الخرطوم وأصبحت مركزا لابتداء الرحلات الجغرافية . وقد قامت البعوث بثلاث من هذه الرحلات فى أيام محمد على ، حيث درست المناطق المجهولة ومهدت الطريق أمام الرحلات الاستكشافية المتوسعة التى جرت فى عهد إسماعيل .

وكانت حملات مصر فى سوريا كالخميرة التى تحدث تغيرا كبيرا . فقلب نظام الحكومة ، وأدخلت الأنظمة الحديثة إلى الإدارة ، وأعلنت الحرية الدينية ، وعومل أتباع الديانات المختلفة على أساس المساواة ، ونشرت الأفكار الديموقراطية ، وأزيح الرؤساء الإقطاعيون عن سلطتهم . وأدخلت التحسينات فى الزراعة ، وعم الأمن ، وانتعشت التجارة . وتشجع التجار والمبشرون الأجانب على المجىء بسبب التسهيلات التى منحت لهم ، ففتحوا المدارس التى هيأت فرصا للتعليم لم تكن متيسرة فى البلاد . ومع أن الإدارة المصرية فى سوريا لم تعمر إلا قليلا ، وكانت فترة حروب وثورات ، إلا أنها خمرت الأفكار والمشاعر ومهدت لحياة جديدة .

كان محمد على معجبا بالتقدم الأوربى ، وحاول بما أوتى من قوة أن يدخل النظم والطرق الأوربية إلى مصر . فاستخدم عددا كبيرا من الأوربيين فى مشروعاته كلها ، فى الجيش ، وفى التعليم ، والصناعة والرى وأعمال البناء الأخرى . وشجع الأوربيين على الاستيطان فى مصر . لكنه لم يسمح للأوربيين بأن يفرضوا عليه أمرا ، فكان دائما هو السيد فى بيته ، وكان الخبراء الأوربيون العاملون عنده كسائر موظفى الحكومة الآخرين . ولم يتورط فى ديون أجنبية ، بالرغم من حاجته الشديدة إلى المال بسبب حروبه ومشروعاته الانمائية . وكان مدركا كل الإدراك لنوايا الدول الأوربية تجاه مصر . وعند ما اتصل به المتمولون والديبلوماسيون الأوربيون طالبين فتح قناة السويس أجاب بأن القناة التى تفتح عبر برزخ السويس ستصبح بوسفورا ثانيا . ورأى ببعد نظره التعقيدات الدولية التى كان لزاما حدوثها ، وخشى بحق ، أن تصبح مصر تحت الحكم الأوربى إذا ما فتحت قناة السويس ، فتتحطم بذلك أعماله كلها . وأما ما استطاع إحباطه ببعد نظره وبقوة شكيمته ، فقد استسلم له خلفاؤه طائعين مختارين [1] .

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥١ .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل السادس

التيارات المتضاربة

فى القرن التاسع عشر أرْخَت مصر علاقاتها مع الامبراطورية العثمانية وأوثقت صلاتها بأوربا . وكان لهذا الاتجاه ميزات ، ونقائص ، وأخطار . فبه ابتدأت مصر طريق الحرية وتحمل المسئوليات التى تتضمنها الحريةوانبثقت القومية المصريةفىأثناء هذا المسير . وعلاوة على ذلك كانت هنالك أشياء كثيرة تستطيع مصر أن تتعلمها من أوربا ، و بوسعها التعلم بحرية أعظم إذا كانت غير موثقة برباط قوى تجاه السلطان العثمانى . هذا من ناحية ، ولكن من الناحية الثانية فإن تراخى الروابط مع تركيا شجع مؤامرات الدول الأوربية ، كما أن سياسة حكام مصر المستهترة الناجمة عن تلهفهم إلى تشجيع التغريب مهدت للتدخل الأوربى ، و بالتالى لاحتلال بريطانيا لمصر .

ويمكننا أن نلاحظ بعض مظاهر الحياة العصرية التى أدخلت إلى مصر . فقد كانت مصر من أول بلاد العالم التى بنت نظاما من الخطوط الحديدية ، وأنشأت شبكة من التلغراف . وقد بنيت فيها مئات الجسور وحفرت الآلاف من أقنية الرى و بنى ميناء الاسكندرية ، وأحيى مليون وربع المليون من أراضى الصحراء التى أصبحت تستغل فى الزراعة . ونجم عن إصلاح الرى والنقل زيادة ملحوظة فى الثروة والرفاه . و بلغت قيمة الصادرات ضعف قيمة المستوردات ، وكان بين الصادرات القطن والسكر والقمح [1] .

---

(١) Rothstein : Egypt' s Ruin, PP. 34 – 35 ; De Leon : The Khedive's Egypt, P. 119

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وحصلت بعض المحاولات المهمة ، فى التعليم فأسس عدد من المدارس ـ الابتدائية والثانوية والفنية ـ وأسست أول مدرسة حكومية للبنات سنة ١٨٧٣ ، وفتحت المدارس الأجنبية من جانب عدد من البعوث التبشيرية . وأسست دار الكتب العامة سنة ١٨٧٠ ، والجمعية الجغرافية سنة١٨٧٥ لتشجيع العلوم الجغرافية والاستكشاف . وأنشئت عدة مطابع عربية ، أخذت تطبع كنوز الأدب العربى.

وقد استحسن المراقبون المعاصرون لهذه الفترة تقدم مصر إبانها ، ومن بين هؤلاء المراقبين دى ليون (De Leon) قنصل أميركا العام فى مصر . فقد كتب فى وصف الإنشاءات العامة التى بنيت فى عهد إسماعيل بأنها « لا مثيل لها فى أى بلد تبلغ مساحته وسكانه أربعة أضعاف مساحة مصر وسكانها ، وهى من النوع الذى سيزيد فى المستقبل رفاه مصر زيادة هائلة» (١) .أما عن تقدم التعليم فإنه يصفه بأنه « مدهش حقا ، ويعتبر مدهشا فى أى بلد من بلدان العالم » (٢) . وكتبت صحيفة التايمز اللندنية سنة ١٨٧٦ بأن مصر « مثال مدهش للتقدم ، فلقد تقدمت خلال سبعين سنة بما يعادل تقدم البلاد الأخرى خلال خمسمائة سنة » (٣) .

ولكن رافق إدخال الوسائل العصرية ظلم للشعب الذى قدم عرقه ودماءه من أجل الإنشاءات العامة . والازدهار الظاهر فى إحياء الأراضى وزيادة الإنتاج ونمو السكان ، لم يخفف من فقر الجماهير الشعبية وتعاستها . واستدان الخديو إسماعيل باستهتار وتهور من الممولين الأجانب ، وعندما أخذ دائنوه فى الضغط عليه فرضت حكومته الضرائب الباهظة على الفلاحين . وأثار الشقاء الذى صاحب حياة الفلاحين معارضتهم للنظام الذى نجمت عنه هذه الشرور .وفى عقد ١٨٧٠ نشأت جرائد يومية ناشطة فهاجمت الدائنين الأجانب والدول المستترة وراءهم ، وذهبت إلى أبعد من ذلك

---

(١) De Leon, op. cit : P. 368

(٢) Ibid. P. 160

(٣) Rothstein, op. cit P. 34

فهاجمت أيضا فكرة الحكم الأوتوقراطى غير المسئول . وارتفعت المطالبة بالمؤسسات التمثيلية . ونالت الحركة سنداً أدبيا وعقليا بوجود جمال الدين الأفغانى فى مصر ، وهو الداعى إلى إصلاح الإسلام وإحيائه ، وكان قد هبط مصر عام ١٨٧١ . وازداد نشاط الحركة بعد إعلان الدستور التركى عام ١٨٧٦ ، فدعيت جمعية تمثيلية إلى الاجتماع فى سنة ١٨٧٩ ، واعتبر أعضاؤها متكلمين باسم الأمة ومدافعين عن حقوقها .

وبعد وفاة محمد على أخذت قبضة السيطرة الأجنبية تشتد إلى أن بلغت ذروتها فى الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ .

وفكر رجال المال والأعمال من الأوربيين فى مشروعات تتجاوز حاجات مصر بكثير ، مشروعات ترمى إلى شق أقصر وأفضل طريق بين أوربا المنتجة للبضائع المصنوعة وبين أفريقيا وآسيا اللتين تجهزانها بالمواد الأولية وبالأسواق لمنتجاتها . ومن هنا جاء مشروع ربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، وهو المشروع الذى رفضه محمد على . وبعد وفاة محمد على بسنوات قليلة منح امتياز بفتح قناة السويس إلى المهندس الفرنسى دى ليسبس (De Lesseps) . وكان افتتاح القناة فى عهد اسماعيل مناسبة للتبذير الذى لا حدّ له ، وهو تبذير بدا فاضحا وفاحشا بالنسبة لبؤس الشعب الذى بذل عرقه ودماءه لشق القناة . وعندما انتهى إنشاء القناة لم يكن بد من وقوعها تحت السيطرة البريطانية ، لضمان سلامة الخط البحرى الذى يحميه جبل طارق غربا ، ويحميه باب المندب جنوبا ، وكلاهما بيد بريطانيا .

وكان خلفاء محمد على مفتقرين إلى صفاته العقلية وإلى قوة شخصيته . فإن محمد على استخدم الخبراء الأوربيين لأنه أدرك تفوقهم الفنى وحاجة بلاده إلى خدماتهم . غير أنهم كانوا يخدمون أفكاره ومشروعاته . وعندما جاء خلفاؤه الذين

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

أعوزتهم همته فى العمل ، و بصيرته ودهاؤه وشخصيته المسيطرة ، أصبح الأوربيون هم سادة الحكومة والبلاد . و بلغ نفوذهم أوجه فى عهد إسماعيل الذى أنفق أموالا طائلة وكبل بلاده بالديون الثقيلة . وكان دائنوه من الأوربيين الذين لا وازع لهم ، فاستغلوا متاعب مصر المالية للتدخل فى شؤونها ، ولزيادة أرباحهم غير المشروعة ، وللإثراء على حساب مصر وشعب مصر . وكانت الفوضى الاقتصادية مقدمة لضياع الاستقلال السياسى . إذ فرضت الدول على اسماعيل وزيرين أحدهما بريطانى والثانى فرنسى وانتزعت موافقته على إعطائهما مركزا ممتازاً فى وزارته ، وسلطة فى إلغاء أى قرار أو عمل تتخذه الوزارة ولا يوافقان عليه . وهكذا أصبحت الحكومة تحت سيطرة الوزيرين البريطانى والفرنسى اللذين لم يكن يهمهما شىء سوى تأمين الأموال اللازمة للدائنين . وكانت الهيئة النيابية ، على قلة سلطاتها وصلاحياتها ، مصدر قلق للوزيرين الأوربيين نظراً لمعارضة أعضائها لمشروعاتهما . ولذلك حلت هذه الجمعية . وقد سببت تصرفات الوزيرين الأوربيين هذه تذمرا عظيما ، فنمت حركة الإصلاح الدستورى وزادت قوتها ونالت تأييدا من اسماعيل ليتمكن بها من مواجهة التدخل الأوربى . فوضع دستور نص على مسؤولية الوزراء أمام البرلمان غير أن الدول الدائنة لإسماعيل خلعته قبل إعلان هذا الدستور[١] .

وكان توفيق خليفة إسماعيل ضعيفا وعاجزاً عن صد تأثير وضغط المصارف الأجنبية والمرابين الأجانب الذين يؤيدهم قناصلهم فى مصر . وحصل هياج شعبى يطالب بدستور يعطى البلاد ضمانا فى وجه الاستغلال الأجنبى الذى يشتد ساعده فى كل يوم . وتردد الخديو بين الاستسلام للدول الأجنبية ومنح المطالب الوطنية . وقد هدأ ممثلا بريطانيا وفرنسا من روعه بأن أكدا له أن حكومتيهما ستقفان بجانبه فى حالة وقوع اضطرابات . وألحّا عليه ألاّ يتنازل عن أى من

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، جزءان ، الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ .

سلطانه ـ لأنهما كانا يمارسان هذه السلطات كلها ولم يكن هو سوى ألعوبة فى أيديهما . وعند ما فرض الوطنيون فى النهاية إنشاء مجلس النواب ، ووضعوا دستورا للبلاد ، وقف القناصل الأوربيون فى جانب الرجعية وطالبوا بأن يجرد المجلس من حق مناقشة الميزانية والتصويت عليها . وكانت الحركة الوطنية التى يتزعمها عرابى تمثل العناصر المستنيرة والحرة فى مصر. واشتد النضال من أجل التحرر من الاستغلال الأجنبى ومن أجل انتزاع دستور يضمن حقوق الشعب ويحمى مصالحه تجاه حاكم أصبح أداة عاجزة طيعة فى يد الدسائس التى يحوكها الأجانب والرجعيون من أبناء البلاد . « وإننا لنشدد أعظم التشديد على أن الحركة الوطنية لعام ١٨٨١ كانت فى جوهرها حركة فلاحين ، غايتها تحرير الفلاحين[١] » ولا شك فى أن النضال كان معبرا عن رغبات الشعب وحاجاته ، ويتضح لنا ذلك من الحماسة الشعبية العظيمة التى انطلقت يوم أعلن أن الخديو وعد بمنح الدستور ، إذ رنت فى مصر موجة من النشوة والابتهاج وأخذ الناس يتعانقون بالشوارع فى القاهرة[٢] .

كان السير ولفرد سكاون بلنت Sir Wilfred Scawen Blunt الذى عاش فى مصر سنة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ ، يعرف عرابى معرفة جيدة ويعطف على الأمانى المصرية . وهو يصف عرابى بأنه من الأحرار ، وأنه يتصف بإنسانية واسعة وتستحوذ عليه رغبة قوية للإصلاح . أما إخلاصه فيعلو على الشبهات وليس فى قلبه حقد على البريطانيين والفرنسيين ، بل هو يشعر بالمودة تجاه البريطانيين . وكان معجبا بنضال بايرون الشاعر البريطانى فى سبيل استقلال اليونان وبمبادىء جلادستون الحرة . وكانت زوجة بلنت وهى اللادى آن (Lady Anne) حفيدة الشاعر بايرون وقد ورثت عنه حماسته لقضية الحرية ، فرافقت زوجها إلى مصر

---

(١) Blunt : Secret History of the British Occupation of Egypt, P. 110

(٢) Ibid : P. P. 116–117

وشاركته فى عطفه على المصريين . وقد كتب بلنت يقول : « يبدو لنا تجاه أحداث سنة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ أن الدفاع عن قضية حرية العرب هو نضال مشرف مثلما كان النضال الذى مات من أجله بايرون سنة ١٨٢٧ مشرفا [١] » .

وإن برنامج الحزب الوطنى الذى وضع سنة ١٨٨١ مدهش فى اعتداله وفى روحه الحرة ؛ إذ أنه وقف من الخديو موقف الولاء ، بشرط أن يعدل فى حكمه ويتقيد بالقانون . وأقر بضرورة الرقابة المالية من قبل الدول الأوربية بشرط أن تكون رقابة مؤقتة . واعتبر أن الشرف الوطنى يقضى بوفاء بالدين الأجنبى الثقيل ذى الفوائد الباهظة . أما الظلم الناجم عن إعفاء الأوربيين المقيمين فى مصر من الضرائب ومن الخضوع لقوانين البلاد فيجب إصلاحه ، ولكن بغير وسائل العنف . ولم يكن الوطنيون فى مصر يرغبون فى مخاصمة الأوربيين المقيمين فى مصر إذا كان هؤلاء راغبين فى التقيد بقوانين البلاد وفى تحمل نصيبهم من الواجبات . وكان الحزب الوطنى حزبا سياسيا لا حزبا دينيا ، يشتمل فى صفوفه على رجال ينتمون إلى أديان مختلفة . فلم يفرق بين الناس على أساس من دينهم أو عرقهم ، بل قال بأنهم جميعا إخوان متساوون فى الحقوق . وأدرك أن الموقف السلبى لا يحقق الحرية ، بل اعتبر أن المصريين إذا ما أرادوا الحرية ، فعليهم أن يصمموا على إكمال تدريبهم السياسى بوساطة البرلمان وحرية الصحافة ونشر العلم بين السكان جميعا . وقد جاء فى الفقرة الأخيرة من البرنامج ما يلى : وأخيرا فإن الهدف العام للحزب الوطنى هو بعث البلاد وذلك بحسن تطبيق القانون ، وبزيادة التعليم ، وبالحرية السياسية ، التى يعتبرها حياة الشعب ، وهو واثق بعطف الشعوب الأوربية التى تنعم بالحكم الذاتى وبمساعدتها لمصر فى أن تكسب لنفسها هذه النعمة ذاتها . غير أنه يدرك أنه ما من أمة حصلت الحرية إلا بنضالها ، ولذلك فهو مصمم على الثبات فى المركز

---

(١) Ibid : P . 6

الذى وصل إليه واثقا من عون الله إذا خذله الجميع [١] .

فى هذا الوقت الذى اتجهت فيه مصر نحو الإصلاحات الحرة هددت بريطانيا وفرنسا بالتدخل فى شؤونها . وكان موقفهما العنيف هو الذى حفز ثورة عرابى وحول مجرى الحركة الوطنية من التقدم السلمى الدستورى إلى الحرب [٢] وقد ألقيت فى البرلمان البريطانى ، ونشرت فى الصحف البريطانية فى ذلك الحين بيانات مسمومة تمثل عرابى وأعوانه على أنهم متعصبون ، وفوضويون معادون للمسيحية . غير أن محرر جريدة التايمز لم يشترك فى هذه النظرة ، إذ كان عالما بالشؤون العربية ، وواسع الاطلاع على المسائل الشرقية ، فأدرك حقيقة الوضع ، وفى سنة ١٨٨١ دافع عن قضية حرية مصر فى جريدته العظيمة . أما جلاد ستون ، رئيس الوزراء المنتمى إلى حزب الأحرار ، فكان موقفه عكس ذلك ، إذ أخذ يرعد بغضبه على المصريين المناضلين لحريتهم . وهكذا أضاعت حركة الأحرار البريطانية فرصة رعاية الحركة الحرة الناشئة فى مصر التى كان زعيمها فلاحا منتميا إلى الشعب ومنبثقا من قلبه . ووجد البريطانيون فى ذلك الحين أن قصف القنابل أسهل عليهم من كسب الصداقة . وفى عشية قصف الاسكندرية بالقنابل فى ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ كتب القنصل السويسرى إلى بلنت قائلا : « إن القلب الذى أحمله ، وهو قلب وطنى سويسرى قديم ، لينزف دما على مشهد أظلم تدخل دولى . إن البلاد متحدة كلها حول زعيمها الشريف الذى أنبتته تربة النيل الطيبة ، كما أنبتت سائر الفلاحين . لقد قبل الشعب المصرى الوفاء بدينه الذى استقرضه مستبد مستهتر . وقد حصلت ثورة مسالمة تساير إرادة الأمة وتقوم بارادة الأمة . ، ولم يقع فى هذا التغير العظيم حادث واحد غير لائق بهذه الحكومة المتزنة . ولكن أوربا ، المهتمة بأصحاب الأسهم والأسناد أكثر من أمانى الشعوب ترسل أساطيلها . لماذا ؟ لأن الجمعية التشريعية

---

(١) Ibid, : P. P. 382–5

(٢) Kohn : Nationalism and Imperialism in the East, P. 181

وجدت من المناسب أن تطالب بالحق فى مناقشة الميزانية »[١] .

وقد قصف الاسكندرية أسطول بريطانى ، وهزم الجيش البريطانى فلاحى عرابى[٢] . واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ معلنة أن الاحتلال إجراء موقت . غير أن القوات البريطانية بقيت فى مصر حتى سنة ١٩٥٦ .

وقد رافق التطورات السياسية والنضال من أجل الحكم الدستورى خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر جهود للإصلاح الدينى والفكرى . وكان المحرك الأكبر الذى دارت حوله حركة الإصلاح هو جمال الدين الأفغانى . ومع أن جمال الدين لم يكن مصريا ولا عربيا إلا أنه كان أعظم الناس أثراً فى حياة الرجال الذين أصبحوا فيما بعد قادة مصر الحديثة .

لقد جاء الأفغانى من أفغانستان حيث كان لعائلته مركز سياسى واجتماعى مرموق . وتجول كثيراً فى العالم الإسلامى وعاش فى إيران والهند والحجاز والآستانة ، وهبط مصر عام ١٨٧١ و بقى فيها حتى عام ١٨٧٩ . وإقامته هذه التى أنهاها الخديو بالقوة بناء على تدخل الدول الأجنبية ، كانت نعمة لمصر ، لأن بذور الحرية قد بذرت فى هذه السنوات القليلة على أيدى رجل كان يضطرم بالشوق للحرية ، ويحارب من أجلها أينما ذهب .

ولم يبشر الأفغانى بالتحرر من الحكم الأجنبى وحده ، بل بشر بالتحرر من المعتقدات والعادات البالية الجامدة التى تعرقل كل تقدم . فناضل لحرية الفكر وحض على إعلان الأفكار الحرة بجرأة وعلانية . وأنكر الطغيان والظلم مهما كان شكلهما أو مصدرهما ، إذ أنه استنكر أعمال الحكام المسلمين الذين

---

(١) Blunt, op. cit. PP. 213–214

(٢) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩ .

خانوا الأمانة التى عهد بها إليهم وظلموا رعاياهم ، بمثل ما استنكر الاستعمار الأوربى واستغلاله للشعوب الآسيوية .

وأدرك الأفغانى بعقله القوى الواسع مشاكل العالم المحيط به وأحواله . وأحس إحساسا عميقا بتأخر الشعوب الإسلامية وعمل لبعثها الروحى والأخلاق . واعتقد بأن البعث الروحى هو أساس التقدم الاجتماعى والثقافى كما أنه الشرط الجوهرى لتحرر المسلمين السياسى ، ولاشتراكهم مجددا فى العمل الحضارى الخلاق .

وكان الأفغانى مصلحا دينيا ، ومفكرا متنورا ، وزعيما سياسيا .

واعتبر الأفغانى أن الاصلاح الدينى يعنى فهما شاملا للإسلام وتقيدا بحقائقه ومبادئه الجوهرية . وهذه الحقائق إذا مافهمت فهما صحيحا لاتتعارض مع الحقائق العلمية . فالدين اذن ليس عائقا للتقدم العلمى ، بل هو حافز للسعى وراء الحقيقة .

أما الاصلاح الفكرى فيمكن الوصول إليه بتحرير العقل وإعتاقه من كل مايعوق بحثه عن الحقيقة . فالعقل الحر ينسجم مع الحقيقة . وهذا الانسجام يعيد التوازن إلى الإنسان ويحرره من الحيرة ومن الشك وينير طريقه . وأخيرا فان الاصلاح السياسى يتبع الاصلاح الفكرى كنتيجة حتمية لتحرر العقل والروح .

وكان للأفغانى شخصية قوية تفرض نفسها ، فترك أثرا عميقا فى كل من عرفه . وكان وجوده يشع القوة والإلهام ، فالتف حوله عدد من التلاميذ الذين استمعوا بلهفة إلى رسالته . وقد نشر أفكاره عن طريق التعليم والكتابة والمباحثة العامة والمحاضرة . وألقى الدروس المنتظمة فى بيته ، مدرسا بها روائع الفكر الإسلامى . وقد حاول فى هذه الدروس أن يوسع أفق تلاميذه الفكرى وأن يفتح أمامهم دروبا جديدة توصلهم إلى الفهم الأفضل للعالم ، وأن يدربهم على البحث الجرئ عن المعرفة والحقيقة . فقد أراد أن ينشئ رجالا من المفكرين الذين يتصفون بالحكمة وحسن التمييز .

أما أفكاره المبسطة فكانت تنقل بالأحاديث التى تجرى فى بيته وفى بيوت

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

أصدقائه أو فى المقاهى . ولم يبعد أحد عن هذه الأحاديث فلقد كان الأفغانى يتحدث للصفوة من المفكرين ولرجل الشارع وكان يأسر الجميع بحماسته ـ ، و بقوة عقيدته و بشجاعته .

وفى هذه المباحثات ، بل وفى أعماله كلها كان النغم الرئيسى الذى يشدوه هو الحرية من الاستعباد ـ أيا كان شكل هذا الاستعباد . وحاول أن يوجد رأيا عاما مدركا واعيا لحقوقه وواجباته . فمثل هذا الرأى يحمل معه الإيمان بحق الشعب فى أن يحكم نفسه و بتصميمه على تحصيل هذا الحق . وفى هذه الحالة فقط ، يصبح للمؤسسات التمثيلية معنى وأهمية ، لأنها لا تكون منحة من الحاكم تعطى من عل ، بل منبثقة عن حاجات الشعب الواعية وعن تلهفه للمشاركة فى مصيره وفى قدره .

وألهم الأفغانى مدرسة من الكتاب وشجع الشبان النجباء على تأسيس الجرائد و بث فيهم أفكارا ذات أهمية قومية . وتأسست نواة الصحافة العربية حوله ، وتدرب على يديه الكتاب الذين تبنوا قضية الشعب والأمة .

وترك تأثيره طابعا عميقا فى الأدب واتجاهه ، ذلك الأدب الذى كان حتى عصره منصبا على مدح الأمراء والحكام مهما كانوا غير جديرين بهذا المديح . فعلم الأفغانى بأن غاية الأدب الأولى هى خدمة الشعب بالتعبير عن حاجاته والدفاع عن حقوقه ، فنشأ أدب جديد متطلع إلى الشعب ليستمد منه المادة والموضوع ، و يعالج موضوع حقوق الشعب وواجبات الحاكم .

أما الحكام فانهم اكتشفوا أن الأفغانى رجل خطر . فلم يتسامحوا معه لأنه علم الشعب بأن يعتبر نفسه مصدر قوة الحاكم وثروته ، و بين مرارا وتكرارا وفى منتهى الوضوح طغيان الحكام وشقاء رعاياهم وفقرهم ، وحض الشعب وحرضه على أن يقوى نفسه و يخرج من الظلمات إلى النور . (١)

---

(١) احمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ـ القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٧ ـ ١٢١ .

وطالبت قوى الظلام المحلية والأجنبية بطرد الأفغانى من مصر . وعند ما أصدر مجلس الوزراء أمره بطرده اتهمه بإفساد الشباب ، وهى تهمة تذكرنا بالحكم الذى صدر ضد سقراط .

غير أن عمل الأفغانى لمصر والعالمين العربى والإسلامى لم ينته بإخراجه من مصر . فذهب إلى أوربا حيث زار لندن ثم استقر فى باريس . وفى كلتا العاصمتين تعرف برجال من أصحاب المراكز الممتازة فى الحياة العقلية والعامة . وفى باريس أنشأ مجلة « العروة الوثقى » وكانت غايتها إيقاظ المسلمين وتنبيههم إلى حقائق العصر الذى يعيشون فيه . وقد التحق محمد عبده ، تلميذ الأفغانى ، بأستاذه فى باريس وكانت له مساهمة كبيرة فى تحرير العروة الوثقى .

وكان محمد عبده ، وهو مصلح دينى من ذوى الآراء الحرة ، ينتمى إلى عائلة من فلاحى إحدى قرى الدلتا . وقد تلقى العلوم الدينية التقليدية المتوجة بالدراسة فى الأزهر . ودخل أثران فى تكوين حياته ، أولهما هو التراث الإسلامى ، وثانيهما الفلسفة الحرة للقرن التاسع عشر فى أوربا . وكان للغزالى ، بتشديده على الاختبار الشخصى فى الدين وبتأكيده على حق الفرد بالاجتهاد ، أثر حاسم على أفكاره ، وكان مصدر إلهام له .

واتسعت مواهب محمد عبده فشملت نطاقا واسعا من النشاط . فكان يعلم فى الأزهر ، وفى دار العلوم ، وفى مدرسة اللغات . واجتذب ، كالأفغانى ، عددا من التلاميذ الأوفياء ، وقدر لبعض هؤلاء أن يؤدوا أدوارا ممتازة فى الخدمة العامة . ولما كان قاضيا عمل على نشر العدالة وإصلاح المحاكم الدينية . واهتم أيضا بالصحافة فأصبحت « الوقائع المصرية » بإشرافه منبرا لنشر الأفكار الحرة وآراء الإصلاح الاجتماعى والسياسى . وشارك محمد عبده فى الحماسة العامة التى اكتسحت الأمة إبان ثورة عرابى ، فاشترك فى الثورة ونفى . فعاش فى بيروت حينا واتبع مهنة التعليم

المحببة إلى نفسه . ثم التحق بعد ذلك بالأفغانى فى باريس حيث انصب على تحرير العروة الوثقى .

ومع أن العروة الوثقى لم تظهر سوى أشهر معدودات إلا أنها كانت حافزا عظيما للمستنيرين من العرب والمسلمين . فبينما كانت تقرع شعوب الشرق لتأخرها ، لم تفتح مجالا لليأس ، بل أوضحت أن الضعف الحالى هو حالة موقتة لا بد لها أن تنتهى عند ما يفيق الشعب ويصمم على أن يعيش من ضمن تراثه ويواجه تحدى الحياة فى العالم المعاصر . وحاولت العروة أن تنشر الأمل بين قرائها ، وأن تعرفهم بالاتجاهات السائدة فى العالم المحيط بهم ، وأن توثق عرى الروابط بين البلاد الإسلامية وأن تحض على الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى .

وحاربت القوى الرجعية الوطنية والأجنبية ضد العروة . فلم يسمح بدخولها إلى البلاد المشمولة بالحكم التركى ، ومنع البريطانيون دخولها إلى مصر والهند وعاقبوا كل من حصل عليها . وهكذا اتفقت من جديد قوى الرجعية الشرقية والاستعمار الغربى .

وعند ما عاد محمد عبده من منفاه ، استمر فى أداء رسالته الإصلاحية . وفى هذه الأثناء دخلت عناصر جديدة إلى حياة مصر العامة . فقد وطدت دعائم الاحتلال البريطانى ، فحاول محمد عبده أن يكسب صداقة الانكليز لا عداوتهم لينال تأييدهم لبرنامجه الإصلاحى . إلا أن هذا أثار عليه عداء الخديو الذى كان شابا نزقا ، متبرما بالقيود التى يفرضها عليه اللورد كرومر ممثل بريطانيا فى مصر ، ولكن من غير أن يتعاون تعاونا خالصا مع العناصر الوطنية والحرة فى البلاد : ولاقى محمد عبده معارضة أشد من الحزب الوطنى الذى أنشىء حديثا بزعامة الشاب الملتهب مصطفى كامل . فبينما اعتقد محمد عبده أن التحرر من الحكم البريطانى لا يأتى إلا بالتعليم والتثقف العام ، وعمل لهذه الغاية ، فإن الحزب الوطنى كان مؤمنا

بأنه لن يتحقق لمصر إصلاح شامل ما دامت تحت الاحتلال الأجنبى . فالخطوة الأولى هى التخلص من البريطانيين ولن يمكن البدء فى العمل الإيجابى البناء إلا بعد ذلك .

وثابر محمد عبده على عمله فى وجه دسائس الخديو ، واتهامات الحزب الوطنى ، ومعارضة الرجعيين من رجال الدين . ووهب حياته لرسالة تتكون من أطراف ثلاثة ، هى إصلاح الدين الإسلامى ، وإصلاح اللغة العربية ، وإصلاح المؤسسات السياسية . وكان مسلما تقيا يعتقد بأن الإسلام يتسق مع العلم الحديث والفكر الحديث ، وأنه يلبى حاجات الحياة العصرية . ويحبب التفتيش عن حقائق الإسلام فى مصادرها الأصلية ، حيث نشاهد الإيمان فى نقائه الأصلى قبل أن دخلت إليه التقاليد التوكيدية والتقييدية . وكان مهتما بإصلاح الأزهر ، واعتقد بأنه إذا أمكن تأمين التدريب الملائم لرجال الدين فى هذا المركز العظيم من مراكز الدين الإسلامى والفكر الإسلامى ، وإذا أمكن لهؤلاء الرجال أن يكرسوا حياتهم للتقوى وللخدمة فانهم يصبحون قوة باعثة فى العالم الإسلامى كله .

وكان محمد عبده إلى جانب تبحره فى الدين الإسلامى والثقافة العربية ، عارفا بالحضارة الأوربية ومعجبا حكيما بها . وزار أوربا مرات عديدة وكانت زياراته لها حافزا ومصدر وحى له . ولقد تخيل مصر بلدا عصريا ترتكز إلى أساس ثابت واسع من التراث العربى الذى غنى ونما بما تمثله من فكر أوربا ومآثرها .

قطع الاحتلال البريطانى المجرى الطبيعى لتطور البلاد . وكانت نتيجته الفورية هى تقويض التطور الدستورى والتدريب على الحكم الذاتى . فهزمت القوى الوطنية والحرة وأخرجت من مراكز المسؤولية . وأقيمت جمعية وهمية من العناصر الرجعية فى ظل السيطرة البريطانية .وحوفظ على مظاهر الاستقلال باستبقاء الخديو

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ومجلس الوزراء والجمعية العمومية ، إلا أن ممثل بريطانيا كرومر والمستشارين البريطانيين المعينين فى مختلف دوائر الحكومة كانوا هم الحاكمين وراء هذا المظهر . ولم يؤسس الحكم الديموقراطى إلا سنة ١٩٢٣ عند ما حققت الثورة الوطنية استقلالا جزئيا لمصر وحصلت على دستور أقر بمبدأ المؤسسات التمثيلية .

ونجحت الإدارة البريطانية فى إعادة الاستقرار الاقتصادى إلى البلاد وفى إخراجها من الإفلاس الذى كانت تعانيه . وأدخلت النظام والكفاية فى إدارة الشئون العامة ، وحققت بعض الإصلاح فى الجهاز القضائى . غير أن هذه الإصلاحات لم تكن لتغنى عن الحكم الذاتى ، ولم تكن لترضى المصريين عن الحكم البريطانى .

ولقد ذهلت العناصر الوطنية بسبب إخفاق ثورة عرابى وما تلا ذلك من احتلال بريطانيا للبلاد . فبقيت معارضة الحكم الأجنبى ساكنة بعض الوقت . ولكن الحركة الوطنية ما لبثت أن انتعشت قبل نهاية القرن التاسع عشر .

وفى العقد الأول من القرن العشرين رفع الحزب الوطنى وزعيمه مصطفى كامل لواء النضال السياسى . وكانت الصفة المسيطرة فى حياة مصطفى كامل وأعماله هى إيمانه الراسخ بمصر والمصريين . فعند ما استولى اليأس على روح الناس عمل هو بحماسة لا تنطفىء لإعادة الثقة إليهم ولإعداد الأمة لممارسة مسؤولياتها . وأدى رسالته عن طريق الصحافة والتعليم فأسس عددا من النشرات · جريدة يومية وصحيفة أسبوعية ومجلة شهرية ، كرسها كلها للنضال الذى لا يلين من أجل القضية الوطنية . وأنشأ صحيفتين ، إحداهما باللغة الإنكليزية والثانية باللغة الفرنسية لتعريف الرأى العام فى أوربا بقضية مصر . وحمل مصطفى كامل رسالته إلى أوربا بشخصه ، إذ أنه كان فى رحلاته إلى أوربا يلقى المحاضرات العامة ويكتب المقالات للصحف ويتحدث مع السياسيين الأوربيين ويراسلهم .

وتناول مصطفى كامل قضية التعليم بنفس الهمة والحماسة . فلقد كانت تذكيه عاطفة ملتهبة من الرغبة فى نشر التعليم بين جميع طبقات السكان . ولبى دعوته الرجال الذين مستهم روح الخدمة العامة وأخذوا يؤسسون المدارس . وكان هو مديرا لمدرسة أنشأها اثنان من أصدقائه وقدماها هـدية له . وأصبح النادى الذى أنشأه لطلبة المدارس العالية وخريجيها مركزا للنشاط التعليمى والخدمة العامة ، بمـا فى ذلك تأسيس المدارس وانشاء التعاونيات الزراعية . وفـكر بعد عودته من أوربا سنة ١٩٠٦ فى إنشاء جامعة وطنية ، إذ أنه كانت قد تألفت لجنة لجمع التبرعات لتقديم هدية إليه كرمز لتقدير أعماله فى سبيل القضية الوطنية ، فأجاب هو على هذه العاطفة بأن اقترح أن ترصد الأموال لإنشاء جامعة تفتح أبوابها لأبناء الفقراء والأغنياء على حد سواء ، بدلا من أن تنفق على شراء هدية له . فغيرت اللجنة وظيفتها من جمع الأموال لابتياع الهدية إلى جمـع التبرعات لإنشاء الجامعة . وعارض اللورد كرومر فى إنشاء جامعة للشبان المصريين ولم يسمح بتنفيذ هذا المشروع طيلة وجوده فى مصر . وبعد استدعائه إلى بلاده سنة ١٩٠٧ أسست الجامعة المصرية .

غـير أن حياة مصطفى كامل السخية انتهت بالموت المبـكر ، وعند مامات عم البلاد أسى عميق جاء مكذبا لمـا زعمه كرومر من أن الوطنية كانت « حركة متكلفة ومصطنعة » .

وكان مصطفى كامل وغيره من الزعماء يعتبرون أن إعادة الحـكم الدستورى من القضايا البالغة الأهمية . وقد وضعها لطفى السيد فى المقام الأول بين القضايا . وكان لطفى السيد رجلا تقدميا واسع الثقافة . وكان له تأثير بالغ على عدة أجيال من الشبان ، وذلك أولا بوساطة جريدته « الجريدة » ، وبعد ذلك من خلال عمله كمدير للجامعة المصرية . فان لطفى السيد كرر القول فى الجريدة التى أنشأها سنة ١٩٠٧ بأن القضية التى يضعها قبل غيرها هى قضية الدستور . واعتبر الحـكم الفردى أسوأ أنواع الحـكم

لأنه لايمكن وجوده إلا بين شعب مستعبد مهان . وفى ظله تضمحل الأخلاق وتنحل وتهدر الموارد المادية . وذهب لطفى السيد إلى أن جميع طبقات السكان فى مصر تشعر بالحاجة إلى الحكم الدستورى وأن الأمة كانت مجمعة على المطالبة بالدستور . ولكن هذا المطلب الثابت المشروع لم يجد آذانا صاغية لدى أصحاب السلطة ، وهم الخديو من جهة ، والبريطانيون من جهة أخرى .

و باندلاع الحرب العالمية الأولى خفت النشاط الوطنى ولم يستأنف بقوة إلا بعد توقف القتال .

و بينما كانت مصر تشق طريقا جديدا خارج الامبراطورية العثمانية ، استمرت الولايات العربية الآسيوية للحكم العثمانى فى انحدارها وتأخرها .

وتراخت علاقات سوريا بأوربا بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح و بعد استيلاء البرتغاليين على التجارة فى المحيط الهندى فى القرن السادس عشر . ولكن هذه العلاقات لم تنقطع فى أى وقت من الأوقات . فبقى التجار الأوربيون يشاهدون فى الموانىء وغيرها من مراكز التجارة فى شرقى البحر الأبيض المتوسط . واستمر الحجاج الأوربيون فى زيارة الأراضى المقدسة . وفى هذه الفترة بدىء بإنشاء المؤسسات الثقافية الأوربية فى المشرق . وكان الإيطاليون أول القادمين فى الحقل التعليمى ، كما كانوا أكثر الناشطين فى الحقل التجارى . وجاء بعدهم الفرنسيون . وكان لبنان مركز النشاط الرئيسى لهم . وفى القرن السادس عشر أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر مدرسة لتعليم القساوسة المارونيين فى روما . وبرز عدد من المسيحيين اللبنانيين فى أوربا بتعليمهم للغات الشرقية و بنشر النصوص العربية وتصحيحها ، و بوضع الفهارس لمجموعات المخطوطات العربية . ومن رائدى الدراسات الشرقية أربعة من أفراد عائلة السمعانى . فأحدهم يوسف سمعان المتوفى سنة ١٧٦٨ أصبح قيما على مكتبة الفاتيكان ، وشكلت المخطوطات

التى استحضرها معه إلى روما بعد رحلة له فى سوريا ومصر نواة مجموعة الفاتيكان المشهورة للمخطوطات الشرقية . وكتب مؤلفات عدة ، أشهرها فهرست الكتب الشرقية (Bibliotheca Orientalis) . وهناك اسم آخر مشهور بين المستشرقين هو الغزيرى الذى وضع فهرسا للمخطوطات العربية فى مكتبة الاسكوريال . أما البعوث التعليمية الفرنسية التى وصلت أولاها سنة ١٦٢٥ فقد تكاثرت فى القرن التاسع عشر وأصبح لها تأثير قوى واسع .

وقد تحركت عقول الناس ومشاعرهم واستولى عليهم التبرم من الحكم التركى بتأثير غزو إبراهيم بن محمد علىّ لسوريا ، وإقامته لإدارة عصرية فيها ، وبياناته المذاعة حول حرية العرب ، وكذلك بتأثير سلوكه الديمقراطى الخالى من مظاهر الأبهة والادعاء . وأصبحت مصر بعد خروجها من الحكم التركى ملجأ للوطنيين السوريين والمفكرين الأحرار . ووجد الموهوبون من أبناء سوريا فى مصر مجالا أوسع لمواهبهم ، وكان لهم مركز مرموق فى تقدم الصحافة ، فإن جريدة الأهرام المؤسسة سنة ١٨٧٦ وهى من أقدم الجرائد العربية ، مازالت إلى اليوم واسعة الانتشار عالية المكانة فى العالم العربى .

أما أكثر الكتاب السوريين تأليفا فكان جورجى زيدان ، وهو مثال بارز للنشاط العظيم والمعرفة الواسعة ، فإن « قائمة مؤلفاته وتنوع الموضوعات التى طرقها لا تجد لها فى الغالب مثيلا فى أى من الآداب الحديثة » [١] وقد قرب إلى الجمهور التاريخ العربى والثقافة العربية فى سلسلة من الروايات التاريخية بلغت عشرين رواية . أما القراء الأكثر ثقافة واهتماما فقد كتب لهم تاريخ التمدن الإسلامى فى أجزاء خمسة ، كما كتب أربعة أجزاء عن تطور الأدب العربى . وقد أسس مجلة الهلال

---

(١) Gibb ; 'Studies in Contemporary Arabic Literature' Bulletin of the School of Oriental Studies, University of London, Iv p. 759.

الشهرية وكان محررها ، واستعمل هـذه المجلة النافذة لنشر الفـكر الغربى ودراسة المشاكل الجارية .

ومن الشخصيات السورية المحببة التى هبطت مصر لتنفس هواء الحرية عبد الرحمن الـكواكبى سليل عائلة حلبية من الأشراف والعلماء . وقد تقوت الصفات الرفيعة التى ورثها الـكواكبى ونمت بالتربية التى نالها .

وقد اكتسب الـكواكبى فى حياته تجارب واسعة ، فجرب الخدمة الحـكومية واشتغل بالتجارة ، ومارس الحقوق والصحافة وتجول كثيراً فى الجزيرة العربية ومصر وفى الساحل الشرقى لأفريقيا وفى الهند . وقرأ كثيرا ، ومع أنه لم يكن عارفا باللغات الأوربية إلا أنه تعرف بالفـكر الأوربى من خلال الترجمات . وقد اطلع فى ترحاله وفى قراءته على الحالة المحزنة التى وصلت إليها الشعوب العربية والإسلامية ، فأخذ يناضل من أجلها ووقف بجرأة فى وجه الطغيان والظلم . وكان شديد الحساسية للفقر والشقاء فعامل الفقراء والضعفاء بشفقة وتواضع ، ودافع عن المظلومين بالقول والعمل . وأغلقت السلطات الجريدتين اللتين أسسهما فى حلب بسبب هجماتها الشديدة على الحـكم الاستبدادى والحـكام الفاسدين ، وبسبب الآراء الحرة التى نشرها بين الشعب .

وألف الـكواكبى كتابين وجه اللوم فى أحـدهما إلى الحـكومات الإسلامية ووجه اللوم فى الـكتاب الثانى إلى الشعوب نفسها .

ففى كتابه الأول المسمى « طبائع الاستبداد » حلّل الصفات والميول التى تتميز بها الحـكومة الاستبدادية وآثارها المدمرة على الشعب . فان الأخلاق تفسد فى ظل الاستبداد ، وينتفى حب البلاد ، وحب الأصدقاء ، بل وحب العائلة . ويحل الخوف والشك محل الثقة المتبادله . وتختنق الحرية ويفسد الفـكر ، وتـكبت عزة النفس والثقة بالنفس والرجولة ، وتبعثر الموارد الوطنية ، ويكون الفـكر والشقاء

نصيب الشعب فى الحياة . حتى الدين يمسه الفساد ، فيصبح أفيوناً لتخدير الشعب وتحويله عن الاهتمام بالمصائب الحالية إلى الاهتمام بالسعادة الموعودة فى عالم آخر . وتحجب المعرفة لأن المعرفة نور والاستبداد لا يعيش إلا فى الظلام . ولا ينضبط الحكام ولا يمتنعون عن الطغيان إلا إذا وضعوا تحت المراقبة الدقيقة الدائمة من قبل رأى عام قوى . وواجب التعليم أن يعمل على إيقاظ الشعور بالشقاء والظلم وتدريب الشعب على مقاومة الطغيان . ونادى الكواكبى باشتراكية ملطفة حيث يساعد القوى الضعيف ، ويشترك الغنى مع الفقير ، ويقترب الناس بعضهم من بعض فى جميع علائقهم .

أما الكتاب الثانى فيدعى « أم القرى » وهو اسم مكة المكرمة مشهد القصة التى يتحدث عنها ، وهى قصة جمع من المسلمين الوافدين من أنحاء العالم الإسلامى كافة ، التقوا فى الحج . ويعرب هؤلاء عن قلقهم للخمول الذى استولى على المسلمين ويحاولون اكتشاف أسبابه . وبعد تبادل الآراء يتفقون على أن الأسباب دينية وفكرية وسياسية . فالدين لم يعد قوة حية فى نفوس الناس ، وحل محل الاعتقاد بالإرادة الحرة والجهد الشخصى اعتقاد بالقضاء والقدر واستسلام لهما ، وأصبح رجال الدين أدوات فى أيدى أصحاب السلطان . وعم الجهل بين الشعب ومنعه جبنه الأدبى من المطالبة بحقوقه وقتل اليأس روحه . ومن الجدير أن نلاحظ أن بين الأسباب التى يعددونها لتأخر العالم الإسلامى إهمال تعليم المرأة وتدريبها التدريب الصحيح . وقرروا فى النهاية أن الجهل أساس كل علة ، وأن العلاج يكمن فى تنوير الأذهان والعقول عن طريق التعليم .

والكتابان يتصفان بعمق التفكير وبأسلوب واضح ومشوق . وقد نشرا فى القاهرة وكان لهما قراء ومعجبون كثيرون . وإن كتابات الكواكبى والمثال الذى أعطاه فى حياته الشخصية تركا أثرا عميقا فى معاصريه ، لأنه كان حقا من نبلاء

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الرجال يحمل قلبا مليئا بالرحمة بمقدار ما هو ملىء بالشجاعة .

وقد شهدت سوريا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وفى السنوات الأولى من القرن العشرين يقظة ثقافية كانت اللغة العربية أداتها ومصدر وحيها وإلهامها . فإن اللغة العربية كانت فى العصور المتأخرة قد ابتليت بالعقم . إلا أن هذه اللغة النبيلة قد بعثت الآن لتعبر عن آمال الشعب فى العصر الجديد ، ونشر الشعراء والكتاب التعلق باللغة العربية ، فأعلوا من شأنها وتحدثوا عن غناها وعن جمالها وعن كنوزها الأدبية .

وهناك عائلتان مسيحيتان من لبنان امتزج اسماها بشكل لا انفصال له بالحركة الرامية إلى إعادة اللغة العربية إلى ما كانت عليه فى عصورها الزاهرة . وهما عائلة اليازجى وعائلة البستانى . فكان ناصيف اليازجى وابنه إبراهيم شاعرين لهما باللغة العربية الفصحى وجد يشبه الوجد الصوفى . وقد كرسا جهودهما ومواهبهما لإحيائها . وكانا يعتقدان اعتقادا جازما بأن العرب إذا ما وعوا كنوز ثقافتهم الموجودة فى الأدب العربى ، فإنهم سيتحركون لا ستعادة مجدهم السالف . ويعتبر الأب والابن من كبار علماء العربية فى عصرهما . وقد كتبا كثيرا من المؤلفات حول اللغة والأدب ، فضلا عما أنشداه من أشعارهما الخاصة .

أما عائلة البستانى فانها قدمت عددا من العلماء فى مقدمتهم المعلم بطرس البستانى مؤلف موسوعة ومعجم ضخم ، وناشر مجلتين ، إحداهما أسبوعية ، والثانية نصف شهرية ، ومؤسس مدرسة وطنية . وقد سيطرت على أعماله الأدبية والسياسية التعليمية كلها غاية عظيمة واحدة وهى تنشئة جيل من العرب المستنيرين عن طريق نشر المعرفة المستمدة من التراث العربى ومن الثقافة الغربية الحديثة . (١)

وفى أثناء ذلك اتسعت المعرفة بالثقافة الغربية بنتيجة الجهود التى بذلتها

---

(١) George Antonius : The Arab Awakening, London 1945, PP. 47–51.

الإرساليات الفرنسية والأميركية . فأما الفرنسيون فقد توافدوا منذ سنة ١٦٢٥ . وأقبلت طلائع الأميركيين سنة ١٨٢٠ ، وحصلت منذ ذلك الحين منافسة حادة بين الفريقين . وقد فتح كل منهما العديد من المدارس وأنشأ كل فريق معهدا للدراسات العليا ، فأسس الأميركيون الكلية السورية الانجيلية سنة ١٨٦٦ ، وهى التى أصبحت فيما بعد الجامعة الأميركية فى بيروت ، وأسس الفرنسيون جامعة القديس يوسف سنة ١٨٧٥ فى بيروت أيضا .

ولم تكن المدارس الأجنبية خيرا كلها للبلاد . فبعضها كان يشجع الطائفية والولاءات المتعارضة ، وينشئ نمطا تعليميا غير متلائم مع حياة الشعب وتقاليده الفكرية . فإذا أخذنا هذا التحفظ بعين الاعتبار ، فإننا لا ننكر المآثر الإيجابية للمدارس الأجنبية ، إذ أنها هيأت فرص التعليم للكثير من الأولاد والبنات الذين ما كانوا ليحصلوا العلم لولاها . وكان تعليمها متقدما عما استطاعت المدارس الوطنية أن تقدمه من تعليم فى ذلك الحين . وعلاوة على ذلك فإن كلا من معهدى الدراسة العالية قدم بطريقته الخاصة ، خدمات باقية لاشك فيها . وكانت الكلية السورية الانجيلية فى أيامها الأولى تستعمل اللغة العربية فى تدريس جميع فروع الطب والعلوم . ولتلبية الحاجة إلى الكتب المدرسية تعاون العلماء والمربون الاميركيون مع العلماء العرب لترجمة الكتب الانكليزية إلى اللغة العربية .

وفتح علماء جامعة القديس يوسف كنوز الثقافة العربية القديمة بما نشروه من نصوص قديمة ، وبما قاموا به من أبحاث فى جميع حقول التاريخ العربى . ونشروا مؤلفاتهم هذه بوساطة المطبعة الكاثوليكية فى بيروت وهى مطبعة ممتازة كانت أحرفها العربية أجمل الأحرف فى الشرق كله لمدة طويلة من الزمن .

ومن الأحداث البالغة الأهمية إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ ، وهو

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الدستور الذى أنهى طغيان السلطان عبد الحميد الجاثم كالكابوس المريع على الرعايا العثمانيين لمدة ثلاثين سنة . وقد قوبل هذا الحدث بابتهاج لا مثيل له فى الامبراطورية العثمانية الشاسعة بأسرها . أما بالنسبة للعرب فإنه كان فألا حسنا بإمكانية التعاون الشريف مع الأتراك ، و بإمكانية الحصول على مركز مشرف فى الامبراطورية العثمانية . وقد أشاد به الشعراء والأدباء بما نظموه من شعر وما كتبوه من نثر فى هذه المناسبة . وقد مس قلوب أبناء الشعب فتغنوا به فى شعرهم وأناشيدهم وأغانيهم .

غير أن هذه الآمال الواسعة لم تعمّر إلا قليلا . فإن السياسة التركية التعصبية التى انتهجها شبان الأتراك المسيطرون فى الآستانة نفرت العرب وصرفت ولاءهم وتعاونهم . أما تطور الحركة العربية بعد ذلك فترويه قصة الثورة العربية .

الفصل السابع

الثورة العربية

اشتعلت الثورة العربية فى الحجاز فى ربيع سنة ١٩١٦ . ولم تجىء هذه الثورة بغير مقدمات ، ولا كانت حدثاً محليا ، بل كانت تعبيرا عن وعى العرب القومى وعن رغبتهم فى كيان ومصير لهما منفصلين عن الأتراك وخارجين عن الامبراطورية العثمانية . فالاتجاهات التى تكونت ببطء خلال السنوات المئة السابقة، أيقظت فى العرب بالتدريج شعورهم بذاتيتهم وكونت للقومية العربية شكلا ، وإن لم يكن هذا الشكل قد تبلور بعد .

والسنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة كانت سنوات تبرم وتخمر ، فقد خاب أمل الزعماء العرب بالثورة التركية وضاعت آمالهم فى التعاون مع فتيان الأتراك ، فضاعف هذا من جهودهم فى سبيل حرية العرب وكيانهم القومى . وقد هيأ إعلان الدستور التركى فرصا للنشاط السياسى ، فأرسلت الولايات العربية ممثليها إلى البرلمان التركى فى استانبول حيث علا صوتهم فى الدفاع القوى عن حقوق العرب . وتضاعفت الصحف والمجلات ونشرت المشاعر القومية بين قرائها . وتأسست الجمعيات السياسية وعملت لتحرير البلاد العربية . واتخذت اثنتان من هذه المنظمات شكلا سريا ، وقادتا الحركة . فإحداهما ، وهى جمعية الفتاة ، تأسست فى باريس سنة ١٩١١ وكان معظم أعضائها من طبقة رجال الحرف ، وثانيتهما ، وهى جمعية العهد ، كانت منظمة ضباط الجيش . وقد ضمت كل من الجمعيتين أعضاء من العراق ومصر وسوريا وفلسطين .

أما العهد التركى الجديد المشبع بالميول الطورانية فكان مؤذيا للأمانى العربية.

وقد طبق الأتراك سياسة ترمى إلى كبت الثقافة العربية والقومية العربية . وعند ما حلت مجالس الولايات أعلن الإضراب العام فى دمشق و بيروت . فأقفلت المدينتان وتعطلت المواصلات كلها وخرجت طبقات السكان فى مظاهرات صاخبة ، وثارت المشاعر القومية .

وقد أعربت الحكومة التركية عن اعترافها بالحركة القومية العربية بأن أرسلت ممثلا رسميا عنها للتفاوض مع الزعماء العرب المجتمعين فى المؤتمر العربى الأول بباريس سنة ١٩١٣ . وتم اتفاق على أساس اللامركزية ، بحيث تتمتع الولايات العربية بالحكم الذاتى ضمن الامبراطورية العثمانية . ومن مواد الاتفاق الأخرى الاعتراف باللغة العربية كلغة للتعليم فى المدارس الرسمية و إعطاء العرب عددا مناسبا من المقاعد فى مجلس المبعوثان . وأكد المندوب التركى للزعماء العرب حسن نية الحكومة التركية واستعدادها للذهاب إلى مدى بعيد فى سبيل تلبية المطالب العربية ، وذلك نظرا للروابط الدينية و الثقافية التى تربط العرب والأتراك .

ونال الاتفاق ترحيباً فى الولايات العربية . غير أن الحكومة التركية لم تكن تنوى تنفيذه فما إن اشتعلت الحرب العالمية الأولى حتى أهملته . فاقتنع عدد من الزعماء العرب بنتيجة ذلك أنه لم يبق مجال للتعاون مع الأتراك من ضمن دولة تركية ـ عربية لا مركزية ، بل وجب الانفصال الكلى عنهم وتأسيس دولة عربية مستقلة .

وتوترت العلاقات بين العرب والأتراك إلى نقطة الانقطاع عندما أعلنت الحرب العالمية . وكان البريطانيون يرنون بأبصارهم إلى البلاد العربية ، فاتصلوا بزعمائها لاستمزاجهم فيما يكون عليه موقفهم إذا دخلت تركيا الحرب ضد الحلفاء . وفور دخول تركيا الحرب أبرق اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانية إلى المعتمدية البريطانية فى القاهرة متعهداً بأن تؤيد بريطانيا العرب فى نضالهم من أجل الحرية إذا

دخلوا الحرب فى جانبها . وقد أبلغت رسالة كتشنر المؤرخة فى ٣١ اكتوبر سنة ١٩١٤ إلى الشريف حسين ، شريف مكة[١] . وبعد ذلك بأشهر قليلة تسلم الشريف تشجيعا من مصدر بريطانى آخر هو حاكم السودان العام .

ورأى العرب فرصتهم غير أنهم لم يقفزوا إليها فورا ، بل استوقفتهم بعض الريب والشكوك ، أما فى عائلة الشريف حسين فإن ابنه الثانى عبد الله ، أيد التحالف مع بريطانيا . أما فيصل فقد شك فى نوايا البريطانيين والفرنسيين تجاه العراق وسوريا . ولم يرد الشريف نفسه أن يعلن عن موقفه حتى يتأكد من موقف العرب خارج الحجاز . ولكن لم يطل به الانتظار فجاء التطمين ، إذ وصل إليه رسول من دمشق يحمل رسالة شفوية من الزعماء فى سوريا والعراق تقول بأن الزعماء السياسيين وكبار الضباط العرب فى الجيش التركى يوافقون على قيام ثورة من أجل استقلال العرب ، وتسأل الشريف عما إذا كان مستعدا لقيادة هذه الثورة . وقد وصل هذا الرسول إلى مكة فى شهر يناير سنة ١٩١٥ . وفى ربيع ذلك العام زار فيصل دمشق واطلع على الجمعيات القومية السرية ، ووجد أن أعضاءها يشاركونه شكوكه ومخاوفه من النوايا الأوربية . ولكنهم جميعاً أيدوا قيام ثورة عربية إذا أمكن الحصول على ضمانات كافية لاستقلال العرب . وقد أعرب الزعماء العرب فى مصر عن هذا الموقف ذاته عندما اتصلت بهم السلطات البريطانية حول موضوع رسالة كتشنر إلى الحسين . ففى مكة والقاهرة ودمشق جرت المطالبة المتشددة بوعود أكيدة ، واعتبر إعطاء مثل هذه الوعود شرطا لدخول العرب فى الحرب .

ووضع الزعماء فى دمشق مشروعا ليكون أساساً للتحالف مع بريطانيا وسلموه

---

(١) Antonius, The Arab Awakening, P. 133.

إلى فيصل لينقله إلى أبيه . وهذا المشروع الذى يعرف باسم « بروتو كول دمشق » نص على مايلى :

اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن حدود مرسومة بوضوح تشمل البلاد العربية فى آسيا كلها باستثناء مستعمرة عدن .

وإلغاء جميع الامتيازات الخاصة الممنوحة للأجانب بموجب نظام الامتيازات.

وعقد معاهـدة تحـالف بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة التى ستنشأ فى المستقبل .

ومنح بريطانيا أفضلية فى المعاملة الاقتصادية .

وقد اتخذ الحسين لنفسه موقفا واضحا فى رسالته المؤرخة فى ١٤ يوليه سنة ١٩١٥ والتى افتتح بها مراسلات الحسين ومكماهون الشهيرة والسيئة الطالع [١] ، إذ تقـدم فى هذه الرسالة بالمشروع الذى تضمنه بروتوكول دمشق على اعتبار أنه يمثل شروط العرب لدخول الحرب . ومن الضرورى أن نؤكد هنا ونتـذكر دوما أن الحسين كان معترفا به كناطق باسم العرب على أساس بروتوكول دمشق . وقد نص هـذا البروتوكول فى وضوح على أن الهدف هو الاستقلال . وكان التحالف مع بريطانيا معلقا على شرط قبولها باستقلال العرب [٢] .

وجواب مكماهون على هـذه الرسالة الأولى مثال لعدم الإخلاص والغموض . فهو يؤكد حسن نوايا بريطانيا تجاه العرب وموافقتها على خلافة عربيـة فى حال إعلان مثل هذه الخلافة . ثم ينتقل إلى القول بأنه ليس من المناسب أن تبحث مسائل الحدود فى شدة الحرب ، خصوصا وأن بعض هذه الحدود ما زالت بين الأتراك .

---

(١) كان مكماهون هو المندوب السامى البريطانى فى مصر .

(٢) Antonius, op. cit. PP. 157–158.

وقد أعرب الحسين فى جوابه عن دهشته لتهرب مكماهون وذكر أن الحدود المقترحة تشكل مطالب الشعب العربى لا اقتراحات فرد واحد . وأكد أن نتيجة المفاوضات رهن بقرار بريطانيا بهذه القضية .

وأدرك مكماهون أن عليه أن يتقدم باقتراحات واضحة فى جوابه هـذه المرة . ومع ذلك فقد جاءت اقتراحاته مقيدة بعـدد من القيود والتحفظات . ففى رسالته المؤرخة فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٩١٥ استثنى من الحدودالمرسومة فى برتوكول دمشق. « مقاطعتى » مرسين والإسكندرونة ، وأقساما من سوريا تقع إلى الغرب ممـا سماه متصرفيات دمشق وحمص وحماه وحلب ، على افتراض أنها ليست عربية خالصة . فبهذا التعديل وبدون الإضرار بمعاهدات بريطانيـا مع الشيوخ العرب ، وبدون الإضرار بمصالح فرنسا حليفة بريطانيا ، تعهدت الحـكومة البريطانية بأن « تعترف باستقلال العرب وتؤيده فى جميع المناطق الواقعـة ضمن الحدود التى طالب بهـا شريف مكة »[١] .

ووافق الحسين على استثناء مرسين ولـكنه لم يوافق على ضياع شبر واحـد من أراضى سوريا التى يقطنها العرب ولو لم يكن جميع هؤلاء العرب من المسلمين ، إذ يقول بأنه : « لا فرق بين عربى مسلم وعربى مسيحى ، فـكلاهما أحفاد جـد واحد »[٢] .

وبعد هـذه المفاوضات دخل العرب فى الحرب إلى جانب الحلفاء . وأطلقت الطلقة الأولى فى سبيل حرية العرب فى مكة اعتبارا من الخامس من شهر يونيـه سنة ١٩١٦ . وابتدأت الثورة ، وجاءت فى الوقت المناسب . إذ أن نجم الحلفاء لم يكن فى صعود عند ما انضم العرب إلى قضيتهم .

---

(١) Cmd. 5957 P. 8

(٢) Cmd. 5957 P. 9.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

قدمت الثورة العربية خدمات جلى للحلفاء وساهمت فى انتصارهم فى الجبهة الشرقية . وكان سلطان تركيا قد أعلن الجهاد الإسلامى المقدس ، وهو فريضة على كل مسلم . إلا أن الثورة العربية التى قادها شريف مكة ، حفيد الرسول وسادن الحرمين الشريفين ، أحبطت الجهاد الذى أعلنه الأتراك . وأحبطت الثورة العربية حملة تركية ألمانية للجزيرة العربية ، وربما كان فى استطاعة مثل هذه الحملة أن تحتل عدن بهجوم مفاجئ . ولو وطد الألمان أقدامهم فى شبه الجزيرة العربية لأغلقوا البحر الأحمر وجعلوا المحيط الهندى مفتوحا لعملياتهم . ولكن الثورة العربية أفسدت هذه الخطط كلها [١] .

وفى القتال الفعلى قام العرب بدور مذكور . إذ عند ما كان الجنرال موري General Murray يتقدم نحو فلسطين فى ربيع سنة ١٩١٧ « أدرك فى دهشة مفاجئة أن القوات التركية التى كانت تحارب العرب تزيد عن القوات التى كانت تحاربه » [٢] وفى أثناء حملة أللنبى فى فلسطين كان جيش فيصل الذى أصبحت غالبيته الآن من عرب سوريا وفلسطين والعراق يحارب شرقى نهر الأردن ، وكانت تقابله قوات تركية تكاد تساوى القوات التركية المواجهة لأللنبى غربى نهر الأردن . وفى الجنوب كان العرب يحجزون قوة تركية أخرى كبيرة . وفى سنة ١٩١٨ كما فى السنة السابقة لها كان الأتراك المواجهون للإنكليز فى فلسطين أقل من الأتراك المحجوزين فى محاربة العرب . وبالإضافة إلى ذلك فإن الأتراك وحلفاءهم الألمان كانوا يحاربون فى أرض غريبة ويتعرضون لهجمات ومضايقات وصعوبات جمة . « ولا شك فى أن الحملة البريطانية فى الشرق الأدنى كانت مدينة للمساعدة العربية فى النجاح النهائى الذى حققته ، دينا كبيرا » [٣]

---

(١) Antonius, P. 210.

(٢) Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, 1935, P. 167.

(٣) Speiser, The United States and the Middle East, P. 51.

وقد توجت الثورة بدخول فيصل إلى دمشق فى اكتوبر سنة ١٩١٨ ، فاهتزت أرجاء العالم العربى لهذا الحدث ، إذ أن لدمشق أهمية خاصة فى ذهن العرب وخيالهم ، فلقد كانت مركزا لخلافة الأمويين القوية والعربية الخالصة ، وقد اعتزت على مدى العصور بتراثها العربى .

فالثورة العربية التى خلدها لورنس فى « أعمدة الحكمة السبعة » هى ثورة ينظر إليها القراء الإنكليز وكأنها من صنعهم . ومع أنه لا سبيل إلى إنكار دور لورنس فى الثورة ـ فإن شجاعته وصبره ، وأعماله الجريئة أكسبته إعجاب العرب الذين عرفوه ـ إلا أن لورنس لم يكن منظم الثورة ولا كان روحها ، ولم يكن فى وسع أى أجنبى أن يكون الروح والمنظم ، فعندما وصل لورنس كان الأساس قد وضع والثورة قد ابتدأت . والشخصية الأولى فى الثورة هى شخصية فيصل نفسه .

وعندما تحررت دمشق تصور العرب بأن الهدف الذى من أجله حاربوا قد تحقق وأن الاستقلال أصبح فى قبضتهم . فلقد قاموا بنصيبهم كاملا فى الاتفاقية المعقودة مع بريطانيا قبل سنتين . وتمكنوا بمساعدة الحلفاء من تحرير وطنهم من الحكم التركى . ولم يدروا يومذاك ، وقد شعروا بالاطمئنان إلى قوة سلاحهم ، وبعدالة قضيتهم ، وبالثقة فى شرف حلفائهم ، لم يدروا أى مصير كان هؤلاء الحلفاء ذاتهم يعدونه لهم .

فقد وضعت اتفاقيتان لتقسيم البلاد العربية بالتجاوز عن العرب ، وبغير معرفة منهم . وتم ذلك فى الوقت الذى كان فيه أبناء هذه البلاد ذاتها يموتون لتحيا بلادهم وتتحرر .

ووضعت الاتفاقية الأولى فى سرية تامة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا فى ربيع سنة ١٩١٦ ، وهى تعرف باسم اتفاقية سايكس ـ بيكو . وقد نصت على تقسيم غنائم الحرب من الامبراطورية العثمانية بين الفرقاء الثلاثة . وبما أن حصة روسيا

كانت خارج العالم العربى ، وبما أن العهد البلشفى ألغى هذه المعاهدة كما ألغى جميع الاتفاقات السرية المعقودة فى العهد القيصرى ، فقد كانت بريطانيا وفرنسا هما اللتان أحبطتا أمانى العرب وداستا حقوقهم .

وفى هذه الاتفاقية تقاسمت بريطانيا وفرنسا الأراضى العربيـة الواقعة بين بلاد فارس والبحر الأبيض المتوسط ، فنالت فرنسا الجزء الغربى من سوريا إلى جانب ولاية الموصل ، واجتزأت بريطانيا العراق من بغـداد حتى الخليج العربى . واتفق الطرفان على أن تنشأ الدولة العربية المقبلة فى الصحراء الواقعة بين المنطقتين . على أن يكون القسم الشمالى منهـا خاضعا لنفوذ فرنسا ، بينما يخضع القسم الجنوبى لنفوذ بريطانيا . أما بالنسبة لفلسطين فقد أصر الفرنسيون على أن تـكون سوريا كلها ، بما فى ذلك قسمها الجنوبى المسمى فلسطين ، من نصيبهم . ولم يرغب البريطانيون فى وجود الفرنسيين على مثل هذا القرب من قناة السويس ، فقالوا بتدويل فلسطين مع الاحتفاظ لأنفسهم بالإشراف على مينائى حيفا وعكا [١] . وهكذا قسمت البلاد العربية وأعطيت الصحراء للعرب . وإن بريطانيا لتتحمل القسط الأوفى من المسئولية فى هـذه الاتفاقية البعيدة عن الشرف ، فإن بريطانيا لا فرنسا هى التى تعهدت قبل سنة من الزمن باستقلال هـذه البلاد التى أخذت اليوم تعمل على تقطيع أوصالها . ولم تطلع بريطانيا فرنسا على شروط تحالفها مع العرب، وكتمت عن العرب كل مايتعلق باتفاقية سايكس ـ بيكو .

وعند ما أذاع الروس أسرار الوثائق القيصرية ، سمع العرب بالمؤامرة المحاكة ضد كيانهم . ونصح لورنس فيصل بأن يخجل الإنـكليز وذلك بتقديم أعظم المساهمة فى انتصارهم بحيث يجعل من المستحيل تملصهم من الوفاء بتعهداتهم نحو العرب .

---

(١) Antonius, op. cit. PP. 244 – 251.

« لقد رجوته أن لا يصدق وعودنا كما صدقها أبوه ، بل يعتمد على قوة تصرفه »[١] .

وهناك مؤامرة أخرى كانت تحاك ، وقد انطلقت هذه المؤامرة فى وعد بلفور الصادر فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٧ ، وفيه وعد لليهود بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين .

وقد استنكره العرب الذين سمعوا بأمره واحتجوا عليه أشد الاحتجاج . وطلب الحسين تفسيرا فوريا ، فأرسلت الحكومة البريطانية إليه رسالة تطمينية حملهاموظف بريطانى كبير من المختصين بالشئون العربية يدعى هوجارث . وضمنت هذه الرسالة بوضوح حرية السكان العرب السياسية والاقتصادية ، وذلك خلافا لوعد بلفور الذى لم يضمن لهم سوى الحرية المدنية والدينية[٢] . وبعد ذلك بشهر - أى فى فبراير سنة ١٩١٨ - أبلغت الحكومة البريطانية رسميا تثبيتها المجدد لتعهداتها للعرب ، وكان ذلك جوابا على رسالة من الملك حسين أبلغ فيها المندوب السامى البريطانى بمصر الرسائل التى وجهها القائد العام التركى إلى الأمير فيصل معلنا بها نوايا الحلفاء ضد البلاد العربية والشعب العربى . وقد أنكرت المذكرة البريطانية هذه الشائعات ووصفتها بأنها دسائس تركية يقصد منها بذر الشقاق بين العرب وحلفائهم الذين توجد أفكارهم غاية مشتركة نحو هدف مشترك . وأن حكومة جلالته تثبت مجددا تعهدها السابق حول تحرير الشعوب العربية »[٣] .

وفى هذه الأثناء ساورت الزعماء العرب الشكوك والريب حول نوايا حلفائهم ، وأحسوا بأعظم القلق حول مستقبل الأمة العربية ، فقدم سبعة من هؤلاء الزعماء

---

(١) Lawrence, op. cit. P. 555.

(٢) Cmd. 5964.

(٣) Antonius, Appendix C, PP. 431—432.

المقيمين فى القاهرة فى ربيع سنة ١٩١٨ مذكرة تصف الموقف وتطالب ببيان واضح شامل حول السياسة البريطانية المتعلقة بمستقبل البلاد العربية . وجواب الحكومة البريطانية الذى أبلغ إلى هؤلاء الزعماء السبعة فى اجتماع عقد فى ١٦ يونيه سنة ١٩١٨ ، ينص على مايلى :

١ — فيما يخص الأراضى التى كانت حرة ومستقلة قبل الحرب ، والأراضى التى حررها العرب من الأتراك بأنفسهم فإن « حكومة جلالته تعترف بالاستقلال والسيادة التامين للعرب القاطنين فى هذه البلاد وتؤيدهم فى نضالهم من أجل الحرية » . وهذا البند يشمل الدول المستقلة فى الجزيرة العربية والحجاز حتى العقبة شمالا .

٢ — وفيما يختص بالبلاد التى تحتلها جيوش الحلفاء فإن حكمها فى المستقبل « يجب أن يستند إلى مبدأ موافقة المحكومين . وستبقى هذه دائما سياسة حكومة صاحب الجلالة » . وهذا البند يشمل العراق من الخليج العربى حتى بغداد ، والقسم الجنوبى من فلسطين بما فى ذلك القدس ويافا .

٣ — وأخيراً فيما يختص بالأراضى التى مازالت خاضعة للحكم التركى ، وهى شمالى العراق وسوريا ، فإن « رغبة حكومة جلالته هى أن تنال الشعوب المغلوبة على أمرها فى هذه الأراضى حريتها واستقلالها »[1] .

ولهذا البيان أهميتان : فهو أولا بيان رسمى يوضح سياسية الحكومة البريطانية تجاه البلاد العربية الداخلة فى الحدود المرسومة بمراسلات حسين ـ مكماهون ، وثانيا ، فإن هذا البيان صدر بعد اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وبعد وعد بلفور ، مثبتا تعهدات بريطانيا السالفة لمساعدة العرب فى نضالهم من أجل التحرر من الأتراك ومن أجل الحرية والاستقلال .

---

(١) Anonius, Appendix D, PP. 433—434.

وصدرت من أمريكا أيضا تأكيدات بحياة أفضل . فإن النقطة الثانية عشرة من النقاط الأربع عشرة التى أعلنها الرئيس ولسون أمام مجلس الكونجرس فى ٨ يناير سنة ١٩١٨ تهم العرب ، إذ جاء فى هذه النقطة أن « القوميات الأخرى التى تخضع الآن للحكم التركى يجب أن تطمئن إلى حياة آمنة لا شك فيها وإلى الفرصة المطلقة فى أن تنمو نموا ذاتيا من غير إكراه . وأعلن فى خطابه الذى ألقاه فى ٤ يوليه من تلك السنة أن أساس أية تسوية تلى الحرب يجب أن يكون موافقه الشعوب التى يعنيها الأمر .

واختتمت سلسلة الوعود والتعهدات بالبيان البريطانى ـ الفرنسى الصادر فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ . ففى ذلك التاريخ كانت سوريا والعراق قد تحررا بأكملهما، وكان العرب المحاربون قد بدأوا يسمعون من الأخبار ويشاهدون من الدلائل ما يظهر عدم إخلاص حلفائهم . وانتشر الشك والقلق ، وأحبطت بصعوبة حركة عصيان قامت فى الجيش العربى . وأخبر فيصل اللنبى بالموقف وطلب بيانا فوريا مسؤولا من الحلفاء يفصح عن نواياهم . وجاء البيان البريطانى الفرنسى الصادر بشكل بلاغ رسمى عن القيادة العامة ، جوابا على فيصل . وقد وزع هذا البيان على نطاق واسع ، وطلب من الصحف أن تخصص له أمكنة بارزة وألصقت نسخ منه فى جميع المدن وفى كثير من القرى فى فلسطين وسوريا والعراق ـ طولا وعرضا . ويقول البيان . إن غايات فرنسا وبريطانيا من وراء الحرب فى الشرق هى « تحرير الشعوب التى عانت من ظلم الأتراك تحريرا كاملا أكيدا ، وتأسيس حكومات وطنية وإدارات تنال سلطتها من رغبات السكان الوطنيين وباختيارهم الحر » .

« وإن الحكومتين لا تريدان أبداً فرض أية مؤسسات خاصة على سكان هذه المناطق ، بل إن همهما الوحيد هو أن تتأكدا بوساطة ما تقدمانه من تأييد ومن

معونة فعالة ، من السير الطبيعى للحكومات التى سيختارها السكان لأنفسهم اختيارا حرا » (١)

واشترك فيصل فى مؤتمر السلام الذى التأم فى باريس سنة ١٩١٩ كرئيس للوفد الحجازى ، جنبا إلى جنب مع ممثلى الدول المتحالفة والدول المؤتلفة . وكانت هذه أولى تجاربه بطرق السياسة الغربية ، ولم يكن ما رآه يدعو إلى الإعجاب . وقد وصف السياسيين الغربيين بأنهم « كاللوحات التى يرسمها أفراد المدرسة التأثرية فى الرسم ؛ إذ لا يعطون فكرة طيبة إلا عن بعد » (٢) .

وكان واضحا منذ البدء أن الحلفاء لم يقصدوا حفظ عهودهم . فاعترض الفرنسيون على وجود فيصل فى مؤتمر الصلح ، وامتعضوا أشد الامتعاض من حكومته فى دمشق . أما البريطانيون ، فكانوا منهمكين فى الاستيلاء على مراكز قوية لهم فى الأراضى العربية ، فضغطوا على فيصل ليوافق على مشروعاتهم وخططهم .

وتشبث الرئيس ولسون بمبدأ « موافقة المحكومين » ، واقترح تعيين لجنة تحقيق مشتركة من الحلفاء لزيارة سوريا والعراق بقصد معرفة رغبات السكان فى هذه البلاد . فرفض الفرنسيون التعاون على إجراء مثل هذا التحقيق ، لأنهم كانوا يعرفون نتائجه مقدما . أما البريطانيون فإنهم تراجعوا بعد أن عينوا الأعضاء الذين يمثلونهم فى اللجنة . وأصر ولسون على ذهاب أعضاء اللجنة الأميركيين وحدهم إذا رفض الآخرون التعاون فى الأمر .

وفى الوقت نفسه اهتاج الشعور فى البلاد العربية بسبب ما أفشاه مؤتمر الصلح من حقيقة نوايا السياسة البريطانية ـ الفرنسية . فقرر الزعماء فى سوريا الدعوة إلى مؤتمر عام . وكان هؤلاء الزعماء هم أنفسهم الذين وضعوا بروتوكول دمشق

---

(١) Jeffries, Palestine the Reality, P. 238, Antonius, Appendix E, PP. 435–6

(٢) Jefferies, P. 306.

سنة ١٩١٥ وأرسلوه إلى الشريف حسين ليكون أساساللتعاون مع الحلفاء. والآن نظموا انتخاب أول برلمان عربى اجتمع فى دمشق فى الثامن من شهر يوليه سنة ١٩١٩ ، وعرف باسم المؤتمر السورى العام . وقد أرسل إليه الممثلون من جميع أنحاء سوريا ، بما فى ذلك جزؤها الجنوبى وهو فلسطين . ومن الضرورى أن نتذكر المقررات التى اتخذت فى هذا المؤتمر . فقد نادت باستقلال سوريا ضمن حدودها الطبيعية ، و إنشاء حكم ملكى دستورى فيها ، على أن يكون نظام الحكم لا مركزيا وذلك للمحافظة على حقوق الأقليات . وتنصيب فيصل ملكا ، وذلك لأنه جاهد جهادا نبيلا من أجل حرية العرب . ونادى المؤتمر باستقلال العراق التام و بإزالة الحواجز الاقتصادية بين العراق وسوريا . وشدد على وحدة سوريا ورفض كل مشروع يبنى على تجزئتها وتقطيع أوصالها ، وشجب ادعاءات الصهيونيين فى فلسطين .

ورفض المؤتمر كل وصاية سياسية مهما كان شكلها . أما المساعدة الاقتصادية والفنية فيمكن قبولها على شرط أن تقدم لمدة محدودة من الزمن وأن لا تمس استقلال البلاد ووحدتها . وأعرب المؤتمر عن تفضيله لأميركا فى تقديم هذه المساعدة . فإن لم تستطع الاستجابة لهذا الطلب ، يمكن عندئذ قيام بريطانيا بالمهمة . إلا أن المساعدة الفرنسية غير مقبولة مهما كان شكلها .

وتنتهى القرارات بالكلمات التالية : إن المبادىء الأساسية التى أعلنها الرئيس ولسون فى استنكاره للمعاهدات السرية تجعلنا نتقدم بالاحتجاج الشديد ضد أية اتفاقية تنص على تجزئة سوريا وضد أية محاولة ترمى إلى الاعتراف بالصهيونية فى سوريا الجنوبية . ونحن نطالب بالإلغاء الصريح لهذه الاتفاقيات والتعهدات جميعها .

والمبادىء السامية التى أعلنها الرئيس ولسون تشجعنا على الاعتقاد بأن رغبات

شعبنا ستكون هى الاعتبار الحاسم فى تقرير مصيرنا ، وأن بمقدورنا أن نتطلع إلى الرئيس ولسون والأمة الأميركية الحرة المعروفة بعطفها المخلص الكريم على أمانى الشعوب الضعيفة ، لمساعدتنا فى تحقيق أمانينا .

« وإننا نعتقد اعتقاداً جازما بأن مؤتمر السلام سيعترف بأننا ما كنا لنثور على الحكم التركى ، الذى كنا نستمتع فى ظله بالامتيازات المدنية والسياسية وبحق التمثيل ، لو لم يكن الأتراك قد أنكروا علينا حقنا فى الكيان القومى المستقل . ونعتقد أن مؤتمر السلام سيحقق كامل أمانينا ، وذلك على الأقل لكى لا يكون وضعنا السياسى بعد التضحيات التى قدمناها لقضية الحرية أسوأ مما كان عليه قبل الحرب .

وإننا نرغب بأن يسمح لنا فى أن نرسل وفدا يمثلنا فى مؤتمر السلام ، ويدافع عن حقوقنا ، ويعمل على تحقيق أمانينا»[١] .

وفيما كان المؤتمر السورى مجتمعا كان الأعضاء الأميركيون المعينون فى لجنة التحقيق التى أصبحت تعرف باسم لجنة كنج ـ كراين (King - Crane Commission) تطوف البلاد محاولة معرفة الأحوال السائدة فيها ، والرغبات الحقيقية لسكانها حول الحكم الذى يريدونه فى المستقبل . وقد وصفت هذه اللجنة قرارات المؤتمر السورى بقولها : « إنها أهم وثيقة قدمت للجنة وتستحق أن تدرس بأعظم الاحترام . ولما كانت نتيجة لعملية سياسية واسعة وشاقة ، فإنها تشكل أساساً يمكن أن يجتمع السوريون عليه ، وهى أفضل وأثبت أساس لنظام قومى فى سوريا . وستجد الدول المنتدبة فى هذه القرارات تعهدا بإنشاء حكومة حرة ، وهو تعهد عظيم القيمة فى إنشاء الدولة الجديدة وتوجيهها التوجيه الصحيح »[٢] .

---

(١) Antonius, op. cit. Appendix G, PP. 440–442.

(٢) Jeffries, op. cit. P. 255.

وقد زارت اللجنة المدن الرئيسية وكثيراً من المراكز الريفية ، فى أثناء طوافها الذى دام ستة أسابيع واستمعت إلى الناس وناقشتهم وقرأت مئات من العرائض ، ثم قدمت تقريرها إلى الرئيس ولسون الذى أرسل إلى الحكومات المتحالفة نسخا منه .

وشدد تقرير اللجنة على أهميـة توصيتين من توصياتها ؛ فأولاهما أكدت ضرورة المحافظة على وحدة سوريا ، لأنها « بلاد صغيرة وقليلة السكان ولأن وحدتها الاقتصادية والجغرافيـة ، والعرقية ، واللغوية ، واضحة كل الوضوح ، بحيث يصبح من غير الملائم إنشاء دول عديدة مستقلة داخل حـدودها . فوجب تجنب تجزئتها إلى مثل هذه الدول ما أمكن ؛ إذ أن أغلبية هذه البلاد عربية فى لغتها ، وثقافتها ، وتقاليدها ، وعاداتهـا » [١] . والنقطة الثانيـة تتعلق بالوطن القومى اليهودى . « إن الشعور المعادى للصهيونيـة فى فلسطين وسوريا شديد ولا يمـكن تخطيه بسهولة » [٢] : فيجب تعـديل البرنامج الصهيونى تعديلا أساسيا لأنه لن يمكن تطبيقه إلا بقوة السلاح .

إن تقرير لجنة كنج ـ كراين وثيقة فذة فى أهميتها وقيمتها . فلقد كتب هذا التقرير رجال يتمتعون بأعلى الصفات الخلقية والعقلية وينتمون إلى أمة لم تـكن لها أطماع ونوايا تجاه البلاد التى يشملها التقرير . وهو تقرير موضوعى ومبنى على المعرفة التامة . وقد أظهرت الأحداث فيما بعد أن هذه التوصيات كانت مبنية على المعرفة الصحيحة للموقف ، وأنها وضعت فى حكمة وإدراك .

واجتمع مجلس الحلفاء الأعلى فى سان ريمو فى شهر ابريل سنة ١٩٢٠ . وتهادت بريطانيا وفرنسا الانتدابات على بلاد وشعوب تعهدتا لها بالحرية والاستقلال . وتعرف

---

(١) Antonius, op. cit. Appendix H. P. 445.

(٢) Ibid, P. 449.

سنة ١٩٢٠ فى التاريخ العربى بأنها سنة النكبة . فلقد شهدت مجئ الفرنسيين إلى سوريا ، والبريطانيين إلى العراق ، والصهاينة إلى فلسطين .

وما كان هذا أبدا هو الغرض الذى حارب العرب من أجله . ولكن لورنس الذى رافق الثورة العربية تنبأ وكتب يقول : « إذا ربحنا الحرب ، فإن عهودنا للعرب أوراق ميتة . غير أن الاندفاع العربى كان وسيلتنا الرئيسية فى كسب الحرب الشرقية . وعلى ذلك أكدت لهم أن بريطانيا تحافظ على كلمتها نصا وروحا . فاطمأنوا إلى هذا القول وقاموا بالكثير من الأعمال المدهشة . ولكننى بالطبع ، بدلا من أن أكون فخورا بهذا الذى فعلناه معا ، كنت أشعر دائما بمرارة الخجل »[1] .

(١) Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, PP. 275–276

الفصل الثامن

مصر منذ عام ١٩١٨ : النضال السياسى

إن الحركة الوطنية التى ابتدأت فى مصر قبل غيرها من البلاد العربية ، أصيبت بالنكسة عندما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ . وكانت بريطانيا ، بصفتها إحدى الدول الموقعة على معاهدة لندن المعترفة باستقلال مصر تحت التبعية الشكلية للسلطان ، والضامنة لهذا الاستقلال ، قد تعهدت بأن تحترم وضع مصر القائم بموجب هـذه المعاهدة . ولذلك فإن احتلالها لمصر جاء نقضا لمعاهدة دولية . وقد أدركت الحكومات البريطانية المتعاقدة عـدم شرعية مركزها فى مصر ، وبالتالى فإنها كررت القول بأنها لا تنوى أن تضم مصر إليها أو أن تحكمها بشكل دائم ، وأن الاحتلال ليس سوى إجراء مؤقت سينتهى بمجرد عودة الأحوال فى مصر إلى وضعها الطبيعى . غير أنه اتضح على ضوء الأحداث التالية أن هذه الأقوال لم تكن تشكل سياسة ملزمة للحكومة البريطانية ، بل قصد منها أن تهدىء من الشكوك والمخاوف التى ساورت جزءاً من الرأى العام البريطانى ، فأثيرت بشكل أسئلة مزعجة فى البرلمـان ، من ناحية ، وأن تهدىء الرأى العـام الأوربى ، وخاصة الرأى العـام فى فرنسا الذى نظر إلى عمل بريطانيا فى مصر بكثير من الاستنكار والاحتجاج ، من ناحية أخرى .

وأعطت الحرب العالمية الأولى لبريطانيا فرصة لتشدد قبضتها على مصر . فعند ما دخلت تركيا الحرب ضد الحلفاء ، وكانت صاحبة السيادة الاسمية على مصر ، أعلنت مصر محمية بريطانية وقطعت آخر العلاقات التى تربطها بالامبراطورية العثمانية . وحلت الجمعية التشريعية التى أنشئت سنة ١٩١٣ ، رغم كونهـا هيئة للاستشارة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

والمناقشة فقط ، وأخضعت البلاد لحكم يمارسه المندوب السامى البريطانى والمستشارون البريطانيون للدوائر الحكومية المختلفة الذين كانوا يدينون بالولاء والمسؤولية لممثل بريطانيا فى مصر لا لأية سلطة محلية .

والمشروع الذى وضعته دار الحماية لنظام نيابى فى مصر سنة ١٩١٨ يظهر مفهوم بريطانيا لما يجب أن يكون عليه الحكم التمثيلى لمصر ، ويوضح بعدها عن العطف على أمانى الشعب المصرى القومية . والمشروع ينص على تأليف برلمان من مجلسين : مجلس النواب يتألف من المصريين وتكون له صفة استشارية بحتة . وأما السلطة التشريعية فتكمن كلها فى مجلس الشيوخ المؤلف من المصريين والأجانب . وكثير من هؤلاء الشيوخ يعينون لعضوية المجلس تعيينا . والأعضاء المعينون يشملون الوزراء والمستشارين البريطانيين للوزارات وغيرهم من كبار الموظفين البريطانيين . أما الأعضاء المنتخبون فإن بينهم ٣٠ مصريا و١٥ أجنبيا ينتخبون بوساطة نظام معقد مقيد . وقد قضت ثورة ١٩١٩ على هذا المشروع الذى يضع السلطة التشريعية فى أيدى الأجانب .

ووصل القلق الشعبى البالغ نقطة الانفجار عندما جاءت الأنباء بأن الحماية البريطانية لمصر قد أدرجت فى معاهدة فرساى . فقد ظن المصريون أن الحماية إجراء اقتضته الحرب ، وتوقعوا أن تنتهى بانتهاء الحرب . وبدلا من ذلك أعطيت الآن شكلا ثابتا بإدراجها فى معاهدة دولية .

وكان رد فعل مصر للتجاوز عن حقوقها وأمانيها . سلميا فى بادىء الأمر ، واتخذ شكل المفاوضات والاحتجاج . ولكنه انقلب بعد ذلك إلى ثورة علنية . وقد ابتدأت هذه الثورة عند ما تقدم وفد يمثل مصر ويرأسه سعد زغلول بطلب لزيارة لندن ولعرض قضية مصر على الحكومة البريطانية والشعب البريطانى ، فرفضت وزارة الخارجية البريطانية هذا الطلب . عند ذاك عرض الوفد قضية بلاده على مؤتمر

السلام ، وأعلن سعد برنامجه للتحرر الوطنى . وتبع ذلك هياج سياسى ، فاعتقل سعد وغيره من الزعماء ونفوا إلى مالطة . وكان ذلك هو النذير لثورة واسعة النطاق اشتركت فيها المدن والقرى وأيدها جميع فئات السكان بما فيهم النساء اللواتى قمن بالمظاهرات لأول مرة .

وقد اتحدت عوامل عديدة ، سياسية واقتصادية واجتماعية ، لإشعال هذه الثورة. وجاءت ثورة عام ١٩١٩ من الناحية السياسية احتجاجا على الاحتلال وكل ما يتفرع عنه من السيطرة الانكليزية الكاملة الشاملة الرابضة وراء حكومة وطنية تبعية ووراء حكام يحكمون اعتباطا دون أن يكون للشعب سلطة عليهم . وقد زادت الصعوبات التى عانتها مصر إبان الحرب فى تذمر الشعب من وضعه الراهن ، بينما استفزه وجود القوى الأجنبية الكبيرة فى ربوعه .

وقد مهدت الأحزاب السياسية للثورة ـ وأخصها الحزب الوطنى الذى تزعمه مصطفى كامل ـ ومهدت لها الصحافة . وكان الجو كله يعبق بروح الحرية سنة ١٩١٩. فإن مبادئ ولسون و بياناته استولت على قلوب الشعوب المحكومة . و إلى جانب ذلك فإن الحلفاء قدموا وعودا رسمية باستقلال العرب فى الهلال الخصيب والجزيرة العربية ، ومصر بلد عربى لا يقل فى تقدمه عن البلاد التى أعطيت لها وعود الاستقلال .

وقد سبق الثورة مظاهرات واسعة النطاق اتسمت بالتنظيم والهدوء، وقد اشتركت فيها جميع طبقات السكان : فساهم فيها زعماء الدين المسلمون والمسيحيون ، والوجهاء ، والقضاة ، والمحامون ، والمعلمون ، والطلبة ، ورجال الأعمال ، والتجار ، والصناع ، وغيرهم من العمال .وكان يحافظ على النظام أفراد شرطة شعبية مجندة من الجمهور عرفت باسم الشرطة الوطنية . واستجاب الناس لشرطتهم الخاصة التى نجحت بدورها فى إقصاء العناصر الخارجة عن القانون من بين الجمهور .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وواجه البريطانيون التظاهرات السلمية بالسيارات المصفحة ، وأطلق الجنود النار على الجماهير ، حتى عندما لم تكن مجتمعة فى مظاهرات سياسية بل كان أفرادها خارجين من المساجد بعد صلاة الجمعة .

وكانت الإضرابات مظهرا آخر من مظاهر الثورة ، وقد حاكت المظاهرات فى الاتساع وحسن التنظيم . وكان الطلاب أول الجماعات المضربة وتبعهم عمال الترام والسكك الحديدية . وأضرب المحامون ، وحتى موظفو الحكومة . وأغلقت متاجر القاهرة . وكان التخريب هو المرحلة الثانية من مراحل الثورة . فقطعت المواصلات فى طول البلاد وعرضها بسبب التخريبات التى أنزلت بالسكك الحديدية والبرق والهاتف.

وعقب ذلك مرحلة من عدم التعاون والمقاطعة كانت آخر مراحل الثورة . ورفض المصريون الاشتراك فى أية حكومة ليجبروا البريطانيين الذين كانت بيدهم السلطة الحقيقية على أى حال ، على أن يتحملوا كامل مسؤوليتهم عن الأحداث . وقوطعت البضائع والمتاجر البريطانية كما قوطع أفراد الجالية البريطانية فى مصر .

واعتقل سعد زغلول ، الذى كان قد عاد من منفاه فى مالطة ، مجددا ، ونفى مع جماعة من رفاقه إلى جزائر سيشل . وحصل فى مصر مثل ما حصل فى الهند فثابر الباقون على العمل واستعدوا للنفى بأن اختاروا لجانا تقوم مكان المعتقلين والمنفيين .

وأصبح من الواضح أن الحركة تستند إلى أساس شعبى واسع وأنه لن يمكن وقفها بإبعاد نفر من الزعماء .

وانتشرت الثورة إلى الأقاليم وشملت البلاد كلها . وارتكب البريطانيون فى الأقاليم أعمالا شرسة لكبت الثورة وإخمادها . فألقت الطائرات قنابلها على جموع الناس وأوقعت بهم إصابات كبيرة ، وأطلق الجنود النار على كل جماعة ، وحتى عندما كان الناس يتفرقون كان الجنود يتبعونهم إلى الحقول ويقتلونهم من غير

تمييز . وأحرقت القرى ونهبت ودمرت المحصولات . وكانت هذه الأعمال أعمال انتقام وثأر غايتها إرهاب السكان ، أكثر مما كانت إجراءات ضرورية ترمى إلى إعادة النظام .

وكان الشعب المصرى شعبا أعزل ، ولم يقم أفراد الشعب بأعمال التدمير والتقتيل الطائشة ، بل اهتموا بالمحافظة على أرواح الأجانب المقيمين فى مصر وعلى ممتلكاتهم.

لقد كانت ثورة وطنية خالية من الأحقاد الطبقية والتعصب الدينى . فتعاون المسلمون والأقباط تعاونا خالصاً واتحدت جميع طبقات السكان فى تأييد القضية المشتركة .

وصورت المصادر البريطانية الرسمية الثورة على أنها عملية من الفوضى حرض عليها عدد قليل من الزعماء غير المسؤولين ممن نصبوا أنفسهم للزعامة ، وهم مجرد أدوات فى أيدى الدساسين الأجانب من أتراك وألمان و بلاشفة . ومع ذلك قررت الحكومة البريطانية إرسال لجنة للتحقيق برياسة اللورد ملنر وزير المستعمرات . ووصلت اللجنة إلى مصر فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٩ فاستقبلتها التظاهرات المعادية وأمطرتها البرقيات والرسائل التى تعلن الاحتجاج وقوطعت جلساتها .

وقد جاء فى تقرير اللجنة أن الوضع فى غاية الخطورة ، فلا يمكن تفسيره بأنه من صنع نفر من المحرضين ، أو اطراحه على وهم أنه من تدبير العملاء الأجانب . بل تعتقد اللجنة بأن الحكومة البريطانية مسؤولة جزئيا عن الثورة لأنها أخفقت فى تحقيق بياناتها القائلة بأن بريطانيا موجودة فى مصر بشكل مؤقت وأن غايتها هى المساعدة على تهيئة الظروف التى تؤمن لمصر استقلالها . ولكن « بعد أربعين سنة من الاحتلال البريطانى لمصر ، يظهر أنه لم يتم الاقتراب من الهدف الذى ادعت بريطانيا أنها ترمى الوصول إليه ، بل بالعكس فإن البعد عنه قد ازداد »[١] .

---

(١) Cmd. 1131, PP. 17–18

واستمر التقرير يقول بأن زعماء الحركة لم يكونوا من المتطرفين بل عرفوا بالميول المعتدلة ، لأنهم ينتمون إلى حزب الأمة الذى كان مؤسسا قبل الحرب والذى كان يستهدف التقدم الدستورى التدريجى . ولكن خيبة أملهم من البريطانيين هى التى جعلت منهم ثائرين .

وقد أثر فى اللجنة تماسك الحركة الوطنية ووحدتها ، إذ كانت تستند إلى « عطف جميع الطبقات والطوائف بين السكان المصريين ، بما فى ذلك الأقباط »(١). وإلى التأييد الشعبى المتحد وراء سعد زغلول ، وهو « الرجل الوحيد المعترف به من الجميع بأنه يمثل الشعب المصرى »(٢) .

ونصح ملنر حكومته بأن الوضع المصرى لا تمكن معالجته بالعودة إلى النظام القديم ، ولن يكفى الإصلاح الإدارى أيضا لحل المشكل . وأوصى بأن توضع فورا معاهدة مقبولة من الطرفين وأن تنفذ هذه المعاهدة بإخلاص ، واعتبر ذلك الأساس الأوحد لعلاقة صحيحة بين بريطانيا ومصر .

ولكن ملنر استقال من وزارة المستعمرات فى مطلع سنة ١٩٢٠ وخلفه فيها تشرشل . والتسوية التى ارتأتها الحكومة البريطانية لم تكن معاهدة يجرى التفاوض عليها بحرية ، ويقبلها الطرفان ، بل كانت تصريحا من جانب واحد أصدرته الحكومة البريطانية . وقد صدر هذا التصريح فى شهر فبراير سنة ١٩٢٢ ، فأنهت بموجبه الحماية واعترف باستقلال مصر مع تحفظات حول المواصلات الامبراطورية والدفاع عن مصر وحماية المصالح الأجنبية ووضع السودان . وقد رحب المصريون بإلغاء الحماية إلا أنهم استنكروا تصريح الحكومة البريطانية هذا لضيق نطاقه ولكونه جاء من جانب واحد .

---

(١) Ibid, P. 14

(٢) Ibid, P. 20

ومع أن الثورة لم تنجح فى تحقيق أغراضها فورا ، فإن نتائجها كانت مع ذلك مهمة . فإنهاء الحماية ، مهما كان ناقصا ، هو نتيجة مباشرة من نتائج الثورة . وتوطد مبدأ الحكم التمثيلى الذى ناضل الرأى المستنير فى مصر من أجله منذ ثورة عرابى بنتيجة الدور الحاسم الذى قامت به جماهير الشعب سنة ١٩١٩ . وفوق هذا كله كانت النتائج النفسية للثورة عظيمة ، فإن روح الثورة أعادت إلى الشعب ثقته بنفسه ، وهدمت الحواجز بين أبنائه وأبرزت خير ما فيهم ، وألهمتهم مثلا أعلى كانوا مستعدين للموت فى سبيله [١] .

وقد وجدت الثورة فى سعد زغلول زعيما جديرا بالزعامة ، لأنه كان رجلا من الشعب وللشعب ، وقد ثار المصريون مرتين ضد حكامهم فى أثناء حياة سعد . وقد اشترك فى شبابه فى ثورة الفلاحين التى قادها عرابى . وعند ما أصبح شيخا قاد نضال الشعب للتحرر من الحكم البريطانى .

وابتدأ العمل فى وضع الدستور بعد إعلان تصريح فبراير ، ووضع الدستور موضع التنفيذ فى ابريل سنة ١٩٢٣ ، وقد أعلن أن السيادة تكمن فى الشعب ، وأقر مبدأ مسؤولية الوزارة تجاه البرلمان . وقد أجريت أول انتخابات لبرلمان يمثل مصر تمثيلا صحيحا فى شهر يناير سنة ١٩٢٤ ، وتمت هذه الانتخابات ، خلافا لكثير من الانتخابات التى جرت فيما بعد ، فى جو من الحرية وعدم التحيز . فنال الوفد ٩٠ فى المئة من المقاعد البرلمانية ، وعرفت الحكومة التى ألفها سعد باسم حكومة الشعب . ودافع سعد والوفد فى البرلمان عن الاستقلال التام . واعتبر تصريح فبراير غير ملزم ، ولم تقر تحفظاته وذلك لكونه تصريحا صادرا من جانب واحد .

كان سعد بطل الاستقلال والمدافع عن سيادة الشعب ضد الحكم الفردى الاعتباطى . وقد رغب البريطانيون والقصر فى إزاحته ، فلاحت لهم الفرصة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة سنة ١٩١٩ ـ جزءان ، الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .

عند ما اغتيل « لى ستاك » حاكم السودان العام البريطانى ، فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ . لقد كان واضحا حينذاك ، أن لا يد للحكومة فى هذا الاغتيال ، وقد ثبت هذا الأمر فيما بعد . بل أعلن سعد أن الحادث يشكل كارثة لمصر، وأنه مؤامرة موجهة ضده وضد حكومته . ومع ذلك اغتنمت الحكومة البريطانية هذه الفرصة فوجهت إنذارا فرضت فيه على الحكومة المصرية دفع تعويض كبير ، وطالبت بسحب القوات المصرية من السودان ، وأعلنت إلغاء الاتفاقية الخاصة بالرى فى السودان ؛ ورافق الإنذار وتبعه مظاهرات عسكرية ، فسارت القوات البريطانية فى شوارع القاهرة ، وظهرت القطع البحرية فى ميناء الاسكندرية واحتل الجنود مبانى الجمارك . واستقال سعد وقبلت الحكومة الجديدة إنذار بريطانيا وحلت البرلمان .

وكان الملك فؤاد مستبدا نشأ على تقليد الحكم المطلق وصمم على أن يحكم بالفعل، ولما كان لا يملك أن يتصرف تصرفا مستقلا تجاه الانجليز فانه حاول أن يمارس سلطته على حساب سيادة الشعب . فأسست برعاية القصر أحزاب سياسية ذات نزعات رجعية ، ولم يكن لهذه الأحزاب من أتباع خارج دائرة صغيرة محدودة ، ولو وجدت فى بلد أكثر تقدما من الناحية السياسية لما كان لها أية أهمية . ولكن عدم استقرار الوضع فى مصر مكنها من أن تصبح عنصر تفرقة ، وعقبة فى طريق الاستقلال والحكم الدستورى . وكانت الحكومات التى عينها القصر ضعيفة أو غير عابئة بارادة الشعب ، فحلت البرلمانات ، حتى إن أحد هذه البرلمانات حل فى أول يوم التأم فيه ، وشوه الدستور فى بادئ الأمر بإدخال تعديلات رجعية عليه ، ثم علق ، وألغى كليا فى نهاية الأمر .

وجنى الانجليز ثمار الشقاق بين الدوائر السياسية المصرية . واعتمدوا على الحكومات التى لا تستند إلى تأييد شعبى ولا تعطف على الآراء القائلة بسيادة الشعب مطمئنين إلى أن هذه الحكومات لن تندفع فى استخلاص حقوق مصر من الدولة

المحتلة . واعتمدت هـذه الحـكومات بدورها على تأييد بريطانيا . طالما خدم وجودها مصالح بريطانيا . ومن الأمور الغريبة قيام إحدى الجامعات البريطانية العريقة بمنح الدكتوراه الفخرية لرئيس الوزارة المصرية الذى ألغى الدستور عند ما كان يقوم بزيارة رسمية لبريطانيا .

ورغب البريطانيون فى عقد معاهدة مع مصر لإعطاء وجودهم فيها صفة شرعية . ولـكن المعاهدة التى فـكروا فيها كانت محدودة بالخطوط التى رسمها تصريح فبراير . فقامت محادثات بين سعـد وحكومة مكدونالد الأولى ولـكنها انقطعت بسرعة ، بسبب اتساع هوة الخلاف بين الشروط التى عرضتها بريطانيا ومطالبة مصر بجلاء القوات البريطانية و بالاتحاد مع السودان و بالاستقلال الحقيقى . وحصلت محاولات أخرى متقطعة بين سنوات ١٩٢٧ و ١٩٣٠ وفشلت جميعها . واتسمت علاقات مصر و بريطانيا بالتوتر حتى سنة ١٩٣٥ ، حين جمعتهما الأحداث العالمية الناجمة عن النزاع الإيطالى الحبشى ، فعقدت المعاهـدة المصرية البريطانية عام ١٩٣٦ . وقد أعطت المعاهدة صفة شرعية لوضع بريطانيا فى مصر كما ضمنت مصالحها ، ونصت على أن تضع مصر موانئها ومطاراتها ووسائل مواصلاتها تحت تصرف بريطانيا فى أحوال الحرب . وعلى بريطانيا أن تسحب قواتها إلى منطقة القنال وتحتفظ بها هناك حتى يصبح فى مقدور مصر تأمين حرية الملاحة فى القنال وسلامتها . أما بالنسبة للسودان فنص على بقاء الحـكم الثنائى الذى أسس سنة ١٨٩٩ .

وأمنت المعاهدة لمصر بعض المزايا . فقـد خففت من الاحتـكاك المستمر مع السلطات البريطانية وما كان يتبعه من تدخل بريطانيا فى شئون مصر الداخلية . وأقرت بأن لمصر وحدها حق حماية الأجانب المقيمين فيها . ونصت على إلغاء الامتيازات الأجنبية فى وقت قصير . واتفق على أن تسرى المعاهدة لمدة عشرين سنة . (١)

---

(١) Royal Institute of International Affairs, Documents on International Affairs, 1936, PP. 476–492.

وفى السنة التالية ألغيت الامتيازات الأجنبية وذلك عندما وقعت الدول صاحبة هذه الامتيازات اتفاقية مونترو . وفى اكتوبر سنة ١٩٤٩ ألغيت المحاكم المختلطة التى أسست سنة ١٨٧٩ وأعطيت صلاحية الحكم فى جميع الأمور المدنية التى تخص الأجانب . وهكذا أصبح الأجانب المقيمون فى مصر للمرة الأولى خاضعين لسلطة الحكومة المصرية فى الأمور القضائية والمالية خضوعا تاماً ، وأصبح فى مقدور الحكومة المصرية إدخال الإصلاحات المالية الملحة .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية كانت مصر أحد المعاقل الرئيسية للديموقراطية ، وعندما حاول الملك مغازلة إيطاليا فرض البريطانيون عليه حكومة وفدية نفذت جميع تعهدات مصر بموجب المعاهدة . ووضعت موارد مصر وجميع مواصلاتها تحت تصرف بريطانيا وحلفائها .

وبعد انتهاء الحرب أصبح تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ من القضايا الرئيسية فى السياسة المصرية . فقد أجمع الرأى العام فى مصر على أن المعاهدة لم تعد ذات موضوع وانها استنفدت أغراضها .

وكانت بريطانيا من جانبها مستعدة لإعادة النظر فى علاقاتها مع مصر . فانتهت المفاوضات التى جرت سنة ١٩٤٦ باتفاق عرف باسم اتفاق صدقى ـ بيفن ، نص على جلاء القوات البريطانية عن مصر نهائيا فى سبتمبر سنة ١٩٤٩ . غير أن الاتفاق لم ينفذ بسبب اختلاف الرأى بين الطرفين على وضع السودان وعلى الدفاع المشترك .

وفى صيف سنة ١٩٤٧ عرضت الحكومة المصرية قضية بلادها على مجلس الأمن الدولى التابع لمنظمة الأمم المتحدة . وقد أوصى المجلس باستمرار المفاوضات المباشرة بين الفريقين المتنازعين .

وأعيد فتح المفاوضات فى أوائل سنة ١٩٥٠ واستمرت ثمانية عشر شهراً . وقد تركزت حول انسحاب القوات البريطانية ، فقد ادعت بريطانيا أن الدفاع عن

قناة السويس لا يهمها وحدها ، بل هو مرتبط أوثق الارتباط بسلامة العالم الغربى ، وأن بريطانيا إنما تقوم بهذا الواجب نيابة عن هذا العالم الغربى . ووصف موقف مصر بأنه موقف غير عملى بسبب الأخطار الكامنة فى الوضع العالمى ـ تلك الأخطار التى تعطى أمن المنطقة أسبقية على مسألة السيادة المصرية . وتشبثت مصر بموقفها فقالت بأن حريتها وكرامتها الوطنية لا يتلاءمان مع وجود القوات البريطانية على أرضها ـ وهما أهم فى نظرها من الاعتبارات الاستراتيجية . وقد ردد وزير خارجية مصر الشعور العام السائد عندما قال بأن مسئوليات بريطانيا الدولية المزعومة فى قناة السويس ليست سوى أحدث عذر من سلسلة الأعذار الطويلة التى حاولت بريطانيا بوساطتها أن تبرر وجودها فى مصر . وقد تنوعت هذه الأعذار والتفسيرات التى قدمتها بريطانيا خلال سنوات الاحتلال السبعين للتكيف مع روح الأيام ومتطلباتها . ففى عام ١٨٨٢ دخلت القوات البريطانية إلى مصر لحماية الخديو من رعاياه الثائرين فى وجهه . وبقيت فى البلاد لحماية الأجانب ، والأقليات ، أو لحماية الفلاحين من الملاكين . إلا أن الثورة الوطنية التى وقعت سنة ١٩١٩ ، والتى عبرت عن وحدة أهداف الشعب المصرى تجاه القوة المحتلة ، كذبت ادعاء بريطانيا بأن قواتها لازمة لحماية إحدى فئات السكان من غيرها . فجاء للحال ادعاء جديد هو حماية المواصلات الامبراطورية ، ثم استبدل بالحاجة المزعومة لتأمين سلامة العالم الحر فى حرب قد تحصل ضد روسيا . وقد قالت مصر بأن خطر الحرب يخف كثيراً ، بل وربما يزول إذا احترمت الدول الكبرى حقوق البلاد الصغيرة ، وإذا قوت هذه البلاد الصغيرة وسائل الدفاع وأصبحت مسئولة عن الدفاع عن نفسها .

ولما طالت المفاوضات ازداد قلق الرأى العام المصرى وشكه فى النوايا البريطانية . فأقدمت الحكومة المصرية إزاء هذا الضغط الشعبى على إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ،

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

وحصل ذلك فى ١٨ اكتوبر سنة ١٩٥١ . وقد بررت هـذا التصرف الذى جاء من طرف واحد بأن المعاهدة المصرية ـ البريطانية تتعارض مع روح ميثاق الأمم المتحدة الذى نص على مبدأ التساوى بين الدول الأعضاء ، ويتعارض مع قرار منظمة الأمم المتحدة الصادر فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ والذى نص صراحة على عدم إبقاء قوات أجنبية على أرض دولة من الدول الأعضاء بدون موافقة هذه الدولة . واتهمت مصر بريطانيا بأنها لم تنفذ نصوص المعاهدة تنفيذا أميناً ، إذ خالفتها فيما يتعلق بعدد الجنود الذين يجوز إبقاؤهم فى مصر ، والمنطقة التى يبقون فيهـا ، وأنها لم تنفـذ تعهداتها بتدريب الجيش المصرى وتجهيزه بالسلاح . ففى أثنـاء الحرب الفلسطينية منعت بريطانيا السلاح عن مصر عند ما كانت مصر معرضة لأشد الأخطار بسبب سياسة بريطانيا فى فلسطين ـ تلك السياسة التى أدت إلى قيام الدولة اليهودية . واتبعت السلطات البريطانية فى السودان سياسة تضر بمصالح مصر .

وقد قوبل إلغاء المعاهدة بالابتهاج والحماسة فى مصر كلها . فترك العمال المصريون أعمالهم فى المعسكرات البريطانية بالآلاف ، وترك الشبان مدارسهم وجامعاتهم ليلتحقوا بحرب العصابات ضد القوات البريطانيـة . واعتقدت السلطات العسكرية البريطانية أن اتخاذ الإجراءات العنيفة سيؤدى إلى إرهاب المقـاومة . وقد قصد من معركة الاسماعيلية ـ التى وقعت بين قوات البوليس المصرى الخفيفة السلاح ، و بين القوات البريطانية المتفوقة والمدعومة بالدبابات والمصفحات ـ أن تؤدى هذا الغرض الإرهابى . غير أنها ـ بدلا من ذلك ـ كانت مناسبة لبطولة فائقة أظهرها رجال البوليس القليلو العدد . وعند ما وصلت أنباء هذه المعركة إلى مسامع الشعب المصرى ـ الذى اعتبرها مذبحة قامت بها القوات البريطانيـة ضد أبنائه ـ هاج هياجا عظيما حتى إن الجماهير الغاضبة ، التى اندست بينها العناصر الهدامة والمتذمرة المختلفة الأصول والنزعات ، أقدمت يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ على إحراق المركز التجارى فى القاهرة .

مصر : رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

مصر : مشروع السد العالى

سوريا : المسجد الاموى بدمشق

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

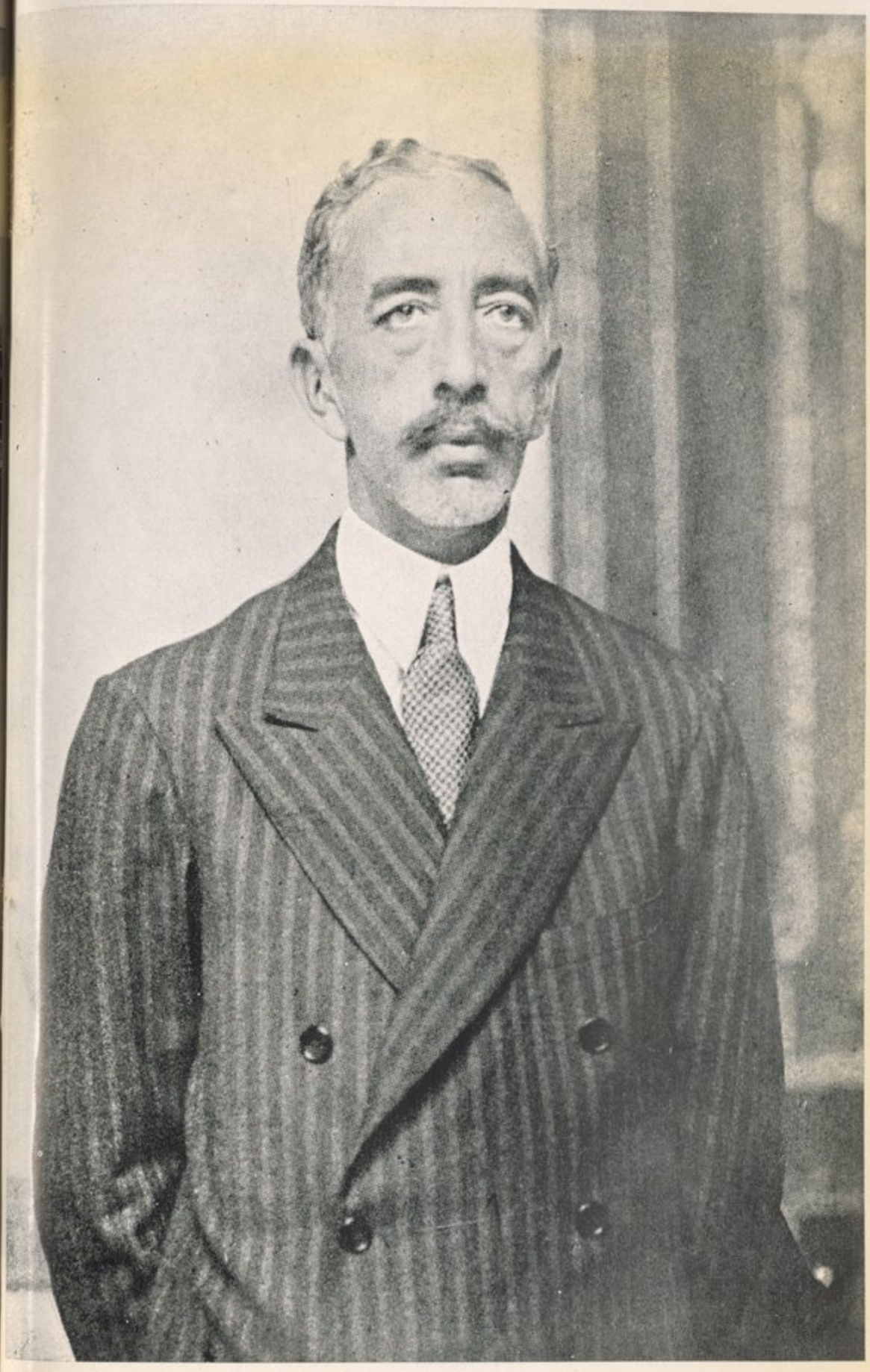

العراق : المغفور له جلالة الملك فيصل الاول

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

Ewing Galloway

مصر : مبانى حديثة فى القاهرة

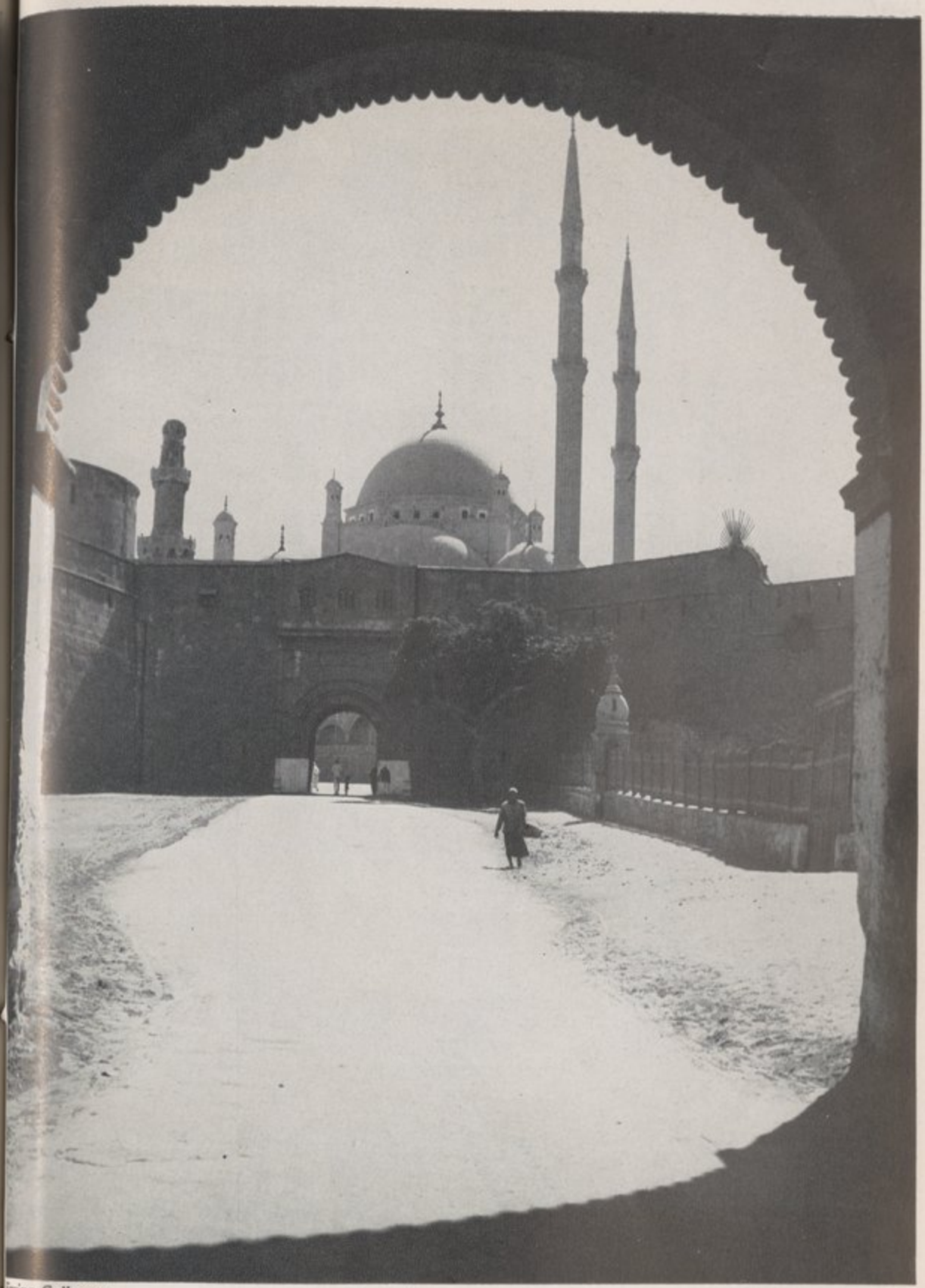

Irving Galloway

مصر : القلعة ومسجد محمد على بالقاهرة

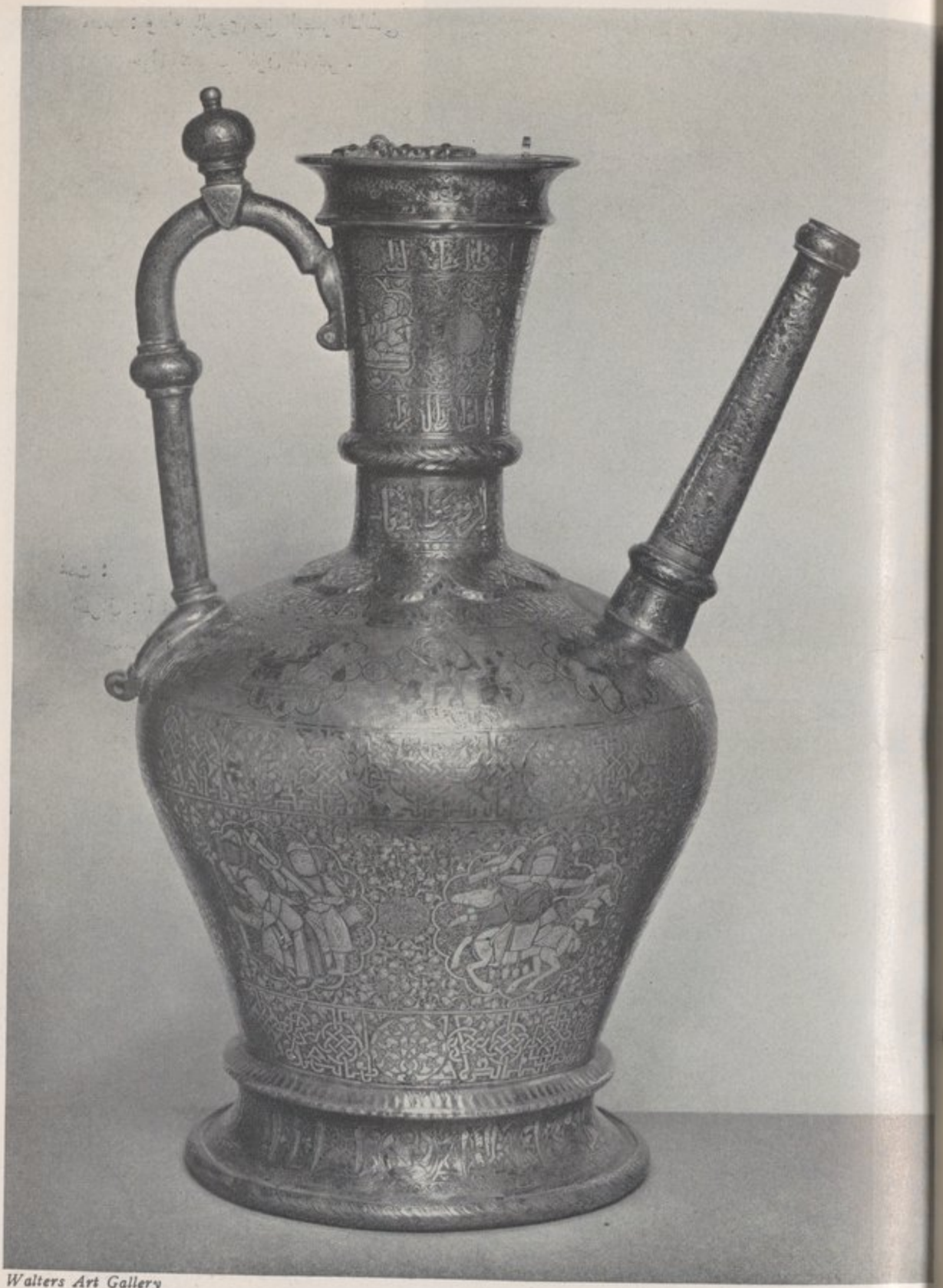

Walters Art Gallery

الموصل : إبريق كبير مكفت بالفضة (منتصف القرن الثالث عشر)

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

Freer Gallery of Art

إلى اليسار :

مصر : وعاء بللورى من العصر الفاطمى حول منتصف القرن العاشر .

تحت :

العراق : آنية من الفخار الملون « طراز سامرا » حول القرن العاشر .

Freer Gallery of Art

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

Ewing Galloway

اسبانيا الإسلامية : البرج الدوار « چيرالدا » فى اشبيلية ، وهو مئذنة المسجدالذى بنى فى سنة ١١٩٦

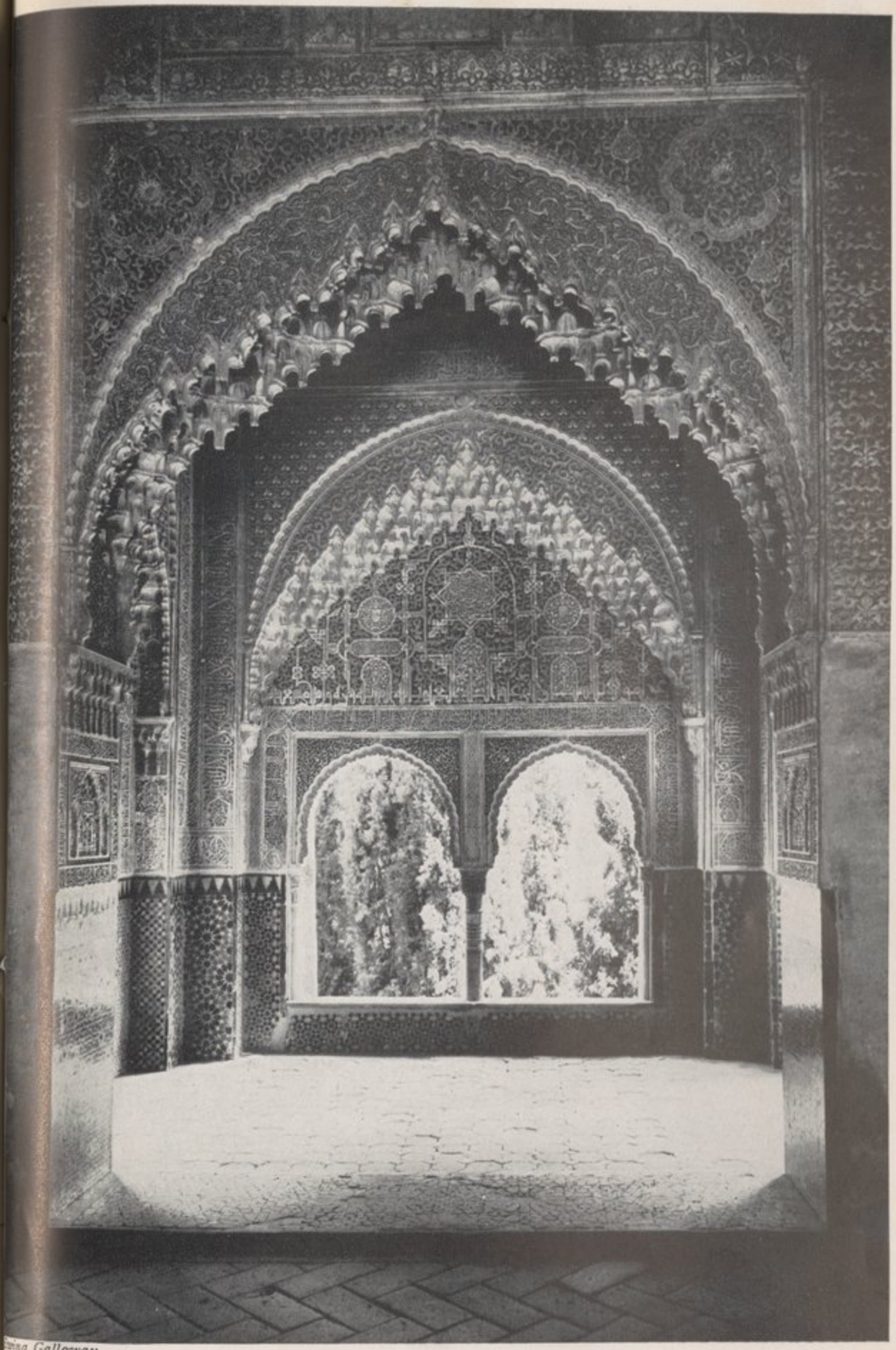

ing Galloway

اسبانيا الإسلامية : ردهة الأختين بقصر الحمراء بغرناطه

و بينما حاولت الحكومة مقاومة البريطانيين كانت جبهتها الداخلية غير أمينة . ورأى الملك ورفاقه فى حرق القاهرة فرصة لإقالة الحكومة . وفى الأشهر التالية علق النضال الوطنى ، بينما واصل السياسيون اختلافاتهم الحزبية وواصل رجال الحاشية الملكية دسائسهم . وقد بدت هذه الشهور للشعب المصرى كالكابوس المرعب . ولكن الفجر لاح فى يوم ٢٣ يوليه عند ما أعلنت ثورة الجيش . و بعد ذلك بثلاثة أيام أى فى ٢٦ يوليه غادر فاروق مصر .

ومع أن قادة الثورة ركزوا جهودهم فى الإصلاحات الداخلية ، إلا أنهم وضعوا نصب أعينهم تسوية مشكلة العلاقات المصرية البريطانية . وكانت هنالك مشكلتان معلقتان ، هما انسحاب القوات البريطانية ومصير وضع السودان ، وقد ابتدأ مجلس الثورة بمعالجة هذه المشكلة الأخيرة وتوصل إلى حل موفق لها . ولا بد لنا من إعطاء فكرة مختصرة عن علاقة مصر بالسودان لنفهم الإطار الذى تمت فيه تسوية هذه المشكلة .

بعد أن غزا العرب مصر وشمالى أفريقيا ، شق التجار والمستوطنون العرب طريقهم إلى السودان ونقلوا إليه دينهم ولغتهم ومظاهر ثقافتهم الأخرى ، وقد عرّب شمال السودان وأصبح سكانه مسلمين فى القرن الثالث عشر ، بعد هجرة واسعة النطاق قامت بها القبائل العربية . واستمر هذا التغلغل من الشمال . وقد غزا محمد على السودان حوالى سنة ١٨٢٠ وضمه إلى مصر . وحصلت فى السودان ثورة واسعة النطاق فى عقد ١٨٨٠ ضد حكومة مصر التى كان يسيطر عليها الأجانب آنذاك ، ونجم عن هذه الثورة دمار السودان وتضاؤل سكانه ؛ إذ أن مصر التى كانت فى ذلك الحين فى قبضة المقرضين الأجانب وتحت السيطرة الأوربية السياسية والمالية ، لم تكن فى مركز يمكنها من محاولة تهدئة البلاد . فجلت القوات المصرية الباقية فى السودان بأمر من السلطات الانكليزية فى مصر . و بعد ذلك بسنوات قليلة سمح البريطانيون

باحتلال السودان مجددا من جانب جيش مصرى يقوده الانجليز . وقد فعلوا ذلك ليحولوا بين السودان و بين الدول المستعمرة الأخرى ، وخصوصا فرنسا التى كانت تحاول الوصول إلى السودان من ممتلكاتها الواقعة فى غرب أفريقيا . وكاد حادث فاشودة الذى وقع سنة ١٨٩٨ أن يسبب حربا بين بريطانيا وفرنسا . وقد اضطر الفرنسيون للانسحاب لاعتبارات عديدة منها كون السودان تابعا لمصر . وفى سنة ١٨٩٩ أسس نظام من الحكم الثنائى على السودان وقد ثبت هذا الوضع فى معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وهذا الحكم الثنائى الذى تشترك فيه دولتان لا تكافؤ بينهما فى القوة ليس إلا وهما . فالحكم الفعلى أصبح فى أيدى بريطانيا ، وأصبح السودان فى الواقع مستعمرة بريطانية .

وللسودان أهمية بالنسبة لبريطانيا لاعتبارات استراتيجية واقتصادية . فهو يزرع القطن الذى تحتاجه الصناعة البريطانية . ومشروع الجزيرة الإروائى ، وهو مشروع مشترك بين حكومة السودان والشركات البريطانية من أكبر المشروعات المماثلة فى العالم ، ويزرع بموجبه مليون فدان بالقطن على أساس من نظام موضوع فى المناوبة الزراعية . وما مشروع الجزيرة سوى تمهيد لإمكانات الرى والتنمية الزراعية فى السودان . ومن ثروات السودان الأخرى الأخشاب ومنتوجات الغابات .

والسودان مهم من الناحية الاستراتيجية بوصفه ملتقى للطرق الجوية عبر القارة الأفريقية ، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. و إن خط البحر الأبيض المتوسط الذى كان إلى عهد قريب يعتبر شريان الإمبراطورية البريطانية ، قد تعرض للخطر بسبب وسائل الحرب الحديثة التى أثبتت أنه خط مكشوف وأن الجهاز القائم عليه وحده هو جهاز ضعيف ولذلك فكر البريطانيون فى إنشاء خط دفاعى ثان إلى الجنوب منه ، بحيث يدعم خط البحر الأبيض المتوسط بخط استوائى يمر عبر

أفريقيا من الساحل الذهبى إلى كينيا . وقد أصبح للسودان أهمية خاصة باعتباره جزءا جوهريا من هذا المشروع .

أضف إلى ذلك أن وجود دولة كبرى فى السودان يمكنها من الضغط على مصر ، لأن مثل هذه الدولة تستطيع السيطرة على النيل الذى هو حياة مصر . والبريطانيون مدركون كل الإدراك لهذا المقتل ، وقد استعملوه للتهديد فى بعض المناسبات كما فعلوا مثلا فى الإنذار الذى وجهوه إلى الحكومة المصرية بعد اغتيال ستاك .

و بعد الحرب شددت بريطانيا فى سياستها الرامية إلى عزل السودان عن مصر . وكان الاتجاه الرامى إلى إيجاد حكومة سودانية تحت الإشراف البريطانى خطوة لتحقيق هذه الغاية . فإن المجلس التشريعى السودانى الذى انبثق عن المجلس الاستشارى لشمالى السودان وهو مجلس يعين أعضاؤه تعيينا ، كان هيئة واقعة تحت السيطرة البريطانية سواء من حيث أعضاؤه أو من حيث وظائفه . وحاولت بريطانيا ، بوساطة الإيهام بأنها تقيم للسودان حكما ذاتيا أن تبعد مصر عن السودان وتبعد السودان فى الوقت ذاته عن نطاق الإشراف الدولى الذى تخضع له الدول الموضوعة تحت الوصاية بموجب ميثاق منظمة الأمم المتحدة .

وفى النزاع البريطانى المصرى حول السودان ادعى كل من الطرفين بأنه يتصرف بدافع من مصالح السودانيين أنفسهم . وقد أشار البريطانيون بارتياح إلى ما حققته إدارتهم فى السودان ، و إلى تطويره نحو الحكم الذاتى بإشراف من هذه الإدارة . أما المفاوض المصرى أثناء مفاوضات سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ ـ فقد ذكر أنه بينما تعتبر بريطانيا أن هنالك حاجة إلى فترة من الوصاية تمتد بين عشر سنوات وعشرين ، قبل أن يمنح السودان استقلاله الذاتى ، فإن مصر مستعدة لأن تعترف بالحكم

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

الذاتى للسودان تحت التاج المصرى ، خلال سنتين . يضاف إلى ذلك أن السلطات البريطانية عملت على تفريق جنوب السودان عن شماله ، وأنها فى سبيل تحقيق هذه الغاية تركت سكان الجنوب فى حالة بدائية على نفس المستوى الذى وجدتهم عليه قبل نصف قرن من الزمن أو أكثر .

وقد حل النزاع حول السودان فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ عندما وقعت الحكومتان المصرية والبريطانية الاتفاقية الخاصة بمستقبل السودان . وتم ذلك بعد أن اتفقت حكومة الثورة مع جميع الأحزاب والهيئات فى السودان .

وهذه هى شروط اتفاقية فبراير :

يعترف بحق السودانيين فى تقرير مصيرهم فى حرية تامة . ويسبق تقرير المصير فترة انتقالية لاتتجاوز ثلاث سنوات ، يتسلم أثناءها السودانيون جميع مسئوليات الحكم ، ويعدل الدستور ليحقق سير الحكم الذاتى بحرية . وأصبح الحاكم العام ، الذى لم يكن قبل اليوم مسئولا تجاه أحد فى السودان يمارس صلاحياته بالتعاون مع لجنة الحاكم العام المؤلفة من اثنين من السودانيين ومن مصرى وبريطانى ومن باكستانى يرأس اللجنة . وتتألف لجنة من سبعة أعضاء برياسة العضو الهندى ، وعضوية ثلاثة من السودانيين ومصرى وبريطانى وأمريكى لتنظيم الانتخابات لمجلس البرلمان وإجراء هذه الانتخابات . ويعدل القانون الانتخابى بحيث ينص على الانتخاب المباشر كلما كان ذلك ممكنا ، على أن تقرر اللجنة ما إذا كان هذا الانتخاب المباشر عمليا وممكنا . وتكلف لجنة السودنة المؤلفة من ثلاثة من السودانيين ومصرى وبريطانى بعملية سودنة الإدارة والشرطة وقوة الدفاع . وتنسحب القوات البريطانية والمصرية من السودان قبل انتخاب المجلس التأسيسى ، ويقرر هذا المجلس مصير السودان ويضع الدستور وقانون الانتخاب . وتشدد الاتفاقية على وحدة السودان . أما مستقبل السودان فسيأخذ واحدا من شكلين : إما الاستقلال ، وإما نوعاً من الاتحاد مع مصر .

وفى أواخر سنة ١٩٥٣ أجريت الانتخابات لمجلسى البرلمان ونال الحزب الوطنى الاتحادى أكثرية المقاعد فى المجلسين .

وفى مطلع شهر يناير سنة ١٩٥٤ أعلن الحاكم العام أنه قد تم إنشاء مؤسسات الحكم الذاتى بما فى ذلك مجلس الوزراء ومجلس الشيوخ ومجلس النواب . واستمرت سودنة الجيش والشرطة والإدارة المدنية وأكملت قبل المدة المقررة لذلك .

وفى هذه الأثناء عدل الرأى العام فى السودان عن الاتجاه نحو الاتحاد مع مصر إلى الرغبة فى الاستقلال التام . وهـذا التغير أمر يمكن فهمه ؛ إذ عندما كانت السيطرة بيد البريطانيين أكدت العناصر الوطنية الاتحاد مع مصر للتخلص من الانجليز ، أما وقد أصبح الاستقلال فى متناول اليد ، وجد الاتحاديون أنفسهم فى وضع غير ملائم ، فتحول اتجاههم إلى الاستقلال . وفى نوفمبر سنة ١٩٥٥ تم انسحاب القوات المصرية والبريطـانية من السودان ، وفى ديسمبر قرر البرلمـان بالإجماع إعلان الاستقلال ، وبذلك لم تعد حاجة لاجراء الانتخابات للمجلس التأسيسى الذى كان يفترض فيه أن يقرر مصير السودان بموجب اتفاقية فبراير . وقد اعترفت مصر وبريطانيا فورا باستقلال السودان .

أما مشكلة قناة السويس فلم تحل إلا فى صيف سنة ١٩٥٤ . فقد حاولت بريطانيا أن تربط مصر بنوع من أنواع التحالف قبل تخليها عن قاعدة القنـاة . ولـكن مصر لم تلن فى معارضتها لمثل هذا الارتباط . والاتفاق الذى تم ينص على جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس فى موعد لا يتأخر عن ١٨ يونيه (حزيران) سنة ١٩٥٦ ، عند ما تتسلم الحـكومة المصرية كامل المسئولية عن سلامة القاعدة . ورتب الاتفاق صيانة القاعدة وإبقاءها فى حالة صالحة للعمل ، كما نص على أنه فى حالة قيام دولة أجنبية بالهجوم على مصر أو أى بلد عربى مشترك فى ميثاق الضمان الجماعى العربى ، أو تركيا ، يسمح للقوات البريطانيـة بالعودة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

إلى القاعدة . وجاء فيه أن قناة السويس هى ممر بحرى له أهمية دولية ، وأنها جزء لا يتجزأ من مصر ، وأكد موافقة الطرفين على معاهدة القسطنطينية لعام ١٨٨٨ التى ضمنت حرية الملاحة فى القنال . ومدة الاتفاق سبع سنوات من تاريخ توقيعه .

وقد تشبثت بريطانيا بقناة السويس منذ احتلالها لمصر سنة ١٨٨٢ . ولم تتخل عنها إلا بسبب ظروف كثيرة مجتمعة .

فإن أسلحة الحرب الحديثة قللت من أهمية القناة كقاعدة حربية . والولايات المتحدة التى تعتمد بريطانيا على تأييدها فى الشرق الأوسط أبدت « بالسور الشمالى » القريب من روسيا اهتماما يفوق اهتمامها بإيجاد نظام دفاعى مبنى على قناة السويس . ولم تعد بريطانيا تمتلك القوة الكافية لمواجهة المقاومة المصرية ، ولو امتلكت مثل هذه القوة فإن الرأى العام العالمى لا يسمح لها باستخدامها .

ومن الاعتبارات الرئيسية موقف مصر ؛ إذ أنه تجاه معارضة مصر الشديدة أصبحت القاعدة عديمة الفائدة ، فهى فى أرض معادية ، معزولة ، ومقاطعة ، ومهددة بالهجمات المثابرة المنظمة من جانب فرق الفدائيين . ومصر أصبحت قوية ومتحدة بعد أن أزيلت من ربوعها العناصر التى أضعفتها ، والتى كانت القوة المحتلة تستغلها لصالحها ، وهى العناصر المكونة من ملك فاسد ، وأحزاب سياسة متناحرة ؛ ومصالح خاصة مغرضة ، وقوى رجعية ، ومن دجالين مشاغبين يثيرون الجماهير والغوغاء . أما الرجال الذين وقفوا اليوم فى مواجهة المفاوضين الانجليز فكانوا متحدين ومصممين ، وقد وضعوا حياتهم ثمنا للوصول إلى الهدف الذى رسموه لأنفسهم . وأيد الجيش القادة والتف الشعب حولهم للنضال فى سبيل إجلاء القوات البريطانية عن البلاد .

وما طل الانكليز شهورا عديدة آملين أن يحدث مايزيل عهد الثورة . ولكن

الزمن برهن على سلامة معدن هذا العهد وقوته ، لا فى معالجته لخصومه وفى توطيد نفسه فحسب ، بل فوق ذلك فى المستقبل الذى ارتآه لمصر ، وفى عمله الإيجابى لتحقيق هذا المستقبل .

إذ أنه بعد الاندفاع الأول الذى أعقب الثورة والذى جعل الأحزاب السياسية والزعماء والجماعات يلتفون حولها ، و يعلنون التأييد الحماسى لها والموافقة الإجماعية على أعمالها ، بدأت التذمرات تسمع وحصلت المحاولات لإبعاد مجلس الثورة .

وتنوعت أسباب المعارضة ؛ فالزعماء السياسيون فقدوا نفوذهم وأهميتهم ، واختفى الغوغائيون فى عهد لم يسمح بإثارة الشغب . ورأت طبقة ملاك الأراضى المثرية أن ثرواتها أخذت تتضاءل وأن سلطتها قد تلاشت باستملاك الحكومة للملكيات الواسعة وتوزيعها قطعا صغيرة بين الفلاحين . وأخضعت للمراقبة سيطرة الرأسماليين على الصناعة المصرية الناشئة . أما المفكرون والأحرار فتخوفوا من أن يضحى العهد بحرية الفرد فى سبيل الإصلاح .

إلا أن الإخوان المسلمين كانوا أخطر من هذه الفئات جميعها ، وقد ناصب هؤلاء الإخوان الثورة العداء حالما أدركوا أنهم لا يستطيعون السيطرة عليها . و بعد أن حاولوا الاعتداء على حياة جمال عبد الناصر فى شهر اكتوبر سنة ١٩٥٤ عوملوا بشدة . ولعل حكم الموت الذى صدر ضد ستة منهم هو الحادث الوحيد الذى خرجت فيه الثورة عن طريقها السلمى المعتدل .

والاختلاف الذى وقع بين محمد نجيب — الذى أصبح رئيسا للجمهورية بعد إلغاء الملكية و إعلان الجمهورية فى ١٨ يونيه سنة ١٩٥٣ — و بين أعضاء مجلس الثورة الآخرين ، والذى اتخذ شكلا علنيا فى شهرى فبراير ومارس سنة ١٩٥٤ كان أزمة خطيرة اجتازتها الثورة بنجاح .

وقد انتخب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية المصرية فى استفتاء جرى

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

فى ٢٣ يونيه سنة ١٩٥٦ ، وفى نفس اليوم صودق على الدستور الذى أعلن فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ باستفتاء شعبى . وإن انتخاب عبد الناصر لرياسة الجمهورية ، وقد جاء فور جلاء آخر جندى بريطانى عن مصر ، ورافقته عودة الحياة الدستورية ، يشكل بداية عهد جديد لمصر .

إن جمال عبد الناصر ليس قائد الثورة وزعيم مصر فحسب ، بل أصبح رجل العرب الأول فى جميع أقطارهم . وقد كرس حياته لرسالة مكونة من أطراف ثلاثة : فبالنسبة لمصر يهدف عبد الناصر إلى تأمين استقلالها بتقوية وسائلها الدفاعية ، وتحقيق حياة أفضل لجماهير سكانها . وفى الحقل العربى يعمل بعزم أكيد للوحدة العربية ويرعى بقوة الشعوب العربية التى ما زالت تناضل لكسب حريتها . وعلى المستوى الدولى نجده يرسم طريقا مستقلا عن الكتلتين الشيوعية والغربية . وهذا الموقف المرتبط بالاتجاهات المماثلة فى آسيا وأوربا من شأنه أن يساعد على تخفيف التوتر بين الكتلتين المتنازعتين وأن يدعم قضية السلام العالمى .

الفصل التاسع

مصر : الحالة الاجتماعية

كان النضال السياسى هو الشغل الشاغل للزعماء المصريين منذ نهاية الحرب العالمية الأولى . وترتب على ذلك أن قسطا كبيرا من النشاط والتفكير انصرف عن العمل الملح لإعادة البناء الاجتماعى ، فعلى الرغم من المحاولات التى بذلت ، فى القرن التاسع عشر ، لإدخال الوسائل العصرية ، وبالرغم من الاصلاحات المختلفة التى تم إدخالها ، فإن المجتمع المصرى ، بقى فى أساسه مجتمعا قروسطيا . فالاقتصاد الزراعى الذى عاشت عليه مصر ، لم تتوافر فيه الوسائل التى تعين على إشاعة الرخاء والرفاهية . فلم يتيسر لكل مزارع القدر الكافى من الأرض ، ولم تكن الوسائل الزراعية الحديثة مألوفة ، ولم يسد النظام التعاونى ، ولم تنشأ طبقة من الفلاحين المستنيرين . وكانت الأراضى الزراعية محصورة فى أيدى قلة من الملاك ، الذين اتسموا بعدم المبالاة ، كما أن كثرتهم كانت تعيش بعيدا عن الأرض ، وتترك تلك الكتلة المتكاثفة من السكان الكثيرى التناسل ، نهبا للفقر والمرض والجهل .

ولقد بذلت هنالك بعض الجهود لتلافى تلك العلل الاجتماعية ، وحاولت ثلة من الرجال المخلصين والنساء الحازمات معالجة تلك المشكلات الثقيلة الوطأة ، كانتشار الأمية ، وتفشى المرض ، والفاقة . وعلى الرغم من أن أعمالهم لم تكن وافية بالغرض المطلوب ، فإنها جديرة بالتنويه ، ولا سيما إذا علمنا أن هنالك عقبات مستعصية ، كانت تعترض سبيل كل خطوة يخطونها .

وقد بذلت فى حقل التعليم ، جهود تفوق ما بذل فى أى حقل آخر . ويستبين

لنا ذلك ، من استعراض حالة التعليم خلال الأربعين السنة من الحكم البريطانى ، وفى ربع القرن الذى تلاذلك ، حين أخذت الحكومات المصرية الأمر على عاتقها .

يسجل تاريخ الإدارة البريطانية فى مصر ، إهمالا تاما لا مسوّغ له ، للتعليم . وقد شجب المؤرخون والسياسيون الانجليز أنفسهم ، هذه الظاهرة التى تبدت خلال الاحتلال البريطانى . « ومهما كان الأساس ، الذى نقيم عليه حكمنا على النظام التعليمى ، الذى أعد لناشئة المصريين ، تحت الحكم البريطانى ، فإنه لم يستهدف ألبتة تحرير البلاد . ولا شك أنه أعظم إخفاق لنا . فبعد انصرام ما يقرب من أربعة عقود من السنين ، ما تزال الأمية تعم ٩٢ ٪ من الذكور ، و ٩٩٪ من الإناث ، من بين سكان القطر المصرى »[١] .

ولا ينكر أن انجلترا احتلت مصر ، فى وقت كانت فيه حالتها المالية مضطربة ، مما فرض الاقتصاد فى النفقات ، وجعل موازنة الميزانية ، أشد المشاغل التى واجهت السلطات إلحاحا . وفى زحمة ذلك ، أهمل التعليم ، وغيره من الخدمات الاجتماعية ، إهمالا تاما . فى العشرين السنة الأولى من الاحتلال البريطانى ـ من ١٨٨٢ ـ ١٩٠١ ـ كان مجموع ما ينفق على التعليم والصحة معا ، يعادل ١ ½ ٪ من مجموع النفقات عامة . وفى خلال الفترة نفسها ، كان نصيب الأشغال العامة ٨٪[٢] . فلم يكن هذا التقتير إذن ناتجا عن الحاجة إلى المال . وإنما كان ينتظر من الأشغال العامة أن تدر إيرادا عاجلا ، يخصص فى المقام الأول ، لسداد ديون الدائنين الأوربيين . وللنهوض بأمر الإدارة ، التى كانت تعتمد على عدد كبير من الموظفين البريطانيين ، ذوى المرتبات الضخمة . كما أن المال الذى ينفق على التعليم ، كان من الممكن أن يخلق طبقة من المستنيرين المصريين ، التى قد تكون شوكة فى جنب الحكام .

---

(١) Sir Valentine Chirol : The Egyptian Problem, P. 221

(٢) Charles Issawi : Egypt, An Economic and Social Analysis, P. 25

وانحط التعليم عن المستوى الذى بلغه فى عهد محمد على وإسماعيل . وقد استهل الإنجليز حكمهم بإلغاء التعليم المجانى . وبعد مضى عشرين سنة ، حين سويت المشكلات المالية ، وأعيد الاستقرار الاقتصادى ، زيدت الرسوم المدرسية ، بدلا من أن تلغى . وقد بلغ المال المخصص للتعليم ٣ ٪ من ميزانية سنة ١٩١٠ ـ ١٩١١ ، بعد أن كان خلال العقدين الأولين من الحكم البريطانى أقل من ١ ٪ من مجموع الميزانية العامة ، ولكنه عاد وانخفض إلى ١ ، ٧ ٪ فى سنة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ . وقد استحقت حالة التعليم المؤسفة ، الملاحظة التالية من لجنة ملنر : « إن التعليم ، الذى يتطلبه الشعب ، بقوة وإلحاح ، ما يزال هزيلا »[١] .

ولم تكن قلة المال ، هى الآفة الوحيدة التى عانى منها التعليم على أيدى البريطانيين ، بل كانت هنالك آفات أشد خطورة ، تتصل بمعنى التعليم وأهدافه ؛ ففى المرحلة الابتدائية ، كان التعليم يقتصر على معرفة بدائية ، للغة العربية والحساب . وما كان يدعى بالتعليم العالى ، كان يتوخى به إعداد الطلاب لتولى الوظائف الكتابية ، وشغل المناصب الحكومية الثانوية . وكان التعليم متجافيا مع طبيعة الشعب و بيئته . فكان يلقن بلغة أجنبية ، هى الإنجليزية ، وكان يتجه اتجاها نظريا صرفا ، دون الالتفات إلى حاجات الشعب . أما اللغة العربية ، التى كانت لغة التدريس فى جميع الموضوعات التى كانت تدرس فى المدارس الحديثة ، التى أنشأتها الدولة فى القرن التاسع عشر ، فقد أحلت مكانة ثانوية ، و بذلك أعاقوا ، إن لم نقل عطلوا ، تقدم الثقافة القومية التى تعتبر اللغة القومية الوسيلة الوحيدة الصالحة للتعبير عنها . ولم يكن التعليم الشامل لأبناء الشعب ، الذى يعدهم ليصبحوا مواطنين صالحين ، ضمن خطة الإنجليز فى مصر . كما أنه لم يكن من سياستهم أن يهيئوا لخلق زعامة واعية قوية . وفى الحقيقة أنه عندما خطر لبعض الزعماء أن يعدوا العدة لإنشاء جامعة ، تصدى

---

(١) Cmd. 1131, P. 10.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

لهم كرومر ، وقاوم الفكرة بحزم وشدة . والجامعة التى أنشئت سنة ١٩٠٨ ، بعد مغادرة كرومر للبلاد ، لم تكن مؤسسة حكومية تعتمد على أموال الدولة ، وإنما كانت مشروعا خاصا ، جمعت له الأموال من المشتركين والمتبرعين .

ومنذ تولت الإدارة المصرية الحكم ، كان التعليم الابتدائى المجانى لعامة الشعب ،الذى نص عليه فى دستور سنة ١٩٢٣، هدفا للحكومات المتتالية . أما قصور ما تم فى هذا الشأن عن الشأو المنشود ، فإنه يعزى إلى جملة أسباب : أما السبب الأول ، فهو أن العمل كان يجب أن يبدأ من الأساس . فقد رأينا أن التعليم كان هزيلا حين اضطلعت الحكومة الوطنية بالمسؤولية . أضف إلى ذلك ، أن مصر بلد كثير السكان ، ونسبة المواليد فيها مرتفعة ، وهى فى ذلك تعتبر من أعلى النسب فى العالم . فلا تكاد الدولة تهىء أسباب التعليم لعدد من الأطفال ، حتى يستهل جيل جديد مطالبا بدخول المدارس . كما أن إعداد المعلمين بالنسبة الكافية كان أمرا من الصعوبة بمكان عظيم . وهنالك صعوبات أخرى مردها إلى عدم الاستقرار فى الحياة السياسية ، وإلى السياسة الحزبية ، مما حال دون قيام سياسة تعليمية ثابتة . وهنالك صعوبات أخرى متأتية من أن التعليم فى مصر ، ما يزال فى مرحلة تجريبية ، وهكذا تقترح بعض المناهج ، ثم تستبعد بنية حسنة ، لتحل محلها تجارب جديدة وهكذا . وأخيرا إذا تذكرنا أن التعليم هو مشكلة واحدة من المشكلات العديدة التى تتطلب نصيبا من الميزانية العامة ، ومن جهود الفئة المدربة من الموظفين والخبراء ، أمكننا أن ندرك السبب فى أن نسبة الأمية ما تزال عالية .

ولنذكر بعض الأرقام ، لتدل على ما تم تحقيقه فى هذا السبيل :

فى سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ ، وهى السنة الأخيرة للحكم البريطانى المباشر ، كان عدد الطلاب المنتمين إلى المدارس الأميرية ، بمختلف أنواعها ، ٤٠٥ ، ١٠٥ ، من مجموع السكان البالغ عددهم ١٣ مليون نسمة [١] .

---

(١) فى الإحصاء العام لسنة ١٩١٧ ، بلغ عدد السكان ٩١٨ ، ٧٥٠ ، ١٢ نسمة .

وبعد تسع سنوات ، أى سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ ، بلغ العدد أربعة أمثال العدد السابق ، فكان عدد الطلاب المنتمين إلى المدارس الأميرية ٠٣٩ ، ٤٠٩ طالبا وطالبة . وبعد عقد من السنين ، أى فى سنة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ ارتفع الرقم إلى ٣٨٠ ، ١٣١ ، ١ طالبا وطالبة . وفى العام الدراسى ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ ، بلغ عدد الطلاب المنتمين إلى جميع المدارس ، بما فيها المدارس الخاصة ، التى تمد إليها الحكومة يد المعونة ، ٩٩٨ ، ٤٩٩ ، ١ طالبا وطالبة . وهكذا ، بينما كان عدد طلاب المدارس ، عقب أربعين سنة من الحكم البريطانى ، لا يكاد يزيد عن مائة ألف ، وفقت الإدارة الوطنية ، فى أقل من ثلاثين سنة ، إلى تهيئة أسباب التعليم ، لمليون ونصف المليون من الطلاب ، من مجموع السكان الذين بلغ عددهم عشرين مليونا .

أما تطور تعليم المرأة ، خلال هذه المدة ، فإنه جدير بالتنويه . ففى سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ ، كان عدد البنات فى مدارس الحكومة لا يتجاوز ٣١٦ ، ٢٤ طالبة ، كان منهن فى المدارس الثانوية ٤٣ ، وفى معاهد المعلمات ٦٥٣ ، وسائرهن فى المدارس الابتدائية والأولية ولم يتح لفتاة واحدة أن تنال حظا من التعليم العالى . أما فى العام الدراسى ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ ، فقد تضاعف عدد الطالبات عشرين مرة ، إذ بلغ عدد المنتميات إلى المدارس الحكومية ، والمدارس الخاصة التى تعينها الحكومة ، ٠٠٨ ,٥٢٧ . من بينهن ٥١١ , ١٩ فى المدارس الثانوية ، و٩,٩٤٠ فى المدارس المهنية ، و٧٥١ ، ٣ فى معاهد المعلمات ، و٤٦٠ ، ٢ فى الجامعات وغيرها من المعاهد العليا . وقد ازدادت مخصصات التعليم من ٦٥٣ , ٢٠٩ , ١ ج . م . أى مايعادل ٢ ، ٣ ٪ من الميزانية العامة ، فى سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ ، إلى ٠٠٠ , ٢٦١ , ٢٨ ج . م ، فى سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ ، وذلك يعنى ١٤ ٪ من

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

مجموع النفقات العامة[١] .

وقد طرأت على مجال التعليم وأهدافه تغييرات جوهرية . فحتى بضع سنوات ، كانت المرحلة الأولى من المدارس العامة ، تقوم على نوعين من المدارس : المدارس الأولية المجانية ، وهى مخصصة لأبناء الريف ، وللفقراء من أبناء المدن ، والمدارس الابتدائية المخصصة للطبقات الاجتماعية التى يتيسر لها دفع الرسوم . ولم يكن النوع الأول مرتبطا بمنهج التعليم العام ، بل كان ينتهى عند هذا الحد . فكان الطالب الذى ينتهى من المدرسة الأولية ، يمنع من التسجيل فى المدارس الثانوية والفنية ، وهكذا يحال بينه وبين الفرص التى تتاح لمن هم أحسن منه تعليما . هذا بينما كانت المدارس الابتدائية ، حيث يتلقى الطلاب نوعا أحسن من التعليم ، يهيىء طلابها للمضى فى سبيل التعليم العالى صعدا . وقد اتضح خطر هذا الازدواج فى نظام التعليم الذى بنى على أساس طبقى تمام الاتضاح وبذلت الجهود فى سبيل تلافى هذ النقص . فوحدت مناهج التعليم فى المدارس الأولية والابتدائية ، وألغيت الرسوم فى جميع المدارس الابتدائية ، الأميرية منها والخاصة ، وهكذا فتح السبيل فيها أمام الأغنياء والفقراء على السواء ، وقد أصبحت المدارس الخاصة تتلقى الإعانات من الحكومة تعويضا لها عن خسائرها .

وقد تبع التوحيد ، فى المرحلة التعليمية الأولى ، تنويع للمدارس الثانوية . وهى خطوة إلى الأمام فى سبيل جعل التعليم ديموقراطيا وميسرا للجميع ، إذ أن هذا

---

(١) فى سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ كان هنالك ٧٤١ و ٣٩٢ و ١ تلميذا فى المدارس الابتدائية ، و٤٦٦ ، و٤٤٠ تلميذا فى المدارس الاعدادية والثانوية ، و٢٤٧ و ٢٢ تلميذا فى المدارس المهنية ، الابتدائية والثانوية ، و٢٠٣ و ٢٣ فى دور التعليم ، و٣٦١ و ٤٨ فى الجامعات الثلاث التابعة للدولة ، و٤٠٨٠ فى جامعة الازهر ، و ٢٠٣٦٣ فى المدارس الابتدائية والثانوية التى يديرها الازهر أى ما مجموعه ٤٦١ ، ٩٥١ ، ١ . وفى السنة الدراسية ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ بلغ عدد التلاميذ نحو مليونين ونصف .

التنويع يهيىء للشبان الذين ليس لديهم استعداد علمى خاص فرصا تعليمية متنوعة . فبعد إتمام المرحلة الثانوية الأولى ، يستطيع الطلاب أن ينتقلوا إلى المدارس المهنية للتجارة أو الصناعة أو الزراعة ، أو أن يستمروا فى الدراسة الثانوية العادية ، التى تعدهم لدخول الجامعات والمعاهد العليا . وقد اتسع نطاق التعليم المهنى فى السنوات الأخيرة وارتفع مستواه . كما أن نظرة الناس إلى هذا النوع من التعليم تغيرت ، فغدوا لا يقصرون التعليم على الدراسة المعروفة فحسب ، بل أخذوا يميلون أكثر فأكثر إلى اعتبار المهن غايات جديرة بالشباب المثقف .

وقد ألغيت رسوم التعليم فى المدارس الثانوية ، كما أن معاهد المعلمين مجانية ، تقدم لطلابها التعليم والطعام والمسكن دون مقابل .

أما التعليم العالى ، فإنه متيسر فى جامعات حكومية ثلاث ، وفى بعض المعاهد العليا . واثنتان من تلك الجامعات فى القاهرة ، والثالثة فى الإسكندرية . ويقوم الأزهر وهو أقدم جامعات العالم ، بتدريس العلوم الإسلامية ، على مستوى جامعى.

وأقدم تلك الجامعات ، جامعة القاهرة [1] ، استهلت حياتها ، سنة ١٩٠٨ ، كمؤسسة خاصة ، وكانت تدعى « الجامعة المصرية » . وفى سنة ١٩٢٣ ، وكل أمرها إلى وزارة المعارف ، فغدت كلية الآداب فى الجامعة الحديثة ، التى ضم إليها ثمانى كليات أخرى . وتتألف مدرسة الطب ، التى أنشئت سنة ١٨٢٧ ، من كلية الطب ، ومعهد القاهرة للصحة ولأمراض المناطق الحارة ، وكلية طب الأسنان ، وكلية الصيدلة ، ومدرسة التمريض والولادة ، والمستشفى . ويرجع تاريخ كلية الهندسة إلى سنة ١٨٣١ ، وكلية الحقوق إلى سنة ١٨٦٨ ، وقد كانت دار العلوم ، التى أنشئت سنة ١٨٧٢ ، لتخريج مدرسى اللغة العربية وآدابها ، أول مدرسة لتدريب المعلمين فى مصر . وتأسست كلية العلوم سنة ١٩٢٥ . وفى سنة

---

(١) جامعة فؤاد الأول سابقا .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

١٩٣٥ ، ضمت ثلاث كليات ثانوية إلى الجامعة ، إحداها للزراعة والأخرى للتجارة والثالثة للبيطرة ، ومن ثم أصبحت كليات جامعية . وهنالك ثلاثة معاهد عليا ، ملحقة بالجامعة ، وهى معهد الآثار ، ومعهد اللغات الشرقية ، ومعهد التحرير والترجمة والصحافة . وللجامعة مكتبة عامة ضخمة ، بالإضافة إلى المكتبات الخاصة الملحقة بالكليات ، وهى مزودة بقسم غنى بالمنشورات الدورية .

و بعد إتمام التعليم العالى الميسر فى مصر ترسل بعوث إلى الخارج للتخصص . فهنالك مئات من الطلاب والطالبات ، يتلقون العلم فى الولايات المتحدة وأوروبا . و بعضهم يدرس على نفقة الحكومة ، والبعض الآخر على حسابهم الخاص ، ولكنهم خاضعون لإشراف وزارة المعارف . وقد تغيرت الموضوعات التى كان الطلاب يرسلون إلى الخارج لدراستها ، تبعا لتغير الحاجات الراهنة ، ففى بادىء الأمر ، كان المقصود تدريب موظفى الحكومة ، ثم أصبح تدريب المعلمين ، الحاجة الملحة . أما فى الوقت الحاضر ، فقد اتجه النظر نحو التخصص فى العلوم وتدريب الخبراء الذين يستطيعون تنمية موارد البلاد ، وعلاج مشكلاتها الاجتماعية والاقتصادية .

ولقد اتخذت خطوة هامة ، و باعثة على الأمل ، لنشر التعليم بين الراشدين ، وذلك حين تأسست الجامعة الشعبية ـ التى عرفت أخيرا باسم مؤسسة الثقافة الشعبية ـ سنة ١٩٤٥ . وهدف هذه المؤسسة هو رفع المستوى العام للثقافة بين أفراد الشعب ، وتشجيع المواهب الفردية واستحصادها ، بإحراز المهارة الفنية ، وتقوية شخصية الفرد بوساطة العلم وما يستتبعه من ثقة بالنفس ، و إيقاظ الحس الاجتماعى ، و بذلك ينمو نوع من التضامن الاجتماعى ، والقومى المتماسك . ولا يشترط فى المنتمين إلى مؤسسة الثقافة الشعبية ، أن يكونوا حاصلين على مؤهلات دراسية ، ولا يكلفون بدفع رسوم ، وهى مؤسسة مسائية تفتح أبوابها للرجال والنساء . وكل مايطلب منهم أن يعرفوا القراءة والكتابة ، وأن يدفعوا رسما زهيداً للتسجيل ، وأن لا تقل

أعمارهم عن السادسة عشرة . ولا تعقد فيها امتحانات ولاتمنح شهادات أو دبلومات . والتعليم فيها اختيارى محض ، وليست هناك مكافآت مالية . ومنهج التعليم فى هذه المؤسسة ، متنوع الموضوعات ، بحيث يتيح للطالب أن يختار من الموضوعات ، مايلائم ذوقه ، ويتفق مع موهبته . ومواد الدراسة هى العلوم ، والأدب ، واللغات الحية ، والتاريخ والعلوم السياسية ، والمشكلات الاجتماعيـة ، والصحة ، والصحافة ، والتجارة ، والصناعة والزراعة . ويشتمل منهج الدراسات الفنية على الرسم والنحت والموسيقى والتمثيل والفنون الزخرفيـة . وتعطى الموضوعات التى تتصل بالمرأة والأسرة عناية خاصة ، فيدرس فيهـا الصحة ، ورعاية الطفل والتمريض المنزلى ، والأسرة ومشكلاتها ، والخياطة والطهى ، وغـير ذلك مما يتصل بالتدبير المنزلى . وقد لاقت المؤسسة نجاحا حسنا ، واسع المدى . وفى السنوات القليلة ، منذ تأسيسها ، أنشئ لها عدة فروع فى الأقاليم ، إلى جانب مركزيها فى القاهرة والإسكندرية (١) .

وعنـد ما كان طه حسين وزيرا للمعارف ، بذل جهدا كبيرا فى سبيل تعميم التعليم الابتدائى وتوسيع نطاق التعليم الثانوى والجامعى . وعند ما وجه إليه بعضهم النقد فى هـذا الشأن ، بحجة عدم توافر التسهيلات الـكافية ، وعدم وجود العدد المناسب من المدرسين المدربين ، وأبدوا تخوفهم من أن التنفيذ السريع لهذا البرنامج الواسع النطاق ، من شأنه أن يؤدى إلى انحطاط مستوى التعليم ، أجاب : إن التعليم ضرورة للإنسان كالهواء والماء ، وقد يكون الهواء غير نقى والماء غير صاف ، إلا أن

---

(١) المعلومات الخاصة بالتعليم مستمدة من كتاب « حولية الثقافة العربية » لساطع الحصرى ، من منشورات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية — القاهرة ١٩٤٩ . راجع أيضا كتاب « التعليم فى بلاد الشرق الأدنى العربية » تأليف ماثيوز وعقراوى — واشنطن ١٩٤٩ .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الناس يستنشقون الهواء ويشربون الماء خشية أن يختنقوا أو يقضوا عطشا . ولذا فمن الواجب أن تهيأ وسائل التعليم لجميع المصريين ، فى المدارس ، إذا وجد العدد الكافى منها ، وإلا ففى الهواء الطلق ، وعلى الأرض والفضاء . لأن الجهل كالنار التى تحرق الروح ، ولذا يجب تداركها بكل وسيلة . ويرى طه حسين ، أن نشر التعليم بين الجماهير من صميم الحضارة العربية ، وليس هو مجرد تقليد للغرب . وقد كانت مدارس الأطفال ـ التى عرفت بأسماء مختلفة كالكتّاب والملاّ والفقيه ـ والمعاهد العليا ـ المدارس ـ لتعليم الكبار ، منتشرة على نطاق واسع فى العالم العربى قبل أن تهيئ الحضارة الغربية لأبنائها وسائل التعليم بمئات السنين .

وقد تمت هذه الخطوات فى حقل التعليم ، فى ظل نظام مركزى محكم ، لم يترك للسلطات المحلية حرية الاختيار ، فيما يختص بمناهج التعليم والكتب المقررة ، أو أى أمر آخر يتصل بالتعليم . وكانت وزارة المعارف فى القاهرة تقرر كل ذلك . وقد طبق أيضا نظام صارم للامتحانات . وكان ذلك ضروريا ، نظرا لعدم وجود الهيئات المحلية ، كمجالس المديريات مثلا ، التى تتعهد بتحمل نصيب كبير من مسؤولية التعليم . وقد فرض نظام حكومى عام للامتحانات ، كمقياس للنقل من مرحلة مدرسية إلى أخرى ، وهذا أمر حتمه الحرص على المحافظة على مستوى مقبول من التعليم ، فى تلك الفترة التى كان فيها النظام المدرسى ، يسير سيرا حثيثا نحو التوسع . وهنالك الآن اتجاه نحو التراخى فى الإشراف المركزى .

ومن بين المشكلات التى تسعى وزارة المعارف إلى معالجتها ، فى ظل النظام الجديد ، توفير وسائل التعليم ، لجميع الأطفال الذين بلغوا سن التعليم الابتدائى . وعدد هؤلاء أربعة ملايين ، لم تستوعب المدارس منهم سوى النصف . وقد قرر أن تزاد

حصة التعليم الابتدائى ، التى كانت تعادل حتى وقت قريب ، ٤٠٪ من الميزانية العامة للتعليم . وأن تقام ثلاثمائة مدرسة ابتدائية جديدة ، كل سنة . ومن المأمول ، أن يتيسر بهذا الترتيب ، توفير التسهيلات اللازمة ، لاستيعاب جميع الأطفال الذين يبلغون سن التعليم .

وثمة مشكلة أخرى ، هى زيادة تنويع البرامج الدراسية ، فى المرحلة الثانوية وتوجيه الطلاب نحو الموضوعات التعليمية التى تفى بحاجات اتساع التصنيع والتطور الزراعى فى البلاد .

وهنالك مشكلة التعليم العالى أيضا ؛ فقد بلغ عدد المنتمين إلى الجامعات الحكومية الثلاث ، فى العام الدراسى ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ما يقرب من ستين ألفا ، بين طلاب وطالبات . وفى هذا إرهاق شديد للأساتذة ، وجور على المختبرات (المعامل) ، والوسائل الدراسية الأخرى فى هذه المعاهد . فإذا أريد الاحتفاظ بالتعليم ، على مستوى جامعى مقبول وفتح الأبواب للراغبين ، فى التعليم العالى ، فلا مناص من إقامة جامعات جديدة .

وهنالك إدارة هامة تابعة لوزارة المعارف ، هى إدارة الثقافة العامة ، وعملها هو نشر الثقافة وتعميمها . وهى تشجع التأليف والترجمة وتعنى بنشر تراث العرب الأدبى ، وتمد يد المساعدة للمؤسسات الثقافية ، ويترجم بإشرافها بعض الكتب القيمة من اللغات الأوروبية ، وتعطى لدور النشر ، لتطبعها وتبيعها بسعر الكلفة وتتعهد هذه الإدارة بمنحها فائدة قانونية ، لقاء ذلك . وفى سنة ١٩٤٨ ، نشرت هذه الإدارة ، « السجل الثقافى » الأول وهو ثبت لجميع وجوه النشاط الثقافى فى مصر ، كالكتب المؤلفة والمترجمة ، والصحف والمجلات ، ودور الكتب ودور النشر والمحاضرات والإذاعة ، والمؤتمرات والهيئات الثقافية والمتاحف والمعارض الفنية

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

والمسرح والسينما . ويعتبر هذا السجل ، على مافيه من نقص ـ تأتى بعضه من جدة العمل ـ مصدرا قيما لأخبار النشاط الثقافى فى مصر .

ودور الكتب العامة ، التى تعتبر وسيلة هامة لنشر العلم ، ماتزال قليلة العدد . ودار الكتب المصرية ، التى أنشئت سنة ١٨٧٠ ، تعتبر أكبر مكتبة فى العالم العربى ، وهى تحتوى على ٦٠٠،٠٠٠ مجلد ، من بينها ٥٨،٠٠٠ مخطوطة . وهذه المخطوطات تحتوى على كنوز من الموضوعات الهامة ، التى لم تنشر بعد . وقد نشر القسم الأدبى فى الدار ، عددا كبيراً من الكتب القديمة .

وتحتوى دار المحفوظات ، التى أنشئت سنة ١٨٢٨ ، على وثائق الدولة ، مرتبة ومنسقة ، وميسرة لأغراض البحث العلمى . وفى قصر عابدين ، مجموعة قيمة من المحفوظات ، مزودة بفهارس ، ومباحة للمؤرخين والباحثين . وللمتاحف المختلفة ، وبعض الدواوين الحكومية ، مكتبات تحتوى على مايتصل بعملها من المؤلفات .

وهنالك عدد من المتاحف التى تضم آثار ومخلفات الحضارة المصرية ، التى استمرت ستة آلاف سنة ـ وتحتوى دار الآثار المصرية ، على كنوز مصر الفرعونية ، ومن بينها الآثار الشهيرة التى اكتشفت فى قبر توت عنخ آمون . ويحتفظ المتحف القبطى ، وهو نسيج وحده بين المتاحف ، على فنون العهد القبطى . وتنشر دار الآثار العربية ، التى تحتوى على مجموعة طريفة تمثل الفن العربى الإسلامى ، دراسات عن الفن الإسلامى ، والآثار العربية . وإن شهرة مصر الفنية العريقة ماتزال تجد تعبيرا فى النتاج الفنى الحديث بأنواعه ، كالرسم والنحت والفنون الزخرفية . وبعض هذه الآثار محفوظ فى متحف الفن الحديث . ويعرض بعضها فى المعارض الفنية ، التى تقام فى القاهرة بين الحين والحين . وقد تفوق الفنانون المصريون فى رسم الأشخاص .

ويساهم عدد من الجمعيات العلمية فى تقدم العلم ونشره . وأقدم هذه الجمعيات ،

«الجمعية الجغرافية» التى أنشئت سنة ١٨٧٥ لترقية الدراسات الجغرافية ، واستكشاف القارة الأفريقية . ولقد أشرفت هـذه الجمعية على نشر عدد من الدراسات الجغرافية الضخمة عن مصر ومنها «دراسة جغرافية عن أفريقيا ومصر » (Moumenta Geographica Africae et Aegypti) فى اثنى عشر مجلدا . وهى تحتوى على جميع الخرائط والمعلومات الجغرافية ، الخاصة بمصر وأفريقية ، والتى رسمت ، وكتبت خلال العصور ، وقد أثبتت بلغاتهـا الأصلية . وتصدر الجمعية دورية ، وتساعد فى تنظيم الرحلات الاستكشافية فى أفريقية .

و « جمعية الاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع » ، تعنى بدراسة كل مايتعلق بالمصادر المـادية والبشرية للبلاد ، بقصد ترقية الموارد الاقتصادية ، خدمة للمصلحة العامة ، ومجلتها « مصر الحديثة » "L' Egypte Contemporaine" تضم مقالات بالعربية والانجليزية والفرنسية ، وهى مصدر قيم للذين يدرسون مصر الحديثة .

ويشرف المجمع اللغوى العربى ، الذى يتألف أعضاؤه من علمـاء من العرب والمستشرقين ، على نمو اللغة العربية وتطورها ، بحيث تصبح وافية بحاجات المدنية الحديثة . ولقد درس المجمع وأقر استعمال حوالى ١٠،٠٠٠ مصطلح تتصل بالعلوم والفنون ، ومختلف النواحى الفـكرية ، أو بوجوه الحياة اليومية . وتعكف بعض لجان المجمع على إعداد معجمين ، أحدهما للاستعمال العادى ، والآخر ، وهو مشروع ضخم ، ليكون عدة للمختصين . ويدرس المجمع بعض المقترحات لتبسيط اللغة العربية ، بقصد تسهيل تعلمها ، وتضييق شقة الخلاف بين الفصحى والعامية .

وعملية تجديد اللغة الفصحى ، وتبسيطها وتعميمها ، شقت سبيلها ، خلال الجزء الأعظم من القرن المنصرم ، خارج المجامع الأدبية . وقد شارك العلماء وأصحاب الاختصاص والفنيون فى هذه العملية . وقد كانت الصحافة والحركة الوطنية التى

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

أنعشتها ، وفى الوقت ذاته سارت قدما إلى الأمام بتأثيرها ، من الوسائل الأولى التى ساعدت على جعل اللغة الفصحى قريبة المتناول لعامة القراء . فليس من السهل ، معالجة المشكلات اليومية الملحة بذلك الأسلوب المنمق ، و بالنثر المسجوع ، الذى عرفته اللغة العربية فى عصور انحطاطها . وقد أدرك الزعماء الوطنيون أهمية الإقناع فى كسب التعضيد الشعبى للقضايا التى تصدوا لخدمتها ، ولذا أخذوا يخطبون ويكتبون ببساطة ودقة . وقد اجتذبت الصحافة مشهورى الكتاب . ويقوم قادة الفكر والأدباء والشعراء أيضاً بنشاط ملحوظ فى حقل الصحافة .

وقد أصدر الكتاب المصريون ، بالإضافة إلى عملهم فى الصحافة ، عددا كبيرا من المؤلفات الأدبية ، التى كان لها أثر فى تجديد اللغة الفصحى وتبسيطها ، شأنها فى ذلك شأن الأدب الصحفى . وقد تأثر الأدب العربى الحديث بعاملين : أولهما الأدب العربى القديم ، بما امتاز به من روعة وسلاسة فى التعبير ، وثانيهما الأدب الغربى ، بما لديه من طاقات غير محدودة لإغناء الفكر . وقد كان لتطور القصة والمسرحية ، وهما فنان ظهرا نتيجة للاتصال بالأدب الغربى ، أثر كبير فى تبسيط اللغة الأدبية ، وتقريبها من الجمهور ، ولا يعدلهما فى ذلك فن آخر من فنون الأدب . وفى قصة « زينب » وهى القصة المصرية الصميمة الأولى ، وهى تدور على حياة الفلاحين ، يجرى الحوار باللغة العامية ، أما سائر القصة فقد كتب باللغة الفصحى . وقد كتب رائد المسرح المصرى القومى محمود تيمور ، مسرحياته باللغة العامية ، إلا أن استعمال اللغة الدارجة لم يدم طويلا ، إذ اهتدى كتاب القصص والمسرحيات إلى لغة فصيحة مبسطة ، يسهل على الجمهور فهمها . وهكذا أصبحت اللغة الفصحى ، بعد أن تبسطت ، وازدادت ثروتها بتجارب الحياة العادية ، أداة مرنة ملائمة للتخاطب . وعندما يتجه كتاب القصص والمسرحيات ، إلى وصف الحياة المصرية المعاصرة ، بما فيها من أدواء وعلل ، وصفا أمينا صادقا يؤدون خدمة اجتماعية عظيمة ، لأنهم يساعدون بذلك على

نشر الوعى الاجتماعى ، وعلى تبصير الناس بالمشكلات الاجتماعية .

وقد ساعد اتجاه التعليم ، فى العقد الأخير، نحو توحيد المناهج فى المرحلة الابتدائية وإلى تبنى مبدأ التعليم المجانى ، كحق طبيعى لكل طفل ـ بالإضافة إلى نشر الثقافة العامة بوساطة الصحافة والإذاعة ـ على جعل الأمة ذات كيان موحد ، وعلى بث الوعى بين أفراد الجمهور ، وعلى غرس روح المسؤولية الاجتماعية .

وتنهض الحكومة بالقسط الأكبر من الإصلاح الاجتماعى كما تنهض بالجزء الأكبر من مسئولية التعليم .

وتستأثر الخدمات الاجتماعية بنصيب متزايد من النفقات العامة ، وإنشاء وزارات للشؤون الاجتماعية والصحة العامة ، والشؤون البلدية والقروية ، يدل على إدراك متزايد لوظيفة الحكومة ، وهى أن تكون معنية بالسهر على مصلحة المحكومين وعلى تحقيق تلك المصلحة . ولقد اقترحت وزارة الشؤون الاجتماعية ، بعد دراسة مستفيضة وبحث متصل ، بعض المشروعات التى غدت فيما بعد قانونا . وقد تحملت الحكومة ، بقانون الضمان الاجتماعى الذى وضع موضع التنفيذ فى أول شباط (فبراير) ١٩٥١ ، نصيبها من المسئولية ، فى رد عوادى الزمن . فجميع العاجزين الذين لا يستطيعون تحصيل رزقهم بسببٍ من تقدم السن ، أو لأى عائق آخر ، وكذلك جميع الأرامل اللائى يعلن أيتاما ، يحق لهم أن يتقاضوا إعانة شهرية ، تتولى الحكومة دفعها . وهذا المشروع ، لا يقتصر على منح الإعانات للمعوزين ، بل يتعهد أيضا بتقديم الخدمات الاجتماعية لجميع الذين يشملهم هذا القانون . وهنالك نوع من الجهد البناء الذى يتجه إلى إرشاد هؤلاء الذين يتقاضون إعانات التأمين الاجتماعى ، إلى الطرق التى تساعدهم على تحسين مستواهم الاجتماعى ، والاعتماد على أنفسهم . وقد تم إعداد مشروع الضمان الصحى ، وهو جزء ضرورى متمم لمشروع الضمان الاجتماعى .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وهنالك المراكز الاجتماعية ، التى ينتظر أن يكون لها أثر فعال فى توجيه التعاون بين الحكومة والشعب ، وقد أنشئ منها مائة وعشرون مركزا ، تم إعدادها حتى نهاية سنة ١٩٤٩ [١] ، وهى تقوم بخدمة مليون ونصف من سكان الأرياف . ووزارة الشئون الاجتماعية تنشئ مثل هذه المراكز ، بناء على رغبة سكان تلك النواحى ، وتزود المراكز بمجموعة من الموظفين ، بينهم خبير زراعى ، مدرب على الخدمة الاجتماعية ، وطبيب ، وممرضة تتردد على البيوت . ويقدم الأهالى الأرض التى تقام عليها المبانى ، والعمال الذين يبنونها . والوحدات الرئيسية التى يشتمل عليها المركز تتكون من عيادة خارجية ، وقسم للحضانة والأطفال ، وقاعات للصناعات الريفية وللاجتماعات العامة ، ومضخة لتوفير الماء النقى ، وحمامات عامة ومغاسل للثياب . والاعتبارات الأولى التى ينظر إليها فى إنشاء هذه المراكز ، هى البساطة والاقتصاد فى النفقات . ويعمل الموظفون مع الأهالى جنبا إلى جنب ، وهؤلاء يختارون من بينهم لجانا لتساعد فى تنظيم وجوه نشاط المركز ، وفى إدارتها . أما الخدمات الطبية التى تقدم إلى الأهالى ، فتشتمل على التطعيم والحقن ، للأطفال وللكبار ، وعلى عزل الحالات المعدية ، وتقديم الرعاية الطبية ، وتوزيع الأدوية ، ومراقبة أسواق المواد الغذائية ، والعناية بتحسين الأحوال الصحية ، بوجه عام . ويلاقى الأطفال والحوامل عناية خاصة . أما نشاط المركز ، فى المجال الزراعى ، فيقوم على الإرشادات والتجارب التى تجرى فى بعض المزارع المحلية النموذجية ، وفى حقول التجارب الزراعية . وتوزع عليهم البذور المنتقاة والتقاوى والفسائل المختارة من أجود أصناف الفواكه والخضر . وكذلك يعنى المركز بتعليمهم أحسن الطرق الزراعية ومكافحة الآفات ، وتنويع المحصولات ، وزرع أنواع جديدة ، وتحسين النتاج الحيوانى ، واستصلاح الأراضى البور . وكذلك يشجع المركز الصناعات الزراعية ،

---

(١) بلغ عدد هذه المراكز فى عام ١٩٥٥ مائة وسبعين مركزا .

التى تعود على الفلاح بالربح ؛ إذ أن العمل فى الزراعة ، لا يشغل سوى جزء من وقته ، وكذلك ليتمكن من استغلال المحصولات التى لا تروج فى الأسواق ، حتى لا يضيع شىء من محصول الأرض التى ينتظر منها أن تطعم أفواها كثيرة . وتشمل الصناعات القروية صناعة الألبان ، وتعليب الخضر ، وتجفيف الفواكه وحفظها ، وغزل القطن والكتان ونسجهما ، وصنع البسط والدثر (البطانيات) من الصوف ، وصنع السلال والحصر من « البوص » وسعف النخيل .

ومن أكثر خدمات المركز الاجتماعية فائدة ، تنمية الحركة التعاونية . فمن بين الفضائل الكثيرة للجمعيات التعاونية ، محاربة الربا ، آفة الآفات فى الحياة الزراعية فى مصر . ويشتمل البرنامج التربوى والاجتماعى للمركز ، على مدارس للأطفال ، وصفوف ليلية للكبار ، وعلى التدريب المهنى ، والتعليم الدينى الذى يتوخى منه محاربة الخرافات والأباطيل ، وعلى تمثيل بعض المسرحيات التى تهدف إلى غايات اجتماعية ، وعلى عرض بعض الأشرطة السينمائية التعليمية ، وعلى الأغانى والألعاب ، وغيرها من أنواع التسلية .

وتقوم وزارة الصحة العامة ، بإدارة الوحدات الصحية ، على أساس قيام وحدة لخدمة عدد من السكان يتراوح بين خمسة عشر إلى ثلاثين ألفا . وفى نهاية سنة ١٩٤٩ ، كان عدد الوحدات التى تم إنجازها مائتى وحدة . وتضم « الوحدة » عيادة خارجية ، وحجرات للمرضى الذين يدخلون للعلاج ، ومركزا للأطفال والولادة ، ومختبرا وصيدلية . ويتولى أحد الأطباء الإشراف على الوحدة ، تساعده ممرضة وقابلة ، ومفتش صحة ، ومساعد مختبر ، وبعض العمال الصحيين . وتشمل الخدمة الفحص الطبى للسكان ، والإشراف على صحة المنطقة ، وتوريد الماء النقى ، وإنشاء الحمامات والمغاسل العامة ، وتنظيم القرية وفقا لمقتضيات الصحة العامة . والثقافة الصحية العامة ، تتجه إلى نشر المعلومات الخاصة بالمحافظة على الصحة والتغذية

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

المناسبة ، و بعض القواعد الصحية العملية البسيطة . وتقاوم الأمراض المعدية بعزل المرضى والتطعيم والتطهير . و يعتنى بصحة الأمهات والأطفال عناية خاصة . وقد ظهر تقدم ملموس فى الصحة فى المناطق التى تخدمها الوحدات الصحية ، كما ارتفع متوسط سن الوفاة فى تلك المناطق .

وتنهش الأمراض المتوطنة كالبلهارسيا والإنكلوستوما والتراخوما والملاريا ، وكثير غيرها ، سكان مصر . والبلهارسيا أكثر هذه الأوبئة انتشارا ، تؤدى إلى فقردم خبيث ، وتسلب الحيوية ، وهكذا تضعف إنتاج هؤلاء الذين يصابون بها . ولما كان عدد المصابين بها يعادل ثلاثة أرباع السكان ، كانت كارثة فظيعة على الأمة . ومنذ سنة ١٩٢٨ ، ووزارة الصحة بالتعاون مع مؤسسة روكفلر ، تكافح البلهارسيا. و يحارب « قسم إبادة قواقع البلهارسيا » فى الوزارة هذا المرض بالبحوث والمراقبة ، و بإبادة القواقع وعلاج المصابين ، و بتعليم السكان أساليب الحياة الصحية ، بوساطة الإعلانات والأفلام وأحاديث الإذاعة ، و بمساعدة خطباء القرى والمعلمين .

وقد تقدمت البحوث الواسعة ، عن الأمراض المتوطنة ، وذلك فى أقسام البحوث بوزارة الصحة ، وفى « معهد ومستشفى أمراض البلاد الحارة » . وتضم المعامل (المختبرات) الصحية فى القاهرة ، التى اشتهرت باستكمال معداتها ، أقساما للكيميا والبكتريولوجيا والياثولوجيا ، وقد ألحقت بها مكتبة طبية [١] . والطعم والأمصال تعد فى معامل الباتولوجيا ، وفى معهد « باستور » وتصدر إلى البلاد العربية أيضا .

والفقر عبء ثقيل آخر ، ينوء بحمله أفراد الشعب المصرى ، و يعزى ، إلى حد ما ، إلى زيادة كثافة السكان بالنسبة إلى الأراضى الزراعية . ومصر من أكثر بلدان العالم كثافة سكان ، إذ يبلغ معدلهم فى الميل المربع الواحد زهاء ٢٠٠٠ نسمة .

---

(١) Worthington, E.B. : Middle East Science, London 1949, P. 169

وكثافة سكان الريف ، تبلغ ١٤٥٠ نسمة للميل المربع الواحد من الأراضى المزروعة، فهى إذن أكثر من ضعفى نسبة السكان فى المناطق الصناعيـة فى أوربا ، وأكثر من عشرة أضعاف نسبة كثافة السكان ، فى المناطق الزراعية من تلك البلاد (١) .

والأراضى الصالحة للزراعة فى مصر تبلغ ٥ ، ٣٪ من مجموع المساحة ، وتقدر بثمانية ملايين فدان ، يستغل منها فعلا ما يقرب من الستة الملايين . أما زيادة عدد السكان ، التى تضاعفت ست مرات فى المئة السنة الأخيرة ، فلم تقابلها زيادة مناسبة فى الأراضى الزراعية . ولـكن عدد السكان لم يستهلك جميع دخل البلاد ، وذلك ناتج ، إلى حد ما ، عن ارتفاع نسبة المحصول نتيجة لنظام الرى المستديم الذى يسر زرع القطعة الواحدة مرتين أو ثلاث مرات فى العام . ولـكن هذا الرى الدائم ، لا يبرأ من المشكلات والمضار . فهناك خطر استنزاف التربة ، إذ أن استغلالها طوال السنة ، يقلل من المادة الرسوبية الغنيـة ، التى يحملها فيضان النيل ، والتى تغطى الحقول عدة أسابيع بوساطة نظام رى الحياض . ثم إن الرى الدائم ، يستتبع زيادة الملوحة فى التربة ، مما يجعل تصريف الماء مشكلة خطيرة . وزيادة على ذلك ، فإن للرى المستديم أثرا مباشرا فى انتشار البلهارسيا ، ولهذا فإن نسبة إصابات المرض ترتفع من ٥٪ ، فى حالة رى الحياض إلى ٨٠٪ فى حالة الرى الدائم .

وكذلك أدى عدم المساواة فى تملك الأراضى ، إلى مضاعفة مشكلة نقص الأرض وزيادة ضغط السكان . فبينما كان يمتلك ½٪ من ذوى الأملاك ٤٠٪ من الأرض الصالحة للزراعة نجد أن زهاء ٧٠٪ يملك كل منهم أقل من فدان . ومجموع ما يملكون لا يزيد عن ١٢٪ من هـذه الأرض . وكان ذوو الأملاك الواسعة ، هم أكثر الطبقات ثراء وأعظمها نفوذا . وقد بذلت المساعى قبل قيام الثورة لإصدار قوانين تحدد الملـكية الزراعية ، ولـكن العدد الـكبير من ملاك الأراضى ، الذين كانوا

---

(١) Doreen Warriner : Land and Poverty in the Middle East, pp. 26, 32

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

أعضاء فى البرلمان ، أحبطوها . وقد عالجت الثورة هذه المشكلة ، بالطريقة الحاسمة التى تلائمها . وسنتحدث فيما بعد ، عن مشروع الإصلاح الزراعى .

وقد ألحق بوزارة الزراعة مختبرات (معامل) مجهزة تجهيزا ممتازا ، حيث تجرى البحوث عن التربة والمحصولات والثروة الحيوانية . وتدير هذه الوزارة أيضا مزارع واسعة للنبات والحيوان فى جميع أنحاء القطر . وقد أجريت بحوث مركزة عن القطن، عماد الزراعة المصرية والصناعة والتجارة . والبحوث التى تشرف عليها وزارة الزراعة ومجلس البحوث الذى ألحق به معمل غزل القطن ، أدت إلى تحسين نوع القطن المصرى و إلى زيادة غلته ، حتى أصبحت نسبة غلة الفدان ، أعلى نسبة فى العالم ، وغدا القطن المصرى متفوقا على القطن الأميركى والهندى والرومى . ونسبة ماتعطيه مصر من محصول القطن طويل التيلة فى العالم هى ٦٠ ٪ — ٧٠ ٪ . ويستعمل القطن المصرى ، دون سواه ، فى بعض المصنوعات [١] . وتمتاز الذرة والحنطة والرز، بمحصولات عالية النسبة ، ونسبة غلة الذرة هى أعلى نسبةفى العالم . وغلة فدان الحنطة تكاد تساوى غلته فى شمال غربى أوربا ، حيث محصول الفدان هو أعلى محصول فى العالم [٢] . وقد أدت مراقبة الحكومة و بحوثها إلى تحسين سلالات المحصولات التى تزرع حاليا ، ونجحت فى إدخال أنواع جديدة . وقد أصبحت المساحة التى تزرع رزا ، أربعة أمثال ما كانت عليه منذ عشرين سنة . ويلى الرز القطن فى الأهمية ، بين مواد التصدير . وقد اشتهر فى أسواق العالم بجودة نوعه . وقد اتسعت زراعة قصب السكر والكتان . وقد جلبت أنواع جديدة من الكتان من بلجيكا وايرلندة . ومن المتوقع أن تزدهر صناعة المنسوجات الكتانية (التيلية) ، هذه الصناعة التى سبق لها أن ازدهرت فى مصر ، و بلغت حد الكمال . وفى الفترة

---

(١) Fischer, op. cit., P. 467

(٢) Ibid., P. 465

الأخيرة تطورت زراعة الفواكه ، وازدادت أنواعها ، وكذلك لحق التطور زراعة الخضراوات والزهور .

ولمصر إمكانيات لم تصل إليها بعد ، وهى أن تغدو حديقة أوربا . وذلك لقربها منها ، ولأن زهورها وفواكهها تنضج فى وقت مبكر ، بسبب مناخها الدافئ .

ويجرى البحث منذ مدة حول تربية الحيوان وتحسين أنواعه . وقد تحسنت أنواع لحوم المواشى والضأن ، وألبانها ، وأنواع لحوم الدجاج ، والبيض ، وصوف الغنم ، وذلك بطريقة الانتخاب ، أو بتلقيح الأنواع المحلية ، بالأنواع التى تجلب من الخارج . وقد حدث تقدم ملموس فى منع الأمراض وعلاجها . وتعمل دوائر الطب البيطرى ، ومعاهده بموظفيها الكثيرين على تحضير الطعم والإمصال وعلى كبح المرض والقضاء عليه (١) .

ويشرف معهد الأحياء المائية على تربية الأسماك ، وعلى مصائدها . ولتسهيل البحث ، يوجد فى الاسكندرية مختبر (معمل) مجهز ، وحديقة للأحياء المائية ، وسفينة للمباحث البحرية (٢) .

وتجرى المباحث الزراعية أيضاً ، فى كليات الزراعة التابعة للجامعات . وهى مزودة بمعامل (مختبرات) حديثة ، وبمزارع تجريبية ، شأنها فى ذلك شأن وزارة الزراعة . وقد اضطلعت الجمعية الزراعية أيضا ، بقسط من البحوث الزراعية . وتدير الجمعية قرية نموذجية ، على مقربة من القاهرة وتحتفظ باسطبل ، لأنسال الخيول العمومية الأصيلة . ومتحف القطن الذى أسسته الجمعية ، هو الوحيد من نوعه فى العالم .

---

(١) Keen, op. cit., PP. 70, 90

(٢) Worthingron, op. cit., P. 138

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وتوضع ثمرات المباحث الزراعية تحت تصرف الفلاح . وتساعد المعارض على نشر أساليب الزراعة وتربية الحيوان . والخبراء الزراعيون والبيطريون منتشرون فى أرجاء البلاد ليقدموا إرشاداتهم ومساعداتهم العملية للفلاح . وتوزع بذور القطن النقية والتقاوى ، التى تنتج فى المشاتل الحكومية ، بأسعار منخفضة .

وكان الاقتصاد المصرى ، إلى عهد غير بعيد ، متوقفا على الزراعة . وحتى فى وقتنا الحاضر ، بعد تأسيس الصناعات الآلية بعشرين سنة ، ماتزال الزراعة تستوعب ثلثى السكان العاملين . وهنالك تضخم كبير فى عدد العمال الزراعين ، حتى إنه من الممكن الاستغناء عن عدد كبير منهم ، دون أن يؤدى ذلك إلى تدهور الإنتاج ، على الرغم من الأساليب المستعملة حاليا فى الزراعة .

ومحاولة التصنيع التى بدأت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كانت قصيرة الأجل . وقد حالت عدة ظروف دون نجاح المؤسسات الصناعية التى أقامها محمد على ؛ فالعمال لم يكونوا ذوى كفاية إذ كان الفلاحون يفضلون العمل فى الحقول الطليقة على جو المصنع . وكانت الإدارة سيئة . وكان عدد العمال المهرة ، والمراقبين المدربين والمشرفين قليلا . وكانت كلف المواد الخام والوقود أعلى منها فى أوربا . ولم تكن هنالك حماية جمركية على البضائع المستوردة . ثم إن قدرة السكان الشرائية ، أضعف من أن تدعم هذه الصناعة ، التى كانت مضطرة إلى الاعتماد على السوق المحلية ، اعتمادا كليا ، بسبب عجزها عن المنافسة فى الأسواق الخارجية . وقد كان محمد على يدرك هذه الصعوبات . ولكنه بمضاء عزيمته ، الذى عرف عنه طوال حياته فى جميع أعماله ، رأى أن لا مناص من المغامرة ، لتحقيق الهدف الذى كان يستشرف إليه ، وهو كما قال : « تعويد الأهالى أن يألفوا الصناعة »[1] .

(١) A. A. I. El-Gritly : The Structure of Modern Industry in Egypt, 1948 pp. 364 – 365

ولقد انصرم زهاء قرن ، بين مخاطرة محمد على ، و بدء التصنيع فى مصر . ويعزى تلكؤ الصناعة فى مصر إلى أسباب بعضها يعود إلى المجتمع المصرى نفسه ، ويرجع البعض الآخر إلى المصالح الأجنبية . فالمصريون كانت تنقصهم المهارة الإدارية ، والإقدام والدربة على القيام بالمشروعات الصناعية . وهم يفضلون أن يستغلوا أموالهم فى الأراضى الزراعيـة ، وهو استغلال مضمون النتائج ، على أن يغامروا بهـا فى مشروعات غير مألوفة ، وتشتد فيهـا المنافسة الأجنبية . أما رأس المال الأجنبى ، الذى كان يتدفق على مصر دون قيود ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فلم يكن يستغل فى الصناعة ، لأن المتمولين الأوربيين كانوا غير راغبين فى منافسة صناعات بلادهم . ولقد وجـدت أموالهم مجالا للاستغلال واسعا ومريحا فى الأرض وفى الوسائل الحضارية الجديدة وفى المواصلات ، وفى الرهون وفى تمويل التجارة الخارجية التى كانت آخذة فى النمو [١] .

وقد كان الاحتلال الإنجليزى عقبة أخرى ، اعترضت سبيل ازدهار الصناعة . وكانت المصالح الاقتصادية للإدارة البريطانيـة متجهة فى المقام الأول نحو التوسع فى زراعة القطن . فالقطن محصول رائج فى الأسواق العالمية ، وكان ثمنه هو النقد الأجنبى الضرورى للوفاء بجزء كبير من الدين فى الخارج . وفضلا عن ذلك فإن القطن المصرى كان المادة الخام التى تعتمد عليها مصانع لانـكشير ، و بلد غير صناعى كمصر ، كان سوقاً ملائمة للمنسوجات القطنية الإنجليزية .

وقد وضعت العراقيل فى سبيل تصنيع البلاد . ففرضت المـكوس على المواد الخام والآلات بنفس النسب المفروضة على المواد المصنوعة . وفرضت رسوم على المصنوعات المحلية ، لتعرقل انتشارها . وفرضت ضريبة مقدارها ٨٪ على المنسوجات

---

(١) Ibid., PP. 366–367

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

القطنية المحلية . وسار الاقتصاد المصرى بأجمعه ، فى ظل الخرافة القائلة بأن الإقتصاد الزراعى هو النوع الوحيد الذى يلائم مصر .

وقد نجحت الثورة المصرية التى قامت سنة ١٩١٩ ، فى زعزعة هـذه الخرافة وإن لم تقض عليها قضاء مبرما ، مع غيرها من الخرافات التى كانت تشاع عن مصر . وقد رافق الـكفاح السياسى للاستقلال رغبة ملحة فى إقامة نظام اقتصادى ، لايرتبط كل الارتباط بالمصالح الأجنبية . ولقد مهد تأسيس بنك مصر سنة ١٩٢٠ ، الطريق نحو الاستقلال الاقتصادى . وقد كان أول بنك أسسه وأداره مصريون ، وكان رأس ماله مصريا خالصا . وقد استقبل البنك بحماسة بالغـة ، وسرعان ما كسب ثقة الطبقة الوسطى وتعضيدها . ومنذ أنشىء هذا البنك ، عنى بالمساهمة الجدية فى التجارة والصناعة . فأنشأ شركات للمواصلات وللتأمين والتجارة ، وعددا من المؤسسات الصناعيـة ، أهمها مصانع الغزل والنسيج . وفى السنوات الأخـيرة ، أنشئت بعض الشركات بالتعاون مع المؤسسات الأجنبية ، وفى هـذا خروج عن الخطة السابقـة التى كانت تقتصر على رأس المال المصرى .

وقد ناضلت الصناعة المصرية الناشئة سنوات عدة دون حماية جمركية تجنبهـا خطر المنافسة الأجنبية الحرة . وكان إصدار قانون حماية المصنوعات المحلية ، الذى صدر سنة ١٩٣١ البداية الصحيحة لتصنيع واسع النطاق فى مصر .

والغزل والنسيج هما أضخم الصناعات ، ويستخدم القطن المصرى فى النسيج مع أنه أنفس من أن يستخدم فى المنسوجات الشعبية . وأثناء الحرب ، استطاعت صناعة النسيج فى مصر أن تسد حاجات السكان وأن تمون القوات البريطانيـة بـكميات كبيرة . ويستورد خيط الصوف ، لصناعة المنسوجات الصوفية الجيدة . والصوف المحلى يستعمل فى صنع البسط والدثر (البطانيات) . والبسط التى تصنع محليا والتى يستخدم فيهـا الصوف المحلى بألوانه الطبيعيـة ، شائعة فى الأسواق

الأوربية . وقد عرفت مصر المنسوجات الكتانية ، فى عصورها القديمة ، حين كانت هذه المنسوجات تضارع الحرير فى رقتها وكان استعمالها شائعا حتى بين الطبقات الفقيرة .

ومن الصناعات المهمة أيضا الزجاج والأسمنت . وهنالك صناعات أخرى كصناعة الأثاث ودبغ الجلود والورق والصابون والمواد الكيموية والسجائر .

وتقوم صناعة السينما على ثلاث شركات ، وثمانية استوديوهات مقامة فى القاهرة. وللأفلام المصرية أسواق واسعة فى البلاد العربية ، وتعرض أيضا فى الحبشة وتركيا والباكستان والهند والولايات المتحدة والأرجنتين . وجو مصر يؤهلها لكى تكون مركزا من مراكز السينما الأولى فى العالم .

وصناعة السكر ، أهم الصناعات الغذائية ، ويزرع قصب السكر فى مصر ويستورد السكر الخام ويكرر فى مصر .

وقد نمت حديثا صناعة الألبان ، وصناعة تعليب المحفوظات ، التى تسد الآن ٥٠ ٪ من حاجة البلاد ستتسع ، لأن المساحات المخصصة لزراعة الفواكه والخضراوات آخذة فى الازدياد .

وقد أقيم فى السويس مصنع هائل للسماد مجهز بأحدث الآلات ، ويزود مصر بثلث حاجتها . وقبل إنشائه كانت مصر تستورد ما قيمته ٣٠ مليون دولار من الأسمدة الكيموية. وهذا المصنع الجديد ، يستعمل المواد الكيموية الخام التى توجد فى البلاد بكثرة . وقد أتاح هذا المصنع لمصر ، أن تقلل من الاعتماد على الأسمدة المستوردة ، ذلك الاعتماد الذى كان له أسوأ الأثر فى الزراعة المصرية أثناء الحرب ، عند ما تعذرت وسائل النقل ، وصعب الاتصال بالأسواق العالمية . كما أنه وفر للبلاد النقد الأجنبى النادر .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وهنالك بعض العناصر التى لا بد من توفيرها لكى يتيسر إقامة تصنيع ناجح فى البلاد : سهولة الحصول على المواد الخام وانخفاض تكاليف الوقود ، ووجود رأس المال وتوفر العمال والموظفين المدربين ، وأسواق لتصريف المصنوعات . فإلى أى حد تتوافر هذه العناصر فى مصر ؟

إن المواد اللازمة للصناعات الخفيفة متوافرة فى البلاد . ومن الممكن الوصول إلى الاكتفاء الذاتى فيما يختص بالأغذية والمنتجات الزراعية الأخرى ، وإذا ما تقدمت الزراعة واتسعت تربية الحيوان وتحسنت ستغدو منتجاتها بعد أن تسد حاجات البلاد — قادرة على منافسة المنتجات الأجنبية ، فى أسواق العالم . وهذا الحكم ينطبق على المنسوجات القطنية ، بصفة خاصة ، نظرا لجودة أنواعها . ويمكن أن يصبح الكتان أيضا إحدى الصناعات التى تمتاز بها مصر ، إذا ما تمكنت هذه الصناعة من استعادة تلك الشهرة الفائقة ، التى كانت لها فيما مضى من الزمان . ووجود كميات كبيرة من الحديد الخام الممتاز ، يبشر بازدهار صناعة صهر الصلب .

ونظرا لعدم وجود الفحم الحجرى ، اعتمدت مصر فى وقودها على ينابيع الزيت التى توجد فيها ، وتكفى حاجة الاستهلاك المحلى . ثم إن توليد الكهربا من خزان أسوان سيوفر الوقود لتصنيع الوجه القبلى . ومحطة توليد القوى الكهربية التى يجرى العمل فيها الآن ينتظر أن تكون جاهزة للعمل خلال سنة ١٩٥٧ .

والعمال متوافرون ، وبرامج التعليم والتدريب السريعة تساعد على تخريج فئة من الفنيين المدربين والعلماء الصناعيين ، والخبراء فى إدارة الأعمال وفى الإشراف على المصانع ، والمقاولين . والمال ميسور من الوفر الداخلى ومن الأرصدة الاسترلينية . وكانت النقود المدخرة ، إلى عهد قريب تستغل فى الزراعة دون غيرها . إلا أن نجاح الصناعات التى أنشئت ونمو روح المغامرة والتنبه لضرورة التصنيع بوصفه عنصرا مهما فى بناء الحياة القومية ، وأخيرا تقسيم الملكيات الكبيرة ، كل هذه الأمور حولت

جزءا من رأس المال المحلى ، إلى الصناعة . وهذا الجزء آخذ فى الازدياد يوما بعد يوم .

وقد توافرت الأرصدة الاسترلينية أثناء الحرب، ثمنا لمشتريات الجيش الإنجليزى من مصر . وقد تجمدت هذه الأرصدة بعد الحرب فى لندن ، باستثناء جزء ضئيل منها . وقد أسفرت المفاوضات الطويلة مع الحكومة البريطانية فى هذا الشأن عن عقد اتفاق فى سنة ١٩٥١ عدل سنة ١٩٥٥ ، يقضى بالإفراج عن الباقى من الأرصدة فى مدة تنتهى سنة ١٩٦٣ .

وقد تركت الصناعة الآلية ، مع أنها ما تزال حديثة العهد ضيقة النطاق ، أثرها فى اقتصاديات البلاد . ويعمل أكثر من مليون ونصف مليون عامل فى الصناعة والمواصلات ، وفى المؤسسات التجارية والمالية ، وذلك يخفف الازدحام الشديد ، ولو جزئيا فى المناطق الريفية .

ولقد بدأ الاقتصاد المصرى يسير فى طريقه القويم ويساعد على تعديل الميزان التجارى وذلك يتضح من ازدياد استيراد المواد اللازمة للإنتاج الصناعى ، والحد من استيراد البضائع المصنوعة فى الخارج ، ونمو الصادرات من البضائع المصنوعة فى مصر (١) وأصبحت واردات الحكومة من الصناعة ، بندا هاما من بنود الميزانية ، فى وقت تحتاج فيه المشروعات الضخمة للإصلاح الاجتماعى ، إلى مال وفير . وزيادة على ذلك أطلق التطور الصناعى سراح الإمكانيات الكامنة فى الأمة ، وفتح مجالات جديدة للمواهب والنشاط ، وأدى إلى ظهور طبقة جديدة هى طبقة رجال الصناعة وجلهم من العصاميين ، الذين وفقوا إلى كسب ثقة الشعب فى مؤسساتهم وبعثوا فى نفوس أفراد الأمة الثقة بالنفس والشعور بالعزة القومية . وقد وطدت

---

(١) Alfred Bonné : State and Economics in the Middle East. PP. 296–297

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الصناعة أقدامها فى مصر ، وهى تعتمد على أموال مصرية ، وعلى جهود مصرية ، جرؤت على الإقدام على فروع من الإنتاج ، تشتد فيها المزاحمة الأجنبية [١] . وهكذا شقت مصر الزراعية طريقها إلى التصنيع ، وأخذت الاسطورة القائلة بأن العناية الإلهية ، حتمت على المصريين اقتصادا زراعيا ، تضمحل يوما بعد يوم .

وقضايا العمل ومشكلات الحركة العمالية ، تلازم بطبيعتها حركة التصنيع . وقد بدأت العناية الرسمية بمشكلات العمل منذ العقد الرابع من هذا القرن . عندما أصبح التصنيع ضرورة ملحة من ضرورات الاقتصاد المصرى . وقد سبق ذلك محاولات ، قام بها بعض الزعماء أو العمال أنفسهم ، لتحسين أحوالهم . وقد أسست جمعيات تعاونية للعمال قبل الحرب العظمى الأولى ، كان أعضاؤها من العمال ذوى الأجور العالية نسبيا . وكان من ضمن الخدمات التى قام بها الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل ، إيجاد مدارس ليلية للعمال . وفى ثورة ١٩١٩ ، ساد الأمة شعور بالإخاء . وفى العقد الذى تلا الثورة ، اندفع العمال فى غمار النضال السياسى ، شأنهم فى ذلك شأن الفئات الأخرى . وفى سنة ١٩٣٠ أنشأت الحكومة مكتبا للعمل ليضع تشريعات للعمال ويشرف على تنفيذها . وبعد ذلك بعامين ، استدعت مدير مكتب العمل الدولى ، ليقوم بدراسة أحوال العمل ، ويوصى بالتشريعات اللازمة . وقد أخذت الحكومة بجزء كبير من مقترحاته التى غدا أكثرها قانونا سارى المفعول .

وخلال العقد الرابع ، ظهرت بادرتان هامتان تدلان على التطور . فمن جهة كانت ثمة محاولات فى صفوف العمال إلى تنظيم أدق وأشمل . ومن جهة أخرى عنيت الأحزاب والهيئات السياسية بكسب تعضيد العمال وولائهم . وقد ألحقت المنافسة بين حزب الوفد وأمير انتهازى من أمراء الأسرة المالكة السابقة على كسب ود العمال أضرارا بالغة بحركتهم . وبسبب الفتن أو الحاجة إلى المال أغلق كثير من

---

(١) El-Gritly : op. cit., P. 376

نقاباتهم . ولـكن قبل نهاية هذا العقد ، أخذت حركة العمال تنظم نفسها من جديد . ففى سنة ١٩٣٨ عقد فى الاسكندرية مؤتمر عمالى حضره ممثلون عن أربعين نقابة ، وطالب هذا المؤتمر بسن قوانين خاصة بنقابات العمال و بالتشريعات الاجتماعية .

ولم تعترف الحـكومة رسميا باتحادات العمال . مع أنها كانت تسمح بإنشائها ، إلا عندما أصدرت قانون النقابات سنة ١٩٤٢ ، وفيه سمحت للعمال أن ينظموا أنفسهم ، وأن يفاوضوا بشكل جماعى ، ولـكن القانون كان ضيق النطاق . فقد وضع النقابات تحت رقابة حكومية صارمة واستثنى بعض طوائف العمال ، كمستخدمى الحـكومة والعمال الزراعيين . وحظر على العمال إنشاء اتحـاد عام لهم [١] . وقد عدل هـذا القانون مؤخرا وأضيفت إليـه مادة سمحت للعمال الزراعيين بتشكيل النقابات .

و يتولى المجلس الاستشارى الأعلى لشئون العمل ـ الذى يرأسه وزير الشئون الاجتماعية ، و يتألف من مندو بين عن الحـكومة ،وأصحاب الأعمال والعمال ـ توجيه النصح إلى الحـكومة فى شئون العمل والتشريع الاجتماعى .

وقد تصالحت ظروف كثيرة على إنزال الضرر بالعمال . منها ازدياد عددهم ، نتيجة لتضخم سكان الأرياف مما أدى إلى انخفاض أجورهم . ومنها الاحتكار والاتحادات الصناعية ، التى وضعت العمال فى موقف حرج للمساومة . كما أن بعض ذوى النفوذ ، ومنهم اتحاد الصناعات المصرية عطلوا تنفيذ التشريعات العمالية ، بحجة أن هذه القوانين ستـكون حجر عثرة فى سبيل نمو الصناعة الناشئة . وقد قاوم ملاك الأراضى ، الذين كانوا يشكلون كتلة برلمانية قوية ، القوانين العمالية المتطورة ، خشية أن يمتد أثرها إلى العمال الزراعيين . ولما لم يكن هنالك حزب للعمال ، ولم يكن لهم ممثل حقيقى فى البرلمان ، لم تلق مصالح الرجعيين ، و يمثلهم ملاك الأراضى الواسعة

(١) Issawi : op. cit., PP. 93–98 ; Al-Gritly : op. cit., PP. 529–554.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

والأثرياء ، مقاومة تذكر . وأخيرا ، لم تترك الحالة السيئة التى عاشت فيها طبقة العمال ـ من فقر مدقع ومساكن تعسة ، وصحة متأخرة وأمية متفشية ـ لهم رغبة أو نشاطا ، للعمل الجماعى المنظم .

ولكن حدثت تطورات كثيرة ، دفعت الحركة العمالية قدما ؛ فاتساع الصناعة أثناء الحرب ، واحتياجات جيوش الحلفاء المعسكرة فى مصر ، أدت إلى زيادة الحاجة إلى العمال . وعندما انتهت الحرب ، خشى العمال البطالة وساورهم القلق على مصيرهم ، ولذا قاموا بعدة إضرابات ، واشتركوا مع الطلبة فى المظاهرات والحركات الوطنية . وكان الاعتماد على قوات البوليس إحدى وسيلتين لجأت إليهما الحكومة فى قمع هذه الاضرابات . وكانت الوسيلة الثانية إصدار بعض القوانين ، التى أملاها الوعى الاجتماعى المتزايد ، الذى أخذ يظهر فى صفوف المفكرين الذين درسوا المشكلات الاجتماعية وأحوال العمال دراسة جدية . وفى الوقت نفسه أخذ بعض أصحاب العمل الذين أصبحوا يشعرون بمسئوليتهم يقدمون لعمالهم بعض الخدمات الاجتماعية . وهذه الخدمات فى أحسن حالاتها ، تشمل إعداد المساكن الملائمة بأجور زهيدة ، وتقديم وجبات الطعام المغذى ، بأسعار لا تزيد عن نصف تكاليفها ، وتوفير العناية الطبية المجانية ، وإعداد مدارس لتعليم الأميين من الكبار وتهيئة وسائل الترفيه .

وثمة اعتبار مهم جدا وهو إحساس العمال بتضامنهم ، وشعورهم المتزايد بأهميتهم ، وتطور فهمهم لمشكلاتهم ، وللعالم من حولهم . ولقد عبر زعيم إحدى النقابات على ذلك بقوله : « إن العامل المصرى اليوم لا يبصم بإبهامه أية ورقة تعرض عليه ، ولكنه يقرأ ويناقش ، ويقدم الاقتراحات وهو غير مستعد لقبول أى شىء ، إلا إذا اقتنع بصحته » .

وقد شهدت مصر ، فى الثلاثين السنة الأخيرة ، تغيرا اجتماعيا جوهريا ، يتجلى

لنا فى انتشار التعليم ، ونمو التصنيع . وتجديد الأساليب الزراعية ، وفوق ذلك كله ، فى ازدياد وعى طبقات الشعب لحقوقها . ولكن هذه التطورات ، على أهميتها ، لم تكن كافية لإعادة بناء المجتمع المصرى . ولم يكن من المتيسر إجراء إصلاحات أساسية ، فى ظل النظام الملكى الذى كان قائما .

والثورة التى قامت فى مصر فى تموز (يوليو) ١٩٥٢ ، وخلعت الملك فاروق ، أزالت عائقا كبيرا من طريق الإصلاح الجوهرى المطلوب . وانبرى رجال الثورة بادئ ذى بدء لتطهير الجيش والإدارة الحكومية والحياة السياسية ، وإعادة تنظيمها على أسس جديدة . وقد قاموا بعدة إصلاحات ، أعظمها أثرا ، هو قانون الإصلاح الزراعى .

وقانون الإصلاح الزراعى ، الذى صدر فى أيلول (سبتمبر) ١٩٥٢ ، يحدد الملكية الزراعية بمائتى فدان للفرد ، مع السماح له بالاحتفاظ بخمسين فدانا لكل ولد من أولاده على ألا يزيد ما يأخذونه عن مائة فدان . ثم تستملك الحكومة الفائض ، خلال خمس سنوات ، على أن تبدأ بالإقطاعات الواسعة . وتدفع التعويضات ـ التى تساوى عشرة أمثال قيمة إيجار الأرض ، أو سبعين مثلا للضريبة المقدرة عليها ويضاف عليها ثمن المنشآت والآلات والأشجار ـ بسندات على الحكومة بفائدة قدرها ٣٪ ، على أن تستهلك هذه السندات على ثلاثين عاما . وفى فترة السنوات الخمس ، تفرض ضريبة خاصة تبلغ خمسة أمثال الضريبة العادية ، على الأرض التى سيستولى عليها .

وسيعاد توزيع الأرض التى تنزع ملكيتها ، خلال خمس سنوات أيضا ، على شكل حصص لا تقل الواحدة منها عن الفدانين ولا تزيد على الخمسة ، وفقا لخصب الأرض ، وتعطى للفلاحين الذين لا يملكون أرضا ، أو لأولئك

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الذين لا تبلغ ممتكاتهم خمسة أفدنة . وتعطى الأفضلية للمستأجرين السابقين ، والفلاحين العائلين .

أما البساتين ، فتوزع على خريجى الكليات والمعاهد الزراعية ، بحصص لا تزيد إحداها على العشرين فدانا ، بشرط ألا يملك المنتفع من الأرض الزراعية أكثر من العشرة الأفدنة .

ويدفع المنتفع أقساطا متساوية خلال ثلاثين عاما ، تبلغ قيمتها قيمة ما دفعته الحكومة لتعويض الملاك . مضافا إليها ١٥٪ من قيمة الأرض ، لسداد مصروفات نزع الأرض وإعادة توزيعها ، و٣٪ فائدة سنوية . ولا يحق للمنتفع أو ورثته أن يتصرفوا فى الأرض بالبيع ، ما لم يسددوا قيمتها كاملة . ولا يجوز نزع ملكية هذه الأرض خلال هذه المدة ، تسديد الديون ، إلا إذا كانت مستحقة للحكومة أو للبنك الزراعى التعاونى أو للجمعية التعاونية .

وينص قانون الإصلاح الزراعى على تكوين جمعيات تعاونية ، أعضاؤها من المنتفعين بهذا القانون فى قرية أو فى مجموعة من القرى . وتشمل أعمال الجمعية الحصول على قروض زراعية ، وتزويد الأعضاء بالخدمات اللازمة لإصلاح الأرض كمدهم ، بالبذور والأسمدة ، والماشية والآلات الزراعية وتسهيل تخزين المحصولات ونقلها وتهيئة الأسباب لاستغلال الأرض على أحسن وجه ، ويشمل ذلك انتقاء البذور ، وتصنيف المحصولات ومكافحة الآفات وشق الترع والمصارف ، ثم بيع المحصولات الرئيسية ، لحساب الأعضاء ، واستقطاع الأقساط المستحقة على الأرض والضرائب والقروض الزراعية والديون الأخرى من أثمان هذه المحصولات . وكذلك تقديم جميع الخدمات الزراعية والاجتماعية الأخرى للأعضاء .

وتشترك الجمعيات التعاونية الزراعية فى تكوين تعاونيات عامة ، واتحادات تعاونية .

وينظم القانون العلاقة بين الملاك والمستأجرين . فلا يجوز تأجير الأرض إلا لمن يستغلونها بأنفسهم : ويجب ألا يزيد الإيجار على سبعة أمثال الضريبة المفروضة على الأرض . وفى حالة تأجير الأرض بالمزارعة ، يجب ألا تزيد حصة المالك عن النصف ، بعد خصم جميع المصروفات . ولا يجوز أن تكون مدة الإيجار أقل من ثلاث سنوات ، ويجب أن توثق بعقد ، يحتفظ كل من المالك والمستأجر بنسخة منه .

وأجور العمال الزراعيين ، تحددها سنويا لجنة خاصة ، يشكلها وزير الزراعة ويرأسها موظف كبير فى وزارة الزاعة . ويسمح القانون للعمال الزراعيين بتكوين نقابات تجمع شملهم .

إن قانون الإصلاح الزراعى قد تناول ٩ بالمئة من أراضى مصر المزروعة ، أى ما تبلغ مساحته ٠٠٠ ، ٥٦٦ فدان من الأرض ، تم فعلا توزيع ٠٠٠ ، ٢٦١ فدان منها . وعند ما يتم توزيع جميع الأراضى التى تناولها القانون ، تصبح ٠٠٠ ، ٢٠٠ عائلة من عائلات الفلاحين ، يبلغ عدد نفوسها ٠٠٠ ، ٢٠٠ ، ١ شخص من صغار المالكين الفلاحين ، بعد أن كانت من الفلاحين الذين لا أرض لهم .

ولا تنحصر منافع قانون الإصلاح الزراعى فى أولئك الذين توزع الأرض عليهم ، بل تتناول فئة أوسع من هؤلاء بكثير وهى طبقة المزارعين والعمال المستأجرين . لأن القانون عند ما حدد إيجار الأرض بسبعة أضعاف قيمة الضريبة المقدّرة عليها ، خفض المبالغ التى يدفعها المزارعون للمالكين بمقدار ٥٠ بالمئة . وارتفعت أيضا أجور العمال الزراعيين ، فنجم عن هذا كله أن أصبحت ثمرات الأرض توزع بين مالكى الأرض و بين مستنبتيها الكادحين عليها بعدل أعظم . وقد ازدادت إنتاجية الأرض التى تناولها قانون الإصلاح الزراعى خلافا لتخوفات البعض من القائلين بأن تجزئة الملكيات الكبيرة إلى قطع صغيرة سيؤدى إلى تدهور الأرض وانخفاض نتاجها ،

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وذلك على زعم أن أصحاب الأملاك الكبيرة هم وحدهم القادرون على استعمال الآلات وغيرها من وسائل التنمية الزراعيـة . فقد أصبح الفلاح الصغير قادرا على الحصول على الآلات والأسمدة والبذور المختارة ، وخلافها مما تحتاجه الأرض بوساطة الجمعيات التعاونية التى جعلت جزءا لا يتجزأ من الإصلاح الزراعى وركنا من أركان نجاحه . هذه التسهيلات مضافا إليها الروح الجديدة التى امتلأ بها الفلاح بعد أن أخذ الآن يعمل بحماسة إذ أصبحت الأرض ملـكا له ، مكنت من الحصول على أفضل النتائج من الأراضى التى تناولها هذا القانون .

والإصلاح الزراعى ، كما يراه أصحاب الفـكرة ، هو الوسيلة الفعالة التى تؤدى إلى ثورة سلمية ، فى حقول الاجتماع والاقتصاد والسياسة فى الحياة المصرية . وبزوال تلك الطبقة التى كانت تمتلك ألوفا من الفدادين من الأرض العزيزة الوجود ، زال أيضا نفوذهم الشديد الوطأة فى صفوف الفلاحين . وهكذا أصبح الفلاح مالـكا وأخذ يشعر بالـكرامة ، وأنه أصبح معتبرا فى نظر الدولة . فمن الناحية السياسية ، تخلص من ضغط مالك الأرض الذى كان يفرض عليه إرادته فى وقت الانتخابات . وبما أنه لم يعد مستأجرا أو عاملا زراعيا لا يملك شيئا ، فإنه سيمارس حقوقه الانتخابيه بحرية أكبر ، وبهذا ستقوم الحياة النيابية فى المستقبل على أساس أمتن مما كانت عليـه فى الماضى . وسيكون للإصلاح الزراعى أثر محسوس فى تطور الاقتصاد المصرى ، ففضلا عن أنه يوزع الثروة توزيعا أعدل ، وبذلك يرفع مستوى المعيشة بين الفلاحين ، ويزيد قوتهم الشرائية ، فإنه سيحول الأموال التى كانت فيما مضى تنفق فى الاستزادة من الأراضى الزراعية ، مما أدى إلى ارتفاع قيمتها والمغالات فى إيجاراتها ، وزيادة كلف المعيشة — إلى المشروعات الصناعية ، وغيرها من المشروعات التقدمية .

إن إحياء أراضى الصحراء القاحلة هو أهم مشروعات التنمية الزراعية . وقد بدأ العمل فعلا فى إحدى مناطق الصحراء الغربية فى مديرية التحرير الجديدة ، حيث

قلبت الصحراء إلى أرض منبتة . ويجرى شق ترعة من النيل على مراحل ، وتستصلح الأراضى التى تصل إليها المياه ـ ومديرية التحرير مشروع نموذجى لما سيتم فيما بعد من إحياء واسع النطاق لأراضى الصحراء حالما تتيسر المياه التى ستخزن فى السد العالى .

أما مشروع السد العالى فهو خزان ضخم للتخزين المستمر سعته ١٣٠ مليار متر مكعب من الماء . وهذا السد إذ يخزن مياه النيل التى تهدر حاليا فى البحر ، سيمكن من زيادة مساحة الأراضى المروية بمقدار مليونى فدان ، يضاف إلى ذلك أن السد العالى سيؤمن توافر المياه للرى بقطع النظر عما قد يحدث فى بعض السنوات من شح فى مياه الفيضان . وبذلك يضمن إنتاج المحصولات دوما . كما يمكن من زيادة مساحة الأراضى المزروعة بالأرز بمقدار ٧٠٠،٠٠٠ فدان سنويا . ويدفع خطر الفيضان وينظم جريان النيل بحيث تمكن الملاحة فيه فى جميع فصول السنة . ومن النواحى المهمة فى مشروع السد العالى إنتاج الكهربا من مساقطه ، فإن هذه القوة الكهربية التى ستنتج بكميات هائلة بأسعار منخفضة جوهرية لتصنيع مصر تصنيعاً كاملا .

والتنمية الزراعية هى قسم من مخطط شامل لتنمية موارد البلاد وإمكاناتها تنمية كاملة . فقد أصبح واضحا كل الوضوح أن من الضرورى تصنيع البلاد على نطاق واسع ، بما فى ذلك إدخال الصناعات الثقيلة إليها ، وذلك إلى جانب تحسين زراعتها وتوسيعها . والقوانين والأنظمة التى وضعت حديثا تؤكد هذا الاتجاه ، وهى ترمى إلى تشجيع تثمير رءوس الأموال الوطنية فى الصناعة . وقد اشتركت الحكومة مع المال الخاص فى تمويل بعض المشروعات والصناعات الكبرى . وقد وسعت صناعتا الغزل والنسيج . وتصدر الآن كمية مذكورة من النسيج القطنى إلى أوربا . واتسعت أيضا صناعة الأسمنت وصناعة الأسمدة . وهناك إمكانات مشجعة لتنمية الصناعة البترولية كما أظهرت ذلك التنقيبات التى تمت مؤخرا فى سيناء والصحراء الغربية .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وزيدت المخصصات للدراسات الجيولوجية والمعدنية ووسعت المساحات التى تشملها هـذه الدراسات . وقد شقت طريق الصناعة الثقيلة بتأسيس شركة الحديد والصلب التى بدأت فى استخراج خام الحـديد الموجود فى منطقة أسوان . وسيتم بناء مصنع الصلب الذى ينشأ حاليا فى عام ١٩٥٧ .

وفتحت أسواق جديدة لمنتجات البلاد وأخصها القطن ، إذ استطاعت مصر بوساطة اتفاقاتها التجارية مع الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا والصين الشعبية أن تقايض فائض قطنها وأرزها بالنفط الخـام والأسلحة والآلات . وكما تحررت صادرات البلاد من الاعتماد على الغرب ، فإن الواردات أصبحت أكثرها من الآلات والمواد الخام اللازمة للصناعة ، وذلك تنفيذا للسياسة التى تهدف إلى مضاعفة طاقة مصر الإنتاجية .

وقد أنشئت فى عهد الثورة مؤسستان هامتان هما : المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومى ومجلس الخدمات العامة ، ومجلس التنمية مسئول عن دراسة مشروعات التنمية ووضع مخططاتها والإشراف على تنفيذها وتقدير نتائجها وتخصص للمجلس ميزانية خاصة كل سنة ، وميزانيته هـذه مستقلة عن الميزانية العامة ، وغرضهـا تمويل مشروعات الإنتاج .

ومجلس الخدمات يضع سياسة التخطيط الاجتماعى فيرسم المشروعات الجديدة ، وينسق الخدمات القائمة ، ويشترك فى تنفيذ مشروعاتها . وتمول الخدمات من الإيراد الحاصل من الأملاك المصادرة التى كانت بيد العائلة المالـكة السابقة . وتعطى الأولية للمناطق الأكثر تخلفا عن غيرها ، ومعنى هذا أن معظم الأموال المستملـكة ستنفق على تأمين الخدمات للسكان القرويين . وتشمل هذه الخدمات تأمين مياه الشرب الصحية لجميع المجتمعات القروية ، وإنشاء المدارس لجميع الأطفال الذين هم فى سن الدراسة ، وإقامة المراكز الاجتماعية لخدمة السكان كلهم وإنشاء المستشفيات

وغيرها من التجهيزات الطبية ، وبناء بيوت السكن لفئات السكان ذات الدخل المحدود [١] .

إن زعماء مصر جماعة من المخلصين الأوفياء لبلادهم المصممين على إسعادها . وقد نصبوا أمام أعينهم هدفا ثابتا هو الحرية القومية والقوة ، والعدالة الاجتماعية ورفاه الشعب . وهم يعبئون مواهب الخبراء والمختصين لمساعدتهم فى رسم الطريق وتنفيذ الخطط التى تؤدى إلى تحقيق هذه الغاية . وهذا التعاون بين أصحاب الكفايات الفنية الذين يرسمون الخطط و بين زعماء الثورة الذين بيدهم قوة التنفيذ ، لا بدله أن يحقق لمصر حياة أفضل من الحياة التى عرفتها الأجيال السابقة من أبنائها .

---

(٢) لقد أدمج مجلس الانتاج ومجلس الخدمات العامة فى لجنة التخطيط القومى التى أنيط بها إعداد الخطة العامة للتنمية الاقتصادية والنهوض الاجتماعى .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل العاشر

سورية ولبنان

ذهبت سورية ضحية للحرب العالمية الأولى . وقد كانت هذه البلاد الممتدة من جبال طوروس إلى سيناء ومن البحر المتوسط إلى الصحراء ، مدة قرون عدة ، وحدة ثقافية واقتصادية وسياسية . وحياة هذه البلاد وتقدمها والدور الإنشائى الذى قدر لها أن تضطلع به فى العالم العربى ، كل ذلك كان يتوقف على استمرار تلك الوحدة . ولكنها لم تستمر ، بل مزقت جزافا ، دون مبالاة لحقوق البلاد ومصالحها وسكانها .

ومن المؤلم رواية قصة الغدر بسورية . ولكن لابد من روايتها ، لأنها تكشف عن السبب الذى أدى إلى كثير من القلق والاضطراب اللذين ابتليت بهما سورية ، بل العالم العربى جميعه أيضا .

خرجت سورية من الحرب العالمية الأولى بجميع مناطقها بما فى ذلك لبنان وفلسطين ، منهوكة القوى ، فريسة للجوع . ولكنها مع ذلك ، كانت مفعمة بالأمل ، وقد اتضح هذا الأمل الذى كان يملأ جوانحها ، فى مقررات المؤتمر الوطنى الذى عقد فى دمشق فى صيف ١٩١٩ . وهذه المقررات ، التى قدمت إلى لجنة الاستفتاء الأميركية ، لجنة كنج ـ كراين التى أرسلها الرئيس ولسون ، نالت احترام أعضاء هذه اللجنة وعطفهم السابغ ، وقد عبروا عن ذلك فى تقريرهم ؛ إذ أكدوا ضرورة المحافظة على وحدة سورية ، بوصفها الأساس الضرورى لوجودها بلادا مستقرة مزدهرة . وألحوا على وجوب الإسراع فى إقامة مؤسسات حرة .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

أما مصالح سورية الأساسية وأسباب ازدهارها كما فهمها وعبر عنها نوابها المنتخبون ، وكما رأتها اللجنة المحايدة ، فقد اصطدمت بمصالح بريطانيا وفرنسا ، ـ وكانتا حينئذ الدولتين العظيمتين ـ فى تلك المنطقة التى كانا يعتبرانها بالغة الأهمية ، بالنسبة لمركزها العالمى . ولإمبراطوريتيهما الشاسعتين . وهكذا ضحى بسورية وسكانها ، على مذبح سياسة القوة فى ذلك الحين .

ولم يتم التصرف فى أمر سورية ، دون خصومات ومنازعات بين الدولتين . وقد اعتبرت فرنسا نفسها صاحبة الحق فى سورية ، بسبب العلاقات التاريخية مع تلك البلاد ، التى تعود إلى الحروب الصليبية ، تلك العلاقات التى توثقت نتيجة لذلك الموقف الذى وقفته فرنسا ، بادعائها أنها حامية الكاثوليك فى الشرق ، ولنشر الثقافة الفرنسية ، بوساطة الإرساليات الدينية والثقافية الفرنسية ، التى أمت تلك البلاد .

ولم تسمح انجلترا لفرنسا بأن تحتل مركزا راجحا فى الشرق ؛ إذ كانت تخشى على مركزها فى مصر إذا احتلت فرنسا سورية ، التى كانت تشمل آنذاك فلسطين وتمتد امتدادا خطرا حتى تقترب من قناة السويس .

ولذا عقدوا العزم على تقسيم سورية، فتمنح فرنسا الجزء الشمالى ، ويوضع القسم الجنوبى ، فلسطين ، تحت الإشراف الدولى ، وقد كان هذا أول تقسيم للبلاد ، أقرته معاهدة سيكس ـ بيكو السرية سنة ١٩١٦ .

وقد أعيد النظر فى هذه المعاهدة التى كانت مجحفة بحقوق العرب ، عقب انتهاء الحرب العظمى . وعدلت بشكل أكثر إجحافا لهم ؛ إذ نقضت العهود المتكررة التى قطعها الحلفاء ، وخاصة بريطانيا ، للعرب . فلم توافق بريطانيا على تدويل فلسطين ، وعملت جاهدة على وضعها تحت انتدابها . ورغبت أيضا فى بترول الموصل ، ونجحت فى إقناع فرنسا بالتنازل عن منطقة الموصل التى منحتها إياها معاهدة سيكس ـ بيكو .

ولقاء ذلك استولت فرنسا على الجزء الباقى من سورية .

وقد دخلت الكتائب العربية بقيادة فيصل سورية ، بوصفها جزءا من جيش الحلفاء الذى كان يقوده اللنبى . وبسبب احتجاجات فرنسا ، أمرت القيادة العليا فيصل بالتخلى عن الساحل السورى للجيش الفرنسى . وقسمت البلاد إلى ثلاث مناطق إدارية عسكرية: شرقية وغربية وجنوبية،واحتلتها الجيوش العربية والفرنسية والبريطانية على التوالى .

وقد كان هذا الترتيب الذى اعتبر سورية فى علاقتها بالإدارة العربية تحت حكم فيصل ، منطقة معادية محتلة واعتبر الجيش العربى جيش احتلال ، كالجيشين البريطانى والفرنسى ، ترتيبا شاذا . وقد قرر المؤتمر الوطنى ، الذى كان يمثل جميع أجزاء البلاد ،ويعمل عمل البرلمان والجمعية التأسيسية ، إنهاء هذا الوضع فى الثامن من آذار (مارس) ١٩٢٠ ، وذلك بإعلان استقلال سورية ، بما فيها لبنان وفلسطين ، تحت حكم فيصل بوصفه ملكا دستوريا ، وإعلان الوحدة السياسية والاقتصادية بين سورية والعراق المستقل وفى الوقت نفسه أعلن زعماء العراق وضباط جيشه الذين اشتركوا فى الثورة العربية ،وكانوا آنذاك مع فيصل فى دمشق ، استقلال العراق .وقد قوبل هذا الإعلان بحماسة شديدة فى جميع أنحاء سورية والعراق . كما أنه أثار حنقا شديدا فى الدوائر السياسية البريطانية والفرنسية . وقد استاءت الحكومة البريطانية بوجه خاص ، لشمول ذلك الإعلان فلسطين والعراق ، واحتجوا بشدة على ذلك القرار الذى اتخذه المؤتمر الوطنى واعتبروه انتقاضا على القيادة العليا . ولم يخف الافرنسيون فى يوم من الأيام عداءهم لفيصل ونقمتهم على الثورة العربية ، والحركة القومية العربية عامة . وانبروا يبذرون بذور الشقاق بين سكان سورية ولبنان ، وركزوا حملتهم على التشهير بالقومية العربية ، وأوهموا الناس بأنها حركة صحراوية رجعية ، أوحى بها التعصب الدينى .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وفى الشهر التالى ـ نيسان (أبريل) ١٩٢٠ ـ نفذت بريطانيا وفرنسا خطتهما للتصرف بالهلال الخصيب ، عن طريق مجلس عصبة الأمم الذى كان مجتمعا فى سان ريمو . وقد تسلمت بريطانيا من المجلس ، الانتداب على فلسطين والعراق . وخصت فرنسا بسورية . وقد عبر وزير خارجية بريطانيا عن الموقف الرسمى لحكومته بالنسبة إلى الانتداب ، حين أعلن فى البرلمان : « أنه من الخطأ اعتبار منح الانتداب حقا من حقوق عصبة الأمم . إنه ليس كذلك ، بل من حق الدول التى فتحت تلك البلاد ومن شأنها أن تتولى تقسيمها . وبناء على ذلك منحت بريطانيا الانتداب على فلسطين ، وفرنسا الانتداب على سورية »[1] .

وقد كان وضع المملكة العربية التى أعلنت حديثا فى سورية ، سيئا فى ربيع ١٩٢٠ ؛ إذ كانت فرنسا ، الدولة المنتدبة مصممة على القضاء عليها . وفرنسا التى خرجت من الحرب العظمى وهى ثانى دولة عالمية كان لها جيش قوى يحتل الساحل السورى . وقد عجلت الأحداث بلوغ النهاية التى كانت فرنسا ترتقبها . فقد كانت الإدارتان اللتان تحكمان سورية ـ الإدارة العربية فى الداخل ، والفرنسية على الساحل ـ على عداء متبادل ، وكانت أهدافهما وغاياتهما متباينة . وقد شنت كل منهما على الأخرى حملة صحفية عنيفة . وتكررت الاصطدامات الصغيرة والأحداث الداخلية بين الطرفين . ومما زاد التوتر حدة إعلان إنشاء بنك سورية ولبنان . وقد منح البنك السورى ـ وهو شركة فرنسية ـ حق إصدار أوراق النقد التى وضعتها الدولة المنتدبة موضع التداول بالقوة ، واعتبرتها العملة الرسمية للبلاد . وقد رفعت العملة المصرية ، الوطيدة نسبيا ، التى كانت تتداولها قوات الحلفاء أثناء الاحتلال ووضع مكانها هذه العملة الورقية الجديدة ، التى كانت مرتبطة بالفرنك الفرنسى الآخذ فى الهبوط . وغدا البنك السورى ، وسيلة الدولة المنتدبة

---

(١) Philip Ireland, Iraq, P. 263

للسيطرة على اقتصاديات البلاد . وقد أدركت سورية الخطر الاقتصادى الناجم عن إنشاء مؤسسة كهذه ، ولهذا أنكرت على السلطات الفرنسية الحق فى إصدار النقد ، وحرمت تداوله . وكان هذا الموقف الذى اتخذته الحكومة من البنك الفرنسى ، أحد المآخذ الهامة التى أخذها الجنرال غورو الحاكم العسكرى الفرنسى فى إنذاره الذى وجهه إلى فيصل . وبعد قليل فرض هذا النقد والبنك الذى أصدره على سورية بالحديد والنار ، مما أصاب الاقتصاد السورى بأضرار جمة .

وثمة مأخذ آخر ، أخذ على فيصل وحكومته ، وهو ناتج عن العلاقات الفرنسية التركية . فقد كانت الحاميات الفرنسية تحتل عددا من المدن التركية على الحدود السورية . وقد ثار الترك بقيادة مصطفى كمال ، على الغزاة الأجانب فى بلادهم . وعند ما حاول الفرنسيون إرسال نجدات إلى حامياتهم ، بطريق خط الحديد السورى ، رفضت الحكومة العربية السماح لهم بالمرور فى أراضى سورية ، لأنها بوصفها دولة مستقلة ، تريد أن تلتزم الحياد فى ذلك النزاع . ولا بد لنا من أن نذكر هنا أن العرب ، على الرغم من انتقاضهم على الحكم التركى ، شعروا بعطف شديد وإعجاب قوى ، بتركيا الكمالية ، التى كانت تجاهد لتحرير نفسها من الاحتلال الأجنبى ، والقوى الرجعية فى الداخل . ولهذا كان موقف فيصل وحكومته ، من النزاع الفرنسى التركى مثيراً جداً للفرنسيين ، وقد صرح الجنرال غورو بأنه كان مساعدة فعالة للأتراك ، وضربة موجهة للقوات الفرنسية .

وهذا الإنذار الذى وجهه الجنرال غورو فى ١٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠ ، كان سيؤدى ، إذا تم قبوله ، إلى احتلال البلاد بأجمعها احتلالا عسكريا . وتضاربت آراء المحيطين بفيصل ، وقد تغلب أخيراً الرأى القائل بوجوب التسليم . وقبل فيصل شروط الإنذار ، بالرغم عما سيلحقه من ضيم ، وما سيجره عليه ذلك من غضب الشعب . وكان رد الفعل فى صفوف الشعب عنيفا . وقد هاجم سكان دمشق القلعة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ليستولوا على السلاح الذى سيحار بون به الفرنسيين . وتظاهرت الجماهير أمام مقر فيصل واتهمته بالخيانة ، وطالبته بعزل وزرائه ، هؤلاء الوزراء أنفسهم ، الذين طالب الفرنسيون فى إنذارهم بعزلهم . وكانت الحكومة مقتنعة حين قبلت الإنذار ، من أنها لا تملك من القوات ما تستطيع به مقاومة الزحف الفرنسى على دمشق . وعقد فيصل العزم على السفر إلى أوربا ، حيث كان يأمل ، بمساعدة أصدقائه من الإنجليز ، فى الوصول إلى تفاهم مع الفرنسيين .

ويتبين لنا مدى تصميم الفرنسيين ، على إزالة الحكم العربى من سورية ، من الأحداث التى تلت توجيه الإنذار . فقد أرسل فيصل برقية إلى الجنرال غورو أعلن فيها قبوله شروط الإنذار . فرد عليه غورو شاكرا ، وطلب منه تأكيدا رسميا تذكر فيه شروط الإنذار . وقد أرسل التأكيد المطلوب فى حينه ، إلا أنه تأخر عن الموعد المحدد بضع ساعات ، بسبب الاضطرابات . فما كان من غورو إلا أن أوعز إلى القوات الفرنسية والسنغالية بالزحف على دمشق ، على الرغم من قبول شروطه والشروع فى تنفيذها بإخلاص . فقد سرحت قوات الجيش العربى ، ولاحظت القوات الفرنسية أن القوات العربية جلت عن المراكز التى كانت تحتلها قبل توجيه الإنذار . ومع ذلك فقد استمر الزحف ، وصحبه إنذار آخر . وقد ردت الحكومة العربية على الإنذار الثانى ، بأنها غير راغبة فى الحرب ، إلا أن قبول شروط هذا الإنذار الجديد ، من شأنه أن يفضى إلى تعرض البلاد لنيران الحرب الأهلية . وعند ما استمر زحف القوات الفرنسية ، جمعت الحكومة قوة صغيرة على عجل ، وتصدت للعدو على مقربة من ميسلون ، الممر الذى يشرف على مدخل دمشق . وقد حارب السوريون ببسالة ويأس ، وسقطوا الواحد تلو الآخر ، بنيران الدبابات والسيارات المصفحة والطائرات . واحتلت دمشق وغادر فيصل البلاد .

لقد تبين لنا مما سبق ، مدى تصميم الفرنسيين ، على ألا يسمحوا للحرية

العربية ، بأن تحيا إلى جانبهم . على أن سقوط الدولة العربية فى سورية ، يعزى لأسباب أخرى ، زيادة على عداء الفرنسيين لهـا . فإن السوريين ، بل العرب جميعا ، وثقوا ببساطة وسذاجة ، فى وعود الحلفاء لهم . ومن يراجع البيانات التى أصدرها زعماء العرب آنذاك ، يدهش لسذاجتهم وإيمانهم الصبيانى فى تصريحات الساسة الغربيين وبياناتهم . وبيان الحكومة الذى قرىء على أعضاء المؤتمر الوطنى عقب إعلان استقلال سورية ، يلقى ضوءا على الاتجاه العام آنذاك . إنه قصيدة مديح للدول المتحالفة ، التى دافعت عن العدالة واستهلت عصرا جديدا تحترم فيه حقوق الشعوب وحرياتهم ، والتى رفضت إقرار سياسة الفتح والاستعمار ، ونبذت المعاهدات السرية ، واعترفت للشعوب بحق تقرير المصير . ويمضى البيان معبرا عن الأمل فى مساعدة الحلفاء للعرب فى حياتهم الجديدة ، بعد أن برهنوا على حبهم للعرب وساعدوهم فى جهادهم للتحرر . وقد أكد فيصل فى خطبه العديدة التى ألقاها وهو يطوف سورية ، إيمانه فى نزاهة الحلفاء وبواعثهم الشريفة والمبادىء السامية التى بنوا عليها أعمالهم ، وعن نواياهم الطيبة تجاه العرب خاصة . وذكر فيصل أيضا أنه وجد الساسة الأوروبيين ، على جهل تام بالعرب ، الذين لم يعرفوهم إلا من خلال « ألف ليلة وليلة » . وقد عزا إلى هـذا الجهل ، تلك الخصومات التى وقعت بينه وبين ساسة الحلفاء الذين عارضوه فى مؤتمر الصلح . وقد عقد العرب آمالا عريضة على بريطانيا العظمى التى كانوا يعتبرونها فى ذلك الحين صديقة لهم ، ولذا انتظروا منها أن تدعمهم فى نضالهم ضد الفرنسيين . ولو أنهم كانوا أكثر واقعية لأدركوا أن بريطانيا لم تكن لتخاصم فرنسا من أجل حرية العرب ، بل إنها فى الحقيقة كانت متفقة ضمنيا مع فرنسا ، على أن تطلق يدها فى سورية لقاء ، بترول الموصل . وآية ذلك أن بريطانيا لم تنبس ببنت شفة حين احتل الفرنسيون دمشق بالقوة ، وبهذا عصفت بالبقية الباقية من اتفاقية حسين ـ مكماهون ، التى تعهدت فيهـا

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

بريطانيا بمساعدة العرب على نيل استقلالهم .

والدولة العربية نفسها ، كانت تفتقر إلى الإدارة المستقرة الحازمة . فالحالة الاقتصادية كانت مضطربة نتيجة للحرب وما أعقبها . وكان يعوزها المال الذى يساعد على تسيير دفة الحكم ، وإنشاء جيش ذى كفاية . وكانت المدارس قليلة العدد ، والوعى السياسى بين الشعب يكاد يكون منعدما . ولم يتح للدولة العربية الوقت الكافى لإقامة حكومة رشيدة قوية ، فى طمأنينة وهدوء . فقد توالت الاضطرابات والمشكلات ، وما كادت تستفيق من صدمة الولادة حتى أسلمت الروح .

على أن هذه الدولة ، على قصر أجلها ، تركت أثرا لا يمحى ، إذ أنها خلقت نزعة استقلالية ، أصبحت فيما بعد ، باعثا وملهما للحركات الاستقلالية وثورات التحرر من الاستعمار الأجنبى . وكانت أول دولة عربية وطنية فى العصر الحديث . وقد أقيمت على الدعائم القومية ، لا الدينية ، وقد أكد فيصل فى بيانه الرسمى الأول الذى صدر فى الخامس من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٨ ، وفى خطبه العامة فيما بعد ، قيام هذه الدولة على الأسس الوطنية ، والروابط القومية التى توحد العرب ، على اختلاف مللهم . وسرعان ما أعلنت العربية لغة رسمية للبلاد ، ولغة التعليم فى جميع المدارس . وشرع فى ترجمة الكتب المدرسية المقررة ، وفى تعريب دواوين الحكومة . وقد أعدت صفوف خاصة لموظفى الحكومة تدربهم على الانتقال من التركية إلى العربية . وقد كانت دولة حديثة فى شكل حكومتها ـ ملكية دستورية لها برلمان ـ وفى عنايتها بالتعليم . وأعادت الحكومة فتح جميع المدارس التى كانت فى العهد العثمانى ، ومنها مدرسة الطب التى نقلت إلى بيروت أثناء الحرب . وافتتحت مدارس جديدة ، وأنشأت كلية الحقوق والمجمع العلمى العربى بدمشق . وحث فيصل نفسه على فتح المدارس ، وتحصيل العلم نظرا لحاجة البلاد الماسة إليه . وقد تجسمت فى فيصل صفات الحاكم الديموقراطى ؛ إذ نشأ فى الصحراء حيث الحرية والمساواة .

وكان الفرق بينه وبين الولاة العثمانيين عظيما . وكان يعتبر نفسه خادما للأمة ، ويعتبر المواطنين إخوة له ، ويدعوهم إلى الإخلاص للدولة والبر بها ، كما يخلص الولد البار للأب العطوف الحادب . واقتداء بعمر بن الخطاب ، خطب فيصل فى الناس قائلا : إذا أخطأت فسامحونى وأظهروا لى خطئى [1] .

وكم يكون تاريخ سورية وفلسطين مختلفا ، لو أنه سمح للدولة العربية أن تنمى فى هدوء ، تلك الأسس التى أقيمت عليها . فبعد معركة ميسلون انحرف اتجاه تطور البلاد انحرافا تاما . فقد سادت القلاقل والاضطرابات عوضا عن السلم . واتجهت جهود الشعب ، التى صرفت عن العمل البنائى المثمر ، نحو مقاومة الانتداب ، إذ كانت هنالك هوة واسعة بين الشعب السورى وحكومة الانتداب ، التى تولت الحكم بروح الاستعمار وعقليته ، وحشدت فى الجهاز الحكومى السورى عددا من الموظفين الفرنسيين الاستعماريين .

واستهلت فرنسا عهد وصايتها ، بالإمعان فى تجزئة البلاد . فأعلنت سورية ولبنان دولتين منفصلتين ، وقسمت سورية إلى أربع محافظات : دمشق ، وحلب ، والعلويين وجبل الدروز . ووضعت للواء الاسكندرونة نظاما خاصا .

وفرضت فرنسا على البلاد حكما عسكريا دكتاتوريا . وكان المفوضون السامون الثلاثة الأول عسكريين ، وكان تحت إمرتهم جيش كبير . وكان المفوض السامى حاكما مطلقا يتمتع بسلطات تشريعية وتنفيذية لا رادّ لها ، وكان له أيضا نفوذ على السلطات القضائية . وقد أخمدت الحرية المدنية تحت ضغط الأحكام العرفية التى ظلت سارية المفعول حتى سنة ١٩٢٥ . وأنكر الحكم الذاتى ، وانتشر الموظفون

---

(١) هنالك تاريخ موثوق به للدولة العربية فى كتاب « يوم ميسلون » لساطع الحصرى (بيروت ١٩٤٥) . وقد كان الحصرى عضوا فى الحكومة العربية منذ نشأتها . فكان مديرا للمعارف ثم وزيرا لها . وكان مبعوث فيصل فى المفاوضات التى جرت مع الجنرال غورو . وهكذا كان يعيش فى غمرة تلك الأحداث التى وضعها فى كتابه .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفرنسيون فى جميع أنحاء البلاد . وصبغ التعليم بصبغة فرنسية قوية ، وكمت أفواه الصحف الوطنية ، ووضع الزعماء الوطنيون تحت رقابة الشرطة .

وكان ثمة متاعب اقتصادية أيضا ؛ إذ خرجت سورية من الحرب فى حالة فقر مدقع . وارتبكت حياتها الاقتصادية بسبب انفصالها عن الدولة العثمانية ، ولتجزئتها إلى أقسام سياسية واقتصادية منفصلة ، و بسبب تلك الحدود التى أقيمت بينها و بين الدول العربية الأخرى التى كانت تشكل معهافيما مضى وحدة اقتصادية . وقد أنكر الفرنسيون على سورية حقها فى العودة إلى تداول النقد المستقر الذى كانت تتعامل به قبل الحرب . وأوجدوا نظاما نقديا مبنيا على قاعدة الفرنك ، متأثرا بما يطرأ عليه من هبوط وتقلبات . وخربت الصناعات الوطنية ، حتى تجد المصنوعات الفرنسية سوقا لا يزاحمها فيه مزاحم . ومع أن شروط الانتداب تنص على حرية التجارة فى البلاد المنتدب عليها ، كان ثمة تحيز بالفعل لمصلحة البضائع الفرنسية . ومنحت الامتيازات للشركات الفرنسية ، وكان الموظفون الفرنسيون الذين يمثلون سورية يعقدون الاتفاقات التى كان من شأنها إثراء المضاربين الفرنسيين ، على حساب مصالح البلاد .

وكانت تجزئة البلاد ، أشد تلك المظالم أثرا فى النفوس ، ولا سيما أن تلك التجزئة أقيمت على أسس طائفية . وقد أجج الفرنسيون نيران الانقسامات الطائفية وأثاروا فئة من المواطنين على فئة أخرى ، وكانت هذه السياسة حجر عثرة فى سبيل تقدم البلاد ، ومنافية لروح الانتداب وغايته .

وقد اندلعت نيران الثورات والاضطرابات فى أجزاء مختلفة من البلاد . وكان أشدها خطرا ثورة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ ، التى كادت تنجح فى طرد الفرنسيين من سورية . وقد بدأت بين الدروز ، وهم قوم يتعشقون الحرية ويفخرون ببسالتهم وشجاعتهم . وقد ثاروا فى وجه الأتراك عدة مرات ، مع أن السلطة التركية كانت

فى جهل الدروز اسمية ، وقليلا ما تعرضت للسكان . وكان حكم الفرنسيين لا يطاق، إذا قيس بالحكم التركى .

وامتدت نيران الثورة من جبل الدروز إلى الشمال حتى بلغت دمشق ، وأواسط سورية ، وسارت غربا حتى بلغت حدود لبنان ، ومع أن سببها المباشر ، كان سياسة الحاكم الفرنسى فى جبل الدروز ، فقد كانت غايتها توحيد سورية وتحريرها من الحكم الفرنسى . وقد صدر نداء يطالب بما يلى :

(١) وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلال تاما .

(٢) قيام حكومة شعبية تجمع مجلسا تأسيسيا لوضع دستور يقرر سيادة الأمة سيادة مطلقة .

(٣) سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش وطنى لصيانة الأمن .

(٤) تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وإعلان حقوق الإنسان فى الحرية والمساواة والإخاء [١] .

واتخذ الفرنسيون إجراءات عنيفة لمواجهة الثورة ، فقصفوا دمشق ، أقدم مدن العالم ، بالمدافع ورموها بالقنابل مرتين . وكانت القنابل تلقى على القرى دون سابق إنذار ، وقطعت الأشجار ، ومنعت المياه عن البساتين حتى ذبلت وجفت . وكان القرويون يجمعون ويطلق عليهم الرصاص دون تمييز [٢] .

وأخمدت الثورة أخيراً ولكنها كلفت فرنسا ثمنا غاليا دفعته من مالها وكرامتها .

---

(١) Royal Institute of International Affairs, Survey of Internattonal Relations, The Islamic World, 1925, P. 426.

(٢) Ibid, PP. 428—439

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

أما خسارتها فى الأرواح فقد كانت ضئيلة ، إذ قاومت قوى الحرية ، بجنود من السنغاليين والمرتزقة الذين جندتهم من الأقليات المقيمة فى سورية .

وكانت خسائر السوريين فادحة فى الأرواح والممتلكات ، إلا أنها أعادت الثقة إلى نفوسهم ، وبعثت فيهم شعورا بالتضامن . وقد مثلت فيها أدوار من البطولة غدت فيما بعد أمجادا متوارثة .

ولم تمض الثورة عبثا ، دون أن تعلم الفرنسيين درسا . فنتيجة للخسائر التى منوا بها ، والأثر الذى تركته الثورة فى الصحافة العالمية ، اضطروا إلى تغيير أساليبهم فى معاملة السوريين . فقد أجروا انتخابات لجمعية تأسيسية ، اجتمعت فى دمشق فى حزيران (يونيو) ١٩٢٨ ، وأعدت مشروع دستور للبلاد . ثم حدث خلاف بين أعضاء الجمعية والمفوض السامى على بعض مواد الدستور ، فأصدر أمرا يحلها فى أيار (مايو) ١٩٣٠ .

واستمر الأهالى يلحون فى طلب الانتخابات . وبعد عامين ، حدثت قلاقل واضطرابات فاضطرت السلطات إلى إجراء انتخابات . إلا أنها أجريت تحت ضغط سلطات الانتداب وبتأثيرهم . وكانت أكثرية المنتخبين من المعتدلين ، وظن الفرنسيون أن لهم أغلبية كافية فى المجلس ، فتقدموا إليه بمشروع معاهدة . ولكن شروط المعاهدة أثارت عاصفة من الاحتجاج ، فحل المجلس كما حل سابقه .

واستمر التحفز وأدى التوتر المتزايد إلى حدوث اضطرابات فى كانون الثانى (يناير) ١٩٣٦ تلت اعتقال الزعماء وإبعادهم دون محاكمة . وعند ما اتسعت حركة الاعتقالات والاجراءات التأديبية ، قويت عزيمة الأهالى ، وصمموا على إعلان العصيان المدنى ، وعبروا عن ذلك بإعلان الإضراب العام فى المدن الكبرى . وقد استمر خمسين يوماً واتسم بميسم النظام والتنظيم .

وأزمع الفرنسيون الوصول إلى اتفاق مع الوطنيين . واستهلت المفاوضات ،

وعرض مشروع معاهدة تحالف على غرار المعاهدة الانجليزية ـ العراقية . وأجريت الانتخابات وأقر البرلمان الجديد المعاهدة إلا أن الفرنسيين كانوا يطوون جوانحهم على الخداع . فعند ما عرضت المعاهدة على البرلمان الفرنسى رفضها ، مع أن الحكومة الفرنسية أعلنت أنها ستحظى بالموافقة السريعة . فشعر السوريون بالألم والمرارة ، واشمأزوا من تلك السلطة التى لا تستطيع الوفاء بعهدها ، ولا تتعلم من تجاربها . واستقالت الحكومة السورية وحدثت حالة من التوتر أدت إلى تعطيل الدستور وحل المجلس . وقد صور المفوض السامى موقف السلطات الفرنسية بوضوح حين صرح بأنه يجب ألا يكون هنالك شك فى استمرار الحكم الفرنسى فى سورية [١] .

وفى سنة ١٩٣٩ سلم الفرنسيون إلى الأتراك منطقة كبيرة من سورية هى لواء الإسكندرونة . وقد كان تصرفا مجحفا ، باركته انجلترا . ووقفت عصبة الأمم موقف المتفرج الذى لا سلطان له . وقد كان أيضا خرقا واضحا لصك الانتداب الذى نص على أن « الدولة المنتدبة تضمن أراضى سورية ولبنان من كل فقدان أو استئجار يقع عليها أو على قسم منها ، ومن وضع أية مراقبة أجنبية كانت عليها » [٢] . إلا أنه كانت تلوح فى الأفق آنذاك بوادر نزاع أوربى . وقد كانت فرنسا قلقة على أمنها فى الشرق الأوسط ولذلك سلمت اللواء لتركيا ثمنا لصداقتها .

وعند ما نشبت الحرب العالمية الثانية ، كان قد انقضى على الانتداب الفرنسى لسورية عشرون سنة كانت ملأى بالاضطرابات ، مما نفر السوريين من فرنسا تمام التنفير . وكانت تلك الفترة ، فترة توتر لم يهدأ ، وصراع مستمر من الناحيتين المدنية والعسكرية . والثورات المسلحة ، على الرغم من أنها كانت مشتتة غير منظمة ،

---

(١) Julien : « France and Islam » in Foreign Affaires, 1940, PP. 996-697

(٢) صك الانتداب على سورية ولبنان ـ البند الرابع .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

لم تكن حوادث معزولة عابرة ، بل كانت تعبيرا عن النضال الوطنى من أجل الاستقلال . وقد كان يصحبها كفاح مدنى تجلى فى الإضرابات ، والإلحاح المستمر على تشكيل حكومة دستورية ومجلس يمثل البلاد ، والمعارضة القوية بين جدران البرلمان الوطنى ، لأوامر الدولة المنتدبة .

هكذا كانت حالة سورية عند ما نشبت الحرب العالمية الثانية . و بعد انهيار فرنسا ، تسلمت الحكم قوات فيشى ، إلى أن دحرتها القوات البريطانية ، بالاشتراك مع قوات فرنسا الحرة فى صيف ١٩٤١ . وحل محلها احتلال انجليزى فرنسى . وفى الثامن من حزيران (يونيو) أعلن ممثل فرنسا الجنرال كاترو باسم فرنسا الحرة ورئيسها الجنرال ديجول ، إنهاء الانتداب واستقلال سورية ولبنان . ووافقت السلطات البريطانية فى الشرق الأوسط على هذا القرار . وعقب ذلك بقليل ، وقع مستر أوليفر لتلتون ، وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط ، والجنرال ديجول اتفاقا اعترفت فيه بريطانيا بالمركز الممتاز لفرنسا فى سوريا ولبنان . وفى إيلول (سبتمبر) أعلن كاترو قيام الجمهورية السورية المستقلة .

وفى خلال السنتين التاليتين ، كانت سورية تحكم بطريقة شاذة . فكانت السلطة العسكرية فى أيدى البريطانيين ، وكانت الإدارة فى أيدى الفرنسيين . وترك للحكومة المستقلة المزعومة سلطات هزيلة .

وعند ما دخلت الولايات المتحدة الحرب ، فاوضتها السلطات البريطانية والفرنسية بشأن الاعتراف باستقلال دولتى المشرق . وقد رفضت الولايات المتحدة الاعتراف بهذا الوضع ، لأن استقلال سورية ولبنان كان محدودا ، ولأن الحكومتين المحليتين لم تقوما على أساس التمثيل النيابى الصحيح ، ولم تكن لهما سلطة فعلية .

وقد أجريت الانتخابات للمجلس النيابى فى صيف ١٩٤٣ ، وانتخبت الكتلة

الوطنية ، وهى القوة التى استقطبت حولها حركة مقاومة الاستعمار منذ سنة ١٩٣٠ . وعقد المجلس فى آب (أغسطس) .

وعلى الرغم من قيام حكومة نيابية منبثقة من مجلس انتخب انتخابا حرا ، تلكأ الفرنسيون فى تسليم السلطة الفعلية للحكومة الوطنية ، وكل ما من شأنه أن يجعل سيادتها حقيقية . وقد استمر إشراف الفرنسيين على شئون التعليم حتى سنة ١٩٤٤ ، وكذلك الجمارك — وهى مورد هام من موارد الدولة — والبرق والهاتف والبريد وشئون العشائر والأمن العام والقوات المسلحة . وفى نهاية ذلك العام ، سلمت هذه المصالح ، باستثناء القوات المسلحة للحكومة الوطنية ، وسمح لها حينئذ بتبادل التمثيل السياسى مع الدول .

وفى صيف ١٩٤٤ ، اعترفت جمهورية الاتحاد السوفييتى بالاستقلال غير المشروط لسورية ولبنان ، ورفضت الاعتراف بأى مركز ممتاز ، فى أى من البلدين ، لأية دولة أخرى .وحذت الولايات المتحدة والصين حذوها، واعترفتا بهذا الاستقلال دون قيد أو شرط .

وفى ربيع ١٩٤٥ ، أعدت العدة لنقل قيادة القوات المسلحة إلى الحكومة الوطنية . وقد أصرّ الفرنسيون على عقد معاهدة مع سورية قبل تسليم الجيش. وكانت شروطهم مجحفة ، إذ أنهم طالبوا بالإشراف على شئون التعليم والسيطرة عل شئون الاقتصاد والاحتفاظ بقواعد عسكرية للقوات البحرية والبرية والجوية ، لأجل غير مسمى . ونزلت القوات الفرنسية فى بيروت ، أثناء عرض هذه الشروط على الحكومة السورية ، للتخويف والإنذار .

عند ذلك عمد الفرنسيون للإرهاب ، وحاولوا حمل السوريين بالقوة على قبول شروطهم ، بقذف المدن الرئيسية بالقنابل . ولحق دمشق النصيب الأكبر من قنابل المدافع والطائرات . وكانت هذه المرة الثالثة ، خلال عشرين سنة ، التى يقصف فيها

AMERICAN UNIVERSITY OF CAIRO

الفرنسيون هـذه المدينة الجميلة ـ قلب الحركة القومية العربية ورمزها ـ بالقنابل . ولما كانت المدينة غير محصنة ولا محمية ، فى جميع تلك الحالات ، كانت الأضرار فادحة فى الأرواح والأموال . وكانت دار البرلمان هدفا للقصف المركز ودمر قسم منهـا . ومن مظاهر العداء الفرنسى لهذه الندوة التى كانت تمثل الشعب السورى ، أنها كانت دائما هدفا لقنابل الفرنسيين كلما نشب صراع بين الشعب والسلطات الفرنسية .

وقد أدى تصرف الفرنسيين هـذا إلى قيام أزمة بين بريطانيا وفرنسا . وفى ٣١ أيار (مايو) ١٩٤٥ ، أخبر تشرشل ، رئيس الوزارة البريطانية ، الجنرال دى جول ، أنه حرصا على سلامة الأمن فى الشرق الأوسط ، أمر القائد الأعلى لقوات الشرق الأوسط بالتدخل فى هذا الصراع العنيف ، ليحول دون إراقة الدماء فى المستقبل . ومنعا لوقوع تصادم بين القوات البريطانيـة والفرنسية ، طلب إلى دى جول أن يأمر القوات الفرنسية بوقف إطلاق النار فورا ، والانسحاب إلى ثكناتهم . وقد أعلنه تشرشل أنه عند ما يتوقف إطلاق النار ، ويعود النظام إلى نصابه ، تصبح الحكومة البريطانية مستعدة للدخول فى محادثات ثلاثية فى لندن .

وقد أثار الإنذار البريطانى الجنرال دى جول ، فاتهم بريطانيا ، فى مؤتمره الصحفى الذى عقده فى الثامن من حزيران (يونيو) ، بالتدخل فى شئون سورية ولبنان ، مما جعل عمل فرنسا أشد صعوبة ، فى تلك المنطقة التى وضعت تحت السلطة الفرنسية باتفاق الطرفين . وتصريحاته عن سورية تثير الدهشة ، وتدل على إخفاقه التام فى فهم الحقيقة . فقد كان دى جول يرى أن سورية ليست وحـدة جغرافية وسياسية شأن مصر والعراق ، بل هى مجموعة من الأقاليم التى يختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافاً كبيرا ، ويقطنها شعب غير متجانس يعتنق أفراده ديانات مختلفة . ولقد رد دى جول على اقتراح تشرشل بالدخول فى محادثات ثلاثيـة ، بأن القضية لا تقتصر على المشرق فقط ، بل إنها تمس القضية العربية بكاملها ، وبما أن

جميع الدول العظمى معنية بهذا الأمر ، وجب أن يدعى إلى مؤتمر خماسى ، لدراسة الموقف على ضوء التعاون الدولى .

وقد صرح تشرشل فى مجلس العموم البريطانى فى الخامس من حزيران ، بأن الحكومة البريطانية تعترف بمركز فرنسا الخاص فى هذه المنطقة ، إلا أنها لا تتعهد بدعمه . وذكر أن العمل الرئيسى لبريطانيا فى الشرق الأوسط ، أن تضمن عدم تعطيل المواصلات . وأوضح كذلك ، أنه عند ما قابل رئيس الجمهورية السورية فى القاهرة ، فى شباط (فبراير) ١٩٤٥ ، أكد بشدة ضرورة الوصول إلى تسوية سلمية مع فرنسا . وأضاف أن دولتى المشرق لم تقتنعا بالدخول فى مفاوضات مع فرنسا ، إلا بعد ضغط شديد من بريطانيا ، وأن الحكومة البريطانية حذرت السلطات الفرنسية من إنزال قواتها ، ولكن دون جدوى .

ولم يعقد المؤتمر الخماسى . إلا أن بريطانيا وفرنسا اتفقتا ، فى مؤتمرين عقدا فى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥ ، فى لندن ثم فى بيروت ، على إعادة توزيع قواتهما فى هذه المنطقة . وأبدت سورية ولبنان اعتراضهما الشديد على أى تدبير يتم دون موافقتهما . وطالبتا بجلاء القوات الأجنبية عن أراضيهما جلاء تاما ، ورفضتا الاعتراف بأى مركز ممتاز لأية دولة فيهما . وأبدت الولايات المتحدة وروسيا اعتراضهما على الاتفاق الثنائى الذى تم بين فرنسا وبريطانيا . وعندما عقدت هيئة الأمم المتحدة دورتها الأولى فى لندن ، فى كانون الثانى (يناير) ١٩٤٦ ، دافعت سورية ولبنان عن حقوقهما دفاعا قويا . وفى شهر آذار (مارس) من العام نفسه ، عقد مؤتمر فى باريس شهدته الدولتان مع بريطانيا وفرنسا . وقرر فيه جلاء جميع القوات الفرنسية والبريطانية عن سورية فى نهاية شهر نيسان (أبريل) وعن لبنان فى نهاية شهر كانون الأول (ديسمبر) ، من سنة ١٩٤٦ . وقد تم الجلاء فعلا فى أوقاته المحددة .

واهتمت الحكومة الوطنية بالإصلاحات الداخلية وعنيت بالتعليم عناية خاصة.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وكانت الخطوة الأولى التى خطتها هى تطهير التعليم من الأثر الفرنسى المتغلغل الذى كان يتجلى فى توجيه عقول الشبان وثقافتهم توجيها خاصا. وفى سيطرة اللغة الفرنسية، حتى على العربية، لغة البلاد. وكان نظام التعليم صورة طبق الأصل للنظام المتبع فى المدارس الفرنسية. وكان الشبان الذين يرغبون فى مواصلة تعليمهم فى الخارج يرسلون إلى فرنسا. وكانت الشهادات الفرنسية، تقدر تقديرا خاصا. وكانت مهنة التعليم وقفا على الموظفين الفرنسيين وعلى السوريين الذين أتموا تعليمهم فى فرنسا. وكانت الأسبقية فى وظائف الحكومة، تمنح للذين تثقفوا ثقافة فرنسية.

وكان الفرنسيون يدركون تمام الإدراك، النفوذ الذى يوطئه لهم هذا النظام التعليمى فى البلاد فعندما فقدوا سلطانهم السياسى تمسكوا تمسكا شديدا بحق الإشراف على التعليم. وفكروا فى عقد معاهدة ثقافية مع سورية، وتقدموا بمقترحات مفصلة للحكومة. وقد نصت المعاهدة المقترحة، على وجوب تمتع اللغة الفرنسية بمركز ممتاز، فتستمر مادة من مواد الدراسة فى المراحل الابتدائية والمتوسطة والتجهيزية والمهنية. ويقدر لها فى الامتحانات العامة، ربع مجموع الدرجات التى تمنح لجميع المواد. ويسمح للطلاب الذين يؤثرون تقديم الامتحانات باللغة الفرنسية، بأداء هذه الامتحانات. وتمنح امتيازات خاصة للمعاهد الفرنسية التى يديرها ويشرف عليها إشرافا مستقلا، مفتش فرنسى عام. وكان هذا يعنى إقامة نظام مدرسى فرنسى، على مستوى النظام الحكومى ولكنه مستقل فى إدارته عن إشراف الحكومة. وفى الوقت نفسه، كان سيصبح التعليم الوطنى تحت إشراف الفرنسيين، لأن المعاهدة اقترحت أن تستشير وزارة المعارف، المندوبين الفرنسيين فى كل ما يختص بنظام التعليم. وطالبت بأن يكون للموظفين الفرنسيين حق الانضمام إلى مجالس التعليم الحكومى ولجانه، والاشتراك فى جميع الامتحانات العامة. وبالاختصار كان الفرنسيون يطمعون فى وضع حماية فرنسية ثقافية. وقد رفضت مطالبهم طبعا.

وامتازت الحركة الوطنية بأنها كانت دائما تعتبر التعليم حجر الزاوية فى الكفاح الوطنى ، وفى تأسيس دولة مستقلة . ففى سنة ١٩٣٦ ، عند ما شعر السوريون بأنهم أصبحوا على عتبة الاستقلال ، وكانت على رأس البلاد حكومة وطنية ، وضع برنامج حيوى للتعليم . وقد تلكأت هذه الحركة عند ما تراجع الفرنسيون عن المعاهدة ، التى وعدت بإنهاء الانتداب ، واستردوا سلطتهم ورقابتهم . ولكن المحاولة الثانية ، التى بذلت سنة ١٩٤٤ ، كانت أشد إحكاما وأبقى أثرا . وقد نسخ القانون الصادر فى كانون الأول (ديسمبر) من ذلك العام جميع القوانين والأنظمة الخاصة بالتعليم والتى صدرت فى عهد الانتداب ، ووضع أساسا جديدا للعمل فى المستقبل .

وعهد إلى ساطع الحصرى بإعادة تنظيم شئون التعليم فى البلاد ، ذلك الرجل الذى يعزى إليه فضل نمو التعليم فى العراق . وقد وضع النظام الجديد ، على أساس التخلص من النفوذ الأجنبى . ولم يفضل لغة أجنبية على لغة أو ثقافة على ثقافة . بل وضعها جميعا على قدم المساواة . وكان هذا النظام شبيها بالنظامين المصرى والعراقى . وقد تحقق المبدأ الديموقراطى بتوحيد المدارس الأولية والابتدائية ، وبهذا أنشئت مدارس موحدة لجميع طبقات الشعب على حد سواء وقد جعل التعليم فى المدارس الابتدائية مجانيا ومنحت مساعدات لعدد كبير من طلبة المدارس الثانوية . واتسع نطاق التسهيلات المدرسية . وعنى بتدريب المعلمين عناية كبيرة ، الأمر الذى أهمله الفرنسيون . والطلبة الذين يعدون لمهنة التدريس ، يتلقون دراساتهم على نفقة الحكومة ، وكذلك الطعام والمسكن ، كما هو الشأن فى العراق ومصر . وأخضعت المدارس الحرة ، الأجنبية والوطنية لأشراف وزارة المعارف ، وأصبحت اللغة العربية وتاريخ العرب وجغرافية البلدان العربية مواد تدرس فى جميع المدارس وفقا لمنهاج وزارة المعارف . ولم تعف أية مدرسة من تأدية الامتحانات العامة .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وقد نظر الفرنسيون إلى هذه الاصلاحات التعليمية بكره شديد . وفى الصراع الفرنسى السورى سنة ١٩٤٥ ، كان تحرر السوريين الثقافى أحد العوامل الرئيسية التى أثارت الفرنسيين وحملتهم على قصف دمشق بقنابل المدافع والطائرات . وفى خريف تلك السنة ، رفضت المدارس الفرنسية أن تتقيد بالتعليمات التى تقضى بوجوب تسجيل المدارس الحرة ، الوطنية والأجنبية ، فى وزارة المعارف ، ولذا بقيت مغلقة . وهكذا واجهت الحكومة أزمة خطيرة ، إذ كان عليها أن تهيىء المدارس لزهاء عشرين ألف طالب ، كانوا يدرسون فى المدارس الفرنسية فى العام الدراسى السابق . ولقد واجهت الحكومة والمدارس الحرة هذه الأزمة بحماسة وبطريقة فعالة . فخصصت ميزانية إضافية ، وفتح عدد كبير من المدارس الابتدائية والثانوية فى جميع أرجاء البلاد . ووسعت المدارس القديمة ، وأضيفت إليها صفوف جديدة . ومنحت المدارس الخاصة إعانات مالية ، لتوسيع نطاقها ، ولتنشىء معاهد جديدة . وهكذا حلت الأزمة حلا موفقا .

ويتضح لنا من مقارنة عدد التلاميذ فى عهد الانتداب وعهد الإدارة الوطنية ، مدى التوسع الذى تم فى نظام التعليم العام ، فى السنوات القليلة الماضية . ففى العام الدراسى ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ ، وهو آخر عام للحكم الفرنسى فى سورية ، كان عدد التلاميذ فى جميع مدارس الحكومة ٧٥٠٠٠ طالب . وفى خلال سبع سنوات ـ أى فى العام الدراسى ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ ـ بلغ عددهم أكثر من ٢٠٠٠٠٠ طالب . وكان عدد الطلاب الذين سجلوا فى ذلك العام ، فى جميع المدارس الرسمية والخاصة ، ٢٦٥،٧٠٠ ألف . وأعيد تنظيم الجامعة السورية ووسعت كلياتها ، وازداد عدد طلابها من ٤٥٠ طالبا فى العام الدراسى ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ ، إلى ٢٢٠٥ طلاب فى ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ . وأضيفت إليها أربع كليات جديدة هى : كلية العلوم وكلية الآداب وكلية الهندسة والمعهد العالى للمعلمين الذى أصبح فيما بعد كلية المعلمين وقبل إضافة هذه الكليات

كانت الجامعة تضم كلية الحقوق وكلية الطب ، وتشمل فروع الطب والصيدلة وطب الأسنان والتمريض . وأصبحت ميزانية المعارف فى العام الدراسى ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠، ٦٩٧،٠٠٠ ، ٢٤ ليرة سورية ، أى أكثر من ١٧ ٪ من الميزانية العامة[١] .

وهنالك اتجاه قوى الآن ، نحو جعل التعليم متيسرا للجميع . وهدف وزارة المعارف أن تنشئ مدرسة ابتدائية فى كل قرية ، مهما كانت صغيرة ونائية . وقد أعدت صفوف لمحو الأمية ونشر المعرفة فى جميع أنحاء البلاد ، وطلب إلى جميع المواطنين المثقفين أن يسهموا فى التعليم فى هـذه الصفوف . وتعبئ سورية الآن سكانها لحملة تشنها على الجهل .

وقد بذلت بعض المحاولات للإصلاح الاقتصادى . فوافق البرلمان على اعتماد مبلغ من المال للنهوض ببرنامج استثنائى للإصلاح الزراعى . وقد جاءت إلى البلاد بعثة زراعيـة أميركية ، أرسلتها وزارتا الخارجية والزراعة الأميركية ، بناء على طلب الحكومة السورية ، فأثنت على برنامج الحكومة للإصلاح الزراعى ، وتقدمت ببعض التوصيات والاقتراحات لزيادة التنمية الزراعية . وقد عهد إلى شركة جب الهندسية البريطانيـة أن تقوم بدراسة للموارد الاقتصادية ولإمكانات البلاد . وقد نفـذت بعض مشروعات الرى الصغيرة ، وبعض أعمـال الإصلاح الزراعى التى شرع فى تنفيذ بعضها فى زمن الانتداب . واشتملت أعمال الأشغال العامة على تعبيد الطرق وبناء المدارس الكثيرة وبعض المستشفيات والعيادات وأبنية الحكومة .

---

(١) وفى سنة ١٩٥٣ ـ ٥٤ بلغ عدد التلاميذ فى مدارس الحكومة ٣٨٣ ، ٢٧٩ ، وبلغ مجموع التلاميذ فى جميع المدارس الحكومية والخاصة ٦٤٠ ، ٣٧٩ . وكان هؤلاء موزعين على النحو التالى : ٤٣٨ ، ٣١٩ فى المدارس الابتدائية ، و ٥٤٠٤٠ فى المدارس الثانوية ، و ١٩٧٦ فى المدارس الفنية و ١٢٢٦ فى دور المعلمين و ٢٩٦٠ فى الجامعة السورية . وكان فى المدارس الزراعية التى تديرها وزارة الزراعة ٦١٤ طالبا .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وقد بنيت بعض الأبنية العامة على طراز عربى مجدد يمتاز بالبساطة والجلال ، ويتفق مع تقاليد العمارة فى البلاد .

وقد أزيل نظام الحكم الذى يعزى إليه فضل تحقيق الاستقلال ، بعد ست سنوات من قيامه . وكان الإخفاق فى حرب فلسطين هو السبب الذى أثار ضباط الجيش وأفراد الشعب الذين عضدوا الانقلاب العسكرى . فقد أرسل الجيش إلى فلسطين دون استعداد أو تجهيز . ومع الاعتراف بضيق الوقت ـ إذ أنه حين نشبت حرب فلسطين لم يكن قد مضى على تسلم الحكومة للجيش سوى ثلاث سنوات ـ والمشكلات العديدة التى كانت تلح على الحكومة ، لم يلق الجيش العناية اللازمة . فلم يكن عدده يربى على عدد الشرطة . وكانت معداته من الأسلحة الخفيفة ، فقد كان معدا لحفظ الأمن الداخلى ، ولم يكن مستعدا للاشتراك فى حرب فلسطين ، التى لم يكن مندوحة منها .

وقد حدث الانقلاب فى ٣٠ من آذار (مارس) ١٩٤٩ ، على يدى حسنى الزعيم رئيس أركان حرب الجيش . وتم دون إراقة دماء . ولم تثر إزالة النظام القائم شيئا من الدهشة ، ولم تبعث الأسف فى النفوس . ذلك أن الخيبة الناجمة عن الهزيمة فى فلسطين ، والخوف والقلق من المستقبل ، جعلا الناس يرحبون بتغيير نظام الحكم ، ولا سيما إذا رافق ذلك تقوية الجيش للدفاع عن أرض الوطن .

أما الرئيس شكرى القوتلى فقد كان له تاريخ مجيد فى النضال الوطنى فى العهد العثمانى وفى عهد الانتداب . ونزاهته ووطنيته فوق كل شبهة ولكنه كان محاطا بجماعة لم يكن الشعب يطمئن إليها . وكانت هذه الفئة الحاكمة تعتقد أنها هى التى صنعت الاستقلال ، ولذا أصبح من حقها أن تجنى ثمرات الحكم . وقد ازداد تذمر الشعب من حصر السلطة فى أيدى فئة قليلة من الناس ، ومن سوء الإدارة بوجه

عام ، عند ما سعى القوتلى إلى إعادة انتخابه لرياسة الجمهورية للمرة الثانية . فقد نص الدستور بوضوح على أنه لايسمح لرئيس الجمهورية بترشيح نفسه مرة أخرى للرياسة، قبل مضى خمس سنوات على انتهاء مدته ، وذلك خشية أن يتمسك الرئيس بمنصبه ويبذل كل ما يستطيع للاحتفاظ به .

وكان لحركة الزعيم هدفان : تقوية الجيش ، وإصلاح أداة الحكم . وقد أدخلت إصلاحات كثيرة فى الأيام الأولى لهذا العهد . منها وضع قانون مدنى جديد ومنح المرأة حق الانتخاب . إلا أن السلطة رشحت حسنى الزعيم ، فانحرف عن أهداف الانقلاب وروحه . فعمد إلى تنصيب نفسه رئيسا للدولة وانهمك فى مظاهر العظمة .

وكانت هذه الحركة فى روحها وتنفيذها ،خالصةمن أى توجيه أجنبى . ولكن عندما تمت ، حاول كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة أن تستغلها لتحقيق أهدافها الخاصة . فكانت الولايات المتحدة حريصة على عقد الصلح بين سورية وإسرائيل . وكانت بريطانيا تعمل خفية لاتحاد سورية والعراق ـ مشروع الهلال الخصيب ـ تحت التاج الهاشمى ، ذلك المشروع الذى كان يقاومه شكرى القوتلى ويصر على بقاء النظام الجمهورى . وظنت فرنسا ، التى اتجه إليها الزعيم ، أن الوقت مناسب لاسترجاع مركزها المفقود فى سورية . وقد كان الزعيم فى سياسته الخارجية وفى علاقاته مع الدول العربية مضطربا غير متزن. إذ استهل عهده بالتودد إلى العراق والأردن ،مما شجع أنصار مشروع الهلال الخصيب . ولكنه سرعان ما ترك المعسكر الهاشمى ، واتجه نحو مصر والسعودية . وكان تهور حسنى الزعيم وعدم اتزانه ، فضلا عن استبداده فى الحكم ، سببا فى انفضاض أعوانه من رجال الجيش عنه ، وكذلك أولئك الذين رحبوا بعهده ، وأملوا فيه خيرا . ولقد قتل فى الانقلاب العسكرى الثانى فى آب (أغسطس) من ذلك العام . وأجريت الانتخابات للجمعية التأسيسية فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) . واجتمع المجلس فى شهر كانون الأول (ديسمبر)،

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وكان على وشك إعلان الاتحاد مع العراق ، عندما حدث الانقلاب الثالث ، الذى قام به العقيد الشيشكلى ، فأوقف المشروع .

ولقد صرح رجال الانقلاب الثالث ، إنهم يهدفون إلى تحقيق المثل والغايات التى قام من أجلها الانقلاب الأول على رجال السياسة . وقد أعلن القائمون عليه ، إنهم سيحافظون على استقلال سورية ، وسيبقون على النظام الجمهورى وإنهم سيسيرون بالبلاد على نهج تقدمى .

وكان الدستور الذى أقرته الجمعية التأسيسية والذى وضع موضع التنفيذ ابتداء من ايلول (سبتمبر) ١٩٥٠ ، موافقا للاتجاه التقدمى الذى مضت فيه البلاد منذ الانقلاب الأول . وهو يؤكد مبدأ قيام حكومة الشعب من الشعب لصالح الشعب . ويؤكد أيضا أهمية الفرد ، ولهذا يعنى بتهيئة جميع الوسائل للنهوض به ، كما يؤكد المسئولية الفردية فى المحافظة على الحقوق التى يمنحها الدستور وفى الإبقاء على النظام الجمهورى وفى الذود عن أرض الوطن . وهو دستور اشتراكى يهدف إلى خلق مجتمع محصن ضد الخوف والفقر والمرض والجهل حيث تسود العدالة الاجتماعية وينتفع الجميع بخيرات البلاد . ولكى توزع الثروة العامة توزيعا عادلا وتستغل استغلالا حسنا ، وضعت شروط لتملك الأراضى واستغلالها . ومساحة الأرض التى يمكن تملكها يحددها القانون . وتسقط حقوق التملك إذا لم تستغل الأرض خلال مدة يحددها القانون . وتشجع الملكيات المتوسطة والصغيرة ، ويعمل على تنميتها. وتقسم أراضى الدولة أقساما يمكن الانتفاع بها . وتوزع على الفلاحين الذين لا يمتلكون أرضا ، لقاء مبالغ ضئيلة تدفع على أقساط . ويحمى القانون الفلاح ، ويرفع مستوى معيشته بوساطة نشر التعليم وتوسيع الحركة التعاونية ، وإقامة المنازل الصحية ، وبناء القرى النموذجية . كما تحمى الدولة العمل . ويعتبر العمل حقا لكل مواطن ، ويعدّ واجبا شريفا . وتهيئ الدولة العمل وتجعله مضمونا لكل مواطن ، وذلك بوساطة

تنمية الاقتصاد الوطنى و إحكام خططه . وتكوين النقابات والاتحادات مباح فى حدود القانون . ويحق للدولة أن تؤمم كل مؤسسة لها مساس بالمصلحة العامة، لقاء تعويض مناسب . وتفرض الضرائب على أساس تصاعدى . والتأمين الاجتماعى حق للفرد على الدولة . ويعد نظام للضمان الاجتماعى تساهم فى تمويله الدولة والأفراد والمؤسسات الاقتصادية . وترعى الدولة صحة المواطنين ، وذلك بتقديم العناية الصحية المناسبة . والتعليم حق لكل مواطن . وهو إجبارى فى المرحلة الابتدائية . والتعليم بأنواعه : الابتدائى والثانوى والمهنى مجانى فى مدارس الحكومة. وعند إعداد ميزانية المعارف، تعطى الأسبقية لنفقات التعليم الابتدائى والثانوى والمهنى ، بقصد تحقيق المساواة بين جميع السوريين ، وذلك بتعميم المراحل التعليمية الأولى .

وأثناء إعداد الدستور حصل خلاف حول النص على تحديد دين الدولة ، وانتهى بحل موفق وهو إعادة تضمين العبارة الموجودة فى دستور سنة ١٩٣٠ والتى تنص على أن الإسلام دين رئيس الجمهورية . وبالنص على وجوب التمسك بمثل الإسلام ، دين أغلبية الشعب ، وعلى بناء الدولة الجديدة على أساس خلقى وطيد ، يتفق مع مبادىء الإسلام والأديان السماوية الأخرى ، وعلى مكافحة الإلحاد والانحلال الخلقى .

والدستور السورى هذا كان أول دستور عربى ، عمل ونفذ فى ظل حكومة عربية مستقلة . وهو يعبر عن الاتجاه الجديد للقومية العربية الذى يؤكد ضرورة إجراء الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية .

وبعد صدور الدستور ، حولت الجمعية التأسيسية إلى مجلس نيابى ، كان لحزب الشعب الأغلبية فيه . وقد استمر التعاون الظاهرى بين هذا الحزب والجيش مدة من الزمن . وكان الجيش يملك السلطة الفعلية ، خلف ستار من الحكومة الدستورية ، كما كان شأنه منذ سنة ١٩٤٩ . ولكن سوء الظن المتبادل ، دفع قادة الجيش إلى

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

أن يستولوا على الحكم شكلا وموضوعا . وحدث هذا الانشقاق سنة ١٩٥١ . فاستقال الرئيس الأتاسى ، وأصبح الزعيم سلو رئيسا للحكومة ، وحل المجلس النيابى ، وعطل الدستور .

وقد صدق دستور جديد عن طريق الاستفتاء الشعبى فى شهر يوليه سنة ١٩٥٣ ، وانتخب الشيشكلى رئيسا للجمهورية . وقد احتفظ الدستور الجديد بالكثير من مبادىء دستور عام ١٩٥٠ ، ولكنه غير نمط الحكومة من الحكم الوزارى البرلمانى إلى الحكم الرياسى الذى يجعل الوزراء مسئولين تجاه الرئيس .

وفى شهر اكتوبر سنة ١٩٥٣ أجريت انتخابات برلمانية قاطعتها الأحزاب السياسية وقاطعها الكثيرون من المرشحين المستقلين . وبعد فترة من القلق المستتر وقع انفجار شعبى فى مطلع سنة ١٩٥٤ ، فاستقال الشيشكلى وأعيد السيد هاشم الأتاسى إلى رياسة الجمهورية واستدعى البرلمان الذى كان قد حل سنة ١٩٥١ .

ومما خفف المساوىء التى ترافق الحكم العسكرى عادة ، أن رجال الجيش تقدميون ، متحمسون لإجراء الإصلاحات الاجتماعية ، حريصون كل الحرص على جعل الجيش أداة فعالة للدفاع عن البلاد . وهم ، بوجه عام ، فئة مخلصة . وقد تميز جهاز الحكم فى سورية منذ تولى الجيش الحكم ، بالنزاهة فى إدارة الشئون العامة ، والنشاط ، والشعور بالمسئولية .

ومع أن السلطات العسكرية عطلت الدستور ، فإنها كانت تعمل على تنفيذ بعض مبادئه الهامة كتوزيع أراضى الدولة الواسعة على الفلاحين المعدمين . وينص القرار الصادر فى تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٥٢ ، على أن كل سورى بلغ الثامنة عشرة من عمره يحق له أن يمتلك قطعة من الأرض لا تتجاوز مساحتها خمسين هكتارا من الأراضى البور التى لا تروى بوساطة جر المياه إليها من الأنهار أو الترع ، أو عشرة هكتارات من الأراضى التى يمكن ريها بهذه الطريقة . ويتعهد المستملك

بأن يفلح الأرض بنفسه ، وليس له أن يبيع الأرض أو يتصرف بها خلال خمسة عشر عاما من حصوله عليها ، ولكنه يستطيع أن يرهنها للبنك الزراعى .

وجرى إصلاح مالى من شأنه زيادة الضرائب ، وإدخال بعض الضرائب المباشرة الجديدة ، فرفعت نسبة ضريبة الدخل ، وفرضت ضرائب تصاعدية على التركات ، وبهذا جعل نظام فرض الضرائب موافقا لمبدأ فرض الضريبة حسب القدرة .

ويظهر الاتجاه الاشتراكى أيضا فى تأميم بعض المنافع العامة ، كشركتى المياه والكهربا . ولما كانت المنافع العامة تقتضى تبعات اجتماعية ، فإنه من المرجح أن الشركات المؤممة ، لا الشركات الخاصة التى تسيطر على أصحابها الرغبة فى جنى الأرباح ، هى التى تضمن مصالح الجمهور .

وصدر مرسوم تشريعى هام فى آذار (مارس) ١٩٥٣ ، بتقرير نظام نقدى جديد ، وبإنشاء بنك مركزى لتنظيم المعاملات المالية وليكون وكيلا عن الحكومة ، وليساعد على توفير المال اللازم للزراعة والصناعة ومشروعات الإنماء الأخرى . وسيحل هذا البنك محل بنك سورية ولبنان ، وهو مؤسسة فرنسية كان لها سيطرة كبيرة على اقتصاديات سورية . والبنك المركزى يحرر سوريا من الإشراف الاقتصادى الفرنسى ومن النفوذ السياسى الناجم عنه ، إذ كانت سياسته خاضعة لمصالحه ومصالح الحكومة الفرنسية . وقد قوبلت هذه الخطوة الجديدة التى مهدت لتحرر سورية الاقتصادى بترحيب وحماسة فى أوساط الحكومة والشعب ، واعتبرت معادلة فى الأهمية لجلاء القوات الأجنبية سنة ١٩٤٦ الذى كان فاتحة الاستقلال السياسى للبلاد [1] .

وأعد برنامج قوى للتنمية الاقتصادية . وقد أعطيت الأسبقية لتوسيع الزراعة

---

(١) افتتح مصرف سوريا المركزى فى أول آب سنة ١٩٥٦ .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

التى تعتبر العمود الفقرى لاقتصاديات البلاد . إذ أن ٧٠٪ من سكان البلاد يعتمدون فى معيشتهم عليها .

وأن الحكومات المدنية التى تعاقبت بعد زوال الحكم العسكرى حرصت على الاستمرار فى هذه السياسة العمرانية التقدمية .

والإمكانات الزراعيـة فى سورية عظيمة . وهى تختلف عن مصر التى تعتبر مشكلتها الأولى فى قلة الأراضى الزراعية . فى حين أن مشكلة سورية ناجمة عن قلة العمال الزراعيين . ولم تستخدم الآلات الزراعية إلا حديثا . وسبب انخفاض نتاج الفرد والوحدة الزراعية ، هو أن معظم الفلاحة تعتمد على الإنسان وماشيته . على أن هنالك سببا آخر لانخفاض النتاج ، هو نظام المزارعة إذ أن ما يقرب من نصف الأرض يزرعه الفلاحون الذين يشاركون الملاك فى المحصول ، بينما الملاك يعيشون فى المدن وهم لا يعرفون شيئا عن الزراعة ولا يبذلون لها أدنى عناية .

ومعظم الأراضى الصالحة للزراعة تعتمد فى ريها على المطر . وتزرع الحبوب ، وخاصة القمح ، فى ٧٥٪ من هذه الأراضى ، مما يجعل سورية منطقة هامة لإنتاج القمح . ولاتحتاج سورية لتوسيع الأرض الصالحة للزراعة ، بقدر ما تحتاج إلى زيادة الإنتاج وذلك بالتوسع فى رى الأراضى التى تستقى من المطر . ومن الممكن تنمية موارد الرى تنمية كبيرة . وفى الوقت الحاضر لا يستغل بطريقة كافيـة إلا الأنهار الصغرى . ولنهر بردى الذى يروى غوطة دمشق ، شبكة من القنوات التى أنشئت منذ مئات السنين . ولم يلحق نهر العاصى سوى تحسين جزئى ، أما الفرات فإنه ما يزال بحاجة إلى التحسين .

ولقد تقدمت الحكومة السورية إلى البنك الدولى للإنشاء والتعمير طالبة قرضا للقيام بمشروعات إصلاحية تشمل تجفيف منطقة الغاب ، وهى مستنقعات منخفضة تكونت عن نهر العاصى ، وضبط مياه الخابور ، وهو أحد روافد الفرات ، و بناء

قناطر على الفرات لتوليد القوى الكهربية ، ومشروعات للرى ومحطة لتوليد الكهربا على نهر اليرموك فى جنوب سورية ، وتوسيع ميناء اللاذقية . وقد زارت بعثة من البنك الدولى سورية ودرست المشروعات واقترحت برنامج لخمس سنوات .

إن مشروع الغاب قد جرى تلزيم مراحله الأولى سنة ١٩٥٥ ، ويقدر أن ينجز المشروع بكامله خلال عشر سنوات ، فيتم بذلك استصلاح نحو ٤٠ ألف هكتار من الأراضى الجيدة والمروية ريا دائما . أما ميناء اللاذقية فقد بوشر بتوسيعه سنة ١٩٥٣ ، وينتظر أن يتم العمل سنة ١٩٥٧ .

أما منطقة الجزيرة التى تقع شمالى شرقى سورية ، والتى يخترقها نهر الفرات ، فلم يبدأ الانتفاع بها إلا حديثا . وهى إقليم سهلى متسع ، وتربتها خصبة عميقة . ولقد يؤدى إنشاء مشروعات رى عظيمة إلى استغلال ٣٠٠،٠٠٠ ـ ٤٠٠،٠٠٠ هكتار من الأرض البكر ، استغلالا واسعا .

ومشاركة الحكومة فى إصلاح أرض الجزيرة ما تزال فى طور الإعداد . وإلى أن تقام مشروعات الرى الكبيرة ، ستظل مشروعات الإصلاح الزراعى فى الجزيرة ، تعتمد على جهود الأفراد . وقد أقيمت المضخات لدفع المياه الجوفية ومياه الأنهار لتستغل فى الرى . واستعملت الجرارات فى قلب التربة . وأخذ القطن يحل محل القمح الذى كان المحصول الأول للتصدير . والقطن ليس جديدا على التربة السورية . فقد كان يزرع فيها فى القرون الوسطى على نطاق واسع ، وكان يصدر إلى أوربا من الموانىء السورية الكبرى . وكانت أجود أنواعه تزرع فى منطقة حلب وحماة [1] . والإقبال العظيم على القطن فى العصر الحاضر ، جعل زراعته مغامرة رابحة . ولقد زحف الناس زرافات ووحدانا على الجزيرة ، لاستصلاح الأرض

---

(١) Heyd, W. op. cit., II, 612-613

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

واعدادها لزراعة القطن ، على أمل أن يثروا إثراء سريعا ، مع أن بعضهم لم تكن له عناية ما ، أو خبرة ولو ضئيلة بشئون الزراعة .

وكادت هذه المغامرة الفجة المضطربة فى زراعة القطن ، أن تؤدى إلى كارثة . ولتلافى تكرار الخسائر التى حدثت لانعدام الرقابة والتخطيط ، أنشأت الحكومة مكتب القطن ، ليوجه زراعة القطن ، وذلك بتوفير البذور المنتقاة ، ولتعزيز وسائل مقاومة الآفات والأمراض ، وإنتاج الأصناف المطلوبة فى الأسواق العالمية . وقد ارتفع إنتاج القطن ارتفاعا كبيرا فبلغ سنة ١٩٥٥ أربعة وثمانين ألف طن من القطن المحلوج ، صدر منه ما قيمته ٢٠٠ مليون ليرة سورية .

والأرز أيضا إحدى الغلات الآخذة فى الازدهار ، ويزرع على الأكثر فى الجزيرة . وفستق العبيد (الفول السودانى) من الغلات التى تبشر بالخير نظرا لحاجة الأسواق العالمية إلى زيته ، والزيتون هو المصدر الرئيسى للزيت فى سوريا . حيث تعتبر زراعة أشجار الزيتون ، إحدى الزراعات الرئيسية التى يعنى بها السكان فى سوريا . والدخان أيضا إحدى الغلات الهامة ، ويزرع فى سفوح اللاذقية . وزراعة الفواكه ، التى تكاد تقتصر على منطقة دمشق ، يمكن أن تتسع بتعميم مشروعات الرى . وهنالك حاجة لتحسين أنواعها وخاصة فيما يتعلق بالتعليب والحفظ .

وتربية المواشى — وهى متصلة اتصالا وثيقا بالزراعة — يزاولها البدو الرحل منهم والمقيمون . وقد أخذ البدو ، الذين يبلغ عددهم حوالى ٢٠٠،٠٠٠ ، يندمجون تدريجيا فى بقية السكان . وهذا أمر طبيعى نتيجة لاستصلاح منطقة الجزيرة . وهى خطوة مستحبة نظرا للحاجة الماسة إلى الأيدى العاملة فى تلك المنطقة .

ولم يعتن بعد الاعتناء الكافى بتربية المواشى ، وهى مصدر هام من مصادر الثروة الزراعية . وفى مواسم الجفاف والبرد القارس ، يموت سنويا مليون رأس . ولهذا فالحاجة ماسة جدا لإمدادها بالغذاء الصالح والماء والمأوى والعناية الصحية .

والأراضى الضعيفة التى تستغل الآن فى زراعة الحبوب استغلالا لا يعود إلا بثمرات ضئيلة ، يمكن أن تحول إلى مراع وذلك بزراعتها بالكلأ والشجيرات مما يعود بفائدة أكبر (١) .

أما الصناعة فلم تقم بعد على أسس وطيدة . وقد شهدت بعض الانتعاش أثناء الحرب ، عندما نقصت الواردات نقصا عظيما. وقد وظف المال الذى تجمع أثناء الحرب فى إقامة بعض المصانع وتجهيزها . فأنشىء مصنع كبير للزجاج خارج دمشق ، إلا أن قلة الأسواق يحمل المصنع على أن ينتج جزئيا . وأنشىء مصنع كبير للسكر والجلوكوز فى حمص . وقد كان من الواجب أن يسبق إنشاءه التأكد من إمكان زراعة السبنجر ، إذ أن هذا المصنع يعتمد إلى حد كبير على السكر الخام المستورد . وإمكانيات صناعة دبغ الجلود تزيد عما يمكن أن يستوعبه السوق . ومن عيوب الصناعة السورية ، أن المصانع الكبيرة أقيمت فيها، قبل أن تدرس إمكانية تسويق المنتجات . وثمة عيب آخر وهو إقدام بعض من لا خبرة عندهم ، من أصحاب الثروات التى تجمعت أثناء الحرب ، على اقتحام حقل الصناعة ، وبهذا خلقت منافسة غير سليمة، من شأنها القضاء على الصناعات الناشئة. وصناعة المنسوجات أكثر الصناعات أهمية ، وقد استقرت على أساس وطيد . وهى تتركز فى حلب ودمشق . وتعليب الفواكه والخضراوات يسد حاجة السوق المحلى ، ويصدر الفائض منه . وإنتاج الزيوت النباتية والصابون والسجائر والأسمنت ، يكفى حاجة البلاد . وصناعة حلج الأقطان وتعبئتها آخذة فى التوسع .

وبينما تتجه السياسة الاقتصادية للدولة نحو مساعدة الصناعة وذلك بحمايتها ،

---

(١) للتوسع فى دراسة الإمكانات الاقتصادية فى سورية راجع : Sir Alexander Gibb : The Economic Development of Syria وتقرير البعثة الزراعية الأميركية (واشنجطن ١٠٤٧) وإنماء سورية الاقتصادى : تقرير البعثة التى شكلها المصرف الدولى لإعادة العمران والإنماء الاقتصادى بناء على طلب الحكومة السورية .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

نرى أنها فى الوقت نفسه حريصة على أن تقوم الصناعة بالتزاماتها نحو المستهلك والدولة ، بالمحافظة على مستوى مقبول والبيع بأسعار مناسبة .

وما زالت الأشغال اليدوية التى اشتهرت بها سورية على ممر العصور ، تكون جزءا هاما من النتاج الصناعى . وحماة وحمص ودمشق هى مركز صناعة الأنوال اليدوية ، التى تنتج قدرا كبيرا من المنسوجات . وهذه المنسوجات من نوع أجود من الأقمشة التى تصنعها الآلات ، إلا أنها أغلى ثمنا . وما زالت دمشق تحتفظ ببعض الصناعات الدقيقة : كالحفر على الخشب والمعادن والتطعيم ونسج الحرير الجميل الموشى . وفى سوريا طبقة كبيرة من الصناع الفنيين الذين ورثوا المهارة عن أجدادهم .

ومن معوقات الصناعة ارتفاع كلف الطاقة المحركة . فليس فى سورية فحم أو حطب أو بترول . ولكن أنابيب البترول الآتية من العراق ومن الجزيرة العربية تخترقها فى طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط . ولأجل تأمين الحصول على المقدار الكافى من البترول بأثمان مناسبة ، اشترطت سورية فى اتفاقها مع شركة التابلاين ، أن تزودها بـ ٢٠٠،٠٠٠ طن من الزيت الخام بالأسعار العالمية سنويا ، إذا طلبت سورية ذلك . وهنالك مشروعان قيد الدرس لتوليد القوى الكهربية . أحدهما هو سد يوسف باشا على الفرات ، ويمكنه أن يمد مدينة حلب والمدن الواقعة فى منطقة الفرات بالطاقة الكهربية ، والثانى هو مشروع اليرموك الذى يوفر لمنطقة دمشق القوة والإضاءة .

وكانت الحركة العمالية بطيئة فى تكوينها وقد تأخر إصدار التشريع الخاص بالعمل . ولم ينفذ قانون العمل الشامل إلا فى سنة ١٩٤٦ . وقد احتاط التشريع الحالى للحاجات الأساسية للعمال . ونظم القانون استخدام النساء والأطفال ، وحدد ساعات العمل ، ونظم الإجازات المرضية وأجرها ، والتأمين ضد الحوادث والأمراض

الناشئة عن المهنة . وقد شكلت اللجان للتحكيم والمصالحات وتحديد الحد الأدنى للأجور . ويعترف القانون بالنقابات . ويشمل الاتحاد العام جميع النقابات . ومما أعاق نمو حركة التنظيم العمالى ، أن أكثر العمال يشتغلون فى « ورش » صناعية صغيرة ، تستخدم كل منها عددا صغيرا منهم ـ وأحيانا عاملا واحدا فقط ـ وفى هذه الحالات تعتمد العلاقة بين صاحب العمل والعامل على الصلات الشخصية أو العائلية .

ويتوقف الاقتصاد السليم فى سورية على بلوغ الحد الأعلى فى الإنتاج الزراعى، وعلى تنمية الصناعات الزراعية . وقد أدت السياسة الاقتصادية الحديثة ، التى تقوم على تنظيم الاقتصاد ، واستغلال موارد البلاد استغلالا تاما ، إلى زيادة الدخل القومى زيادة ملموسة ، ولأول مرة يتعادل ميزان سورية الاقتصادى تعادلا مرضيا .

وفى لبنان كان الشعب أقل تبرما بالانتداب منه فى سورية . ولبنان فى حدوده الحاليةأثر من آثار الانتداب الفرنسى . والمساحةالتى تشملها الجمهورية اللبنانية اليوم ، كانت حتى تسويات الحرب العظمى الأولى تنتمى إلى ثلاث وحدات إدارية . إحداها كانت ولاية بيروت التى كانت تضم مدينة بيروت وطرابلس وصيدا وصور . وكانت تمتد إلى الجنوب فتشمل مدن نابلس وعكا وحيفا ، وفى الشمال كانت تصل إلى الإسكندرونة . والثانية هى ولاية سورية وكانت تضم من أراضى الجمهورية اللبنانية الحالية ، البقاع وبعلبك ورياق . والثالثة كانت متصرفية جبل لبنان ، وكانت تدارمنذ سنة ١٨٦٠ ، بنظام خاص وضعته الدولة العثمانية بالاتفاقمع الدول العظمى ، وصار لبنان بعده يتمتع بحظ عظيم من الحكم الذاتى .

ومع أن نظام الانتداب فى لبنان لم يلق من المقاومة ما لقيه فى سورية ، فإنه كان بغيضا إلى النفوس ، وكثيرا ما حملت عليه الصحافة اللبنانية بعنف وشدة . ومنح

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

لبنان عقب الثورة السورية دستورا ، واعترف به جمهورية لها رئيس ومجلس نيابى . وأثناء المفاوضات التى سبقت المعاهدة الفرنسية ـ السورية سنة ١٩٣٦ ، عقدت معاهدة بين فرنسا ولبنان ، أنهى بموجبها الانتداب . وقد رفض البرلمان الفرنسى التصديق على هاتين المعاهدتين . وقد أعلن الجنرال كاترو استقلال لبنان فى حزيران ١٩٤١ ، عند ما كانت القوات البريطانيـة وقوات فرنسا الحرة تتأهب لاختراق حدود لبنان الجنوبية لطرد حكومة فيشى . وأعلن ثانية فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) عند ما تألفت الحكومة اللبنانية الجديدة .

وأجريت أول انتخابات حرة تحت إشراف الحكم الفرنسى فى خريف ١٩٤٣ . وكانت نتيجتها استبعاد المرشحين الموالين لفرنسا ، واختيار أغلبية أخذت تطالب بالاستقلال وتدعو إلى زيادة التعاون مع الدول العربية الأخرى ، وأول مشروع بحثه المجلس النيابى ، هو تعديل الدستور ليصبح أكثر ملاءمة لوضع لبنان المستقل . وقد عارضت السلطات الفرنسية ، إجراء هذه التعديلات الأساسية فى الدستور ، التى كان المجلس على وشك إقرارها . ولما عجزت عن إقناع المجلس بالعدول عن هذه التعديلات الدستورية ، ألقت القبض على رئيس الجمهورية ، ورئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء . وقد أثار هذا العمل الاستبدادى اللبنانيين عامة ، كما هز الرأى العام فى العالم العربى . ولما كانت بريطانيا هى المسئولة عن حماية الأمن فى هذه المنطقة خلال فترة الحرب ، وقفت موقفا حازما من فرنسا ، وساندتها فيه الولايات المتحدة فاضطرت فرنسا إلى التراجع . وأطلق سراح رئيس الجمهورية والوزراء ، واتخذ لبنان سبيله نحو الاستقلال .

وقد أصبح وجه لبنان العربى أكثر جلاء بعد الاستقلال . وكان الانتداب قد سعى جاهدا لنشر اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية ، لكى يضمن ولاء اللبنانيين لفرنسا . واعتبرت الفرنسية لغة رسمية إلى جانب اللغة العربيـة . وكان القضاة

والمحامون يستعملونها فى المحاكم ، حتى ولو كان المتقاضون لا يفهمون كلمة واحدة منها . وحتى أعضاء المجلس النيابى ، كانوا يتناقشون باللغة الفرنسية أحيانا . وبعد زوال الانتداب ، أصبحت العربيـة اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد وصارت جميع المعاملات العامة تجرى بلغـة البلاد . وساهم لبنان بنصيبه فى التعـاون العربى ، عن طريق الجامعة العربيـة ، وسعى سعيا حثيثا لتوطيد التعاون الاقتصادى بين الأقطار العربية. وفى حقل العلاقات الدولية شارك لبنان مشاركة فعالة فى إعداد ميثاق حقوق الإنسان ، وترأس مندوب لبنان ، المجلس الاقتصادى والاجتماعى لمنظمة الأمم المتحدة ، ولجنة حقوق الإنسان .

وطرأ بعض التقدم على نظام التعليم . فقد كان التعليم الرسمى مهملا أشد الإهمال فى عهد الانتداب . ففى سنـة ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ، وهى السنة الأولى للانتداب ، كان عدد التلاميذ فى المدارس الحـكوميـة ٢١،٠٠٠ تلميذ . وقد تناقص هـذا العدد حتى بلغ فى العام الدراسى ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ ـ ٦٧٣٣ طالبا . وفى العام الدراسى ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ ، وهو آخر أعوام الانتداب ، لم يزد عـدد الطلاب عن ١٦٦ ، ٢٣ ، أى بزيادة ٢٠٠٠ طالب ، فى خلال أربعة وعشرين عاما من الحـكم الفرنسى . ولم يحدث هـذا الإهمال مصادفة ، إذ أنه نظرا لقلة المدارس الحـكومية ، أخذت المدارس الأجنبية ـ وكانت نسبة المدارس الفرنسية بينها أكثر من ٨٠٪ ـ على عاتقها تعليم الناشئة ، وبالتالى توات تكييف عقولهم ونفوسهم ، وتوجيهها وجهة خاصة .

ومنذ سنة ١٩٤٣ ، أخذ عدد الطلاب فى المدارس الحـكومية فى الازدياد . ففى سنة ١٩٥٣ ـ ٥٤ بلغ عدد الطلاب فى مدارس الحـكومة الابتدائية وبساتين الأطفال ٨٩،٥٦١ ، وفى المدارس الثانوية الحـكومية ٥٠٢٥ .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

إن ٧٥ ٪ من اللبنانيين يعرفون القراءة والكتابة ، ولذا فإن للبنان فى هذه الناحية تفوقا كبيرا على البلاد العربية الأخرى . إلا أن لبنان يعتمد كثيرا فى تعليم شبابه على المدارس الخاصة ، وأكثرها من المدارس الأجنبية . والأثر الفرنسى وهو كبير فى التعليم الابتدائى ، يعتبر أثرا كاسحا فى المدارس الثانوية . وفى سنة ١٩٥٣ـ ٥٤ كان ٦٠ بالمئة من التلاميذ يدرسون فى المدارس الخاصة . وبما أن معظم التعليم يجرى بوساطة المدارس الخاصة ، لا يستطيع دخول المدارس سوى القادرين على دفع الأقساط . وهذا النظام ، فضلا عن كونه بعيدا عن الديموقراطية ، من شأنه أن يشجع الانقسام فى الولاء ويزيد فى الفروق الطائفية بسبب طغيان المدارس الأجنبية والطائفية . ويحتاج نظام التعليم الحكومى إلى الترقية والتوسع العظيمين ليمكن توحيد الشعب بوساطة التعليم . ومؤسسات التعليم العالى تكاد تكون كلها بيد الأجانب ، فيما عدا الأكاديمية اللبنانية ، وهى مؤسسة خاصة ترعاها الحكومة ، والجامعة اللبنانية التى أسست حديثا وما زالت محصورة النشاط فى تدريب المعلمين العالى .

ومنذ أكثر من ثمانين سنة ، والجامعتان الأميركية والفرنسية ، تتيحان للطلاب فى لبنان وفى سائر بلدان الشرق الأوسط ، فرصة إتمام تعليمهم العالى . وتضم الجامعة الفرنسية ـ جامعة القديس يوسف ، وهى مؤسسة يسوعية ـ كلية للطب، وهى تشمل فروع الطب والصيدلة وطب الأسنان والتوليد والتمريض ، وقد ألحق بها مستشفى . وتضم أيضا كليات الهندسة والحقوق ومعهد الآداب الشرقية ومعهد الفلسفة واللاهوت. ولهذه الجامعة مطبعة مشهورة ، ومكتبة شرقية غنية . وتتألف الجامعة الأميركية فى بيروت من كلية الآداب والعلوم ، وكليات الهندسة والزراعة والطب والصيدلة . ومدرسة التمريض والتوليد، ومستشفى .ولكل من هاتين الجامعتين، قسم استعدادى ملحق بهما . وكلية بيروت للبنات ، التى كانت كلية متوسطة منذ ١٩٢٦ ، رفعت

مستواها حديثا إلى المستوى الجامعى ، فى حقول الدراسات الأدبية والإنسانية . وتمتاز هذه المؤسسات العالية جميعا ، بعنايتها بالإنعاش الاجتماعى . ويعنى آباء الجامعة اليسوعية بإعداد الشبان الكثالكة لتحمل المسئولية الاجتماعية. وتدير الجامعة مدرسة لتدريب الممرضات الزائرات والعاملين فى حقول الخدمة الاجتماعية . وتقوم الجامعة الأميركية وكلية البنات بتعليم الفقراء وتقديم الخدمات الاجتماعية لهم فى المدينة، وتقيم مخيمات للعمل الاجتماعى بين سكان القرى .

ويسير التقدم الاقتصادى فى البلاد سيرا بطيئا . وقد أقر المجلس النيابى عدة من مشروعات الإصلاح ، وهى تشمل مشروعات للرى والكهربا وتجفيف المياه وتخطيط المدن والصحة العامة . ومشروع الليطانى الذى يساهم فى تمويله المصرف الدولى للتعمير والإنماء سيمد منطقة كبيرة من لبنان الجنوبى بالكهربا وبمياه الرى والشرب .

وقد استدعت الحكومة الخبراء الأجانب ليدرسوا تطور الاقتصاد اللبنانى ويكتبوا تقريرا عنه. وقد ورد فى تقرير جب أنه بسبب الزيادة السريعة فى السكان، ينتظر أن يتضاعف عددهم فى أقل من ٢٥ سنة [١] .

وبما أن أكثر من نصف السكان يعيشون على الزراعة ، فإن ازدهار الحياة فى المستقبل يتوقف على تحسين الأرض . وبما أن مساحة الأرض الصالحة للزراعة محدودة ، وإمكانات توسيعها ليست كبيرة فإنه من الممكن زيادة التوسع الزراعى ، بزيادة الأرض المروية ، ومضاعفة الزراعة وزرع غلات أكثر قيمة.

وتزرع البلاد غلات متنوعة ، ومن أهم الأشجار المثمرة الزيتون . وفى الطريق بين بيروت وصيدا تتكاثف أشجار الزيتون فى حرش من أعظم أحراش العالم . وقد اتسعت زراعة الفواكه اتساعا عظيما فى السنوات الأخيرة . وأدخلت أنواع

(١) Sir Alexander Gibb : The Economic Development of Lebanon, p. 4

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

جديدة منها . والتفاح والحمضيات هى أهم الفواكه التى تصدر إلى الخارج . وتأخرت تربيـة دودة القز ، وقد كانت فى السابق غلة رئيسية ، بسبب نزول الحرير الصناعى إلى الأسواق . وقطعت أشجار التوت التى كانت تزرع على طول الساحل وعلى سفوح الجبال واستبدل بها بساتين الفاكهة . ومن الممكن إحياء تربية الدودة ثانية ، لأن مزاحمة الحرير الصناعى ظاهرية أكثر منها حقيقية ؛ إذ أن كلا من هذين الصنفين يروج فى أسواق خاصة (١) .

ومشكلة حيازة الأراضى ليست خطيرة فى لبنان ، شأنها فى بعض البلاد العربية الأخرى ، فنظام المحاصة هو السائد فى المناطق السهلية ، مع ما يترتب عليه من عدم الاطمئنان . ولـكن نظام الملـكيات الصغيرة والمتوسطة هو السائد فى المناطق الجبلية . وتزرع السفوح بعناية وإخلاص ، يزرعها فلاحون يتسمون بالنشاط والاقتصاد ، إلا أنهم لا يستطيعون إدخال تحسينات مهمة ، لأن وسائلهم محدودة .

ولم تتم بعد فى لبنان الجمعيات التعاونية لمنح القروض ، والتسويق الجماعى وامتلاك الآلات الزراعية ووسائل النقل .

ولا تتجه الزراعة اللبنانيـة حتى الآن ، نحو بلوغ مستوى عال من الجودة على أهمية ذلك فى بلاد أراضيها الزراعية محدودة . وليس من العسير بلوغ مثل هـذا المستوى ، إذا وجد هنالك بعض التوجيه ، فى بيئة زراعية كالبيئة اللبنانية ، يمتاز فلاحها بالنشاط والطموح والذكاء .

وما زالت الصناعة فى طفولتها ، وأهم الصناعات : الغزل والنسيج والأسمنت ودبغ الجلود والصابون وتقطير الزيوت والسجائر والـكبريت وبعض المواد الغذائية. ومن الضرورى تنمية الصناعة ، لـكى تعين الزراعة وتساعد على رفع مستوى المعيشة. ومن المتيسر إدخال بعض الصناعات الخفيفة التى تقل فيها أثمان المواد الخام بالنسبة للمواد المصنوعة .

---

(١) Keen : op. cit., p. 83

والحركة العمالية آخذة فى التكون . وقد نظم قانون العمل الصادر فى سنة ١٩٤٦ ، العلاقة بين أصحاب العمل والعمال . وسمح بقيام جمعيات العمال والنقابات ، وأقر مبدأ التحكيم . وحدد تشغيل النساء والأطفال ، وأنشأ الأسبوع الذى عدة ساعاته ، ٤٨ . وقرر مبدأ الإجازات المرضية ، والإجازات المأجورة ، ودفع التعويض للعامل حين الاستغناء عنه . وقد انتظمت النقابات وعددها حوالى الأربعين ، فى اتحادات أربعة . وهى تشكو جمود العمال ، وقسوة أصحاب العمل ، والقيود التى تفرضها عليها الحكومة ، إذ تنص على ضرورة تصديقها على قوانينها ولوائحها الداخلية ، كما تحتفظ لنفسها بحق حل هيئاتها الإدارية .

وأنهار لبنان التى تنحدر بسرعة ، تصلح لتوليد الطاقة الكهربية . ولكن نظرا لقلة المياه فيها مدة فصل الجفاف ، تحتاج محطات القوى المائية إلى أجهزة حرارية لتساعدها . وينتهى خطان من خطوط أنابيب البترول عند شاطىء لبنان ، أحدهما هو خط شركة النفط العراقية (Ipc) ، ويصب فى طرابلس ، حيث أنشئت مصفاة لتكرير البترول ، والثانى هو خط التابلاين ، الذى ينتهى عند الزهرانى ، على بعد بضعة أميال إلى جنوبى صيدا . وهو يحمل البترول من شاطىء الجزيرة العربية على الخليج العربى إلى البحر الأبيض المتوسط . وقد أقامت شركة بترول البحر الأبيض المتوسط مصفاة للتكرير فى ذلك الموضع .

ولبنان مركز تجارى . وتعتمد تجارته على واردات كثيرة ـ وأكثرها بضائع للاستهلاك ـ وعلى بعض الصادرات . ومن هنا الاختلال الدائم فى ميزان التجارة اللبنانية . وهنالك صادرات غير منظورة ، على شكل خدمات ، تسد هذا العجز . ومن أهم مصادر الدخل الحوالات المالية التى يرسلها المهاجرون ، ومصروفات السواح ، وإقامة الأجانب . وقد بدىء أخيرا فى استغلال موارد لبنان كمركز سياحى ، ومصيف للبلاد العربية المجاورة .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وقد تأثرت اقتصاديات سوريا ولبنان تأثرا خطيرا برفع الوحدة الجمركية التى كانت بينهما . ففى عهد الانتداب كانت سوريا ولبنان تشكلان نوعا من الدولة الاتحادية ، وكان المفوض السامى الرئيس الأعلى لهذا الاتحاد . وكانت المراسيم التى يصدرها المفوض السامى تسرى مسرى القوانين ، وكانت تنفذ فى كلتا الدولتين . حتى القوانين التى كانت خاصة بكل من البلدين ، كانت متشابهة لأن مصدرها واحد . وكانت الخدمات العامة ، التى تؤدى فى كل من البلدين ـ وكانت تدعى « المصالح المشتركة » ـ تشمل الجيش والجمارك وقوانين الصحة العامة ، والإشراف على بنك سوريا ولبنان والشركات الأخرى ذوات الامتياز ، وطرق المواصلات الرئيسية التى تربط بينهما ، والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية والأثرية ، والخرائط التخطيطية ، وأعمال المساحة العامة . وكانت المصالح المشتركة تحت إشراف المفوض السامى .

وفى خريف ١٩٤٣ ، حين تألفت حكومتان مستقلتان فيهما ، اتفقت الدولتان على إبقاء الوحدة الجمركية ، ومراقبة الشركات ذوات الامتياز والنقد الذى كان واحدا فى البلدين باعتبارها مصالح مشتركة بينهما .

وكان هذا الاتفاق ، ترتيبا عاجلا تم دون دراسة وافية . ولذا كانت تعوزه العوامل الرئيسية التى تساعد على حفظ الوحدة الجمركية . ولم يكن أى من الطرفين راضيا عن هذا الاتفاق ، إلا أنهما عجزتا عن استبداله باتفاقية مدروسة درسا اقتصاديا وافيا . وفى الوقت نفسه وقع لبنان اتفاقية مالية خاصة مع فرنسا ، بينما كانت المفاوضات بين فرنسا وسوريا ما تزال قائمة . فانفصم الاتحاد النقدى بين الدولتين وأصبحت النقود غير قابلة للتداول بينهما .

وحدثت القطيعة الاقتصادية فى آذار (مارس) سنة ١٩٥٠ . وزعمت الحكومة اللبنانية أن الاقتصاد اللبنانى يختلف فى أساسه عن الاقتصاد السورى . وقالت : إن

لبنان مركز تجارى ومستودع للبضائع، ولهذا تقتضى مصالحه أن تكون تجارته حرة . بينما رأت سورية أن ازدهارها وسلامة وضعها الدولى من الناحية الاقتصادية ، يتطلبان أن تحمى منتجاتها الزراعية والصناعية .

وحدثت بعض المنازعات حول الأنصبة النسبية لإيرادات الجمارك ، وحدث تذمر من دائرة الجمارك . و بولغ فى تبيان مضار الوحدة الجمركية ، بينما صرف النظر عن المنافع الق تعود بها على كلا البلدين . وكان من اليسير إزالة هذه الخلافات ، لو أن هذه الأمور درست درسا وافيا عميقا . إلا أن الشريكين كليهما ، بدلا من أن يقفا موقفا إيجابيا ، تركا الأمور تتدهور حتى حدثت القطيعة .

وكانت القطيعة ضارة بالطرفين . ففقدت سورية السوق الطبيعى لتصريف منتجاتها . وكانت خسارة لبنان أعظم ، إذ كانت سورية تموّنه بالقمح و ببعض المحصولات الضرورية ، وكانت سوقا لتصريف البضائع التى يستوردها لبنان .

وأدى اهتمام الحكومة اللبنانية الزائد بالتجارة ، إلى تأخر التطور الزراعى والصناعى . فبلد كلبنان ، يعتمد أكثر من نصف سكانه على الزراعة ، لا يمكن اعتباره مركزا تجاريا فى المقام الأول ، و يجب ألا يعامل على هذا الأساس .

والتنمية التامة للإمكانات الزراعية أمر حيوى لا للحاجة الماسة إلى زيادة دخل الفرد والدخل القومى فحسب بل لاعتبار آخر أكثر أهمية ، وهو بعث حب البلاد، والتعلق بالأرض ، فى نفوس السكان . ذلك التعلق الذى يغريهم بالبقاء فى مزارعهم فلا يغادرونها إلى المدن ، أو إلى المهاجر . والتقدم الصناعى ، الذى يرقى الدراسات الفنية والعلمية ، و يشجع ظهور القابليات والمهارة الفنية فى المشروعات الصناعية و إدارتها ـ عدا عن مساهمته فى زيادة الثروة العامة ـ هو أمر ضرورى لحاجات الدولة الحديثة . وأخيرا فإن ازدهار التجارة اللبنانية نفسها، يتوقف إلى حد كبير على التوسع فى الإنتاج الزراعى والصناعى داخل البلاد .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وانتهزت سورية فرصة القطيعة لتنظم اقتصادياتها على أساس إنشائى مخطط . فوسعت زراعتها وأسرعت فى إنتاجها الصناعى . وأصبح التجار السوريون ، الذين اعتادوا أن يستوردوا بضائعهم بوساطة العملاء اللبنانيين ، يتصلون مباشرة بالبلاد التى تأتى منها تلك البضائع ، كما أنهم أخذوا يصدرون المنتجات السورية رأسا دون الاستعانة بالسماسرة اللبنانيين .

وفى حقل التجارة الخارجية ، كانت الغاية هى توفير التوازن فى الميزان التجارى ، ولهـذا زيدت الصادرات عن طريق زيادة الإنتاج ، وتركزت الواردات على المواد التى تحتاجها الصناعة وعلى الآلات . وحدد استيراد الكماليات والبضائع المستهلكة .

وإنشاء مرفأ اللاذقية ، دليل على أن الاقتصاد السورى يسير حسب خطة إنشائية مرسومة . واللاذقية هى المرفأ الطبيعى لشمالى سورية ، تلك المنطقة التى تنتج الجزء الأعظم من منتجات سورية الزراعية والصناعية . حتى لو لم تحدث القطيعة مع لبنان ، لكان توسيع مرفأ اللاذقية ضروريا أيضا ، وذلك بسبب الاضطرار إلى تصريف محصول الجزيرة وإقليم العاصى الشمالى ، الآخذ فى الازدياد ، وبسبب التوسع الشديد فى استيراد الآلات الزراعية والصناعية . ومن الممكن أن تصبح اللاذقية مرفأ هاما لتجارة الترانزيت بين سورية والعراق وبالعكس . وخاصة عندما يتم تنفيذ مشروع الخط الحديدى الذى يصل اللاذقية بحلب ـ وحلب تتصل ببغداد بخط حديدى.

ومنذ حدوث القطيعة ، بذلت مساع عديدة ، للوصول إلى اتفاق جـديد . وقد وقع اتفاق فى آذار (مارس) ١٩٥١ ، ينص على حرية الاتجار فى المنتجات الزراعية وبعض المصنوعات ، وعلى خفض التعرفة الجمركية على المصنوعات الأخرى . وقد عدلت هـذه الاتفاقية ، لتشمل بعض المصنوعات الأخرى فى قائمة الإعفاء ،

وبعضا آخر فى قائمة التخفيض . وفى الوقت نفسه تقدمت سورية بمشروع لما سمته وحدة اقتصادية ، يترتب عليه وضع تشريع موحد للشئون التى تؤدى إلى وحدة جمركية تامة ، تشمل توحيد التعرفة والنقد . فإذا قبلت الحكومة اللبنانية هذا المشروع ، فإن سورية على استعداد للسماح بحرية التجارة فى جميع المواد سواء ما كان منها محلى الصنع أو مستوردا من الخارج ، وبالسماح بحرية تنقل الأشخاص ، ونقل النقد . وقد قبلت الحكومة اللبنانية هذا المشروع ، أساسا للدراسة .

ولا شك فى أن الوحدة الجمركية ، التى ترافقها الخطوات الضرورية لوضعها موضع التنفيذ ، هى الأساس الصالح الوحيد ، للعلاقة بين سورية ولبنان . فاقتصاديات البلدين ليست متباعدة بل متداخلة . وهذه الوحدة من شأنها أن تساعد كلا من البلدين على التخصيص فى إنتاجه ، وهذا بدوره يؤدى إلى التوفير فى المال والجهد ، وإلى التوسع فى الإنتاج ، وتحسين أنواع البضائع المنتجة ، والخدمات المؤداة . فلبنان — وقد جادت عليه الطبيعة بمناخ معتدل ومناظر جميلة — يمكن أن يكون مصيفا للبلدين . ويمكن أن تبقى الثغور اللبنانية ، الموانىء الرئيسية ، وتظل بيروت المركز الرئيسى للتجارة والشئون المالية فى البلدين . وتستطيع الفاكهة ، وخاصة الحمضيات التى تزرع على الساحل ، أن تجد لها سوقا فى سورية . وتزود سورية كلا البلدين بالقمح ، ومنتجات الألبان واللحوم ومنتجاتها الصناعية المتفوقة .

وفى الأحوال العالمية المضطربة ، يغدو لبنان فى خطر ، لأنه يعتمد على الواردات ، فى معظم ضروريات حياته ، ومن الممكن أن تنقطع عنه هذه الضروريات فى حالة الحرب . وهذا سبب آخر من الأسباب التى تدعو إلى الوحدة الاقتصادية ، إذ أن سورية هى الممون الوحيد للبنان أثناء الحرب . وفضلا عن ذلك فإن أهمية التجارة للبنان ، حتى فى أوقات السلم ، لا يكون لها معنى إلا إذا عولجت القطيعة بينه وبين سورية . لأن التجارة تعتمد على الأسواق ، وسورية هى السوق المناسبة الوحيدة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

للتجارة اللبنانية ، كما أنها طريق المواصلات بينه و بين العراق والأردن .

ويرى الثقات العالميون فى شئون التجارة ، أن الوحدة الجمركية ، ضرورة لا بد منها للبلاد الصغيرة . وعند عقد المعاهدات التجارية ، تكون البلاد الصغيرة هى الخاسرة ، لأن أسواقها قليلة الأهمية بالنسبة للتجارة العالمية . والوحدة الجمركية تجعل مركزها أثناء المفاوضة لعقد مثل هذه المعاهدات قويا .

وفى سوريا ، بصرف النظر عن تلك الفئة من الناس التى عادت عليها القطيعة بالفائدة ، نجد أن الرأى العام يحبذ الوحدة ، وهذا هو رأى الحكومة أيضا . وفى لبنان نجد أن غرفة الزراعة والتجارة والصناعة ، و بعض الهيئات المنظمة و بعض المنتجين والصناعيين ، يحبذون الوحدة تحبيذا قويا . ولكن الوحدة الجمركية التامة تخيف بعض الفئات فى لبنان ، لأنهم يخشون أن تقود إلى الوحدة الاقتصادية ، ومن ثم إلى الوحدة السياسية .

ومن أدق المشاكل فى لبنان مشكلة الطائفية . وقد أثار الانتداب الخلافات الطائفية . وقام عهد الاستقلال على اتفاق بين الطوائف على اختلاف معتقداتها ونزعاتها . ووضع نظام التمثيل النيابى ، على أساس التمثيل النسبى لجميع الطوائف . وتراعى الاعتبارات الطائفية عند اختيار المرشحين لجميع الوظائف العامة .

ولا شك فى خطورة هذا النظام الذى يقيم الدولة على أساس الطوائف الدينية . وتلاقى الطائفية ، التى تضر بالحياة العامة إضرارا بالغا ، حملة شديدة من الصحافة والعناصر المتحررة فى البلاد التى تخشى أن ينهار بنيان هذه الدولة الذى أقيم على أسس طائفية .

والإدارة الحكومية ، التى كان ينقصها فى عهد الانتداب الكثير من الأمانة والكفاية لم تتحسن فى عهد الاستقلال ، فجهاز الدولة المثقل أخذ يتأخر تدريجيا منذ سنة ١٩٤٣ . وأصبح رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخورى ـ وهو رجل قدير

عقدت عليه البلاد آمالا كبيرة ـ بعد تسع سنوات من الحكم رأسا لكتلة سياسية لم يتورع بعض أفرادها من الإثراء على حساب الشعب .

ومما زاد فى خطورة الأمر ، أن الرئيس الذى كان يقبض على زمام السلطة فى الحكومة وفى الحياة العامة ، لم يكن مسئولا أمام البرلمان عن تصرفاته . فهو يعين الحكومات ويحلها ، وفق هواه . والمجلس النيابى الذى انتخب فى سنة ١٩٤٧ ، بعد تدخل السلطات لمصلحة مرشحى الحكومة ، عدل الدستور ليجعل من الممكن إعادة انتخاب الرئيس مرة ثانية ، وفى الواقع أعيد انتخاب الشيخ بشارة الخورى قبل انتهاء مدته بثمانية عشر شهرا .

وبما أن هذا المجلس كان سهل القياد ، تولت الصحافة وبعض الفئات المنظمة المعارضة . وقد كان تأسيس الحزب التقدمى الاشتراكى خطوة باعثة للأمل ، وقد أسسه فى إيار (مايو) ١٩٤٩ الاستاذ كمال جنبلاط ، الذى أخذ يشن حربا لا هوادة فيها على جميع عناصر الفساد فى الدولة . وقد وقف فى المجلس النيابى موقف المعارضة الرصينة المستمرة ، مع أنه كان فى بعض الأحيان وحيدا . وقد اشتد أزره بعد انتخابات ١٩٥١ ، التى جاءت إلى المجلس بفئة صغيرة مؤلفة من ثمانية نواب كان بينهم الأستاذ كميل شمعون الرئيس الحالى للجمهورية ، وكان لهذه الفئة التى دعيت الجبهة الوطنية الاشتراكية منهج اشتراكى ، وكانت تهدف إلى تطهير جهاز الحكم ، وتنفيذ القوانين على الجميع دون محاباة ، ووضع تشريعات تقدمية اشتراكية للبلاد .

وبينما كانت السلطة الحاكمة آخذة فى السقوط فى نظر الشعب ، كانت المعارضة تزداد قوة وتنتشر فى دوائر أوسع . وساعدتها الأزمة الاقتصادية — التى زادت حدتها بعد القطيعة مع سورية ـ وغلاء تكاليف المعيشة وازدياد البطالة .

وقد شجع نجاح حركة الجيش فى مصر ، المعارضة التى انضم إليها زعماء بيروت

وطرابلس ، ونظمت إضرابا عاما فى بيروت لمدة ثلاثة أيام . وعندما عجز رئيس الجمهورية عن العثور على شخص يقبل تشكيل الوزارة ، استقال فى ١٨ من ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ .

إن الإدارة التى قامت بعد استقالة الرئيس بشارة الخورى تقصر كثيرا عن الغرض الذى أنشئت من أجله ، فهى لم تحقق للبلاد شيئا من الإصلاحات الأساسية التى كان الشعب يتوخاها من قيام العهد الجديد . غير أن لبنان لا بد أن يتأثر بالتطورات الجارية فى البلاد العربية الأخرى ، وأخصها مصر وسوريا ـ حيث أصبحت الإصلاحات الجدية أساس السياسة الداخلية ، وأصبحت السياسة الخارجية تتصف بالتحرر من الانحياز إلى أحد المعسكرين المتنازعين على السلطة فى العالم .

وفى سورية جرت انتخابات برلمانية فى شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٥٤ . وانتخب البرلمان الجديد السيد شكرى القوتلى مجددا للرياسة فى أغسطس (آب) سنة ١٩٥٥ . وكانت الفترة التى تلت سقوط العهد العسكرى متسمة بالتوتر الناجم عن الضغط الخارجى على سوريا لإدخالها فى حلف بغداد . غير أن الشعب السورى وقف ثابتا بوجه هذا الضغط . وأعرب برلمانه عن إرادته فى الاتحاد مع مصر ، ليسير بذلك أول خطوة فعالة نحو تحقيق وحدة عربية حرة من السيطرة الأجنبية والتوجيه الأجنبى ، وسائرة فى درب التقدم والتحرر الداخلى .

الفصل الحادى عشر

العراق

كان العراق قابعا وراء بادية الشام ، بعيدا عن حركات التحرر التى شملت مصر ، وإلى حد ما سورية ، خلال القرن التاسع عشر وفى مطلع القرن العشرين . ولكن العراق لم يكن معزولا تمام العزل عن القوى التى كانت تشكل الحركة القومية العربية . وقد شهر شاعرا العصر ، معروف الرصافى وجميل الزهاوى بمخازى الحكم التركى ، ونددا بالمجتمع الذى يخضع للحكم الاستبدادى ولأسر المعتقدات والعادات القديمة الضارة . وقد حرك شعرهما نفوس الشعب ، ووجهت أنظارهم إلى حكومة نيابية وإصلاح اجتماعى . وقد عنيت مدارس النجف ، وهو المركز الشيعى الدينى والثقافى العظيم ، بإحياء التراث العربى ، وكانت تبث فى نفوس طلابها الشعور الوطنى . وانضم الضباط العراقيون فى الجيش التركى إلى جمعية العهد السرية ، التى ألفت فى القسطنطينية ، للعمل لاستقلال الولايات العربية . وكان لهذه الجمعية فروع فى مدن العراق الرئيسية ، بغداد والبصرة والموصل . ولعب الضباط العراقيون دورا هاما فى الثورة العربية .

وعند نشوب الحرب احتل الانجليز البصرة ، نظرا لأهميتها فى حماية مركزهم فى الخليج العربى ، وتأمين مواصلاتهم مع الهند . وفى أثناء الحرب احتلوا سائر العراق حتى بغداد . وقد رفضت السلطات البريطانية طلب الزعماء العراقيين الاشتراك فى الحرب ضد الأتراك ، لأنهم اعتقدوا أن مساعدة العرب فى طرد الأتراك قد يكون من ورائها التزامات تتضمن تعهدهم بحرية العرب ، كتلك التى تعهدت بها

الحكومة البريطانيـة ، عند ما ساندت الثورة العربية . وكان البريطانيون فى العراق ينظرون إلى الثورة نظرة عدائية ، ويحولون دون وصول أخبارها إلى الجمهور .

ولم تكن الإدارة البريطانية فى العراق تبدى عطفا أو تفهماً للحركة القومية العربية . وكان أول نائب للمندوب السامى المدنى ، السير أرنولد ولسن ، يعتقد اعتقادا جازما بأن مصلحة السكان تعتمد على الحكومة الصالحة التى تستطيع بريطانيا إيجادها [١] . وكان يرى أن تطبيق مبادىء الانتداب على البلاد العربية ، ليس من مصلحة السكان . وقد وصف حق تقرير المصير بأنه « خرافة شائعة » ووصف البيان الانجليزى ـ الفرنسى الصادر فى الثامن من تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٨ ، بأنه « خطأ فادح » . وكان يؤكد لرؤسائه أن العرب راضون عن الاحتلال البريطانى [٢] . وكان يقول : « إن عامة العرب ، على عكس تلك الحفنة من سياسيي بغداد المحترفين ، يرون أن البلاد ستنعم فى ظل الحكم البريطانى بعهد تسود فيه العدالة والتقدم المادى والمعنوى » [٣] . وبينما كان المندوب السامى يذيع مثل هذه البيانات ، كان بركان من الغضب والقلق يتأجج تحت قدميه .

وكان ولسن يرى أن العراق بموقعه الاستراتيجى وبتروله ، يعتبر حجر الزاوية فى بناء الاستعمار البريطانى . وتستطيع بريطانيا منه أن تسيطر على جميع بلدان الشرق الأوسط ، وتراقب سائر الدول الإسلامية . ولضمان هذه السيطرة يجب أن يوضع العراق تحت سيطرة حكومة بريطانية قوية .

وقد أقيمت إدارة بريطانية واسعة . وكانت الإدارة المدنية والجيش البريطانى فى العراق تابعين للهند ، وكان المفروض أن يصبح العراق جزءا من الإمبراطورية

---

(١) Sir Arnold T.Wilson : Mesopotamia 1917-1920, A Clash of Loyalties 1931,p.x.

(٢) Ibid., pp. Xi, 103, 104, 134

(٣) Ibid., p. 104

البريطانية فى الهند . وقد نوهت صحيفة التايمس اللندنية ، الناطقة بلسان الحكومة ، بإمكانية إسكان ثلاثة ملايين هندى فى العراق .

وبينما كانت السلطات البريطانيـة مستمرة فى سياستها « لتهنيد » العراق ، كانت هنالك حكومة عربيـة فى سوريا . وكان بين سوريا والعراق اتصال وثيق ، وقد أعلنت الحكومة العربيـة فى دمشق ، فى مناسبات عدة ، تأييدها لاستقلال العراق ، والاتحاد بين البلدين . وقد بقى عدد من الزعماء العراقيين مع فيصل فى سورية ، ورجع عدد منهم إلى العراق لتنظيم المقاومة ضد الحكم البريطانى . وكان الشعب العراقى يتتبع باهتمام عظيم سير الحوادث فى سوريا . ونظرا لعدم وجود صحافة وطنية فى العراق ، كان العراقيون يقرأون باهتمام الصحف السورية والمصرية . وقد أشعلت أخبار الثورة المصرية ، نار الحماسة الوطنية فى نفوسهم . وأصبح سعد زغلول قائد الثورة المصرية ، بطلا عربيا قوميا . وقابل الأهالى بسرور عظيم إعلان استقلال سوريا والعراق ، فى وقت واحد فى كلا البلدين .

وعندما انتهت أعمال مؤتمر سان ريمو بوضع العراق تحت الانتداب البريطانى ، اندلع لهيب الثورة فيه . وكان إعلان الانتداب هو الشرارة التى سببت الانفجار . وكان العرب فى العراق وفى سائر بلادهم قد نظروا إلى المبادئ التى أعلنها الرئيس ولسون نظرة جدية ، وآمنوا فى العهود والمواثيق التى قطعها لهم الحلفاء . ولكنهم بدلا من حق تقرير المصير وقيام الحكومات الحرة ، وجدوا أنفسهم فى قبضة حكم بريطانى شامل ، لا يمت إليهم بصلة لأن الإنجليز يختلفون عنهم فى اللغة والدين والتقاليد الاجتماعية . ومما زاد فى جفاء الناس الضغط على الحريات الذى فرض عليهم. فقد حجر على حرية التعبير عن النفس ، ومنع تشكيل الأحزاب السياسية ، وقيدت حرية الاجتماعات ووضعت الصحافة تحت رقابة شديدة . ولم يسمح إلا بإصدار ثلاث جرائد رسمية واحدة فى كل مدينة من المدن الرئيسية — وساور القلق النفوس على مصير البلاد ، عندما أشيع أنها ستضم إلى الهند .

وقد نشبت الثورة فى شمالى العراق وجنوبه فى آن واحد . وقامت العشائر بالقتال . و بقيت المدن بعيدة عن القتال ، لأنها كانت غير مسلحة ، وتحت رقابة السلطات . أما رجال العشائر فقد كانت لديهم الأسلحة، على قدمها ورداءة أنواعها. وكانوا قد ألفوا الحرية فى عهد الاستقلال العثمانى ، فلما انتقلت السلطة إلى أيدى الإنجليز لم يعترفوا بالسيادة إلا لشيوخهم .

وقد عمت الثورة جميع البلاد . واضمحلت سلطة الحكومة ، وألفت حكومات مؤقتة فى المواضع التى احتلها الثوار . وظن فى وقت من الأوقات أن بغداد على وشك السقوط [1] .ولقد استمر القتال عدة شهور، واضطرت بريطانيا إلى إرسال ٧٠،٠٠٠ جندى ، و إلى إنفاق مبالغ باهظة من المال ، لكى تتمكن من إخماد الثورة .

وكانت الثورة العراقية ، امتدادا للثورة العربية ، شأنها فى ذلك شأن مقاومة السوريين للحكم الفرنسى . وعلى الرغم من أنها لم توفق ، كالثورة العربية نفسها ، إلى تحقيق غاياتها الأساسية ، من الاستقلال والوحدة العربية ـ وهذه لم تتحقق حتى الآن ـ إلا أنها أجبرت الدولة الحاكمة على التراخى ، وعلى التساهل فى منح قسط أكبر من الاستقلال الذاتى ، لم تكن على استعداد لمنحه ، وعلى الاعتراف ببعض الحقوق التى كان من الممكن أن يصرف النظر عنها لولا حركة المقاومة والثورة . وقد أدت الثورة فى العراق ، إلى وضع حد لسياسة التهنيد ، وأرست قواعد الحكم العربى .

وفى أثناء ذلك ، كان الحكم العربى فى سورية قد تقوض ، وكان فيصل فى أوربا . وكان الساسة البريطانيون الذين عرفوا فيصل يحترمونه ويثقون به . وقد أعجبوا بقيادته للثورة العربية و برجحان عقله فى مؤتمر الصلح الذى عقد فى باريس ، حيث كان راغبا فى التفاهم مع الحلفاء ، وخاصة مع بريطانيا العظمى . وكانت الدوائر

---

(١) Wilson, op. cit., p. 283

السياسية البريطانية تحس بالقوى الكامنة فى الحركة العربية ، وتسعى إلى إصلاح الخطأ الناجم عن خذل فيصل والتآمر على سورية . ولذا عقدوا العزم على إرسال فيصل إلى العراق . وقد تم الاتفاق فى مؤتمر القاهرة ـ الذى عقد فى ربيع السنة ١٩٢١ ، تحت رياسة مستر تشرشل ، وزير المستعمرات لتصفية القضية العربية والتعهدات المترتبة على الحرب ـ على إقامة دولة عربية فى العراق ، ينصب فيصل ملكا عليها . وفى شهر آب (أغسطس) أعلن فيصل ملكا .

وظل البريطانيون قابضين على زمام الحكم . وكان المندوب السامى هو الرئيس الفعلى للحكومة ، على الرغم من تبوء الملك العرش ، وتشكيل مجلس الوزراء . وسخط العراقيون لهذا الوضع . وكان الشعور بالخيبة والخداع لا يساور الدوائر السياسية فى بغداد فحسب ، بل كان يعم جميع طبقات الشعب أيضا . وعاد القلق إلى نفوس رجال العشائر . وفى العيد السنوى الأول ، لتتويج الملك فيصل ، قامت مظاهرة ضد البريطانيين ، فى فناء القصر الملكى ، وألقى خطاب هاجم السياسة البريطانية بحضور المندوب السامى . وفى صباح اليوم التالى ، عند ما كان فيصل مسجى لتجرى له عملية جراحية ، والأطباء والممرضات يحيطون به ، دخل المندوب السامى سير برسى كوكس ، وقدم له أمراً ليوقعه ، وينص هذا الأمر على القبض على سبعة من الزعماء الوطنيين ونفيهم . وعند ما احتج أحد الأطباء بأن الوقت غير مناسب ، أجاب السير برسى بأن الأمر عاجل ، لأن البلاد فى خطر . والتفت فيصل إلى سير برسى ، وقال له بهدوء : إنه بعد دقائق سيكون تحت العملية ، وقد لا يخرج منها سالما ، فهل يكون آخر قرار يتخذه فى الحياة ، نفى بعض الناس من بلادهم ؟! ورفض أن يوقع الأمر . وانصرف المندوب السامى دون أن ينبس ببنت شفة . وألقى القبض على الزعماء ونفاهم بنفسه ، وحل الحزب الوطنيين اللذين كانا قد شكلا حديثا .

وكان كره العراقيين للانتداب واضحا منذ البداية . وقد طالبت البلاد بالاستقلال دون أن يكون هنالك فترة انتقال من الوصاية أو الإشراف . ولما كان البريطانيون يعلمون بهذا الكره الواسع الانتشار ، قدموا الانتداب على شكل معاهدة تحالف . ولكن المعاهدة لم تكن تختلف عن صك الانتداب . وقد وقعتها الحكومة العراقية التى عينها الانجليز فى تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٢٢ . ولكنها قوبلت بنقد شديد ، من الزعماء الوطنيين وجمهور الشعب . ونتيجة لضغط الشعب ، أضيف إليها ملحق فى نيسان (أبريل) ١٩٢٣ ، ينص على تقصير مدتها من عشرين سنة إلى أربع سنوات ، تبدأ بعقد الصلح مع تركيا .

واجتمعت الجمعية التأسيسية التى انتخبت فى آب (أغسطس) ١٩٢٣ فى شهر آذار (مارس) من العام التالى . وقد دعيت للاجتماع للتصديق على المعاهدة ، ولوضع القانون الأساسى للدولة ، وإصدار قانون للانتخابات . وقد شن على المعاهدة وملحقاتها هجوم شديد . وهدد البريطانيون بأنه إذا لم يصدق على المعاهدة حتى العاشر من حزيران (يونيو) فإنهم سيسحبونها ويعيدون الحكم البريطانى المباشر . وحوالى ذلك الوقت ظهرت فى الأفق مسألة الموصل ، وشعرت الجمعية بأنها ستحتاج إلى المساعدة البريطانية فى النزاع مع تركيا ، لذلك وافقت على المعاهدة بعد جلسة صاخبة ، استمرت حتى منتصف ليلة اليوم الذى حدده الإنذار البريطانى .

وعرضت قضية النزاع حول الموصل على عصبة الأمم . فأوصت لجنة الحدود التى عينتها العصبة ، بأن تحتفظ العراق بالموصل بشرط أن تعقد معاهدة جديدة ، تضمن استمرار الانتداب البريطانى مدة خمس وعشرين سنة إلا إذا قبل العراق فى أثناء ذلك فى عصبة الأمم . ووافق مجلس العصبة على تقرير لجنة الحدود . وواجهت العراق مشكلة الاختيار بين فقد الموصل برفضها الموافقة على المعاهدة الجديدة ، وبين الاحتفاظ بهذا الإقليم الاستراتيجى بما فيه من حقول البترول

الهامة ، وقرّ عزمها أخيرا على توقيع المعاهدة فى حزيران (يونيو) ١٩٢٦ ، وصدّق البرلمان عليها فى الشهر نفسه .

وعلى الرغم من الخطر الذى كانت الموصل معرضة له ، لم تلاق المعاهدة قبولا حسنا عند الرأى العام . وانتهت المحاولات لتعديلها بالمعاهدة المخففة التى عقدت فى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٧ . واستمر التوتر وظهر الاتجاه العدائى نحو بريطانيا فى جميع أنحاء البلاد . وحدثت أزمة حكومية تركت البلاد بلا وزارة زهاء ثلاثة أشهر من كانون الثانى (يناير) إلى نيسان (أبريل) ١٩٢٩ .

وفى خريف سنة ١٩٢٩ أعلن المندوب السامى استعداد حكومته لوضع أساس جديد لعلاقتها مع العراق . وبعد قليل من التلكؤ عقدت معاهدة تحالف فى حزيران (يونيو) ١٩٣٠ ، وقد اعترفت المعاهدة بأن العراق دولة ذات سيادة ، وحمت مصالح الحكومة البريطانية . فضمنت سلامة المواصلات الإمبراطورية . ووقت الحرب ، أو عند خطر نشوب الحرب ، يتعهد العراق بتقديم جميع التسهيلات كالسكك الحديدية والأنهار والموانىء والمطارات . ويحتفظ البريطانيون بقاعدتين جويتين إحداهما الشعيبة قرب البصرة ، والأخرى الحبانية غربى الفرات ، وتعسكر القوات البريطانية فيهما [١] . وعند توقيع المعاهدة ، أمضى اتفاق قضائى ، يلغى الامتيازات التى كان يتمتع بها الأجانب فى البلاد . ووافقت الدول ذات الشأن على هذا الاتفاق ، ووضع موضع التنفيذ منذ آذار (مارس) ١٩٣١ .

وعند ما اطمأنت بريطانيا على مصالحها الاستراتيجية ، رغبت فى إنهاء الانتداب . فأوصت بقبول العراق عضوا فى عصبة الأمم . وقد وصف التقرير الذى رفعته الحكومة البريطانية إلى العصبة بالتفصيل تقدم العراق منذ ١٩٢٠ . وقد ذكرت فيه

---

(١) Royal Institute of International Affairs, Documents on International Affairs, 1930, pp. 131–136.

أن هنالك استقرارا فى الإدارة ، ومحافظة تامة على الأمن العام ، وأن القضاء كفء لحماية مصالح الأجانب . وحقوق الأقليات يضمنها الدستور . وأن الأحوال الاقتصادية والمالية سليمة ، وأن هنالك تقدما ملموسا فى التعليم ، وقد تحدث التقرير عن الضغط الوطنى المستمر ، واعترف بقوة الحركة الوطنية ، وبصعوبة استمرار الحكم الانتدابى « أمام القلق الظاهر من الحكم الانتدابى والرغبة الشديدة فى الاستقلال » ، اللذين صرح بهما أولو الأمر من العراقيين الذين أبدوا استعدادهم لتحمل عبء الحكم الذاتى (١) .

وقد دخل العراق عصبة الأمم فى تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٢ ، ومدة المعاهدة ٢٥ سنة تبدأ من تاريخ دخول العراق عصبة الأمم .

وعلى الرغم من التوتر المستمر الذى ساد العلاقات بين بريطانيا والعراق فى فترة الانتداب ، ساعد البريطانيون فى بناء العراق الحديث . فقد أرسلوا نخبة من خير موظفيهم المدنيين ، الذين ساعدوا على توطيد أسس إدارة مستقرة ، حين عملوا موظفين ملحقين بالمندوب السامى ، ثم تابعين للحكومة العراقية . وعند ما اقتنع البريطانيون بأن مصالحهم تتحقق على أحسن وجه ، باستقلال العراق ، ساعدوا على تطوير الحياة السياسية فى البلاد ، وعجلوا فى إنهاء الانتداب . وقد كانت مساعدة الإنجليز مثمرة فى توجيه العراق نحو إقامة علاقات طيبة مع جيرانه . فقد تمكن بوساطة عدة مؤتمرات أعدّ لها وأشرف عليها مندوبو بريطانيا فى العراق ، من أن يسوّى مشكلة الحدود ومنازعات القبائل مع المملكة العربية السعودية . وحفظ النفوذ البريطانى الموصل للعراق . وما من شك فى أن الإنجليز كانوا يطمعون فى بترول الموصل . إلا أن مصالحهم اتفقت مع مصالح العراق ، ومع الحقائق الجغرافية والسلالية

---

(١) Special Report to the Council of the Loaguo of Nations on rhe Progress of Iraq during the perod 1920—1931, Colonial No. 58, 1931.

والثقافية والعلاقات التاريخية مما جعل الموصل جزءا لا يتجزأ من العراق . وقد أعلنت تركيا عن موافقتها على الحدود التى أقرها مجلس العصبة ، فى معاهدة عقدتها مع بريطانيا والعراق .

وقد عملت بريطانيا على دخول العراق عصبة الأمم لإيمانها فى قدرة العراق على تنفيذ التزاماته الدولية . وعند ما أبدت اللجنة الدائمة للانتدابات ترددها وشكها ، أكد المندوب الانجليزى للأعضاء ، أن الحكومة البريطانية تتحمل المسئولية الأدبية فى أن يبرهن العراق على أنه أهل للثقة التى وضعت فيه .

وفى عهد الانتداب كانت هنالك دائما معارضة قوية واعية فى المجلس النيابى ، إلا أن الحكومة والمعارضة كانتا تعملان معا ، وقد عقدتا الخناصر على تحرير العراق من سلطة الانتداب . فكانت الحكومة ، عند إجراء المحادثات لعقد معاهدة من المعاهدات ، تستخدم المعارضة لتحصل على كل ما تستطيع الحصول عليه من الانجليز ، فى حين أن المعارضة كانت تدعم مركز الحكومة برفض المعاهدة والمطالبة بشروط أوفق . وعلى الرغم من التغيير المستمر للوزارات ، فإن الموقف المفهوم ضمنا للحكومات المتعاقبة هو موقف المعارضة . فما تكاد معاهدة من المعاهدات تبرم ، حتى تعد العدة لاستئناف المعارضة وتجديد المطالب .

ومن حسن حظ العراق أنه كان على رأسها فيصل ، حين كانت هذه الدولة الناشئة فى طور التكوين ؛ إذ كان ملائما للمنصب الذى شغله ؛ فقد كان الروح الموجهة للثورة العربية ، وكان قلب حركة التحرر الخفاق . وقد أعدته السنتان اللتان قضاهما فى الحكم فى سورية ، على ما كان فيهما من اضطراب وأسى ، إعدادا صالحا لتولى عمله الجديد . وقد احتك أثناء الحرب وخلال السنوات الأولى للسلم بالدول الغربية وخاصة بريطانيا فتعلم أشياء كثيرة ساعدته فى مفاوضاته معها فيما بعد . وكان يمتاز بمقدرة فائقة فى معاملة الناس ، وكان بارعا فى الوصول إلى حلول

موفقة ، دون أن يضحى بمبادئه . وقد كسب ثقة العراقيين والبريطانيين واحترامهم ، مع أن الفئتين كانتا على طرفى نقيض إبان القسم الأكبر من حكمه . وقد استطاع بحكمه الصائب على الأمور ، وصبره المتناهى وحصافته أن يذلل العقبات ، وأن يتجنب الاصطدام بين بريطانيا والعراق . وكان فيصل دائما إيجابيا فى نظرته إلى الأمور ، فلم يكن يدير ظهره لعرض من العروض ، يقل عما كان يطمح إليه . ولكنه كان يأخذ كل ما يستطيع الحصول عليه ، ثم يسعى إلى الحصول على أكثر منه . وكان شعاره فى مفاوضة الانجليز « خذ وطالب » . ومع أنه كان مشغولا بمشكلات العراق ، لم يغمض عينه مطلقا عن الحركة العربية عامة ، وعن أهدافها فى التحرر والاتحاد ، التى لحظها حين كانت الثورة العربية فى طريقها إلى النصر . وأصبح العراق بفضل فيصل مركزا للحركة العربية ، ومثابة للوطنيين والمبعدين عن بلادهم التى كانت تحت الحكم الأجنبى .

وكانت وفاة فيصل المفاجئة ، التى حدثت قبل أوانها ، فى سنة ١٩٣٣ ، خسارة لا تعوض ، منى بها العراق وسائر الأقطار العربية ـ وكانت السنوات التالية ، فيما يختص بالشئون الداخلية ، مضطربة وقلقة . وقد هدأت مقاومة البريطانيين بعد إلغاء الانتداب ، وأخذت السياسة الحزبية فى البروز . ولم تكن هنالك يد فيصل الحازمة لتوجه النزاعات المتضاربة ، وتكبح من جماحها . وأدى العجز فى الإدارة واستغلال المصالح العامة إلى تذمُّر عام بين السكان .

وفى العلاقات الخارجية اتبع الزعماء العراقيون سياسة حسن الجوار التى أرسى قواعدها فيصل . وكانوا متفقين على وجوب توثيق العلاقات مع الدول العربية المستقلة الأخرى ، فعقدت معاهدة تحالف مع المملكة العربية السعودية فى سنة ١٩٣٦ . وفى السنة التالية انضمت اليمن إلى التحالف .

وكانت العلاقات مع إيران تقوم على حسن التفاهم ، وخاصة إذا قورنت بحالة

النفور والتوتر التى كانت سائدة خلال العقد الثالث . فقد خشيت إيران ، التى قسمتها بريطانيا وروسيا إلى مناطق نفوذ سنة ١٩٠٧ ، وجود الإنجليز عبر حدودها . وغضبت الحكومة الإيرانية لحرمان الرعايا الإيرانيين ، من الامتيازات التى كان يتمتع بها جميع الرعايا الأجانب المقيمين فى العراق ، وفقا للاتفاق القضائى الذى وقع فى سنة ١٩٢٤ ، وفرض على العراق على أنه ملحق لمعاهدة ١٩٢٢ . ونتيجة لذلك ، أثار عملاء إيران الفتن بين شيعة العراق ، وحرضوهم على المطالبة بالجنسية الإيرانية . وحدثت أيضا مناوشات ومنازعات على الحدود بين البلدين . وقد خفت حدة النزاع عندما ألغيت الامتيازات القضائية التى كان يتمتع بها الأجانب المقيمون فى العراق . وأصبح جميع السكان ، من أجانب ووطنيين ، يخضعون لمعاملة واحدة ، تحت نظام قضائى موحد . وسحبت قضية النزاع على الحدود ، من جدول عصبة الأمم ، بعد أن رفعت إليها ، بناء على طلب الفريقين صاحبى الشأن، إذ أنهما عمدا إلى تسوية النزاع بينهما دون الحاجة إلى مساعدة خارجية ، ونجحا فى الوصول إلى تسوية مقبولة . وقد زاد التقارب بين العراق وإيران ، بعد توقيع ميثاق سعد أباد ، الذى كان يضم تركيا وأفغانستان أيضا [١] .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية ، قطعت العراق علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا ، ووفت بتعهداتها لبريطانيا ، وفقا للمعاهدة ـ وتمنح المعاهدة بريطانيا حق استعمال المواصلات وتسمح للقوات البريطانية بالمرور فى أراضى العراق ، دون المكوث فيها . وعندما نزلت قوة بريطانية من البحر إلى البصرة ، طلبت حكومة العراق من السلطات البريطانية ألا تنزل جنودا آخرين حتى يرحل الجنود الذين أنزلوا إلى أرض البلاد . وقد أدى الخلاف على هذه النقطة إلى النزاع المسلح بين الإنجليز وحكومة رشيد عالى الكيلانى . وقد وصفت حركة الكيلانى فى الصحف

---

(١) R. I. I. A., Documents on International Affairs, pp. 530–531.

الإنجليزية والأميركية بأنها مؤامرة أوعز بها ودبرها النازيون ضد الدول الديموقراطية. وقد كانت الدعاية المحورية قوية فى العراق ، شأنها فى البلاد العربية الأخرى . ولقد وجدت أذنا صاغية بين العرب ،لا لإيمانهم بمبادئ النازية ومثلها ، كما حاولت الدعاية المضادة أن تظهر ،بل بسبب الشعور بالخيبة الذى كان سائدا فى البلاد العربية نتيجة لموقف الدول الديموقراطية من الأمانى العربية . ولم تكن العراق غير راضية عن علاقاتها ببريطانيا فحسب ، بل كانت تحس إحساسا قويا بالقلق السائد فى البلاد العربية ، بسبب الاحتلال الأجنبى .وكانت فلسطين ، هى المشكلة الكبرى .

وقد كان الرأى الرسمى والرأى العام فى العراق متفقين وواضحين تمام الوضوح فى موقفهما من الحيف الذى نزل بفلسطين نتيجة للانتداب البريطانى . ولقد زعزع مصير فلسطين ، ثقة العرب فى الدول الغربية ، وصرفهم عن التعاون المخلص مع الغرب ، أكثر من أى سبب آخر ، بل أكثر من جميع الأخطاء التى ارتكبها المستعمرون فى البلاد العربية .

ومنذ انتهاء الحرب ، أخذ الرأى العام يلح على وجوب تعديل معاهدة ١٩٣٠ ، لأنها أصبحت غير ذات موضوع ، إذا غدت غير ملائمة للأحوال والحاجات الحاضرة وقدرحبت بريطانيا بفكرة التعديل على ضوء الأحوال الجديدة ، وتوصلت الحكومتان إلى معاهدة وقعت فى بورتسموث فى كانون الثانى (يناير) ١٩٤٨. وقد قدمتها الحكومة البريطانية بحماسة ، ورأت فيها الصحافة البريطانية نموذجا يجب احتذاؤه فى عقد التحالف مع سائر بلدان الشرق الأوسط . إلا أن تفاؤل الإنجليز كان سابقا لأوانه ؛ إذ كانت المعاهدة مناقضة كل المناقضة لأمانى الشعب العراقى .

ولم تدخل المعاهدة الجديدة تغييراً أساسياً على السياسة البريطانية .وكانت شروطها قريبة كل القرب من نصوص المعاهدة التى ستحل محلها . ولكنها عنيت بتوكيد المساواة الشكلية بين الفريقين ، أكثر مما عنيت معاهدة ١٩٣٠ [(١)] . وعندما

(١) American Perspective. Pulished by the Foundaticn of Foreign Affairs, Washtngton, February 1948, pp. 558–566.

أعلنت شروطها ثارت احتجاجات شديدة ، وقامت مظاهرات صاخبة . وأجبر غضب الشعب الحكومة على الاستقالة ، كما اضطر رئيس الوزارة إلى مغادرة البلاد . وقد أذهلت مقاومة الشعب البريطانيين . وقد قوبل رفض المعاهدة فى البلاد العربية الأخرى بترحاب شديد . وكان مصير الحكومة العراقية التى وقعت المعاهدة إنذارا للحكومات العربية الأخرى ، إذا مافكرت فى عقد معاهدات رجعية معوقة .

وحسبنا ماذكرناه عن التطور السياسى . وفى الحقول الأخرى ، كان أعظم تطور ملموس فى حقل التعليم :

كانت إدارة المعارف أول دائرة حكومية حررت من النفوذ البريطانى . وفى العراق ، أكثر من أى بلد عربى آخر تحت الانتداب ، كان على السلطات الوطنية أن تبدأ من لا شئ . فعند نشوب الحرب العظمى الأولى ، كان عدد الطلاب المنتمين إلى المدارس الحكومية الأولية ، ٧٠٢٨ طالبا . وكان عددهم فى المدارس الثانوية ٣٤٩ طالبا . وقد أقفل أكثر المدارس أثناء الحرب ، وتشرد تلاميذها . وقد افتتح الإنجليز عددا من المدارس ، إلا أنهم بوجه عام ، كانوا مقترين فى إنفاقهم على التعليم وعلى فروع الإدارة الأخرى ، التى تعود على الشعب بالفائدة المباشرة . ولم يكن هذا التقتير نتيجة للحاجة إلى المال ، إذ أن مخصصات الإدارة العليا ازدادت بين سنتى ١٩١٨ ـ ١٩١٩ و ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ، بمقدار ٢٢٠ ٪ . « والواقع أن تعليل الإخفاق فى تقديم الخدمات الاجتماعية المناسبة ، لايعزى إلى الحاجة إلى المال أو الموظفين ذوى الكفاية ، بل إلى عدم وجود الرغبة فى توفيرها »[1] . وترتب على ذلك ، أنه عندما رفع الإنجليز يدهم عن الإشراف على التعليم ، فى سنة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ، لم يكن عدد الطلاب المنتمين إلى المدارس الابتدائية الحكومية يزيد عن ٧٤٥٢ طالبا ، بينما انخفض عدد المنتمين إلى المدارس الثانوية إلى ١١٠ طلاب .

---

(١) Ireland : Iraq, pp. 142–143.

ومع ذلك كان الإنجليز يعتقدون ، كما ذكر رئيس الإدارة ، أنهم ساروا فى شئون التعليم سيراً حثيثاً [١] .

وعندما انتقل الإشراف على التعليم ، إلى السلطات العراقية ، أخذوا على عاتقهم العناية بنشر التعليم و بإنشاء نظام تعليم عام يكفل دمج العناصر المختلفة فى وحدة وطنية. وقد أنشأ الإنجليز فى العراق ، كما فعلوا فى مصر ، نوعين من المدارس فى المرحلة التعليمية الأولى : المدارس الابتدائية للأغنياء ، والمدارس الأولية للفقراء . وكانوا يعدون المدارس الطائفية بالمساعدات المالية ، دون إشراف على أبواب صرف المال ، أو سير المدارس . وكان أول عمل اضطلعت به السلطات الوطنية ، هو خلق نظام تعليمى ديموقراطى ، يبدأ من مرحلة أولية موحدة ، تقوم على مدارس من نوع واحد للأغنياء والفقراء على حد سواء . وقد طلب إلى المدارس الطائفية أن تخضع للإشراف الحكومى ، و إلا حرمت من المساعدة المالية ، فاختارت الحل الأول .

وفى العراق ، حيث تقل المدارس الأجنبية قلة ظاهرة ، وحيث عدد المدارس الوطنية الخاصة غير كبير ، وقع عبء التعليم منذ البداية على عاتق الدولة . وقد تولت السلطات التعليمية عملها بحماسة وثقة ، وكان جميع المسئولين ، ابتداء من الملك ، يشعرون بأن التعليم هو حجر الزاوية فى بناء هذه الدولة الحديثة التى شرعوا فى إقامتها . وكان فيصل يزور المدارس ويتحدث إلى المعلمين والتلاميذ . وقد أعلن عن استعداده للتعليم فى المدارس الثانوية ، بضع ساعات فى الأسبوع . وكان من حسن حظ إدارة المعارف ، أن وجد على رأسها الأستاذ ساطع الحصرى ، وهو مرب ذو خبرة واسعة ، وعالم ثبت ، ووطنى مخلص . وقد كان يجمع بين الاطلاع على الأساليب التربوية الحديثة ، والإدراك الصحيح لحاجات العراق التعليمية . ويعزى إليه الفضل فى كل ماهو ممتاز فى النظام التعليمى فى العراق .

---

(١) Wilson : op. cit., p. 175.

وقد جعل التعليم الابتدائى مجانيا منذ البداية ، وكان إجباريا حيث تسعف الظروف . وقد ألغيت مؤخرا الرسوم فى المدارس الثانوية . والتوسع فى نشر التعليم ، فى السنوات الثلاثين الأخيرة ، جدير بالتنويه . ففى سنة ١٩٢٠ ـ ٢١ ، كان عدد المدارس الابتدائيـة الأميرية ٨٨ مدرسة ، وكان عدد تلاميذها ٧٤٥٢ ، يتولى تدريسهم ٤٨٦ معلما . وبعـد عشر سنوات ، أى فى سنة ١٩٣٠ ـ ٣١ ، بلغ عدد المدارس ٣١٦ مدرسة ، وكان عدد تلاميذها ٣٤٥١٣ ، وأساتذتها ١٣٢٥ . وفى سنة ١٩٤٨ ـ ٤٩ ، كان عدد المدارس الابتدائية ١٠٥١ ، تتسع لـ ١٥١,٠٠٠ تلميذ ، وكان عدد الأساتذة ٥٨٥١ ، أى إن عدد التلاميذ تضاعف عشرين مرة ، وعدد المدارس والأساتذة تضاعف اثنتى عشرة مرة ، خلال ثمان وعشرين سنة . ولم يكن للتعليم الثانوى وجود فى سنة ١٩٢٠ ـ ٢١ . وفى سنة ١٩٣٠ ـ ٣١ كان عدد المدارس الثانوية والمتوسطة التى أنشئت ١٩ مدرسة . وكان عدد أساتذتهـا ١٢٩ ، وعدد تلاميذها ٢٠٨٢ . وفى سنة ١٩٤٨ ـ ٤٩ ، كان عدد التلاميـذ المنتمين إلى المدارس الثانوية ١٦٧٢١ تلميذاً ، تضمهم ٩٣ مدرسة ، ويتولى التدريس لهم ٨٠٠ أستاذ .

وقد عنيت العراق ، كما فعلت مصر ، بتدريب المعلمين . وقد ازداد عد الطلاب المنتمين إلى مدارس تدريب المعلمين من ٩٠ طالبا فى سنة ١٩٢٠ ـ ٢١ إلى ٤١٠ فى سنة ١٩٣٠ ـ ٣١ ، وبلغ عددهم فى سنة ١٩٤٨ ـ ٤٩ ، ٢٠٠٠ . والتعليم فى هذه المدارس مجانى ، وكذلك الإقامة .

وهنالك عدد من الـكليات للتعليم العالى لم يتم توحيدها فى جامعة حتى الآن . وهى كليات : الطب ، وطب الأسنان ، والصيدلة ، والآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والهندسة ، والتجارة والاقتصاد ، والزراعة ، ودار المعلمين العالية ، وكلية الملـكة عالية ، وكلية الشريعة .

والتعليم المهنى يعطى إما بعد إنهاء المرحلة الابتدائية ، وإما بعد المرحلة المتوسطة . وتدفع الدولة جميع مصروفات الطلاب فى المدارس المهنية . ويعطى التعليم الفنى فى معهد الفنون الجميلة ، الذى يشمل أربعة فروع : للموسيقى والرسم والنحت والتمثيل .

وفى سنة ١٩٤٩ ـ ٥٠ ، كان مجموع عدد الطلاب المقيدين فى جميع مدارس العراق ٣٧٢ ، ٢٤٣ منهم ٣٦٧٤٢ فى المدارس الخاصة الوطنية ، و ١٨٠٠ فى المدارس الخاصة الأجنبية . وكانت مخصصات التعليم فى تلك السنة ٢,٤٣٨,٠٠٠ دينار عراقى ، وذلك يعادل ٧ ، ٩٪ من الميزانية العامة [١] .

واقتصاديات العراق تقوم فى المقام الأول على الزراعة ، شأنه فى ذلك شأن سائر البلاد العربية . وتعتمد الزراعة اعتمادا كبيرا على الرى . والمطر لا يكفى الزراعة إلا فى المناطق الشمالية . وفى السهول الغرينية ، التى تغطى ما يقرب من ثلثى مساحة البلاد ، يعتمد الرى على الفيضان . ونهرا الدجلة والفرات هما للعراق الأسفل ، بمثابة النيل لمصر . ولكنهما يختلفان عن النيل بأنهما يفيضان فى وقت غير مناسب ؛ إذ يحدث ذلك فى الربيع عند ما يكون جزء من البذور قد زرع ، مما يحول دون غمر الأرض بالمياه ، كما هى الحال فى مصر .

وتتطلب إدارة النهرين والإشراف عليهما ، جهودا كبيرة وتنظيما دقيقا ، وذلك بسبب طبوغرافية الأرض . ومنطقة ما بين النهرين ، وهى تقع جنوب بغداد ، هى سهل من الغرين قليل الارتفاع ، تكوّن من اختلاط عدد كبير من دلتات النهر . ولم يبرز الوادى السفلى من البحر إلا حديثا [٢] . وهذا هو سبب وجود المستنقعات فى تلك المنطقة التى تغدو بعد فيضان الربيع مستنقعا مستديما .

---

(١) فى سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ بلغ عدد الطلاب المنتمين إلى جميع المدارس ٣٣٥,٢٤٢ منهم ٣٠١,٦٧٥ فى المدارس الرسمية و٣٠,٧٧٤ فى المدارس الأهلية و٢٧٩٣ فى المدارس الأجنبية .

(٢) Fischer : op. cit., pp. 343—437.

والدجلة والفرات ، نهران سريعا الجريان . وتيار الدجلة أسرع ، وانحداره أشد ، وتمده عدة روافد وبعضها كبير جدا ، على طول مجراه من آسيا الصغرى إلى الخليج العربى . وهـذا يجعل دجلة عرضة للفيضانات المفاجئة المدمرة ، التى تطغى على الجسور وتدمر المجارى ، فتغمر المياه مئات من الأميال المربعة . وينتهى الأمر بأن يشق النهر مجرى جديدا . والواقع أن مجارى دجلة والفرات تغيرت تغيرا عظيما عبر التاريخ [١] . وقد حاول السكان الذين قطنوا فى حوض النهرين منذ غابر الأزمان ، أن يتحكموا بمجرى النهرين . وقد بلغ نظام الرى أقصى تطوره فى القرون الوسطى ، فى عهد العباسيين ، حين أنشئت شبكة من القنوات لرى الأراضى البور ، ومصارف لتصريف المياه من المناطق التى يغمرها الماء : وكانت تبذل لهـا عناية كبيرة . ولا يتيسر إنشاء مشروعات الرى الضخمة وصيانتها ، إلا فى ظل حكومة قوية وطيدة . ولذا كان النهران ، فى أوقات الاضطرابات والقوى يتركان ليفيضا بعنف ، فيجران على الأرض الدمار .

ومنذ أنشئت الدولة العراقية الحديثـة ، نفذت بعض مشروعات الرى ووسع البعض الآخر . ومنها سد الـكوت على الدجلة ، الذى تم إنشاؤه سنـة ١٩٤٣ . وقد ساعد سد الـكوت وسد الهندية على الفرات ، والسدود الأخرى على الفرات والديالى ، وهو أحد روافد الدجلة ، على رفع مستوى المياه بحيث أصبح من الممكن استغلال مساحات واسعة من الأرض .

ولا تساعد الأراضى المسطحة فى العراق الأسفل ، على رفع مستوى الماء بالسدود. وهذه الحالة ، مع توافر البترول للوقود ، حملتهم على رفع الماء بوساطة المضخات . ولـكى تشجع الحـكومة تركيب المضخات ، أصدرت قانونا فى سنة ١٩٢٦ ، بإعفاء الأراضى التى تروى بالمضخات من الضرائب ، لفترة محدودة . وقد زادت المساحة

---

(١) Ibid., pp. 340–342.

التى تروى أربعة ملايين فدان منذ سنة ١٩١٨ .

والمشكلة الرئيسية فى الزراعة العراقية ، هى الرى وضبط الفيضان . ولذا وضع مشروعان عظيمان : أحدهما على الفرات والآخر على الدجلة ، وذلك لتحاشى أخطار الفيضان ولجر المياه إلى الأراضى البور . ومشروع الحبانية ، هو مشروع للتحكم فى الفيضان وتخزين المياه ، أساسه الانتفاع ببحيرة الحبانية غرب بغداد . ويتطلب المشروع شق ثلاث قنوات ، إحداها تنقل مياه الفيضان من الفرات إلى البحيرة . وفى أوقات الفيضانات الكبيرة تتولى قناة ثانية ، تصل البحيرة بمنخفض فى الجنوب، تصريف المياه الفائضة ، وتخزينها فى المنخفض . والقناة الثالثة ترجع المياه من البحيرة إلى النهر فى أوقات انخفاض المياه . وتقدر المساحة التى يمكن ريها بهذا المشروع بمليون ونصف المليون من الأفدنة [١] . ومشروع وادى الثرثار ، صمم لتحويل مياه فيضان الدجلة إلى منخفض وادى الثرثار بوساطة سد محول على الدجلة ، وقنوات تتجه إلى الوادى وتتفرع منه . ولزيادة التحكم فى مياه دجلة ، وضعت مشروعات لإقامة سدود للتخزين على المجرى الأعلى للنهر ، وعلى روافده . وفى سنة ١٩٥٦ دشن مشروعا وادى الثرثار وسد الرمادى على الفرات ، وهذا الأخير قسم من مشروع بحيرة الحبانية .

وإمكانات العراق الزراعية عظيمة جدا . وتربته التى تتجدد دائما بالكميات الهائلة من المواد الرسوبية التى يحملها النهران هى مضرب الأمثال فى الخصوبة. ويمكن مضاعفة الأرض الصالحة للزراعة عدة مرات ، إذا أنشىء نظام صالح للتحكم بمياه الفيضان ، واستغلت الموارد المائية استغلالا تاما .

وحيازة الأرض ، مشكلة خطيرة . ففى شمال العراق يمتلك صغار المالكين ،

---

(١) Feliks Bochenski and Willian Diamond : Tva's in the Middle East, the Middle East Journal, January 1950, pp. 77–82.

بعض الأرض ، ولـكن نظام المحاصة ، هو السائد فى سائر البلاد .

وكبار المالـكين ، وهم طبقة محـدثة [١] على نوعين هما : رؤساء القبائل ، وسكان المدن من ذوى النفوذ ، الذين يملـكون المضخات . وقبل الانتداب البريطانى ، كانت الأرض ملـكا مشاعا للقبيلة .وكان الشيخ ، حسب التقليد القبلى، فى مقدمة أفراد القبيلة المتساوين فى حقوقهم . ولـكن سلطات الانتداب ، سهلت للشيوخ الحصول على حق التملك الشرعى للأرض التى كانت بمقتضى العرف والتقاليد ، ملـكا للقبيلة . وذلك لـكى تـكسب تأييدهم . وحذت السلطات الوطنية حذو الحـكومة المنتدبة وأقطعت أنصارها مساحات شاسعة من الأرض ، وكان حصر هذه المساحات الواسعة من الأرض ، فى أيد معدودة ، سببا رئيسيا من أسباب القلق فى العراق ، إذ قاومته جميع العناصر التقدمية ، التى تتضمن برامجها الاصلاحية تحديد الملـكية ، وتوزيع الأراضى الأميرية على الفلاحين .

وقد كان قانون الدجيلة الذى صدر سنة ١٩٤٥ ، خطوة نحو إصلاح نظام ملـكية الأراضى ، إذ سمح بتوزيع أراضى الدولة على الفلاحين المعدمين ، فى المنطقة التى تقع جنوبى بغداد . وبمقتضى هـذا القانون يتسلم المستأجر ٥ ، ٦٢ فدان ، ليستغلها دون مقابل مدة عشر سنوات ، وبعـد ذلك يصبح مالـكا شرعيا لها ، على أنه لا يستطيع أن يبيعها أو يتصرف بها إلا بعـد مضى عشر سنوات أخرى . وفى سنة ١٩٥٠ طبق القانون على مساحات أخرى من الأرض . وفى سنة ١٩٥١ خولت الحـكومة حق التصرف بأراضى الدولة وفقا لقانون الدجيلة .

ويقوم النظام الزراعى فى العراق على الزراعة الواسعة النطاق ، وعلى التنقل بين الأراضى . وذلك أنه فى حالة عدم وجود نظام جيد لتصريف المياه ، تـكثر الملوحة فى الأرض وتضعف تربتها . ولهذا يغادرها الفلاح إلى سواها ، نظراً لعدم

---

(١) Warriner, op. cit., p. 107.

وجود ضغط من السكان على الأرض ، ويتركها حتى تعود صالحة للزراعة . وفى مثل هذه الظروف ، ونتيجة لشيوع نظام المحاصة ، لا ينتظر من الفلاح أن يعنى بالأرض ، أو أن تتوافر لديه القدرة والعزيمة على إدخال التحسينات طويلة المدى .

وتختلف المحصولات الزراعية ، باختلاف مناطق البلاد . ففى السهول العالية المتحدرة والوديان فى الشمال ، تزرع الفواكه بأنواعها ، وأشجار المناخ المعتدل . ومن أهم محصولات هذه المنطقة التبغ «الدخان» . وفى الجنوب يزرع الشعير والقمح على نطاق واسع . والرز هو أهم المحصولات الصيفية . وتلائم تربة العراق ومناخها زراعة القطن . ومما يحول دون زراعته نظام المحاصة الذى يقوم على اقتسام المحصولات . ولا يرغب المستأجرون فى المحصولات المعدة للبيع فقط ، بل يفضلون عليها زراعة المحصولات التى يستطيعون استهلاكها بأنفسهم . زد على ذلك ، أن زراعة القطن تحتاج إلى رى مستمر ، الذى من شأنه أن يتلف التربة ، ويرسب الأملاح فيها ، إذا لم يكن هنالك نظام صالح لتصريف المياه . وعند ما يتم إعداد العدة لزراعة القطن ، سيصبح من أهم محصولات التصدير ، كما هى الحال فى سوريا . والتمور هى أهم الصادرات . ويبلغ ما يصدره العراق منها ، ٨٠٪ من تجارة العالم فيها . وأشجار النخيل تمتد من بغداد إلى الخليج الفارسى . ولهذه الأشجار فوائد أخرى كثيرة غير التمور . فخشب النخيل يستعمل فى البناء والأثاث . وتصنع السلال والحصر والحبال من سعفه . ويقوم عدد كبير من السكان بتربية الحيوان . وتصدر الأغنام والماشية إلى البلاد المجاورة . وتصدر الجلود والصوف والشعر إلى أوروبا وأميركا .

وقد أثمرت جهود الحكومة فى الإصلاح الزراعى ، على الرغم من ضيق نطاقها . وللحكومة عدد المزارع والمشاتل التى تستخدمها لإجراء التجارب ، ولإمداد الفلاح بالمساعدة والإرشاد . وفى محطات التجارب الزراعية تقوم الحكومة بتجارب مختلفة منظمة على الحبوب وبذور الكتان والقطن . وزراعة الفواكه والمكسرات

آخذة فى النمو ، بفضل محطة البستنة فى الزعفرانية . وقد نجحت المشاتل فى إيجاد أنواع جديدة مختارة من المزروعات والأشجار . وقد تحسنت محصولات التمور بإجراء التجارب على الأنواع المختلفة . واتسعت تجارتها بالإعلان عنها فى الأسواق العالمية وبتحسن أساليب التعبئة والتسويق . والخدمات البيطرية ومكافحة الآفات تسير سيرا حسنا . وتقوم إدارة التعليم الريفى فى وزارة المعارف بجهود مشكورة فى نشر الثقافة الريفية ، مع العناية بالزراعة عناية خاصة .[1] .

وتمول مشروعات الأعمار من عائدات النفط . وحقول النفط العراقية المؤجرة إلى شركة نفط العراق تنتج منذ ١٩٣٤ . وقد وسع إنتاج النفط بفتح حقل الزبير الواقع غربى البصرة سنة ١٩٥٢ ، وزادت العائدات بنتيجة الاتفاقية الجديدة التى أعطت العراق ٥٠ بالمئة من الأرباح ابتداء من شهر يناير سنة ١٩٥١ ، وقد بلغت عائدات البترول فى سنة ١٩٥٥ مقدار ٧٢ مليون دينار . ويخصص ٧٠ بالمئة من عائدات النفط إلى الغايات الأعمارية . وفى سنة ١٩٥٠ أنشئت هيئة خاصة فى مجلس الأعمار العراقى لوضع برامج الأعمار وتنفيذها ، وتشتمل صلاحيات هذا المجلس على إحياء الأراضى ومشروعات الرى وضبط الفيضان ، والمواصلات ، والإنشاءات العامة ، والصناعة والتعدين ، والخدمات الاجتماعية . وقد أسس المجلس فى الأصل على أساس من الاستقلال . وذلك لإبعاده عن الضغط السياسى ، ولكن صلاحياته حددت فى سنة ١٩٥٣ ، فاستقال عدد من كبار أعضائه بنتيجة هذا التدبير .

وفى شهر أبريل سنة ١٩٥٥ أنهيت المعاهدة الإنجليزية العراقية لعام ١٩٣٠ ، وعقدت فى مكانها اتفاقية جديدة مدتها خمس سنوات بين العراق والحكومة

---

(١) Keen : op. cit., p. 65, 86–87.

البريطانية ، أصبح العراق بموجبها مسئولا عن الدفاع عن أرضه ، وتسلم قاعدتى الشعيبة والحبانية اللتين جلت عنهما القوات البريطانية . غير أن الاتفاقية ربطت العراق بجهاز الدفاع البريطانى ، إذ نصت على أنه فى حالة وقوع هجوم على إيران ، تقوم بريطانيا بتقديم القوات والتجهيزات للدفاع عن العراق ، ويقدم العراق من جانبه كل مافى وسعه لجعل هذه المساعدة فعالة . ويلاحظ البريطانيون جيش العراق وقواته العسكرية ، لا فى الحرب وحدها ، بل وفى السلم أيضا ، وذلك بموجب نصوص الاتفاقية التى تنظم قيام السلطات البريطانية والعراقية بالتعاون فى وضع خطط الدفاع العسكرى عن العراق ، وتوجد جهازا مشتركا للتدريب . وكانت الحكومة العراقية قد دخلت قبل ذلك ، وفى السنة ذاتها ، باتفاقية مع تركيا ـ هى حلف بغداد ـ الذى انضمت إليه باكستان وإيران وبريطانيا .

ولكن الحكومة العراقية عقدت كلا من حلف بغداد ، والاتفاقية الجديدة بين العراق وبريطانيا ، فى ظروف منع فيها التعبير الحر عن الرأى فى العراق حول هذه الارتباطات ؛ إذ كانت الحكومة قبل توقيعهما قد حلت الأحزاب السياسية ، وأغلقت جرائد المعارضة ، وأجرت الانتخابات بطريقة أبعدت المعارضة ومكنت من ملء البرلمان بمؤيدى الحكومة . ولما كان هذان الاتفاقان لا سند لهما من الشعب ، فإن قيمتهما ، بالنسبة للدول الموقعة ، مشكوك فيها .

يضاف إلى ذلك أن حلف بغداد واتفاقية عام ١٩٥٥ بين بريطانيا والعراق لا ينسجمان مع الاتجاهات السائدة فى البلاد العربية الأخرى . لذلك فقد عزل العراق وضعف بشكل محسوس دوره فى الحركة السائرة قدما فى ثبات نحو الوحدة العربية .

الفصل الثانى عشر

المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية

إن أهم تطور حدث فى تاريخ الجزيرة العربية الحديث ، هو ظهور عبد العزيز ابن سعود ، وتوحيد الجزء الأكبر من الجزيرة ، تحت راية المملكة العربية السعودية .

كان ابن سعود ، حوالى نهاية الحرب العظمى الأولى مغموراً ، بالنسبة إلى الشريف حسين ملك الحجاز ، الذى كان أكثر منه بروزاً . وقد تزعم الحسين الثورة العربية ، وجمع حوله فئة من الأحرار والوطنيين ، فى جميع البلاد العربية . وقد رفع من مكانته المعنوية ، وجعل مركزه فريدا بين الحكام العرب ، تحدره من صلب النبى ، وإشرافه على حماية المدينتين المقدستين : مكة والمدينة .

إلا أن الحسين ، خيب الآمال التى كانت معقودة عليه . فإن سياسته الاستبدادية ، نفرت منه العناصر المتطلعة إلى الحرية . كما أن فساد حكم الحجاز فى عهده أدى إلى انتشار الفوضى واضطراب حبل الأمن ، وقد عاد كل ذلك بالضرر ليس على سكان الحجاز فحسب ، بل على جموع الحجاج الذين يؤمون الحجاز ، من جميع أنحاء العالم الإسلامى . وقد أدى به جنون العظمة إلى إعلان نفسه ملكا على العرب ، بادئ ذى بدء ، ثم إلى انتحال لقب الخلافة ، حين قوض الحكم الكمالى معالمها فى تركيا . وقد أثار هذا الادعاء ، الحنق فى نفوس سائر الحكام العرب ، وخاصة ابن سعود . وقد أدى اعتداؤه على الأراضى السعودية ، إلى نشوب المعارك بينه و بين الوهابيين ، وخضوع الحجاز للحاكم الوهابى .

وقد كانت علاقات الحسين مع الانجليز محزنة . فقد وثق ثقة عمياء فى اتفاقية حسين ـ مكماهون ، وكان يحمل نسخة منها فى جيبه . إمعانا فى الاطمئنان . وقد آلت الوثيقة أخيرا ، بصرف النظر عن غموضها فى الأصل إلى لا شىء ، نتيجة للوعود والتعهدات المختلفة التى نقضتها . وقد أبى الحسين أن يصل إلى اتفاق ، وأصر على أن تفى بريطانيا بالعهود التى قطعتها له . وكان بصورة خاصة ، متشددا فى موقفه من فلسطين . ولم يجانبه الصواب حين فهم أنها تدخل فى نطاق الدولة العربية المستقلة التى نص عليها الاتفاق الذى عقد بينه وبين بريطانيا .

وقد كان من حق الحجاز ، بوصفه إحدى الدول المتحالفة أن ينضم إلى عصبة الأمم . ولكن لم يتح له الدخول فيها ، لأن الحسين أبى أن يوافق على ميثاق العصبة ، الذى نص على الانتدابات الإنجليزية والفرنسية للبلاد العربية ، وعلى إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين . وفى صيف ١٩٢١ ، أرسل الإنجليز لورنس إلى جدة ، حاملا إلى الحسين معاهدة تتضمن موافقته على خطط الإنجليز فى البلاد العربية ، وبخاصة المشروع الصهيونى لفلسطين . وقد رفض الحسين ذلك رفضا باتا ، مع العلم بأن رفض المعاهدة المقترحة ، كان معناه فقدان المساعدة البريطانية له . « ولم تجد الرشوة والوعيد فى زحزحة الرجل العجوز عن موقفه ، وقد كان ساخطا كل السخط على موقفنا من القضية عامة » .(١)

وكان صمود الحسين فى رفضه التنازل عن حقوق العرب جديرا بالإعجاب ، إلا أنه لم يكن مجديا ، لا بسبب إلحاح السياسة البريطانية فحسب ، بل بسبب مركزه الضعيف أمام المفاوض البريطانى أيضا . ولو أنه كان حاكما موفقا وزعيما محنكا ، فى معاملته لشعبه ، حريصا على مصلحته ، حكيما فى علاقاته مع سائر الحكام العرب ، متمتعا بثقتهم وصداقتهم ، لوجد من التفاف الشعب حوله ، ما يدعم موقفه أمام الإنجليز . إلا أن الإنجليز وجدوه عنيدا ومضطربا فى علاقاته معهم ، مكروها من

(١) Philby, Arabian Days, p. 228.

شعبه فأزمعوا تنفيذ خططهم ، ولم يأبهوا لاعتراضه . وعندما نشب القتال بينه وبين ابن سعود ، بعد بضع سنوات ، تخاذل الإنجليز عن مساعدته ، لأنهم كانوا يعتقدون أنه غير كفء وعندما ترك الحجاز ، أخذه الإنجليز إلى قبرص حيث ظل منفيا ، حتى قبل وفاته بزمن قصير .

بدأ ابن سعود ، سيد الجزيرة وأحد الشخصيات الهامة فى تاريخ العرب الحديث، حياته لاجئا مشردا . وقد تمكن آل سعود ، بفضل ارتباطهم مع حركة الإصلاح الدينى الوهابية ، من السيطرة على جزء كبير من الجزيرة ، فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . وخلال القرن التاسع عشر ، أكرهت هذه الأسرة على التنازل عن نفوذها ، أولا للمصريين فى عهد محمد على ، ثم لأسرة ابن رشيد المنافسة ، التى تمكنت قبل نهاية القرن من إجلاء آل سعود عن موطنهم الأصلى نجد . وقد استقر المنفيون فى الكويت على الخليج العربى . وقد لمع اسم عبد العزيز بن سعود ، ابن الحاكم المنفى ، لأول مرة وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، حين اقتحم الرياض عاصمة نجد ، سنة ١٩٠١ ، على رأس جماعة مؤلفة من أربعين رجلا ، واستطاع أن يستولى عليها ، على حين غرة . وقد استعاد سلطان الأسرة ، وأخذ فى توسيع منطقة نفوذه . وكان ابن رشيد ، أشد أعدائه خطرا . وقد حاصره فى عاصمته حائل سنة ١٩٢١ ، وقضى بذلك على نفوذ هذه الأسرة المعادية . وعندما استولى ابن سعود سنة ١٩٢٥ على الحجاز ، بلاد الإسلام المقدسة ، تألق اسمه فى نظر جميع المسلمين ودخل أتباعه الوهابيون عالما جديدا لم يكن لهم به عهد من قبل .

وفى سنة ١٩٢٦ عقد ابن سعود مؤتمرا إسلاميا فى مكة . ولأعمال هذا المؤتمر أهمية لأنها كشفت عن الخطط التجديدية التى كانت تشغل عقل الحاكم الوهابى . وقد كانت وقائع المؤتمر التى وضعت بين يدى الأعضاء ، تشمل الإصلاح الإدارى ، والتنظيم الصحى ، وخططا لتعبيد الطرق ، وغير ذلك من القرارات التى تمهد السبيل

لإصلاح شامل يتناول جميع مرافق الحجاز .

ويمتاز حكم ابن سعود ، بسياسة حسن الجوار التى اتبعها منذ البداية . فقد عقد عدة معاهدات مع أعدائه السابقين ، تعيد المياه إلى مجاريها . وتستبدل علاقات الصداقة ، بالخصومات السابقة . وتنمى روح التعاون والسلام بين الأطراف ذات الشأن . وقد سوى مشكلات الحدود والقبائل مع السلطات العراقية ، فى عدة مؤتمرات عقدها معها . وفى ربيع ١٩٢٦ ، عقدت معاهدة تحالف بين المملكة العربية السعودية والعراق . وعند ما كانت المفاوضات جارية فى بغداد حدث خلاف حول إحدى مواد المعاهدة . وقد اقترح مندوب العراق ، ياسين الهاشمى ، على المندوب السعودى أن يتصل بابن سعود ويسأله رأيه فى موضوع الخلاف . فجاء رد ابن سعود سريعا ، يحمل إلى مندوبه التعليمات بأن يأخذ برأى ياسين الهاشمى فى كل مادة من مواد المعاهدة المقترحة .

وفى سنة ١٩٣٣ عقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع شرقى الأردن ، على الرغم من النزاع على العقبة التى ضمت إلى الأردن ، فى حين أنها كانت جزءا من الحجاز ، حين استولى عليه ابن سعود .

وفى صيف ١٩٢٩ عقدت معاهدتا صداقة إحداهما مع تركيا والأخرى مع إيران . ويعتبر اتفاق الحاكم الوهابى مع إيران الشيعية ، خطوة سياسية بارعة ؛ إذ أنها أحلت التفاهم والعلاقات الودية محل الخصومات الدينية التقليدية ، بين الوهابيين والشيعة . والمعاهدة التى عقدت مع مصر فى إيار (مايو) ١٩٣٦ ، وضعت حدا للنزاع طويل الأمد الذى ساد العلاقات بينهما [١] .

ولمعاهدة الطائف ، التى أنهت النزاع بين المملكة العربية السعودية واليمن ،

(١) Royal Institute of International Affairs : Survey of International Affairs, 1930, pp. 172—173 ; Documents on International Affairs, 1937, p. 517

أهمية خاصة . وقد نشب هذا النزاع حول حدود الدولتين فى عسير . فأرسل ابن سعود وفدا إلى صنعاء ، عاصمة اليمن ، آملا فى أن يصل إلى تفاهم حول مشكلة الحدود ، وقد سحب جنوده من الأرض المتنازع عليها ، إلى أن يحصل الاتفاق المرجو . فسار إمام اليمن إلى المنطقة التى أخلاها جنود خصمه ، وأخذ مندوبيه رهائن عنده . وقد أدى ذلك إلى نشوب نزاع انتصرت فيه القوات السعودية انتصارا ساحقا . وبرهن ابن سعود على أنه فاتح نبيل النفس ، إذ كانت اليمن مفتوحة أمام قواته ، ولكنه أمر بإنهاء القتال ، واستدعى جنوده . وعقد مؤتمر للصلح فى الطائف ، فى إيار (مايو) ١٩٣٤ . ولم تفرض المعاهدة التى انبثقت عن المؤتمر ، عقوبات على المنكسر ، أو غنائم للمنتصر . بل نص على أنها « وضعت لتنمية وحدة الأمة العربية » ، وذلك بالتعاون الوثيق بين الطرفين المتعاقدين ، وبإقامة علاقات جوار وروابط صداقة بينهما ، وبدعم الحياة السلمية الهادئة بين الحكومتين والشعبين (١) .

وبعد الاستيلاء على الحجاز ، سارعت بريطانيا إلى الاعتراف بابن سعود حاكما مستقلا . وقد تأكد اعترافها هذا بمعاهدة جدة التى وقعت فى إيار (مايو) ١٩٢٧ . ومن الطريف أن نلاحظ الفرق بين هذه المعاهدة ، ومسودات المعاهدات التى اقترحت على الشريف حسين ، والتى تعترف فيها الحكومة البريطانية ، باستقلال الحسين فى الحجاز ، على شرط أن يوافق على عبارة تشير إلى مركز بريطانيا الممتاز فى البلاد الواقعة تحت انتدابها ، وعلى تنفيذ وعد بلفور فى فلسطين . وقد آثر الحسين أن يفقد مملكته على أن يوقع بيده على التفريط فى حقوق العرب ، لمصلحة الانجليز والصهيونيين . ولم تكرر الحكومة البريطانية التجربة مع ابن سعود .

---

(١) Documents, 1934, pp. 454–458.

خلق ابن سعود ، وصفات القيادة متمثلة فيه . وقد وضعت هذه الصفات على على محك التجربة مرات عديدة ، طوال حياته التى كانت مليئة بالأحداث ، متألقة بالنجاح . وفى مجتمع تقل فيه القوانين المكتوبة قلة ظاهرة ، ولا يعتد فيه بالعلوم المودعة فى الكتب ، ينبغى للزعيم أن يفهم نفسية الشعب ، وطبيعة البيئة التى يعيش فيها . وقد توافر هذا الفهم لابن سعود ، على أتم صوره . فكان على وعى تام بطبيعة بيئته ، لأنه نتاج هذه البيئة فى أحسن حالاتها . وتتجلى فيه صفات الرئيس التقليدى ، فى المجتمع الذى يسوده النظام الأبوى ـ من حنكة فى تقدير الرجال ومعالجة الأحداث ، وصبر فى معاملة الناس ، وعطف على الجميع ، حتى على أحط رجال القبائل شأنا ، وعدل سريع نزيه لا يحابى ، وشجاعة وكرم . ونتيجة لتيقظ ابن سعود وعدله وحزمه توقفت غارات القبائل ، وعاشت بلاد العرب فى أمن يفوق الأمن السائد فى بعض مدن الغرب الكبيرة . ويضرب المثل بكرمه ، فهو يجود على كل إنسان ، ويعطى دائماً . ولم يكن جوده هذا نتيجة للثروة التى طرأت عليه عقب اكتشاف البترول . بل هو مركب فى جبلته ، وقد رافقه حتى عندما كان لا جئا معدما . فكان يخلع ثوبه الذى يكسو بدنه ، عندما لا يجد شيئا آخر يجود به . والذين عرفوه على مرّ السنين ، يشهدون بأنه أجود من السحاب . وأعظم دليل على شجاعته ، تلك المملكة التى حازها بقوة ساعده . وفى جسمه ندوب الجروح التى أصيب بها فى المعارك الكثيرة التى خاض غمارها لدعم دولته . ولم يكن من المتيسر لرجل أقل قوة منه ،أن يتغلب على تلك العقبات التى اعترضت سبيله فى أيامه الأولى. ولكن ابن سعود لم يستسلم للهزيمة حتى فى أحلك ساعاته ولم تخنه شجاعته ، ولا ضعفت عزيمته فى يوم من الأيام . ولم يكن شئ يستطيع أن يصرفه أو يحول خطاه الثابتة ، عن الهدف الذى يسعى إليه بثقة وأمل . وقد كانت شجاعته ثابتة سواء فى المعارك التى يخوضها ،أو فى إمضاء بعض القرارات فى أوقات ليست أقل حرجا من أوقات المعارك . وكان يستشير زعماء القبائل تمشيا مع العرف القبلى العريق ، ولكنه

كان عندما يعتزم أمرا ، لا يتردد فى تنفيذه ولا يثنيه عنه سبب من الأسباب .

وخير ما يدل على حصافته وحكمته ، سلو كه مع الإخوان ، وهى جماعة صعبة المراس . وهذه الفئة ، التى تعتبر العمود الفقرى للمملكة السعودية ، شديدة التعصب فى حماستها الدينية ، عنيدة فى تصميمها . ونظرتهم إلى الأمور ، محدودة بحكم ضيق تجر بتهم . وقد حملهم ابن سعود على الإذعان بالإقناع . وعندما كان ابن سعود ، يشيد بناء دولته ألحوا عليه فى الهجوم على الكويت والعقبة، لأنهم كانوا لايطيقون أن تحول عقبة من العقبات دون تقدمهم . ولكن ابن سعود نصح بالحذر وكبح الجماح ، لأنه كان يدرك ما يترتب على ذلك من تعقيد عظيم للأمور ، ومن عقبات فى المجال الدولى . وعندما حاول ، فيما بعد ، إدخال وسائل المواصلات الحديثة ، والإصلاحات الأخرى إلى البلاد ، اعترض الإخوان سبيله ، خشية أن تكون هذه التجديدات مخالفة للشرائع والمعتقدات الدينية . وقد بذل ابن سعود جهدا كبيرا لإقناعهم بمشروعاته ، وكسب تأييدهم لها . وقد تمكن من ضمان ولائهم ومعاضدتهم له ، فى جميع المناسبات .

وكان ابن سعود يحكم البلاد بطريقة أبوية ، فهو يستمع إلى جميع الشكاوى بنفسه ويشرف بنفسه على تنفيذ تعليماته ، شأنه شأن رب الأسرة المدرك لمسئوليته . ولم يكن من اليسير أن يصبح ابن سعود حا كما مستبدا فى تلك البيئة ، ذلك أن الشريعة تحول دون قيام الحكم الفردى ، وكذلك نزعة الحرية المتأصلة فى نفوس أبناء الصحراء .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة المجتمع العربى فى الصحراء ، وجدنا أن التغيرات التى طرأت على البلاد فى عهد ابن سعود ، وبتوجيهه ، كانت بعيدة المنال . ومن أقدم التطورات التى حدثت وأهمها ، توطين القبائل الرحل فى مستعمرات سميت

« هجر » [1] ، وقد بدأ ذلك منذ سنة ١٩١٢ . فقد أدرك ابن سعود تمام الإدراك ، أنه لا يستطيع توحيد مملكته ما دامت الولاءات القبلية سائدة ، والمنازعات القبلية تمزق السكان شر ممزق . وقد كانت « الهجر » جماعات تربط بينها ولاءات تعلو على الولاء للقبيلة . وكان يربط بين الإخوان الإيمان بالمذهب الوهابى ، والاستقرار فى بيوت ثابتة تقوم فى أراض يمكن استغلالها . وقد غدت الصحراء بفضل النشاط الزراعى الذى قامت به هذه المستعمرات ، من حفر الآبار وحرث الأرض و بذر البذور ، أراضى زراعية . وكانت الهجر أيضا مراكز لنشر الدعوة للمذهب الوهابى . فكان الإخوان يبعثون إلى القبائل ليتولوا تعليمها و إرشادها ، وليقودوا خطاها نحو حياة الاستقرار . وكان الإخوان ، سواء منهم الوعاظ والفلاحون ، يذبون عن العقيدة ويتولون حمايتها . وقد كانوا القوة المحاربة فى الدولة .

كانت البلاد العربية السعودية حتى اكتشاف الزيت بلادا فقيرة جدا . وقد بلغ إيرادها الحكومى سنة ١٩٣٨ ، ٢٥ مليون ريال سعودى ، أى ما يعادل ٧ ملايين دولار ، كان المصدر الرئيسى لها هو الإيراد الجمركى الذى شكل ما بين ٤٠و٥٠ بالمئة من المجموع ، وتلاه فى الأهمية رسوم الحج . وقد انخفض الإيراد من الجمارك والحج فى فترة الحرب انخفاضا كبيرا وأجلت عمليات النفط ، وكانت قد ابتدأت بداية بسيطة قبل ذلك . وفى السنوات التى تلت الحرب توسع التنقيب عن النفط توسعا هائلا وقفز الإنتاج بحيث أصبحت المملكة السعودية فى عداد الدول الرئيسية المنتجة للنفط . وارتفع الإيراد حتى بلغ ٥٥ مليون دولار تقريبا ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ، وهى أول سنة نشرت فيها ميزانية المملكة ، ومنذ سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ استمر نشر الموازنات

---

(١) الاسم مشتق من الفعل « هجر » . ويعنى هنا الهجرة من الحياة القبلية وعاداتها ، إلى الحياة المستقرة .

بانتظام. وقد بلغ الإيراد فى سنة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ١,٣٥٥,٠٠٠,٠٠٠ ريال سعودى ، أى ٣٦٥,٠٠٠,٠٠٠ دولار .

ولقد قيل الكثير عن التبذير فى إنفاق الثروة المتحصلة من النفط ولكن قد تم إنشاء مشروعات عمرانية هامة .

إن للمملكة العربية السعودية كثيراً من الحاجات الملحة . فهى بلاد شاسعة معظمها صحراوى ، ولذلك فمن حاجاتها الأولى إيجاد نظام من المواصلات يربط بين أطرافها المتباعدة . وقد تم منذ عام ١٩٥١ تنفيذ مشروع كان قريبا إلى قلب الملك عبد العزيز آل سعود ، وهو خط السكة الحديدية الذى يربط الرياض بالدمام على الخليج العربى . ويجرى إعداد المخططات لتمديد الخط إلى جدة . وشقت الطرق وعبد بعضها ، وأنشىء ميناء عميق فى الدمام ووسع ميناء جدة وعمق . وفى سنة ١٩٤٩ تسلمت الحكومة السعودية القاعدة الجوية التى أنشأها الجيش الأميركى أثناء الحرب فى الظهران . وهنالك خطوط جوية منتظمة تربط مطار جدة بالقاهرة وغيرها من العواصم العربية . وفى داخل البلاد يوجد اتصال جوى بين المدن الرئيسيه . وقد افتتح سنة ١٩٥٥ خط للتلفون اللاسلكى بين المملكة السعودية ومصر وسوريا ولبنان . ونفذت مشروعات لكهربة المدن الرئيسية وإيصال مياه الشرب إليها ، وهناك مشروعات أخرى مماثلة لها هى الآن فى حيز التنفيذ . وبنيت محطة حديثة للحجر الصحى فى جدة ودشنت فى مطلع عام ١٩٥٦ ، وهى مزودة بالمستشفيات ، والعيادات الطبية ، والصيدليات ، وتتسع للجموع التى تتوافد على الحجاز فى موسم الحج . وقد استفاد الحجاج من استتباب الأمن ومن تيسير المواصلات والمياه ، ومن إلغاء رسوم الحج . ومن الأعمال العمرانية ذات الأهمية الدينية بالنسبة للمسلمين فى جميع أقطارهم ترميم المسجد النبوى بالمدينة وتوسيعه وابتداء مشروع مماثل يتناول الحرم المكى والمنطقة المجاورة . وتوسع الرياض الآن لتصبح عاصمة بالفعل ، عند ما تنتقل إليها

الدوائر الحكومية والبعوث الدبلوماسية الموجودة حاليا فى جدة .

وقد شرع فى تنظيم الخدمات الطبية والتعليمية . وأصبح من الضرورى إيجاد نظام حديث للتعليم وذلك لإعداد الأشخاص القادرين على إدارة شئون البلاد وتنمية مواردها والإشراف على علاقاتها الخارجية الآخذة فى الاتساع يوما بعد يوم . وفى السنوات الأخيرة حصلت زيادة ملموسة فى عدد المدارس والتلاميذ وفى الأموال المخصصة للتعليم . وقد بلغت ميزانية التعليم فى سنة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ، ٤٨،٥٩٦،٠٠٠ ريال سعودى[1] . وبلغ عدد المدارس فى السنة ذاتها ٤٩٧ مدرسة مجموع تلامذتها ٥٣،٤٣٤ ومجموع أساتذتها ٢١٨٨ أستاذا . وهنالك أنواع ثلاثة من المدارس الابتدائية : المدارس الابتدائية النظامية ، ومدارس القرى ، والمدارس القرآنية . أما على المستوى الثانى فإن التعليم الدينى يعطى فى نوع من المدارس ـ هى المعاهد العلمية السعودية ـ بينما تعطى المدارس الثانوية المدنية الدروس الثانوية المعتادة . وتقوم كلية المعلمين بإعداد المعلمين للمدارس الثانوية ويدرب المعلمون فى صفوف التربية الملحقة بعدد من المدارس الثانوية . وكلية الشريعة الإسلامية فى مكة ـ المؤسسة سنة ١٩٤٩ ـ تعد القضاة والوعاظ ومعلمى الدين . وبرنامجها مطابق لبرنامج كلية الشريعة فى جامعة الأزهر . وقد دشنت الكلية العسكرية فى الرياض سنة ١٩٥٥ ، وسميت كلية الملك عبد العزيز آل سعود . وأنشئت مدرسة صناعية فى جدة ، كما أن المدارس التى أنشأتها شركة النفط العربية الأميركية فى منطقة أعمالها بالقسم الشرقى من المملكة تهيىء التعليم المهنى والفنى .

وقد أصبحت المملكة العربية السعودية معتمدة اعتمادا كليا تقريبا على النفط . وهذا وضع غير سليم تجب معالجته بخلق مصادر أخرى للدخل . فمع أن البلاد قاحلة إلا أن امكاناتها الزراعية تفوق ما يفترض عادة بشأنها . إذ حتى فى الحجاز القاحل

---

(١) كانت ميزانية التعليم فى السنة السابقة ٢٠،٠٠٠،٠٠٠ ريال سعودى .

نجد دلائل تشير إلى نشاط زراعى مهم فى الأعصر القديمة ، وتصف الآثار الأدبية ازدهار الحجاز الزراعى فى عهد الأمويين . وكان شمال الحجاز بشكل خاص مليئا بالمدن الزاهرة والمستعمرات الزراعية . وآثار السدود العديدة تشهد بالعنابة والجهد اللذين كانا يبذلان فى الرى . وأحد هذه السدود يقع إلى الغرب من الطائف ، وقد بنى سنة ٦٨٠ م . فى عهد معاوية أول خليفة أموى ، وما يزال إلى اليوم فى حالة جيدة ، وهو يشاهد قائماً منذ زهاء ثلاثة عشر قرنا من الزمن يدل على المهارة الهندسية لبانيه ، عبد الله إبراهيم [١] .

ويتناثر فى البلاد عدد كبير من الينابيع الصغيرة والآبار . غير أن هناك مناطق مائية هامة ثلاثا : العسير الجنوبى ، والاحساء ، ومنطقة الخرج القريبة من الرياض . وقد أنشئت فى الخرج مزرعة نموذجية بالتعاون بين الحكومة وشركة آرامكو . ويتكون المشروع من إرواء ٣٠٠٠ فدان بإقامة مضخات كبيرة وشق قناة ، ويزرع عدد من المحصولات ، بينها بعض المحصولات التى أدخلت حديثا بعد تجربتها . وخصص قسم من المزرعة لتربية المواشى والدواجن . وقد أنشئ فيها مصنع صغير لعصير الفاكهة . وأقيمت محطات أخرى للتجارب الزراعية فى الهفوف والقطيف والطائف ووادى فاطمة .

ومنطقة الاحساء ـ التى تبلغ مئة ميل طولا وخمسين ميلا عرضا ـ هى مستودع واسع للمياه الأرتوازية . وبعض ينابيعها شديدة الغزارة ، غير أن مشكلة الزراعة فيها هى قلوية الأرض . فما لم تنشأ الأقنية لتصريف المياه ، فإن كثيرا من المياه الثمينة سيذهب هدرا .

وتتمتع منطقة جنوبى العسير بأعلى كمية من المطر فى المملكة السعودية كلها ، إذ يهطل عليها سنويا ما بين ١٠ و ١٢ بوصة «أنش» من الأمطار ، وتجرى الجداول أشهرا

[١] K. S. Twitchell : Saudi Arabia, Prtnceton University Press, 1947, p. 38.

عديدة فى السنة . وقد وافقت الحكومة على مشروع لتنمية المياه والأراضى تقدمت به بعثة من منظمة التغذية والزراعة الدولية سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ ، وابتدأ العمل فى وادى جيزان . ويتكون المشروع من بناء سد متوسط الحجم لخزن المياه التى تضيع حاليا فى البحر الأحمر ، ليمكن استعمالها فى فصل الجفاف وفى السنوات القاحلة . وتبنى سدود ثلاثة لتعلية مستوى الماء لكى يمكن رى جانبى الوادى ، وتشق الطرق التى تصل بين النقاط المهمة فى نظام الرى المقترح وميناء جيزان . وتحسن تجهيزات هذا الميناء ليستطيع استقبال المراكب التى تجلب مواد البناء اللازمة لتنمية المنطقة ، ولتستطيع فى المستقبل أيضا شحن منتجاتها الزراعية . وصدق على مشروع يرمى إلى رصف طريق يصل جيزان بجدة .

لقد أوجد المملكة العربية السعودية ملك عظيم ، وورث خلفه الملك سعود مملكة موطدة الأركان و بلدا فيه إمكانات الثروة . ولكنه لم يرث مهمة سهلة . فالتحدى الذى استجاب له الملك عبد العزيز ببطولة عظيمة يواجه خلفه فى شكل جديد ؛ إذ أن التحدى الجديد هو فى بناء المملكة بشكل ينسجم مع مقتضيات العصر ، وهذا يتضمن فيما يتضمنه إنشاء إدارة نزيهة قادرة ، وتدريب الموظفين والخبراء بإعداد كبير ، ونشر التعليم ، ووضع برنامج شامل منسق للتنمية والتعمير ، على أن يطبق على مراحل مر بوطة بآجال محددة ، وبالتالى مشاركة الشعب فى ثروة البلاد مشاركة تامة . وإن مواجهة هذا التحدى لتحتاج حكمة وشجاعة وإخلاصا لا تقل عما أبداه الملك الراحل عبد العزيز آل سعود فى توحيد هذه المنطقة الواسعة الأرجاء التى أصبحت المملكة العربية السعودية ، وفى نشر الأمن فى ربوعها .

إن تعاون الملك سعود الوثيق مع مصر وسوريا ـ وهما البلدان العربيان اللذان يتبعان سياسة تقدمية فى أمورهما الداخلية وسياسة مستقلة فى الأمور الخارجية ـ يلقى تأييدا من جميع العرب الأحرار . وسيؤتى هذا التعاون كامل ثمراته عندما تدعمه

سياسة داخلية متطلعة بقوة وبحماسة إلى الأمام مما سيؤدى إلى نتائج هامة ليس بالنسبة للعرب فحسب ، بل للمسلمين فى كل مكان ـ وذلك بسبب الوضع الخاص الذى تتمتع به المملكة العربية السعودية فى العالم الإسلامى .

والمملكة السعودية هى الدولة الأولى فى الجزيرة العربية . وتليها اليمن ، وهى أكثر عزلة من جارتها السعودية . وتعزى هذه العزلة فى المقام الأول إلى شخصية حاكمها السابق ، الإمام يحيى ، الذى كان سىء الظن بكل نفوذ خارجى . وكان بصفة خاصة سىء الظن بالإنجليز ، جيرانه فى عدن والمحميات ، الذين كان يخشى نياتهم تجاه اليمن . ولما كان على علم بالخصومة التى بين بريطانيا وإيطاليا ـ وقد كانت إيطاليا فى يوم من الأيام تحلم بإقامة إمبراطورية على البحر الأحمر ـ دعا الإيطاليين إلى إرسال بعثة طبية إلى عاصمة صنعاء ، ومنحهم حق الأسبقية فى المشروعات التى تقام فى البلاد . وقد أدى وجود الإيطاليين فى اليمن إلى اعتراف الانجليز بالإمام ، وإلى عقد معاهدة معه ، تسوى الخلافات القائمة بينهما . وقد نجح الإمام ، خلال مدة حكمه الطويل ، فى تجنيب اليمن الوقوع تحت سيطرة أى حكم أجنبى مهما كان نوعه . ولكنه حال أيضا دون تمتع بلاده بأى أثر من آثار المدنية الحديثة .

وكانت اليمن معزولة حتى عن الدول العربية الأخرى . وبلغ من عزلتها أنه عند ما قتل الإمام فى كانون الثانى (يناير) ١٩٤٨ ، وأعلنت حكومة أخرى على رأسها حاكم جديد ، حار معظم الناس فى تفسير هذا الحادث المفاجىء ؛ إذ أن قلة من الناس كانت على علم بمدى تبرم اليمنيين الذين لهم بعض الاتصال بالخارج ، من هذا العهد الذى انتقضوا عليه ، ومبلغ إرهاقه لسائر أبناء البلاد . وكانت قلة من الناس تعلم بوجود حركة إصلاحية فى داخل البلاد . وقد ألف اليمنيون الأحرار الذين استقروا فى عدن جمعية وأصدروا جريدة ، سموها « صوت اليمن » . وكانوا

يذيعون بها آراءهم الإصلاحية ، لتصل إلى سكان اليمن ، ولليمنيين الذين يعيشون خارج البلاد . وقد تزعم الحركة أحد أبناء الإمام . وكان واضحا من منشورات الجمعية اليمنية ، ومن المقالات التى نشرت فى صحيفتها ، أن سياسة العنف لم تكن تخطر لهم ببال ، وأن الإصلاح يجب ألا يتم بالثورة ، بل بإدخال النظم الحديثة تدريجيا . وقد وضعت الجمعية برنامجا ينص على إقامة حكومة ديموقراطية ، مقتبسة من النظام الديموقراطى فى الغرب ، مع تعديله بحيث يلائم تقاليد اليمن وعاداته . ويبقى نظام الإمامة سائدا ، ولكن لا بد من الحد من سلطة الإمام الفردية ، وذلك بإنشاء جمعية تشريعية تتألف من الأعيان والشبان المثقفين الذين يعينون تعيينا . وقد اعتبر نظام الانتخاب غير ملائم ، نظرا للأحوال السائدة فى البلاد . وتتألف الحكومة من وزراء مسئولين أمام الجمعية التشريعية . وتعتمد الإدارة على موظفين يعينون على أساس الجدارة . ويضع البرنامج الأسس التى يجب أن يتم عليها إصلاح القضاء والأنظمة المالية والخراج . وينادى بتنمية اقتصاديات البلاد ، بوساطة مشروعات الرى ، والتوسع فى الزراعة وتحسين أساليبها ، واستغلال المناجم المعدنية ، وإقامة الصناعات التى تعتمد على المواد الخام الموجودة فى البلاد ، وتحسين نظام المواصلات الداخلية ، وتوسيع الموانئ . ويحث على وجوب الإسراع فى مكافحة الأمية ونشر التعليم ، وذلك بإيجاد المدارس على اختلاف أنواعها ، وبإرسال البعوث إلى الخارج ، واستقدام الأساتذة من البلاد العربية الأخرى . ولم يصرف النظر عن الحاجة الماسة إلى الخدمات الصحية العامة . وينادى أخيرا بضرورة توسيع العلاقات مع العالم الخارجى وذلك بتبادل الهيئات القنصلية والبعوث الدبلوماسية . وفى الوقت نفسه يجب صيانة استقلال البلاد وذلك بتقوية الجيش وتنظيمه تنظيما عصريا .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن رجال الدين ساندوا اليمنيين الأحرار فى

مطالبهم ، إذ رفعوا إلى الأمام عرائض يصفون فيها حالة البؤس التى يعانى منها الشعب ، ويطالبون بالإصلاح ، باعتباره الوسيلة الوحيدة للاستقرار ، ويحذرونه من أن مصير البلاد هو الخراب ، إذا لم يبادر حالا إلى إصلاح الأمور . وعند ذكر الجمعية اليمانية أخبر أحد رجال الدين المحترمين الإمام ، بأن الناس ينفرون من كل حدب وصوب للانضمام إلى الجمعية ، ولمعاضدتها معنويا وماديا ، لأن مظالمهم حقيقية ، ولأنهم مؤمنون كل الإيمان بعدالة قضيتهم .

ولقد أخفقت محاولة تغيير النظام القائم بالقوة ، ذلك لأن اغتيال الإمام العجوز هزّ الرأى العام العربى داخل اليمن وخارجها . ولأن هؤلاء الذين تولوا تصريف الأمور ، لم يحسنوا التصرف . على أنه من الخطأ أن نفترض أن النظام الحالى ، وهو صنو النظام السابق ، يستطيع أن يتشبث بالعزلة أو يتجاهل وعى الشعب المتزايد للمظالم وشعوره بالكبت والحرمان الذى قد ينفجر مرة أخرى . وسائر أجزاء الجزيرة العربية محاطة بحلقة من المعاهدات التى تربط رؤساءها ببريطانيا على درجات متفاوتة من التبعية .

وقبضة بريطانيا قوية فى الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة ـ مستعمرة عدن والمحميات . وقد ضمت المحمية الشرقية سنة ١٩٣٧ ، على الرغم من وجود معاهدات وقعت مع شيوخ حضرموت منذ زمن بعيد . ومنذ ذلك الحين وهى تحكم كما تحكم المستعمرات .

وهنالك شىء من الاستقلال الداخلى فى إمارات الخليج العربى . وتشرف بريطانيا على سياستها الخارجية ، وقد احتفظت لنفسها بالحق فى اتخاذ القرارات الخاصة باستغلال بترولها ومصائد اللؤلؤ فيها .

وعمان أقل ارتباطا ببريطانيا . وقد حافظت على شىء من الاستقلال الذاتى

بحيث أقام فى عاصمتها قنصل بريطانى ، بدلا من المعتمد السياسى ، كما هى الحال فى إمارات الخليج العربى . وقد ارتبطت عمان خلال القرن التاسع عشر بمعاهدات مع عدد من دول الغرب ، ومنها الولايات المتحدة التى ارتبطت معها بمعاهدة صداقة وتجارة سنة ١٨٣٣ . وتعتبر الولايات المتحدة هذه المعاهدة سارية المفعول حتى اليوم .

وفى الخليج العربى ، على بعد أميال قليلة من الشاطىء السعودى وقطر ، تقع جزر البحرين التى يبلغ عدد سكانها ٠٠٠ ، ١١٠ نسمة . والموارد الرئيسية للدولة تأتى من عائدات البترول والتجارة ـ الداخلية والترانزيت ـ وصناعة اللؤلؤ . ويعتمد عدد كبير من السكان فى رزقهم على صيد السمك وبعضهم يشتغل فى بناء السفن . وقد مكنهم وجود المياه الجوفية العذبة من زراعة النخيل وأنواع مختلفة من الفاكهة وبعض الخضراوات . وتوجد ينابيع المياه العذبة أيضا تحت الخليج على مقربة من الشاطىء . ويتولى إدارة البلاد مستشار الأمير الانجليزى . وقد بذلت جهود مثمرة فى حقل التعليم ، فقد وضع نظام صالح للتعليم الابتدائى ، للبنين والبنات . ويقدم التدريب المهنى فى مدرسة صناعية متوسطة . وهنالك مدرسة حديثة للتعليم الثانوى للبنين . وفى البحرين جمعية أدبية نشطة ، تتبع التطورات فى البلاد العربية الأخرى بدقة وتيقظ . ولسان حالها مجلة « صوت البحرين » الشهرية . وفى المدة الأخيرة حصلت مطالبة جدية بإصلاح يتضمن إنشاء المؤسسات التى تمثل الشعب ، وتخفيض السيطرة البريطانية وقد اتحد السنة والشيعة فى البحرين تحت راية القومية العربية . ومن مظاهر هذه الوحدة اعتراض السكان على تعداد كل طائفة على حدة فى الإحصاء الذى جرى سنة ١٩٥٠ ، وقد ألغت الحكومة طريقة التعداد هذه بناء على اعتراض الشعب . ومن المظاهر العملية المعبرة عن الشعور بالترابط العربى مقاطعة اسرائيل التى طبقتها الحكومة تحت تأثير الضغط الشعبى .

لقد اتجهت الأنظار مؤخرا صوب الكويت لما فيها من الكميات الهائلة من

احتياطى النفط ، وأصبحت تعتبر بسبب ذلك مهمة من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية . فقبل اكتشاف النفط كان الكويتيون يعيشون ، كسائر سكان الشاطئ العربى من الخليج ، على التجارة ، والغوص على اللؤلؤ ، وصيد الأسماك ، وبناء السفن الشراعية . إلا أن هذا البلد الصغير الذى يبلغ سكانه ٠٠٠ ، ١٥٠ أصبح أكبر منتج للنفط فى الخليج العربى . وقد وفدت إليه ثروة عظيمة منذ سنة ١٩٥١ عندما عقد الاتفاق بين الشيخ الحاكم وشركة نفط الكويت على تقاسم أرباح النفط مناصفة بينهما . وإن معالم الكويت تتغير فى سرعة كبيرة بسبب الأموال التى تنفق فيها . فقد نمت مدينة الكويت بحيث يصعب التعرف عليها ، ونبتت على الخليج مدينة للنفط هى الأحمدى . وأنشئت وسائل الخدمة الاجتماعية فبنيت عدة مستشفيات ، بعضها يعتبر أفضل مستشفيات الشرق الأوسط تجهيزا . وإن تقدم التعليم لمدهش بشكل خاص ؛ إذ أن العلم لم يكن يعطى حتى سنة ١٩٣٦ إلا فى المدارس القرآنية وفى مدرستين أدخلت إليهما بعض نظم التعليم الحديثة وهما المدرسة المباركية والمدرسة الأحمدية . وعندما ابتدأت إدارة المعارف الكويتية أعمالها سنة ١٩٣٦ خصص لها عشر إيرادات الجمارك التى تستوفى على أساس ٥ بالمئة من قيمة البضائع المستوردة . وكانت هذه الإيرادات تشكل جميع واردات حكومة الكويت تقريبا . إلا أن الأموال أصبحت متوافرة بكثرة منذ سنة ١٩٥١ ، وقد بلغت ميزانية التعليم فى سنة ١٩٥٢ ، ٤٢ مليون روبية [1] . وبلغ عدد المدارس فى السنة ذاتها ٣٩ مدرسة مجموع طلابها ١٠٧٣٨ بينهم ٣٥٥٠ من البنات .

والكويت ، على ثروتها الهائلة فى البترول ، لا تكاد تمتلك ماء عذبا ، بل إن ماء الشرب يستورد بالقوارب من البصرة . وقد أنشئ جهاز ضخم لتكرير

---

(١) إن ثلاث عشرة روبية وجزءا من الروبية تساوى جنيها استرلينيا واحدا .

مياه البحر منذ أوائل سنة ١٩٥٣ . وعقدت اتفاقية بين الكويت والعراق تسمح للكويت أن يستجلب الماء العذب من شط العرب بوساطة قناة .

إن اكتشاف البترول أخرج الجزيرة العربية من عزلتها النسبية ، كما أنه أحدث تغييرا كبيرا فى حياة السكان . فالثروة الضخمة التى جاءت بغتة وما تبعها من إدخال أساليب وعادات جديدة تشكل تحديا هائلا للقيم الموروثة فى الجزيرة العربية .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل الثالث عشر

فلسطين

كانت نتيجة إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين ، طرد سكانها العرب من بلادهم. لقد أكره زهاء مليون من العرب على أن يغادروا وطنهم ومساكنهم ، وحل محلهم فى ديارهم أناس غرباء . وقد ترك اللاجئون وراءهم كل ما يملكونه ، وأكثرهم يعيش الآن فى يأس مرير . ويقيم العدد الأكبر منهم فى خيام تنهار إذا ما هبت عليها ريح شديدة . وهى لا تقيهم تقلبات الجو ، من ثلج وبرد قارس فى الشتاء ، وحرارة لاهبة فى الصيف . وقد أوى بعضهم إلى بيوت غالبا ما تكون غاصة بالسكان ، أو متداعية على وشك الانهيار . ولجأ بعضهم إلى الكهوف ، بعد أن أقاموا مدة تحت ظلال الأشجار .

والأحداث التى وقعت منذ أن اتخذت منظمة الأمم المتحدة قرارها بشأن تقسيم فلسطين ، لم تمس بكثير أو قليل جوهر المبدأ القائل بأن حق أى شعب من الشعوب فى المحافظة على كيانه وتقرير مصيره ، أمر جوهرى طبيعى ليس لأحد أن ينكره عليه .

وقد أنكر هذا الحق على العرب فى فلسطين . وبمقتضى القرارات الدولية ـ التى صدرت أولا عن عصبة الأمم ثم عن هيئة الأمم المتحدة ـ هدد سكان فلسطين فى صميم وجودهم . وبموافقة السلطات الدولية ، التى كانت بريطانيا ، وهى إحدى الدول الديموقراطية الكبيرة ، أداة لها ، حرم عرب فلسطين من المجالس التمثيلية الديموقراطية ، وهى الضمان الوحيد ضد الظلم فى الداخل والخارج . ولا مناص من

تفصيل الحديث فى هذا الموضوع بسبب تجاهل هذه المبادئ أو تحريفها عند صدور ذلك القرار الجائر ، و بسبب جهل أكثر الناس ، حتى المستنيرين منهم ، لحقيقة الأمر ، ولأن النتائج التى نجمت عن ذلك ، ما تزال عظيمة الخطورة .

ومن المهم أن نؤكد منذ البداية ، وأن نتذكر دائما ، أن المأساة التى مثلت على أرض البلاد المقدسة ، خلقتها قوى وظروف غريبة على البلاد ، ولم يكن للسكان الأصليين سلطان عليها ، ولهذا لا يصح أن يعتبروا مسؤولين عنها . إن وعد بلفور والانتداب البريطانى على فلسطين واضطهاد اليهود فى أوربا ، وتدخل القوى الأجنبية ، وخاصة أميركا ، بتأثير الضغط الصهيونى ، كل ذلك أدى إلى خلق الظروف التى مزقت البلاد المقدسة وزرعت فيها بذور الكراهية والخصومة ، بينما كان الواجب أن تظل هذه البلاد حصنا للسلام على الأرض والحسنى بين الناس ، وهى جديرة بذلك أكثر من أى بلد آخر .

ولا يعرف التاريخ قضية تغلبت فيها الأهواء وانتصرت النزعات المغرضة كقضية فلسطين . وقلّ أن منيت مشكلة من المشكلات بمثل ما منيت به تلك المشكلة من اضطراب التفكير وسوء التقدير . وندر أن كان هنالك مثل هذه الخشية والتراجع فى مواجهة الحقائق كما هى ، ووضع حل مبنى على المنطق المحتوم الذى توحيه هذه الحقائق .

ومن الخير أن نتذكر مساحة فلسطين . فطولها مائة وستون ميلا ، وأقصى ما يبلغه عرضها لا يتعدى سبعين ميلا . ومن قمم تلالها تتيسر مشاهدة عرضها كاملا من البحر المتوسط إلى البحر الميت . وأرضها التى تبلغ مساحتها ١٠ آلاف ميل مربع ، أغلبها من الصحارى والتلال الصخرية . والأرض الصالحة للزراعة والاستغلال فيها ، صغيرة جداً . ويتضح من ذلك أنه لم يكن هنالك متسع فى هذه الرقعة الضيقة لإدخال عنصر جديد يزاحم سكانها الأصليين الذين استقروا فيها .

وتاريخ فلسطين أيضا لا يخلو من العبرة ، وهو يلقى ضوءا على هـذه القضية التى نتناولها بالبحث . إن فلسطين فى نظر عامة المسيحيين ـ وخاصة البروتستنت ـ الذين نشأوا على قراءة العهد القـديم ، هى أرض اليهود . وينتهى تاريخها بظهور المسيح ، وتلا ذلك فراغ بلغ ألفى عام . ومن هنا سادت تلك الفـكرة الشائعـة عن هذه البلاد الخالية التى تنتظر شعبها الذى شرد ردحا من الزمن ليعود ويعمرها . ومن هنا القول : اعطوا البلاد التى لا شعب لها إلى الشعب الذى لا بلاد له . ولـكن الإلمام البسيط بحقائق التاريخ ، كفيل بتصحيح هذا الخطأ .

دخلت القبائل اليهودية أرض فلسطين ، فى جماعات متفرقة وفى أوقات مختلفة . والهجرة الأولى لهم كانت من بلاد ما بين النهرين وهى مرتبطة بابراهيم . والهجرة التى تلتها كانت فى القرن الرابع عشر قبـل الميلاد وهى معاصرة للموجة الآراميـة التى نزلت فى سورية . وكان يسكن فلسطين فى ذلك الحين الـكنعانيون ، وكانوا قد استقروا فيها منذ ألفى سنة ، وأقاموا فيها حضارة راقية ومنهم أخذت البلاد اسمها : « أرض كنعان » . وإذا قورن الغزاة العبرانيون بهؤلاء ، كانوا جفاة متأخرين ـ وقد دعاهم خصومهم المتمدنون : « خبيرو » ، وهى كلمة من أصل بابلى تعنى : بدوى ، لص ، مرتزق . ومنها اشتقت كلمة « العبرانيون » [١] .

وأخذ العبرانيون فى غزو التلال والأراضى المـكشوفة . وظلت السهول بمدنهـا المحصنة فى أيدى الـكنعانيين سكانها الأصليين . ولم يتمكن العبرانيون من وصول البحر ، أو السهل الساحلى الخصب [٢] .

وبعد وصول العبرانيين إلى أرض كنعان بزمن قصير ، وعند ما كانوا يشقون طريقهم إلى التلال ، كان شعب آخر من أصل مغاير يستولى على الشاطئ .

---

(١) A. T.—Olmstead : History of Palestine and Syria, New york 1931, p.196

(٢) Ibid., p. 270.

وهؤلاء هم الفلسطينيون الذين أجلاهم عن موطنهم فى جزر بحر إيجه تدفق الإغريق فطافوا على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، واستقروا أخيرا على الشاطئ الكنعانى، وأطلقوا عليه اسمهم : فلسطين .

وتأسست المملكة اليهودية سنة ١٠٠٠ ق . م . ، واستخلص داود أورشليم من أيدى اليبوسيين . وفى نهاية حكم ابنه سليمان لم تعد أورشليم عاصمة لدولة موحدة. وبعد موته انقسمت المملكة إلى قسمين : يهوذا فى تلال اليهودية ، وإسرائيل فى السامرة . واحتفظ الفلسطينيون بالسهول والتلال المنخفضة بين السهل الساحلى والجبال . واستولى البدو على النقب فى عهد ابن سليمان (١) .

وفى سنة ٧٢٢ ق . م . غزا سرجون الأشورى السامرة ، المملكة الشمالية . وتبع ذلك نقل عدد كبير من السكان . فأخذ الإسرائيليون إلى بابل ، وأسكن مكانهم بعض الأسرى الذين جلبوا من البلاد المقهورة الأخرى . وسقطت مملكة يهوذا فى يدى الملك الكلدانى نبوخذ نصر ، الذى دمر أورشليم والهيكل سنة ٥٨٦ ق . م . وأسر أبناء الطبقات الراقية ، وترك الفلاحين فى أراضيهم (٢) .

وعند ما تغلب الفرس على الكلدانيين ، بعد نصف قرن ، ووسعوا دولتهم حتى البحر الأبيض المتوسط ، سمحوا لمن يرغب من اليهود ، بالعودة و بإعادة بناء الهيكل . ولم يعد منهم سوى عدد قليل . فلقد استقرت كثرتهم فى بابل ، حيث كونوا جالية ناجحة . أما الذين عادوا فلم يقابلوا بالترحاب ، لأن الأرض التى أجلى عنها أجدادهم لم تكن خالية من السكان . فقد أسكن الملوك الأشوريون المتتابعون أسراهم فى هذه الأرض التى أجلى عنها سكانها . وكان الأدوميون يسكنون جنوبى فلسطين حتى حبرون (الخليل) . وكان الفلسطينيون ما يزالون محتفظين بالسهل

---

(١) Ibid., p. 253.

(٢) Ibid., pp. 460, 527.

الساحلى والتلال وراءه ، حتى اليهود المقيمون أنفسهم ، لم يشعروا بالعطف على أولئك العائدين من المنفى [١] .

ولم يجدد بناء الهيكل حتى عادت جماعة أخرى من المنفيين فى عهد داريوس الأول . وكانت فلسطين وسورية وقبرص ، تكوّن الولاية الخامسة فى امبراطورية داريوس التى أعيد تنظيمها [٢] .

وحوالى نهاية القرن الرابع ق . م . ، انتصر اسكندر الأكبر على الفرس واستولى على امبراطوريتهم . وبعد وفاته دخلت فلسطين فى حكم السلوقيين ، وهى أسرة هلنية ورثت القسم الآسيوى من امبراطورية الإسكندر . وقد سعى أحد ملوكهم إلى صبغ اليهود بالصبغة الهلنية . وكان اليهود آنذاك ، كما هم اليوم ، منقسمين على أنفسهم فيما يختص بعلاقتهم بالعالم المحيط بهم . فآثر بعضهم الاندماج فى الهلينيين ، وقاوم البعض الآخر غزو الثقافة الإغريقية مقاومة شديدة . ونشبت الثورة المكابية ، بدوافع دينية وقومية فى القرن الثانى ق . م . ، وأنشئت دولة يهودية لتقاوم الغزو الهلينى . وقد بلغ تعصب المكابيين لليهودية ، أنهم فرضوا على الشعوب التى تغلبوا عليها اعتناق اليهودية ، وإلا كان مصيرهم الإبادة الإجماعية . وخيروا سكان الجليل ـ وهم الإيتوريون ، وكانوا من أصل عربى ، ولكنهم يتكلمون الآرامية ـ بين الطرد والختان [٣] .

---

(١) Ibid pp. 557–559

(٢) Ibid., pp 560–562, 577

(٣) إن أقدم حادث تاريخى معروف من حوادث « التعصب الدينى » هو قيام اليهود المكابيين بقيادة اسكندر جانيوس ياكراه « سكان الجليل من غير اليهود على اعتناق الديانة اليهودية ، وذلك فى الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد » .

Toynbee : A Study of History Vol. VIII pp. 278–279

وعندما خلف الرومان السلوقيين ، دخلت فلسطين مع سائر سورية تحت حكمهم . وجعلت مملكة تابعة يرأسها هيرودوس الأدومى . وفى هذه الفترة ، كان اليهود فئة من السكان فقط كما كانوا فى السابق ، وكان السامريون والوثنيون يقاسمونهم البلاد . وقد ثار اليهود على الرومان ، مما أدى إلى تخريب أورشليم وهدم الهيكل . وكان ذلك سنة ٧٠ ب . م . وقد آذن ذلك بنهاية الدولة اليهودية . ونشبت ثورة أخرى فى سنة ١٣٢ ـ ١٣٤ ، ولكنها أخمدت . وبعد ذلك تلاشت القومية اليهودية من الوجود حتى بعثت ثانية على أيدى الصهيونيين المحدثين .

ومع أن اليهود نفوا أو طردوا فى بعض الأحيان من فلسطين ، فقد كان خروجهم فى أحيان كثيرة بمحض اختيارهم . وقد كان اليهود ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من المهاجرين ، يتركون فلسطين سعيا وراء الثروة فى بلاد تهيىء لهم فرصا أحسن مما تهيؤه تلال اليهودية القاحلة . حتى فى أيام المسيح ، كانت الجاليات اليهودية مزدهرة فى فارس وبابل وآسيا الصغرى ومصر وروما وغيرها من بلدان البحر الأبيض المتوسط .

وعندما أصبحت فلسطين بلدا عربيا فى القرن السابع ب . م . ، كانت صبغتها اليهودية قد تلاشت منذ زمن بعيد . ولم يتوقف تاريخ الدولة اليهودية منذ القرن الأول الميلادى فحسب ، بل إن معتنقى الديانة اليهودية كانوا قلة بين السكان ، الذين كانوا يدينون بالمسيحية فى المقام الأول ، وكانت لغتهم وثقافتهم آرامية ، منذ زمن سابق لظهور المسيح . وكانوا من حيث العنصر منحدرين من أصلاب الشعوب التى عمرت فلسطين طوال تاريخها كالكنعانيين والفلسطينيين والادوميين وعدد آخر من الشعوب الصغيرة ، ومن اليهود الذين اعتنقوا المسيحية . وقد تزاوج العرب مع السكان الأصليين ، وغدت فلسطين عربية لا بالفتح فقط بل وبصهر هذه الشعوب فى البوتقة العربية أيضا .

ولم تكن فلسطين فى عهد العرب دولة منفصلة ، بل كانت جزءا من وحدة أكبر ، وقد كانت كذلك فى عهد الرومان والدول التى سبقتهم . ومرت فلسطين أثناء العهد العربى ، بتطورات وحلت بها نوازل كثيرة ، كان من بينها الحروب الصليبية التى استمرت أكثر من قرنين ، إلا أن شخصية البلاد الأصلية لم تتغير . وعند ما انتقلت فلسطين وسائر سورية إلى الحكم العثمانى فى القرن السادس عشر ، ظلت حياة الشعب سائرة على وتيرتها الأولى دون أن تتغير ، وفقا للتقاليد الموروثة . فبقيت اللغة العربية والثقافة متماسكتين ، واستمرت وحدة البلاد مع البلدان العربية المحيطة بها . وكانت سلطة الأتراك ظاهرة فى المدن الكبيرة فقط ، أما فى القرى فقد كانت وهمية ضئيلة .

وعند نشوب الحرب العظمى الأولى لم تكن فلسطين مستعمرة ، بل كانت ولاية تابعة للدولة العثمانية . وكانت تتمتع بقسط من الحكم الذاتى ، أكبر مما أتيح لها فيما بعد ، فى عهد الانتداب الإنجليزى . فكانت ترسل ممثليها إلى مجلس المبعوثان فى الآستانة . ولم تكن ثورة العرب على الأتراك أثناء الحرب ناجمة عن ضغط الحكم التركى ، بقدر ما كانت منبثقة عن رغبة طبعية قوية فى الاستقلال وفى العمل على بعث التراث العربى بحرية وانطلاق .

أما اليهود ، فقد بقيت جماعات قليلة ، مبعثرة منهم ، مقيمة فى فلسطين بعد أن أصبحت بلادا عربية . وكان مركزهم الرئيسى منطقة الجليل ، حيث أنشأوا فى فترة من الفترات مدارس دينية . إلا أن مركز اليهودية الدينى ، كان قد نقل إلى بلاد مابين النهرين ، قبل الإسلام بعدة قرون . وبقى هناك عندما أصبحت تلك البلاد — التى عرفها العرب باسم العراق — جزءا من الإمبراطورية العربية الإسلامية . ثم نقل إلى أسبانيا ، وكانت فى ذلك الحين تحت حكم العرب أيضا . وفى العصور الحديثة ، أصبح المركز الدينى لليهود فى أوربا الشرقية ، التى كانت حتى أواخر القرن التاسع عشر تضم أكبر عدد من اليهود .

وقد منح اليهود فى فلسطين التسامح والحماية ، اللذين أوصى الإسلام بمنحهما لأهل الكتاب . وقد منى اليهود بالضرر أثناء الحروب الصليبية . وفى القدس نفسها اندثروا تمام الاندثار . وعندما طردوا من أسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر ، توجه قلة منهم إلى فلسطين ، بينما استقر عدد كبير منهم فى البلدان العربية الأخرى كشمالى أفريقيا ومصر واليمن . وبعضهم استقر فى أوربا ، وخاصة فى هولندا وألمانيا . ولجأ عدد كبير منهم إلى سالونيك ، وكانت آنئذ جزءا من الدولة العثمانية . وكان عددهم فى فلسطين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ٨٠٠٠ نسمة ، كما ذكر منتفيورى ، الثرى الإنجليزى اليهودى الذى زار فلسطين ليدرس إمكانية الحصول على الأرض لإسكان بعض أبناء دينه من الأوروبيين ، فى مستعمرات زراعية [١] . وقد ازداد عددهم خلال النصف الأخير من ذلك القرن ، عندما أنشأ اليهود الروس عددا من المستعمرات الزراعية ، حين هربوا من حركة الاضطهاد التى أعقبت اغتيال القيصر اسكندر الثانى . وبينما هاجر إلى فلسطين آلاف قليلة من يهود شرقى أوربا ، هاجر زهاء ثلاثة ملايين منهم إلى العالم الجديد .

وفى ذلك الحين أخذت فكرة القومية اليهودية فى الظهور . وكان عضدها الأول تيودور هرتزل ، وقد كان يهوديا نمسويا متحررا ، إلا أنه اعتنق الفكرة القومية ، حين شهد محاكمة دريفوس مندوبا من إحدى صحف ڤينا الحرة ، وشهد حركة اللاسامية التى تجلت فيها . وقد رأى فى كتابه « الدولة اليهودية » (Der Judenstaat) أن إقامة دولة يهودية ، من شأنه أن يخفف من حدة اللاسامية ، وذلك باستيعابها المهاجرين الذين يؤمونها من الدول التى يكثر فيها اليهود . وقد اتجهت أنظار هرتزل إلى فلسطين ، نظرا للصلات العاطفية والروحية التى تربطها باليهود ، مع أنه فى بادئ الأمر لم يعلق أهمية تذكر على مركز هذه

---

(١) Nevill Barbour : Nisi Dominus, london 1946, p. 32.

الدولة ، وكان على استعداد لقبول العرض البريطانى بمنحه مقاطعة فى شرقى أفريقيا . وقد أنشأ المؤتمر الصهيونى ليمثل اليهود على اختلاف أوطانهم . وغدا هذا المؤتمر منبر القومية اليهودية .

وقد اتصل هرتزل بالملوك و برجال السياسة بغية الحصول على فلسطين لليهود . فتقدم إلى عبد الحميد سلطان تركيا المسيطر على فلسطين وعرض عليه المال اليهودى ليسدد الديون التركية ولينعش خزينة الدولة ، لقاء التنازل عن فلسطين لليهود . وقد رد عبد الحميد على هذا العرض قائلا : « فليحتفظ اليهود بملايينهم ، فلو قدر لامبراطوريتى أن تتمزق فقد يحصلون على فلسطين بلا مقابل . ولن يتم ذلك إلا إذا مزقت أوصالنا ، ولن أوافق على أن تمزق وأنا حىّ »[١] .

وظل هرتزل مع ذلك يفاوض ، ويتقدم للسلطان شتى وسائل الإغراء . وكان فى مفاوضاته يمثل اليهود باعتبارهم الحلفاء الطبيعيين للمسلمين ضد النصارى . وكان يتنبأ بمستقبل زاهر للدولة العثمانية ، حين تتجدد قواها بأموال اليهود ، ووعد بأن يستخدم اليهود نفوذهم لتهدئة الشعور المعادى لتركيا ، الذى تولد فى أوربا على أثر مذابح الأرمن . وحصل اليهود لقاء هذه الوعود والإغراءات على نتيجة غير مجزية ، إذ سمح لهم بأن يقيموا مشتتين فى جميع الولايات الآسيوية التابعة للدولة ، باستثناء فلسطين ، على شرط أن يصبحوا رعايا عثمانيين .

وفى الوقت نفسه استمزج هرتزل القيصر الألمانى بشأن هجرة يهودية واسعة النطاق إلى فلسطين . وقد أوصى إلى العاهل الألمانى بأن فلسطين اليهودية ستغدو مركزا من مراكز الثقافة الألمانية فى الخارج ، كما أن اليهود سيساعدون فى تنفيذ أعظم مشروع للتوسع الألمانى فى الشرق ، وهو سكة حديد برلين ـ بغداد[٢] . ونصح

---

(١) Quoted in Barbour, op. cit., p. 45.

(٢) Ibid pp 47—48.

هرتزل القيصر بأنه يحسن صنعا لو تخلى عن بعض العناصر من سكان البلاد ، كالمرابين الذين يمكن إرسالهم إلى فلسطين . وحذر القيصر أيضا بأنه إذا لم ينجح مشروع فلسطين « فإن مئات الألوف من معاضدينا سينضمون إلى الأحزاب الثورية » (١). ولكن لم تبدر بادرة تشجيع من القيصر الذى كان آنئذ يتودد إلى السلطان والعالم الإسلامى . وعرضت على القيصر الروسى مغريات مماثلة ولكنه لم يستجب لها . وأخيراً اتجه هرتزل إلى انجلترا ، حيث عرض عليه وزير المستعمرات قطعة من الأرض فى شرقى أفريقيا ، إحدى مستعمرات بريطانيا ، وهى تعرف اليوم باسم كينيا . وكان مناخ هذه القطعة صحيا ، وأرضها صالحة للزراعة ، كما أن مساحتها تعادل مساحة فلسطين . وقد سر هرتزل لهذا العرض ، إلا أن المؤتمر الصهيونى رفض أن يعتبرها بديلا من فلسطين .

وأثناء الحرب العظمى الأولى حاول الصهيونيون ثانية أن يكسبوا معونة الأتراك والألمان . فجددوا للأتراك وعودهم المالية السابقة ، ووعدوا بتجنيد جيش من يهود بولونيا ليحارب إلى جانب تركيا إذا هى تعهدت بإعطاء التأكيدات اللازمة لاستيطان اليهود فلسطين . ولأول مرة برزت فكرة القومية العربية على مسرح الحوادث ؛ إذ لفت الصهيونيون نظر الأتراك إلى القلق الذى يبديه العرب على مصيرهم ، وأكدوا لهم أن يهود فلسطين سيقفون فى وجه مطالبة العرب بالاستقلال (٢) .

وعندما اتصلوا بالألمان ، أكدوا لهم ارتباط المصالح الألمانية بالمصالح اليهودية . ذلك أن ثقافة اليهود ألمانية ، وسيعملون على تأسيس مركز ثقافى وتجارى حديث ، على الشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، يكون سندا للنزعة الألمانية ، بطريقة

---

(١) Elmer Berger : The Jewish Dilemma pp. 90—91.

(٢) Barbour, op. cit., 54—55

مباشرة أو غير مباشرة . [١] ولا يقتصر هذا المشروع على الناحية الثقافية فحسب ، بل إن له أهمية اقتصادية وسياسية أيضا ، إذ « ستغدو فلسطين نتيجة للهجرة اليهودية إليها . . . قاعدة سياسية تجارية ، جبل طارق تركى ألمانى ، على ثغور المحيط الإنجليزى العربى » [٢] .

ومع ذلك كله كانت المفاوضات التى أجريت مع الحكومة الإنجليزية الوحيدة التى آتت أكلها . فقد تكشفت عن وعد بلفور الذى أعطى فى ٢ تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩١٧ وهو ينص على ما يلى : « إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، مع البيان الجلى بأن لا يفعل شىء يضير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة فى فلسطين الآن . ولا الحقوق والمركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى » .

ولقد منح وعد بلفور الصهيونيين ما كانوا يسعون إليه بجد ، منذ نشأة الصهيونية السياسية ـ « منحهم وطنا اعترف به علنا ، بضمانات شرعية » [٣] أما استعمال كلمة « وطن » بدلا من كلمة « دولة » ، فقد أريد به كسب أكبر قسط مستطاع من تعضيد اليهود ، الذين خشى أكثرهم ، أن يلحق تأسيس الدولة اليهودية ضررا بالغا بوضعهم فى مختلف البلاد التى كانوا ينتمون إليها . ولكن الصهيونيين كانوا يبيتون فكرة تأسيس هذه الدولة منذ بداية حركتهم ، كما يتضح من تصريحات هرتزل ، مؤسس الصهيونية السياسية ، ومن تصريحات الزعماء الذين أتوا بعده . فلم يكونوا يرمون إلى إيجاد ملجأ أو وطن روحى ، بل إلى تحقيق السيادة اليهودية .

---

(١) Quoted in Barbour, p. 54.

(٢) Quoted in Barbour. p. 55 ; see also Berger, op. cit., pp. 77 – 96.

(٣) Herzel at the First Zionist Congress, quoted in Jeffries : Palestine the Realitv, p.39.

ووعد بلفور مثل بليغ على البراعة فى التخلص والغموض فى التعبير . وفى الواقع أن الحكومات البريطانية المتعاقبة والساسة الانجليز أنفسهم ، فسروه تفسيرات مختلفة . فمع أنه لم يعد اليهود بشىء ملموس ، فمن الممكن تفسيره أيضا بأنه يمنح اليهود كل شىء ـ من موطن ثقافى فى فلسطين إلى دولة يهودية فيها . أما العرب الذين كانوا فى سنة ١٩١٧ ، يشكلون ٩٣٪ من عدد السكان ، فإن التصريح لم يذكرهم حتى بالاسم . فهو يشير إليهم بقوله : « الجماعات غير اليهودية المقيمة فى فلسطين » . تلك الإشارة التى توحى ، سواء أكانت مقصودة أم غير مقصودة ، بأنه يعتبرهم فئات من السكان لا صفة لها ولاهوية ، ولذا فليس هنالك أية مسئولية سياسية نحوهم .

ولقد كان وعد بلفور بداية مأساة فلسطين . وعند ما أخذت المؤامرة فى التكشف ، أصبحت القضية تزداد تعقدا ومرارة يوما بعد يوم ، حتى بلغت أبعادا لا تتناسب مع مساحة هذه البلاد الصغيرة .

وهنا لك اجتهادات عدة ، لتعليل حرص بريطانيا على تحقيق مطامع الصهيونية فى فلسطين . منها حاجتها فى أوقات الحرب الحرجة لضمان معاضدة اليهودية العالمية لقضية الحلفاء ، واعتراف الساسة البريطانيين بالجميل للدكتور ويزمن ، لخدماته العلمية فى تحضير الذخيرة ، والنزعة الدينية عند بعض هؤلاء الساسة ، ومالاقته فكرة عودة اليهود من تحمس عاطفى . ولكن التعليل الصحيح ، الذى يفوق كل ماذكرنا ، هو اتجاه بريطانيا لخلق مركز استعمارى لها فى شرقى البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن وجود عدد عظيم من السكان اليهود فى فلسطين تحت إشراف الانجليز وحمايتهم ، يعترفون بالولاء لبريطانيا العظمى ، ويندمجون فيما بعد فى الكومنولث البريطانى ، من شأنه أن يؤمن مصالح الانجليز الاستعمارية فى تلك المنطقة . وقد أشار وايزمن إلى ذلك حين تحدث إلى محرر المانشستر جارديان ، إذ قال : « إن اليهود سيكونون

بمثابة حارس قوى لقناة السويس [١] » وكذلك قال فى كتاب له ، أرسله فى الثالث من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٧ ، إلى وزارة الحرب ، بوساطة وزارة الخارجية : « علينا أن نبين بكل احترام ، أننا عندما قدمنا اقتراحنا ، إنما أودعنا مصير نا القومى والصهيونى فى عهدة وزارة الخارجية ووزارة الحرب ، آملين فى أن ينظر إلى هـذه القضية فى ضوء المصالح الامبراطورية والمبادئ التى قام من أجلها التحالف [٢] » .

وقد استخلص الانجليز فلسطين من أيدى الأتراك بمساعدة العرب . ولم يكونوا أحرارا فى التصرف بالبـلاد . فإلى جانب العهود التى قطعها الانجليز على أنفسهم ، بتحقيق استقلال العرب ، برز إلى الوجود بعد الحرب ، نظام جديد حل محل أساليب الإلحاق والاستعمار . ذلك هو نظام الانتداب ، الذى انبثق من مبادئ ولسن ، التى وضعت بموجبها البلاد المفتوحة فى عهدة الدول المتحالفة لتديرها مؤقتا بتكليف من عصبة الأمم . وكانت مصلحة السكان وتحسين أحوالهم الهدف الأول للانتداب . وتنازلت الدول المتحالفة عن حقها ، باعتبارها منتصرة ، قبل أن توزع الانتدابات .

وقد وكل إلى بريطانيا الانتداب على فلسطين . والعهود التى قطعتها بريطانيا لليهود ، كانت مخالفة لروح الانتداب وغايته . كما أنها انتهكت حرمة ميثاق عصبة الأمم ، الذى استمد منه الانتداب صفته الشرعية . وقد وضع صك الانتداب على فلسطين ، على ضوء مسودات أعدها الصهيونيون . ومنحت شروطه الأقلية اليهودية إمتيازات خاصة . أما العرب الذين يكونون ٩٣ ٪ من عدد السكان فلم يذكروا فى أى فقرة منه بالاسم ، بل كان يشار اليهم بهذه العبارات : « فئات السكان الأخرى » ، « والجماعات غير اليهودية المقيمة هناك » . وقد تبنت الدولة المنتدبة وعد

---

(١) Chaim Weiznann : Trial and Error, Hamish Hamilton, london, 1949, p. 191.

(٢) Ibid., p. 258.

بلفور ، ففتحت أبواب فلسطين على مصراعيها أمام الهجرة اليهودية ، وسمحت بإنشاء الوكالة اليهودية لتسدى الرأى للحكومة وتتعاون معها فى كل الأمور التى تتعلق « باقامة الوطن القومى اليهودى ، وبمصالح السكان اليهود فى فلسطين » وقد أدى اعتراف الحكومة بالوكالة اليهودية إلى تغلغل نفوذ الصهيونيين ورقابتهم فى دوائر الحكومة المختلفة ، مما فتح المجال أمام التدخل الصهيونى فى جميع أمور البلاد . واعتبرت اللغة العبرية ، التى لم تكن الجالية اليهودية الصغيرة تتكلمها آنذاك لغة رسمية ، ووضعت على قدم المساواة إلى جانب اللغة العربية ، لغة الأكثرية الساحقة من السكان .

وأخذ الصهيونيون يرسمون الخطط ويعدون العدة لإقامة الدولة اليهودية ، معتمدين على وعد بلفور ونظام الانتداب . وقد عمل الإنجليز على تهيئة الظروف المناسبة التى تؤدى إلى تحقيق تلك الغاية . ومن الضرورى أن نتذكر أن مساعدة بريطانيا وتعضيدها المسلح هما اللذان أحالا الصهيونية من حلم يداعب الخيال إلى حقيقة سياسية ملموسة . فى ظل رعاية الإنجليز ، نمت المؤسسات اليهودية القومية ، وأصبحت الوكالة اليهودية دولة فى داخل الدولة ، تنهض بجميع الأعمال التى تنهض بها الحكومة ، فى نطاق الجماعة اليهودية . وكان للوكالة فروعها السياسية ، وكانت تشرف على الحياة الاقتصادية ، وتقيم المستشفيات وتؤسس المدارس ، وتقوم بالخدمات الاجتماعية الأخرى ، وتشرف على الهاجناه ، المنظمة شبه العسكرية . وكان لها فضلا عن ذلك « نظام للمخابرات خاص بها ، وكان موظفو الحكومة اليهود جميعا مخبرين متطوعين فيه » [١] وقد دخل إلى فلسطين فى ظل بريطانيا العظمى ، نيف و ٦٠٠ ألف مهاجر ، [٢] وتكونت فى البلاد جالية يهودية تتمتع

---

(١) Arthur Koestler : Promise and Fulfilment, p. 12.

(٢) من الطريف أن نلاحظ أن عدد اليهود الذين جلبوا إلى فلسطين فى ظل الانتداب البريطانى، يساوى عدد سكان المملكة اليهودية فى عهد داود (Olmstead, op. cit., p. 330)

بالامتيازات . وفى خلال السنوات العشرين الأولى للانتداب ؛ كان الانجليز يخضون شوكة العرب باستمرار ، وفى بعض الأحيان يقمعونهم بعنف بالغ القسوة ، ليفسحوا المجال أمام اليهود .

وقد رفض العرب وعد بلفور رفضا باتا ، وقاوموا الانتداب الذى فرض لتحقيقه . فلم تكن بريطانيا تمتلك فلسطين حين قطعت على نفسها ذلك الوعد ، ولاهى امتلكتها بعد ذلك . وبما أنها وعدت بشئ لم يكن لها الحق فى التصرف به ، فإن وعدها هذا كان باطلا لاقيمة له . فعندما صدر وعد بلفور ، كانت فلسطين من الناحية السياسية تابعة لتركيا . ولكنها لم تكن بلدا تركيا ، بل كانت عربية ، يمتلكها سكانها العرب ، والأمة العربية جمعاء التى كانت آنذاك تحارب فى صف الانجليز ضد الأتراك ، عدوهم المشترك . وقد صدر وعد بلفور دون علم العرب . وكل ما تعهد به حدث من وراء ظهورهم ودون موافقتهم . ويدل احتفاظ الانجليز بسريته ، وإخفائه عن العرب ، على أنهم كانوا فى قلق من أمرهم . وعندما رشحت أخباره ، أرسل رسول إلى الملك حسين فى الحجاز على وجه السرعة ليؤكد له أنه سيسمح بعودة اليهود إلى فلسطين « مادامت غير متعارضة مع حرية سكانها ، من الناحيتين الاقتصادية والسياسية [1] » .

وقد أعلن العرب معارضتهم لمطامع الصهيونية منذ البداية . وادعى الصهيونيون أن فيصلا وافق على هجرة اليهود إلى فلسطين ، على نطاق واسع ، وعلى إقامتهم فيها ، وذلك فى اتفاق أمضى بينه وبين وايزمن فى كانون الثانى (يناير) ١٩١٩ . غير أن هذا الاتفاق كان مرتبطا بتحفظات نصت على أن فيصل لن يلتزم بتنفيذ شروطه ، إلا ذا أنشئت دولة عربية مستقلة متحدة . وبما أن شروط فيصل لم تتحقق . فإن هذا الاتفاق يعتبر باطل المفعول . ولم يكن الرأى العام العربى على علم بهذه الوثيقة التى لم

---

(١) Cmd, 5964, 1939.

تنشر إلا سنة ١٩٣٦ ، حين أعلنها الدكتور وايزمن فى رسالة له إلى جريدة التايمس اللندنية . ومما يدل على أن وايزمن نفسه لم يكن يعلق عليها أهمية تذكر ، أنه انتظر سبعة عشر عاما ـ كانت أعواما مليئة بالأحداث والاضطرابات فى فلسطين ـ حتى أذاعها ، وهنالك نقطة جديرة بالعناية فى هذا الاتفاق . وهى أن العرب لم يكونوا يعارضون هجرة اليهود كيهود . قد كان فيصل على استعداد لقبول الهجرة اليهودية ، على شرط أن يكون لفلسطين حكومة محلية تمثل الشعب ، وأن تكون فلسطين جزءا من دولة عربية مستقلة . والملك حسين نفسه الذى رفض التوقيع على ميثاق عصبة الأمم لأنه صادق على إنشاء الوطن القومى اليهودى ، رحب بقدوم اليهود لا إلى فلسطين فحسب ، بل إلى سائر البلاد العربية ، باعتبارهم « مقيمين فى البيت العربى » . ولولا الصهيونية ، وتهديدها للعرب فى صميم كيانهم ، لاستطاع اليهود أن يجدوا ملجأ فى كثير من البلاد العربية ، ولاستطاعوا أن يعيشوا كغيرهم من المواطنين فى بلاد تخلو من التعصب العنصرى خلوا تاما .

وقد أصدر المؤتمر السورى الذى عقد فى دمشق فى تموز (يوليو) ١٩١٩ ، وشهده مندوبون عن فلسطين وغيرها من أجزاء سورية القرار الآتى بالاجماع : « نرفض مطامع الصهيونيين فى إقامة دولة يهودية فى ذلك الجزء من جنوب سورية الذى يعرف بفلسطين ، ونعارض الهجرة اليهودية إلى أى جزء من هذه البلاد . ولا نعترف بحقهم فى ذلك ونعتبر مطامعهم هذه تهديدا خطيرا لحياتنا القومية والسياسية والاقتصادية . أما مواطنونا اليهود ، فسيظلون متمتعين بما نتمتع به من حقوق ، ناهضين بما ننهض به من مسئوليات [1] » .

وكانت لجنة كنج ـ كرين التى أرسلها الرئيس ولسون فى سورية آنذاك . وبناء على ما وصلت إليه من تحرياتها ـ التى تؤيد قرار المؤتمر تأييدا تاما ـ أوصت بإجراء

---

(١) Antonius, op. cit., Appendix C. p. 441.

« تعديل أساسى فى البرنامج الصهيونى المتطرف الذى يطالب بهجرة اليهود إلى فلسطين دون قيد ، تمهيدا لجعل فلسطين فى النهاية دولة يهودية صريحة » . واقتبست من خطاب الرئيس ولسون الذى ألقاه فى الرابع من تموز (يوليو) ١٩١٨ : أن من بين الأهداف النبيلة التى دخلنا من أجلها هذه الحرب « تسوية كل قضية ، سواء ما اختص منها بالأرض أو السيادة أو التنظيم الاقتصادى أو العلاقات السياسية ، على أساس قبول أولئك الذين يعنيهم الأمر ، لهذه التسوية بحرية . لاعلى أساس المصلحة المادية لأية أمة أوشعب ، قد يرغب فى إجراء تسوية مختلفة ، مراعاة لنفوذه الخارجى أو سيادته » . وقال أعضاء اللجنة : « فإذا عمل بهذا المبدأ ، واعتبرت رغبة سكان فلسطين ، قاطعة فى ما سيتم بشأن بلادهم ، فليكن معلوما أنه من المؤكد أن سكان فلسطين من غير اليهود ـ وهم يكونون تسعة أعشار السكان ـ يعارضون البرنامج الصهيونى بأكمله . . . وليس هنالك أمرٌ هم على اتفاق بشأنه أكثر من هذا . وإن إخضاع شعب وطد العزم على ذلك ، لهجرة يهودية غير محدودة ، ولضغط مالى واجتماعى من شأنه أن يجبره على تسليم البلاد ، يعتبر خرقا صريحا للمبدأ المشار إليه آنفا ، وافتئاتا على حقوق الشعب ، حتى ولو تم ذلك بصفة قانونية .

« ومما هو جديد بالاعتبار أيضا ، أن الشعور المعادى للصهيونية لا يقتصر على فلسطين فحسب ، بل إن سكان سورية كلها ، يشاطرونها هذا الشعور . . . فيجب ألا يغيب عن بال أعضاء مؤتمر الصلح ، أن الشعور المعادى للصهيونية فى فلسطين وسورية ، من الشدة بحيث لاتصلح الاستهانة به . وما من ضابط بريطانى أخذ رأيه فى هذا الموضوع ، إلا وهو موقن بأن البرنامج الصهيونى لفلسطين ، لن يتسنى تحقيقه إلا بقوة السلاح . . . وهذا وحده دليل على إجحاف البرنامج الصهيونى الشديد ، بحقوق السكان غير اليهود فى فلسطين وسورية . وقد تكون بعض القرارات التى يحتاج تنفيذها إلى الجيوش ، ضروريا أحيانا ، ولكن من المؤكد أن إجراء

كهذا لا يتخذ دون مبرر لنصرة قضية فيها إجحاف خطير . إذ أن ادعاء اليهود بحقهم فى فلسطين ، الذى كثيرا ما رددده الناطقون بلسان الصهيونية ، لا يمكن أن ينظر إليه نظرة جدية . . . .

« وبناء على جميع هذه الاعتبارات ، ومع الشعور بالعطف الشديد على القضية اليهودية يرى أعضاء اللجنة أن من واجبهم أن يقترحوا على مؤتمر الصلح أن يقصر بحثه على برنامج صهيونى ضيق النطاق ، وحتى هذا البرنامج يجب أن ينفذ بالتدرج . ومعنى هذا أنه يجب تحديد الهجرة اليهودية تحديدا قاطعا ، وأنه يجب صرف النظر نهائيا عن جعل فلسطين دولة يهودية » (١)

وقد ذهبت تحذيرات اللجنة مع الريح . وفرض الانتداب البريطانى على العرب ، ذلك الانتداب الذى أنكر على العرب حقوقهم فى ديارهم ، وهدد وجودهم القومى فى الصميم .

والتطورات التى حدثت فيما بعد ، فى عهد الانتداب ، جاءت مصداقا لمخاوف العرب . فقد كان الانتداب ، الأداة التى اصطنعها العدوان الصهيونى والوسيلة التى بها مهدت بريطانيا وعصبة الأمم الطريق ـ باسم « الوصاية المقدسة » ـ لاستئصال شأفة السكان العرب ، وللقضاء على ذلك التراث المرتبط بفلسطين منذ ثلاثة عشر قرنا .

وقد كان الانتداب البريطانى بالنسبة للعرب ، فترة توتر وخوف وعدم طمأنينة ، تخللها عدد من الاضطرابات العنيفة . وكان يعقب كل اضطراب ، إرسال لجنة ملكية للتحقيق . وكانت تحريات هذه اللجان التى ابتدأت سنة ١٩٢٠ وانتهت بلجنة بيل ١٩٣٦ ، تدل على أن أسباب كل هياج وثورة واحدة لا تتغير وهى « رغبة العرب فى الاستقلال » ، « وامتعاضهم وخوفهم من تأسيس الوطن القومى اليهودى » . وقد جاء فى تقرير لجنة بيل « أن هذين السببين كانا دوما مرتبطين . فوعد بلفور

(١) Antonius : op. cit. Appendix , pp. 449–450.

والانتداب الذى كان سيتم تحقيق هذا الوعد فى ظله ، ينكران مبدأ الاستقلال أصلا. ثم إن تكوّن الوطن القومى خلق عقبة ـ بل هو العقبة الكأداء الوحيدة ـ فى سبيل نيل الاستقلال [1] » .

وقد شعر العرب حتى عندما كان عدد اليهود مايزال ضئيلا ، بأن الهدف النهائى للصهيونية هو السيطرة عليهم والحلول محلهم . ولم تجد التصريحات البريطانية المطمئنة فتيلا فى التخفيف من حدة قلقهم على مستقبلهم . وكانوا يصرون على أن الضمان الوحيد ، هو إقامة حكومة نيابية ، لتضع سدا فى وجه موجة المهاجرين الغرباء التى ستغرقهم ، ولتحد من بيع الأراضى الذى كان ينأى بهم ، يوما بعد يوم ، عن تربة بلادهم .

وفضلا عن هذا الاعتراض الجوهرى على الصهيونية بوصفها تهديدا لكيان العرب القومى ، كانت هنالك مظالم أخرى نتجت عن الصهيونية ، وعن سياسة الحكومة الموالية لها . ونظرا للادعاء الشائع بأن وجود اليهود فى فلسطين قد عاد بالفائدة على جميع فئات السكان ، لابدّ لنا من دحض هذا الافتراء ، بتبيان الأضرار الفادحة التى لحقت بالعرب بسبب الوطن القومى اليهودى .

كان تعضيد الوطن القومى مشروعا باهظ النفقات على كاهل الحكومة ، وحملا ثقيلا على دافع الضرائب ؛ إذ كان لابد من إيجاد وسائل خاصة لوضع هذه السياسة موضع التنفيذ ، ومنها دائرة ضخمة للهجرة . ثم إن اعتبار العبرية لغة رسمية فى البلاد ، أدى إلى تكرار المعاملات الرسمية ، وذلك يتطلب مضاعفة عدد الموظفين . ولم يدخل اليهود المدارس الرسمية ، ولهذا كانت الحكومة تخصص لهم ميزانية سنوية لمعارفهم . وفى الأوقات التى كانت تتفشى فيها البطالة بين العرب ، كانت الحكومة تسمح بدخول آلاف من اليهود وتخلق لهم أعمالا مصطنعة . وكانت أجرة العامل اليهودى

---

(٢) Cmd. 5479, pp. 110–111.

ضعف أجرة العامل العربى فى العمل نفسه [١] » . وكانت نفقات المحافظة على الأمن باهظة جدا تستهلك أكبر نصيب من الميزانية العامة . فقدجاء الانتداب إلى فلسطين ، بعنصر غريب كانت مطامعه تهـدد الحقوق الوطنية والأمانى المشروعة للسكان الأصليين ، ولذا اضطر إلى حشد قوة كبيرة ، يعتمد عليها فى خضد شوكة العرب كلما ثاروا للدفاع عن كيانهم .

ووضع الانتداب مقاليد اقتصاديات البلاد فى أيدى اليهود . فمنحهم امتيازين عظيمين ؛ أحـدهما لتوليد القوى الـكهربية وتوزيعها من نهر الأردن ، والثانى لاستغلال المواد المعـدنية الموجودة فى البحر الميت . ومعنى ذلك أن أسباب تنمية اقتصاديات البلاد وضعت فى أيدى الصهيونيين . وهكذا بدلا من أن ينمى الوصى موارد البلاد الاقتصادية لمصلحة السكان جميعا ، وضع ثروتها فى قبضة أقلية كانت فى أهدافها ومصالحها ، معادية للسكان الأصليين .

وازدهرت الصناعة اليهودية ، بسياسة المحاباة ، على حساب العرب ، إذ فرضت ضرائب باهظة مصطنعة لحماية مختلف الصناعات ، التى لم تـكن ، لولا ذلك ، قادرة على منافسة البضائع الأجنبية . وقد جاء فى تقرير لجنة بيل : « يظهر أن الصناعات الواسعة فى فلسطين ، تعتمد على استغلال التعرفة الجمركية ، فقد فرض على بقية السكان أن يتحملوا الغرم ، لـكى يتمكن أصحاب هذه الصناعات من دفع أجور العمال ، واجتناء الربح لأنفسهم » .

ولم تكن المشروعات الاقتصادية اليهودية سواء منها الصناعية والزراعية تستند إلى قاعدة اقتصادية سليمة . لأن الغاية التى كانت ترمى اليها لم تكن اقتصادية بل سياسية . فقد كان الهدف الأول من حيازة الأرض وتنمية المستعمرات الزراعية و إقامة الصناعات المختلفة ضمان سيطرة اليهود و امتداد نفوذهم على البلاد ، وتوفير العمل

---

(١) Barbour : op. cit., p. 110, note I, and p. 134.

للمهاجرين اليهود ، إذ كانت الهجرة الواسعة حجر الزاوية فى السياسة الصهيونية فى فلسطين . ولما كان توطيد الوطن القومى اليهودى ، يعتمد فى تمويله الباهظ على المصادر الخارجية ، فمن الطبيعى أن يضحى بالاعتبارات الاقتصادية ، وأن تقع الزراعة والصناعة تحت عجز دائم .

وكانت مشكلة الأراضى من أخطر المظالم التى حلت بالعرب من جراء الانتداب والمطامع الصهيونية التى كان يرعاها . وفى الحقيقة أن العرب لم يجبروا على بيع أراضيهم لليهود . ولكن من الضرورى أن نشرح الظروف التى كانت تحملهم على البيع حملا . إن أكثر الأراضى التى بيعت لليهود كان يملكها ناس غير فلسطينيين ، وكانوا بعيدين عن أملاكهم . وقد استسلموا للأثمان الباهظة التى عرضها عليهم الصهيونيون . وكان الإغراء أشد تأثيراً فى النفوس بسبب فصل فلسطين عن سائر أجزاء سورية ، ووضع حواجز سياسية واقتصادية بين الأقاليم التى خلقت حديثا . وكان الفلاحون الفقراء ، هم الطبقة الأخرى التى باعت الأرض . فقد أثقلت كواهلهم الديون والضرائب الفادحة التى أوجبت فرضها عليهم ، الخطة المدبرة لإقامة الوطن القومى ، والتى كانت تبلغ ضعف ما يدفعه الفلاح فى سوريا ولبنان والعراق أو أكثر من ذلك . وكان يشترى أكثر هذه الأراضى الكيرين كيميت ـ صندوق الأمة اليهودى ـ ويجعلها وقفا أبديا لليهود ـ وكان المستأجرون العرب يطردون من أراضيهم بالقوة . وكانت الحكومة تشترك فى هذه الحملة إذ ترسل قواتها فى المصفحات لتطرد الفلاحين من أراضيهم ، بدلا من أن تسن القوانين التى تؤمنهم على أراضيهم ، وتحمى البلاد من هذا الغزو المالى . وكانت القرى العربية تزال معالمها نتيجة لذلك وتحل محلها المستعمرات اليهودية . وعملية إزالة القرية العربية التى اضطلع بها الانتداب كانت مقدمة لإزالة فلسطين العربية ، عند مابلغ الوطن القومى سن الرشد ، وأصبح فى غنى عن رعاية الانتداب .

واعتبر العرب قصور نظام التعليم دليلا آخر على تصميم الحكومة على إضعافهم .

ومما يجعل التسامح فى هذا الإهمال غير جائز ، وجود الأموال اللازمة لذلك . وقد أكد تقرير سمبسون سنة ١٩٣٠ ، ضرورة زيادة ميزانية التعليم . ويتبين مدى إغفال الحكومة لهذه النصيحة ، من الأموال التى خصصتها للتعليم بعد ذلك . فقد بلغت ميزانية التعليم فى سنة ١٩٣١ ، ١٩ ، ٦ ٪ من الميزانية العامة . ثم أخذت فى الانخفاض حتى بلغت سنة ١٩٣٦ ، ٩٩ ، ٣ ٪ ، مع أن الوفر فى نهاية تلك السنة كان ٨١٠ ، ٦٢٧ ، ٦ ج . ف . [١] وقد استنكرت لجنة بيل قصور نظام التعليم وأعربت عن إيمانها فى أنه « لو كانت حاجات التعليم تلاقى ما تستحقه من التقدير ، لكان من الواجب أن يدبر لها المال اللازم على حساب بعض الحاجات المادية كالأشغال العامة التى لم تكن الحاجة إليها حيوية ملحة » . [٢] ولم تزد مخصصات التعليم فى يوم من الأيام على ٧ ٪ من الميزانية العامة . وكان متوسطها ٥ ٪ . وهذا الشح من جانب الحكومة كان يقابله تعطش إلى التعليم من جانب عرب فلسطين ، واستعداد أكيد للمساهمة فى توسيع نطاق التعليم . فكانوا يستحثون الحكومة على فتح المدارس لهم بتقديم الأراضى والأموال اللازمة لإقامة مبانى المدارس . وكان القرويون يشعرون بشعور التقدير والاعتزاز نحو هذه المدارس التى يبنونها . وفى أثناء الثورة العربية التى نشبت بين سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، عندما تلاشت سلطة الحكومة عن بقاع كثيرة من البلاد ، بقيت المدارس تعمل فى حماية الثوار الذين كانوا ينزلون من الجبال إلى قراهم ليدفعوا ماعليهم من المال للمدارس ثم يعودون إلى الجبال ليستأنفوا القتال ضد الحكومة التى كانت تدير هذه المدارس [٣] . وقد قدر مساعد مدير المعارف سنة ١٩٤٢ ، أنه إذا أريد جعل التعليم إجباريا على الأطفال العرب الذين

---

(١) Cmd. 5479, p 339

وكان الجنيه الفلسطينى آنذاك معادلا للجنيه الاسترلينى الذى كان يساوى خمسة دولارات .

(٢) Cmd. 5479 pp. 337—339.

(٣) جبرائيل كاتول : التربية والتعليم فى فلسطين من سنة ١٩٢٠ ، ١٩٤٨ ، مجلة الأبحاث التى تصدر عن الجامعة الأميركية فى بيروت حزيران ١٩٥٠ ، ص ١٧٧ — ١٨٧ .

تتراوح أعمارهم بين ٧ — ١٢ سنة ، فلا بد من أن تحدث زيادة سنوية فى النفقات ـ حسب أسعار ماقبل الحرب ـ مقدارها ٢٥٠,٠٠٠ ج . ف . وأن يخصص مبلغ ٤٥٠,٠٠٠ ج . ف . لبناء المدارس . وقدر أيضا أنه من الممكن إدخال جميع الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٥ ـ ١٥ سنة فى المدارس ، بزيادة سنوية فى النفقات مقدارها ٧٥٠,٠٠٠ ج . ف . أما تكاليف الأبنية الإضافية حينئذ فتبلغ ١,٣٠٠,٠٠٠ ج . ف [١] . ولم تكن الحكومة عاجزة عن توفير هـذا المبلغ ، لو صحت عزيمتها على ذلك .

وكلما كان الوطن القومى اليهودى يزداد نموا واتساعا تحت رعاية الانتداب ، كلما كانت مقاومة العرب له آخذة فى العنف والاستمرار . وقد استفحلت هذه المقاومة فى العقد الرابع حتى غدت قوة يحسب حسابها . فالخطر الذى كان العرب يستشعرونه فى العقد الثالث ، تجسم أمام أعينهم حقيقة راعبة فى العقد الذى تلاه . فقد أغرقت أمواج المهاجرين البلاد ؛ إذ كان عدد الذين دخلوا منهم سنة ١٩٣٣ ، ٣٠ ألفا . وفى سنة ١٩٣٤ ارتفع الرقم إلى ٤٢ ألفا . وفى سـنة ١٩٣٥ دخل فلسطين ٦١,٠٠٠ وازداد الخطر بسبب الضغط الذى كانت تقوم به اليهودية العالمية لمصلحة يهود فلسطين .

ولنضرب مثلين يبينان مدى نفوذ اليهود على الحـكومة البريطانية وبرلمانها . ففى سنة ١٩٢٩ قامت الاضطرابات فى البلاد المقدسة ، وأرسلت لجنة ملـكية للتحقيق فى أسبابها . وعندما تلقت الحـكومة تقرير اللجنة ، أرسلت خبيرا ، هو السرجون هوب سمبسون ، ليضع تقريرا فنيا عن مسائل « الهجرة والإسكان وتحقيق المشروعات العمرانية اللازمة » . وقد تأثرت حكومة العمال وخاصة وزير المستعمرات اللورد باسفيلد ـ وهو سدنى وب الباحث الاشتراكى والكاتب المعروف ـ بتحريات لجنة شو وبتقرير سمبسون ، فأصدرت الـكتاب الأبيض الذى فسر معنى « مقـدرة

---

(١) Jibrajl Katul : Education in Palestine.

استيعاب البلاد الاقتصادية » ـ ذلك المبدأ الذى أعلن فى الكتاب الأبيض الذى أصدره تشرشل سنة ١٩٢٢ ، باعتباره المقياس الأول الذى يجب النظر إليه عند فتح أبواب فلسطين فى وجه المهاجرين اليهود ـ بأنه يعنى أيضا ضمان مصالح العرب الاقتصادية . وقد نص الكتاب الأبيض الصادر فى سنة ١٩٣٠ « على أنه من الواجب عندما تقاس مقدرة فلسطين على الاستيعاب فى أى وقت ، أن يؤخذ بعين الاعتبار حالة العمال العرب واليهود معا ، وأن يجعل ذلك المبدأ الذى يقرر نسبة الهجرة اليهودية المصرح بها » . ومع أن هذا الكتاب لم يلق بالا لملاحظات لجنة شو الخاصة بالأحوال السياسية فى البلاد ، التى كانت سبب كل اضطراب ، ولا للمظالم التى حاقت بالعرب والتى فصلها التقرير ، فإن الصهيونيين استقبلوه بثورة من الاحتجاج والاستنكار ، واستخدموا نفوذهم وضغطوا على الحكومة ضغطا شديدا أدى إلى تراجعها عن موقفها ، وذلك لما بدر فى هذا الكتاب من إشارة إلى تأمين العرب على مستقبلهم . ووجه رئيس الوزارة مكدونالد رسالة إلى الدكتور وايزمن فسر فيها الكتاب بطريقة تؤدى إلى نقص ما جاء فيه .

أما المثل الثانى ، فهو ما عرضه المندوب السامى من إنشاء مجلس تشريعى ، اضطر إلى سحبه فيما بعد ، بسبب الضغط الصهيونى . وقد سبق أن اقترح إنشاء مجلس تشريعى ، سنة ١٩٢٢ ولكن العرب رفضوه لسببين : الأول أنه يمنح الأغلبية لموظفى الحكومة ولليهود ، والثانى : لأن هذا المجلس لم تكن له سلطة ما ، فاشتراك العرب فيه لا يضمن حقوقهم ، بل قد يعنى اعترافهم الفعلى بالانتداب الضالع مع الصهيونية ، ويضفى صفة الشرعية على سياسة الحكومة الصهيونية . وفى سنة ١٩٣٥ ، عندما كان القلق يقض مضاجع العرب ، بسبب طغيان سيل الهجرة اليهودية التى كان من شأنها أن تعجل فى إخضاعهم التام ، جددت الحكومة البريطانية عرضها ، وتقدمت بمشروع المجلس التشريعى ، بعد إجراء بعض التعديلات التى تجعله

أكثر قبولا ، وذلك لطمأنينة العرب على مصيرهم . ويتألف هذا المجلس من ٢٨ عضوا ، يكون للحكومة فيه خمسة ، ولليهود سبعة ، والباقى للعرب . وتسند رياسته « إلى شخصية محايدة لا علاقة لها بالنزاع الفلسطينى » . ومع أن صلاحيات المجلس كانت مقيدة بشروط عديدة ـ إذ لم يكن له الحق فى التعرض لمناقشة مبدأ الانتداب ـ فقد سمح له بالبحث فى بعض المشكلات الخطيرة كمشكلة الهجرة . إلا أن مراقبة الهجرة ظلت فى يد المندوب السامى . ولا يقيم المجلس حكما ذاتيا فى فلسطين، ولكنه يمهد له تمهيدا ضعيفا . وسرعان ما قضى عليه الصهيونيون وعملاؤهم . وقد جاء فى تقرير لجنة بيل أن مصير المشروع تقرر خارج فلسطين . فعندما طرح للمناقشة فى البرلمان البريطانى ، وجدت وجهة النظر اليهودية خطباء مفوهين يدافعون عنها فى مجلس العموم ومجلس اللوردات . وهكذا حكم على قضية العرب غيابيا ، إذ لم يكونوا أعضاء فى البرلمان ، ولم يكن لهم أصوات فى الانتخابات البرلمانية .

وقد أظلت سنة ١٩٣٦ العرب وهم فى حالة يأس شديد من عدل الدولة المنتدبة . فانفجرت المقاومة المسلحة ثانية ، وكانت فى هذه المرة على نطاق أوسع من كل ما حدث فى الماضى . وصحبها إضراب عام شمل المدن والقرى وتطور الإضراب إلى حالة عصيان مدنى وأدى إلى ركود فى حياة البلاد ، باستثناء المستعمرات اليهودية .

وعمدت الحكومة البريطانية إلى العلاج المعتاد ، وهو إرسال لجنة ملكية للتحقيق . واستجاب العرب إلى نداء ملوكهم ورؤسائهم ، بإنهاء الإضراب والثورة ، انتظاراً لنتيجة تحريات اللجنة . وبعد مضى بضعة أشهر من البحث والتحرى ، قررت اللجنة أن الانتداب لم يعد صالحا . ولذا اقترحت تقسيم فلسطين إلى دولتين : إحداهما عربية والأخرى يهودية ، والإبقاء على مقاطعة تظل تحت إدارة الانتداب البريطانى . وقد كان جواب العرب على هذه المقترحات أن استأنفوا الثورة بعزم جديد . وشملت الثورة جميع أنحاء البلاد ، وأطاحت بسلطة الحكومة فى جزء كبير منها ، واستمرت

من سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ . وقد كانت هذه الثورة ثورة الفلاحين على تلك القوى التى جندت لنزع أراضيهم من أيديهم ، ولتجريدهم من تربة أوطانهم ومن تراثهم وتقاليدهم التى خالطت تلك التربـة .

ومن بين المزاعم الصهيونية المتكررة ، ادعاؤهم بأن مقاومة العرب لليهود مصطنعة تؤججها نيرانها فئة من الزعماء الانتهازيين ، فى حين أن جمهرة السكان يرحبون بإقامة اليهود فى البلاد . وظلت السلطات البريطانية إلى حين تتوقع أن يتمكن المال اليهودى والمنافع المزعومة التى تنتج عنه ، من شراء رضا العرب ، وتمهيد السبيل أمام السيطرة اليهودية . ولـكن لم يخل الأمر من وجود بعض المسئولين البريطانيين ، من ذوى الإدراك ، الذين كانوا يخالفون هذا الرأى منذ البداية . فقد قال أعضاء لجنة هيكرافت الملـكية ، التى أرسلت للتحقيق فى اضطرابات سنة ١٩٢٠ ، فى تقريرهم : « إنهم لا يوافقون على الرأى القائل بأن هذه الاضطرابات نتيجة لأسباب مهيجة مصطنعة ، خلقها بعض الزعماء من ذوى السمعة السيئة . بل على العكس من ذلك ، وجدوا أن التخوف من المطامع الصهيونية ، يكاد يكون عاما بين الجميع ، ولا يقتصر على طبقة دون أخرى . وقد اتفقت فى هذا الأمر آراء الزعماء والشبان المثقفين ، أبناء هذه الأرض وجمهرة الشعب ، لأنهم يشعرون ، أن مصالحهم السياسية والمادية واحدة »[1] . وأرسلت لجنة ملـكية أخرى للتحقيق عقب اضطرابات ١٩٢٩ ، وهى لجنة شو ، وقد ذهبت إلى رأى مشابه عند ما قررت أن تحريات أعضائها فى فلسطين ، لا تسند ما يقال من أن المطالبة بحـكومة وطنية أمر مصطنع أو أن جمهرة الشعب ، لا يعنيها من أمر مستقبل بلادها شىء . وقد ذهب التقرير أيضا إلى أن « القرويين والفلاحين على حد سواء ، يعنون عناية حقيقية بتتبع سياسة إنشاء الوطن القومى ، و بتطور مؤسسات الحـكم الذاتى فى فلسطين . و يصدر فى فلسطين

---

(١) Quoted in Jeffries, op. cit., 425.

مالا يقل عن أربع عشرة صحيفة ، وفى كل قرية تقريبا تجد رجلا جالسا ومن حوله عدد من القرويين الأميين يستمعون إليه وهو يقرأ لهم الأخبار ... ولهذا فإن الفلاحين والقرويين من العرب ربما كانوا أحسن إدراكا للشئون السياسية من كثير من شعوب أوروبا »[١] . وقد ذكر وايزمن الذى كان يشيد بالتعاون بين العرب واليهود فى اللحظات المناسبة ـ فى ترجمته الذاتية أنه منذ سنة ١٩٢٠ « حين أنشئت إدارة مدنية لفلسطين ، تحت إدارة السر هربرت صمويل ، كانت شقة الخلاف بين الشعبين أصبحت أوسع مما يكن تلافيه »[٢] .

وقدا زدادت ثورة ١٩٣٧ تأججا عند ما شرد الزعماء ونفوا . وكانت مقاومة العرب تلقائية وواسعة ومتأصلة فى النفوس . ولم يكن عرب فلسطين وحدهم فى هذا الكفاح . فقد ألفت لجان فى الأقطار العربية المجاورة للدفاع عن فلسطين . وانضم المتطوعون إلى الثوار . وقد عقدت مؤتمرات عربية مشتركة فى كل من سورية ومصر ، عبرت عن تضامن الرأى العام العربى مع فلسطين . واتضح للبريطانيين من هذه الثورة الواسعة النطاق فى فلسطين نفسها ، ومن معاضدة العرب أجمعين لإخوانهم المهددين فى هذه البلاد ، أن أى توسع فى توطيد الوطن القومى ، يتطلب إخماد عرب فلسطين بقوة السلاح ، ويؤدى إلى تأريث الكره والبغضاء اللذين سببتهما السياسة الضالعة مع الصهيونية ، لا نجلترا فى البلاد العربية .

وكانت الحكومة البريطانية آنذاك تخشى وقوع حرب فى أوربا ، يكون لمركز الشرق الأوسط فيها أهمية فائقة . ولذا حاولت فى مطلع سنة ١٩٣٩ ، أن تصل إلى تسوية للمشكلة الفلسطينية ، وذلك بعقد مؤتمر يشهده العرب واليهود ، وتدعى إليه حكومات الدول العربية المستقلة . وعقب انفضاض المؤتمر ، أصدر كتابا أبيض

---

(١) Cmd. 3530, p. 129.

(٢) Chaim Weizmann : Trial and Error, p. 281.

يوضح سياسة الحكومة . وقد جاء فيه : « ولذلك فإن حكومة جلالته تصرح الآن بعبارة لا لبس فيها ولا إبهام أنه ليس من سياستها أن تصبح فلسطين دولة يهودية . وهى تعتبر فى الواقع أنه مما يخالف الالتزامات المترتبة عليها نحو العرب بموجب صك الانتداب والتأكيدات التى أعطيت للشعب العربى فيما مضى ، أن يجعل سكان فلسطين العرب رعايا دولة يهودية خلافا لإرادتهم » (١) .

وقد تناول الكتاب الأبيض الأسس الرئيسية الثلاثة لقضية فلسطين وهى الهجرة وبيع الأراضى والحكم الذاتى . وفيما يختص بالهجرة ، رأت الحكومة البريطانية أن ازدياد تدفقها على الرغم من إرادة العرب ، يعنى الحكم بالقوة ثم إن هذه السياسة تناقض المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم ، وتتجافى مع الالتزامات المترتبة عليها نحو العرب بموجب صك الانتداب . واستمرار الهجرة من شأنه أن يؤدى إلى تخليد العداوة بين العرب واليهود . ويمكن أن تصبح الحالة فى فلسطين عندئذ مصدرا دائماً للنزاع بين جميع شعوب الشرق الأدنى والأوسط . وإن الحكمة والعدالة تقضيان عليها بعدم تجاهل هذه الظروف لدى وضع سياستها بشأن الهجرة . وبناء على هذه الاعتبارات قررت السماح بدخول ٧٥٠٠٠ مهاجر يهودى خلال السنوات الخمس التالية . وبعد ذلك لا يسمح بدخول مهاجرين أخر إلا بموافقة العرب .

وفيما يختص بالأراضى ، ذكر الكتاب أنه لم يفرض لغاية الآن أى قيد على انتقال الأراضى من العرب إلى اليهود . وقد دلت التقارير التى وضعتها مختلف لجان الخبراء على أنه لا يوجد الآن فى بعض المناطق أى مجال لانتقال الأراضى من العرب إلى اليهود ، فى حين أنه لا بد من وضع القيود على انتقال الأراضى فى بعض المناطق الأخرى ، للحيلولة دون تكوين جماعة كبيرة من العرب ممن لا أرض لهم . وبالنظر إلى هذه الظروف يمنح المندوب السامى سلطات عامة تخوله منع وتنظيم انتقال

---

(١) Cmd. 6019, 1946, p. 4

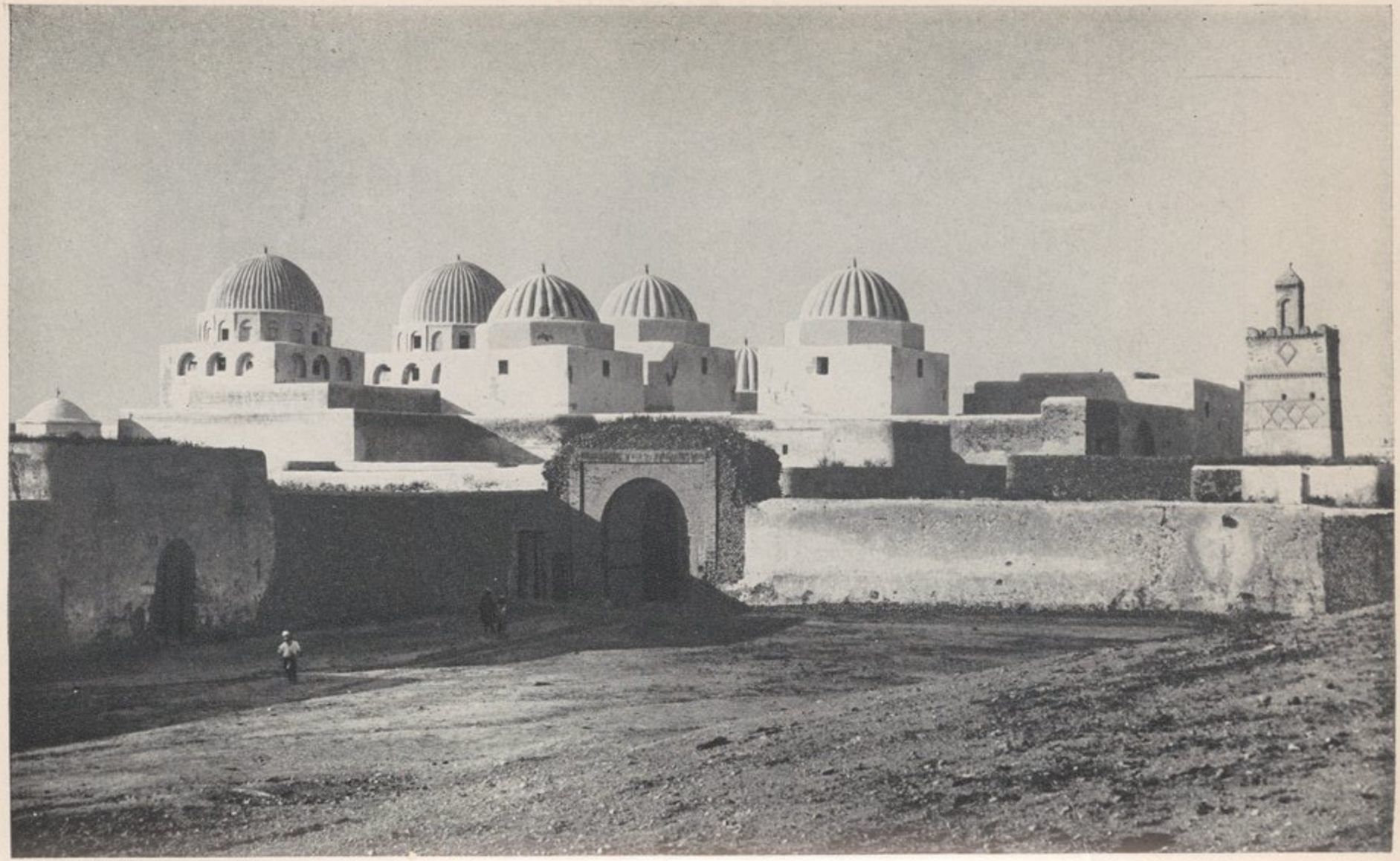

Ewing Galloway

تونس : مسجد السيوف بالقيروان

Ewing Galloway

مراكش : بوابة حصن فى الرباط

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

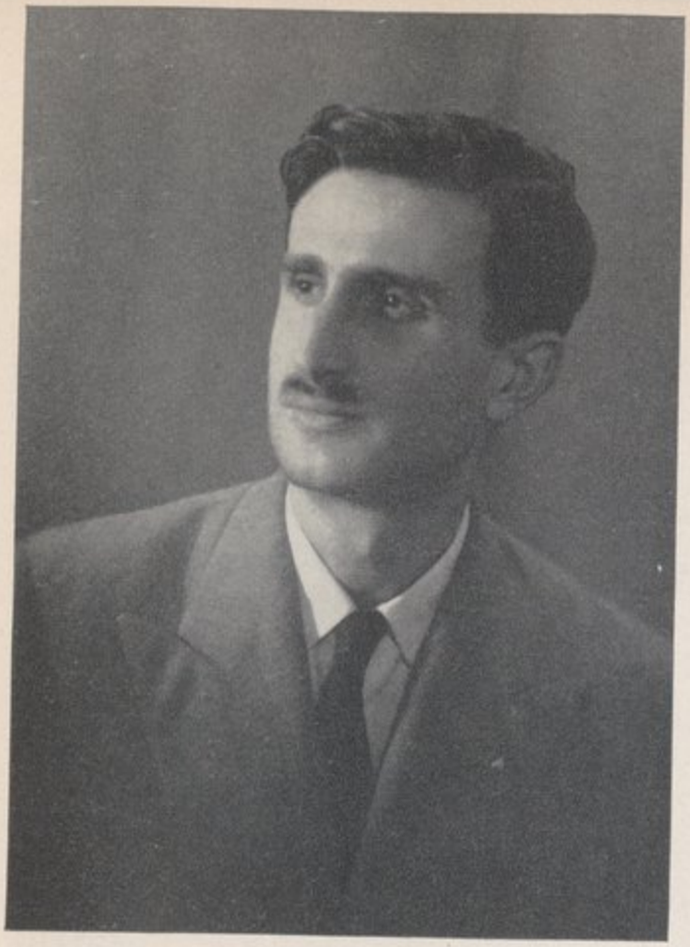

إلى اليسار :
لبنان : كمال جنبلاط زعيم الحزب الاشتراكى التقدمى

تحت :
الأردن : داورية فى الصحراء

Ewing Galloway

Ewing Galloway

فلسطين : القدس وقبة الصخرة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

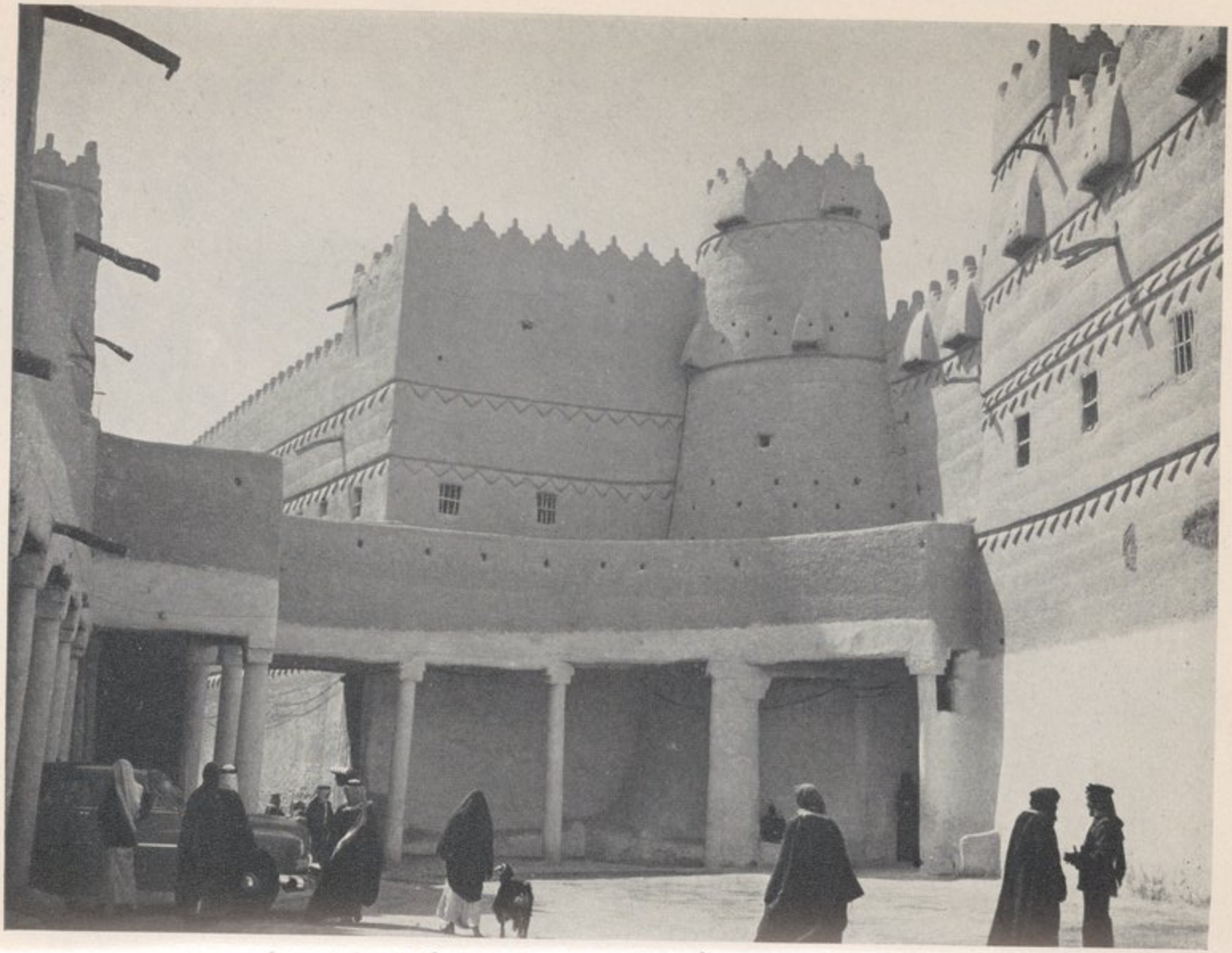

المملكة العربية السعودية : أحد شوارع الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية

Photograph by Robert Yarnall Richie

المملكة العربية السعودية : المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY
EGYPT

الأراضى . وفيما يختص بالحكم الذاتى يقرر الكتاب الأبيض منح البلاد الاستقلال فى خلال عشر سنوات . ولكن هذا الاستقلال متوقف على عدة شروط مقيدة ، بحيث لا يرجى له أن يتم فى ظلها .

كانت الاقتراحات الواردة فى الكتاب الأبيض مبهمة ، وفيها عدة ثغرات ، ومقيدة بعدد من الاحتياطات والتحفظات . ولهذا شعر العرب بأنهم مضطرون إلى رفضها . ولكنها كانت تحتوى على فرجة أمل ، إذ اعترفت فيها الحكومة البريطانية أخيرا بحقوق العرب فى بلادهم . وقد وضعت بها أساساً لسياسة ، مهما كانت مجحفة ، فإنها تضع قاعدة عملية ، وتفتح مجالا للتعاون على إيجاد حل مناسب فى المستقبل .

وكان مصير الكتاب الأبيض ، المصير نفسه الذى لاقته المحاولات البريطانية السابقة ، للاعتراف بحقوق عرب فلسطين ، مهما كان هذا الاعتراف ضئيلا . وقد قابله الصهيونيون بحملة شعواء ، مما أدى إلى سحبه .

وعندما نشبت الحرب أوقف العرب الثورة التى كان أوارها متأججا منذ سنة ١٩٣٦ . وفى صيف سنة ١٩٤٠ ، أرسلت الحكومة البريطانية مبعوثا ، هو الكولونيل نيوكومب ، إلى العراق حيث كان يقيم عدد من زعماء فلسطين وفوضته الوصول إلى تفاهم مع العرب على أساس الكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٣٩ . وقد تم الاتفاق ووقع . وقد أجريت المفاوضات ووقع الاتفاق بعلم مندوبين عن الحكومتين العراقية والسعودية و بموافقتهم . ولما كانت تلك الأسس التى تمت عليها التسوية ، حائزة على موافقة عرب فلسطين ، أعلنت الحكومة العراقية استعدادها لدخول الحرب ووضع الجيش العراقى تحت إمرة القائد العام لمنطقة الشرق الأوسط . وقد أعلن العرب استعدادهم هذا لمؤازرة بريطانيا ، فى أدق الظروف التى مرت بها

أثناء الحرب . ولـكن الانجليز لم يتقيدوا باتفاقية بغداد ، وظلت قضية فلسطين ، مصدر ثورة وقلق فى نفوس العرب ، أثناء فترة الحرب . وقد أدت إلى نفور العرب من بريطانيا وحلفائها . وكانت خطأ فادحا استطاعت الدعاية المحورية أن تستغله خير استغلال .

وقد استغل الصهيونيون الحرب لتوطيد مركزهم فى فلسطين ، وذلك بالتدريب العسكرى والحصول على السلاح . وبعد معركة العلمين ، حين خفت وطأة تهديد هتلر « اعتبرت خدمة اليهود فى الجيش البريطانى أو فى حركات المقاومة السرية فى أوربا ، تدريبا تمهيديا للانضمام إلى الهاجناه ، أو غيرها من الجمعيات الإرهابية بعد الحرب [١] » . ونظمت الهاجناه حركة سرقة الأسلحة والذخائر من القوات البريطانية فى الشرق الأوسط [٢] . واستهل آنذاك عهد من الإرهاب . ومنذ سنة ١٩٤٢ « حتى نهاية الحرب ارتكب غلاة اليهود عددا من الاغتيالات السياسية وحوادث النهب والتهريب [٣] » وادعت الوكالة اليهودية أنها لاتملك أى سلطان على الإرهابيين . وقد تمسكت بحقوقها التى منحها إياها الانتداب ، كما كانت تفسرها هى ، ولـكنها استنكفت عن التعاون مع السلطات فى قمع أعمال الإرهابيين . وفى الوقت الذى كان فيه المتحدثون باسم الوكالة يستنكرون الإرهاب ، كانت الوكالة تتعاون تعاونا تاما مع العصابات الإرهابية [٤] .

وقد نقل الصهيونيون فى أثناء الحرب مركز نشاطهم السياسى من بريطانيا إلى الولايات المتحدة . وحتى ذلك الحين كانوا ينظرون إلى أميركا على أنهـا مصـدر

---

(١) Royal Institute of International Affairs, ihe Middle East, A Political and Economic Survey p. 292.

(٢) Text of the British statement on Palestine on the Termination of the Mandate, New York Times, Nay 41, 1948.

(٣) Ibid.

(٤) Text of the British Paper linking Jewish Agency to Zionist Terrorism in Palestine, New York Times, July 25, 1946.

للمساعدات المالية فقط ، بينما كانت بريطانيا تفرض بالقوة برنامج الصهيونية فى فلسطين وتحافظ عليه . ولكن عندما تطورت أحداث الحرب ، تبين لهم أن بريطانيا ستخرج منها وهى فى غاية الضعف . ومن المتوقع ألا تكون بريطانيا الضعيفة حرة فى رسم خططها السياسية ، بل لابد لها من الخضوع للولايات المتحدة ، تلك القوة العظيمة التى كانت بريطانيا بحاجة إلى مساعدتها . ولذا آثر الصهيونيون اللجوء إلى الفريق الأقوى .

وقد أعلن الصهيونيون الأميركيين عزمهم على إقامة الدولة اليهودية لأول مرة ، فى تصريح أصدروه سنة ١٩٤٢ يعرف باسم « قرار بلتيمور » . وتبع هذا التصريح التصديق على كثير من القرارات فى المجالس النيابية لعدة ولايات التى استوحت مطالب الصهيونيين ، والتى أيدت إقامة دولة يهودية فى فلسطين ، ولما كانت هذه القرارات لا تلزم هذه الهيئات بشئ معين ، لم تقابل بمعارضة ما ، وصودق عليها كما يصادق على الأعمال اليومية العادية . وفى شتاء سنة ١٩٤٤ ، قدم اقتراح إلى الكونغرس بطلب إباحة الهجرة اليهودية إلى فلسطين دون قيد أو شرط ، وإقامة دولة يهودية فيها . وقد سحب هذا الاقتراح بناء على توصيات وزارة الحربية ووزارة الخارجية ، اللتين خشيتا أن يحدث أثرا سيئا فى الشرق الأوسط ، فى الوقت الذى كانت فيه الحرب على كف عفريت . وعندما أوقفت العمليات الحربية ، صودق على الاقتراح ، بعد تعديل طفيف ، فى مجلس الشيوخ والنواب .

وفى الوقت نفسه كان الصهيونيون يقومون بحملة قوية منظمة للتأثير على الرأى العام الأميركى . واستعانوا بالصحافة والإذاعة على نطاق واسع . واستعانوا أيضا ، ولكن على نطاق أضيق ، بالمسرح والسينما لبث دعواهم بين الناس . وكانت توزع العرائض التى تؤيد الصهيونية على منظمات العمال ، والكنائس وغيرها من المؤسسات لتوقع ويوافق عليها . ثم تكدس على مكاتب أعضاء الكونغرس ورئيس الجمهورية لتوهمهم بكثرة أنصار الصهيونية بين الناخبين .

وفى هذه المرحلة انبرى البيت الأبيض لإصدار القرارات والتصريحات التى تؤيد الصهيونية ، وكثيرا ما كان ذلك يحدث على الرغم من تحذير وزارتى الخارجية والحرب . وتلك السياسة التى استهلها الرئيس روزفلت ، اعتنقها الرئيس ترومان بقوة وعزم .

ونتيجة للضغط الصهيونى أخذت الدوائر الرسمية فى الولايات المتحدة تضغط على الحكومة البريطانية للإسراع فى تنفيذ البرنامج الصهيونى . وعندما تعبت الحكومة البريطانية من توجيهات الأميركيين وتوبيخاتهم الكثيرة ، ومن تهرب الحكومة الأميركية من تحمل المسئولية ، دعتها إلى الاشتراك معها فى إرسال لجنة للتحقيق . فألفت لجنة التحقيق . الإنجلو ـ أميركية ، من ستة أعضاء إنجليز وستة أميركيين ـ وكان عضوان من الأعضاء الأميركيين وهما بارتلى كروم وجيمس مكدونالد من دعاة الصهيونية المتحمسين قبل تعيينهم فى هذه اللجنة التى من المفروض أن تكون محايدة، وكذلك كان العضو الإنجليزى كروسمان ـ وسافرت إلى فلسطين فى أوائل سنة ١٩٤٦ . ورأت اللجنة فى تقريرها الذى رفعته فى ربيع تلك السنة ، أن لا تكون فلسطين دولة عربية أو يهودية . ونصحت بدخول مائة ألف مهاجر يهودى فورا إلى فلسطين ، وتركت الباب مفتوحا أمام هجرة واسعة فى المستقبل ، ومعنى هذا أنها جعلت قيام الدولة اليهودية أمرا مؤكدا ، وذلك بتيسير تفوق اليهود العددى ، بوساطة سيل الهجرة المتدفق المستمر . وأول من ذكر رقم مائة الألف هذا ، كان الرئيس ترومان وذلك أثناء اتصالاته بالحكومة البريطانية ، وفى تصريحاته العامة التى كان يلقيها أثناء الانتخابات ، عندما كان يسعى إلى الحصول على أصوات الناخبين اليهود . فهذه التوصية إذن ، تدل على أن اللجنة كانت تسير على سياسة مرسومة ، بدلا من أن تحاول تكوين رأى خاص مستقل ، تبنيه على تحرياتها فى الموضوع . وعندما نشر تقرير اللجنة طالب الرئيس ترومان بإدخال مائة ألف يهودى حالا .

وقد أجاب الإنجليز على ذلك، بأن هذا التقرير يجب أن ينفذ بحذافيره باعتباره وحدة لا تتجزأ ، وذلك يتطلب تجريد القوات اليهودية غير النظامية من السلاح ، وضمان مساعدة أميركا المالية والعسكرية فى هذا السبيل .

وتقدمت لجنة من الموظفين الإنجليز والأميركيين ، على ضوء التقرير الإنجلو أميركى ، باقتراحات خاصة بإنشاء نظام إتحادى فدرالى ، عرفت بمشروع موريسون – جريدى . وهو يقترح تقسيم فلسطين إلى أربع مناطق : منطقة عربية وأخرى يهودية يحكمها العرب واليهود ، ومنطقة النقب ، وتوضع تحت إشراف السلطات البريطانية . ومنطقة القدس وبيت لحم ، وتوضع تحت إدارة الحكومة البريطانية المركزية ، التى تتولى شئون الأمن والعلاقات الخارجية والجمارك لجميع البلاد .

وفى خريف ١٩٤٦ دعت الحكومة البريطانية الحكومات العربية إلى مؤتمر خاص بفلسطين يعقد فى لندن . وتقدم العرب باقتراحات بشأن تأسيس دولة موحدة مستقلة فى فلسطين ، تسير على النظام الديموقراطى وتراعى فيها حقوق الأقليات . ومع أن هذا المؤتمر امتد حتى شتاء ١٩٤٦ – ١٩٤٧ ، فإنه لم يصل إلى اتفاق ما . ولهذا قررت الحكومة البريطانية عرض قضية فلسطين على الأمم المتحدة .

عقدت دورة خاصة لهيئة الأمم المتحدة فى نيسان (ابريل) ١٩٤٧ . وكان الأمل يداعب خيال العرب ؛ إذ أنه سيتاح لهم أن يعرضوا وجهات نظرهم عرضا شاملا ، كما أن قضيتهم ستلاقى التأييد ، إذا روعيت فيها المبادئ التى قام عليها ميثاق الهيئة . وسرعان ما خاب فألهم عند ما رأوا أن المناقشات قد اصطبغت بالصبغة الصهيونية ، نتيجة للضغط الصهيونى وبتأييد الولايات المتحدة . وقد اتضح تأييد المطامع الصهيونية فى تحديد مهمة لجنة الأمم المتحدة الموفدة إلى فلسطين (UNSCOP) . فلم تكن فيها أية إشارة إلى استقلال البلاد الذى طالب به مندوبو الدول العربية .

تم إن ربط مشكلة اليهود الذين كانوا فى معسكرات المشردين فى أوربا ، بقضية فلسطين ـ وهو فى مقدمة الأشياء التى كان يعنى بها الصهيونيين ـ كان مضمنا فى توصيات اللجنة .

وكما وقع فى اللجنة الانجلو ـ أميركية ، كان للصهيونيين عدد من المؤيدين بين أعضاء لجنة الأمم المتحدة الموفدة إلى فلسطين ، وبين الموظفين الذين رافقوها . بل لقد بالغ بالمجاهرة فى تأييد الصهيونية اثنان من أعضاء هذه اللجنة الدولية التى عينتها الأمم المتحدة لتقوم بتحقيق عادل وغير متحيز بالقضية الفلسطينية . وهذان العضوان هما غرانادوس ممثل جواتيمالا ، وفابريجات ممثل الأورغواى . وقد رتب لهم أثناء وجودهم فى فلسطين اجتماع « ودى للغاية » مع زعماء عصابة الإيرغون الإرهابية الذين حثوهم « بصفتهم أصدقاء أوفياء » للصهيونية ، على أن لا يكتفوا بالمطالبة بتصفية الانتداب البريطانى ، بل يطالبوا أيضا بجعل فلسطين كلها دولة يهودية . وقد أجاب جرانادوس على هذا بقوله : « سيبدو غريبا أن نطالب ـ أنا وفابريجات ـ بأكثر مما يطالب به شرتوك . وإنكم لتعلمون ، مثلما أعلم بأن الوكالة اليهودية تقترح التقسيم »[1] .

وقد قدمت هذه اللجنة نتيجة تحرياتها إلى هيئة الأمم المتحدة ، فى أول ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٧ . وكانت تضم تقريرين : أحدهما ـ وهو تقرير الأكثرية ـ ينصح بتقسيم فلسطين والثانى ينصح بإنشاء نظام اتحادى (فدارلى) . وبما أن الجمعية العامة للأمم المتحدة ، قدأقرت مشروع التقسيم ، فلا بد لنا من أن نحلله بشىء من التفصيل :

بدأت اللجنة تقريرها بذكر مساحة فلسطين التى تبلغ حوالى ٠٠٠ ، ١٠ ميل

---

(١) Begin : The Revolt, pp. 294 – 307.

مربع . ولكن مايقرب من نصف هذه المساحة ، أرض صحراوية غير مأهولة . ثم أخذت فى تقسيم هذه البلاد إلى دولة عربية وأخرى يهودية ، ومنطقة دولية تضم مدينة القدس وضواحيها . ولم يكن من الممكن جعل أى من هاتين الدولتين وحدة محددة متماسكة . وبما أن العرب واليهودية كانوا يعيشون معا فى أجزاء مختلفة من فلسطين ، عبثت الأيدى فى تقسيم البلاد بحيث يحشر جميع السكان اليهود ، خارج القدس ، فى الدولة اليهودية المقترحة . وكانت النتيجة رقعا متناثرة من ثلاثة أجزاء عربية ، وأخرى يهودية ، مبعثرة هنا وهناك ، دون أى اعتبار للحقائق الجغرافية ، ووسائل المواصلات . بصرف النظر عن السكان الذين شملهم هذا التشتيت .

وفى جزء من التقرير ، تعلن اللجنة أن ضمان استمرار حياة الدولتين ضرورى لنجاح مشروع التقسيم . وفى جزء آخر منه ، تعترف بأن على الدولة العربية أن تبدأ حياتها فقيرة ، ثم تستمر فى العيش معتمدة على الإحسان .

وقد ذكرت اللجنة ، أنها كانت مضطرة إلى اقتراح مشروع التقسيم ، وذلك لترضى النزعات القومية المتضاربة عند العرب واليهود . وفى سبيل تحقيق مطامع الصهيونيين القومية عمدت اللجنة إلى عمل اعتباطى فى تخطيط الحدود بحيث يبقى ٨٠٠٠ يهودى فقط فى الدولة العربية . فهل أظهرت مثل هذا الحرص فى تحقيق آمال العرب ؟ إن الأرقام تجيب على ذلك . ففى الدولة اليهودية المقترحة نجد أن العرب يكونون أغلبية السكان ؛ إذ أن عددهم ٥٠٠ ، ٥٠٦ آلاف منهم ٠٠٠ ، ٩٠ من البدو ، بينما عدد اليهود ٠٠٠ ، ٥٠٠ ألف . فهل يملك المرء إلا أن يتساءل لماذا لاينتظر من اليهود ، وهم أقلية فى فلسطين ، وأكثرهم حديث العهد بها ، أن يعيشوا مع بقية السكان بينما يجبر العرب على الرغم من أنهم يقطنون البلاد منذ أمد بعيد على أن يخضعوا لحكم طائفة من الغرباء الذين استوردوا حديثا .

وهنالك أرقام أخرى تروى قصة الإجحاف والظلم . تذكر اللجنة فى تقريرها

أن العرب يملكون ٨٥٪ من أراضى البلاد ، وهم ثلثا سكانها . ومع ذلك فإن الدولة التى خصصت لهم بموجب مشروع التقسيم ، تشغل ٤٥٪ من مساحة البلاد فقط . أما اليهود الذين يكونون ثلث السكان و يملكون أقل من ٧٪ من أراضى البلاد ، فقد خصص لدولتهم ٥٥٪ من مساحة البلاد .

و يظهر عدم التكافؤ أيضا فى التقسيم النسبى للأراضى الخصبة بين الدولتين . إن الأراضى الخصبة فى فلسطين تكون جزءا صغيراً من مساحتها العامة ، وسائر البلاد صحارى وتلال صخرية . وقد خصص مشروع التقسيم للعرب التلال الصخرية ، بينما خص الدولة اليهودية بـ ٨٤٪ من الأراضى الخصبة المزروعة . وفى الواقع أن جميع الأراضى التى تزرع فيها أشجار الحمضيات ـ وهى أهم صادرات البلاد الزراعية ـ تقع فى الدولة اليهودية ، مع أن العرب يملكون نصف بساتين البرتقال .

وحين مزقت اللجنة البلاد وفتتتها تفتيتا ، رأت أن هذه الأجزاء المبعثرة لا يمكن أن تبقى على قيد الحياة ، ولذا لجأت إلى تقرير الوحدة الاقتصادية ، لتسير جنبا إلى جنب مع التمزيق السياسى . والتوصية الخاصة بهذا الشأن التى أقرت بالإجماع تنص على ما يلى : « يجب اعتبار الإبقاء على الوحدة الاقتصادية لفلسطين بأجمعها ، مبدأ أساسيا لا مندوحة عنه لاستمرار حياة البلاد وأهلها ، ولتطور مشروعات العمران فيها » .

ولما كانت هذه اللجنة قد قررت أن العرب واليهود لا يمكن أن يتعاونوا فيما بينهم من الناحية السياسية ، فكيف يمكن اعتبار تعاونهم فى المجال الاقتصادى أمرا معقولا ؟ و إذا كان التعاون متيسرا فى أحد المجالين ، فلم لا يكون متيسرا فى الآخر ؟ فهل من غير المعقول حينئذ أن نستنتج أن الوحدة الاقتصادية ، مع ما يرافقها من التقسيم السياسى ، إنما أريد بها تمكين اليهود من السيطرة التامة على اقتصاديات البلاد بأجمعها .

وأخيرا قررت اللجنة وضع منطقة القدس تحت الوصاية الدولية ، نظرا لأهميتها الدينية فى نظر المسيحيين والمسلمين واليهود فى جميع أقطار العالم . ولكنها لم تقترح قوانين وأنظمة جديدة للأماكن المقدسة . بل إن هيئة الوصاية الدولية ستحتفظ بالوضع على الوجه التالى : « يجب أن يحافظ على الصفة المقدسة لهذه الأماكن ، ويجب أن يؤمن الوصول إلى الأماكن المقدسة بغية العبادة والحج ، وفقا للحقوق القائمة » ويؤكد هذا الاتجاه أيضا فى موضع آخر من التقرير « الحقوق القائمة فيما يختص بالأماكن المقدسة والمبانى الدينية أو المشاهد ، يجب ألا تتجاهل أو يمسها الضر » .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن هذه « الحقوق القائمة » ، كانت نافذة منذ مئات السنين ، وطوال هذه المدة كان العرب يحافظون عليها و يتمسكون بها بدقة و إخلاص. فإذا كانت اللجنة تعترف بوجود هذه الحقوق القائمة ، ولما كان العرب قد حموا هذه الحقوق وحافظوا عليها لعدة قرون قبل اختراع الانتداب والوصاية ، فلماذا يعتبرون الآن غير جديرين بالمحافظة على هذا التقليد ، الذى تمسكوا به خلال العصور بما يرضى الأجيال العديدة من المتعبدين والحجاج ؟

وفلسطين مقدسة عند العرب : مسيحييهم ومسلميهم على السواء . أما بالنسبة للعرب المسيحيين فانها بلادهم المقدسة ووطنهم الذى عاشوا فيه وتعبدوا منذ أن مشى المسيح على هذه الأرض ، وأما بالنسبة للمسلمين فهى مقدسة لأنها أرض الأنبياء والرسل وفيها بيت المقدس ، أولى القبلتين . وفى القدس أقام العرب أقدم شاهد على الفن الإسلامى ، أعنى قبة الصخرة ، معجزة الروعة والجمال الذى يبعث على الخشوع . وعلى مدى ثلاثة عشر قرنا احتفظ العرب بقداسة الأرض المقدسة للأديان السماوية الثلاثة ، لأن الإسلام ، وهو أحدثها ، يحترم ما يتصل بالدينين السابقين من توراة و إنجيل وأنبياء وأماكن مقدسة . وهذا الاحترام المصحوب بتحرر المجتمع الإسلامى

من العصبية الجنسية قد جعل من المسلمين حماة مثاليين للأراضى المقدسة . « ولقد أبدى العرب فى بسط يدهم على الأماكن المقدسة بفلسطين تسامحا كريما مستمدا من روح الإسلام الأصيل ، تسامحا قلّ أن تجد له أمثلة أخرى فى القرون الوسطى بل وحتى فى العصور الحديثة [١] » .

أما التقسيم ، وهو مشروع ملئ بمتناقضات تتحدى مبادئ الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والطبيعة الإنسانية ، وهو مناقض لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة ، فقد أقرته الأمم المتحدة فى ٢٩ من تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٧ .

واقرار التقسيم ثم الضغط والمداورة اللذان صحبا المناقشات والإجراءات التى أدت إليه إنما هى جميعا فصل محزن فى حياة الأمم المتحدة .

وعند التصويت على التقسيم عملت جمعية الأمم المتحدة تحت تأثير الضغط الحاد المتواصل . ذلك لأن ممثلى الولايات المتحدة عملوا حسب تعليمات البيت الأبيض حيث التأثير الصهيونى على أشده ، فتزعموا المعسكر الصهيونى بفكر وروح بعيدين عن حقيقة القضية وعواقبها . وهذا التحيز من الولايات المتحدة أثر فى وفود بعض الدول الصغرى التى تنقاد لزعامتها . وفى هذا الجو التوت المناقشات واضطربت النتائج ، وشوهت القضية وازدادت تعقيدا . لأن هذه القضية لو عولجت بروح حرة وفكر طليق لم تكن مشكلة على الإطلاق ، ولكن زجت فيها أمور خارجية جعلت منها مشكلة ، ولو برئت منها لظلت بسيطة واضحة كالنهار . ومقطع الحق أن فلسطين بلاد عربية ، وهى للعرب حسب كل القوانين التى تجعل بلداً ما من حق شعب من الشعوب ، أعنى طول مدة الاستيطان . وقد تعرض هؤلاء العرب وهم الشعب الوحيد فى فلسطين ذو الحق الذى لاينازعهم فيه غيرهم ، الحق المكتسب بطول الإقامة ، — تعرضوا لغزو من شعب غريب يريد أن يفرض نفسه على تلك البلاد بالقوة . وكل

---

(١) Kohn : Western Civilization in the Near East, p. 55.

شيء عدا هـذا فهو خارج عن حدود القضية مرفوض من أساسه . وكانت مهمة الأمم المتحدة وواجبها فى هذه القضية أن توقف العدوان وتحتفظ بالأرض لأصحابها الشرعيين .

هل للأمم المتحدة الحق فى أن تقسم بلدا على غير رغبة أهله ؟ أثيرت شكوك قوية حول هذه المسألة ، وقدم قرار إلى اللجنة الخاصة بفلسطين يقضى بأن تحيل بعض المسائل القانونية المتعلقة بفلسطين إلى محكمة العدل الدولية ، وأهم فقرة فى هذا القرار ، تتساءل :

« إن كانت الأمم المتحدة أو أى واحدة من الدول الأعضاء تستطيع أن تفرض أو توصى بفرض أى اقتراح يتعلق بدستور حكومة فلسطين ومستقبلها ، وعلى وجه الخصوص ، أى خطة للتقسيم ضد رغبات سكان فلسطين و إقرارها بغير رضاهم » .

وقد صوت لهذه الفقرة من القرار أعضاء اللجنة الخاصة بفلسطين (وهم يمثلون جميع الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة) فخذل القرار بصوت واحد .

وهكذا حين رفضت الأمم المتحدة أن تستشير المحكمة الدولية قبل الإقدام على ماقررته فى أمر مشروع يثير الشكوك ، فانها عرضت نفسها للاتهام بأنها اهتمت بالاعتبارات السياسية أكثر من اهتمامها بحل قائم على العدالة .

ولكى تتضح الفوضى وانعدام الإخلاص فى مناقشات الأمم المتحدة وفى التصويت الأخير الناجم عنها ، أقدم معالجة مشكلة اللاجئين اليهود مثلا بارزا على ذلك ـ كانت مشكلة اللاجئين اليهود من أكثر المسائل الخارجية التى زجت فى العقدة الفلسطينية ، فلم يسق الصهيونيون دعوى مثلها بإلحاح محاولين أن يقدموا الصهيونية للعالم فى ثوب حركة إنسانية . ولم يؤثروا بمثلها على العالم فى خارج الدوائر الصهيونية . أما فيما يتعلق باللاجئين اليهود فإن لجنة الأمم المتحدة الموفدة إلى فلسطين والتى كانت أغلبية أعضائها مع التقسيم فقد أوصت بما يلى بالإجماع : « تأخذ الجمعية

العامة على عاتقها أمر البدء والتنفيذ لقيام تنظيم دولى تعالج به مشكلة اليهود الأوربيين المنكوبين الذين يوجد منهم فى مراكز تجمعات ٢٥٠ ألفا ، باعتبارها مشكلة تستدعى الحلّ السريع العاجل لتخفيف نكبتهم ، وتسهيل حل المشكلة الفلسطينية » . ماذا كان مصير هذه التوصية الإجماعية ؟ لقد ألقى الأعضاء خطبا جميلة وعبروا عن مشاعر طيبة ، ولكن حين طلب إلى هذه الدول المتحمسة أن تسهم كل بدورها فى حل المشكلة كان الجواب على ذلك نكوصا مخجلا عن تحمل المسئولية .

وتقدم العرب باقتراح آخر حول موضوع اللاجئين اليهود إلى اللجنة الخاصة بفلسطين فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ونص الاقتراح « أن الجمعية العامة نظرا للتوصية الإجماعية من لجنة الأمم المتحدة الموفدة إلى فلسطين بأن تأخذ الجمعية العامة على عاتقها أمر البدء والتنفيذ لقيام تنظيم دولى تعالج به مشكلة اليهود الأوربيين المنكوبين ، باعتبارها مشكلة تستدعى الحل السريع العاجل لتخفيف نكبتهم وتسهيل حل المشكلة الفلسطينية .

ولما كانت تعلم أن اللاجئين الحقيقيين والذين انتزعت أوطانهم يمثلون مشكلة دولية فى مداها وطابعها .

ولما كانت ترى أنه حيث تستحيل إعادتهم إلى أوطانهم فلا بد من حل ، بإسكانهم فى مناطق الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة ، وهى الدول التى ترضى وتستطيع أن تستوعب أولئك اللاجئين ، ومن لا مأوى لهم .

ولما كانت قد قررت فى الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦ بأن تدعو لتكوين مؤسسة دولية للاجئين لحل مشكلتهم بوساطة الجهود المتضافرة فى الأمم المتحدة .

ولما كانت اللجنة التحضيرية لهيئة اللاجئين الدولية قد اضطلعت منذ أول تموز

(يوليو) ١٩٤٧ بالمسئولية العمليـة نحو اللاجئين والذين لا مأوى لهم فإنهـا توصى بالآتى :

(١) يطلب إلى البلاد الأصلية أن تقبل إعادة اللاجئين اليهود الذين أخرجوا منها وأن تقدم لهم كل المساعدات الممكنة من أجل استيطانهم .

(٢) أن تستوعب بلاد الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة ـ كل بالنسبة لمساحتها ومواردها الاقتصادية ودخل الفرد فيها وعدد السكان والعوامل الأخرى المتعلقـة بهذا كله ـ جميع اللاجئين اليهود ومن لا مأوى لهم ممن لا يمكن إعادتهم إلى مواطنهم الأصلية » .

وقد أخذ التصويت على هـذا الاقتراح فصوت له ستة عشر وعارضه ستة عشر وامتنع ثلاثة وعشرون وتغيب اثنان . هذا هو كل ما عملته الأمم المتحدة لتخفيف مشكلة إنسانية عاجلة .

أما التصويت النهائى على التقسيم فقد تم على الطريقة الآتية : عين يوم الأربعاء ٢٦ من تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٧ للتصويت . ولما وضح كل عضو رأيه فى خلال النهار تبين أن أكثرية الثلثين اللازمة لنجاح القرار غير مضمونة فتقدم مؤيدو التقسيم باقتراح يقضى بتأجيل الجلسة إلى ما بعـد عطلة « يوم الشكر » . وفى أثناء العطلة اتخذ الضغط اللازم على ذوى الرأى المخالف وسيقوا إلى صف المؤيدين. وقد علق الملاحظون الأميركيون والأجانب بأن التصويت للتقسيم إنما دفعت به حكومة الولايات المتحدة داخل الأمم المتحدة . وقد تبين طوال الاجتماع أن حكومة الولايات المتحدة كانت قد أقصت من اعتبارها كل شىء إلا إنشاء دولة يهودية ، وقال كثير من الملاحظين : إن تأثير اليهود فى وشنطن كان أكبر ممـا يخطر على بال إنسان [١] .

---

(١) New York Times, Dec. I, 1947 ; Millar Burrows : Palestine is our Business. Philadelphia, 1949, p. 71.

أما العرب فقد رأوا فى قرار التقسيم تحطيما لروح ميثاق الأمم المتحدة . وعبر بعض الوفود الأخرى عن ارتيابهم وشكوكهم فى عمل يثير التساؤل من الناحيـة الخلقية ، ولا يمكن فرضه بالقوة من الناحية القانونيـة . و بعض التعليقات فى الصحف كانت تعكس مثل هـذا القلق على الأسس الخلقية للأمم المتحدة وعلى قدرة هـذه المنظمة بأن تحتفظ بثقة الشعوب وآمالهم . وهـذه فقرة من مجلة Christian Century ، ١٧ من كانون الأول (ديسمبر) تصور هذه النظرة :

« إننا نقامر بمستقبل الأمم المتحدة ، إننا نقامر بالأمل فى أن تكسب هذه المنظمة سلطة أدبية فى الأمور الدولية، إذ أن فرض التقسيم بالرغم من أن ثلثى سكان فلسطين يقاومونه يجعل ولاء الأمم المتحدة المزعوم للمبادئ الديموقراطية القائمة على حق تقرير المصير وحكم الأكثرية ، يبدو وكأنه نفاق فاجر » .

أما النغمة العامة فى الصحف فكانت تعبيراً عن الارتياح ، لأن الأمم المتحدة بعد سجل ملىء بالتعثر والإخفاق ، قد نجحت أخيراً ، بل تحمس بعضها لأن العملاقين المتعاديين : الولايات المتحدة وروسيا قد التقيا فى معسكر واحد حول هذا الأمر الهام . غير أن التفاؤل كان سابقا لأوانه قصير العمر ، فما كاد الاتفاق على التقسيم يتم حتى نجمت عنه المشكلات المروعة ، التى أخذت تزداد بشاعة كل يوم .

وقبل أن آخذ فى سرد التطورات التالية بفلسطين أرى من المناسب فى هذا المقام أن ألخص الدعاوى التى يتقدم بها الصهيونيون ليثبتوا حقا لهم فى البلاد المقدسة .

يعتقد الصهيونيون أن صلة اليهود الدينية والتاريخية بفلسطين تخولهم حق بناء الدولة اليهودية فى تلك البلاد . وهم يقولون : إن اليهود لم يكونوا أمة إلا فى فلسطين و بسبب ارتباطهم بفلسطين استطاعوا أن يسهموا بنصيب بارز فى الميراث الروحى لبنى الإنسان . و يرون أن وعد بلفور الذى أصدرته دولة عظمى وأيدته هيئة دولية هى عصبة الأمم يضيف إلى الصلات التاريخية حقا شرعيا . وأن ما حققه اليهود

فى فلسطين يدل على أنهم أقدر على تطوير البلاد من سكانها العرب . وأخيرا يريد اليهود فلسطين ليعيدوا إسكان اللاجئين اليهود ويعالجوا الشعور بفقدان الوطن ، الذى ما زال يطاردهم خلال القرون الطويلة من التشتت والاغتراب .

وقد أثرت هـذه الدعاوى فى الرأى العام بالعالم الغربى لـكثرة الإلحاح عليها وعلى إشاعتهـا ، وقلما تساءل الناس عن مدى صحتها أو عن اصطدامها بمصالح قوم آخرين مستقرين فى وطنهم ، وإذا أنعم النظر فى هذه الادعاءات فقدت علامات القبول ، واتضح بطلانها .

إن القول : بأن فلسطين يجب أن تـكون لليهود لصلاتهم التاريخية بها ، قول يغفل ثلاث حقائق تاريخية أساسية تتصل باحتلال اليهود لفلسطين : إن ذلك الاحتلال كان قصير الأمد بالنظر لتاريخ البلاد وتاريخ اليهود أنفسهم . وإنه كان محدوداً لا يتعدى فى بعض الأحايين جزءا صغيراً منها . وإنه بطل منذ ألفى سنة حين اندثرت البقية الباقية منه فى القرن الأول الميلادى . ومن عهدئذ سكن البلاد ـ دون انقطاع ـ شعب يريد الصهيونيون أن ينتزعوا الأرض من أبنائه ويخلفوه فيهـا . وإن فلسطين لم تـكن وطنا عربيا فحسب ـ لمئات السنين ـ بل هى جزء أصيل من العالم العربى الأكبر لا يمكن فصلها عنـه دون إحداث ضرر بفلسطين نفسها وبالوحدة الـكبرى التى هى أحد أجزائها .

وأما عن صلة اليهود الدينية بفلسطين : فهل خلق قومية يهودية ضرورى لتقوية الروابط الدينية بالأرض المقدسة ؟ إن الشواهد تشير إلى عكس ذلك لأن القوميين الصهيونيين هم أقل الناس احتفالا بأمر الدين، ورمزهم الأعلى هو تل أبيب لا أورشليم. ثم يجب أن نذكر أن العلاقة الدينية بفلسطين ليست وقفا على اليهود ، فليست اليهودية وحدها هى التى جعلت من فلسطين بلدا مقدسا .

وأما الوعد المقطوع فى تصريح بلفور فقد بينا أن بريطانيا العظمى تعدت حقوقها

فيما صنعته حين أصدرت مثل ذلك التصريح . بل إنها كانت مرتبطة بعهود مع العرب سابقة على تصريح بلفور ـ عهود دعمتها عهود أخرى وتأكيدات أعلنت فى فترات متعددة بعد التصريح . ويقع الانتداب على فلسطين فى تلك القائمة من الأعمال غير الصحيحة لأنه خروج على ميثاق عصبة الأمم ، إذ خلق حالة تؤدى إلى نقل حق أساسى لا ينتقل ، هو حق شعب مواطن فى وطنه . ولم يكن الانتداب ليستطيع أن يقيم وطنا قوميا لشعب غريب ضد إرادة السكان الأصليين ثم يعتبر فى الوقت ذاته قائما بحق الوصاية . إن حق تقرير المصير كان مبدأ أساسيا للعصبة وقد اعترف ميثاق العصبة بالحرية المشروطة للعرب الذين كان عليهم أن يتقبلوا المشورة الإدارية والمساعدة من سلطة الانتداب . ونقضا لكل المبادئ والاشتراطات أحال الإنتداب عرب فلسطين إلى منزلة البلاد المستعمرة حين حرمهم أى شكل من أشكال الحكم الذاتى وهدد كيانهم فى وطنهم بأن مكن لشعب طارئ من غزو بلادهم . وإذا كانت عصبة الأمم قد أيدت الانتداب فإن هذا لا يغير شيئا من طبيعة الخطأ الأدبى المتضمن فيه ولا يجعله أكثر قبولا عند شعب وقع الحيف الجائر على حقوقه ومصالحه الحيوية. ولقد كانت عصبة الأمم وهى رابطة من الدول ، هيئة معرضة لكل الدوافع التى كانت تحرك أعضاءها على انفراد وكثيرا ما استكانت لأخطائهم . وفى المسألة الفلسطينية عملت كل من عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة لا على ضوء المبادئ التى يقوم عليها الميثاق فى كل منهما ، بل انحرفا تحت الضغط والتأثير فى اتجاه معاكس للمبادئ التى تبشران بها .

إن الدعوى بأحقية اليهود فى فلسطين لكفاياتهم الممتازة تذكرنا بنظرية هتلر فى سيادة الأجناس وهى مما لا يناسب الشعب اليهودى الذى كان ضحية لهذه النظرية الخاطئة من أساسها الباعثة أدبيا على الاشمئزاز والنفور . إن المهاجرين اليهود وأكثرهم من الأوربيين قد أفادوا من العلم والتقدم الغربى فميزهم هذا تميزا مؤقتا على العرب

ولكن هذا لا يعنى أن لدى اليهود كفايات موروثة تسمو على كفايات غيرهم ، فهذه الدعوى ليست مغالطة فحسب بل هى مرفوضة أدبيا لأنها تحاول أن تبرر التعدى تحت ستار تحسين حال البلاد . وباسم التفوق الحضارى والعرقى نشرت القوى الاستعمارية تلك الأسطورة « عبء الرجل الأبيض » لتبرر الغزو والسلب فى آسيا وإفريقية فى أثناء القرن التاسع عشر . وفى الحقبة الأخيرة عمل النازيون بوحى هذه النظرية فى علاقاتهم مع الشعوب الأوربية الأخرى فاعتبروا أنفسهم بالنسبة لتلك الشعوب متميزين لأنهم أكفأ وأقدر . واستغلت اليابان كفايتها وقدرتها تبريرا لعدوانها على الشعوب الأسيوية . وفى هذا المقام يحسن أن نشير إلى ما حققه اليابانيون فى كوريا :

« ومن العدل لليابانيين أن نعترف أنهم قد أدوا لكوريا كثيرا فى الناحية المادية ، فحين تسلموها كانت البلاد قذرة موبوءة يهيمن عليها الفقر إلى درجة محزنة . أما جبالها فكانت قد تعرّت من الغابات ، وأما وديانها فكانت عرضة للفيضانات المتكررة ، ولم تكن فيها طرق معبدة ، وكانت الأمية فيها عامة ، والتيفوئيد والجدرى والكوليرا والدوسنطاريا والطاعون أمراضا مستعصية . أما اليوم فالجبال محرّجة ، والسكك الحديدية وأنظمة التلفونات والتلغراف ممتازة ، والخدمات الصحية العامة على أتم استعداد ، والطرق الكبرى ممتدة فى جميع أنحاء البلاد ، والتحكم بالفيضان ووسائل الرى زادت كثيرا فى إنتاج الأغذية وتقدمت الموانئ الجميلة وتحسن الاشراف عليها . وقد بلغ من ازدهار البلاد وتحسن حالتها الصحية أن ارتفع عدد سكانها بعد أن كان ١١ مليونا فى سنة ١٩٠٥ إلى أربعة وعشرين مليونا « ومتوسط المعيشة اليوم فيها أعلى بكثير مما كان فى مطلع القرن [١] » . ومع ذلك فان اليابانيين لم يسمح لهم بالاحتفاظ

---

(١) Hallett Aband : Pacific Charter 1943, quoted in Jawaharlal Nehru : The Discovery of India pp. 426–427 footnote.

بكوريا . هذا على أنهم لم يحاولوا - كما حاول اليهود بفلسطين - أن يستأصلوا السكان الأصليين و يخلفوهم ، و إنما اكتفوا بعد سلطانهم السياسى على البلاد.

ومن أشد الدعاوى الصهيونية التى وجدت قبولا واسعا ، ادعاؤهم أنهم يحتاجون فلسطين ملجأ للمضطهدين ومن لا مأوى لهم من اليهود ، فهذه دعوى قد استدرت العطف والتجاوب اللذين تستثيرهما أى حركة إنسانية . غير أن الشعور الصهيونى نحو اللاجئين لم يكن إنسانيا كما صوروه ، بل كانت الاعتبارات السياسية لا الإنسانية هى الموجهة للصهيونيين فى إلحاحهم على ضرورة إسكان اليهود النازحين بفلسطين ، لأنه فى فلسطين وحدها كان من شأن هذه الزيادة أن تهيئ الكثرة اللازمة للتعجيل فى قيام دولة يهودية .

وقد قامت الوكالة اليهودية بضغط شديد ودعاية واسعة فى جهودها لتوجيه اللاجئين اليهود إلى فلسطين . ففى سنة ١٩٤٧ قدم ما يقارب نصف المشردين الموجودين فى المنطقة الأميركية من ألمانيا طلبات بدخول الولايات المتحدة ، وذكر معظمهم أنهم يفضلون الذهاب إلى أى بلاد ماعدا فلسطين . وفى أثناء الحرب كان الصهيونيون يجمعون المهاجرين غير الشيوعيين فى سفن لا تصلح للملاحة . وقد استغلوا غرق إحدى هذه السفن لشن حملة عنيفة على الدولة المنتدبة ولاستدرار عطف الرأى العالمى . ونسفوا سفينة باتريا Patria فى ميناء حيفا ليمنعوا مغادرتها الميناء بمن عليها من المهاجرين الذين كانوا يحاولون تهريبهم إلى فلسطين . ووقعت خسائر شديدة فى الأرواح ، غير أن الصهيونيين حققوا أغراضهم ، وهو الدعاية العالمية و إدخال الناجين إلى فلسطين. وكان جابوتنسكى قد تقدم قبل الحرب إلى حكومة بولندا باقتراح يمكن بولندا من أن تتخلص سنويا من ٧٠,٠٠٠ من يهودها لقاء ضغطها على الحكومة البريطانية بالسماح لليهود لدخول فلسطين فى حرية تامة و بتسليح أنفسهم . وقد وجدت اللجنة الإنجلو أميركية ولجنة الأمم المتحدة الموفدة إلى فلسطين أن فلسطين تعجز عن حل مشكلة

اللاجئين اليهود ، فوضعتا مسئولية حل المشكلة على عاتق العالم كله . غير أن الصهيونيين لم يتعاونوا ولم يتجاوبوا مع هذا الشق من التقريرين لأن غايتهم الأولى كانت سياسية ولم تكن إنقاذ اليهود أوالسعى لخلاصهم . بل إنهم تجنبوا الإمكانيات والعروض لإسكان اللاجئين فى بلاد تسهل الهجرة إليها [١] . ولو أن الصهيونيين حولوا قسما من التأثير والوسائل التى يملكونها عن الهدف السياسى نحو اعتبارات إنسانية حقة، ولو أن العاطفين على الصهيونية كانوا أكثر استنارة فى إنسانيتهم لكان من المحتمل عدم وقوع المأساة الفلسطينية .

غير أن الذى حدث فعلا هو أن الغاية السياسية من وراء الصيحات الإنسانية لإيجاد وطن اللاجئين اليهود أدت إلى تحويل مليون عربى إلى لاجئين لاموطن لهم .

ومن العسير على العرب ألايحسوا بالمرارة نحو الإنسانية المزعومة عند الصهيونيين ومشايعيهم .

ولا ريب فى أن مشكلة اليهود الأوربيين قد أصابت وترا حساسا فى قلوب آلاف الناس ، ولكن هؤلاء الناس لم يقدموا ما يقدرون عليه ليهيئوا ملجأ لليهود فى بلادهم الواسعة المزدهرة . لقد وجدت الصهيونية عونها الأكبر فى البلاد الأنجلوسكسونية ـ الولايات المتحدة والكومنولث البريطانى ـ فماذا فعلت هذه البلاد لليهود الذين أخرجوا من أوطانهم ؟ إن بريطانيا وحدها هى التى قبلت عددا معقولا من اللاجئين يهودا كانوا أو غير يهود . أما كندا واستراليا ونيوزيلنده فقد أيدت تقسيم فلسطين بما ينطوى عليه من حشد المهاجرين فى تلك البلاد الصغيرة ، مما

---

(١) Berger. op. cit. pp. 19, f.
Lilienthal : What Price Israel, pp. 193–197.
Barbour op. cit., p. 216 .
Ben Gurion : Rebirth and Destiny of Israel p. 87 footnote.

سينجم عنه حتما طرد السكان الأصليين . ولكن واحدة من هذه الدول لم تبد استعدادها لتحمل نصيب من اللاجئين اليهود على الرغم من أنها جميعها فى حاجة ماسة إلى زيادة عدد السكان فيها ، وأن اثنتين منها ـ وهما كندا واستراليا ـ تعتبران من البلدان ذات الموارد الضخمة . ثم ماذا فعلت الولايات المتحدة : تقديم اللوائح فى مجلس الكونغرس لفتح أبواب فلسطين لعدد غير محدود من المهاجرين اليهود ، تقديم عرائض لا حصر لها تؤيدها أسماء لامعة وهيئات كبرى لتهجير اليهود إلى فلسطين دون قيد . وعند ما تقدم الرئيس ترومان يطلب إلى الحكومة البريطانية أن تسمح بدخول مائة ألف مهاجر من اليهود إلى فلسطين هتف أعضاء فى مجلس الشيوخ لطلبه هذا قائلين : « إنه لفتة رائعة » . ولكن كيف كانت استجابة أعضاء مجلس الأمة الأميركى لرسائل الرئيس المتكررة التى كان يحث فيها المجلس على إصدار تشريع بالسماح لعدد معقول من اللاجئين اليهود بالهجرة إلى الولايات المتحدة ، بعد تلكؤ استمر ثمانية عشر شهرا أقر مجلس الكونغرس قانونا دمغه الرئيس بأنه « محاباة مكشوفة » . وتحت ستار من التعقيدات يحرم القانون على اليهود الدخول إلى الولايات المتحدة . فهل يستكثر على العرب بعد ذلك أن يؤمنوا بأن كثيرا من الحديث عن العطف الإنسانى على الصهيونية ما هو إلا محض نفاق ؟

وأخيرا نأتى إلى ادعاء الصهيونيين بأن فى الصهيونية وحدها علاجا لمشكلة « اليهودى التائه » والخوف من أن يعود العالم فيعتدى على اليهود فى أى وقت . وأن الدولة اليهودية وحدها هى التى تقيم الضمان الذى يعوز اليهود ويخفف التوتر بينهم وبين سائر البشر .

ويحسن بنا أن نستمع هنا إلى ما يقوله بعض المسئولين من اليهود أنفسهم ردا على هذا الادعاء ، وإليك بعضا منه :

إن إقامة دولة على أساس النظرية التى تقول إن اليهود لا وطن لهم معناها أن يتسم اليهود بسمة الأغراب فى كل مكان يعيشون فيه . وهـذا يناقض الاتجاه التاريخى نحو التحرر والاندماج . إن النظرة الصهيونية التى تعامل اليهود على أنهم جماعة منفصلة وتلح على انفصالهم ومفارقتهم لغيرهم لهى قريبة الشبه باللاسامية . ذلك لأن الصهيونية فى إصرارها على إقامة دولة يهودية توسع الشقة بين اليهود وغير اليهود. فالدولة اليهودية كفيلة أن تخلق مشكلة الولاء المتعدد فهى تحرج وضع اليهود خارج هذه الدولة و بالتالى تثير النزعة اللاسامية . إن اليهود ليسوا جنسا ، فعلى مدى القرون تهوّد أقوام يمثلون جنسيات متعددة ومنهم انحدر اليهود المحدثون فليس فى اليهود من الجنس السامى الذى كان يعيش بفلسطين منذ عهد بعيد إلا أقلية ضئيلة . وقد ظلّ هؤلاء يعيشون فى الشرق الأدنى . وكذلك ليس اليهود أمة من الأمم لأن ولاءهم القومى يتبع البلاد التى يعدون فيها مواطنين . إنما اليهود جماعة دينية والرابطة بينهم دينية أيضا لا عرقية ولا قومية .فقد تخلت اليهودية عن قوميتها منذ عهد طويل وما القومية اليهودية الحديثة ، إلا تصويرا خاطئا لروح العقيدة اليهودية ولا يتم وضع الأمور فى نصابها إلا بأن يذوب اليهود فى البيئات التى يقطنونها لا بخلق دولة سياسية [1] .

وما كان المشروع الصهيونى لينجح لو أن الرأى العام اطلع اطلاعا كافيا لا تحيز فيه على حقيقة المشكلة . وهب أن الحكومات أخطأت وأن رجال السياسة استكانوا للضغط الصهيونى ، إلا أن الرأى العام المطلع قد كان قادرا على أن يصحح الوضع . غير أن الرأى العام فى العالم الغربى بقى ثلاثين سنة ينظر إلى المشكلة الفلسطينية من خلال المنظار الصهيونى ليس فحسب لأن لليهود ممثلين فى الحكومات والبرلمانات

(١) Zionism versus Judaism : A Collection of Editorials from the Information Bulletin of the American Council for Judaism, 1944

فى البلاد المتعددة التى يعيشون فيها ، ومن ثم فلهم القدرة على أن يبلغوا إلى الدوائر الرسمية العليا ، بل إن تأثيرهم يستمد قوته الكبرى من إذعان الصحافة ، وخاصة فى البلاد الناطقة بالإنجليزية ، وغيرها من الوسائل التى تنشر بها الأخبار ويشكل بها الرأى العام . وعلى النقيض من ذلك نجد العرب محرومين من كل هذه الفرص ، لأن الصحافة العربية وهى التى تنقل النبأ الحق عن القضية العربية لا تصل إلى أيدى الجمهور الغربى ، كما أن أصوات تلك الفئة من الغربيين الذين حاولوا أن يظهروا الجانب العربى فى القضية الفلسطينية قد أغرقت فى لجة الدعاوة الصهيونية المنظمة الواسعة الانتشار . أما الظلم والإساءة اللذان تنطوى عليهما الصهيونية فى صميمها ، فقد غمرا فى تيار من هذه الدعاوة التى أظهرت الصهيونية على أنها قوة صاعدة نحو التقدم والحرية والازدهار فى عالم عربى مشمول بظلام الجهالة .

ولقد تجاهل الصهيونيون أمر العرب جهد استطاعتهم ويجدر بنا أن نتذكر أن اسم العرب لم يذكر إطلاقا فى تصريح بلفور ولا فى صك الانتداب . ولما هب العرب للثورة على ما حل بهم من الانتداب المشايع للصهيونية ولفتوا بذلك انتباه بعض الصحف العالمية سارع الصهيونيون يصفون كفاحهم من أجل البقاء وحق تقرير المصير بأنه شغب يثيره التعصب ويسيره قادة رجعيون يريدون أن يصدوا التقدم الصهيونى حتى يبقوا الجماهير العربية خاضعة لهم . فصوروا مقاومة الصهيونية فى صورة مقاومة للتقدم ، والمجتمع العربى من بقايا القرون الوسطى ، يسيطر فيه سادة إقطاعيون متحالفون مع بريطانيا المستعمرة ، والجماهير العربية فلاحين مستذلين أو بدوا ورحلا ، وأحيانا شبهوا العرب بالهنود الحمر ، وهى مقارنة يدركها الخيال الأمريكى فى وضوح . أما اليهود فهم كالرجل الأبيض يحملون رسالة الحضارة . وحاصل هذا كله : أن عرب فلسطين قوم لا حضارة لهم ، ولا روابط قومية ، ولا أسلوبا فى الحياة يستحق الحماية والبقاء ، وإذن فالعرب لن يخسروا شيئاً بل إنهم سيكسبون كثيراً من التحسينات التى يجلبها اليهود إلى فلسطين .

لقد كثر القول حول تأخر العرب وتقدم اليهود . ولكن التأخر أمر نسبى يعتمد تقديره على نظرة الإنسان إليه ، صحيح أن الناحية الفنية متأخرة عند العرب وأن المجتمع العربى وهو فى الأساس قائم على الزراعة فقير إلى الوسائل التى تهيئها الحضارة الصناعية لتثقيف الجماهير ورفع مستوى المعيشة بينهم . ولكن العرب ليسوا بدعا فى هذا بين شعوب الأرض ، وإنما هى مرحلة يشتركون فيها مع الأغلبية الساحقة من بنى الإنسانية ، ثم إن التقدم الفنى وهو الميزة البارزة للحضارة الحديثة ليس هو كل شىء فى الحضارة . وإذا اعتبرنا المظاهر الإنسانية فى الحضارة فقد يستطيع العرب أن يعلموا تلك الشعوب التى تفوقهم فنيا وصناعيا .

ولنعد إلى قرار التقسيم وما نجم عنه ؛ لقد اتخذت الأمم المتحدة هذا القرار حلا لتسوية المشكلة مفترضة أن العرب واليهود متساويان فى حقوقهما بفلسطين ولكنهما عاجزان عن الوصول إلى اتفاق .

إن لليهود فى فلسطين نفس الحقوق التى لهم فى كل بلد يعيشون فيه أعنى المساواة الكاملة مع غيرهم من المواطنين ولكن ليس لهم أدنى حق فى دولة أو وجود قومى منفصل بفلسطين ، ولا فى غيرها ، وحقهم المشروع هو أن يعيشوا ملتزمين بالقوانين الموجودة والأنظمة القائمة فى البلاد ، فالتقسيم على هذا ليس تسوية لأن الشعب المستقر بفلسطين منذ أمد بعيد هو الشعب العربى وإذا كانت البلاد لسكانها الأصليين فالمبدأ يقضى بأن منح قطعة منها للغرباء كمنحها كلها ، أمر لا سند له . وإذا كان اليهود الذين يطالبون بفلسطين كلها قد رضوا بالاكتفاء بجزء منها ، فليس معنى هذا أن التقسيم تسوية توفيقية . وإذا تنازل اليهود عن جزء وقبلوا آخر ، فهم فى الحالين كانوا يقبلون أو يتنازلون عما ليس لهم .

أما الاقتراحات التى قدمها الممثلون العرب لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ فإنها

قد وضعت بروح أصيلة من الميل إلى التوفيق ، ومحاولة إرضاء رغبة اليهود فى بعث تراثهم الروحى ، مع الاحتفاظ بوحدة البلاد وحق الأكثرية الأصلية فيها فى أن تقرر حكومة المستقبل . ومع أن غالبية اليهود بفلسطين كانوا من المهاجرين الجدد الذين دخلوا البلاد على غير رغبة سكانها الأصليين ، ومع أن وجودهم خلق عديدا من المشكلات السياسية والاقتصادية والحضارية إلا أن العرب رضوا اعتبارهم مواطنين فى دولة مشتركة ، فى ظل نظام ديمقراطى يضمن الحرية الفردية والمساواة الشخصية لجميع المواطنين ، وحكم ذاتى محلى شبيه بنظام الكانتونات السويسرى يمنح الجماعات المختلفة سلطات ومسئوليات واسعة فى ميادين التعليم والصحة وغيرهما من الخدمات الاجتماعية والثقافية وحيث اليهود أغلبية تعتبر العبرية لغة رسمية .

ولما يئس العرب من نيل العدالة على يد الأمم المتحدة صمموا على أن يقاوموا قرارها بالتقسيم . وفى عملهم ذاك لم يكونوا يتحدون روح الأمم المتحدة وغايتها ، وإنما كانوا يقاومون إجراء يعارض مبادئ ميثاق الأمم المتحدة ـ كانوا يتحدون تلك الخرافة التى تقول : إن فلسطين ذات قضية خاصة لا يمكن أن تطبق فيها المبادىء المقررة ، ومعنى هذا أن الخروج على هذه المبادىء الذى كان يحرم ويستنكر فى كل مكان ، وجد فى هذه القضية التبرير والسند العالمى ، فهناك : مبدأ حق تقرير المصير وهو المبدأ الأساسى فى عصبة الأمم ، وهناك ميثاق الأطلنطى الذى يحرم « كل تغيير فى حدود البلاد لا يتفق والرغبات الصريحة لأهل تلك البلاد » ويعد « باحترام حق الشعوب كلها فى اختيار شكل الحكومة التى تريد العيش فى ظلها » ، ويستهدف إقامة « سلام يهيئ لجميع الشعوب وسائل العيش فى أمن داخل حدودهم » ، وهناك مبدأ الحقوق المتساوية وحق تقرير المصير للشعوب « المتضمن فى ميثاق الأمم المتحدة » . فإن كانت هذه المبادىء سارية المفعول عالميا فبأى حق أو أية عدالة تستثنى فلسطين

من سائر العالم ،وتعامل على أنها قضية منفردة منعزلة خارجة عن نطاق القانون الدولى والعدالة الدولية .

وهذه الافتراضات بأن هذه المبادئ لا يمكن تطبيقها على فلسطين هى المسئولة عن مأساتها ، فعلى أساس منها أنشىء صك الانتداب الفلسطينى الذى لم يراع مبادئ النظام الانتدابى وعرض وجود شعب كامل لخطر مميت بينما كانت الغاية منه حماية ذلك الشعب و إنعاشه . ومنها نبعت تلك النتائج الحتمية التى تنجم من تحكيم الشذوذ بدلا من القانون والإنصاف . ومن تلك الدعوى بدأت الهيئات العالمية ، أولا اللجنة الانجلو أميركية ثم لجنة الأمم المتحدة الموفدة إلى فلسطين ، بدلا من أن تمهد طريقا جديدا واضحا . فكانت النتيجة أن أضافت هذه اللجان أخطاء جديدة إلى القديمة وزادت فى حال الفوضى الراهنة . وأخيرا على أساس من هذه الدعوى نفسها أيدت الأمم المتحدة التقسيم متحدية بذلك روح الميثاق الذى تستمد منه وجودها . ولنكرر القول بأنه لا تستطيع أية سلطة منفردة أو سلطات مجتمعة ولا أية هيئة دولية مهما يكن نفوذها أن تحرم ـ شرعيا ـ شعبا من حقه الأساسى فى تقرير مصيره والاحتفاظ بوطنه الأصلى .

لذلك كانت مقاومة العرب للتقسيم أمراً طبيعياً ، لأنها منبثقة من شعور الجماهير العربيـة الثائرة على التنكر للعدالة والحق ، ولقد كان لتلك المقاومة فى وقت ما من الأثر ما حدا بالأمم المتحدة وحكومة الولايات المتحدة أن تشك فى إمكانية تطبيق التقسيم ، فكتبت صحيفة أسبوعية واسعة التأثير تصف التقسيم بأنه « شر » وأنه «غيرعملى» [1] ودعيت الهيئة العامة للأمم المتحدة إلى اجتماع فى نيسان (ابريل) ١٩٤٨ لتعيد النظر فى المشكلة الفلسطينية على ضوء ما جد من تطورات ، وكانت هناك خطة للوصاية بدلا من التقسيم حين أعلن الصهيونيون قيام دولتهم . و بينما كان ممثل

---

(١) Life, March 29, 1948.

الولايات المتحدة يخطب فى الأمم المتحدة عن الوصايا اعترف الرئيس ترومان باسرائيل. وكان اعتراف أميركا بها بعد دقائق من إعلانها ، حين كانت الأمم المتحدة تحاول أن تهتدى إلى حل منصف ، تتويجا لسلسلة من الأخطاء البشعة وضربة وجهت إلى السلام بفلسطين . وأشيع أن الرئيس قد اتخذ تلك الخطوة الخطيرة دون أن يستشير وزارة الخارجية أو يعلن بها ممثله فى الأمم المتحدة ليطيب خواطر الصهيونيين ويكسب الأصوات اليهودية فى الانتخابات القادمة .

ثم قام يهود فلسطين بسلسلة من العمليات الانتقامية المشينة ، فذبحوا فى دير ياسين مائتين من العرب أكثرهم من النساء والأطفال ، ومثلوا ببعضهم . وقد آتت هذه الأعمال ما هدفت إليه وما صرح به الناطقون باسم الصهيونية فأفزعت العرب واضطرتهم للنزوح عن وطنهم .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن سلطات الانتداب البريطانى على فلسطين كانت تحول دون حيازة العرب لأى سلاح ، فكانت تفرض العقوبات الصارمة على كل عربى توجد معه قطعة من السلاح أو الذخيرة بينما كانت تتغاضى ليس فقط عن تسلح اليهود بشكل واسع بل وعن التدريب العسكرى الذى كان يمارسه شبابهم على مرأى ومسمع منها .

كما أنه أثناء الفتنة التى قامت بين السكان العرب واليهود فى فلسطين على أثر قرار التقسيم ، حرصت السلطات البريطانية على أن لا ينال العرب من اليهود أى منال . ويذكر عرب فلسطين بمرارة ـ من جملة الحوادث ـ موقف السلطات البريطانية من سكان حيفا العرب عند ما هاجمهم اليهود . فقد ضرب الجيش البريطانى نطاقا حول المدينة ليمنع القرويين العرب من الدخول إلى المدينة لمساعدة إخوانهم ، بينما كان اليهود فى داخلها وقد حشدوا حشودهم يفتكون بهم .

وفى اليوم الخامس عشر من أيار (مايو) حين أعلنت الدولة اليهودية كان

أكثر العرب فى الجزء المخصص لليهود قد أصبحوا لاجئين . فاستنجد عرب فلسطين بالدول العربية لتساعدهم على الدفاع عن وطنهم . واعتبر دخول الجيوش العربية إلى فلسطين عدوانا وتحديا للأمم المتحدة ، ولو أن المبادئ الأدبية والمقاييس المرعية فى العالم روعيت عند تسوية المشكلة الفلسطينية لما عدَّ العرب الذين يدافعون عن جزء أصلى من وطنهم غزاة متعدين ، بل لعدَّ كذلك أولئك الغرباء عن البلاد الذين يطردون شعبا من أرضه ليحلوا محله .

ويستحسن أن نذكر بأن الدول التى لم تؤيد التقسيم كانت تمثل أغلبية شعوب العالم وأن تلك الدول كانت أسيوية وأن الصهيونية ومن ورائها أوربا وأميركا إنما تمثل لشعوب آسيا نوعا جديدا من العدوان الغربى على الأرض الأسيوية .

لقد أخفق العرب فى فلسطين إخفاقا ذريعا . أما عرب فلسطين فكانوا يعانون من قيادة منقسمة واضطراب فى التنظيم ونقص فى الأسلحة . وأما فى غير فلسطين فإن الجماهير العربية لم تكن تحس بالخطر إلا إحساسا عاطفيا ثم هم فيما عدا ذلك لا حول لهم ولا قوة . أما حكام العرب وقادتهم فكانوا مختلفين فى الرأى ووقفت المنافسات وسوء التفاهم بين الحكومات العربية ـ ووجود سبع دول بدلا من دولة واحدة ـ حائلا كبيراً دون قيام قيادة موحدة وعمل مركز . وكانت الجيوش العربية سيئة الإعداد والتدريب وغير مستعدة إطلاقاً لخوض الحرب .

أما اليهود فكانوا قد عبأوا كل قواهم وخططوا اقتصادياتهم ونظموا كل صغيرة وكبيرة من شئون حياتهم . وسخروا كل الاعتبارات الأخرى من أجل إقامة دولتهم ، كما أنهم تلقوا مساعدات كبيرة من الدول الغربية ومن الكتلة الشيوعية لم تقتصر على الأسلحة من مختلف الأنواع ، بل شملت أيضاً عدداً كبيراً من المتطوعين . وقد نجح جهدهم المصمم ، وعدم اكتراثهم بسلطة الأمم المتحدة ـ مضافا إلى تلك الفظائع الوحشية

التى أنزلوها بعرب فلسطين ـ نجح كل ذلك فى الاستيلاء على ثلاثة أرباع البلاد وطرد سكانها العرب منها و إقامة الدولة اليهودية .

وتاريخ إسرائيل منذ أعلنت وجودها سلسلة من العدوان . وكان اغتيال الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة واحداً من تلك السلسلة من الأعمال التى انتصر فيها العنف على الأمم المتحدة . وقد خضع الإسرائيليون لأول أمر بالهدنة أصدره مجلس الأمن فى حزيران (يونيه) ١٩٤٨ لأنهم كانوا فى موقف حرج . ومنحتهم الهدنة الأولى فرصة هربوا فى أثنائها كميات كبيرة من الأسلحة عن طريق الجو والبحر من بينها طائرات ضخمة لقذف القنابل طراز ٢٧ ب الأمريكية . فلما جاء دور الهدنة الثانية كانوا قد تقووا إلى حد يمكنهم من قبول الهدنة أو رفضها حسب رغبتهم .

ومنذ ذلك الحين ، تمشت إسرائيل على سياسة مرسومة من الإثارة والاعتداء دون التفات إلى مجلس الأمن . وكثيراً ما منع مراقبو هيئة الأمم من أن يشهدوا أماكن القتال . ورفضت إسرائيل أن تتقيد بقرارات الأمم المتحدة بالانسحاب داخل الحدود المعينة فى مشروع التقسيم و بإعادة اللاجئين وتعويض الذين لا يرغبون فى العودة منهم . ولقد تحدت قرار الأمم المتحدة الصادر فى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩ بأن تحكم القدس بوساطة مجلس الوصاية ، ونقلت دوائر الحكومة إلى القدس وأعلن متحدثوها الرسميين أنها أصبحت عاصمة إسرائيل . لقد أبقت إسرائيل هذه المنطقة فى حالة توتر دائم وثابرت على خرق اتفاقيات الهدنة الموقعة بإشراف الأمم المتحدة ، وهاجمت المدن والقرى العربية مراراً ، وقتلت سكانها الأبرياء .

ولقد استنكر الرأى العام العالمى الهجوم الوحشى على قبية . ففى إحدى ليالى اكتوبر سنة ١٩٥٣ قامت قوة إسرائيلية نظامية قدر عدد أفرادها ما بين ٢٥٠ ـ ٣٠٠ بهجوم على هذه القرية الأردنية ، مستعملة مدافع الهاون والألغام والأسلحة

الأوتوماتيكية ، والقنابل اليدوية . وأن الأجسام التى مزقها الرصاص ، وآثار الرصاص على أبواب البيوت المهدومة لتشهد بأن السكان قد أجبروا على البقاء داخل بيوتهم حتى نسفت هذه البيوت على رؤوسهم . و بنتيجة هذا الاعتداء قتل ثلاثة وخمسون من الرجال والنساء والأطفال ، ودمر أكثر من ٤٠ منزلا وشوهد منظر بقيت ذكراه عالقة فى الذهن : وهو منظر امرأة عربية جالسة على كومة من الأنقاض ، وقد أرسلت نظرة تائهة إلى السماء . إذ برزت من تحت الأنقاض أيد وأرجل صغيرة هى أشلاء أولادها الستة ، بينما كانت جثة زوجها الممزقة بالرصاص ملقاة فى الطريق المواجهة لها [١] .

وليست حادثة قبية وحيدة من نوعها ، بل هى حلقة من سلسلة من الفظائع المتشابهة التى ارتكبتها السلطات الإسرائيلية خارقة بها عن عمد و إصرار اتفاقيات الهدنة [٢] .

هذا الانتقام الشنيع المستهتر الذى دبر بعناية ونفذ بخبرة ، هو جواب إسرائيل على تسلل العرب ، والتسلل هو أحد المشاكل العديدة التى خلقها تقسيم فلسطين .

فإن الكثرة الساحقة من اللاجئين العرب أخرجت قسرا من فلسطين بأيدى القوات اليهودية المسلحة . وعندما عقدت اتفاقيات الهدنة ظن هؤلاء اللاجئون أن فى استطاعتهم أن يعودوا إلى بيوتهم وأراضيهم التى أصبحت الآن فى إسرائيل . وقد عادوا فرادى أو جماعات صغيرة ، ولم يكونوا مسلحين . إلا أن الوسائل الشرسة

---

(١) E. H. HUTCHISON : Violent Truce pp. 44—45.
Apendix B, Report by the Chief of the Truce Supervision Organisation in Palestine, Major General Vagn Bennike, before the Security Council, 27 Oct. 1953, pp. 159—162.

(٢) Ibid pp. 12—19, 154—156, 161—167.

التى استخدمها اليهود فى طرد العرب من فلسطين طبقت لمنعهم من الرجوع . وكثير منهم كانت تقتلهم الدوريات اليهودية برصاصها ، من غير سؤال أو جواب بينما كان غيرهم يلقى سوء المعاملة وينال التعذيب . وبعد ذلك أخذ العرب الذين يجتازون الحدود يتسلحون ويقومون بغارات ثأرية . وكان رد اليهود القيام بأعمال انتقامية على غرار حادث قبية .

إن طبيعة الموقف على الحدود هى التى تجعل التسلل أمرا محتوما. فإن خط الهدنة قد فصل المدن والقرى عن الأراضى التى كان السكان يعتاشون منها . وفى بعض الأحيان جرد السكان من مورد الماء الذى أصبح الآن فى الجانب اليهودى . وقد حصل أن قسمت بعض القرى بحيث أصبح أعضاء العائلة الواحدة يسكنون على جانبى الحدود . فالعرب الذين يجتازون الحدود لزيارة أقاربهم ، أو لاسترداد بعض الأغراض من منازلهم ومزارعهم ، أو ليأتوا بالماء من بئر القرية ، أو ليقطفوا البرتقال من بياراتهم كانوا يلقون حتفهم بالرصاص . وكذلك فإن قطعان المواشى التى ترعى فى المناطق القريبة من الحدود تسلب حتى قبل أن تجتاز خط الحدود .

وليس التسلل العربى حركة منظمة ، وهذا من الأمور المعروفة ، بل إن الغارات العربية على إسرائيل تقوم بها جماعات صغيرة تستعمل طريقة الضرب المفاجئ . أما الغارات الإسرائيلية الانتقامية فهى عمليات مدبرة تنفذها الدولة ذاتها .

يضاف إلى ذلك أن الأردن بذل مجهودا شاقا لمنع التسلل ، إذ أقام الأسلاك الشائكة حول الحدود وزاد دوريات الجيش والشرطة فى مناطق الحدود ، ونقل كل موظف يشك فى تهاونه فى مراقبة الحدود ، وأبعد من يشتبه فى تسللهم إلى المناطق الداخلية ، وفرض قصاصا رادعا على المتسللين . وهذه الجهود تستحق الثناء الخاص إذا ما اعتبرنا أن طول خط الحدود بين البلدين يبلغ ٥٠٠ ميل ، وأن موارد الأردن ضئيلة .

وقد شعر الكثيرون من مراقبي الأمم المتحدة بأن جهود الأردن لوقف التسلل قد استنزفت كامل مقدرة البلاد . وكثيرا ما أهملت الإصلاحات الماسة فى سبيل زيادة السهر على التسلل . ولا صحة للتهمة التى روجتها الدعاية الإسرائيلية والقائلة بأن حكومة الأردن شجعت التسلل ورعته . « ولم تبرز بينة فى تأييد هذا الزعم ، بينما هنالك بينات وافرة تثبت عكسه » (١)

أما الحدود بين مصر و إسرائيل فقد خيم عليها التوتر المستمر بسبب العدوان الذى نظمه ونفذه الإسرائيليون على طريقة قبية . ففى المنطقة المصرية يقع قطاع غزة ، وهو قطاع عرضه خمسة أميال وطوله ثلاثون ميلا ، ويسكنه ٢٠٠ ، ٠٠٠ من اللاجئين علاوة على سكانه الأصليين البالغين ١٠٠ ,٠٠٠ . ومن أسباب التسلل فى هذه المنطقة الوصول إلى الأردن والعودة منه للغايات المعيشية . وقد اتخذت السلطات المصرية الإجراءات لمنع التسلل ، غير أن وجود ٢٠٠ ,٠٠٠ لاجئ فى هذا القطاع القاحل جعل هذه المهمة عسيرة جدا . وزاد فى صعوبتها وجود بضعة آلاف من عرب فلسطين داخل الحدود المصرية ممن أخرجهم الإسرائيليون بشكل غير مشروع بعد الهدنة . أما إسرائيل فعالجت التسلل بطريقتها المألوفة ، فقتلت المتسللين ، وأطلقت الدوريات اليهودية نيرانها على العرب العاملين فى أراضيهم داخل الحدود المصرية ، وأغارت القوات اليهودية المسلحة ليلا على القرى العربية فقتلت سكانها ونسفت بيوتها . وقد وجهت إحدى هذه الغارات إلى أحد مخيمات اللاجئين التى تديرها منظمة الأمم المتحدة ، فألقيت القنابل داخل الأكواخ التى كان اللاجئون ينامون فيها بينما حصدت الأسلحة الأوتوماتيكية كل من حاول النجاة .

وفى سنة ١٩٥٥ نقلت إسرائيل ثقل عدوانها من الحدود الأردنية إلى قطاع

---

(١) Hutchison, op. cit pp. 103–106, Glubb : Violence on the Jordan - Israeli Border, Foreign Affairs, July 1954, pp. 552–562.

غزة . وفى ليل ٢٨ فبراير من تلك السنة قامت بهجوم على مركز مصرى يقع خارج مدينة غزة . وبالرغم من إدانة مجلس الأمن لإسرائيل بالإجماع ، فقد تكرر هذا العدوان فى السنة ذاتها مرات عديدة .

والمناطق المجردة من السلاح هى مصدر آخر للاحتكاك ، وذلك بالنظر لمحاولة إسرائيل أن تفرض سيطرتها الكاملة على هذه المناطق . ففى القطاع السورى بدأت إسرائيل فى شق قناة لتحويل مياه الأردن بين بحيرتى الحولة وطبريا . وفى منطقة العوجة المجردة من السلاح والواقعة على الحدود المصرية أقام الإسرائيليون مراكز عسكرية بزعم أنها مستعمرات زراعية .

وقد سارت الغارات الإسرائيلية على الخط العام التالى: الإغارة ليلا على السكان المدنيين والمراكز العسكرية الصغيرة المنعزلة . وتختار إسرائيل مكان الهجوم وزمانه وتدبر خطة الهجوم المنظم ، وترسل قوات تزيد كثيراً فى أعدادها وتجهيزاتها عن القوات الموجودة فى المكان المستهدف .

ويعتقد مراقبو الأمم المتحدة أن الإجراءات البوليسية المشتركة والتعاون بين القادة المحليين يكفيان لوقف التسلل وإشاعة الهدوء على الحدود . فإذا كانت إسرائيل قد اختارت أسلوب قبية فذلك راجع إلى طبيعة هذه الدولة . ذلك أن الإرهاب من صميم الحركة الصهيونية . وقد ولدت إسرائيل فى ظل الإرهاب ، وكان الإرهاب طابعها منذ ولادتها . فالإرهاب المتمثل بمذبحة دير ياسين نجح فى إخراج السكان العرب من فلسطين فى أواخر عهد الانتداب البريطانى وأوائل أيام إسرائيل . وبالشكل نفسه حاولت إسرائيل التخلص من السكان العرب القاطنين على الحدود ، وتوسيع رقعتها لتشمل المنطقة التى كانت تتوقع أن يخليها سكانها العرب إذا ما قذف الرعب فى قلوبهم ، ثم إن إسرائيل قصدت من وراء هذا العدوان أن تفرض الصلح على العرب أو أن تجر الدول العربية إلى زج قواتها المسلحة فى هجمات معاكسة

تؤدى إلى الاشتباك فى حرب شاملة ، وهذه إمكانية ترحب إسرائيل بها لأنها قد استعدت لمثل هـذه الحرب . وبالإضافة إلى ذلك فإن حوادث الحدود تعطى فرصا للدعاية وتستغل لإحياء الاهتمام المتناقص بإسرائيل ، وللحث على بذل المزيد من المعونة إليها ، وذلك بتصويرها دولة محاطة بالأعداء الذين يهددون كيانها . وهناك غرض آخر لهذه الغارات وهو إشغال الإسرائيليين أنفسهم بحوادث الحدود لصرف أذهانهم عن حقيقة دولتهم القائمة فى أساسها على وضع غير سليم .

وقد يتساءل المرء : لماذا لم يجب العرب بهجمات معاكسة ؟ والجواب أنهم لم يكونوا استعدوا بعد لحرب حاولت إسرائيل أن تستدرجهم إليها ، ولأنهم تعلموا من تجارب عام ١٩٤٨ أن لا يدخلوا فى عراك مسلح ما لم يستعدوا له استعدادا كافيا . وداعبهم الأمل فى أن يكسبوا تأييد الرأى العام العالمى بما يظهرونه من ضبط فى وجه الاستفزاز الإسرائيلى المستمر ، وفى أن يقتنع العالم بأن إسرائيل دولة معتدية ومقلقة للسلام فى الشرق الأوسط .

وقد أخذ الرأى العام العالمى يخترق الستار الكثيف من الدعاية الصهيونية ويكون فكرة أقرب إلى الحقيقة عن إسرائيل . وانعكس هذا الاتجاه فى قرار مجلس الأمن بإدانة إسرائيل لهجوم قواتها المسلحة على شاطئ بحيرة طبريا التابع لسوريا فى ليلة ١١ ديسمبر سنة ١٩٥٦ ، إذ أنذر مجلس الأمن إسرائيل للمرة الأولى بأن مثل هذه الهجمات ستؤدى فى المستقبل إلى البحث فى اتخاذ إجراءات لوقف العدوان بموجب ميثاق الأمم المتحدة .

وقد ذكر المندوب الأميركى فى مجلس الأمن أن إسرائيل ، وهى عضو فى الأمم المتحدة ـ بل عضو أوجدته الأمم المتحدة وخلقته ـ تقف متهمة أمام مجلس الأمن للمرة الرابعة فى سنتين لأنها عبثت بالقانون ، ونفذت عن عمد وتصميم هجمات

ضد جيرانها ، خارقة بذلك تعهدات دولية مقدسة . أما العرب فإنهم آخذون بتعزيز قواتهم الدفاعية بصورة جدية ، ومنذ أن عقدت صفقة الأسلحة بين مصر وتشيكوسلوفاكيا فى خريف سنة ١٩٥٥ ، لم يعد توازن القوى شديد الميل لجانب إسرائيل .

وقد تحدت إسرائيل الأمم المتحدة لا بخرق قراراتها فحسب ، ولكن أيضا بتحدى سلطات المراقبين العسكريين التابعين لها ، وابتدأ هذا التحدى منذ الهدنة الأولى المنعقدة فى شهر يونيو (حزيران) سنة ١٩٤٨ عند ما منع مراقبو الأمم المتحدة من الاقتراب من الموانئ والمطارات التى كانت تستعمل لتهريب السلاح إلى اسرائيل من الشرق والغرب على حد سواء . وبقى موقف اليهود هذا على حاله منذ ذلك الحين . وإن تقييد إسرائيل لحركات مراقبى الأمم المتحدة فى منطقة الحدود لمن أعقد المشاكل التى يواجهها هؤلاء المراقبون ، وقد حدث أن احتل الجنود الإسرائيليون مقر مراقبى الأمم المتحدة وأجبروهم على البقاء داخل المبنى بينما كانت القوات الإسرائيلية تشن هجماتها . وقد انتزعت إسرائيل من الأمم المتحدة السيطرة على الموقع اليهودى فى منطقة جبل الطور المجردة من السلاح . وبينما يسمح لرئيس أركان لجنة مراقبة الهدنة أن يتجول بحرية فى المنطقة العربية ، لا يسمح له بأن يقوم فى الموقع اليهودى إلا بزيارات متفق عليها مقدما ، ولا يتجول إلا فى أماكن محدودة ، وبإرشاد من الإسرائيليين . وهناك دلائل تشير إلى قيام الإسرائيليين بتهريب السلاح إلى هذا الموقع المهم الواقع فى وسط المنطقة العربية والمسيطر على جميع الطرق المؤدية إلى القدس العربية .

وفى بعض الأحيان منع موظفو الأمم المتحدة ـ خارج أوقات دوامهم ـ من الاقتراب من مناطق تقع على الحدود فى مدينة القدس ، بينما سمح للمدنيين والسياح بحرية التجوال فيها .

وشنت إسرائيل حملة من البغضاء ضد الأمم المتحدة وممثليها ، وقد زادت هـذه الحملات فى صعوبات التحقيق بالحوادث . ولم تقتصر الحملات على الصحافة والإذاعة ، بل كثيراً ما أطلقت القوات الإسرائيليـة نيرانها على المراقبين التابعين للأمم المتحدة رغم تجوالهم فى سيارات وضعت عليها علامة الأمم المتحدة بوضوح تام ، وقد وقع هؤلاء المراقبون صرعى الاعتداء أو كادوا (١) .

وقد اتسمت علاقات إسرائيل بالأقلية العربيـة التى بقيت فيها ، بنفس الطابع العـدوانى . فأخرج الجيش الإسرائيلى بالقوة القبائل من منطقة النقب ، كما أخرج السكان من القرى المجاورة للبنان ولقطاع غزة ونقلهم إلى مناطق أخرى من إسرائيل أو طردهم خارجها . وإن الآلاف من رجال القبائل الذين كانوا يزرعون الأرض فى منطقة بئر السبع منـذ أقدم الأزمان بموجب نظام من الملـكية المشاعة ، أخرجوا من أراضيهم ونقلوا إلى أراض تقل خصوبتهـا . وفى بعض الأحيان كانوا يبذرون الأرض وتنبت محصولاتها ، فإذا حان موعد الحصاد نقلوا من جـديد ليحصد الإسرائيليون ما زرعوا هم . وفى أحيان أخرى كانوا ينقلون إلى الأراضى القاحلة ، فإذا عمروها واستنبتوها نقلوا إلى أراض غيرها لا يستطيعون العيش فيها . فإذا أرادت القبيلة أن تنجو من الموت جوعا وتهاجر إلى الأردن ، حصل الإسرائيليون على توقيع من شيخها بأن هجرة القبيلة طوعية واختيارية . وبقيت وكالة الإغاثة مدة من الزمن وهى ترفض اعتبار هؤلاء من اللاجئين ، حتى مات الـكثيرون منهم قبل أن تصلهم الإغاثة (٢) .

ويخضع العرب فى إسرائيل ، وعددهم يقـارب ٠٠٠ ، ١٨٠ إلى أنظمة

---

(١) Hutchison, op. cit. pp. 20–29, 79–89.

(٢) Glubb : Foreign Affairs, July 1954 pp. 552–562, Hutchison : op. cit., pp. 03–38

تضر سلامتهم ضرراً خطيراً . فإن ٨٠ بالمئة منهم يعيشون فى منطقة الحـدود التى تسيطر عليهـا السلطات العسكرية . وتفرض القيود على تنقلات العرب سواء فى الدخول إلى المنطقة ، أو الخروج منهـا ، أو التجوال فيها ، وللجيش حق نفى السكان الشرعيين ومصادرة أملاكهم ونقـل قرى بأكملها من منطقة لأخرى ؛ ومحاكمة الذين يخرقون الأنظمة بمحاكم عسكرية مستعجلة .

وصدر قانون استملاك الأراضى لسنة ١٩٥٣ ، وهو يجيز مصادرة أراضى العرب المقيمين فى إسرائيل إذا كانت لازمة « لأغراض التنمية أو التوطين أو الأمن » . وأجاز قانون أملاك الغائبين استملاك الحارس لجميع أملاك العرب الذين تركوا بيوتهم وخرجوا إلى منطقة من فلسطين لم تـكن واقعـة تحت احتلال القوات اليهودية فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ . وفى ذلك التاريخ لم يكن بيد اليهود سوى جزء صغير من الأراضى التى أصبحت إسرائيل الآن مكونة منهـا . والمثال التالى يوضح لنا كيفية تطبيق هذا القانون ، فإن سكان عكا الذين تركوا بيوتهم فى عكا الجديدة ولجأوا إلى عكا القديمة خسروا أملاكهم بموجب هـذه المادة من القانون . وبذلك أعطيت عكا الجديدة بأكملها إلى المهاجرين اليهود مع أن مالـكى بيوتها من العرب يعيشون على بعـد خطوات قليلة منها . وطبق القانون على العرب الذين أخرجتهم السلطات اليهودية من قراهم ، فصادرت إسرائيل ما يقارب ٣٠٠،٠٠٠ دونما من أراضى العرب المقيمين بها ، أو ما يعادل ٤٠ بالمئة من أملاك هؤلاء السكان العرب . وفى كثير من الأحوال كان الحارس يؤجر أملاك « الغائبين » إلى الأصحاب الأصليين للملك[١] .

وقدرت لجنة التوفيق المنبثقة عن الأمم المتحدة بأن الأراضى التى يملـكها العرب الذين تركـوا إسرائيـل تبلغ ٨٠ بالمئة من مجموع مساحة أراضى إسرائيـل

---

(١) Don Peretz : The Arab Minority of Israel, The Middle East Journal, Spring 1954, pp. 139–154.

البالغة ٢٠,٨٥٠ كيلو متراً مربعـا . والأراضى القابلة للزراعة منهـا والمقدرة بـ ٤,٥٧٤,٠٠٠ دونما تزيد عن مجموع مساحة الأراضى التى كان اليهود يمتلـكونها فى نهاية الانتداب بضعفين ونصف [١] .

والهجرة غير المحدودة من صميم سياسة إسرائيل ، ولذا فهى مضطرة إلى التوسع ، ولـكنها لا تستطيع التوسع إلا على حساب المناطق العربيـة المجاورة . وقد صرح بن غوريون بصفته رئيسا للوزارة ووزيرا للدفاع بقوله : فى « العالم أحد عشر مليونا من اليهود ، أنا لا أقول بأنهم سيأتون جميعا إلى هنا ، ولـكننى أتوقع مجىء بضعة ملايين ، وإننى أتصور أن يبلغ سكان الدولة اليهودية بعد إضافة التكاثر الطبيعى فى السكان عشرة ملايين » . وعند ما سئل عما إذا كان ممـكنا إسكانهم ضمن حدود التقسيم التى أقرتها الأمم المتحدة أجاب بقوله : « أشك بذلك » ، وأضاف : « ما كنا لنخوض هذه الحرب للا كتفاء بهذه الدولة الصغيرة » [٢] .

وكما أن عرب فلسطين قاوموا الهجرة اليهودية على نطاق واسع وهم تحت الانتداب ، لأنهم كانوا يحسون بأن أمواج الهجرة الغريبـة ستغمرهم فى يوم من الأيام ، فـكذلك من حق الدول المجاورة لإسرائيل أن تهتم بأمر هـذه الهجرة غير المحدودة اهتماما بالغا . وقد كان الـكونت برنادوت يحمل هذا الرأى ، فـكتب رسالة إلى وزير الخارجية الإسرائيلية وضح له فيها أن الهجرة لا تعنى اليهود فى الدولة اليهودية فحسب بل تعنى العالم العربى المجاور .

وموارد إسرائيل محدودة جدا ، لأن الأرض القابلة للزراعة فى فلسطين حسب تقدير دائرة المساحة أيام الانتداب ، تبلغ حوالى مليونى فدان يقع أقل

---

(١) Don Peretz : Problems of Arab Refugee Compensation, The Middle East Journal, Autumn 1954 pp. 403–416.

(٢) Time, August 16, 1948.

من نصفها فى السهول الخصيبة وأما باقيها فيقع فى تلال فقيرة التربة أو فى المنطقة القاحلة حول بئر السبع . ويدعى الصهيونيون أن فى الإمكان توسيع المنطقة الصالحة للزراعة وخاصة فى صحراء بئر السبع إذا أمكن الحصول على كميات كافية من الماء ، ولكن كل الدلائل حتى اليوم لا تزال تشير إلى أن الماء فى تلك المنطقة قليل ضارب إلى الملوحة .

وقد أعلن الصهيونيون فى كل مكان عن مشروع لهم يرمى إلى تحويل مياه الأردن لرى مرج ابن عامر والسهل الساحلى ومناطق أخرى من فلسطين بعيدة عن وادى الأردن . وللتعويض عن الماء الذى يمد به الأردن البحر الميت يؤتى بالماء فى أقنية من البحر المتوسط لتحتفظ للبحر الميت بمنسوبه ، وتستغل مساقط المياه لتوليد القوى الكهربية . وهذا المشروع مبنى على مشروع خيالى روّجه لودر ميلك فى كتابه : « فلسطين ـ أرض الميعاد » Lowdermilk : Palestine, Land of Promise وزاد عليه هايز Hays فى كتابه TVA, on the Jordan « مشروع للأردن على غرار مشروع وادى تنسى » . وقصد من كتاب لودر ميلك الترويج للاعتقاد بوفرة المياه والأراضى فى فلسطين . والعرب يعلمون بأن هذا القول حديث خرافة ، وتؤكد الأبحاث التى قام بها المهندسون الانجليز فى عهد الانتداب وجهة النظر العربية هذه . والواقع أن أحد الأسباب التى دعت الحكومة البريطانية إلى التخلى عن مشروع التقسيم الموضوع سنة ١٩٣٧ هو الاقتناع بأن ليس فى فلسطين موارد ضخمة غير مستغلة .

وقد كان الصهيونيون يستهدفون مشروع لودر ميلك ـ هايز عندما حصلوا بموجب قرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة على مناطق منابع الأردن وعلى المخرج الجنوبى لبحيرة طبريا . « وبذلك سنحت الفرصة لتنفيذ الفكرة الأساسية فى مشروع لودر ميلك ـ هايز » .

ويستتر هذا المشروع وراء مشروع كلاب Clapp لتنمية الأراضى والمياه فى

وادى الأردن ، وهو الذى قدمته لجنة كلاب الاقتصادية التى أرسلتها الجمعية العمومية للأمم المتحدة سنة ١٩٤٩ . ومشروع كلاب الذى هو أساس مقترحات جونستون ، يعطى إسرائيل ٣٩٥ مليون متر مكعب من الماء ، ويعطى ٧٧ مليون متر مكعب إلى الأردن و ٤٥ مليونا إلى سوريا ، والأصول الصهيونيـة لهذه المقترحات تظهر لنا بوضوح عام من وراء هذه الأرقام .

ليس فى نهر الأردن من الماء ما يكفى إسرائيل والعرب . فقد طردت إسرائيل مليون عربى من بلادهم واستولت على كل ما يملكون . ويحتاج اللاجئون إلى كل قطرة من مياه الأردن . ويعيش قرابة ٥٠٠,٠٠٠ من هؤلاء اللاجئين فى المملكة الأردنية ، وهى دولة صغيرة وفقيرة بالموارد الأولية . لهذا السبب ؛ وللمبدأ العام القائل « بأن المياه الموجودة فى حوض مائى يجب أن لا تحول إلى خارج منطقة الحوض إلا بعـد تلبية حاجات جميع أولئك الذين يستغلونها فى داخل الحوض ، أو الذين ينوون استغلالها بإخلاص فى داخـله » ، فإن أى مشروع عادل لاستثمار مياه الأردن يجب أن يعطى الأولية إلى حاجات سكان الأردن (١) .

وأما أمل إسرائيل فى أن تصبح الدولة الصناعيـة فى الشرق الأوسط فليس من المتوقع أن يتحقق لأنها تفتقر إلى كل المواد الأساسية اللازمة للصناعة . وقد جاء فى تقرير لجنـة الأمم المتحدة الموفدة إلى فلسطين تعليقا على قلة المواد الأوليـة : « فلسطين فقيرة غاية الفقر فى الموارد المادية التى تعـد أساسا فى التطور الصناعى الحديث فليس فيها فحم أو حديد أو أى ثروة معدنية أخرى هامة » . أما الصناعات التى رسخت جذورها فى فلسطين فهى على مايقول التقرير « إما بضائع للاستهلاك ، وصناعات تعتمد إلى حد بعيـد على الأسواق المحلية ، وصناعات لم يرسخها وجود

---

(١) M. G. Ionides : The Disputed Waters of Jordan, The Middle East Journal, Spring, 1953, pp. 153—164.

المواد الخام و إنما ثبتت أصولها المهارة المحلية كما هى الحال فى صناعة الماس ، و إما فى حالات قليلة صناعات تعتمد على المواد الخام المحلية ، مثال ذلك صناعة البوتاس و بعض الصناعات الأخرى الناشئة . و يجب أن نتذكر أن كل هذه الصناعات ليست إلا مشروعات على نطاق ضيق » .

زد على ذلك أن أكثر هذه الصناعات إنما تحققت فى ظروف غير طبيعية ، ليس من المحتمل أن تدوم أو تتكرر . فما ساعدها إلى حد كبير ، رأس المال الرخيص الذى حصلت عليه من هبات منحتها لهدف سياسى ، دون اكتراث بما تدره من منتوج اقتصادى . وتوسعت تلك الصناعات خلال الحرب العالمية لفقدان المنافسة ولوجود الجيش البريطانى الذى اشترى منها كميات كبيرة . ومن المشكوك فيه أن يستطيع الصهيونيون دعم صناعتهم — دع جانبا أمر توسيعها — فى وجه البضائع الأمريكية والأوربية المنافسة لها وفى وجه تصنيع البلاد العربية ، ومقاطعة العرب للبضائع الصهيونية وهى رد ضرورى على العدوان الإسرائيلى بفلسطين .

إن إسرائيل تعتمد على المساعدات المالية الكبيرة التى تأتيها من الخارج ، بل إن بقاءها رهن باستمرار هذه المساعدات . وقد اتسم اقتصادها بميزان تجارى معاكس . وحتى سنة ١٩٥١ كانت ٨٥ بالمئة من إيرادات إسرائيل تغطى من مصادر غير الصادرات والخدمات . وفى سنة ١٩٥٣ كانت مستوردات إسرائيل ، رغم انخفاضها عن مستوى ١٩٥١ ، تزيد عن صادراتها بخمسة أضعاف . وما زال عجز الميزان التجارى كبيرا . وفى ١٩٥٥ زاد العجز بمقدار ٢١ بالمئة عما كان عليه فى السنة السابقة (١) .

ومما يزيد فى تشويه الاقتصاد الإسرائيلى توجيهه لغايات الحرب . وسيستمر

---

(١) Jenny Nasmyth : Israel's Distorted Economy, The Middle East Journal, Autumn 1954, pp. 391—402 ; Petroleum Press Service, May 1956, p. 164.

هذا الوضع إلى أن تغير إسرائيل من طبيعتها العدوانية التوسعية ، وهذا يتطلب انقلابا كليا فى الصهيونية من أساسها .

و بالنظر إلى هذا الوضع الاقتصادى ، فإن سياسة الهجرة غير المحدودة لم تكن ممكنة إلا بسبب التمويل الخارجى القوى الذى كان مصدره الأول الولايات المتحدة الأميركية ، و بسبب الاستيلاء على الأراضى العربية ، والحصول على التعويضات الألمانية ـ آخر الصفقات الصهيونية الكبيرة . وقد حصلت إسرائيل من الولايات المتحدة على ١٥٠٠ مليون دولار فى شكل مساعدات حكومية ، و بيع السندات الإسرائيلية ، و تبرعات خيرية .

وليس من المحتمل أن تضطلع أمريكا بهذا العبء المالى الضخم إلى الأبد . وهو ، على كل حال ، لا يفى بحاجة الملايين من اليهود الذين يأمل زعماء إسرائيل أن يحشدوهم فى البلاد ، فإذا لم تقيد الهجرة لم يبق إلا التوسع المحتوم فى المنطقة العربية .

وهذا الأمر ليس بعيدا كما دلت الحوادث الماضية دلالة واضحة . فإن تاريخ الصهيونيين قبل إنشاء دولتهم و بعدها ليشير إلى أنهم قبلوا التقسيم على أنه خطوة أولى نحو التوسع . وأولئك الصهيونيون الذين أعلنوا عدم رضاهم بالحدود لدولة إسرائيل المقترحة ، وصرحوا عن نيتهم فى ضم باقى فلسطين وشرق الأردن إليها كانوا يسمون حينئذ منشقين ومتطرفين ، وإنهم لذلك لا يمثلون الجماعة اليهودية ولا أهدافها . وليس أشد خطأ من أن نعتقد بأن العناصر الطامحة إلى التوسع هى أقلية صغيرة لا تمثل رأى الأغلبية . ومن الضرورى أن نذكر بأن الصهيونية كانت دائما تنقسم وديا إلى شطرين يعتنق كل شطر منهما أهدافا مختلفة و يستعمل خططا مغايرة، وهما فى الظاهر مختلفان متصارعان ولكنهما فى الحقيقة يعملان معاً من أجل غاية مشتركة ، وقد كان من المفيد للحركة الصهيونية أن تلقى بتطرفها وتعدياتها على عاتق

من تسميهم منشقين ، يشهر بهم وينكرهم زعماء الصهيونية الرسميون بينما الحقيقة هى أن الصهيونيين المنشقين وغير المنشقين يعملون جنبا إلى جنب . ففى أيام الانتداب كانت الوكالة اليهودية تحاول أن تظهر بمظهر المحافظة على القوانين فتنفض يدها من حوادث الإرهاب والقتل ، التى هزت الرأى العالمى ، وتنحى باللائمة فى ذلك على عاتق عصابة الأرغون وغيرها من الجماعات الإرهابية . وهى طوال الوقت تؤوى هذه العناصر الخارجة على القانون بينما تدعى أنها تستنكر أعمالها . وقد نسبت الوكالة اليهودية المذابح التى عقبت إعلان التقسيم إلى عصابة الأرغون . وفى خلال الهدنة الأولى عمدت السلطات الإسرائيلية ، مستخفة إطلاقا بشروط الهدنة ، إلى تهريب الأسلحة على نطاق واسع مستمر . ولما صادف أن كشف مراقبو الأمم المتحدة إحدى شحنات التهريب بعد أن أفرغت حمولتها ، ادعت إسرائيل أن عصابة الأرغون هى المسئولة عن الإخلال بشروط الهدنة .

إن خطة التوسع الصهيونى لم تكن أمرا مستحدثا بل هى من صميم سياسة الحركة الصهيونية منذ بدايتها . فقد ذكر فى المبادئ التى قامت عليها مؤسسة الكيرين كيميت ـ صندوق الأمة اليهودى ـ أنه من الضرورى جمع الأموال من يهود العالم لشراء الأراضى التى توقف على الشعب اليهودى فى العالم ، وهذه الأراضى تشترى وتسجل باسم اليهود لا فى فلسطين فحسب ، بل فى مصر والأردن ولبنان وسورية والعراق أيضا .

ويعتبر وايزمن مثلا للصهيونى المعتدل . ففى ربيع سنة ١٩١٨ ذهب إلى معسكر فيصل فى العقبة ، ليؤكد له أن اليهود لا يسعون إلى إقامة دولة يهودية فى فلسطين . وكل ما ينوون عمله ، هو المساعدة على تنمية البلاد ، دون الإضرار بحقوق العرب الشرعية فيها [1] . وبعد ذلك بقليل وقف وايزمن نفسه فى مؤتمر الصلح ليعلن أن

---

(١) Antonius, op. cit., p. 285.

الوطن القومى اليهودى يعنى « أن تكون فلسطين يهودية كما أن أميركا أميركية وانجلترا انجليزية » . وفى المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى سنة ١٩٢١ ، رد الدكتور وايزمن على استجواب بشأن ضم شرقى الأردن للانتداب الفلسطينى ومدى انطباق مشروع الوطن القومى على الضفة الشرقية لنهر الأردن ، بقوله : تحسن الإجابة على هذا السؤال بعد أن يملأ اليهود الضفة الغربية للأردن ، وحينئذ نشق طريقنا بالقوة عبر الأردن (١) . وفى سنة ١٩٤٦ صرحت الوكالة اليهودية رسميا بأنها تتبنى خطة الإصلاحيين (٢) فيما يتعلق بشرقى الأردن. وقبل إعلان المعاهدة التى أنهت الانتداب البريطانى على الأردن بوقت قصير ، أخبرت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية وزارة المستعمرات « بأن مصلحة اليهود الخاصة تقتضى الاحتفاظ بشرقى الأردن تحت الانتداب » .

وعلى ضوء الأحداث السابقة يجب ألا نستهين بتحدث الصهيونية عن دولة يهودية تمتد من الفرات إلى النيل . وسيستخدم اليهود للتوسع خارج نطاق دولتهم الحالية الحجج والأساليب نفسها التى نجحوا فى استخدامها عند إقامة دولتهم . وإذا ما اعتبرنا النفوذ العظيم الذى تتمتع به اليهودية العالمية ، وفظائع الصهيونيين فى فلسطين ، والتخاذل العظيم الذى أبدته هيئة الأمم فى معاملتها للدولة اليهودية التى صنعتها بيديها ، والعجز أو التردد الذى تبديه انجلترا وأميركا بوجه خاص ، فى كبح جماح الاعتداءات الصهيونية ، فليس من العجب أن يجتاح الشك المقلق نفوس العرب ، فيما يختص بنوايا إسرائيل . ولا شك فى أن كل حديث عن الاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط ، لابد من أن يذهب عبثا ، ما دام يسمح لإسرائيل بالمضى فى خطتها العدوانية .

---

(١) Quoted in Barbour, op. cit., p. 104, note 1.

(٢) « الإصلاحيون » هم أتباع جابوتنسكى ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم ، لأنهم طالبوا بتعديل الانتداب البريطانى بحيث يضم شرقى الأردن إلى منطقة الوطن القومى اليهودى .

وتعتبر إسرائيل أعظم الأخطار التى تهدد أمن البلاد العربية وتطورها السلمى. وقد أدى خلق إسرائيل إلى زيادة حدة التوتر بين بريطانيا والعالم العربى ، وأوجد توترا جديدا بين العرب وأميركا التى ظلت تتمتع بمكانة طيبة فى نفوس العرب ، حتى لعبت دورها فى إقامة هذه الدولة الغربية فى قلب البلاد العربية . وهذه الدولة التى تعتبر بمثابة اسفين دق فى أكثر بقاع الوطن العربى حساسية ، أدت إلى فصل عرب آسيا عن عرب أفريقيا . وقد حدث هذا الفصل فى الوقت الذى يتجه فيه العالم نحو التكتل ، وتمضى فيه البلاد العربية ، متأثرة بالاتجاه العالمى ، ويوحى من ماضيها ، إلى تحقيق الوحدة العربية .

ودولة إسرائيل لم تحل المشكلة اليهودية ، بل على العكس من ذلك خلقت مشكلة يهودية جديدة فى جزء من العالم لم يكن لها فيه وجود . فهذه الدولة التى اقتطعت بالقوة من بلد عربى ، قد أدت إلى خلق النزعة اللاسامية بين العرب ، هذا الشعب الذى كان حتى ذلك الحين ، بريئا من هذا الوباء الغربى . وفيما يختص باليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل ، ستؤدى هذه الدولة إلى زيادة حدة التوتر والانفصال بينهم وبين مواطنيهم فى الدول التى يقطنونها . وقد عبر أحد كبار زعماء اليهود ، وهو لسنج ج . روزنوالد ، رئيس المجلس الأميركى لليهودية ، عن مخاوف فئة من ذوى الرأى بين اليهود حين قال : « إن خلق دولة يهودية مستقلة والاعتراف بها ، أدى بسرعة مخيفة إلى تقوية رغبة اليهود القوميين فى السيطرة على حياتنا ، وفى الادعاء بأن كل اليهود يحملون الجنسية اليهودية »[1] . وقد صرح بن غوريون، رئيس الوزراء الإسرائيلى ، فى المؤتمر الصهيونى العالمى المنعقد بالقدس سنة ١٩٥١ : « أن هنالك واجبا جماعيا على جميع المنظمات الصهيونية القومية بأن تساعد الدولة اليهودية فى جميع الظروف والأحوال ، حتى ولو تعارض مثل هذا الموقف مع

---

(١) Quoted in Burrows, op. cit., p. 133.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

السلطات الوطنية التى تنتمى هذه المنظمات إليها »[١] . وهذا الادعاء من جانب اليهود القوميين من شأنه أن يؤدى إلى اتهام جميع اليهود بانقسام الولاء ، وسيصبح ذلك سبباً لتبرير النزعة اللاسامية .

ويعتبر خلق إسرائيل ، خطوة رجعية مستنكرة . هى رجعية فى إقامتها للمجتمع على نزعات عنصرية ودينية ، ومستنكرة لأنها أمارة ورمز على عدم الثقة فى المساعى التى يبذلها المخلصون الصادقون من الناس ، لخلق عالم يستطيع فيه اليهود وغيرهم من شعوب الأرض ، أن يعيشوا جنبا إلى جنب فى أمن واحترام .

وحين قبل اليهود أن يورطوا أنفسهم فى خطط الصهيونية ، قد أكدوا بأنفسهم رأى هتلر فيهم بأنهم انفصاليون إلى حد لا يجدى معه علاج ، وعضدوا ما سعى هو إليه من جعل أوربا قارة خالية من اليهود . وهم حين أداروا ظهورهم لأوروبا ، قطعوا صلتهم بتراث ساهموا فيه منذ زهاء ألفى سنة . وحين أقحموا أنفسهم على العرب بالقوة إنما ابتعدوا وتجافوا عن البيئة المحيطة بالوضع الجديد الذى خلقوه لأنفسهم . فالدولة اليهودية إذن ليست شرقية ولا غربية ، ولن تستطيع أن تكون حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، كما ادعى أنصارها . فقد قلبت ظهرها لأحد الطرفين ، ولم تلاق القبول عند الطرف الآخر .

وقد علق المؤرخ الغربى الكبير أرنولد توينبى على الشبه بين طرق هتلر وطرق إسرائيل بملاحظات صميمية نافذة ، إذ قال : « فى سنة ١٩٤٨ اضطهد اليهود غيرهم لأول مرة منذ سنة ١٣٥ الميلادية ـ وقد حصل هذا عند أول فرصة سنحت لهم منذ ذلك الوقت لأن يوقعوا بغيرهم من الكائنات البشرية التى لم توقع بهم أى أذى وإنما كانت أضعف منهم ـ لأن يوقعوا بها بعضا من الأذى والعذاب اللذين أوقعا باليهود على أيدى المضطهدين الغربيين المتعاقبين على مدة سبعة عشر قرنا من

---

(١) Lilienthal, po. cit., p. 210.

الزمن . ففى عام ١٩٤٨ كان اليهود يعرفون من التجربة والاختبار ماهم فاعلون . وإن مأساتهم العظمى أن يكون الدرس الذى تعلموه من احتكاكهم بالنازيين الألمان هو تقليد بعض الآثام التى اقترفها النازيون ضد اليهود بدلا من مجها واستنكارها »[1] .

وتتكلم إسرائيل عن السلام ووراءها مثل هذا التاريخ الغارق بالعنف . وهى تحاول أن تظهره ، عن طريق وسائل الدعاية التى تملكها أنها دولة مسالمة تنشد السلام وتطلبه ، بينما يقابل طلبها بعداء العرب . إن إسرائيل تريد السلم بشروطها ، السلم الذى يثبت لها ثمرات عدوانها و يعطيها فرصة لبناء اقتصادها المتداعى ، و يزودها بقوة جديدة للتوسع الذى تحتاج إليه «لجمع مشقات» اليهود . وهذا هو حلم الصهيونية والهدف الذى يعلنه قادة إسرائيل المسئولون .

ولنذكر مثلا أو مثلين عما تعنيه إسرائيل بالسلام . فقد ألقى بن غوريون رئيس وزراء إسرائيل خطابا بالكنيست فى الثانى من نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩٥٥ دعا فيه إلى اجتماع مع الزعماء العرب للبحث فى السلام . وفى اليوم التالى شنت قواته هجوما على مركز مصرى محاذ لمنطقة العوجة المجردة من السلاح . وفى الأسبوع الأول من شهر أبريل (نيسان) سنة ١٩٥٦ ، و بينما كان الأمين العام للأمم المتحدة داغ همرشولد يستعد لمغادرة نيو يورك إلى الشرق الأوسط فى مهمة تتضمن المساعدة على تخفيف حدة التوتر على الحدود العربية الإسرائيلية ، هاجمت إسرائيل غزة وخان يونس ودير البلح ـ وكلها مزدحمة باللاجئين ، وأوقعت بها خسائر كبيرة فى الأرواح . وكالعادة كان النساء والأطفال بين ضحايا هذه المجزرة .

إن اتفاقيات الهدنة كافية لحفظ السلام إذا أمكن إرغام إسرائيل على التقيد بها

---

(١) Toynbee, op. cit, Vol. VIII pp. 289–290.

وتجنب خرقها . إلا أن الأمم المتحدة تساهلت كثيراً وطويلاً إزاء تحدى إسرائيل لسلطتها ، فنجم عن هذا أن أخذ الإسرائيليون يتصرفون على أساس من الافتراض بأنهم لن يؤاخذوا على أى عمل يرتكبونه .

ولا تعجز الأمم المتحدة عن ضبط إسرائيل لو أرادت ، إذ فى استطاعتها أن تفعل ذلك بأن : (١) تنشر المعلومات المدونة فى سجلاتها والتى يزودها بها ممثلوها لمواجهة الدعايات الإسرائيلية الكاذبة والتشويهات للحقائق . (٢) أن تدعم الأمم المتحدة استنكارها للاعتداءات اليهودية باتخاذ إجراءات زجرية . (٣) أن تصر على تنفيذ مقرراتها .

إن إسرائيل فى سعيها للحصول على المساعدات المالية والسلاح والتأييد المعنوى ، صورت نفسها دولة صغيرة يحيط بها أعداء يستعدون لتصفيتها . والحقيقة أن إسرائيل هى التى خلقت أعداءها باحتلالها أرضا عربية وطرد سكانها منها . أما الهجوم العربى الذى تدعى إسرائيل بأنها تترقبه ، فإن المراقبين العارفين يستبعدون أن يقوم العرب بهجوم ما لم يستفزوا إليه . ولكن العرب موقنون بأن إسرائيل تحوى فى كيانها بذور انهيارها .

ولا تستطيع فلسطين أن تعيش بمعزل عن العالم العربى وهى جزء لا يتجزأ منه . ولم يكن لفصل فلسطين المنتدب عليها ، عن بقية سوريا ، مبرر من التاريخ والجغرافيا . وخلق إسرائيل عمل ظالم بقدر ما هو مصطنع . فقد كانت فلسطين طوال تاريخها جزءا من الكيان المحيط بها ، فهى من الناحية الجغرافية امتداد لسوريا . وتعتمد فى اقتصادياتها على البلاد المحيطة بها . ومن الناحية الثقافية ، تعيش على القيم نفسها التى تعتبر تراثا مشتركا بين جميع العرب من المغرب حتى العراق . ومن الناحية السياسية ، باستثناء فترات قصيرة ، كانت فلسطين دوماً تابعة لنظام

يشمل أقاليم واسعة . « فهل حدث تغير ما فى الأحوال الأساسية ، لتعديل هذا الوضع المحتوم ؟ كلا لم يحدث شىء من هـذا القبيل »[١] وكما كان الأمر فى الماضى فهو كذلك فى المستقبل ، فلن تـكتب لفلسطين الحياة إذا ضربت عليها العزلة . ولن يسود السلام فى هذه المنطقة إلا إذا أعيدت لها وحدتها .

(١) Speiser : The United States and the Middle East, p. 197.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل الرابع عشر

المغرب

يتألف المغرب العربى من ليبيا ومن تونس والجزائر ومراكش .

وليبيا أفقر هذه الأقطار جميعا ، وهى فى الغالب صحراء قاحلة لا يخفف من حدتها سوى وجود سهل ساحلى ضيق ، تهطل عليه أمطار قليلة تسمح ببعض الزراعة. وفى الداخل واحات تزرع بها أشجار النخيل ، التى تطبع المناظر الطبيعية فى شمال أفريقيا بشكلها البهى .

كانت ليبيا ـ فيما مضى ـ ولاية تابعة للدولة العثمانية ، وأخضعت للسيطرة الأوربية عندما غزتها إيطاليا عام ١٩١١ . وقد بذل السكان الوطنيون مقاومة شديدة ، فانحصرت السلطة الإيطالية فى بادئ الأمر فى نقاط قليلة على الساحل . وبمجىء الفاشية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، أخذ الإيطاليون ينفذون خطة منظمة ومحكمة للاستيلاء على ليبيا ، تعرض الأهلون خلالها لحملات من الإبادة . وقد عهد بتنفيذ هذه المهمة الشائنة إلى غرازيانى ، الذى اشتهر فيما بعد بفظائعه فى الحبشة . ووجد الفاشيون أن الوسيلة الأكيدة لإفناء السكان ، فى بلد كليبيا يندر فيه الماء ، هى فى إغلاق الآبار ، وكانت النتيجة مفجعة . فلقد مات خلق كثير من الناس ونفقت أعداد كبيرة من الأنعام حول حفر الماء ، وتشتت غيرهم فى الصحراء ، لئلا يصل إليهم الإيطاليون .

التفت حركة المقاومة حول السنوسيين ، وهم طريقة دينية سبق تأسيسها حوالى

منتصف القرن التاسع عشر . وقد استلهم مؤسس الطريقة ، سيدى محمد بن على السنوسى ، فكرة حركته من الوهابيين الذين ظهروا فى قلب الجزيرة العربية ، فدعا إلى بعث العقيدة الإسلامية وتجديدها بالعودة إلى الإيمان الأصيل فى بساطته ونقائه وقوته . وشابه السنوسيون الوهابيين فى إقرار البدو وتوطينهم وتحويلهم إلى مزارعين ثابتين على الأرض . وكانت نقاط الاستقرار تدعى الزوايا ، ومن هذه الزوايا انتشرت الدعوة السنوسية . واتخذت هذه الزوايا أيضا مراكز للتعليم والتدريب الدينى ، وكانت فى الوقت نفسه وحدات اقتصادية مكتفية ، حيث يفلح أعضاء الطريقة الأرض ، ويعيشون على ما تنتجه . وكان السنوسيون كالإخوان الوهابيين ، مبشرين ومعلمين ومزارعين ، فإذا دعا داعى الجهاد ، حاربوا فى سبيل الإيمان .

وقد تجاوز تأثير السنوسى حدود زوايا الاستيطان . فإن هذه الزوايا كانت تقع على طرق القوافل ، فكانت تقوم بواجبات الضيافة وتنزل الوافدين فى منزل الضيافة بلا مقابل ، لمدة ثلاثة أيام حسب عادة العرب ، فأصبحت ملتقى التجار والمسافرين من أنحاء بعيدة فى أفريقيا . وقد سار على هذه الطرق الطلبة الذين كانوا يفدون إلى مدارس الزوايا لتلقى العلوم الدينية ، والمبشرون الذين انطلقوا لنشر العقيدة . فتغلغلت تعاليم السنوسيين حتى وصلت قلب القارة الإفريقية . وقد نشط السنوسيون ، إلى جانب التبشير ، فى محاربة الرق فكان لهم الفضل فى تضاؤله .

ولما أدرك الإيطاليون أن السنوسيين يشكلون قوة فى المقاومة صوبوا ضربتهم إلى هذه الطريقة فأغلقوا الزوايا وصادروا أملاكها ، فتفرق بذلك الإخوان ورجال القبائل الملتفون حولها ، وبحل الزوايا قصم ظهر حركة المقاومة .

كان العهد الإيطالى فى ليبيا عهد إرهاب سياسى وإفقار اقتصادى . وقد عرف الفاشيون الأهمية الاستراتيجية لليبيا لقربها من إيطاليا ولوقوعها فى وسط الشاطىء الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط . ولكى يستطيعوا تثبيت أقدامهم فيها ، وإحكام

سيطرتهم عليها ، فإنهم اتبعوا سياسة ناشطة فى توطين الإيطاليين فيها . فأعطيت للمستعمرين الإيطاليين أملاك الدولة ، والأراضى المصادرة من الثوار ، والأراضى التى تم الاستيلاء عليها بمختلف الوسائل والطرق . وقد جرى توطين الإيطاليين على أساس من خطة واسعة ، أشرفت عليها الدولة وقدمت القسم الأوفى من الأموال الضرورية لها . وكانت الأراضى تمنح بأحد شكلين : فإما أن تقدم للأفراد ، أو تنشأ فيها مستعمرات شبه حكومية . وقد وزعت مساحات واسعة من الأراضى ، بموجب الشكل الأول ، إلى الأفراد الإيطاليين الذين توافرت لديهم الأموال لاستثمارها . أما فى الشكل الثانى ، فكانت المستعمرات تبنى على أساس من جهد مشترك تبذله الحكومة والأفراد ، فتقدم الحكومة الأرض ، وتنشىء المبانى المركزية ، وتقدم الأموال لحفر الآبار و بناء الطرق . أما استثمار أراضى المستعمرات نفسها ، فكان يؤديه جمعيتان ، تقومان بفتح الأراضى وتخطيط المزارع ، و إنشاء المساكن وأبنية المزارع ، وجلب المواشى وآلات الزراعة وأدواتها وتوفير المياه . فإذا تم إعداد الأراضى على هذا الشكل وزعت قطعا على المستعمرين الذين يصبح لهم فيها بعد مدة معينة ، حق بالملكية الكاملة .

وقد حققت المشروعات الإيطالية الزراعية فى ليبيا نتائج مدهشة . فالأراضى التى منحت للأفراد والمستعمرات شبه الحكومية كانت أهم الثروات الاقتصادية فى البلاد . وقد نمّيت أو أعدت للتنمية ، أراض مساحتها تقارب ٢٥٠,٠٠٠ فدان . وزرعت آلاف من الأفدنة بأشجار الزيتون و بأنواع أخرى من أشجار الفاكهة أهمها الحمضيات واللوز والكروم . وزرعت مساحات كبيرة بالقمح والشعير والبرسيم . وحيثما وجدت المياه للرى ، زرعت محصولات البساتين . ووضعت الحواجز لمنع تقدم الرمال ، وغرست أشجار الطرفاء لصد الرياح عن بساتين الفاكهة [1] .

---

(١) Keen : op. cit : pp. 30—53.

إلا أن الليبيين لم ينالوا نفعا من هذه التحسينات التى لم تقم إلا لاستيعاب المهاجرين الطليان . بل إن الزراعة الإيطالية فى ليبيا لم تقدم لليبيين فى واقع الأمر سوى الشظف والحرمان وكثيرا ما صودرت الأرض منهم ، وأجلوا عنها ، ليحل محلهم فيها الغرباء المستعمرون .

وفى أثناء الحرب الأخيرة استولت القوات البريطانية على ليبيا . وناصر الليبيون قضية الحلفاء ، على أمل التخلص من الحكم الفاشى ، فالتحق بعضهم بالجيوش وحاربوا فى الصحراء الغربية وقدم آخرون شتى المساعدات والخدمات .

وبعد أن استولى البريطانيون على ليبيا أقاموا إدارة عسكرية شملت معظم البلاد الليبية ، ولم يخرج عن نطاقها سوى فزان ، التى سلمت إدارتها إلى الفرنسيين . وقد نصت معاهدة الصلح الإيطالية على تنازل إيطاليا عن حقوقها فى مستعمراتها الإفريقية السابقة وهى ليبيا وأريتريا والصومال . أما القرار النهائى بشأن هذه الأقطار فقد تقرر اتخاذه « على ضوء من رغبات السكان ورفاهيتهم ، ومن مصالح السلم والأمن » . وترك أمر هذا القرار إلى الدول الأربع الكبرى وهى فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأميركية . والاتحاد السوفياتى . ونصت المعاهدة أيضا على أن تحال القضية إلى الجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة ، إذا أخفقت هذه الدول فى الوصول إلى اتفاق بشأنها ، على أن يكون قرارها ملزما .

وفى خريف سنة ١٩٤٧ زارت ليبيا لجنة استقصاء مؤلفة من ممثلين عن الدول الأربع ، وكان المفروض أن غرض اللجنة هو استقصاء رغبات السكان حول وضعهم المقبل ، ووضع تقرير بهذا الشأن . غير أن أبحاث اللجنة وتوصياتها كانت متناقضة ، لأنها لم توضع على أساس التحليل المجرد لأحوال البلاد ، بل غلبت عليها نظرات الحكومات المختلفة الممثلة فى اللجنة ، ومصالح هذه الحكومات .

وعند ما أخفقت الدول الأربع فى الوصول إلى قرار مشترك حول مصير

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

المستعمرات الإيطالية السابقة فى أفريقيا ، أحالت القضية إلى منظمة الأمم المتحدة . وأصدرت الجمعية العمومية لهذه المنظمة قرارها حول ليبيا فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، وهو يقضى بأن تصبح ليبيا ـ المؤلفة من برقة وطرابلس وفزان ـ دولة مستقلة ذات سيادة ، على أن يصبح استقلالها نافذا فى موعد لا يتأخر عن ١ يناير سنة ١٩٥٢ . وعين مفوض عن منظمة الأمم المتحدة لمساعدة الشعب الليبى فى وضع الدستور وفى إقامة الحكومة المستقلة . وألف مجلس لمساعدة المفوض وتقديم المشورة إليه ، وكان قوامه عشرة أعضاء ، ستة منهم يمثلون مصر وفرنسا وإيطاليا وباكستان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأميركية ـ وقد عينوا جميعاً من قبل حكوماتهم ، وأربعة من الليبيين عينهم المفوض ، على أن يمثل أحدهم الأقليات ، وأن يمثل كل واحد من الثلاثة الباقين الأقاليم الثلاثة التى تتكون منها ليبيا ، وهى برقة وطرابلس وفزان .

وقامت صعوبات وعقبات عديدة فى وجه تنفيذ قرار الأمم المتحدة ، وكانت الصعوبات الناشئة عن الأحوال الداخلية فى ليبيا نفسها على جانب من الأهمية . فالبلاد فقيرة ومتخلفة ، وهى بالتالى عاجزة عن أن تقيم ، من مواردها الخاصة ، الجهاز الحكومى الذى تحتاجه دولة مستقلة . وإلى جانب الفقر بالموارد الطبيعية كانت البلاد تعانى فقراً فى القيادة وفى الموظفين المدربين . وزاد فى صعوبة الوضع وجود عناصر لم يكن يهمها سوى نفعها الذاتى ، فأبدت الاستعداد لأن تكون أداة فى يد قوة الاحتلال .

وكانت القوة المحتلة ـ بريطانيا وشريكتها الصغرى فرنسا ـ أكثر اهتماما بتأمين مصالحهما الخاصة فى ليبيا منهما بتحقيق استقلال ليبيا ووحدتها . وكانت الدلائل تشير إلى أن بريطانيا ستطبق فى ليبيا سياسة « فرق تسد » ـ وهى السياسة التى طبقتها دوما فى مختلف أنحاء العالم العربى منذ الحرب العالمية الأولى ـ حتى إن وزير خارجيتها عند ما تكلم عن ليبيا فى مجلس العموم فى ٨ يونيو سنة ١٩٤٢ لم يعدسوى

قسم من ليبيا ـ وهو برقة ـ بالتحرر من الحكم الإيطالى ، لقاء المساعدة التى قدمها شعب ليبيا للقوات البريطانيـة . وكان تصريح وزير الخارجية بأن حكومة جلالته لن تسمح بأى حال من الأحوال بعودة برقة إلى الحكم الإيطالى ، يتوخى فصل برقة عن بقية أنحاء ليبيا ، والتفريق بين مستقبل السنوسيين ومستقبل سائر إخوانهم وأبناء بلادهم .

وقد طبقت الحكومة البريطانية السياسة التى شنها وزير الخارجية . فوضعت وزارة الخارجيـة مشروع بفن ـ سفورزا الذى قدمته بريطانيا إلى الأمم المتحدة . وقد تضمن المشروع تجزئة ليبيا إلى ثلاثة أقسام : فتوضع برقة تحت الوصاية البريطانيـة ، وفزان تحت الوصاية الفرنسية لمدة عشر سنوات ، على حين توضع طرابلس تحت الوصاية الإيطالية لمدة ثمانى سنوات . وتزعم الوفد البريطانى فى الأمم المتحدة حركة تجزئة ليبيا .

وفى ليبيا نفسها سار البريطانيون ، وحذا حذوهم الفرنسيون،شوطا بعيدا فى سبيل توطيد تجزئة البلاد قبل أن تتخذمنظمة الأمم المتحدة قرارها حول وضعها فى المستقبل. فأقام البريطانيون إدارات عسكرية منفصلة فى كل من برقة وطرابلس ، ووطد الفرنسيون مركزهم فى فزان . وهكذا نشأت فى قطر لا يزيد سكانه عن المليون إلا قليلا ، ثلاث إدارات مستقلة ، وفرضت الحواجز الجمركية بين الأقسام المجزأة بهذا الشكل المصطنع ، وطرحت عملات ثلاث للتداول ، ووضعت حواجز متعددة فى وجـه تنقل الأفراد والبضائع ـ وكانت هـذه كلها مستجدة عقب التحرر من الاحتلال الإيطالى .

وزاد البريطانيون فى تأكيدهم لفصل برقة عن طرابلس ، فأنشأوا وضعا خاصا لبرقة وزعيمها الأمير السنوسى سيدى محمد بن إدريس ، الذى شجعوه على أن يعلن نفسه حاكما لبرقة المستقلة .

وعندما أعلن الأمير فى ١ حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٩ رغبة برقة فى تحقيق الاستقلال ، اعترفت به الحكومة البريطانية فى اليوم ذاته حاكما على برقة، وأعطيت له الصلاحية بإقامة حكومة تضطلع بالشئون الداخلية للبلاد . ولقد أوضح معنى هذا الاستقلال بيان السلطات الانتقالية الذى أصدره رئيس الإدارة البريطانية فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٩ ؛ فقد أعطى هذا البيان إلى الأمير صلاحية وضع دستور بمرسوم ، وعرف السلطات التى يجب أن يمنحها هذا الدستور ، وعدد فى نفس الوقت المسائل التى احتفظ بها المقيم البريطانى فى برقة ، وهى تشمل الشئون الخارجية ، والدفاع ، والملاحة الجوية ، والمواصلات الخارجية ، والنقد ، والتجارة ، والهجرة وإصدار الجوازات والتأشيرات . أما التصرف بالثروات المعدنية ، فأمر يتفق عليه بين الأمير والمقيم البريطانى ، بينما احتفظ المقيم لنفسه بالحق فى اتخاذ القرارات حول صحة أى تشريع يصدر بموجب بيان السلطات الانتقالية ، وفى تقديم الملاحظات حول جميع الشئون المالية ، على أن يكون له حق اتخاذ القرار النهائى . ولا يجوز تعديل الدستور أو تعليقه بدون موافقة المقيم البريطانى .

وعند وضع الدستور أنشئت حكومة لبرقة . وتبع هذا تقديم منحة مقدارها مليون جنيه استرلينى ، من الخزينة البريطانية .

ولم تتحول بريطانيا عن سياسة التجزئة التى اتبعتها حتى بعد صدور قرار الأمم المتحدة تأسيس دولة ليبية مستقلة ومتحدة ، ولكنها أدخلت عليها بعض التعديل البسيط ، إذ عندما أخفقت بريطانيا فى إقناع الأمم المتحدة بمشروعها بتقسيم ليبيا إلى ثلاث مناطق توضع تحت وصاية ثلاث دول مختلفة ، أخذت تعمل على أن يجرى تطبيق قرار الأمم المتحدة على أساس من نفس السياسة والتنظيم اللذين كانت قد أعدتهما لليبيا . ومن هنا كان إصرارها على إنشاء دولة اتحادية لا دولة موحدة . فالشكل الاتحادى هو الذى يأخذ مكان الانفصال ، وبهذا الشكل يستبقى الوضع

الخاص الذى أسس لبرقة ، ويحتفظ لبريطانيا بوضعها المسيطر فى ذلك الجزء من الدولة الاتحادية .

ولم يوافق مفوض الأمم المتحدة مستر ادريان بلت على الانفصالية التى شجعتها بريطانيا ورعتها . وعندما أعربت السلطات البريطانية عن رغبتها فى أن تنقل إلى الأمير جميع الصلاحيات التى احتفظ بها المقيم البريطانى ، لاحظ مفوض الأمم المتحدة أن مثل هذا الانتقال يعطى إلى حاكم أحد الأجزاء صلاحيات كبيرة ، لا بد أن تضر بوحدة البلاد وبسيادتها بمجموعها . وتدخل مستر بلت فى مرة ثانية لمنع عقد معاهدة بين بريطانيا والأمير ، قائلا بأن حكومة عموم ليبيا تستطيع أن تعقد معاهدة مع أية دولة تشاء ، بينما تؤدى المعاهدة المعقودة مع جزء من أجزاء ليبيا إلى خرق قرار الأمم المتحدة وتهديمه .

غير أن مستر بلت لم يوفق إلى وقف تقدم التجزئة . ففى برقة ، حيث أقيمت حكومة محلية وطنية ، جرى فى شهر يونيه سنة ١٩٥٠ انتخاب جمعية تمثيلية ، بموجب قانون للانتخاب بنى على أساس المواطَنة البرقاوية ، لا المواطَنة الليبية . وأنشىء فى طرابلس مجلس إدارى فى شهر مايو سنة ١٩٥٠ ، وأعد هذا المجلس قانونا انتخابيا لطرابلس وأسست حكومة فى طرابلس ، فى شهر مارس سنة ١٩٥١ ، على غرار الحكومة البرقاوية ، وعلاوة على ما فى ذلك كله من ضرر بوحدة البلاد ، فإن هذه المؤسسات لم يكن لها من الأمر شىء ، وكانت بالتالى غير ملائمة لإعداد الليبيين للحكم الذاتى .

وكانت هذه هى وجهة نظر مفوض الأمم المتحدة الذى اعتبر الخطوات المتخذة من جانب السلطات البريطانية عقبات فى طريق تنفيذ قرارات منظمة الأمم المتحدة . وقد رأى أن تأسيس حكومات إقليمية فى مختلف أجزاء ليبيا ، يشكل تقييدا واقعيا لحرية الليبيين فى اختيار الجمعية الوطنية التى ستقرر دستور ليبيا ، بما فى ذلك شكل

الحكم فيها ، خصوصا عند ما تؤسس الحكومات الإقليمية بدون أية استشارات تمهيدية مع السكان . وشدد مستر بلت أيضا على ضرورة إشراك الليبيين ، فى أقرب فرصة ممكنة ، بالشئون التى سيصبحون عاجلا مسئولين عنها .

وأقام الفرنسيون فى فزان حكومة محلية ومجلسا منتخبا لا سلطة لهما ، على غرار ما فعل البريطانيون فى برقة .

ولم تكن هذه الأعمال الرامية إلى تجزئة البلاد مضرة بمصالح ليبيا فحسب ، بل كانت متعارضة مع رغبات أكثرية السكان . وقد لاحظ مفوض الأمم المتحدة أن مفهوم الوحدة الليبية لم يكن مقتصرا على المتعلمين ، أو على الشبان من أبناء الجيل الجديد ، بل كان منتشرا فى طول البلاد وعرضها ، وكان متغلغلا حتى فى أنحائها الداخلية (١) .

وذكر مستر بلت فى تقريره أن السلطات المسئولة عن الإدارة لم تكن مستعدة لإدراك الحقيقة الواقعة فى كون الجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة راغبة فى إنشاء حكومة واحدة فى ليبيا بدلا من حكومات ثلاث منفصلة ، ولذلك فإن هذه السلطات كانت تقدم المقترحات لتنمية الأجهزة الدستورية فى كل من الأجزاء الثلاثة ، وفى الوقت ذاته لم تتقدم بأية مقترحات لتشجيع وحدة ليبيا واستقلالها بمجموعها ، مع أن الجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة جعلتها مسئولة عن ذلك ، كلا بمفردها وبالتضامن فيما بينها (٢) .

وكان المجلس الاستشارى للمفوض منقسما انقساما حادا وغير متكافئ حول شكل الحكومة الليبية . فقد وقف ممثلو مصر وباكستان وطرابلس فى جانب ،

---

(١) تقرير مفوض الأمم المتحدة لليبيا إلى الأمين العام A/AC. 32/1 تاريخ ٤ سبتمبر سنة ١٩٥٠ ص ١١٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٩ — ١١٠ .

ينادون بتأسيس حكومة واحدة موحدة . ووقف فى جانب الحكم الاتحادى ممثلو بريطانيا وفرنسا وأميركا ، وقد تبعهم فى ذلك ممثلو برقة وفزان . أما ممثلو إيطاليا والأقليات المقيمة فى ليبيا ، فإنهم بقوا على الحياد .

وكان مستر بلت مدركا كل الإدراك للأخطار الكافية فى سياسة الدول المسئولة عن الإدارة ، كما أظهر تقريره ، إلا أنه كان عاجزا عن وقفها . ولذا فإن الإجراءات الدستورية التى كان يقصد منها تحضير الليبيين الاستقلال تحت إشراف الأمم المتحدة ولدت فى نطاق التجزئة الإقليمية ، ونمت من خلال شكل أعد لدولة اتحادية . وعلى ذلك فإن اللجنة التحضيرية التى ألفت فى شهر يوليو سنة ١٩٥٠ ، كخطوة لإعداد الدستور من جانب الجمعية التأسيسية ، تكونت من واحد وعشرين عضوا ، سبعة منهم يمثلون كلا من الأقاليم الثلاثة ، فوضعت طرابلس وسكانها ٨٠٠ ، ٠٠٠ على قدم المساواة مع برقة وسكانها ٣٠٠ ، ٠٠٠ ، وفزان وسكانها ٦٠ ، ٠٠٠ . فكان إدخال مبدأ المساواة العددية فى تمثيل طرابلس و برقة وفزان فى اللجنة التحضيرية تأكيدا للتجزئة ، وكان حتما أن يجر إلى خطوات أخرى فى هذا الطريق .

وقررت اللجنة ـ التى رشح أعضاءها البرقاويين والفزانيين السلطات البريطانية والفرنسية ـ أن تتألف الجمعية الوطنية من ستين ممثلا ، على أساس التمثيل المتساوى للأقاليم الثلاثة . وهذا القرار لم يوطد التجزئة فحسب ، بل كان يتضمن أخطارا عديدة . ذلك أن الواقع أن أبناء الطبقة الوسطى من سكان المدن الطرابلسية هم أكثر وعيا و إفصاحا فى الحقل السياسى من سكان برقة وفزان الذين تغلب عليهم الصفة القبلية . ولذا فإن مبدأ التمثيل المتساوى فى الجمعية الوطنية أعطى العناصر الأمية كثرة على العناصر المستنيرة كما أنه كان يحتمل أن يطغى على المجلس الأعضاء المسايرون من ممثلى برقة وفزان ، وهم مستعدون لتلبية ما تطلبه منهم السلطات المسيطرة على أقاليمهم . واتخذت الجمعية الوطنية المؤسسة على هذا الشكل ، قرارا فى شهر ديسمبر

سنة ١٩٥٠ ، أعلنت فيه ليبيا دولة اتحادية وأعلنت الأمير السنوسى ملـكا عليها .

واعترف مستر بلت أمام منظمة الأمم المتحدة أن الجمعية الوطنية ، بالشكل الذى كانت مؤلفة به ، كانت مفتقرة إلى السند السياسى والمعنوى الذى يعطيها حق وضع دستور للدولة . ومع ذلك فقد بقيت هذه الجمعية ، لأنها كانت تنال تأييد ممثلى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، الذين قالوا بأن قراراتها ملزمة ما دامت مؤلفة بشكل شرعى . ولذا سمح للجمعية الوطنية بأن تصبح جمعية تأسيسية وحصرت فيها صلاحية وضع الدستور . وقد سارت الجمعية على نهجها الاتحادى فوضعت فى شهر اكتوبر من سنة ١٩٥١ دستورا لدولة اتحادية . وأعطى الدستور صلاحيات واسعة للحاكم السنوسى الذى أصبح ملـكا للمملـكة الليبية المتحدة .

وفى شهر ديسمبر سنة ١٩٥١ أعلنت ليبيا دولة مستقلة . وما زال أمامها طريق وعر شاق . فإن علاقاتها مع الدول الثلاث ـ بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا ـ التى تنظر إليها كقاعدة ذات أهميـة استراتيجية كبرى فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، قد تؤدى إلى التوتر والاحتكاك فى ليبيا نفسها ، وقد يكون لها آثار مقلقة فى الأجزاء الأخرى من العالم العربى . وثمة مشاكل داخلية جوهرية لا بد من مواجهتها . فليبيا تحتـاج إلى أمرين حاجة ملحة : أولهما تدريب الرجال القادرين على إدارة دولة حـديثة ـ من موظفين مدنيين ومعلمين وأطباء وزراعيين وخـبراء فنيين ـ وثانيهما توظيف الأموال للنمو ولاستغلال موارد البلاد المحـدودة على خير وجه ممكن .

وقد وقعت ليبيا منذ إعلان استقلالها معاهدتين مع بريطانيا والولايات المتحدة ، تؤمنان لهذين البلدين منافع عسكرية لقاء العون المالى . ولـكن هذا الطريق محفوف بالمزالق والأخطار . وإن أفضل من يقدم العون الاقتصادى والفنى هو منظمة الأمم المتحدة التى تبنت استقلال ليبيا .

ومن الجهة الأخرى فإن دخول ليبيا فى الجامعة العربيـة وانضمامها إلى عضوية الأمم المتحدة قد قوى مركزها كدولة مستقلة .

أما الجزائر فقد غزتها فرنسا عام ١٨٣٠ . ودافع الجزائريون عن أنفسهم دفاعا عنيداً ، فحاربوا القوات الفرنسية فى تصميم وشجاعة بزعامة عبـد القادر الجزائرى الذى كان رجلا عالما ومتدينا ، وممتلئا بالوطنية والشجاعة ، وكثيراً ما تغلبوا على قوات فرنسية تفوقهم . ولم يتمكن الفرنسيون من إخضاع الجزائر والسيطرة عليها إلا فى سنة ١٨٤٧ بعـد أن هدمتها الحرب الطويلة التى استمرت سبعة عشر عاما ، وأفقرت سكانها ، ومع ذلك فإن الجزائر لم تخلد إلى الخضوع ، بل انتفضت مرات عديدة خلال القرن التاسع عشر ، وتسبب عن انتفاضها خسائر كبيرة للجزائريين والفرنسيين على السواء . وما زالت وحشية الفرنسيين فى الأعمال الانتقاميـة التى يوجهونها ضد السكان من الصفات التى تميز حكمهم فى شمال أفريقيا حتى يومنا هذا .

وأقام الفرنسيون فى الجزائر منذ أكثر من قرن ، حكما ظالما محكما ، وشاملا لجميع نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية .

وتعتبر الجزائر جزءا من فرنسا ، وهى تابعة لوزارة الداخلية الفرنسية . والبرلمان الفرنسى هو الذى يضع لها القوانين ، كما أن تـكوينها السياسى مرسوم بقصد إبقاء الحـكم الفرنسى ، وتأمين مركز ممتاز للأوربيين المقيمين فى الجزائر – وجلهم من المستعمرين الفرنسيين – ولضمان احتكارهم الفعلى لموارد البلاد الاقتصادية .

ولم يكن اشتراك الجزائريين فى حكم بلادهم حتى عام ١٩٤٠ ، ليتجاوز تمثيلهم فى جمعية المندوبين الماليين ، وهى هيئة منتخبة وذات صلاحيـة فى التصويت على الميزانية ، من دون أن يكون لها حق بحث القضايا السياسية . ولم يكن لهذا التمثيل أى جـدوى فى الواقع ، وما ذاك فقط بسبب ضيق الصلاحيات المعطاة للجمعية ،

ولكن أيضا بسبب طريقة تشكيلها ؛ إذ أنها تتشكل من وفود ثلاثة : اثنان منها يمثلان مصالح المستعمرين الفرنسيين من المزارعين ورجال الأعمال وعددهم نحو مليون ، بينما يقوم الوفد الثالث بتمثيل السكان الوطنيين وعددهم يربو على تسعة ملايين . وأخبث من ذلك أن هـذا الوفد الممثل للسكان الوطنيين يقسم إلى قسمين : أحدهما مكون من الأعضاء البربر ، والثانى من الأعضاء العرب .

وكان هنالك قانون ـ يعرف بقانون كريميو Cremieux لعام ١٨٧٠ ـ يسمح للجزائريين بأن يصبحوا من الرعايا الفرنسيين إذا تنازلوا عن قانون الأحوال الشخصية الذى يتناولهم ، ورضوا بالقانون المدنى الفرنسى بدلا منه . وقد اعتبر المسلمون ذلك شيئا شبيها بالكفر ، لأنه كان يعنى ابتعادا عن الشريعة والعادات الإسلامية وإنكارا للأحوال الدينية . وعلى ذلك فلم يقبل بهذا العرض سوى القليل من المسلمين . وكان من أثر قانون كريميو أنه حول اليهود المقيمين فى شمال أفريقيا ـ وعددهم ١٤٠,٠٠٠ ـ بجرة قلم إلى مواطنين فرنسيين ، وأعطاهم بالتالى مركز الطبقة الممتازة ، وأضافهم إلى أعداد الجاليات الأجنبية التى عاشت من أرض الجزائر الطيبة ، فى ظل من حماية القوانين الأجنبية والجنسية الأجنبية ، وعلى حساب السكان الوطنيين .

وجرت فى عام ١٩٤٤ محاولة لجعل قانون كريميو أكثر قبولا من جانب المسلمين ، وذلك عند ما أقر البرلمان الفرنسى قانونا انتخابيا يعطى المسلمين الجزائريين المندمجين فى الثقافة الغربية ، حقوقا كاملة فى الجنسية ، بدون أن يؤثر ذلك فى وضعهم الإسلامى . ولكن هذا القانون لم يشمل سوى جزء صغير من السكان ، وجاء متأخرا ، لأن هؤلاء المتغربين أنفسهم لم يعودوا قانعين بالحصول على حق التمثيل فى البرلمان الفرنسى .

ولقد كان إفقار الجزائريين سببا فى تأخرهم . فإن المستعمرين الفرنسيين يسيطرون على موارد بلادهم ، وذلك لأن القوانين لا توضع إلا لمصلحة هؤلاء

المستعمرين ، حتى أصبحت الجاليات الأوربية التى لا تؤلف سوى ١٠ بالمئة من السكان ، تتحكم بـ ٧٠ بالمئة من مواردها الاقتصادية .

والجزائر بلاد زراعية ؛ إذ أن سكانها يعتمدون فى معيشتهم على ما تنتج الأرض، غير أن ٤٠ فى المئة من الأراضى قد انتقل من أيدى الوطنيين إلى أيدى المستعمرين ، وتشمل هذه الأراضى القسم الأوفى من المناطق الخصبة . والأراضى التى استملكتها السلطات الفرنسية فى أحوال ومناسبات شتى مثل الأراضى المصادرة باعتبارها من أملاك الدولة ، أو الأراضى الموقوفة وقفا خيريا للمؤسسات الدينية والمؤسسات العامة الأخرى ، والأراضى المصادرة فى أعقاب الثورات ، وأراضى الأحراج والقبائل — هذه المساحات الشاسعة من الأراضى التى جردت من الوطنيين أو حرم منها الوطنيون ، منحت للمستعمرين بموجب قوانين أعدت لهذا الغرض . وكان حتما أن ينجم عن ذلك خلق طبقة كبيرة من العمال الوطنيين الذين لا أرض لهم . وانتقل بعض السكان الذين فقدوا أراضيهم من السواحل الخصبة إلى الصحراء والأراضى القاحلة الواقعة فى الداخل .

ونشأت فى الجزائر إقطاعية أوربية ، تحميها الدولة . وهنالك آلاف من المالكين الأوربيين يملك الواحد منهم أراضى تزيد مساحتها عن مئة هتكار ويبلغ معدل ما يملكه الفرد منهم من الأراضى ٢٣٥ هكتارا فى حين تزيد ملكيات كثيرة عن ١٠٠٠ هكتار [١] .

يحدث هذا بينما يعيش أربعة ملايين من العمال الزراعيين الوطنيين على حافة الجوع فى السنوات العادية ، فإذا حلت سنة قحط وجفاف فتكت فيهم المجاعات والأوبئة . والإقطاعيون الأوربيون ، فضلا عن ذلك ، هم الفئة الوحيدة التى تنتفع من معظم مشروعات الأشغال العامة ومشروعات التنمية الزراعية .

---

(١) الهكتار يعادل ما يقرب من فدانين ونصف .

وفى رأى بعض المطلعين من الفرنسيين نفسهم أن الزراعة والأنعام لم تعد كافية لتأمين الحد الأدنى من مستوى البقاء . فلم تبق أرض يمكن استغلالها ،ولم تزد المواشى خلال السنوات الأربعين الماضية ، بينما يزداد السكان بمعدل ٠٠٠ ,١٥٠ بالسنة [١] .

ويمكن تخفيف حدة هذا الفقر بتصنيع البلاد ،ولكن بالرغم من وجود الموارد المعدنية ذات القيمة الصناعية فى الجزائر ، ومن بينها الفحم والحديد ، فإن الصناعة لا تلقى تشجيعا لأن الفرنسيين يريدون أن يحتفظوا بالجزائر سوقا لمنتجاتهم المصنوعة فى فرنسا . كما أنهم يخشون أن تجتذب الصناعة أعدادا كبيرة من العمال ، فيتركون عملهم على الأرض لأنهم يجدون موردا جديدا بدلا منه ، ويخسر المستعمرون الفرنسيون بسبب ذلك موردا من العمال الذين يرضون بأقل الأجور . وأهم من ذلك أن القوى المستعمرة تدرك بأن المجتمعات التى تعيش على مستوى البداوة والزراعة البدائية ، هى أسهل حكما من المجتمعات التى تضج بالأفكار والمشاكل والإمكانيات التى يخلقها التصنيع .

أما التجارة فإن قرب الجزائر من أوربا ، والنضج المبكر لمحصولاتها ، المسبب عن دفء مناخها ، يهيئان لها أحوالا ملائمة . ومع ذلك فما زالت تجارة الجزائر صغيرة بسبب الفقر المنتشر فى أرجائها ، وبسبب سيطرة المستعمرين على زراعتها ، واحتكارهم لمواردها المعدنية ، وبسبب خلوها من الصناعة . أما التجارة الموجودة فهى بيد الفرنسيين . والرسوم العالية المفروضة على جميع البضائع ، ما خلا تلك التى تنتجها فرنسا ، تستبعد إمكانيات المنافسة وترغم الجزائريين على أن يشتروا المنتجات الفرنسية بأسعار تزيد عن الأسعار العالمية .

وأسوأ ما فى الحكم الفرنسى فى الجزائر جهده المستمر لتقويض الثقافة العربية الإسلامية ، بقصد اجتثاث جذور الشعب الجزائرى الأخلاقية والروحية ، وتجريده

---

(١) Robert Montagne, "Evolution in Algeria", International Affairs 1947,pp. 42—51

بالتالى من دوافع المقاومة المنبثقة عن ذاته الداخلية . وقد وضع الدين الإسلامى تحت المراقبة الدقيقة من جانب السلطات الفرنسية ، واستولت هذه السلطات على الأوقاف أو الحبوس الإسلامية التى كانت موقوفة على المؤسسات الدينية . وكانت الأوقاف ، قبل العهد الفرنسى ، هى التى تؤمن الخدمات الاجتماعية والتعليمية ، وهى المؤسسات الاجتماعيـة المنبثقة عن الديانة الإسلاميـة . فـكانت المدارس والأشغال العامة ، والمؤسسات الخيرية تدار بالأموال المتحصلة من الأوقاف . وعند ما استملـكت هذه الأوقاف حرم من منافعها خلق كثيرون . وقد خصص جزء من الأوقاف المصادرة لإدارة المؤسسات الإسلامية . فالجوامع خاضعة للإدارة الاستعمارية بشكل مباشر ، وقضاة الشرع والواعظون المسلمون تعينهم الحـكومة وتدفع لهم الرواتب ، فهم بالتالى من موظفيها . وتراقب خطب الأئمة ولا يسمح لغير الشيوخ الرسميين ، وهم الذين يأخذون الرواتب من الحـكومة ـ بإلقاء الخطب والمواعظ .

واللغة العربية التى هى لغة البلاد الوطنية لا تنال الاعتراف الرسمى ، والفرنسية هى لغة المعاملات الحـكومية كافة ، ولغة التعليم فى المدارس الرسمية . أما نظام التعليم الرسمى فقد أعد بالدرجة الأولى لخدمة المستعمرين . وهو يتبع المناهج الفرنسية ، ولا مكان للغة العربية فيه ، فإذا ما درست أصلا فإن اللهجات العامية هى التى تدرس . وقد قدر عدد الأطفال الجزائريين الذين كانوا فى سن التعليم الابتدائى سنة ١٩٥٠ بمليون طفل ، لم يكن فى المدارس سوى عشرين بالمئة منهم . يقابل هذا أن وسائل التعليم كانت مهيأة لجميع أبناء المستعمرين من مختلف الأعمار ، ولمراحل التعليم كلها. وكان ١٠ فى المئة من مجموع طلبة المدارس الثانوية من الجزائريين و ٩٠ بالمئـة من الفرنسيين ، أى بعـكس نسب كل من العنصرين من مجموع السكان . وفى عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ كان فى جامعة الجزائر ٧٦٤٠ طالبا بينهم ٢٨٢ من الجزائريين . وفى الجزائر نوعان من المدارس العربية الخاصة . فهناك المدارس التى تنال المساعدة من

الحكومة وعليها أن تخصص ثلث حصص التعليم لتدريس اللغة الفرنسية . وهناك نوع ثان من المدارس تديره جمعية علماء الجزائر . وتعتمد هذه المدارس على الإعانات الخاصة وهى منصرفة انصرافا كليا إلى العلوم العربية والإسلامية . وللجمعية ١٢٥ مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية واحدة هى معهد ابن باديس الذى يعد الطلبة إلى معهد جامع الزيتونة فى تونس .

وجمعية علماء الجزائر هى منظمة دينية سياسية أسست عام ١٩٢٩ . وهى تشدد على الإصلاح الدينى والاجتماعى باعتباره أساسا للحرية السياسية ولتأمين المناعة والمقاومة ضد السياسة التى تعمل على فرنسة السكان . وهى تؤدى رسالتها بوساطة مدارسها ونواديها العديدة ، وبوساطة مجلتها الأسبوعية « البصائر » . وتعمل الجمعية من الناحية السياسية لاستقلال الجزائر ، ولاتحادها مع أقطار شمال أفريقيا الأخرى ، ولدخولها جامعة الدول العربية . وقد حافظ العلماء على الثقافة العربية الإسلامية فى الجزائر ، وأبقوا على الرابطة الوثيقة بمركزى هذه الثقافة فى شمال أفريقيا ؛ وهما جامع القرويين فى مراكش ، وجامع الزيتونة فى تونس .

ونشأ حزب مدنى ـ وهو اتحاد المنتخبين المسلمين فى الجزائر ـ وهو يتكون من الجماعات التى نالت ثقافة فرنسية . وأهدافه هى تحقيق المساواة بين المسلمين والمواطنين الفرنسيين والتمثيل فى البرلمان الفرنسى . وهذا الحزب ، بطبيعته ، بعيد عن جمهرة الشعب ، ومحصور فى الدائرة المحدودة من العناصر المتغربة . وقد انخفض عدد أعضائه عند ما ظهرت اتجاهات انفصالية بين أولئك الذين كانوا من قبل يتطلعون إلى فرنسا .

وكان يقود الانفصاليين فرحات عباس ، وهو زعيم نشيط من بربر القبيلة . وقد أسس حزب البيان الجزائرى ، الذى اكتسب هذا الاسم من البيان أو المنهج الذى

أذاعه عباس سنة ١٩٤٣ ، عندما طالب بجعل الجزائر جمهورية ذات استقلال ذاتى ، ضمن الاتحاد الفرنسى ، على أن تكون لها حكومة من النمط الغربى ، وبرلمان يمثل فيه الأوربيون المقيمون فى الجزائر تمثيلا عادلا . وقد رفض البيان سياسة الفرنسة ، وطالب بجعل اللغة العربية لغة رسمية . ولكن هذا الحزب نفسه لم يعد قانعا بالمركز التبعى المشابه لمركز دول الدومينيون ، والذى كان قد طالب به فى بيان سنة ١٩٤٣ . وحتى صحيفة الحزب غيرت اسمها من « المساواة » - Egalite - إلى « الجمهورية الجزائرية » . La Republique Algerienne . وهذا التغير فى الاسم مظهر من مظاهر التغير فى اتجاه الحزب وأهدافه .

وكان الحزب الذى يتزعمه مصالى الحاج هو أهم الأحزاب السياسية فى الجزائر ، وذلك لأنه أكثرها استنادا إلى التأييد الشعبى . فإن مصالى الحاج ، وهو واحد من العمال الجزائريين الكثيرين المقيمين فى فرنسا ، نظم إخوانه العمال ومواطنيه منذ سنة ١٩٢٤ فى حزب سماه نجمة أفريقيا الشمالية ، وكان هدفه تأمين المساعدة المتبادلة بين العمال . وتطورت هذه المنظمة إلى حزب سياسى يعمل لاستقلال الجزائر . وعندما حل الحزب فى سنة ١٩٣٧ بسبب نشاطه السياسى ، قام مصالى الحاج فى الحال بتأليف حزب آخر بدلا منه ، هو حزب الشعب الجزائرى ، وكان هذا الحزب الجديد كسابقه ، مستندا إلى الشعب ، فمن أبناء الشعب كان يتكون ، ومن الشعب كان يستمد القوة والنشاط . وفى سنة ١٩٤٧ أسست حركة انتصار الحريات الديموقراطية بزعامة مصالى الحاج وحلت محل حزب الشعب الجزائرى . وتابعت هذه الحركة العمل الذى ابتدأ بتأسيس حزب نجمة شمال أفريقيا ، وهى ، كالمنظمات التى سبقتها تهدف إلى تحقيق الاستقلال باعتباره الضمان الأوحد للحياة الكريمة لجمهرة الشعب . وعلى ذلك فإنها تنشط فى معارضة دخول الجزائر فى الاتحاد الفرنسى ، وتعتبر أن جميع الإصلاحات التى تتم ضمن التكوين الحالى هى إصلاحات غير مجدية وتناشد

الشعب الجزائرى بمتابعة النضال حتى يتحقق الاستقلال . وفى سنة ١٩٥١ اشتركت حركة انتصار الحريات الديموقراطية التى يتزعمها مصالى الحاج ، مع حزب عباس فرحات الذى أصبح يدعى « الاتحاد الديموقراطى لمسلمى الجزائر » ومع جمعية علماء الجزائر ، والشيوعيين ، والوطنيين المستقلين ، لتأسيس الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية .

وما زال الفرنسيون بعيدين كل البعد عن تلبية أمانى الجزائريين القومية . وقد وضع القانون الأساسى للجزائر سنة ١٩٤٧ ، بعد كثير من الدرس . غير أنه لم يأت بأى تغير جوهرى . ففى الجمعية المحلية التى أسست بموجب القانون لتحل محل الوفود المالية ، بقى تمثيل الفرنسيين المقيمين كبيراً وغير متناسب مع إعدادهم . وليس لهذه الجمعية سوى القليل من الصلاحيات . فلها حق بحث الميزانية ، لكنها مجبرة على إقرارها . ولها حق التشريع فى بعض الأمور الثانوية ، غير أن التشريعات المهمة ما زالت من صلاحية البرلمان الفرنسى وحده . والسلطة التنفيذيه عائدة إلى الحاكم العام المسئول تجاه باريس بشكل مباشر .

إن وضع الجزائر بموجب هذا القانون بعيد كل البعد عن الاستقلال الذى يطمح إليه السكان ، بل هو لا يشكل قاعدة مقبولة للحكم الذاتى الداخلى ؛ إذ يبقى هذا القانون السلطة الفعلية حيث كانت قبلا ، أى بيد الحاكم العام ، و بيد الهيئات التشريعية والتنفيذية المركزية فى باريس . والجمعية الجزائرية التى نص عليها القانون الأساسى ، إنما هى بعيدة جداً عن الجمعية التى يطلبها الشعب ، وهى جمعية ذات سيادة ، ومنتخبة على أساس من حق الانتخاب الشامل ، الذى لا يميز بين السكان بسبب عرقهم أو دينهم ، ولها السلطة فى أن تعطى الجزائر دستورا ، وأن تؤمن لها القوة للحصول على الحقوق الوطنية وحماية هذه الحقوق . ومع ذلك فإن الأحزاب الوطنية التى يقودها مصالى الحاج وفرحات عباس أبدت موافقتها على الاشتراك فى

انتخابات الجمعية الجزائرية التى عقدت فى شهر ابريل من عام ١٩٤٨ ، وكان اشتراكها هذا دليلا على حسن نيتها واستعدادها لتجربة هذه الديموقراطية المحدودة . غير أنها أحست بالخديعة الفظة ، عند ما تحولت الانتخابات التى جرت فى ظل من تفتيش الشرطة ، وإرهاب الجيش ، إلى مهزلة بشعة . فأبعد الناخبون بالعنف عن مراكز الاقتراع ، وزج بالمرشحين فى السجون ، ودفعت الأموال ثمنا للأصوات الانتخابية ، واستغل التصويت الانتخابى أسوأ استغلال . وقد كان خرق جميع المبادىء الديمقراطية فاضحا بحيث إن الرأى الحر فى فرنسا ذاتها وبخ السلطات الفرنسية على تصرفاتها وأنذرها بأن حكم فرنسا فى الجزائر لن يستطيع بعد اليوم أن يعتمد على غير القوة .

إن الإرهاب والتزوير اللذين رافقا انتخابات سنة ١٩٤٨ هما إفصاح عن رد الفعل الفرنسى لأية محاولة يقوم بها الجزائريون فى سبيل تخفيف قبضة الحكم الاستعمارى . ويتفق رد الفعل هذا مع سياسة الكبت والإرهاب التى كانت تطبق فى الجزائر لمدى قرن ونيف من الزمن ، والتى بلغت أوجها بالمذبحة التى وقعت فى شهر مايو سنة ١٩٤٥ عند ما قتل ٢٠,٠٠٠ من الجزائريين (حسب تقدير متحفظ) بدون تمييز ، وعندما دمرت قرى بكاملها ، انتقاما لمائتى فرنسى قتلوا فى اصطدام بين الشرطة وبين مظاهرة وطنية قامت احتفالا بيوم انتصار الحلفاء . مثل هذه الأفعال لاتفصح إلا عن الضعف والفشل ، وتحمل فى طياتها مصيرها المحتوم .

ومع ذلك فإن الجزائر ، بعد قرن وربع من الحكم الأجنبى المباشر ، ومن تنفيذ سياسة مستمرة من التمثل والفرنسة ، بقيت محتفظة بثقافتها حية ، وأبقت على طابعها القومى ، وظلت على تصميمها لاستعادة حياة الحرية والكرامة .

إن هذا التصميم ينعكس حاليا فى الثورة التى ابتدأت فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤ واستمرت دون انقطاع بقوة متزايدة طيلة الوقت .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وهذه الثورة منبثقة من صميم الشعب وهى تعبر عن أمانيه وإرادته ، فالشعب الجزائرى بكامله يشترك بها سواء بالحرب الفعلية ، أو فى تقديم العون والتأييد إلى المحار بين الذين يفدون من شتى طبقات الشعب ومن جميع أنحاء البلاد . فالفلاحون والرعاة والعمال وسكان المدن ، وأصحاب الحرف والشبان المتعلمون ، هؤلاء جميعا يجاهدون صفا واحدا فى سبيل تحرير الجزائر وبناء دولة جزائرية مستقلة .

وللنساء نصيب بارز فى هذه المقاومة الشاملة ، كما أن خرافة الخلاف بين العرب والبربر قد تبخرت أمام اتحاد هاتين الجماعتين .

ويجابه الفرنسيون نضال الشعب الجزائرى من أجل التحرر بحرب استعمارية شاملة . فإن ٥٠٠ ، ٠٠٠ من الجنود الفرنسيين يحاربون فى الجزائر . وقد سحبت فرنسا الفرق التى تعهدت بتقديمها إلى حلف شمال الأطلسى ، كما دعت احتياطها العسكرى ، لتستطيع تأمين هذا العدد الكبير فى الجنود . فالجيوش والأسلحة التى كانت معدة فى نطاق حلف شمال الأطلسى للدفاع عن أوربا ضد هجوم روسى محتمل ، تحولت إلى الجزائر حيث تشن حربا تهدف إلى سحق شعب يناضل من أجل حريته .

وإن فظائع فرنسا فى محاربة الثورة لترتدى نفس الطابع الذى دمغ تصرفات هذه الدولة منذ احتلالها للجزائر . فقد محيت قرى بأكملها ، واعترفت الحكومة رسميا بقصف القرى بالمدافع فى المناطق التى شملتها الثورة . وإن تسعين فى المئة من « الثوار » الذين تزعم حكومة فرنسا أنها قتلتهم هم من المدنيين . ويرتكب رجال الشرطة أشد الفظائع أثناء تفتيشهم عن الثوار ، كما تطلق أيدى الجنود فى نهب السكان وترويعهم . ويطبق الفرنسيون الآن فى الجزائر نفس الطرق التى استعملها النازيون ضدهم . ومن الأمثلة على ذلك تجميعهم للعشرات من السكان الأبرياء وقتلهم إياهم جزاء كل فرنسى يقتل .

ومع ذلك فإن الفرنسيين رغم كل فظائعهم ورغم تفوقهم الساحق فى الرجال والسلاح لم يستطيعوا أن يحطموا الثورة ، بل إنهم يتراجعون أمامها باستمرار .

ولابد للفرنسيين أن يخيبوا لأن قضية فرنسا فى المغرب ـ وهى من مخلفات الاستعمار البالى ـ قضية خاسرة . فحرب فرنسا فى الجزائر حرب استعمارية يقودها ضباط دربوا فى مدرسة الاستعمار القديمة ، بغية المحافظة على مصالح الشركات المالية والتجارية الكبرى فى فرنسا وعلى المركز الممتاز الذى يتمتع به المستعمرون الفرنسيون فى الجزائر . ولقد قام قسم كبير من الصحافة الفرنسية الذى تسيطر عليه المصالح الكبرى بتشويه طبيعة هذه الحرب وغايتها زاعما أنه لا بديل للحرب فى الجزائر سوى نهاية فرنسا .

غير أن الشعب الفرنسى أخذ يدرك أكثر فأكثر بأنه ضحية هذه الحرب إلى جانب الشعب الجزائرى . وقد قامت جموع الشعب الفرنسى بمظاهرات فى أنحاء فرنسا ضد استدعاء الاحتياطى ، وحاولت وقف القطارات التى تحمل الامدادات العسكرية إلى الجزائر . أما العناصر الحرة بين الكتاب والمفكرين الفرنسيين فقد استنكرت هذه الحرب واعتبرتها مخجلة لفرنسا ومصدر عار لها . وقد نعتها محرر جريدة ال « أوبزرفاتور » بأنها « حرب قذرة » يدفع فيها شبان فرنسا إلى الموت فى سبيل قضية لا يؤمن بها إلا قليلون .

ومن الجهة الأخرى فان الجزائريين يناضلون وقلوبهم عامرة بالإيمان والحماسة ، ومعنوياتهم فى ارتفاع ، وعدد المجاهدين منهم فى ازدياد رغم الخسائر ، وذلك بسبب تدفق المتطوعين المنضمين إلى جيش التحرير . فهم يحاربون مستمدين قوتهم من إيمانهم بعدالة قضيتهم ، ومن ألمهم المرير لشقاء وضعهم ، وقد أدركوا أن فى مقدورهم تغيير هذا الوضع . وزادت قوتهم وثقتهم بأنفسهم عندما تنشقوا نسيم الحرية فى المناطق التى حررتها الثورة . وهذا يفسر لنا لماذا تفضل قرى بأسرها أن تمحى بدلا

من أن تدلى بمعلومات عن جيش التحرير ، ولماذا يساهم الجميع حتى الأطفال من الصبيان والبنات فى هذه الحركة التحريرية .

بعد أن وطدت فرنسا نفسها فى الجزائر لم يكن بد من أن تتوسع فى أقطار شمالى أفريقيا الأخرى . وفى الحال اتخذت فرنسا من عبور القبائل التونسية حدود الجزائر ذريعة لضم تونس إليها . وكانت ذريعتها الثانية فى ذلك ماعرضته على الباى من حماية فى وجه رعاياه المتبرمين .

وقصة التغلغل الفرنسى إلى تونس الذى أودى باستقلالها تشبه التطورات التى حصلت فى الوقت ذاته فى مصر . ففى كلا البلدين كانت الديون الأجنبية سببا فى فرض الرقابة المالية الأجنبية ، ومن ثم فى فرض السيطرة السياسية . وقد فرضت الضرائب المرهقة لسداد الدين الأجنبى . فثار الشعب عندما أحس بفداحة العبء المالى المفروض عليه ، خصوصا وأنه كان يعانى الفقر والشظف . وأعطت الثورة والفوضى المرافقة لها فرصة لفرنسا لتعلن تونس محمية فرنسية .

وكانت تونس ، قبل التدخل الفرنسى ، ولاية مستقلة فى الامبراطورية العثمانية ، ومرتبطة بولاء اسمى نحو السلطان . وقد شهد منتصف القرن التاسع عشر فى تونس ، كما فى أنحاء أخرى من الامبراطورية العثمانية ، بعض بشائر الإصلاح . وكان الموجه الفكرى والروحى لحركة الإصلاح هو خير الدين باشا ، السياسى الحر الحكيم . وقد قام خير الدين بجولات فى أوربا وفى البلاد الإسلامية ، ودوّن ملاحظاته فى كتاب أراد منه تنبيه المسلمين إلى تأخرهم وانحطاطهم بالمقابلة مع ما تحقق فى الممالك الأوربية من قوة وتقدم وازدهار ، ورسم الطريق لبناء مجتمع إسلامى قوى ومستنير . وقد كتب خير الدين يقول : بأن المعرفة هى أساس التقدم وأن العلم والمعرفة لايمكن تحقيقهما إلا فى مجتمع تسوده الحرية والعدالة . وليس هنالك من ضمانة لبقاء حكم العدالة والحرية إلا بوساطة المؤسسات التمثيلية . وعلى ذلك فقد ألح خير الدين على إنشاء أنظمة الحكم

النيابى ، واعتبر ذلك حجر الزاوية فى منهاج الإصلاح للبلاد الإسلامية .

وقد زاد من أهمية كتاب خير الدين أن مؤلفه كان فى وضع يمكنه من تطبيق الآراء الواردة فى كتابه . وكان هو الدافع إلى الحركة المنادية بتأسيس مجلس للدولة كخطوة أولى نحو إنشاء حكومة نيابية . وقد نجح فى معالجة الانهيار الاقتصادى الذى كانت البلاد تعانيه ، وفى معالجة مشكلة الفلاحين الذين كانوا يفرون من مزارعهم فزعا من جباة الضرائب . وكان خير الدين يصغى بنفسه إلى شكاوى عامة الناس . ونصب صندوقا فى الساحة العامة فى تونس ليضع الناس فيه شكاواهم وهم مطمئنون إلى أن مظالمهم ستزال ، لأن خير الدين الذى كان يحمل مفتاح هذا الصندوق بنفسه ، كان يدرس كل شكاية بعناية ، و يرد الحق لصاحب الحق . وقد أعاد سهره الاحترام والهيبة إلى الحكومة وأعاد للناس الأمن . وقد طبق فكرته عن أهمية العلم ، فساعد فى تأسيس مدرسة تدرس فيها العلوم الإسلامية إلى جانب العلوم الحديثة واللغات الأور بية . وأدخل الإصلاحات إلى جامعة مسجد الزيتونة ، وأهدى هذه الجامعة مكتبة عظيمة جمعت من العديد من المساجد ، كما قدم لها مكتبته الخاصة البالغة ألفى مخطوطة أو أكثر .

غير أن خير الدين لم يترك فى مركزه فى إدارة شئون الدولة . بل اتحدت ضده عناصر رجعية مختلفة الأصول والمشارب . ولم يكن الفرنسيون بشكل خاص سعيدين فى أن يروا الأفكار الحرة والتقدمية ترسى جذورها عبر حدود الجزائر التى كانوا يحتلونها ، حتى ليقال بأن نابليون الثالث ، عندما قدمت إليه نسخة من دستور مجلس الدولة التونسى علق عليه قائلا : « إذا تعود العرب على الحرية والعدالة ، فلن يكون بيننا و بينهم سلام فى الجزائر » . وقد حاول خير الدين ، بعد الذى لمسه من أطماع فرنسا و إيطاليا بتونس ، أن يقوى من روابط بلاده مع السلطان العثمانى ، لعله بذلك يوازن تأثير الدول الأور بية . غير أن هذه السياسة جعلت الباى ينظر إلى وزيره

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

نظرة شك وحذر ، فأقيل خير الدين من منصبه . وقد غادر تونس إلى القسطنطينية حيث أصبح صدراً أعظم ، فنال أعلى مركز رسمى فى الامبراطورية .

واحتل الفرنسيون تونس سنة ١٨٨١ وعقدوا معاهدة زعموا فيها أن الاحتلال مؤقت ، وأنهم سينسحبون حالما تصبح الإدارة المحلية قادرة على توطيد الأمن والسلام . ولكن الاحتلال بقى قائما إلى سنة ١٩٥٦ .

وقد ترك الفرنسيون فى تونس ظلا من الحكم الوطنى . فكان الباى هو الرأس الاسمى للدولة ، إلا أن الحاكم الحقيقى هو المقيم العام الفرنسى الذى يسيطر على الإدارة ويضع القوانين . ولجميع الدوائر الحكومية ، فى العاصمة والأقاليم ، رؤساء فرنسيون.

والوضع الاقتصادى شبيه بوضع الجزائر . فالحياة الاقتصادية يسيطر عليها المستوطنون الأوربيون البالغون حوالى ٢٤٠ ,٠٠٠ بين ثلاثة ملايين فى التونسيين . وهنا ، كما فى الجزائر ، يقيم المستوطنون فى أفضل الأراضى . وفى إنماء الأراضى ، ينالون امتيازات يحرم منها السكان الوطنيون ، فيعطون الأراضى لقاء أثمان تقسط على سنوات عديدة ، وتقدم لهم القروض بشروط ميسرة ، ولآجال طويلة . . وإذا قابلنا فقر الفلاح التونسى بما ينعم به المستعمرون من سعة وازدهار ، برزت لنا حدة الوضع ، وبان مدى شقاء التونسيين .

وهنا أيضا طبقت سياسة التمثل والفرنسة وذلك بإبعاد اللغة العربية ، وبتأسيس نظام تعليمى يقتلع الشبان من جذورهم الثقافية . وقد كانت مدرسة مسجد الزيتونة معقلا لمقاومة سياسة التمثل الثقافى ، وقد بقى هذا المسجد على مرّ العصور ، حارسا وقيما للتراث العربى الإسلامى ، شأنه فى ذلك شأن المسجد الأزهر .

وقد أخذت الحركة الوطنية فى تونس شكلا منظما بعد الحرب العالمية الأولى ، بما نالته من حافز من الحركات الاستقلالية فى مصر وبلاد المشرق العربى الأخرى ، ومن إعلان مبادئ ويلسن فى التقرير الذاتى للمصير .

وقد نظم المقاومة حزب الدستور ، وخلفه حزب الدستور الجديد . وقد تقدم حزب الدستور الذى أسس سنة ١٩٢٠ إلى الحكومة الفرنسية فى باريس ببرنامج إصلاحى يشتمل على إنشاء حكومة دستورية ، وعلى حرية التجمع والصحافة وتوفير التعليم المجانى وعلى إيجاد الفرص الاقتصادية للتونسيين . غير أن منهاجه لم يجد مستمعا ، بل تقدم الفرنسيون عوضا عنه بعرض الجنسية الفرنسية على التونسيين ، ولقد رفض التونسيون هذا العرض كما رفضه الجزائريون من قبل .

وفى مطلع عقد ١٩٣٠ انفصل الجناح المناضل من حزب الدستور بزعامة الحبيب بورقيبة عن الحزب القديم وأسس حزب الدستور الجديد . وقد نال الدستور الجديد تأييدا شعبيا واسعا ، لأن معظم أعضائه من أبناء الطبقات العاملة . ولهذا الحزب تنظيم حسن وله فروع محلية فى أنحاء البلاد كافة ، ويدير هذه الفروع مكتب مركزى يضع سياسة الحزب . ويتجول أعضاء اللجنة المركزية دائما وباستمرار فى أنحاء البلاد المترامية ، موجهين الرأى العام ومتجاوبين معه . وتعقد الاجتماعات ، فى فترات متقاربة فى المدن والقرى ، وفى الصحراء . وتعرض على الجمهور فى هذه الاجتماعات ، وفى كتابات صحيفة الحزب ، جميع القضايا الوطنية .

وقد حل حزب الدستور الجديد سنة ١٩٣٤ وأودع زعماؤه السجن وعم البلاد حكم من الكبت استمر سنتين . وعندما أطلق سراح الزعماء عاود الحزب نشاطه ، وفى السنة التالية عاد الفرنسيون إلى حكم الإرهاب وأخذوا يعتقلون الناس على أوسع مقياس . وقامت مظاهرات احتجاج جبارة فى تونس كلها ، فأثبتت حسن تنظيم الدستور الجديد ومدى تأييد الشعب له . وقد أجاب الفرنسيون على هذه المظاهرات بإعلان الأحكام العرفية وبفرض أحكام الأشغال الشاقة لمدد طويلة على الزعماء المعتقلين . وتبع ذلك حكم إرهابى ، داس الفرنسيون خلاله حرمات البيوت ، فدخلوها عنوة وأعملوا فى أهلها ضروب الأذى والعذاب

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

إلا أن الإرهاب لم يجتث جذور المقاومة ، بل دفعها إلى السرية . فأخذت الخلايا السرية تقوم بأعمال فروع الحزب ، وحلت النشرات السرية محل الصحف المغلقة والاجتماعات الممنوعة فى تنوير الشعب ، وفى الإبقاء على معنوياته وروحه المتحفزة .

وعند ما انهارت فرنسا فى مطلع الحرب الكونية الأخيرة ، نادى الوطنيون بالحجة المنطقية القائلة بأن فرنسا لم تعد قادرة على القيام بمسئولياتها فى تونس، بموجب معاهدة الحماية ، وذلك لأنها هى ذاتها محتلة من قبل أعدائها ولذلك فإنهم طالبوا بإلغاء الحماية فورا وباعلان استقلال تونس . وعاد الفرنسيون إلى أسلوبهم ، غير أن اعتقال الزعماء لم يوقف الحركة ، فهنا ، كما فى مصر والهند ، أسست لجان جديدة وكانت هذه اللجان تتقدم لقيادة الحركة كلما اعتقل رهط من الزعماء .

وقد انتعشت الحركة الوطنية وتنشطت باعتلاء المنصف سدة العرش التونسى فى شهر يونيو (حزيران) سنة ١٩٤٢ . فقد كان المنصف لسنوات عديدة ، ومنذ شبابه ، عضواً فى الدستور الجديد ومؤيدا للأمانى الوطنية . غير أنه لم يلبث أن خلع عن عرشه ونفى إلى فرنسا ، على زعم أنه تعاون مع المحور .

ولقد كان من المألوف فى أثناء الحرب أن تزعم الدول المحتلة أن كل حركة للمقاومة فى البلاد العربية هى حركة فاشية ، وأن زعماء مثل هذه الحركات إنما هم من الفاشيين . فالواقع أنه بينما تعاون كبار الموظفين الفرنسيين فى تونس وغيرها من بلاد شمال أفريقيا مع المحور ، حافظ المنصف على موقف من الحياد الدقيق . ولم يرتكب ذنبا سوى أنه ناصر شعبه وأمانى شعبه فى الحرية .

ورافق نمو الحركة الوطنية فى تونس ، تنبه وتماسك لدى الطبقة العاملة ، فكان العمال ركن المقاومة ، وكان أول زعيم ومنظم للعمال رجلا من العصاميين يدعى محمد على القابسى ، وقد توفى سنة ١٩٢٧ ولما يزل فى شرخ الشباب . وقد بدأ القابسى حياته

عاملا ، واشترك فى الحرب الليبية ضد إيطاليا سنة ١٩١١ ، ورافق القائد التركى الفريق أنور باشا إلى الآستانة ، ومنها ذهب إلى ألمانيا وتلقى العلم فيها . وبعد أن نال شهادته العليا فى الاقتصاد السياسى عاد إلى تونس سنة ١٩٢٤ ونادى بحقوق العمال .

وعند عودته وجد أن النضال السياسى يستنزف قواه فى التحريض وفى الفورات العاطفية ، دون أن يرافق ذلك توجيه فى الفكر والجهد نحو العمل الإيجابى البناء الثابت . وقد لاحظ بأنه ما دام الترابط الاجتماعى معدوما ، وما دامت الحياة الاقتصادية بدائية وغير منظمة ، فإن حماسة الشباب وإخلاصه المنصبين على الكتابة فى الصحف وتنظيم الاجتماعات ، ليس لهما أثر محسوس ، بل هما كالبخار فى الهواء . ومهمة القيادة لا تكون فى التحريض وإثارة العداء ضد القوة الحاكمة ، بينما يعانى الشعب الوهن والضعف . فذلك لا يؤدى إلا إلى تعريض الشعب للانتقام الذى يصبه الحكام . بل إن واجب الزعماء هو فى تعبئة وتوجيه قوى الأمة كلها ، لمعالجة الشرور الاجتماعية ، ولاستئصال الشقاء والشظف اللذين يغرق فيهما الشعب . وأولى خطوات التحرير هى نقد الذات ، وكل ماسوى ذلك مبنى على الأوهام .

وقد طبق القابسى كل ما بشر به . فبقى على اتصال وثيق بأبناء الشعب ، وشاركهم الحرمان الذى يعيشون فيه . وكان زاهدا بطبيعته ، مكتفيا بأقل الحاجات الضرورية ، وكثيرا ما كان طعامه الخبز والزيتون ، يأكلهما سائرا وهو فى طريقه إلى الاجتماع بالعمال لتنظيمهم . وكان يتحدث مع الناس حيثما وجدهم ، سواء أكان فى مخازن العمل أم فى الحقول ، أم فى المقاهى والساحات العامة ، أم على الحجارة الموضوعة على حافة الطرق . وحيثما اجتمع العمال ، كان بينهم ، منظما ، وموجها ، وملهما . ولكن حتى هذه الاجتماعات العمالية التى كانت تعقد لابتداع الوسائل التى ترفع العامل من شقائه ، وتنقذه من الاستغلال والخوف ـ هذه الاجتماعات

التى كان ينظمها رجل بعيد كل البعد عن التحريض سواء بطبيعته أم بثقافته وغرضه كانت هدفا لنيران الفرنسيين وهجمات شرطتهم التى كانت تفرقها على اعتبار أنها خطر على الأمن العام .

وجاء الموت المبكر فأبعد هذا الرجل الشعبى عند ما كان فى بداية عمله الرامى إلى تنبيه الجماهير التى جعل نفسه واحدا منها . ومع ذلك ، ففى فترة السنوات الثلاث القصيرة التى انقضت بين عودته من برلين ووفاته ، أسس نقابات للعمال التونسيين ، مستقلة عن نقابات العمال الفرنسية التى لم يكن التونسيون فيها يعاملون على أساس المساواة ، وابتدأ برنامجا لإنشاء التعاونيات ، وبذلك أعطى النضال السياسى سندا من تنظيم اجتماعى اقتصادى ، وجعل للحركة الوطنية جذوراً فى حياة الفرد العادى .

ولقد كانت الحركة العمالية جزءا أساسيا وحيويا من نضال الشعب فى سبيل حريته . وتعرضت المنظمات العمالية للأعمال الانتقامية ، كلما اتخذت الإجراءات الزجرية ضد عناصر المقاومة . وفى أثناء الحرب الأخيرة اتسعت الحركة العمالية ؛ إذ أن الفرنسيين أدركوا أن العمال هم أساس المجهود الحربى ، فأعطوهم حرية أوسع . وتأسست نقابات لعمال المناجم والمرافىء والسكك والمرافق العامة الأخرى . ومن الأحداث المهمة فى تاريخ العمال ، بل وفى تاريخ الحركة الوطنية تأسيس الاتحاد العام للعمال التونسيين فى يناير (كانون ثانى) سنة ١٩٤٦ . وفى سنة ١٩٤٩ أسس العمال الزراعيون اتحادا لهم هو اتحاد الفلاحة التونسية ، وهو اتحاد يكافح الخمول والجهل بين الفلاحين التونسيين ، ويعمل على تحريرهم من استغلال المصالح الفرنسية لهم . وهذه المؤسسة ، كاتحاد العمال ، مؤسسة على نطاق وطنى ، ويشبهها فى ذلك اتحاد غرف التجارة التونسية ، وفى سنة ١٩٥١ اشترك اتحاد العمال التونسيين فى الإتحاد العالمى للنقابات الحرة ، واعتبرته هذه المؤسسة المناهضة للشيوعية ممثلها الرسمى فى تونس . واشترك ممثلون عن الاتحاد التونسى فى مؤتمرات العمال الدولية ، ودافعوا بقوة ، من

هذه المنابر الدولية ، عن قضية تونس ، وعن قضية الحرية . ولقد اغتال الإرهابيون الفرنسيون فى أواخر سنة ١٩٥٢ رئيس الاتحاد الشهيد فرحات حشاد ، الذى كان زعيما حراً مستنيرا ومحترما فى الدوائر العمالية الدولية .

وأخذ الزعماء التونسيون ، منذ سنة ١٩٥٠ يحاولون الوصول إلى تفاهم مع فرنسا، بحيث يصبحون مسئولين عن حكم بلادهم ، وذلك مع المحافظة على مصالح فرنسا الاستراتيجية والاقتصادية . وقبلوا الإصلاحات الثانوية التى عرضتها فرنسا فى فبراير (شباط) سنة ١٩٥١ ، باعتبارها بداية فى الإصلاح ، وممهدة للخطوة التالية التى يطالب بها التونسيون ، وهى إنشاء جمعية تونسية تمثيلية تحل محل المجلس الكبير . وهذا المجلس الكبير عبارة عن هيئة استشارية مؤلفة من قسمين : أحدهما فرنسى والآخر تونسى ، وليس له أية سلطة فى الأمور السياسية بل تنحصر صلاحياته فى القضايا الاقتصادية والاجتماعية . وقد رفضت الحكومة الفرنسية أن تذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه فى مقترحات فبراير ، وحتى هذه لم تنفذ إلا بشكل جزئى . وفى خريف سنة ١٩٥١ قدم رئيس الوزراء التونسى ، محمد شنيق ، إلى حكومة باريس اقتراحا لتسوية القضية التونسية ، يشتمل على تأليف وزارة وهيئة تشريعية تونسيتين . فإذا ما تأسست الهيأة التمثيلية ، دخلت تونس فى اتفاقات مع فرنسا لضمانة المصالح الفرنسية الثقافية والاقتصادية والاستراتيجية ، ولضمانة الحقوق المدنية وحقوق التملك التى يتمتع بها المستوطنون الفرنسيون . وكانت هذه أول مرة تناصر فيها الحكومة التونسية قضية البلاد الوطنية ، إذ كان المنادون بهذه القضية ، والمتكلمون باسمها قبل ذلك ، من زعماء الأحزاب الذين لا يتمتعون بأية صفة رسمية .

وكان جواب الحكومة الفرنسية على هذه المقترحات هو تمجيد ما حققته فرنسا فى تونس والإصرار على حق المستوطنين الفرنسيين بالاشتراك فى حياة البلاد السياسية ولم يقبل التونسيون بذلك ، لأن إقرارهم بأن لمواطنى دولة أجنبية حقوقا سياسية

فى بلادهم ، يعنى قبولهم بمبدأ السيادة المشتركة ، و بالتالى دوام السيطرة الفرنسية . وأجاب شنيق بأن ما حققته فرنسا فى تونس لم يكن له سوى غاية واحدة ؛ هى خدمة مصالح وأغراض فرنسا والمستوطنين الفرنسيين . وهذه الغاية لا تبرر فى حال من الأحوال بقاء الشعب التونسى فى حالة الخضوع والتبعية . والمعونة المالية التى تقدمها فرنسا تعتبر دينا على تونس ، بينما لا يستفيد منها سوى الشركات الفرنسية التى تتمتع بما يشبه الاحتكار فى موارد البلاد الطبيعية ، وفى وسائل مواصلاتها ومرافقها العامة . ثم إن الحكومة الفرنسية لم تذكر شيئا عن معونة تونس لفرنسا فى حربين عالميتين ، عندما حارب الجنود التونسيون دفاعا عن فرنسا ، بعد أن احتلها أعداؤها .

واعتقلت الحكومة الفرنسية شنيق وأعضاء حكومته . ومن الجدير أن نلاحظ أن شنيق كان فيما مضى من المتعاونين مع فرنسا ، ولم يكن مشتركا فى الحركة الوطنية.

وحاولت تونس أن تعرض قضيتها أمام منظمة الأمم المتحدة فى خريف سنة ١٩٥١ ، غير أن هذه المنظمة صوتت ضد إدراج القضية التونسية فى جدول أعمالها . وقد أوضحت الولايات المتحدة الأميركية أنها إنما صوتت ضد بحث المشكلة فى منظمة الأمم المتحدة ، لتمنع تعقدها ، ولتعطى فرنسا فرصة لتسويتها بوسائل المفاوضة المباشرة . ولكن الأحوال ساءت لأن فرنسا لم تبد ما يدل على استعدادها للموافقة على أى تغير مهم . وعند ما أثيرت المسألة التونسية أمام منظمة الأمم المتحدة سنة ١٩٥٢ ، قاطع المندوب الفرنسى الجلسات . وفى شتاء ١٩٥٣ نشرت السلطات الفرنسية ، بمعونة المستوطنين ، حكما إرهابيا فى تونس كلها . وقد اعتقل زعماء الحزب الدستورى الجديد وأقيمت حكومة موالية لفرنسا . واستأنف التونسيون مقاومتهم المسلحة ، فاضطرت الحكومة الفرنسية أن تعرض عليهم حكما ذاتيا مستقلا . وبعد مفاوضات طويلة ومتقطعة ، أمضيت فى الثالث من شهر يونيه

(حزيران) سنة ١٩٥٥ اتفاقيـة تعترف باستقلال تونس الداخلى ضمن سلسلة من التحفظات التى أثرت فى كل ناحية من نواحى الحياة العامة .

و بينما اعتبر الزعماء الذين وقعوا هذه الاتفاقية أنها خطوة فى طريق الاستقلال فإن الشعب رفضها منذ البدء . وإثر اشتداد الضغط الشعبى ، وإزاء الخوف من استئناف المقاومة ألغيت اتفاقية يونيه وذلك عندما أقدمت الحـكومة الفرنسية على الاعتراف باستقلال تونس فى ١٧ آذار (مارس) سنة ١٩٥٦ .

وكانت مراكش آخر ماوقع تحت السيطرة الأجنبية من أقطار المغرب . وتختلف مراكش عن الجزائر وتونس وليبيا فى أن هذه الأقطار الثلاثة كانت تدين بولاء ولو اسمى للسلطان العثمانى ، أما مراكش فـكانت حتى سنة ١٩١٢ دولة مستقلة تمـارس جميع وظائف السيادة ، بمـا فى ذلك حق عقد المعاهدات وتبادل التمثيل الديبلوماسى .

وأعلنت مراكش محمية فرنسية سنة ١٩١٢ ، غير أن المراكشيين ، وهم من سكان الجبال الأشداء ، كانوا متعلقين باستقلالهم ، ولذا فان إخضاعهم كان من أعسر الأمور . ولم يكتمل فتح فرنسا لمراكش ، وفرضها الأمن فى ربوعها ، إلا سـنة ١٩٣٤ . وقد أظهرت ثورة الريف سنة ١٩٢٥ ، وهى أبرز الثورات المراكشية ، مدى حب الشعب المراكشى للحرية ، ومدى شجاعته التى لاتقهر ، واستعداده لخوض الحرب حتى فى ظروف غير مؤاتية ، بل مضادة بشكل ساحق [١] . فحارب الريفيون ضد الاسبانيين والفرنسيين فى وقت واحد ، وأوقعوا بهم هزائم مهمة . و بعثت انتصاراتهم نشوة من الأمل والفرح فى شمال أفريقيا ، كما سببت للفرنسيين كثيرا من القلق . ولقد بلغ من أمر تخوف الحـكومة الفرنسية من هذه الثورة . أنها أرسلت قوات عظيمة بقيادة المارشال بيتان لمحاربة الريفيين .

---

(١) Vincent Sheean : An American Among the Riffi ; and Personal History.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ولقد كان كبت المؤسسات الوطنية فى مراكش أقل مما بلغه فى الجزائر وتونس ، ومرجع ذلك إلى أمرين : أولهما أن أول ممثل لفرنسا فى مراكش وهو المارشال ليوتى كان إداريا حكيما يفوق الإداريين الذين تعودت وزارة المستعمرات الفرنسية إرسالهم ، وثانيهما أن الحكم الفرنسى فى مراكش لم يفرض إلا منذ عهد قريب ، فلم يمض بين فرض الحماية ونشوء الوعى القومى سوى فترة قصيرة من الزمن ، ولم تكد فرنسا تسيطر على البلاد حتى بدأ نشوء الأحزاب المطالبة بالإصلاح الداخلى و باستعادة استقلال البلاد .

وأبقى الفرنسيون الحكومة الوطنية ـ أو المخزن ـ التى يرأسها السلطان ، على حالها ، لكنهم جردوها من السلطات الفعلية ، وأقاموا إلى جانب المخزن إدارة فرنسية تقوم بجميع وظائف الحكومة الهامة ومسئولياتها .

ويفاخر الفرنسيون بما حققوه فى مراكش ، ويعتبرون المارشال ليوتى ، المقيم العام من سنة ١٩١٢ إلى ١٩٢٥ مؤسس الوحدة المراكشية ، ويقولون بأن مراكش كانت فى مطلع القرن العشرين عبارة عن مجموعة من الإقطاعات المتنافسة يحكمها زعماء مستقلون ، وأن ليوتى عمل على إخضاع هؤلاء الزعماء وتوحيد مقاطعاتهم باسم السلطان . ففرضت سيطرة الحكومة على الرؤساء المحليين والمقاطعات النائية ، كما أن الطرق التى بنيت ، أحكمت الربط بين أطراف البلاد ـ بعيدها وقريبها . وقد نمّيت الموارد الاقتصادية بوساطة رءوس الأموال الفرنسية واليهود الفرنسيين ، وكانت خطة ليوتى ترمى إلى تحديد استيطان الفرنسيين فى المناطق الزراعية ، بحيث لا يزيد هؤلاء المستوطنون عن كونهم نموذجا يقتفيه المراكشيون ويتعلمون منه .

غير أن خلفاء ليوتى أنشأوا حكما مباشرا ، وشجعوا هجرة الفرنسيين على نطاق واسع ، وامتلاكهم للأراضى الزراعية ، وسخروا جهاز الدولة كله لمصلحة المستعمرين .

ولقد فعل المستوطنون فى مراكش ما فعلوه فى الجزائر وتونس ، فاستقروا على أحسن الأراضى وساعدهم صندوق الاستيطان الذى خصص له قسم مهم من ميزانية الدولة ، على شراء الأرض واستثمارها ، بينما حجبت منافع هـذا الصندوق عن المالكين والمزارعين الوطنيين . والأراضى التى يمتلكها المستوطنون لا تتناسب أبدا مع قلة عددهم . إذ أن ٣٠٠,٠٠٠ من المستوطنين الأوروبيين الذين يعيشون مع ثمانية ملايين من المراكشيين ، يملكون ٣٠ فى المئة من الأراضى المزروعة . وقد أجبر المزارعون الوطنيون فى بعض المناطق على بيع أراضيهم إلى المستعمرين . وبما أن ملكيات هؤلاء المزارعين الوطنيين كانت تتكون من قطع صغيرة من الأرض، فإن أعدادا كبيرة من الفلاحين تضررت من هذه البيوعات الإجبارية [1] . هذا بينما يمنع القانون بيع المستوطنين الأرض إلى الوطنيين .

أما ثروة البلاد المعدنية ـ المكونة من الفحم والنفط والفوسفات ـ فهى بأيدى الأوروبيين الذين يمتلكون إلى جانبها سكك الحديد والخطوط الجوية والسفن البحرية . وتستنزف الميزانية نفقات الإدارة البيروقراطية المحشوة بالأعداد الكبيرة من الموظفين ، ونفقات الأمن المخصصة للسيطرة على شعب متذمر مضطرب . وحتى المبالغ الصغيرة المخصصة للصحة العامة والتعليم ، فإنها تذهب فى الغالب إلى المؤسسات التى تخدم السكان الأوربيين . ولا ينال أبناء البلاد منها سوى الفتات .

وهنالك جانب من الحكم الفرنسى فى مراكش ينال من سخط المراكشيين أكثر مما يناله غيره وذلك هو « سياسة البربر » التى ترمى إلى تأكيد الفروق وخلق الانقسام بين العرب والبربر ، ليتسنى تفريق السكان بشكل دائم وليسهل حكمهم . أما مدى العداء القوى لهذه السياسة فيمكن التثبت منه حين نتذكر أن مرسوم « الظهير البربرى » الذى نشر سنة ١٩٣٠ ، كان إيذانا بابتداء الحركة

---

(١) Survey of International Affairs ; 1937, p. 493 and note 4.

الوطنية . فهذا المرسوم أقر قانون العرف البربرى ، وفضله على الشريعة الإسلامية . وكانت الفكرة من ورائه هى أنه إذا أمكن إلغاء قانون الأحوال الشخصية الإسلامى أمكن التقريب بين قانون البربر والقانون الفرنسى ، وسهل اجتذاب البربر إلى التجنس بالجنسية الفرنسية . وباختصار كان القانون يرمى إلى إبعاد البربر عن الإسلام . ولقد أغضب الظهير البربرى جميع المراكشيين ، وأوجد اضطرابا عنيفا ، وأثار الرأى العام فى العالم الاسلامى كله [١] .

وبدأت الأحزاب السياسية تتكون فى مطلع عقد ١٩٣٠ ، وعاشت منذ ذلك الحين فى اضطراب كلى . فهى لا تكاد تظهر حتى تكبت وتضطهد ، ويعتقل زعماؤها ليسجنوا أو لينفوا إلى الصحراء . وقبل الحرب الأخيرة كانت الحركة الوطنية ترمى إلى الحصول على الإصلاح الداخلى . ولكن التطورات التى حصلت أثناء الحرب جعلت الاستقلال هدفها الأوحد . وحزب الاستقلال الذى يتزعمه علال الفاسى هو أكبر الأحزاب . ففى يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٤٢ ، أذاع الحزب بيان الاستقلال الذى طالب فيه بإنهاء الحماية لأن فرنسا خرقت شروطها وحولتها إلى حكم مباشر وإلى استغلال اقتصادى ، فضلا عما حصل من تطورات جذرية فى العالم منذ سنة ١٩١٢ . وقد أشار البيان إلى تدهور مركز فرنسا بعد أن أصبحت دولة مهزومة ومحتلة ، وإلى المساعدة الهامة التى قدمتها مراكش ، سواء بالرجال أو بالموارد ، إلى قضية الحرية ، وذلك باشتراكها إلى جانب الحلفاء فى حربين عالميتين ، وهذا يعطى المراكشيين الحق بالاشتراك مع الأمم الموقعة على ميثاق الأطلسى على أساس من اعتبارها بلدا مستقلا . وشدد البيان على الإصلاح الداخلى المبنى على المؤسسات التمثيلية ، وعلى اعتبار ذلك ركنا للاستقلال . أما مهمة إنشاء

---

(١) Robert Montagne : "Morocco Between East and West" Foreign Affairs, Jan. 1948, pp. 360–372.

الحكم الديموقراطى فعائدة إلى السلطان ، سيدى محمد بن يوسف . وذكر البيان أنه سيحافظ على المصالح المشروعة للأجانب القاطنين فى مراكش .

وقد أجابت السلطات الفرنسية على هذا البيان باعتقال الزعماء . وعند ماقامت المظاهرات فى الرباط وفاس والدار البيضاء ، حصدت دبابات الفرنسيين ومدافعهم جموع المتظاهرين .

ومما يبعث على الأمل القوى فى الحركة الوطنية أن لزعمائها اهتماما إنشائيا بالتعليم . فإن ضآلة الأموال التى تخصصها الدولة للتعليم جعلت مهمة إنشاء المدارس وتمويلها من مهمات الأفراد والمنظمات الخاصة . ولقد أنشأت مختلف الأحزاب السياسيه المدارس . كما أن الأثرياء من الرجال والنساء قدموا الأموال لهذا الغرض ، وأقاموا المدارس . ويقوم المتطوعون ببعض أعباء التعليم فى هذه المدارس ، وهؤلاء المتطوعون هم من الرجال الذين لهم أعمال تشغلهم ، ولكنهم متشوقون لأداء واجبهم فى تعليم أبناء شعبهم . ومن الزعماء السياسيين البارزين من اشتغل فى التعليم . فكان علال الفاسى يعطى دروسا ليلية فى مسجد القرويين ، وكانت محاضراته تجتذب جماهير كبيرة من المستمعين . والأمين العام لحزب الاستقلال السيد أحمد بلفريج ، كان مديرا لمدرسة عصرية يمتلكها فى الرباط ، وهذه المدرسة من أقدم المدارس الوطنية وأقواها أثرا .

وقد أسست الجماعات الوطنية نوعين من المدارس ـ فهناك أولا المدارس المنبثقة عن الكتاب ـ أو المدرسة القرآنية ـ التى تطورت إلى مدرسة ابتدائية ، والمنهج الذى يعلم فى هذه المدارس منهج عربى يعد الطلاب إلى قسم الدراسة الثانوية التابع لمسجد القرويين فى فاس ، وهو مؤسسة شبيهة بالمسجد الأزهر . وأما النوع الثانى فيتألف من مدارس ابتدائية عصرية تعد الطلاب للمدارس الثانوية التى تديرها الحكومة . وقد أسست عدة مدارس للبنات . ويعود الفضل فى تأسيس إحدى

هذه المدارس ، وهى مدرسة نموذجية أنشئت فى الدار البيضاء ، إلى شقيقات ثلاث ، هن بنات لأحد أثرياء التجار ؛ إذ قدمن هبة مقدارها خمسون مليون فرنك . وشجعت الأميرة عائشة ابنة السلطان تعليم البنات .

نال التعليم من السلطان مساعدة أدبية ومعنوية ، إذ أن السلطان شمل التعليم برعايته ، وقدم له الكثير من ماله الخاص ، وسمح باستعمال أملاك الوقف وأمواله فى سبيل بناء المدارس و إدارتها ، وحضوره حفلات تدشين المدارس أو افتتاحها يضفى على هذه الحفلات أهمية خاصة .

ولم ينظر الفرنسيون بعين العطف إلى هذا التقدم فى حقل التعليم ، بل وضعوا فى وجهه العراقيل . فمن الأمثلة على هذه العراقيل فرضهم الضرائب على أبنية المدارس ، ومنها صعوبة الحصول على الإجازات لفتح المدارس .

ومنذ نهاية الحرب أصبح السلطان محور الحركة الوطنية . فقد أكد استقلاله فى أثناء الحرب ، عند ما رفض الاشتراك مع الجنرال نوجيس Nognes ، المقيم العام الفرنسى ، فى مقاومة جيوش الحلفاء أثناء نزولها إلى مراكش فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٢ . وعند ما أمر نوجيس قوات فيشى أن تحارب الحلفاء ، أفهمه السلطان أنه إذا أراد منع الحلفاء من النزول ، فما عليه إلا أن يحاربهم فى البحر . والتقى السلطان بالرئيس روزفلت فى أثناء مؤتمر الدار البيضاء فى شهر يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٤٣ ، وقد أظهر الرئيس الأميركى اهتماما باستقلال مراكش و بتنمية مواردها . ويقال بأن روزفلت وصف الحكم الفرنسى بأنه أسوأ حكم يمكن أن ينكب به شعب . وقد برزت أهمية السلطان بعد زيارته لطنجة فى ربيع سنة ١٩٤٧ . فهذه الزيارة التى شملت المنطقة الاسبانية من مراكش ، كما شملت مدينة طنجة الدولية ، قصد منها تأكيد وحدة مراكش وقوميتها ، وقد قوبل السلطان فى قسمى بلاده بالحماسة ، واعتبر رمزا للنضال من أجل الاستقلال والوحدة . وألقى فى جامع طنجة الكبير

خطابا قويا ، نشرته الصحف فى العالم كله ، وطالب فيه بالاستقلال ، وقد أكد السلطان فى خطابه هـذا عروبة مراكش ، كما أكد الروابط التى تربطها بالمشرق العربى ، ودعا إلى توثيق هذه الروابط وذلك من الناحية السياسية ، بأن تدخل مراكش فى جامعة الدول العربية ، ومن الناحية الثقافية ، بأن تنشأ فيها مؤسسات تعليمية على غرار المعاهد العليا بالمشرق العربى . وأخيرا أعلن السلطان حق الشعب فى قيام حكومة تمثيلية له ، وأعلن رغبته بإنشاء المؤسسات الديموقراطية . وألقى ابن السلطان وابنته خطابات عامة ، أكدا فيها أيضا وحدة مراكش وشددا على وحدة ثقافتها ومصالحها وأمانيها مع المشرق العربى . وفى هذه الرحلة الشهيرة ، وضع السلطان الحجر الأساسى لمدرسة جمعت أموالهـا من الهدايا التى كانت فيما مضى تحمل إلى أشخاص من ذرية أحد الأولياء المحليين . وكان فى تفضيل البسطاء من أبناء الشعب للعلم ، بدلا من التقرب إلى الأولياء، مظهرا لهذا الاتجاه الجديد فى الحركة الوطنية .

واستدعت الحكومة الفرنسية المقيم العام الذى أعطى السلطان هـذه الفرصة ليصبح بطلا قوميا وليلقى الخطابات العامة عن حرية مراكش وعن الوحدة العربية . وعينت فى مكانه الجنرال جوان ، وهو عسكرى نشأ على التقليد الاستعمارى ، وقد ولد فى الجزائر وقضى فيها معظم حياته . وقد أدت سياسة جوان فى البطش والقسوة إلى نقمة الشعب المراكشى ، وزادت فى توتر العلاقات مع فرنسا . وانتقد الرأى العام الحر فى فرنسا تعيين جوان واعتبر أن مؤسسات الأعمال الكبيرة ـ من بنوك وشركات تجارية ، وشركات زراعية عاملة فى مراكش ـ هى التى فرضت تعيينه على الحكومة .

ونشأت أزمة بعد زيارة السلطان الرسمية لباريس فى خريف سنة ١٩٥٠ ، وكان قد دعى إليها لبحث العلاقات الفرنسية المراكشية مع الحكومة الفرنسية . وتصادمت آراء الطرفين فى هذه المباحثات ، فعرض الفرنسيون إصلاحات ثانوية ، بينما أوضح

السلطان أن العلاقات المبنية على أساس الحماية ، والنظام المنبثق عن هذه الحماية ، لم تعد مقبولة . وحث على إنشاء نوع جديد من العلاقة على ضوء الاتجاهات العالمية ، وعلى أساس رغبات الشعب المراكشى وأمانيه .

وأعلن السلطان لدى عودته ، فشل مباحثاته فى باريس وأذاع الآراء التى تقدم بها إلى الحكومة الفرنسية . وقد اشتملت هذه الآراء على ضرورة إعادة النظر فى وضع مراكش من حيث علاقتها مع فرنسا وكذلك فى قيام المؤسسات التمثيلية . وأظهر اهتماما بالعمال ، كما أعرب عن تصميمه على احترام حق العمال فى أن ينتظموا فى نقابات . وصدرت الصيحة ضد الحكم الفرنسى من جهة أخرى . ففى مجلس الدولة وهو هيأة مكونة من أعضاء معينين ومنتخبين لتقديم المشورة إلى الحكومة فى الشئون الاقتصادية ، قامت حملة بزعامة الأعضاء الوطنيين ، ضد سياسة الحكومة الاقتصادية ، التى أدت إلى استغلال البلاد و إفقار سكانها . وكانت هذه الحملة معززة بالوثائق والأرقام المأخوذة من النشرات الرسمية . وقد غضب جوان بسببها وطرد العضوين اللذين شددا الهجوم فى المجلس . فما كان من المؤيدين لهما إلا أن انسحبوا احتجاجا على ذلك .

وارتفع عداء الفرنسيين للسلطان بنسبة ارتفاع مكانته بين شعبه . وكان الفرنسيون فيما مضى يزعمون أن الحركة الوطنية إن هى إلا صنع محرضين تعوزهم المسئولية ، وأن هذه الحركة لا تلقى من الشعب تأييدا يذكر ، وأن السلطان هو السلطة العليا للدولة وهو الزعيم الأوحد الذى يمثل الشعب . أما عندما تبلورت الحركة الوطنية حول السلطان ، فقد أصبح فى نظر الفرنسيين حاكما مستبدا ، يجب إدخال الديموقراطية إلى نظام حكمه . وأما الديموقراطية التى أرادها جوان للمراكشيين فتتكون من نقل ماتبقى من سلطات السلطان إلى وزرائه . وبما أنه ليس فى البلاد جمعية تمثيلية ، وليس فيها أى شكل من أشكال الرقابة العامة على الحكومة ، يصعب علينا أن نرى كيف يمكن لمثل هذا الإجراء أن يقرب الشعب من

الحكم الديموقراطى . بل كان القصد الأوحد منه إبعاد السلطان و إعادة التوازن المختل بارتفاع مكانته ، وذلك بوضع السلطات المتبقية له فى أيدى موظفين تسهل قيادتهم .

وفى شهر فبراير (شباط) سنة ١٩٥١ ، تأزمت الأمور بين السلطان والمقيم العام عندما طالب الأخير السلطان بأن يعزل وزارته و يشذب حزب الاستقلال . وقدم هذا الطلب بشكل إنذار نهائى صحبه تحرك خيالة البربر ، أتباع الجلاوى ، وهو رئيس إقطاعى كان دائما يناصر الحكم الفرنسى ، وكان دائما من محاسيب هذا الحكم . وعسكرت هذه القوات فى مداخل المدن الرئيسية . وانتشرت فى الوقت نفسه الشائعات القائلة بهبوط رجال القبائل على المدن .

إزاء هذه الظروف ، وقف السلطان الموقف الذى من شأنه أن يخفف التوتر و ينقذ البلاد من الحرب الأهلية . فحل وزارته وشذب طرق المتطرفين .

وقد أظهرت الصحافة العربية اهتماما كبيرا بالأحداث المراكشية وهاجمت التصرفات الفرنسية بعنف . وقد أعلن السلطان فى مقابلة جرت بينه و بين صحافى معروف ، بتصريح خطى وممضى ، أنه تعرض للتهديد ، وأنه عندما رأى تجمع القبائل التى لم تكن تعرف لماذا تجمعت ، اضطر لقبول الطلبات الفرنسية لتجنب الأخطار الكامنة فى مثل هذا الوضع . وقد اعترف المقيم الفرنسى العام جوان فى مقابلة مع نفس المراسل بأنه طلب من السلطان أن يشذب حزب الاستقلال ، وأنه عندما رفض السلطان ذلك ألح على صدور بيان من جانب المخزن بشذب الأسلوب الذى يتبعه « حزب معين » ، دون ذكر ذلك الحزب. وأضاف جوان إلى ذلك أنه طلب من السلطان إمضاء بعض المراسيم وحذره بإمكان خلعه إذا رفض [1] .

وفى سنة ١٩٥٢ حاول سلطان مراكش مجددا أن يصل إلى اتفاقية مع فرنسا ، ولكنه اصطدم بالجمود الفرنسى التقليدى . وكان لأعمال العنف الفرنسية فى تونس

(١) الأهرام ـ القاهرة ـ ٢٧ مارس (آذار) سنة ١٩٥١.

ما يماثلها فى مراكش . فعندما ثارت الجموع فى الدار البيضاء لخبر استشهاد الزعيم التونسى فرحات حشاد فى شهر ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، تعرض المئات منهم للموت وحلت الأحزاب السياسية وزج بالآلاف فى السجن و بينهم عدد من النساء .

وفى الوقت ذاته مهدت السلطات الفرنسية الطريق لخلع السلطان بناء على ضغط من المعمّرين الفرنسيين .

وأعيدت المسرحية التى مثلت سنة ١٩٥١ ، وأسند دور البطولة فيها مجددا إلى الجلاوى . ودعيت القبائل الموالية للجلاوى إلى اجتماعات صورتها الصحافة الافرنسية وكأنها اجتماعات شعبية عفوية ضد السلطان . ولم يكن رجال القبائل طيلة الوقت يعلمون السبب الذى دعوا من أجله .

وفى ٢٠ أغسطس (آب) سنة ١٩٥٣ ، نفذ الفرنسيون ما كانوا يمهدون له منذ سنة ١٩٥٠ ، فخير السلطان بين التنازل عن العرش أو النفى ، وعندما رفض التنازل ، نقل هو وعائلته من قصره بقوة الحراب . ورفع إلى العرش محمد بن عرفة وهو عجوز عديم الشخصية ، وقد دعاه المراكشيون « سلطان الفرنسيين » .

ووقع بن عرفة على المراسيم التى قدمها إليه المقيم العام من غير أن يقرأها . وأنشىء مجلس من الوزراء والمدراء نقلت إليه سلطات السلطان .

وقد تبع نفى السلطان محمد بن يوسف إلى كورسيكا ـ التى نقل منها بعد ذلك إلى مدغشقر ـ تبع ذلك اعتقال كل من اشتبه بالعطف على القضية الوطنية . واتجه الشعب إلى العنف بعد إبعاد زعمائه ، إذ لم يبق أمامه من وسيلة سوى العنف . وهذه أول مرة سلكت فيها الحركة المراكشية الوطنية هذا الطريق . وقامت ثورة عفوية بين الجماهير ضد القوى التى أذلت البلاد فى شخص سلطانها . و بدلا من أن يؤدى الكبت الفرنسى إلى تهدئة الحركة ، أشعلها وزاد فى شدتها . وما من عائلة إلا وكان بين أفرادها سجين أو منفى أو شهيد . وقد وجد مبعوث للتحقيق أرسله

رئيس الحكومة الفرنسية ، منديس فرانس ، أطفالا فى الثامنة من عمرهم مُلْقَوْن فى غياهب السجون .

وأخذ المستوطنون الفرنسيون القانون بأيديهم ، فى ظل حماية البوليس الفرنسى الذى اشترك معهم فى الأعمال الإرهابيـة ، وساروا فى الشوارع وهم يطلقون النيران من رشاشاتهم فى وضح النهار . وعند ما قتلوا أحد مواطنيهم الفرنسيين ـ وهو بطل من أبطال الحرب العالمية الثانية يدعى جاك ليميجر دو بروى ـ لأنه نادى فى جريدته « ماروك برس » Meroc Presse بتفاهم فرنسا ومراكش ، أدرك الرأى العام الفرنسى باستفظاع مدى الجرائم التى كانت السلطات الفرنسية بالتعاون مع المستعمرين ، مسئولة عنها .

وعين مقيم عام جديد هو جلبرت غراندفال فى صيف سنة ١٩٥٥ بقصد القيام بمحاولة جديدة لمواجهة الأزمة المراكشية على أسس غير استعمال القوة المجردة .

ونادى غراندفال بإنهاء الإدارة الفرنسية المباشرة و إنشاء حكومة من ضمن معاهدة سنة ١٩١٢ . وحث على تطبيق برنامج للإصلاح الجوهرى فوراً ، وحاول أن ينبه الحكومة الفرنسية إلى خطورة الموقف . وقد لخص الموقف تلخيصا حاداً فى جملة واحدة « الوقت من دم » .

وقد قام المستعمرون الفرنسيون وأصحاب المصالح المالية ، وهم أعداء كل إصلاح، بمهاجمة غراندفال ، واستطاعوا بما لهم من نفوذ على الحكومة والبرلمان الفرنسيين أن يؤمنوا سحبه من منصبه .

غير أنه لم يكن فى مقدورهم وقف مجرى الأحداث . فاشتدت المقاومة واتسعت إلى مناطق جديدة . وعنـد ما ثار البربر القاطنون فى جبال الأطلس الوسطى أدرك الفرنسيون أنهم خسروا المعركة . ذلك أن الفرنسيين طبقوا سياسة التفرقة بين العرب والبربر وحاولوا إشاعة الوهم أن مراكش منقسمة بين عنصرين متعاديين هما العرب والبربر وأن البربر كانوا موالين لفرنسا . وقد جاء القصاص يوم ٢٠ أغسطس (آب)

سنة ١٩٥٥ وهو يوم الذكرى الثانية لنفى السلطان ، عندما ثار البربر وقتلوا المستعمرين الفرنسيين فى وادزم . وبذلك تبخرت خرافة انقسام مراكش .

ثم جاء تحول الجلاوى الفجائى إلى جانب السلطان وارتماؤه على قدميه ، بعد أن كان الأداة الأولى فى خلعه . وكان السبب فى تحول الجلاوى هو أمله بأن تكون توبته سببا فى استبقاء سيادة عائلته على القبائل التى التفت حول السلطان الشرعى وحول القضية التى يمثلها هذا السلطان .

وبذلك لم يبق لفرنسا أى سند فى مراكش ، مهما كان ضئيلا ، فانحنت أمام إرادة الشعوب وأعادت السلطان إلى عرشه .

وفى ٢ مارس (آذار) سنة ١٩٥٦ أنهيت معاهدة سنة ١٩١٢ التى جعلت من مراكش محمية فرنسية ، بالاتفاق بين الحكومتين المراكشية والفرنسية . واعترفت فرنسا باستقلال مراكش من ضمن الاعتماد المتبادل . وفى ٧ أبريل (نيسان) وقعت اتفاقية لتصفية الحماية الاسبانية فى مراكش .

ومن الجدير بالذكر أنه عند ما عرضت قضية مراكش على الأمم المتحدة فى اكتوبر سنة ١٩٥٣ ، تقدمت الدول الآسيوية والأفريقية بمشروع قرار يدعو الجمعية العمومية للأمم المتحدة إلى التوصية باستقلال مراكش خلال خمس سنوات . غير أن اللجنة السياسية رفضت اقتراح الاستقلال هذا . وقد حققت مراكش فى نصف هذه المدة استقلالها بمجهودها وجهادها .

لقد اتبعت فرنسا فى حكمها الطويل لأفريقيا الشمالية نمطا عاما واحداً وإن اختلفت تفاصيله المحلية ، هو محاولة القضاء على الشخصية العربية فى المغرب ، كوسيلة لفرنسة السكان ودوام الحكم الفرنسى فى تلك المنطقة . غير أن القضاء على هذه الشخصية وتمثلها لم يكن ممكنا ، ذلك أن شعوب المغرب ورثة حضارة قديمة حية — هى الحضارة العربية الإسلامية التى تشترك بها مع مئات الملايين من سكان العالم — وهى حضارة قيمها الأساسية دائمة وشاملة ، وخلاقة ومبدعة فى هذا اليوم كما كانت

فى الزمن الماضى . و إن نضال هـذه الشعوب الطويل للحفاظ على شخصيتها ، ذلك النضال الذى كلف غاليا من الدماء والجهود ، قد أرغم فرنسا على أن تتخلى عن محاولتها بالنسبة إلى تونس ومراكش ، و بقيت الجزائر .

غير أن الحرية فى الجزائر أصبحت فى متناول اليد . فإن قتـال الجزائريين المصمم ينال تأييـدا نشيطا من جانب المراكشيين والتونسيين الذين يشعرون بأن حريتهم الناشئة ستبقى فى خطر ما لم تتحرر الجزائر أيضا . ولا يقتصر التأييـد على عرب المغرب بل يؤيد الجزائر العرب جميعا فى كل ديارهم ويقـدمون العون المادى والمعنوى لنضالهم من أجل الحرية . وقد نالت قضية الحرية فى المغرب تأييد شعوب آسيا وأفريقيا فى مؤتمر باندونج التاريخى الذى عقـد فى شهر أبريل (نيسان) سنة ١٩٥٥ ، كما تنال تأييد العناصر الحرة بين جميع شعوب الأرض .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل الخامس عشر

المرأة العربية

إن التغيرات التى تمر بهـا البلاد العربية تنعكس فى وضع المرأة ، التى سار تحررها شوطا بعيدا ومتناسبا مع التحرر القومى و إعادة التنظيم الاجتماعى .

و يربط الغربيون عادة بين الحجاب والانزواء و بين المرأة العربية والمسلمـة . وقلما يدركون أنه كان هنالك إلى جانب هذه الأشياء تقليد طويل وأكيد من الحرية .

و يعود هـذا التقليد إلى الصحراء العربية قبل ظهور الإسلام . ففى الصحراء كانت المرأة تشترك اشتراكا تاما مع الرجل فى جميع أمور المجتمع . ولم تكن هنالك من وظائف مخصصة لها بحيث لا تستطيع أن تتعداها ، ولا كانت هنالك من أعمال تمنع من القيام بها . وقد اشتركت فى متاعب حيـاة الصحراء إلى جانب الرجل ، فنمت فيها ، مثل ما نمت فيـه ، الصفات المساعدة على البقاء فى تلك البيئة الصعبة القاسية . ولئن حرمت من الحياة السهلة التى تستمتع بها النساء فى البلاد الخصبة ، والمجتمعات المزدهرة ، فلقد وفر عليهـا أيضا ما يرافق مثل هذه الحياة من نقائص . فلم يكن فى بيئتها مكان للكسالى أو الخاملين ، ولذا فإن المجتمع لم يعتبر المرأة زينة أو موضوع لهو وترف . فلقد حملت إلى جانب شظف العيش جائزة الحرية والكرامة الفردية والقيمة العالية ، وما تعطيه هذه كلها من الرضا .

ونشأت فى حياة الصحراء المكشوفة زمالة بين الرجل والمرأة لا مثيل لهـا فى الحيـاة المكتظة المتراصة فى المدن . فاحترم الرجل المرأة ودافع عنها ، حتى عند ما لم تكن من أقربائه . وما الفروسية إلا وليدة الصحراء . فالرجل يذهب إلى الحرب ، وهو يردد اسم امرأة ، ويحاول أن ينال رضاها بالشجاعة والأعمال النبيلة . وكانت

هى تترأس مسابقاته وأسواقه الشعرية ، حيث تنال أحكامها الطاعة والقبول .

وكان الشعر كما رأينا يعكس بأمانة حياة الصحراء . وكان الشكل الرئيسى للتعبير الفنى ، فمثل حكمة المجتمع وروحه الشعبيـة . وكثر عدد الشاعرات ، ونال بعضهن شهرة واسعة ومكانة عاليـة ، واشتركن فى المساجلات التى كانت تقوم فى الأسواق السنوية . ونلن مثل الشعراء جوائز المهرجان ، وإعجاب الجماهير المحبة للشعر .

وكانت هنالك أعداد كبيرة من النساء يسعى الرجال إليهن طلبـا للنصح والمشورة ، ويعملون بما يشرن . ومن هؤلاء الـكاهنات اللواتى كن يقمن بوظائف دينية فنلن شهرة واسعة بالمعرفة وبعد النظر .

وكثيرا ما اشتركت النساء فى الحروب ، وقاتلن فيهـا . غير أنهن كن دائمـا يحضرن المعارك ليثرن الحماسى ويضمدن الجروح . وكن يحمين الأعداء الذين يلتجئون إليهن طلبا للحماية . وقد بلغ من فروسية الصحراء أن القبيلة كلها اصطلحت على تقديم الحماية إلى العدو الذى يلتجئ إلى خيمة امرأة .

ولم يكن حكم الملـكات أمرا غير مألوف لدى العرب قبل الإسلام ؛ فلقد تحدثت الأساطير عن ملـكة سبأ وعظمة ملـكها ، وعن حكمتها التى جعلتها تقوم برحلة طويلة للاجتماع بسليمان الملك الحـكيم . وأعظم منها زنوبيا ملـكة تدمر ، مدينة القوافل فى الصحراء السورية . فلقد تركت زنوبيا أثرا قويا على معاصريهـا وقد خلعت الأجيال التالية على اسمها هالة من الأساطير . فإن زنوبيا كانت تتزين بالصفات التى تبعث على الإعجاب والبهجة ؛ فهى ذات جمال أخاذ ولها عينان واسعتان سوداوان وأسنان كاللآلئ . وكانت تتزين بالعقل الجميل أيضا . وتتـكلم عدة لغات ، وقد درست التاريخ والفلسفة وكتبت مؤلفا مختصرا عن تاريخ الشرق ومصر . وجمعت إلى جانب معرفة العلماء ، صفات القادة العظام . فتقدمت جيوشها فى المعركة وسارت الأميال الطويلة على قدميها بجانب الجنود المشاة . وبنت هذه الملـكة المدهشة مملـكة فى الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية امتدت من مصر إلى آسيا الصغرى ،

وتحدت لمدة من الزمن قوة روما ذاتها ، وهزمت حملات متعاقبة جردها الرومان ضدها ، حتى استطاع أوريليان آخر الأمر أن يقهرها . وقضت زنوبيا آخر أيامها فى الأسر فى روما ، حيث عوملت معاملة كريمة ولائقة (١) .

ومجىء الإسلام وانساع الحضارة العربية إلى نطاق الحضارات العالمية الشاملة ، زادت ثروة التراث النسائى ، واتسعت آفاق المرأة فى كل اتجاه .

وقد اشتركت المرأة منذ بداية الإسلام فى الإيمان بالدين الجديد والدعوة إليه . فكانت خديجة ، زوجة النبى العربى أول داخل فى الإسلام . وخديجة ذات عقل وثروة ومحتد نبيل عرضت على النبى أن يتزوجها يوم كان لا يزال شابا مغمورا . وكانت حكمتها عونا دائما له ، ووفرت عليه ثروتها عناء الكدح من أجل العيش ، فانصرف إلى الصلاة والتأمل ، تمهيدا للرسالة التى كتبت له الدعوة إليها . ولقد أعطاه وفاؤها القوة والشجاعة لمواجهة الأزمة الروحية المقتربة وللتغلب عليها . فعندما كان الشك يساوره فيما إذا كان الله قد اختاره فعلا لهذه الرسالة ، وعندما كانت نفسه وعقله ينوءان بآلام القلق والشك ، كان يجد فى وفاء خديجة ملجأ يرتاح إليه . وأحاطته هى بالحنو والعطف ، فكانت بلسما لجراحه . وعندما عاد إليه اليقين خرج داعيا لرسالة ربه . ويقول ابن هشام فى السيرة النبوية : « وآمنت به خديجة بنت خويلد ، وصدقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم : لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها : تثبته ، وتخفف عليه ، وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس ، رحمها الله تعالى (٢) » .

ولقد بذل النساء فى سبيل الإسلام كل معونة وكل جهد ، فقدمن من مالهن

---

(١) Macurdy : Vassal-Queens pp. 111—121.

(٢) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، لأبى محمد عبد الملك بن هشام ، حققها محمد محيى الدين عبد الحميد ، الجزء الأول ، ص ٢٥٩ .

ودافعن عن الإيمان بحياتهن عندما تعرض أتباع الإسلام للاضطهاد والعذاب . وكما كان أول داخل إلى الإسلام من النساء كذلك كان أول شهيد من الإسلام من النساء . واحتمل النساء فى رضا وفى سرور شقاء النفى والهجرة فى سبيل الإسلام ، وكثيرا ما كن الواسطة التى جعلت الرجال يرون النور ويدخلون فى الإيمان . وهكذا فإن عمر الخليفة الثانى والمؤسس الثانى للإسلام دخل فى الإيمان عن طريق أخته فاطمة .

وقد اعتبر الإسلام المرأة كائنا مستقلا لا مجرد تبع للرجل . وأعطتها الشريعة الإسلامية شخصية قانونية كاملة وأمنت لها الاستقلال العادى . فكان لها مطلق الحق فيما تملك وكان فى وسعها أن تتصرف فى ملكها كيف تشاء دون وساطة وصى من الرجال . بل كانت هى نفسها تعين وصية على القاصرين .

وكان للمرأة الحق فى أن تختار دينها . فالزوج غير المسلم لا يستطيع أن يمنع زوجته من اعتناق الإسلام والدخول فى صفوف المؤمنين إذا اختارت ذلك . كما أن الزوج المسلم لا يستطيع أن يفرض على زوجته الإسلام إذا اختارت البقاء على دينها .

ويتحدث القرآن الكريم عن علاقة الرجل بالمرأة باعتبارها علاقة ثقة متبادلة ومودة ورحمة [1] . وفرض النبى على المؤمنين أن يهتموا بنسائهم وأن يعاملوهن بالود والحسنى . حتى لقد جاء فى الحديث الشريف : « خياركم خياركم لنسائكم » .

وفى أول عهد الإسلام كان وضع المرأة وموقف الرجل تجاهها مقررا على ضوء تقاليد الصحراء وتعاليم القرآن والسنة . ولم يكن النساء فى تلك الأيام يعزلن أو يتحجبن بل كن يشاركن الرجال ويظهرن معهم فى المناسبات العامة . وتروى المصادر المعاصرة لتلك الفترة أن المرأة كانت تعيش فى المجتمع فى حرية وكانت لها فيه شخصيتها الكاملة . إلا أن التقييدات على حريتها جاءت بعد ذلك وبنتيجة تأثيرات اجتماعية واقتصادية كانت غريبة عن العرب وعن المجتمع الإسلامى الأول .

---

(١) القرآن الكريم ٣٠ : ٢١ .

فإن الشعر فى صدر الإسلام يتحدث عن المرأة فى احترام وفى حنو ، فكان لكل شاعر محبوبته التى ينشدها أبيات الشعر الفائقة الجمال متحدثا عن حبه العفيف . وهذا الحب الجميل الذى تغنى به قدماء الشعراء العرب والذى صوروا الحبيب فيه وما إليه وصول ، شاع بين العرب فى أسبانية وأوحى لهم آثارا أدبية فى غاية الجمال والرواء ، وانتقل هذا المفهوم المثالى عن المرأة وهذا النوع من الشعر الذى عبر عنه من أسبانية إلى أوربا فى القرون الوسطى .

وكان القرن الأول للإسلام عصر التوسع العربى الذى شهد أعمال البطولة الفردية والجماعية . وتروى القصص الكثيرة عن النساء اللواتى حاربن بشجاعة إلى جانب الرجال .

غير أن الفتوحات التى جلبت للعرب الثروة والقوة ، وجعلت لهم دولة عالمية ، جلبت لهم أيضا بعض الشرور ، وكان من أهم هذه الشرور تلك التى أثرت فى حياة المرأة ووضعها . فلما ازدادت ثروة المجتمع ورفاهيته ، ازداد عزل النساء عن الرجال . فالثروة حجبت عن المرأة الحياة النافعة . وأصبحت تعتبر فى بيوت الأغنياء نوعا من الزينة أكثر مما تعتبر شخصا له قيمته ومكانته . وأدخل الحجاب والخبء لتفريق المرأة الحرة عن الجارية التى كانت تعرض لأنظار الرجال فى الأسواق ، وظن الرجال أنهم يكرمون المرأة الحرة عندما يتركونها فى البيت بينما تخرج الجارية وتختلط بالرجال ، وهذا التصنيف للنساء إلى أحرار وجوارى أضر بالأحرار بمثل ما أضر بالجوارى لأنه أثر على العلاقة بين الرجل والمرأة . وانحط الخبء مع الزمن فأصبح نوعا من العبودية المفروضة على المرأة الحرة نفسها . ولحسن الحظ كانت الطبقات القادرة على الاحتفاظ بالجوارى والنساء اللواتى لا يقمن بأى عمل قليلة ومقتصرة فى الغالب على سكان المدن ، أما معظم النساء فى البلاد سواء بين الفلاحين أو القبائل البدوية بقين على تأدية أعمالهن فى حرية وبغير حجاب .

ولقد أعطى الدين الإسلامى حافزا للعلم وهيأ المجتمع الإسلامى فرصا كثيرة للدراسة . ولم يكن العلم مقصورا على الرجال ، بل هناك حديث يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وقد اشتهر عدد كبير من النساء بالعلم وخاصة بالعلوم الدينية ، ففى علم الحديث كانت روايات النساء تنال تقديرا عظيما وكان النساء يعتبرن حلقات فى سلسلة الأسانيد التى تنقل الأحاديث عن الرسول . ومن اللواتى تروى عنهن الأحاديث عائشة زوجة الرسول التى كان علمها وذكاؤها موضع تقدير عظيم ، وكثيراً ما سعى إليها العلماء من الرجال واستشاروها فى أمور الدين والفقه .

وكان النساء يحاضرن فى المدارس التابعة للمساجد حيث يستمع إليهن مشهورو الرجال ويحصلون منهن على شهادات تجيز لهم تعليم ما أخذوه عنهن من علوم .

ومن أشهر النساء شهدة الملقبة بالكاتبة وفخر النساء وذلك لشهرتها فى العلم ولخطها الجميل وقد عاشت فى بغداد فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وكانت تعتبر فى مقدمة علماء عصرها . وكان أساتذتها كبار علماء ذلك العصر ، كما أنه سمع عليها خلق كثير (١) .

ومن معاصرى شهدة زينب النيسابورية التى تلقت إجازات بالتعليم من عدد من مشهورى الرجال . ومن تلامذتها ابن خلكان مؤرخ حياتها ، ومؤلف كتاب للتراجم فى الأدب العربى يعتبر « من أهم ما ألف من نوعه فى الأدب العالمى » (٢) .

وقد حضر الرحالة ابن بطوطة الدروس على اثنتين من النساء فى دمشق فى أثناء مروره بسوريا سنة ١٣٢٦ وتلقى منهما إجازات بالتعليم ، وكانت إحداهما تعرف بلقب « رحلة الدنيا » ولعل سبب ذلك غزارة علمها واتساع شهرتها (٣) .

وفى الحياة الروحية ارتفع النساء إلى أعلى المراتب ، والتاريخ الإسلامى ملىء

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، الجزء الأول ص ٢٢٦ .

(٢) Sarton : Introduction to the History of Science, II, 1120.

(٣) ابن بطوطة : طبعة Defremery المجلد ١ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

بأسماء الوليّات من النساء ، ونال النساء مرتبة التساوى مع الرجال « كأخلاء لله » وكثيراً ما حضر الأولياء من الرجال مجالس الوليات من النساء واعتبروهن هاديات لهم فى حياتهم الدينية .

ومن أشهر الوليّات من النساء رابعة العدوية التى عاشت فى البصرة فى القرن الثامن للميلاد ، وكانت حياتها حياة زهد تام فى هذه الدنيا وانصراف كلى إلى الله . إلا أنها لم تكن حياة تهرب من العالم ، إذ كان لها كثير من الأتباع والمريدين الذين اجتمعوا حولها سعيا وراء الهداية وليسمعوا منها المواعظ . وقد كرست جزءا مهما من حياتها لتعليم الآخرين ما تعلمته هى عن الطريق المؤدى إلى المعرفة الإلهية وإلى الفناء فى الله . وتعتبر رابعة من أعظم المتصوفين المسلمين ، ويبجلها المتصوفون ويعتبرون أقوالها من أعظم المراجع فى الحياة الروحية (١) .

وكان الرجال والنساء من المتصوفين يرتبطون معا فى زمالة روحية ؛ فالصوفى يعتبر زوجته رفيقة فى الله ويعتبر محبته لها من محبته لله . ويرفع المحبوب فى شعر المتصوفة وقصصهم إلى مصاف مثالى ويعتبر رمزا للحكمة الإلهية وبه يوحى الله إلى الحبيب كل ما هو نبيل وكل ما هو خير (٢) .

وبما أن الإسلام دين يدعو إلى الأفعال الحميدة ، فالمسلمون يؤدون الواجبات التى يفرضها عليهم إيمانهم بمقدار ما يقومون من عون للآخرين . وقد بذل الأتقياء من النساء الكثير من مالهن لأعمال الخير وللمنظمات العامة ، ومن الأمثلة البالغة على هذا السخاء زبيدة زوجة هرون الرشيد التى نفذت مشروعا كبيرا لإيصال المياه إلى مكة ، وبنت الآبار والخزانات على طول طريق الحج من العراق إلى الحجاز وهو طريق طوله ٩٠٠ ميل . ونالت زبيدة بأفعالها الطيبة للحجاج المسلمين وللمقيمين فى مدينة الإسلام المقدسة شهرة ومكانة عالية بين المسلمين ، ونالت بسبب ذلك

---

(١) Margaret Smith : Rabia the Mystic and her Fellow-Saints in Islam pp. 19-47.

(٢) Asin, op. cit. p. 273.

شكران الحجاج الكثيرين الذين يدعون الله أن يبارك زبيدة كلما شربوا الماء الذى أوصلته إلى مكة (١) .

ولا يكاد التاريخ الإسلامى يعرف حكاما من النساء . غير أنه كثيرا ما كان النساء يشكلن قوة كبيرة وراء العرش ، والتواريخ مليئة بأخبار النساء الحازمات الذكيات اللواتى أثرن فى حياة رجالهن وفى أعمالهم فكان لهن بذلك تأثير كبير فى الشئون العامة .

وكان وضع المرأة العربية على العموم يعكس أحوال مجتمعها ، فعند ما كان المجتمع العربى منتجا ومبدعا ، ساهم النساء فى أوجه نشاطه وشاركن فى قوته وفى رفاهه . وعند ما انحسرت حيويته ودب الانحلال فى أوصاله تأذت المرأة بجانب مجتمعها . و بنشوء الحياة الجديدة فى العالم العربى استعادت المرأة وعيها لتراثها وأخذت تدرك حاجاتها ومتطلبات العالم الحديث الذى تعيش فيه . وهى اليوم تساهم فى بناء مجتمع عربى عصرى .

وقد أدرك قادة حركة الإصلاح فى القرن التاسع عشر الحاجة إلى تعليم المرأة و إعدادها للقيام بمسئولياتها للمجتمع . فكان جمال الدين الأفغانى ـ روح الإصلاح المتوثبة ـ يعتقد بأن المرأة تتمتع بنفس التكوين العقلى الذى للرجل ولكن الذى يعيقها هو نشأتها . إلا أنه مع اعترافه بمساواتها بالمؤهلات الطبيعية مع الرجل رأى أن محاولة مساواة الرجل والمرأة فى جميع الشئون لم تكن من الأمور المستحبة ولا الحكيمة . إذ قال بأن مهمة المرأة تقوم على اهتمامها بأمر بيتها ، وأن مسئوليتها فى إعداد النشء الجديد تفوق كثيرا من الأعمال والوظائف التى يمارسها الرجال . وجاء محمد عبده تلميذ الأفغانى وداعية الإصلاح الذى لا يكلّ ، فأدرك الحاجة الملحة إلى تعليم المرأة وتحسين أحوالها ، واعتبر ذلك من الأمور الجوهرية فى برنامج البعث الاجتماعى .

---

(١) Nabia Abbott, Two Queens of Baghdad pp. 240 ff.

ثم قام أحد تلاميذ محمد عبده البارزين وهو قاسم أمين فناضل من أجل قضية المرأة فى شجاعة وإخلاص ، ونشر كتابين فى القاهرة فى نهاية القرن التاسع عشر وهما « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » . وصف بهما وضع المرأة وحلل الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع ، ووصف العلاج الذى يشفى أوجاع المرأة ويشفى معها الأوجاع التى يعانيها المجتمع كله .

وكان قاسم أمين مصلحا اجتماعيا نادر الشجاعة والإخلاص وقد عبر عن حبه لبلاده بأن كرس حياته لإزالة الألم والتلف الناجمين عن الظلم والجهل ، وقد أرجع قاسم أمين الشرور الاجتماعية فى عصره إلى الطغيان فى جميع أشكاله ، متفقا بذلك مع مصلحين آخرين معاصرين له هما عبد الرحمن الكواكبى وولى الدين يكن ، وكلاهما من نقادى المجتمع الحساسين الجريئين . وقال قاسم أمين بأنه إذا أصاب الطغيان أمة سرى من حكامها إلى من دونهم وأفسد كل الطبقات وسمم كل العلاقات ، فالأقوى يتجبر على الأضعف ، والرجل يتجبر على المرأة ، وتجبره مسئول عن انحطاط وضعها ، وأن طغيان الرجل وأنانيته يسحقان شخصية المرأة ويتركانها جاهلة وضعيفة ، فيفقد احترامه لها وتفقد ثقتها به ، ويتأذى كل منهما من هذه العلاقة المنكودة . وليست خسارة الرجل بأقل من خسارة المرأة ، وليست فاجعة أحدهما بأهون من فاجعة الآخر ؛ إذ يقول قاسم أمين متسائلا : أيمكن أن تتحقق السعادة لرجل لا تقف بجانبه امرأة يقدم لها حياته ، وتضع نصب عينيه ، بحسن تصرفها ، الكمال هدفا وغاية فيعجب بها ويسعى لنيل استحسانها ولكسب مودتها بالأعمال النبيلة ، ويتودد إليها بالصفات الأخلاقية العالية ؟

ونادى قاسم أمين بقوة بتعليم المرأة حتى لقد اعتقد بأن تعليم البنات يجب أن يسبق تعليم الأولاد لأن تربية الأمة كلها تعتمد على المرأة . ونادى بالفكرة القائلة بأن المرأة يجب أن تعلم لذاتها لتستطيع إكمال شخصيتها ودخول المجتمع كفرد مستقل وناضج ، وهى فكرة بدت فى ذلك الحين جديدة وغريبة . وقال بأن الزواج زمالة

وصداقة تتقوى وتبلغ الكمال بالمساواة العقلية ، والانسجام الروحى بين الرجل والمرأة. ونادى بإزالة الحجاب تدريجا وبتدريب النساء على كسب معيشتهن بدلا من بقائهن عالة على الرجال من أقربائهن .

وقد أثار دفاع قاسم أمين عن المرأة فى بادئ الأمر عاصفة انصبت على رأسه ؛ إذ أن القيود التى تراكمت خلال العصور على المرأة كانت كثيرة حتى اعتبر الإصلاح الذى نادى به بدعة وكفرا ، ولكن أفكاره لاقت بالرغم من هذه الاعتراضات قبولا حارا بين الأفراد المفكرين المدركين ، وكان من أهم المؤيدين لقاسم أمين صديقه سعد زغلول الزعيم الوطنى ، وإليه أهدى كتابه « المرأة الجديدة » . وأيده صديق آخر له هو المؤلف والمربى المشهور لطفى السيد وفتح له صفحات جريدته « الجريدة » لينشر فيها ما شاء فى موضوع المرأة وفى المواضوعات الاجتماعية الأخرى. ونالت قضية المرأة اهتماما واسعا فى الجدل الذى قام بين مؤيديها ومعارضيها المتناقشين فى كتب قاسم أمين ، فابتدأت بذلك حركة تحررها .

وقد انتشرت كتب قاسم أمين الداعية لتحرير المرأة فى البلاد العربية وترجمت إلى اللغات الغربية ، إذ ترجم كراتشكوفسكى كتاب المرأة الجديدة إلى اللغة الروسية سنة ١٩١٢ ، وظهرت ترجمة ألمانيا لكتاب تحرير المرأة سنة ١٩٢٨ .

ولئن تجاوز المجتمع اليوم بعض الإصلاحات التى نادى بها قاسم أمين فى لهفة وأمل فإن كتبه ستبقى فى بساطة أسلوبه الجميل ، وفى حسه المرهف ضد المظالم .

وقد وجد تحرير المرأة أنصارا أقوياء فى العراق . فقد عاش العراق فى عزلة عن تأثير الأفكار الغربية ، ولم يختبر حركة الإصلاح السياسى والعقلى والاجتماعى التى انبثقت فى مصر فى القرن التاسع عشر وفى أوائل القرن العشرين ، والتى كان تحرير المرأة وجها من وجوهها . ومع ذلك فإن أدباء العراق ونقاده الاجتماعيين شذبوا بجرأة الشرور التى تغلف حياة المرأة ، والقيود التى تشدها .

فقد هاجم شاعرا العراق الكبيران ، الرصافى والزهاوى ، الظلم والجور فى كل

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

شكل من أشكالهما ، بما فى ذلك القيود المفروضة على المرأة . وألح كل منهما على ضرورة تعليم المرأة . وقد أرجع الرصافى تأخر الشعوب الشرقية إلى نشأة أفرادها على أيدى نساء غلبن على أمرهن . ونظم الزهاوى قصيدة قوية ضد الحجاب ، ونادى بثورة اجتماعية تعبر عن نفسها بتخلص المرأة من حجابها و إحراقها له ، ذلك الحجاب الذى يموه ولا يحمى ، والذى يعتبر عارا ومرضا اجتماعيا خطيرا .

وكان طبيعيا أن يتزعم الرجال حركة تحرير النساء ، لأن النساء كن على العموم على جانب كبير من الجهل والاستسلام ، فما كان فى استطاعتهن أن يبدأن مثل هذه الحركة . إلا أنه ظهر عند نهاية القرن التاسع عشر عدة مجلات نسائية . وأخذ عدد من النساء يكتبن فى المشاكل الاجتماعية والأمور المتعلقة بالنساء . واشتهرت فى مطلع القرن العشرين كاتبتان هما ملك حفنى ناصف ، ومارى زيادة ، وكانت أولاهما توقع كتاباتها باسم « باحثة البادية » وثانيتهما توقعها باسم « مى » .

وكانت باحثة البادية تلاحظ شئون المجتمع فى ذكاء وعمق ، وتضع ملاحظاتها فى أسلوب جذاب ومقنع . وكانت تنتقد الحياة المصرية المعاصرة انتقادا قويا . وقد كرست شعرها ونثرها للإصلاح الاجتماعى . وتأخذ بها الحماسة والغضب للحق ، بحيث لا توفر رجلا ولا امرأة . وانكسر قلبها لرؤية المجتمع الفاسد ، فالمرأة جاهلة خاملة ، وحياتها منصرفة إلى الأمور السطحية والإسراف فى المظهر . وهى عديمة الثقة بنفسها ، ولذا فإنها لا تثق بزوجها و يسمم علاقاتها به الغيرة والأنانية والغضب . والرجل من جانبه لا يحترم المرأة إلا قليلا . ومعاملته لها تعبر عن أنانيته وتجبره . فعلى الرجال أن يبدأوا بإصلاح أنفسهم ، إذا أرادوا إصلاح نسائهم و بيوتهم وأمتهم . إذ كيف يمكن تربية الأطفال على محبة الحرية ، مادام الرجال باقين على أساليبهم المتجبرة ؟ واعتبرت باحثة البادية التعليم حجر الزاوية فى أى برنامج للإصلاح الاجتماعى ، متفقة فى ذلك مع المصلحين الآخرين . وكانت تعتقد بضرورة جعل التعليم الابتدائى إلزاميا ، و بضرورة منح البنات حرية اختيار حياة العلم والتعليم .

ويجب أن تعطى الأولوية فى التعليم للمرأة ، لأنها أكثر جهلا من الرجل ؛ إذ لا يمكن تربية الأولاد على الحرية إلا إذا كانت المرأة حرة .

وتستثنى باحثة البادية المرأة الفلاحة والبدوية من أحكامها ، وذلك لأن هاتين المرأتين تشاركان الرجل فى السراء والضراء . وهى تبدى إعجابها بكبرياء المرأة الفلاحة ومتانة خلقها وجديتها وتقابل بين حيويتها ونشاطها المفيد ، وبين حياة النساء المدللات فى الطبقات المترفة من سكان المدن . وعلى ذلك فإنها توضح أن الفلاحين هم الذين قدموا لمصر أعظم رجالها ، وذلك لأن حياتهم سليمة ، ومستقلة ، ومبنيـة على الجهد والعمل .

وكانت مى كاتبة موهوبة . وإلى جانب مقدرتها الفذة فى اللغة العربية كانت ذات معرفة بعدة لغات أوربية وبآدابها . وقد أثرت سعة اطلاعها على أسلوبها فجاء سهلا وجميلا ومصقولا . وقد جاهدت فى كل ما كتبت للتجديد الأدبى والاجتماعى . وينعكس اهتمامها فى المشاكل النسائية باشتراكها الفعال فى الحركات النسائية وفى جميع كتاباتها . وبين كتاباتها دراسات عن أديبات من النساء ، مثل وردة اليازجى الشاعرة المنتمية إلى عائلة اليازجى الشهيرة التى أنجبت فى القرن التاسع عشر عددا من الشعراء الذين ساهموا فى نهضة اللغة العربية والثقافة العربية ؛ وعائشة التيمورية ، المنتمية إلى عائلة تيمور التى اشتهرت بمن أنجبتهم من العلماء والشعراء وكتاب المسرحية ، وكانت عائشة نفسها شاعرة عاشت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وشعرها لا يقل جودة عن أشعار معاصريها ؛ وباحثة البادية التى كانت مى تـكن لها أعظم الإعجاب .

ونشأت بعد الحرب العالميـة الأولى مباشرة حركة نسائية منظمة . وقد هيأ النضال فى سبيل الحرية القوميـة فرصة للنساء ليخرجن من بيوتهن ويساهمن فى القضايا العامة . ففى الثورة المصرية التى نشبت سنة ١٩١٩ ظهر النساء للمرة الأولى فى مظاهرات كبيرة بالشوارع . ولم يكن فى ظهورهن الأول هذا أى تردد أو هيبة . فتظاهر النساء وهن يحملن الأعلام ونادين بسقوط الحماية ، وطالبن باستقلال البلاد .

وساعد النساء فى إقامة المتاريس ، واشتركن مع الرجال فى تدمير طرق المواصلات ، وتجمعن حول الأبنية الحكومية لمنع الموظفين من الوصول إليها . وعقدن اجتماعا كبيرا فى الكنيسة القبطية احتجاجا على لجنة ملنر التى أرسلت للتحقيق فى القضية المصرية ، وينم اختيار الكنيسة مكانا للاجتماع عن اتحاد المسيحيين والمسلمين فى القضية المشتركة . وعند ما دخل النضال مرحلة عدم التعاون مع البريطانيين ومقاطعة بضائعهم ، أعلن منظمو النضال أن النجاح يعتمد إلى حد كبير على مساهمة النساء . وكانت زوجة الزعيم الوطنى سعد زغلول رفيقة طيبة لزوجها العظيم . فوقفت إلى جانبه ، وقدمت له عونا أدبيا عظيما . وعند ما جاء سعد فى بداية النضال مع البريطانيين إلى زوجته صفية وقال لها : « لقد وضعت رأسى على كفى » . أجابته بقولها : « إذن فضع رأسى على كفك الأخرى » . وفى أثناء نفى سعد كانت الأخبار تصلها عن تدهور صحته وأخذ أصدقاؤه يلحون عليها فى أن تطلب منه أن يعود . ولكنها أجابتهم بقولها : إذا كان نفى سعد يفيد القضية فإن رغبتى أن يبقى سعد فى النفى . وعرفت صفية بلقب « أم المصريين » وأصبحت ذات مكانة عالية ومرموقة فى الحياة المصرية . وعند ما كان زوجها غائبا فى المنفى ، بقى بيتها مفتوحا للوفود والاجتماعات ، التى كانت هى بدورها تخطب فيها ، بقوة ووقار . وبقيت حتى بعد وفاة زوجها ذات مكانة مركزية فى حياة مصر السياسية . وكان الزعماء السياسيون من كافة المشارب يبجلونها ويحترمون رأيها ومشورتها .

ولم تمر العادات والظروف المتعلقة بالنساء فى البلاد العربية بمثل التغير المفاجىء الذى مرت به فى تركيا وايران . فالتغير كان تدريجيا ، ولكنه كان تغيرا حقيقيا على أى حال . وبالرغم من أنه مامن سلطة أصدرت أمرها بطرح الحجاب فى يوم معين فإن النساء أخذن يطرحن أحجبتهن بسرعة ذهابهن إلى المدارس والجامعات وتمرسهن بجميع الأعمال واشتراكهن فى حياة البلاد العامة .

وكان تقدم التعليم النسائى من أهم التطورات الايجابية فى المجتمع العربى خلال

السنوات الثلاثين الأخيرة . فلقد توسع التعليم النسائى فى جميع البلاد العربية المستقلة ، ماعدا المملكة السعودية واليمن . ولعل فى الرجوع إلى بعض الإحصاءات خير إيضاح للخطوات التى تم اتخاذها .

ففى مصر كان عدد الطالبات فى المدارس الحكومية سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ ، ٣١٦ ، ٢٤ معظمهن فى المدارس الابتدائية . ولم يكن فى المدارس الثانوية سوى ٤٣ طالبة ، إلى جانب ٦٥٣ طالبة كن يدرسن فى دور المعلمات .

وفى أقل من ثلاثين سنة زاد العدد بمقدار عشرين ضعفا ، إذ بلغ عدد الطالبات المسجلات فى المدارس الحكومية والمدارس التى تنال من الحكومة مساعدات مالية ، سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ ٠٠٨ ، ٥٢٧ ولم تعد دراستهن مقصورة على التعليم الابتدائى ، بل كن يطلبن العلم فى جميع أنواع المؤسسات التعليمية ، من بستان الأطفال إلى الجامعة فالمعاهد العليا التى تحضر لأعلى الشهادات الجامعية . وكان فى المدارس الثانوية ١٩ ، ٥١١ طالبة وفى المدارس المهنية ٩ ، ٩٤٠ بينما بلغ عدد الملتحقات بدور المعلمات ٣ ، ٧٥١ وتمشيا مع سياسة تنويع التعليم فى مستواه الثانوى ، أسس عدد من مدارس البنات التقنية والفنية والمؤهلة للحرف .

ولم يسمح للنساء بالتقدم إلى الدراسة العليا إلا فى سنة ١٩٢٧ ، ومنذ ذلك الحين اكتسب مثل هذه الدراسة آلاف من النساء . ففى سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ بلغ عدد طالبات الجامعات والمعاهد العليا ٢٤٦٠ طالبة . وفى سنة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ بلغ عدد الطالبات فى الجامعات الثلاث ـ القاهرة والاسكندرية وعين شمس ـ ٧٢١٢ طالبة .

وفى العراق ابتدأ التعليم النسائى بعد الحرب العالمية الأولى من الصفر تقريبا . وفى سنة ١٩٢٢ لم تكن هنالك سوى مدرسة ابتدائية واحدة للبنات يتعلم بها ١٦٠ طالبة . وحتى سنة ١٩٢٤ ـ ٢٥ لم يكن للتعليم الثانوى أثر فى العراق . غير أن تعليم البنات تقدم بحماسة كبيرة ، ونال استجابة متلهفة ، حتى إن بعثة مونرو التعليمية

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

عندما زارت العراق فى سنة ١٩٣١ ذكرت فى تقريرها أن أكثر ما فوجئت به البعثة فى جميع نواحى الوضع التعليمى ، هو ذلك الاهتمام الخالص والبادى فى كل مكان لتعليم البنات [١] وعلاوة على ذلك ذكرت البعثة أن زيادة الاهتمام بتعليم البنات فى العراق كان من أبرز البشائر فى حياة البلاد التعليمية ، لأنه ينم عن نظرة تقدمية [٢] .

ويذهب آلاف من البنات العراقيات إلى المدارس والكليات فى أيامنا هذه . ففى سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ ، كان فى المدارس الابتدائية والثانوية الحكومية ٤٤،٣٧١ طالبة ، إلى جانب ٤٦٦ طالبة كن يدرن على التعليم فى مدارس دون مرحلة التعليم الثانوى . وفى السنة ذاتها كان ٨٦٦ من الفتيات يتلقين التعليم العالى ومن هؤلاء كان ٦٦٧ يتلقين العلم فى دار المعلمين العليا . وهى معهد مختلط ، وفى كلية الملكة عالية للمعلمات ، بينما وزع مئتان من الطالبات بين كليات الحقوق ، والطب ، وطب الأسنان ، والصيدلة ، والعلوم ، والآداب ، والتجارة والاقتصاد ، والهندسة . ومن المظاهر البارزة التى توضح التغير المفاجىء من جيل لآخر وجود والدة أمية إلى جانب بنت لها نالت العلم بجميع مراحله وحصلت على شهادة جامعية . وهناك مثال آخر يستحق الذكر وهو نادر الحدوث فى أى بلد من البلدان ، وهو وجود شقيقات خمس كلهن أنهين دراستهن الجامعية ، وأخذت كل منهن تمارسن الحياة العملية فى الحقل الذى تخصصت به ، وهو الطب أو الصيدلة أو القانون أو الهندسة أو التعليم .

والاتجاه إلى العمل الجماعى المنظم ونمو الوعى الاجتماعى الظاهر فى المجتمع العربى ، ينعكسان فى عدد المنظمات النسائية وفى اتساع نطاق أعمالها ؛ فالجمعيات النسائية ، وبعضها تنال مساعدات حكومية ، تهتم بتخفيف ويلات الفقر وبالمشاكل الاجتماعية

---

(١) Paul Monroe : Beport of the Educational Inquiry Commission, Bagdad Government Press, 1932, p. 56.

(٢) Ibid, p. 130.

الأخرى . والفروع النسائية للهلال الأحمر والصليب الأحمر منظمة على نفس الأسس والأشكال التى تنظم بهـا المنظمات المشابهة فى المجتمع الغربى ، وهما يؤديان نفس الغرض . والنساء ينفقن على العيادات الطبية ، ومراكز الأدوية ، ومراكز الحليب التى تهتم بالأطفال الذين تسوء تغـذيتهم ، وبيوت الحضانة وبساتين الأطفال . وتتعاون منظمات النساء مع الحـكومات فى سن التشريعات العماليـة والتشريعات الاجتماعيـة الأخرى ، وفى إصلاح السجون ، وتحسين أحوال المسجونين . وفى مكافحة انتشار الجريمة بين الأحـداث والشبان ، وفى تأسيس الميتم والملاجىء والمستشفيات المجانية .

ومن الأمثلة على المنظمات النسائيـة التى تدار أحسن إدارة وتقوم بعمل جليل الجمعية النسائية لتحسين الصحة فى مصر التى تديرها جماعة من السيدات القديرات فى هدوء ومن غير دعاية . وتعمل الجمعية بين المرضى المصدورين وعائلاتهم . ويرسل هؤلاء المرضى إلى المستشفيات كلما أمكن ذلك وإلا اعتنى بهم وقدم لهم الغذاء والدواء والعناية الطبية . فإذا نالوا الشفاء ، هيأت الجمعية لهم فرصة العودة لأعمالهم القـديمة ، أو فرصة إيجاد عمل جـديد ملائم . وفى الوقت نفسه تنال عائلاتهم العناية ، فتعطى الأم عملا يؤمن لها بعض الدخل ، كأن تشتغل خياطة مثلا ، وذلك لتساعد العائلة فى أثناء مرض الأب . غـير أن أفضل الخدمات وأكثرها ثمرة هى تلك التى تقدم للأولاد : إذ أسس لهؤلاء مركز هو مدينة الصحة قرب الأهرام ، ولهذا المركز ساحات فسيحة وغرف نظيفة وفيه بيت حضانة للأطفال ، وبساتين مزينة بالأزهار . ويعتنى بصحة الأطفال ، ويقدم لهم الغـذاء الملائم ، ويعلمون النظافة ، وتهيىء لهم فرص الألعاب فى الهواء الطلق . ويقطن المركز أربعمائة طفل ، وهم يدرسون فى المدرسة الابتدائية التابعة للمركز وتمول وزارة المعارف هذه المدرسة وتهيىء لها المعلمين . وهذه المدرسة فضلا عن الدروس التى تقدمها حسب المنهاج العادى ، تهتم بالحرف اليدوية ، كالتجارة والنسيج وأشغال الإبرة . ولا يترك الأطفال هائمين على وجوههم عند ما

يحين وقت خروجهم من المركز بل يقدم لهم الإرشاد و يساعدون على إيجاد العمل الذى يهيىء لهم عيشا مناسبا .

وقد دخل النساء جميع الحرف وهن يمارسن الطب والمحاماة والصحافة بنجاح . غير أن التعليم هو الحقل الرئيسى لعملهن . فالآلاف من السيدات يعلمن فى الأجهزة التربوية الآخذة فى الاتساع فى البلاد العربية . وقد أسس بعض السيدات عددا من المدارس الخاصة الناجحة وأشرفن على إدارتها. واشترك النساء أفرادا وعن طريق المنظمات بالحملة لتعليم الكبار .

وقد منح النساء حق الانتخاب فى سوريا ولبنان ومصر . واقتصر حق الانتخاب فى سوريا على النساء اللواتى نلن تعليما ابتدائيا على الأقل . ومارسن هذا الحق لأول مرة فى خريف سنة ١٩٤٩ . وفى لبنان أعطى حق الانتخاب لجميع النساء بدون تحديد فى سنة ١٩٥٢ ، أما فى مصر فقد اكتسب النساء حق الانتخاب بموجب الدستور الذى أعلن فى بداية سنة ١٩٥٦ . وفى تونس تقدم حزب الدستور الجديد إلى الانتخابات للجمعية التأسيسية فى مارس (آذار) سنة ١٩٥٦ على أساس برنامج اشتمل على تحرير المرأة التونسية. وقد منحت النساء المتعلمات حق الانتخاب.

وفى معظم البلاد العربية تنظم القوانين المدنية أفعال الناس، فيما عدا الأحوال الشخصية ـ وهى الميراث والزواج والطلاق ، إذ ما تزال هذه خاضعة للقوانين الدينية، والشريعة الإسلامية ، مع كونها أعطت النساء حقوقا وامتيازات لم يعرفها المجتمع الغربى إلا فى الأيام الأخيرة ، إلا أنها مع ذلك قومت الرجال على النساء . وأعطتهم المركز المعلى . ففيما يختص بالميراث تنال المرأة نصف حصة الرجل ، لكن الرجل والحق يقال ،مسئول عن إعالة عائلته من حصته من الميراث. وقوانين الزواج والطلاق أكثر ميلا إلى الرجل منها إلى المرأة . وبالرغم من إمكان إدخال شروط فى عقد الزواج من شأنها أن تقوى مركز المرأة. وتحافظ على حقوقها إلا أن الرجل على العموم كانت له اليد العليا فى أمور الزواج والطلاق . ولم تجر حتى الآن محاولة لفصل الأمور

المتعلقة بالأحوال الشخصية عن نطاق الشريعة الدينية ، ولوضعها ضمن نطاق القانون المدنى ، كما هى الحال فى العلاقات الأخرى . إلا أن هناك انتقادا متزايدا من الأحوال السائدة ، ومطالبة متنامية بالمساواة الكاملة للمرأة . وقد وضع الطاهر الحداد ، وهو اشتراكى تونسى ، كتابا جريئا عنوانه « امرأتنا فى الشريعة وفى المجتمع » نادى فيه بشدة بتحسين وضع النساء وأكد أن روح القانون وغايته النهائية أهم من نصوصه التفصيلية . ولذلك يجب تطويره مع حاجات العصر .(١) وفى تونس بداية لحركة نسائية ذات طابع واتجاه وطنيين .

ومهما يكن الوضع التشريعى أو السياسى للمرأة العربية فقد كان لها فى مجتمعها قوة أكبر مما يظن عادة ، وما زال لها أثر أقوى مما يلمحه المراقب المتسرع .

وقوتها مستمدة من ترابط المجتمع العربى الوثيق ، ومن أهمية العائلة فى الحياة العربية . فالعائلة هى الوحدة الاجتماعية الأساسية فى جميع البلاد العربية ، وهى لا تشمل الأقرباء المباشرين وحدهم ، كما هى الحال فى العائلة الغربية ، بل هى أوسع من ذلك بكثير . والفرد يكون جزءا من هذه الدائرة العائلية الواسعة ، وفيها يجد الأمن والاكتمال الذاتى ، وإليها يقدم محبته وولاءه . ولكل فرد فى العائلة مكانه المضمون وواجباته ومسئولياته المحددة ، وذلك تبعا لسنه ووضعه . وتبدأ مسئوليات النساء قبل زواجهن ؛ إذ يطلب من البنت أن تعتنى بالأطفال الصغار ، وأن تقوم ببعض الأعمال المفيدة فى البيت . وعندما تصبح زوجة وأما تتسلم مسئولية إدارة البيت وتربية الأطفال وربط العائلة بالمحيط الاجتماعى الأوسع . وعندما تصبح جدة تنال الاحترام والتقدير للتجربة والحكمة اللتين يرافقان تقدم السن ويرتبطان بالشيخوخة عند الشعوب الشرقية .

والمرأة مرتبطة بالعائلة، التى تهيئ لها فى جميع مراحل حياتها واجبات جوهرية،

---

(١) H. A. R. Gidd : Modern Trends in Islam p. 93 ;
Rudi Paret : Zur Frauenfrage in der Arabish - Islamischen Welt p. 18.

فتجعلها تشعر بالطمأنينة الناجمة عن قيامها بواجبها ،وتعطيها أهمية مستمدة من واجباتها الواسعة ومن الوظائف الأساسية التى تؤديها وتقوم بها . ولذا فالنساء العرب يعشن على وجه العموم فى سلام مع مجتمعهن وفى انسجام مع بيئتهن . والنساء التائهات اللواتى لا جذور لهن ، واللواتى يعانين الأزمات العصبية ، لا يكاد يكون لهن أثر بين نساء العرب .

وقد يقال فى بعض الأحيان بأن المرأة العربية التى ينظر إليها دائما من خلال علاقاتها مع الغير ضعيفة الشخصية أو الفردية . والعكس هو الحقيقة . فالمرأة العربية ، لكونها تعيش لغيرها ، تنال القوة والشخصية الناجمتين عن الارتفاع عن الذات ، وعن بذل الحياة فى سبيل الآخرين . فهذا المفهوم عن الاكتمال الذاتى من خلال الآخرين أبعد القلق والخيبة عن حياتها وأعطاها الكرامة والسمو والدعة.

ولما كانت الحياة الآلية معدومة ، وكانت المرأة وثيقة الصلة بغيرها من الناس ، ووثيقة الارتباط بالطبيعة ، وعلى الأخص نساء الفلاحين الذين يشكلون عصب السكان ، فإنها قد اكتسبت الحكمة وحاسة التميز والمقدرة الفائقة على الفهم الإنسانى . ومكانها الخاص فى العائلة ، إلى جانب مكان العائلة فى المجتمع الأكبر ، جعل منها وصية على التقاليد العائلية ، وأمينة على ثقافة الجماعة وحكمتها . وكثيرا ما تكون أمية ، غير أن تقاليد حضارة عريقة ترجع إلى آلاف السنين تعطيها مسحة من الثقافة وحسن التهذيب .

وهكذا نرى المرأة العربية تسير فى خطواتها الثابتة مكتسبة فى طريقها الجديد المزيد من الحريات والفرص . فإن المسئوليات الواسعة فى حياتها العائلية والاجتماعية قد دربتها على الفعاليات الاجتماعية الأوسع التى يطلب منها الآن أن تقوم بها ، كما أن تراثا من الحضارة الغنية الناضجة قد هيأها للقوة المتزايدة التى تأتى مع المزيد فى المعرفة والعلم .

ويعج العالم العربى اليوم بالمثل والأشواق العظيمة التى يعمل الرجال والنساء معا لتحقيقها .

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل السادس عشر

نحو الوحدة العربية

ليس من التطاول أن نسأل كيف يستطيع العرب التحدث عن الوحدة العربية ، وما زالت كارثة فلسطين ، وهى مظهر مزرٍ للخلاف بين الدول العربية ، قريبة إلى الأذهان . وحتى لو تناسى الناس مأساة فلسطين ، فإن الاختلافات الظاهرة فى المجتمع العربى ، والانشقاق فى الدوائر السياسية العربية ، وتنافس الحكام ، تكاد توحى بأن الوحدة العربية ، إن لم تكن غير حقيقية بالمرة ، فهى ما تزال بعيدة المنال .

ومع ذلك ففى وسط الخلاف والانشقاق ما زال صوت الوحدة العربية يسمع بقوة وبوضوح ، وما زال المثل الأعلى الرامى إلى إعادة بناء الأمة العربية المتحدة قوة حقيقية ، تقدم الشعوب العربية له الولاء ، ويشكل مصدر إلهام ورسالة أمل لقسم كبير من الشباب وممثلى الرأى العام الواعى .

ما هى إذن عناصر الحقيقة فى هذه الفكرة التى تبدو حلما صعب التحقيق ؟

إن الوحدة هى الأساس الذى تستند إليه حياة الشعوب العربية ، وما تجزئة هذه الشعوب إلى كيانات منفصلة سوى مرحلة موقتة أقحمت حديثا إلى حياتهم . فإن تشابه الأحوال المناخية بين البلاد العربية أوجد تشابها فى التركيب الاجتماعى . واستمرار المدنية عبر التاريخ ساعد أيضا على توحيد النظرة إلى الحياة . ففى بلدة كبلدة جبيل على الساحل اللبنانى يتمثل تاريخ الإنسان فى سلسلة متصلة من الكهف إلى يومنا هذا . وفى التلال التى جرى التنقيب فيها فى سوريا والعراق ومصر ، تشهد الطبقات

المتعاقبة المتراكمة فوق بعضها البعض ، بالأصول القديمة و باستمرار الجهد الإنسانى فى هـذه المنطقة . والعادات والمعتقدات التى يمكننا أن نتتبعها إلى أصول سابقة للإسلام ، بل وسابقة للمسيحيـة ، ما زالت شائعة بين الشعب ، وما زالت تشكل قسما من التراث الشعبى الذى تشترك به جميع الطوائف بقطع النظر عن الأديان التى تنتمى إليها .

و يعبر نظام العائلة أيضا عن وحدة المدنيـة ؛ إذ أن هـذا النظام متشابه مهما كان دين أفراد العائلة ، والترابط هو الصفة الأساسية للعائلة فى المجتمع العربى . فالعائلة التى تعطى المرء أمنه ، وتحقق له اكتمال ذاته ، لها الحق الأول فى ولائه وفى محبته . وقد كان استقرار الحياة العائلية وقوة روابطها عناصر استقرار فى المجتمع العربى .

و يقدم الإسلام قوة موحدة عظيمة ، وليس الإسلام مجرد دين ، بل هو أيضا ثقافة وأسلوب فى الحياة ، و إلى جانب قوة الرابطة الدينية فيه ، فإن القوى الموحدة فى الإسلام لا تأتى فقط من الانتماء إلى إيمان مشترك ، بل ربما كان الأثر الأكبر فيها إلى التركيب الاجتماعى المشترك ، و إلى الأسلوب الواحد فى الحياة ، اللذين يهيئهما الإسلام . ويجب أن نذكر أيضاً أن الدين الإسلامى والقرآن الكريم ، قد أنقذا اللغة العربية من الانحلال إلى لهجات محلية متعددة ، فحافظا بذلك على وحدة الفكر والتعبير . وبهذا المعنى فإن الإسلام لا يخص المسلمين وحدهم ، بل هو تراث المسيحيين العرب أيضا .

واللغة العربيـة من أقوى الروابط التى تجمع العرب وتشد بعضهم إلى بعض . فاللغة العربية هى لغة الشعوب القاطنة من مراكش إلى العراق [1] . ومع أن اللهجات المحلية تختلف فاللغة الفصحى واحدة ، وحتى اللهجات المحلية يمكن لسكان المناطق المختلفة أن يفهموها و يتكلموها بسهولة . ويتصف العرب جميعا ، متعلمهم و بسيطهم ، بالتعلق القوى باللغة العربية . فكلهم يحبون لغتهم حبا جما ، ويتأثرون أعمق الأثر

(١) هناك استثناءات قليلة .

من جمالها وموسيقاها . وقد ابتدأت النهضة العربية الحديثة بإحياء العربية الفصحى . وقد حدد إبراهيم باشا ، القائد المستعرب ، بلاد العرب بأنها تلك التى يتكلم الناس فيها لغة العرب ، إذ عند ما سئل فى أثناء حملته التى هدفت إلى فصل الولايات العربية عن الامبراطورية العثمانية عن الحد الذى يرمى الوصول إليه فى غزواته أجاب قائلا : الحد الذى يتكلم فيه الناس اللغة العربية وأستطيع ضمنه أن أتحدث معهم بهذه اللغة .

والتراث العربى ، وهو التراث الذى تشكل اللغة العربية واسطة التعبير فيه ، مشترك بين العرب جميعا . فذكريات الخلافة فى قوتها وعظمتها ، هى ذكريات حقيقية ، مع أن قرونا من التجزئة تحجبها . وهذا الوعى التراثى التاريخى ليس مقصوراً على المفكرين ، مع أن من الطبيعى أن يكون هؤلاء أكثر إفصاحا عنه ، بل يشترك فيه فعلا الفلاح البسيط ، والبدوى الأمى ، اللذان رغم افتقارهما إلى التعليم الشكلى ، فهما واعيان لهذا التراث ومتعلقان به ، وتراهما يعبران عن ذلك فى الأدب الشعبى وقصص البطولة السائرة .

وفقدان الوحدة السياسية فى وقت مبكر من التاريخ العربى ، لم يؤثر على الوحدة الأساسية للثقافة العربية والمجتمع العربى . فالدويلات التى انقسمت إليها الامبراطورية العربية لم تكن لها علاقة بالشعب ، بل كانت من شئون الأسر الحاكمة وحدها . فالأسر المتعاقبة المختلفة الأصول جاءت وذهبت ، ولم تترك أى أثر فى حياة الشعب الذى لم يكن على العموم يشعر بقيامها وسقوطها إلا عندما تؤدى هذه الحوادث إلى الحرب والفوضى .

والانقسام السياسى الذى تلا عصر العباسيين الذهبى لم يلبث أن أزيل عندما فرض الأتراك العثمانيون هيمنتهم على البلاد العربية . وظلت البلاد العربية لمدة أربعمائة عام ـ أى من سنة ١٥١٦ حتى سنة ١٩١٨ ـ تشكل جزءا من نظام سياسى واحد هو الامبراطورية العثمانية .

وقد حاول محمد على ، والى مصر أن يبعث الأمة العربية بوصفها وحدة سياسية مستقلة عن الأتراك ، فجد خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر فى تحرير الولايات العربية من الحكم التركى . وأخفقت محاولته ، وكان من أسباب إخفاقها عدم تهيؤ العرب لها . فالفكرة القومية ، وهى من منتجات الغرب فى القرن التاسع عشر ، لم تكن بعد قد تغلغلت فى المجتمع العربى . وبينما كان العرب يشعرون بأنهم أمة تختلف عن الأتراك ، فإنهم لم يكونوا بعد مستعدين للإقدام على عمل مشترك باسم القومية العربية . ولكنهم كثيرا ماقاموا بثورات متناثرة ومشتتة ضد مضايقات الحكم التركى . وكان الباعث على هذه الثورات المحلية رغبة الناس فى أن يتركوا وشأنهم ، وفى أن لاتفرض عليهم رقابة أجنبية . وكانت تقوم بها عادة فئة أو جماعة ضمن منطقة محددة . ولم تكن بواعث الحرية قد شملت بعد الأمة بمجموعها . وفضلا عن ذلك فإن الحركة كانت تفتقر إلى الزعامة الوطنية الصميمة . فقد كان الباعث على خطة محمد على فى إقامة دولة عربية مستقلة هو فى الدرجة الأولى طموحه الشخصى ، ورغبته فى أن يقتطع من الامبراطورية العثمانية دولة له ولذريته من بعده . ومع أن ابنه إبراهيم كان يصف نفسه بأنه عربى ، وكان متحمسا لصفات الشعب العربى وأمجاد حضارته ، إلا أنه بقى هو وأبوه خارج المجرى الرئيسى للحياة العربية ، إلى حد كبير . ويجب أن نذكر أن عرقلة الدول الكبرى — وخاصة بريطانيا التى تدخلت لإنقاذ الامبراطورية العثمانية من التجزئة وللمحافظة على الوضع الراهن فى القسم الشرقى من البحر المتوسط — هذه العرقلة كانت سببا أساسيا فى فشل المحاولة . ومع ذلك فإن التيار الذى حركه محمد على وإبراهيم . بهزمهما للأتراك على أيدى العرب ، وبنشرهما للأفكار الجديدة التى صحبت تقدم الجيوش ، ثم استقلال مصر عن الحكم العثمانى وإحيائها للحياة الفكرية بعد حصولها على الاستقلال . وزيادة اتصالها بالغرب — هذه كلها أوجدت تململا فى المجتمع العربى ، وشكلت حافزا وأساسا لأعمال المستقبل .

والثورة العربية التى قادها شريف مكة فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، كانت ترمى إلى إيجاد دولة مستقلة واحدة مكونة من الولايات العربيـة فى آسيا . وكان لزعيم الثورة مكانة كبيرة مستمدة من نسبه الرفيع ، ومن كونه حارسا للحرمـين الشريفين ، إلا أنه افتقر إلى الأفق وإلى صفات الزعامة القادرة على إيجاد حركة متحدة ومتماسكة .

ولم تحقق الثورة أهدافها ، وكان فشلها كفشل محمدعلى ، راجعا لأسباب داخلية ، ولضغط القوى الأجنبية من الخارج . فمن الناحية الداخلية كانت الحركة تعانى من ضعفين رئيسيين : أحدهما أن الطبقات المفصحة والمستنيرة كانت مختلفة فى الرأى ؛ إذ أن بعض الزعماء المحترمين ورجال الفـكر كانوا ، رغم شذبهم لشرور الحـكم التركى ، غير مستعدين للانخراط فى حركة ترمى إلى الانفصال عن الجسم العثمانى ، خصوصا عندما اشتموا وجود عناصر انخرطت فى الحركة العربية لا بدافع من شعور عربى خالص واهتمام بقضية العرب فى نضالهم للحرية ، بل بدافع ميول وارتباطات أجنبية . وقد خشوا أنه إذا زالت الرابطة العثمانية ، وقع العرب تحت سيطرة الغرب . وثانيا كان الشعب على العموم غير مهيأ ، فالحركة لم تـكن قد تغلغلت بعد فى وعيه ، بل كانت تحوم على أطراف حياته .

ومع ذلك فإن جزءا كبيرا من المسئولية فى إخفاق الثورة العربية ، وفى عرقلة نمو حركة الوحدة العربية بعد ذلك ، إنمـا يقع على عاتق بريطانيا وفرنسا اللتين قسمتا البلاد العربية الواقعة شرقى البحر المتوسط فيما بينهما ، وجزأتا سورية إلى دويلات تافهة ، وتبتنا الأغراض الصهيونية فى فلسطين .

فالتسوية التى تلت الحرب العالمية الأولى لم تضع العراقيل فى طريق الوحدة العربية فحسب ، بل حطمت البنيان الاقتصادى الذى كان بنيانا موحدا للمنطقة كلها ، كما أنها أدخلت جماعات غريبة ، ثقافتها أجنبية ، فـكان إقحامها عاملا فى تشويه الوحدة الثقافية فى المنطقة .

والدويلات التى أنشئت كانت تابعة بنسب متفاوتة للدولة المنتدبة ، وجعل لها أشكال مختلفة من الحكم . وسمى مواطنوها عراقيين ، وسوريين ، ولبنانيين وفلسطينيين ، بينما كانوا قبل الحرب يعرفون جميعا كعرب . وكانوا حينذاك ينتقلون بحرية فى الولايات العربية الداخلة بالامبراطورية العثمانية ، ويقيمون حيث طاب لهم المقام ، ويشعرون أنهم فى بلدهم سواء كانوا فى دمشق أو القدس أو بغداد أو فى بيروت .. أما الآن فإن مواطنى إحدى هذه الدول أصبحوا يعتبرون أجانب فى الدول الأخرى . والانفصال الاقتصادى ـ فيما عدا سوريا ولبنان ـ كان تاما كالانفصال القائم بين دول غربية وأجنبية تماما . ففرضت الحواجز الجمركية والقيود المختلفة والعملات المتعددة . وقبل الحرب كانت البضائع تنتقل بحرية ، كالأفراد ، وكان ثمنها يدفع فى عملة واحدة ، هى الليرة الذهبية الثابتة . ولكن الحواجز المصطنعة التى أقيمت بعد الحرب ، وصعوبات تحويل العملات ، وتقلبات العملات وتدهورها ، وبصورة خاصة تدهور الفرنك الفرنسى ، أدت إلى اضطراب التجارة وسببت الفقر والأزمات الاقتصادية . فمن ناحية الوحدة العربية ـ السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية ـ فإن التسوية التى عقبت الحرب والتى فرضتها بريطانيا وفرنسا ، كانت بدون شك ، تأخرا عن الأحوال السائدة فى العهد التركى.

وقد سارت الدول الموضوعة تحت الانتداب ، والتى انبثقت عن تسوية ما بعد الحرب العالمية الأولى ، فى اتجاهات مختلفة فى أثناء الفترة الواقعة بين الحربين ، وكانت كل واحدة منها منشغلة بمشاكلها المحلية وبنضالها لتحرير نفسها من الدولة الأجنبية المسيطرة عليها . وفى خلال ذلك ولدت وترعرعت قوميات محلية بدت وكأنها ستحل محل الفكرة العربية الشاملة . ولكن الدول العربية المختلفة ، لم يكن لها بد ، رغم انفصال كياناتها ، من أن تقترب من بعضها البعض ، بنتيجة عوامل عدة ، كانت تفعل من ضمن مجتمعها ، أو خارجه . فالنضال من أجل الاستقلال ذاته ، مع أنه كان يجرى على نطاق محلى ، كان قوة توحيدية . والأنظمة التعليمية الحكومية التى

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

أسست فى هذه الفترة ، قوت شعور التضامن العربى ، وذلك لأنها شددت على أهمية لغة العرب ، وتاريخهم وحضارتهم ،ولأنها نشرت التعليم بين جمهرة الشعب وأوجدت وعيا للقضايا القومية . والمواصلات الحديثة سواء ما كان منها ماديا أو مسهلا لتبادل الأفكار ، قربت العرب من بعضهم البعض . فتقلصت المسافات أمام السيارة والطائرة . ووصلت الإذاعة اللاسلكية والصحف إلى القرى البعيدة غير المطروقة ، ونقلت الأخبار والمعلومات إلى أعداد متزايدة من الناس . وانتشر بالتدريج أسلوب مبسط للغة العربية الفصحى ، كان مفهوما لدى الرجل العادى من مراكش إلى العراق ، فزاد فى العناصر التوحيدية . وفوق هذا كله فإن فكرة الأمة العربية الموحدة كانت أكثر إلهاما وأبعث بكثير على الرضا والحماسة من أية قومية محلية ، وبالتالى فقد لاقت إقبالا حماسيا وخصوصا من جانب الشبان من أبناء الجيل الجديد .

ويمكننا أن نلحظ فى هذه الفترة اتجاها أكيداً نحو علاقات أوثق وتعاون أتم بين الدول العربية . وقد أخذ هذا الاتجاه ، على المستوى غير الرسمى ، شكل نشاط ثقافى ودعوة إلى عدة مؤتمرات عربية . وكان بعضها لجماعات مهنية ، وعقد بعض هذه المؤتمرات لمجابهة الوضع السياسى فى البلاد العربية وخصوصا فى فلسطين ، حتى إن أول مؤتمر نسوى عربى كان مخصصا برمته لقضية فلسطين .

وانبثق عن هذا الاتجاه على المستوى الرسمى معاهدات صداقة وحسن جوار عقدت بين عدة دول عربية . فقد تم الوصول إلى سلسلة من المعاهدات التى سوت الاختلافات حول الحدود ، بين المملكة العربية السعودية من جهة ، والعراق ، والأردن ، واليمن من جهة أخرى . ووقعت معاهدة أخوة وتحالف فى ابريل (نيسان) سنة ١٩٣٦ ، بين العراق والمملكة العربية السعودية وأعربت عن الحاجة إلى التعاون والتفاهم ، ونظمت حل جميع الاختلافات على أسس سلمية ونصت على

تبادل البعوث الثقافية والعسكرية . وقد ترك باب الانضمام إلى هذه المعاهدة مفتوحا لجميع الدول العربية المستقلة [١] ، وانضمت اليمن إليها فى العام التالى . وفى مايو (أيار) سنة ١٩٣٦ ، وقعت مصر والمملكة السعودية معاهدة سوت خلافاتهما .

ومن الوثائق المهمة معاهدة الطائف الموقعة فى ٤ مايو (أيار) سنة ١٩٣٤ ، بين المملكة العربية السعودية واليمن ، لإنهاء الحرب بينهما . ويجب أن نتذكر أن الحرب انتهت بنصر كامل للقوات السعودية على اليمنيين . إلا أن المعاهدة خالية تماما من أى أثر لاتهام أو انتقام أو تشف . بل هى موضوعة بروح كريمة متسامحة ، كالروح التى تسود الشركاء المتساوين .

وبموجب هذه المعاهدة ، تعهد الطرفان بالامتناع عن استخدام القوة وبحل مشاكلهما بالمشاورات السلمية ، واتفقا على إصدار عفو عام شامل عن جميع الجرائم والأعمال العدائية التى اقترفها رعايا أحد الطرفين المقيمون فى بلاد الطرف الآخر ، وأعلنا عن رغبتهما فى عمل كل شىء ممكن لتسهيل المواصلات ، وتشجيع تبادل البضائع ، ووضع اتفاقية تجارية ، وزيادة الاتصال بين البلدين فى كل شكل ممكن . وحيثما يكون للبلدين ممثلون ، سيقوم هؤلاء الممثلون بالتشاور وتوحيد السياسة ، لمصلحة بلديهما اللذين يشكلان أمة واحدة . وأن الطرفين الساميين المتعاقدين ، المرتبطين بالأخوة الإسلامية وبالعروبة ، يعلنان أن أمتهما أمة واحدة ، وأنهما لا يريدان بأحد شرا ، وأنهما سيعملان على تحسين أحوال بلديهما فى ظل من السلام والطمأنينة ، وأنهما سيقومان بكل جهد ، وفى جميع الظروف للعمل على مصلحة بلديهما وشعبيهما ، ودون أن يكون لهما فى الوقت ذاته أية نوايا عدوانية تجاه أية أمة أخرى [٢] .

وقد علقت إحدى النشرات الغربية الهامة على هذه المعاهدة بقولها : إنه وإن

---

(١) Documents on International Affairs, 1937, pp. 522–526.

(٢) Documents, 1934, pp. 459–464

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

لم تكن المملكة العربية السعودية واليمن عضوين فى عصبة الأمم ، كما وأنهما لم تتأثرا بالمدنية الغربية الحديثة إلا قليلا ، ومع ذلك فقد نجحتا فى الوصول إلى معاهدة صلح تعتبر روحها درسا ومثالا يجدر بالعالم الغربى أن يتعلم منه [١] .

إن الوحدة العربية بدت فى العقد الذى تلا الحرب العالمية الأولى وكأنها قضية خاسرة ، وذلك إثر ما حصل من تمزق فى المجتمع العربى ، ومن تجزئة للبلاد العربية ، ومن وضع لمعظم أنحائها تحت الحكم الأجنبى . وفى عقد ١٩٣٠ اتجهت الأحداث إلى زيادة الربط بين العرب ، حكومة وشعوبا ، وأخذ يتكون شكل ، وإن لم يكن واضحا بعد ، من وحدة الغاية والاتجاه ، فنشأ الأمل بإمكان بعث وحدة أوفى وأوثق . وتسارعت الأحداث المؤدية إلى هذا الهدف أثناء الحرب العالمية الثانية .

فإن حاجات الحرب أجبرت الدول المهيمنة على أن تنظر إلى الشرق الأوسط كوحدة واحدة فأسست منظمة إقليمية هى مركز تموين الشرق الأوسط ، لتأمين ضروريات المعيشه للسكان المدنيين المقيمين فى المنطقة ، ضمن إطار من متطلبات الحرب العالمية . ولما كان من الضرروى تحويل ما يمكن من السفن وتجهيزات الموانى ووسائل النقل الداخلى للأغراض العسكرية ، كان لا بد من تخفيض مقادير البضائع المدنية المشحونة تخفيضا كبيراً . ولكن أقطار الشرق الأوسط كانت تعتمد اعتمادا قويا على المستوردات الأجنبية ، ولذا فإن التخفيض الكبير لهذه المستوردات هدد المنطقة كلها بنقص خطير . فكان ضروريا إذن أن تنمى الموارد المحلية إلى أقصى حد ممكن ، وأن يهيأ لتبادلها بين الدول المختلفة ، وأن تعرف الحاجات الضرورية التى لا يمكن تأمينها محليا ، وأن توفر لها وسائل النقل ويؤمن توزيعها بالعدل . وهكذا فإن مركز تموين الشرق الأوسط الذى أنشأته بريطانيا سنة ١٩٤١ ، ومن ثم اشترك بإدارته

---

(١) Survey of International Affairs 1934, p. 138.

الانكليز والأميركيون فى السنة التالية ، اضطر لأن يعتبر الشرق الأوسط كلا واحدا من حيث حاجاته ، ومن حيث تنمية إمكاناته . ورتب المركز مؤتمرات إقليمية حول المشاكل الاقتصادية التى تهم جميع الحكومات المشتركة فى تلك المؤتمرات . وقد أفادت هذه المؤتمرات ، إلى جانب التجارب والمعارف التى أمنت تجميعها وتبادلها فى الاجتماعات ، فى أنها أظهرت الحاجة إلى تنظيم أقطار الشرق الأوسط على أسس إقليمية ، وأبانت إمكانية مثل هذا التنظيم . ولم تكن هنالك سوى خطوة قصيرة ، تفصل بين التنظيم الإقليمى الاقتصادى والتنظيم الإقليمى السياسى .

وكان من آثار ضغط الحرب أيضا أن أعلنت الحكومة البريطانية تأييدها للوحدة العربية . ففى مايو (ايار) سنة ١٩٤١ ، ألقى أنطونى إيدن وزير الخارجية البريطانية بيانا قال فيه : « يبدولى طبيعيا وحقا أن تتقوى الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلاد العربية ، والروابط السياسية أيضا . وأن حكومة جلالته ، من جانبها ، لتقدم التأييد الكلى لأى مشروع ينال الموافقة العامة ». وذكر فى البرلمان البريطانى بعد ذلك بسنتين أى فى فبراير (شباط) سنة ١٩٤٣ ، أن « حكومة جلالته كما سبق لها أن أوضحت تنظر بعين العطف إلى أية حركة بين العرب لتشجيع وحدتهم الاقتصادية ، أو الثقافية أو السياسية » .

وعندما ألقى هذان البيانان لم تكن الحرب تجرى لصالح بريطانيا ، وكان الشرق الأوسط حيويا لسير الحرب ولنتيجتها ، وكل اضطراب فى هذه المنطقة ، كان يمكن أن يكون له أثر كبير فى المجهود الحربى . والعرب الذين يقطنون معظم أنحاء الإقليم كانوا قلقين وشاعرين بالخيبة من جراء المشاكل والتوترات التى نشأت عن التسوية المنبثقة عن الحرب الأولى . والبريطانيون ، الذين كانوا يشعرون بضرورة المحافظة على السلام والهدوء فى الشرق الأوسط ، والذين كانوا يدركون قوة الحركة العربية المتزايدة ، فضلوا أن يسيروا مع التيار بدلا من أن يحاولوا وقفه . وقد كان وزير الخارجية البريطانية يأمل من وراء بياناته التى تعرب عن عطف بريطانيا على قضية

الوحدة العربية أن يستعيد لبلاده ما كانت قد فقدته من صداقة العرب وثقتهم بنتيجة السياسة التى اتبعتها فى فترة مابين الحربين .

وكانت فكرة الوحدة فى هذه الأثناء تنضج بين الزعماء العرب ، الذين كانوا قلقين على مصير البلاد العربية وأخذوا يدركون أن مركزهم تجاه الدول الغربية سيتقوى كثيرا ، إذا استطاعوا أن يواجهوا هذه الدول وهم جبهة متحدة . وفى صيف سنة ١٩٤٣ ابتدأت سلسلة من المشاورات بين رئيس الوزراة المصرية من جهة ، ووفود متعاقبة عن الأقطار العربية المستقلة من جهة أخرى . واستمرت المشاورات حتى شتاء سنة ١٩٤٤ ، وعند نهايتها اتضح أن الدول المشتركة فيها كانت مستعدة لعقد مؤتمر عام حول الوحدة العربية .

وفى أثناء هذه المشاورات حصلت الأزمة اللبنانية الفرنسية فى نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩٤٣ ، فكانت محكا لمقدار ومدى الشعور الشعبى والرسمى بالترابط العربى . وقد جاء رد فعل العالم العربى فوريا وقويا ، وأثبت لبنان نفسه أنه لا يمكن اعتباره مطية لدولة أجنبية .

وعقد مؤتمر تمهيدى فى الاسكندرية من ٢٥ سبتمبر (أيلول) إلى ٧ اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٤٤ ، حضرته وفود عن دول عربية سبع ، وهى مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن واليمن . واشترك فى المؤتمر مندوب عن عرب فلسطين ، هو السيد موسى العلمى ، على قدم المساواة مع ممثلى الدول المستقلة .

وقد اقترحت فى مؤتمر الاسكندرية وفى المشاورات التى سبقته ثلاثة أشكال للوحدة العربية ، فأما أوثق أنواع الوحدة المتضمنة إنشاء حكومة مركزية واحدة . فقد استبعد . ودرس اقتراح آخر لدولة اتحادية ذات سلطة ملزمة على الدول التى تتشكل منها ، على أن تكون السلطة الاتحادية كامنة فى مجلس تشترك كل دولة فيه بإرسال عدد من الممثلين عنها يكون نسبيا مع عدد سكانها وفى لجنة تنفيذية مسئولة أمام المجلس الاتحادى . ولكن هذا الشكل أيضا اعتبر غير عملى واستبعد فى الظروف

الراهنة . وقرر أخيرا تأسيس رابطة متراضية ، تكون سلطتها ملزمة فقط للدول التى تقبل قراراتها ، باعتبار ذلك خطوة أولى نحو الوحدة .

ووضع المؤتمر التمهيدى وثيقة عرفت باسم « بروتوكول الإسكندرية » نصت على تأسيس جامعة من الدول العربية المستقلة لتقوية الصلات والروابط بينها ، ولتنسيق مجهوداتها ، وتشجيع التعاون الأوثق فى الحقول السياسية والاقتصادية والثقافية ، فتؤمن بذلك لها الرفاه وتحافظ على استقلالها .

ولكن المؤتمر لم ينشىء الوحدة العربية ، بل إنه اجتمع ، كما جاء فى مقدمة البروتوكول : « إثباتا للصلات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين البلاد العربية جمعاء ، وحرصا على توطيد هذه الروابط وتدعيمها وتوجيهها إلى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة وصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها » . وتوضح مقدمة البروتوكول أيضا أن المؤتمر لم يكن مجرد إعراب عن الاتجاه الرسمى ، أو نتيجة مشاورات الدوائر الحكومية فحسب ، بل كان معبراً عن الشعور العام ، وعن الأمانى الشعبية ، فإنه اجتمع « استجابة للرأى العام العربى فى جميع الأقطار العربية » . وفى حين اعترف البروتوكول باستقلال الدول المشتركة فإنه قرر أن تسير سياسة هذه الدول على أساس خطة موحدة فى علاقاتها مع العالم الخارجى ، ولن يسمح بحال من الأحوال بانتهاج سياسة خارجية تكون ضارة بسياسة الجامعة أو عضو من أعضائها ، وذلك لإزالة الخطر من أن تسير بعض الدول فى أفلاك الدول الكبرى ، فتضطر إلى انتهاج سياسات متناقضة . ومنع الحرب وحرم الالتجاء إلى القوة لإنهاء أى خلاف بين الدول الأعضاء فى الجامعة . فإذا حصل خلاف فإن مجلس الجامعة الذى تتمثل فيه جميع الدول على أساس من المساواة وذلك بقطع النظر عن حجمها ، يتوسط فى سبيل الوصول إلى تسوية . وهكذا فإن العرب أوجدوا منظمة إقليمية لحفظ السلام فى منطقة تكثر فيها المصالح الحيوية وتتعارض ، وذلك قبل مؤتمر سان فرانسيسكو الذى انبثقت عنه منظمة الأمم المتحدة ببضعة أشهر .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

غير أن الاعتبارات السياسية لم تكن وحدها موضع الاهتمام فى مؤتمر الإسكندرية . فقد توخى البروتوكول التعاون الوثيق بين الدول فى الأمور الاقتصادية والثقافية والاجتماعية . واتخذ قرار خاص بشأن لبنان مؤكدا احترام الدول الأخرى لاستقلاله وسيادته ، ومزيلا بالتالى مخاوف بعض اللبنانيين حول غاية الجامعة وروحها . واتخذ قرار خاص آخر بتثبيت مسئولية العالم العربى كله فى قضية فلسطين ، و بأنه لن يكون سلام أو استقرار فى الشرق الأوسط حتى تصان الحقوق الطبيعية لعرب فلسطين وذلك بإنشاء دولة مستقلة فيها . وأخيراً أكد البروتوكول الناحية التطورية فى تكوين الجامعة ، ووصفها بأنها خطوة أولى يؤمل أن تؤدى فى المستقبل إلى خطوات أخرى نحو اتحاد أوثق .

وفى مارس (آذار) سنة ١٩٤٥ عقد مؤتمر فى القاهرة انتهى إلى وضع الميثاق الذى تأسست بموجبه الجامعة العربية . وهذا الميثاق ، بالرغم من أنه اتبع المبادىء العامة التى وضعت فى بروتوكول الإسكندرية ، إلا أنه كان أضعف من ذلك البروتوكول . فقد أكد مجددا على استقلال الدول الأعضاء وسيادتها ، وتخلى عن الفقرة التى تمنع اتباع سياسة خارجية ضارة بالجامعة ، وكذلك عن الفقرة التى أشارت إلى التطلع لتوثيق الروابط بقصد الوصول إلى اتحاد أوثق . وحذف القرار المختص بلبنان وذلك لأن الميثاق تضمن تأكيدات كافية لضمان سيادة الدول الأعضاء . وفيما يتعلق بفلسطين ، وضع ملحق يقر باستقلالها من الناحية القانونية de jure ، وينص على تمثيلها فى مجلس الجامعة . وأتاح ملحق آخر قبول الأقطار العربية التى ما تزال خاضعة للحكم الأجنبى فى لجان الجامعة ، وحتم على مجلس الجامعة فى أن لا يدخر جهدا فى التعرف على حاجاتها وفهم أمانيها وآمالها ، وفى العمل من أجل مصالحها ولصيانة مستقبلها بجميع الوسائل السياسية التى يملكها .

وقد اعتبر الرأى العام العربى تأسيس الجامعة خطوة طيبة ، بالرغم من شعور الكثيرين بأن ميثاقها لم يكن ملزما إلى حد كاف ، وأنه مقصر عن أمانى الشعب

فى الوحدة . ولـكنها كانت بداية فى الاتجاه الصحيح ، وانتشر الشعور بين الناس بأن الجامعـة ستنمو ، بفضل الإرادة الشعبية ، وستصبح أداة أكثر فعالية لتحقيق تماسك وترابط أقوى بين العرب .

إلا أن الجامعة ، فيما آلت إليه بعـد ذلك ، حيث الـكثير من الآمال المعقودة عليها . فبدلا من أن تعمل على زيادة التوثيق فى الروابط العربية ، جمدت العلاقات بين الدول العربيـة عند النقطة التى كانت هـذه العلاقات قد وصلتها حين تأسيس الجامعة .

والمسئولية الـكبرى لفشل الجامعة تقع على الدول الأعضاء التى ليس للجامعة عليها أية سلطة ملزمة . وهذه الدول ، بتصميمها على اتباع خطة تجعل للمشا كل والاعتبارات المحلية سبقا على الأمور الحيوية التى تهم العرب بأجمعهم كانت تفتقر إلى سعة الأفق وتنقصها الرغبة فى تنمية سياسة عربية موجهة نحو تحقيق المصالح النهائية الـكبرى للأمة العربية بمجموعها . فعندما كانت الدول العربية خلال عقد ١٩٣٠ تناضل لزحزحة سيطرة الدول المنتدبة ، كان القوميون العرب يعتقدون بأن تحقيق الاستقلال سيؤدى إلى تحقيق الوحدة لأنه يزيل السيطرة الأجنبية التى تشكل العائق الرئيسى فى سبيل الوحدة . ولـكن التطورات الواقعية لم تؤيد هذا الأمل . فظهرت فى كل دولة طبقة من الحـكام والسياسيين وطلاب الوظائف والدائرين فى أفلا كهم وأصبحت لهؤلاء مصلحة خاصة فى الإبقاء على الوضع الراهن . كما أن شعوب هذه الدول ، وبالأخص الجماعات المثقفة والواعية بينهم ، تتحمل قسطها من المسئولية فى سياسات حكوماتها . فهذه الشعوب فشلت فى إقناع حكوماتها بأنها جادة فى تحقيق الوحدة التى طالمـا نادت بها ، وأعلنت أنها تعبر عن إرادة الأمة العربية . فالرأى المعبر انصرف إلى الـكلام أكثر من انصرافه إلى الجهد النشيط البناء فى العمل الإيجابى الصحيح ، الذى بدونه لا يمكن تحقيق أى مثل أعلى ، مهما كان نبيلا وعمليا .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ولدى محاولتنا لتقدير الجامعة العربية يجدر بنا أن لا ننسى أنها واجهت منذ تأسيسها مشاكل من أثقل المشاكل وأعقدها ، لم يكن للجامعة ولا للدول الأعضاء سوى سيطرة جزئية عليها . وهذه المشاكل تضمنت العلاقات العربية مع دولتين مستعمرتين هما بريطانيا وفرنسا ، ومع الصهيونية العدوانية التى تدعمها اليهودية العالمية بما لها من نفوذ هائل فى الأوساط السياسية فى العالم الغربى .

وقد أخفقت الجامعة فى معالجتها لقضية فلسطين ، ولم يكن للدول أعضائها جيوش مدربة ومجهزة بالأسلحة الحديثة ، كما أنها لم تضع خطة مشتركة للدفاع ، تسندها سياسة خارجية مشتركة .

غير أن الجامعة نجحت فى مواجهة الاعتداء الفرنسى على سوريا سنة ١٩٤٥ ، فكان تأييد الدول العربية لسوريا ، إلى جانب تصميم الشعب السورى ، وتدخل البريطانيين فى الوقت المناسب ، من العوامل المهمة فى إرغام الفرنسيين على الانسحاب. وقدمت الجامعة لقضية الحرية فى شمال أفريقيا أكثر من مجرد المعونة الكلامية ، وأن الجامعة العربية التى أدركتها عاصفة من القضايا السياسية ، لم تعط النواحى الاقتصادية والاجتماعية من التعاون العربى الاهتمام الكافى ، مع أن ميثاق الجامعة نص بالتعيين على الاهتمام بها .

وقد وضعت اتفاقية ثقافية انضمت إليها جميع الدول الأعضاء ، وهى ترمى إلى ترابط الأنظمة التربوية فى البلاد العربية ، وإلى نشر العلوم وترقيتها ، وإلى إيجاد ثقافة موحدة مبنية على التراث العربى ومغتنية بمآثر العلوم الحديثة . وقد أصدرت الإدارة الثقافية التابعة للأمانة العامة لجامعة الدول العربية عدة نشرات عن الشئون العربية ، أهمها حولية الثقافة العربية وضعها ساطع الحصرى ، وهو الذى أسس نظام التعليم العام فى العراق ، وأعاد تنظيم المعارف السورية ، والذى يعتبر فى كثير من النواحى أقدر مرجع عن التعليم فى العالم العربى . وأسست الإدارة الثقافية قسما للمخطوطات غايته التعريف بالمخطوطات العربية الموجودة فى المكتبات العامة أو

الخاصة ، ووضعها فى متناول الباحثين فى هذه الحقول ، وذلك بإعداد فهرست عام و بتصوير المخطوطات المهمة ونشرها . وكان هذا القسم فى نهاية سنة ١٩٤٩ قد صور خمسة آلاف مخطوطة . وفى استطاعة الباحثين الرجوع إلى هذه المجموعة وذلك باستعمالها فى الإدارة الثقافية أو بشراء النسخ أو استعارتها بوساطة المؤسسات العلمية .

وقد نظمت الجامعة عددا من المؤتمرات فى الشئون الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان أولها مؤتمران عقدا فى صيف ١٩٤٧ . فمؤتمر الآثار المنعقد بدمشق أوصى الجامعة بإنشاء لجنة للآثار للتعاون مع الدول العربية فى التنقيب وفى الأعمال الأثرية الأخرى . واتخذ قرارا بإعداد ونشر معجم للفنون والآثار باللغة العربية . وطالب المؤتمر الجامعة أن تحصل على إذن بالتنقيب فى المملكة العربية السعودية واليمن ، لأهمية هذين البلدين فى الحضارة العربية .

ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نشير إلى أن بعثة مصرية مكونة من أربعة علماء كانت قد زارت اليمن قبل ذلك بعشر سنوات وأجرت بعض الدراسات فى علم الآثار وعلم الأجناس البشرية (الأنثربولوجيا) وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) والجغرافيا والنباتات والحشرات . وكانت أكبر بعثة علمية زارت اليمن منذ البعثة الدانماركية الرائدة التى قادها نيبور Niebuhr حوالى منتصف القرن الثامن عشر .

وأكد المؤتمر الثقافى المنعقد فى لبنان أهمية تدريس اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا العربية كوسائل لتحقيق الوحدة العربية . وأكد الأغراض الاجتماعية للتعليم والحاجة إلى غرس المبادئ الديموقراطية فى روح الشبان والفتيات .

وأعطيت نواحى الفكر والتدريب المتوخية تشجيع الوحدة العربية سبقا فى قرارات المؤتمر . فطالبت هذه القرارات بتأكيد الروابط الجغرافية بين البلاد العربية فى آسيا وأفريقيا ، وإظهار ارتباطها الوثيق فى جميع أطوار تاريخها الطويل ، وإبراز تراثها الثقافى الفذ ومآثرها للحضارة العالمية . وإن ربط جميع عناصر الأمة لهو الهدف

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

والدعامة لفكرة القومية العربية . فهذه الفكرة لم تكن فى أى وقت من الأوقات ملكا لجماعة بعينها دون سواها أو لطائفة خاصة خلافا لغيرها ، بل هى التراث المشترك لجميع العرب ، وهو التراث الذى ساهمت فى خلقه جميع الطوائف الدينية سواء فى القرون الوسطى أو فى النهضة الحديثة . والجامعة العربية يجب أن تفهم باعتبارها إفصاحا عن تطور داخلى عند العرب يرمى إلى توحيدهم ، وهو تطور ينسجم مع الاتجاهات العالمية فى الترابط والتوحيد . والاستقلال هو حق طبيعى لكل شعب ، والاستعمار نوع من الاستعباد . ويجب بذل الجهد المشترك لتحرير البلاد العربية كلها . وأخيرا أعلنت مقررات المؤتمر أنه لما كانت الديموقراطية هى أسلم الطرق لتأمين الحرية والعدالة والمساواة ، وجب بذل كل جهد لجعل روح الديموقراطية إيمانا حيا فى نفوس الشبان .

ولدى محاسبة الجامعة العربية على أعمالها ، كثيرا ما يسأل : هل برزت الجامعة وجودها؟ وهل قربت بين العرب فعلا ؟ ففى فترة خشى المفكرون العرب من انقسام الجامعة إلى معسكرات متنافسة ، ولاحظوا فى أسى أن بعض الاتجاهات المجزئة قد زادت ، وأن المنافسات بين الدول والسلالات الحاكمة قد اشتدت ، منذ أن تأسست الجامعة . ومع أن معظم المراقبين يدركون بأنه ليس من الإنصاف ولا من المعقول إلقاء اللوم فى هذه التطورات المؤسفة على الجامعة ، فإنهم مع ذلك يتساءلون عما إذا كان من مصلحة الوحدة العربية أن تستمر الجامعة فى شكلها الحالى ، وعما إذا كان من الأفضل استبدالها باتحادات ثنائية تكون أكثر جوهرا وقيمة فى تقدم قضية الوحدة العربية .

وكان هناك مشروعان : أحدهما مشروع الهلال الخصيب ، والآخر مشروع سوريا الكبرى ، الذى كان يرمى إلى تأسيس دولة واحدة ضمن المنطقة التى كانت تعرف باسم سوريا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . وكان جميع العاملين فى الحقل

القومى يهدفون إلى إعادة توحيدسوريا ، بعد أن قسمت إلى أجزاء مختلفة فى التسوية التى عقبت الحرب العالميـة الأولى . غير أن مشروع سوريا الـكبرى ، بالشكل الذى اقترح به كان يلقى المعارضة وذلك لصلة المشروع بالملك عبد الله و بوضع شرق الأردن آنذاك . ولا بد من بعض الإشارة إلى شرق الأردن وحا كمها الراحل ، لفهم ظروف هذا المشروع .

لم يكن لشرق الأردن كيان منفصل ، بل لم تكن معروفة بهذا الاسم ، قبل سنة ١٩٢٠ . فقد كانت فى العهد العثمانى متصرفية تابعة لولاية سوريا ، واستمرت كذلك فى ظل مملـكة فيصل العربيـة ، إذ كانت تدار من دمشق مباشرة . وقبل سنة ١٩٢٠ لم يـكن هنالك من يتصور أن هـذه المتصرفية القاحلة التى كان سكانها ٢٠٠,٠٠٠ معظمهم من البدو ، والتى كانت تفتقر إلى الموارد والإمكانيات ، ستصبح فى يوم من الأيام دولة منفصلة . ومع ذلك ، و بالرغم من أنه لم يتيسر لها أى من مؤهلات الدولة ، فقد جعلت دولة ، بل ومملـكة .

فشرق الأردن من صـنع بريطانيا . وقد جاءت إلى الوجود نتيجة اتفاقية مع فرنسا ، عندما أطلقت يدها فى سـوريا لقاء موافقتها على الانتداب البريطانى على فلسطين ، وعلى ضم المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن إلى هـذا الانتداب البريطانى أيضا . ولقد أدرك البريطانيون إمكانيات شرق الأردن كقاعدة عسكرية ، خصوصا وأنهم كانوا يأملون ألا تنشأ فيها لمدة طويلة من الزمن حركات قومية تزعجهم ، ذلك لأنها منطقة متخلفة وقليلة السكان . ولما كان البريطانيون قد ارتبطوا بوعد بلفور ، وكانوا فى الوقت ذاته غير راغبين فى توسيع نطاقه إلى ما وراء نهر الأردن ، فقد أنشأوا إمارة شرق الأردن وجعلوا الأمير عبد الله حا كما عليها . وأخضعت شرق الأردن لسلطة المندوب السامى لفلسطين ، الذى كان يمثله مقيم بريطانى فى عمان . وقد أدخل أسلوب السيطرة بوساطة المعاهدة إلى شرق الأردن سنة ١٩٢٨ ، عندما وضع البريطانيون وثيقة تعين علاقتهم بهذه الدولة وحا كمها . وهذه المعاهدة بعد أن منحت

للأمير السلطات والصلاحيات التى تكمن فى الشعب وتمارس بوساطة ممثليه المنتخبين — وهى سلطات التشريع ، و إعطاء الامتيازات ، واستغلال موارد البلاد — ربطت الأمير ربطا محكما ببريطانيا ، إذ ذكرت بوضوح بأن على الأمير أن يستشير المقيم البريطانى فى عمان فى جميع الأعمال والقرارات .

وهذه العلاقة لم تنل قبولا من جانب العناصر المستنيرة والمعبرة التى أعربت عن معارضتها لها فى المؤتمر الأردنى المنعقد بعمان فى صيف سنة ١٩٢٨ . وقد رفض الميثاق الوطنى المنبثق عن المؤتمر ، الانتداب البريطانى ، إلا إذا كان معناه تقديم المساعدة الفنية المحددة فى معاهدة تتم على أساس من المساواة . وأعلن الميثاق أن شرق الأردن دولة مستقلة ودستورية ، ودعا إلى إجراء الانتخابات على أساس تمثيلى صحيح (١) .

ولم تعدل معاهدة سنة ١٩٢٨ إلا سنة ١٩٤٦ ، عندما أنهى الانتداب على شرق الأردن وأصبحت بالاسم لا بالفعل دولة مستقلة . وكان القصد من هذا الاستقلال الاسمى إعطاء بريطانيا يدا أطلق فى شرق الأردن ، لأن الدول التى لم تبلغ الاستقلال كانت قد أصبحت موضع اهتمام المؤسسات الدولية بشكل متزايد ، وقد لاقت هذه المعاهدة معارضة فى شرق الأردن وغيرها من الدول العربية ، فعدلت بعد سنتين تعديلا طفيفا .

وكان الملك عبد الله ، المدين بمركزه لبريطانيا ، والمعتمد عليها فى بقاء دولته ، المؤيد الأول لبريطانيا فى البلاد العربية . وقد تصرف عبد الله فى جميع الأمور بوحى من توجيه بريطانيا . فكان متفقا مع البريطانيين حول قضية فلسطين . إذ قبل مشروع التقسيم الأول الذى قدمته لجنة بيل سنة ١٩٣٧ ، والتى اقترحت أيضا ضم القسم العربى من فلسطين إلى شرق الأردن . وكان فى أثناء الحرب الفلسطينية على اتصال مع الزعماء الصهيونيين ، سواء بالمراسلة أم بالاجتماعات السرية . ولم يُشرك

---

(١) Survey of International Affairs, 1928, pp. 326–327 ; Documents on International Affairs 1928, pp. 213–219.

الجيش العربى الأردنى بالقتال إلا بالقدر الذى سمح به جلوب باشا . وعندما انتهت المعارك الحربية تنازلت حكومة الملك عبد الله لإسرائيل عن قسم من المنطقة المهمة المعروفة بالمثلث العربى ـ حول نابلس وطولكوم وجنين ـ حيث لم يكن بين السكان يهود ، ولم يكن اليهود يملكون أى أراض . وفى قضية تدويل القدس عارض عبد الله رأى الدول العربية الإجماعى ، وطالب بتقسيم المدينة بين العرب واليهود ، فكان موقفه هذا متفقا مع مطالب اليهود ، ومواقف بريطانيا والولايات المتحدة .

ولما كان هذا شأن الملك عبد الله ، فإن مشروعه الداعى إلى توحيد أجزاء سوريا تحت تاجه لم يكن جديرا بأن يطمئن إليه الشعب السورى أو الشعوب العربية الأخرى .

وفى صيف سنة ١٩٤٣ عندما كان رئيس وزراء مصر يستمزج رأى الحكومات العربية حول الوحدة العربية اقترح مندوبو شرق الأردن توحيد أجزاء سوريا الأربعة ، وقالوا : إذا استحال شمول لبنان وفلسطين فى مثل هذه الدولة الموحدة ، فيجب عند ذلك أن يقتصر الاتحاد على سوريا وشرق الأردن . وقد أثير الموضوع مجددا من جانب الوفد الأردنى فى اجتماع الجامعة العربية فى خريف سنة ١٩٤٦ ، عندما كانت الدول العربية تتهيأ لمؤتمر لندن حول فلسطين . وقد تقدم السوريون باقتراح معاكس مفاده أنه لما كانت شرق الأردن دائما متصرفية تابعة لسوريا ، فليس من الطبيعى أن تضم سوريا إلى شرق الأردن ، بل إن شرق الأردن ، وهى الفرع ، يجب أن تعود إلى سوريا ، التى هى الأصل ، فى ظل نظامها الجمهورى .

وبعد قيام الدولة الصهيونية فى جزء من فلسطين ، ضم الجزء العربى إلى شرق الأردن وأصبح القطر يعرف بالمملكة الأردنية الهاشمية . وكان من نتيجة ضم فلسطين العربية إلى الأردن فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٨ أن زاد سكان الأردن بأكثر من ثلاثة أضعاف ، فنشأت بذلك مشاكل جديدة ودخلت عناصر جديدة فى معالجة

المشاكل . وقد ظهرت آثار اشتراك الفلسطينيين فى الحياة العامة للأردن فى أشكال عديدة ، منها إعلان دستور جديد سنة ١٩٥٢ . وقد وضع هـذا الدستور بعض الحدود على سلطات الملك وجعل الوزارة مسئولة أمام البرلمان . وقد اتجه الأردن فى الآونة الأخيرة اتجاها تحرريا قويا مما جعل اتحاد الأردن وسوريا أمرا يترقبه ويرجوه الأحرار العرب .

وكان مشروع الهلال الخصيب الذى وضعه السيد نورى السعيد سنة ١٩٤٢ يرمى إلى توحيد سوريا وربطها باتحاد مع العراق ، على أن يترك باب الانضمام إلى هذا الاتحاد مفتوحا للدول العربية الأخرى . ولم يلق المشروع قبولا حسنا . فقـد كانت هنالك خشية من أن يعطى اليهود فرصا أوسع للتوسع فى سوريا الموحدة ، بحيث تتسنى لهم السيطرة الاقتصادية على المنطقة بأسرها . والبند الذى يسمح للمسيحيين فى لبنان بأن يؤسسوا دولة ذات استقلال داخلى فى قسم من البلاد يشكل رجعة للوراء لأنه يقر انقسام العرب على أسس دينية . ولم تـكن الفـكرة القائلة بأن سوريا والعراق أوثق ارتباطا ببعضهما البعض من باقى البلاد العربية مقبولة ، واعتبرت فـكرة خطرة قد تقف حجر عثرة فى طريق وحدة عربية أوسع . وقد أهمل هذا المشروع، وقامت الجامعة العربية مكانه .

وقد بعث المشروع فى ظروف تثير الريبة ، وكان ذلك عقب الـكارثة الفلسطينية عند ما عرضت الحـكومة العراقية اتحادا بين سوريا والعراق كوسيلة للمحافظة على سوريا تجاه الخطر الإسرائيلى . وقد حشد الجيش العراقى المنسحب من فلسطين قرب الحدود السورية ، وذلك ، على ما زعم ، لمساعدة سوريا فى حالة هجوم إسرائيلى . غير أن أحداً لم يؤخذ بهذا الادعاء . فالجيش العراقى أرسل إلى فلسطين دون تجهيز كاف بالسلاح ، ولم يسمح له بالقتال أثناء وجوده فى فلسطين . وكان الشعور الشعبى فى العراق مهتاجا لنتائج الحرب الفلسطينية ، فخشيت الحـكومة أنه إذا ما أعيد الجيش الخائب إلى العراق فى أحوال التوتر السائدة ، فقـد تندلع الثورة . ولم يكن بد ، لتنفيس

الغضب الشعبى ، من تحويل الشعور إلى ناحية تنال رضا الشعب . وقد اعتبر بعث مشروع الاتحاد مع سوريا ، الذى كان من الموضوعات الشعبية فى العراق ، هو المنفذ الذى أريد به شغل أذهان الناس والتهوين من سخطهم وغضبهم .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذا المشروع كما عرض فى ذلك الحين ، كان يخفى اتجاها غير ودى تجاه مصر . وكان الشعور بأن القصد منه هو إقصاء مصر عن الحركة العربية ، وجعل هذه الحركة مقصورة على الهلال الخصيب . وأثير موضوع الاتحاد بين سوريا والعراق بعد إبعاد الرئيس شكرى القوتلى عن الحكم سنة ١٩٤٩ . وفى عهد الحناوى الذى قام عقب الانقلاب العسكرى الثانى، تقدم المشروع كثيرا بعد أن تبناه الحناوى وجماعة كبيرة من النواب السوريين . وقد منع الانقلاب الثالث تحقيق المشروع واعتبره مؤامرة قصد منها تهديم استقلال سوريا وإضعاف جيشها وإنشاء نظام ملكى فيها يكون عقبة فى طريق وحدة عربية أوسع . ومما لا شك فيه أن فكرة الاتحاد بين سوريا والعراق تنال رضا الشعبين ، أما عدم تحقيق هذا الاتحاد فيعود إلى وضع العراق السياسى ، حيث الدوائر السياسية العليا خاضعة للنفوذ البريطانى مما أثار الشكوك بأن بريطانيا وراء المشروع الذى لا يقصد منه اتحادا حقيقيا بين القطرين بقدر ما يرمى إلى النيل من استقلال سوريا وإدخالها ضمن نظام بريطانيا الدفاعى .

وسوريا التى اعترضت على مشروعات الاتحاد فى ظل العرش العراقى أو الأردنى قد أعربت مع ذلك ، بلسان حكوماتها المتعاقبة ، عن تأييدها لقضية الوحدة العربية .

ففى المباحثات التمهيدية التى جرت فى شهر اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٤٣ أعلن رئيس الوزارة السورية السيد سعد الله الجابرى عن استعداد حكومته للتوقيع فى ورقة بيضاء وتسليمها لرئيس الوزارة المصرية ليضع فيها أية شروط وترتيبات يراها للوحدة ، وتعهد نيابة عن حكومته بأن ينفذ مثل هذا الترتيب . وأضاف بأن سوريا تفضل الوحدة الملزمة .

وفى مؤتمر الاسكندرية أعرب الجابرى عن استعداد سوريا للتنازل عن سيادتها

فى سبيل الوحدة العربية . وصرح ثانية بتفضيل حكومته لأكثر أشكال الاتحاد إلزاما ، بحيث تكون السلطة التنفيذية لهذه الوحدة حكومة مركزية واحدة . فإن لم يمكن تحقيق هذه الوحدة درست إمكانيات إما الاتحاد الفدرالى أو الترابط . وأكد الجابرى الحاجة إلى وضع سياسة خارجية مشتركة ودفاع مشترك .

وأعلن السيد شكرى القوتلى رئيس الجمهورية ، فى مناسبات عامة مهمة ، أن سوريا تنظر إلى اليوم الذى تندمج فيه سيادتها فى وحدة عربية . كما أعلن العهد العسكرى عن اعتناقه لفكرة الوحدة العربية وعن اعتباره الجيش السورى خادما لهذه القضية .

ويؤكد الدستور السورى الموضوع سنة ١٩٥٠ الوحدة العربية إذ تقول مقدمته : « إن شعبنا الذى هو جزء من الأمة العربية بتاريخه وحاضره ومستقبله ، يتطلع إلى اليوم الذى تجتمع فيه أمتنا العربية فى دولة واحدة ، وسيعمل جاهدا على تحقيق هذه الأمنية المقدسة فى ظل الاستقلال والحرية » . وتنص المادة الأولى من الدستور على أن سوريا جمهورية عربية وأن الشعب السورى جزء من الأمة العربية. وفى القسم الذى يؤديه النواب، وكذلك فى القسم الدستورى الذى يؤديه رئيس الجمهورية لدى تسلمه السلطة ، يتعهد النواب والرئيس بالعمل لتحقيق وحدة البلاد العربية .

وقد جاء مشروع الوحدة العربية الذى قدمه السيد ناظم القدسى إلى الجامعة فى شتاء سنة ١٩٥١ ، يوم كان رئيسا للوزارة السورية ، مصداقا لثبات السياسة السورية العربية فى مراحل الحكم المختلفة التى مرت بها سوريا فى السنوات الأخيرة . وقد أشار المشروع إلى عدم فعالية الجامعة العربية فى شكلها الحاضر ، وإلى تبرم الناس بطرقها البطيئة وبنتائجها القليلة الجدوى، وأكد الحاجة إلى وحدة فعالة فى أحد أشكال ثلاثة : دولة عربية متحدة أو اتحاد فدرالى ، أو كونفدراسيون . ومهما يكن الشكل المختار فإن على الاتحاد أن ينفذ سياسة خارجية ودفاعية مشتركة وأن يوجد اقتصادا موحدا . ولكن لم ينجم عن مشروع القدسى شىء ولا عن مشروع آخر لتوحيد

العملة العربيـة ، وضعه على أساس من الدرس الصحيح السيد خالد العظم فى ربيع سنة ١٩٤٦ .

أما فى العراق فإن وجود أقلية كبيرة من الأكراد استوجبت تأكيد القومية العراقية لتوحيد العرب والأكراد فى الولاء للدولة بحيث يشعر الطرفان أنهما منها . وقد كان نيل العراق المبكر لاستقلاله سببا فى نشوء شعور بالاعتزاز فى القوميـة العراقية . غير أنه كان مقابل ذلك اعتبارات أخرى جعلت شعور العراق بالوحـدة العربيـة قويا . فالعراق بلد داخلى أفقه محدود بالصحراء وشبه الجزيرة العربية ، وبالتالى فإن نظرته عربيـة . كما أن وجود عناصر بدوية كبيرة بين السكان يزيد من ارتباط العراق بالصحراء . وكان بانى الدولة العراقيـة الحديثة ، الملك فيصل الأول ، زعيم الثورة العربية ومرشدها . ومع أنه ركز جهده فى مهمته المباشرة وهى بناء العراق ونيل استقلاله ، فإنه لم ينس قط الهدف الأكبر فى تحرير الأمة العربية كلها وتوحيدها . وفى عقد ١٩٣٠ أصبح العراق ملجأ للسياسيين السوريين والفلسطينيين . وبسبب وجود هؤلاء الزعماء ووجود أعداد كبيرة من المعلمين من أقطار عربية عديدة أصبح العراق مركز القومية العربية .

غير أن عقد ميثاق بغداد فى مطلع عام ١٩٥٥ أبعد العراق عن المساهمة فى حركة الوحدة العربية ـ التى تتزعمها مصر وسوريا ـ والتى ترمى إلى قيام هذه الوحدة ضمن إطار تقدمى وإلى إبقائها مستقلة عن كل توجيه أجنبى .

ويعتقد البعض أن لبنان خارج عن الإطار العربى . وتلك كانت النظرية الفرنسية ؛ فـكان ممثلو فرنسا وعملاؤها يعملون على إبعاد لبنان عن باقى العالم العربى وقت أن كانت فرنسا دولة منتدبة عليه . فشجعوا الطائفية ، وبالغوا فى الخلافات المحلية ، وحاولوا تشويه سمعة الحركة العربية وإظهارها بمظهر إسلامى أو بدوى ليوحوا بذلك أنها متعصبة ومتأخرة .

ولقد قامت فى لبنان فـكرة محلية هى فـكرة الفينيقية المماثلة لفـكرة الفرعونية

فى مصر . فالفينيقيون ، الذين كانوا أول المستوطنين للساحل اللبنانى ، حيث بنوا حضارة مزدهرة مؤسسة على التجارة البحرية ، زالوا وزالت معهم لغتهم وحضارتهم قبل العصر المسيحى . وقد خلقت خرافة الفينيقية لمواجهة الاتجاه نحو الوحدة العربية . ولكن لما كانت فكرة مصطنعة فإنها سرعان ما تلاشت . وقد عقبتها حركة البحر الأبيض المتوسط التى تحاول أن تربط الثقافة اللبنانية بحضارة بلاد البحر المتوسط ، وذلك سعيا وراء إبعاد لبنان عن التراث العربى الذى تعتبره الحركة تراثا أسيويا . غير أن ثقافة لبنان هى ثقافة عربية فى جوهرها ، وتكمن قوة الثقافة العربية فى كونها تجمع بين حضارة البحر المتوسط والحضارات الاسيوية .

ومن الجدير أن نتذكر أن لبنان كان فى طليعة النهضة العربية الأدبية فى القرن التاسع عشر ، وأن أول المنتمين إلى القومية العربية كانوا من المسيحيين العرب ، الذين لم يشعروا برابطة قوية مع الخلافة الإسلامية التى قامت على أساسها الامبراطورية العثمانية ، وتعرضوا قبل المسلمين إلى التأثرات الغربية ، ومن بينها الفكرة القومية . ولقد افتتح المهاجرون اللبنانيون إلى العالم الجديد آفاقا جديدة للأدب العربى الحديث وشقوا للكتّاب العرب طرقا كانوا يجهلونها قبلا . فبعد أن تحررت عقولهم ونفوسهم وزادت حيويتها بتأثير ما حولهم من الحياة الدافقة ومن الحرية ، فإنهم عبروا عن تجاربهم فى أسلوب عربى غير مقيد . ولقد أثر محتوى هذا الأدب المهجرى وشكله على الشعراء والكتاب العرب تأثيرا عظيما فى القسم الأول من هذا القرن ، وخصوصا فى مصر . ولقد تجاوب المهاجرون اللبنانيون فى أميركا الشمالية والجنوبية بحماسة مع الحركات التحررية فى البلاد العربية ، وأيدوا نضال الاستقلال فى وطنهم الأصلى معنويا وماديا . ولا بد لنا أن نذكر اثنين من الكتاب المهاجرين البارزين ، وذلك لتعلقهم القوى بقضية الحرية العربية . فأحدهما هو الشاعر رشيد سليم الخورى القاطن فى سان باولو ، والذى يمتلىء شعره بالشوق العميق إلى موطنه الأصلى ، وبالتأثر القوى بأحزانه ومحنه . وهو يتغنى بالمقاومة

والثورة المنصبة على الحكم الأجنبى ويفاخر بها ، وتشيع الحماسة والإخلاص للقضية الوطنية . وثانيهما ، أمين الريحانى الذى كان له قراء كثيرون ، وعبرت كتاباته عن اعتزازه بالتراث العربى وإيمانه بالحركة العربية . ولقد تجول الريحانى فى طول البلاد العربيـة وعرضها ، والكتب التى وضعها عن فيصل ملك العراق ، وعن ابن السعود والجزيرة العربيـة تكوّن مجموعة مهمة فى الأدب العربى الحديث ، بما تحويه من تراجم وتاريخ وتجوال .

ولقد ازداد اقتراب لبنان من الأقطار العربية الأخرى منذ نهاية الانتداب . وقد لاقى استقلال لبنان تأييدا قويا من جميع الدول العربية التى ارتاحت إلى إزالة السيطرة الفرنسية عن هذه الأرض العربية . وما زال التأثير الثقافى الفرنسى قويا ، وسيبقى كذلك حتى ينشئ لبنان نظاما للمدارس الرسمية أوفى من نظامه الحالى . وعند ما توطد استقلال لبنان ، فإن موقف الدول العربيـة الأخرى منه ، وخاصة سوريا ، أصبح أكثر إيجابية وأشد ثقة من قبل ، وعند ما أعلن رياض الصلح أول رئيس للحكومة اللبنانية فى العهد الاستقلالى ، أن لبنان لن يكون مقرا للاستعمار ، ولا ممرا يصل منه الاستعمار إلى الأقطار العربية الأخرى ، اطمأن السوريون و باركوا استقلال لبنان ، وفى مؤتمر الإسكندرية وميثاق الجامعة ، وافقت الدول العربيـة على أن تحترم وضع لبنان ، وتعاون لبنان من جانبه مع الحركة العربية من خلال الجامعة العربية .

ومصر ، التى هى أكبر دول الجامعة العربية وأقواها نفوذا ، يظن البعض أنها عضو جديد فى العائلة العربيـة . والقائلون بهذا القول يؤكدون الارتباط الجغرافى بين مصر والقارة الافريقية ، والناحية الفرعونية من تاريخها . إلا أن تاريخ مصر كان منذ فجر التاريخ متشابكا مع أقطار آسيا الغربيـة ، التى كانت علاقتها بها فى النواحى الاقتصادية والثقافيـة والسياسية أوثق وأثبت بكثير من علاقتها مع المناطق

الافريقية المجاورة [١] . وقد عربت مصر خلال القرن الذى تلا الفتح العربى . ويصف لنا المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى ، المجتمع المصرى ، فيظهره عربيا فى الفكر والأمانى ، وفى العادات وفى طريق المعيشة اليومية . وقد حلت الاعتقادات التى ترجع إلى أصول عربية وإسلامية محل التقاليد التى انتقلت خلال عصور طويلة من التاريخ . وحتى الأنساب ابتدعت لاستخراج نسب عربى . وبقيت مصر عربية ، بل إنها أصبحت منذ الغزوات المغولية فى منتصف القرن الثالث عشر ، وصية على التراث العربى ، وأصبحت المركز الرئيسى للعلوم الإسلامية . وخلال العصر العربى كان نمط الحياة واحدا فى مصر وفى البلاد العربية الأخرى ، وتداخل تاريخها تداخلا لا يمكن فصله عن تاريخ تلك البلاد .

وكانت مصر فى العصر الأموى ، وفى القسم الأول من العصر العباسى تشكل جزءا من امبراطورية كبيرة تحكمها سلطة مركزية واحدة ، فى دمشق ثم فى بغداد . وبعد ذلك أصبحت مصر ، فى عصر الانقسام مركزا لدولة واسعة تشمل قسما من شمال أفريقيا وسوريا والحجاز . وفى لحظة حرجة من التاريخ العربى ، عندما اكتسحت الموجات المغولية بلاد الهلال الخصيب فأعملت فيها الدمار والخراب ، أوقفت مصر تلك الموجة العارمة فى النصر الحاسم الذى نالته على المغول فى معركة عين جالوت ، على مقربة من الساحل الفلسطينى . ولما تعرضت هذه البلاد للخطر الصليبى ، عندما استقر الصليبيون فى المشرق مدة قرنين من الزمن ، كان المصريون هم الذين أتموا طرد الصليبيين بقيادة المماليك . وعندما حاول السلطان قانصوه الغورى أن يوقف الغزو العثمانى ، فإنه لم يحارب الأتراك على الحدود المصرية ، بل حاربهم فى مرج دابق الواقع بالقرب من حلب ، على مقربة من الحدود التركية .

ولم ينحصر الأفق المصرى داخل الحدود المصرية إلا فى القرن الأخير . وقد فرضت على مصر هذه العزلة من جانب الدول التى تدخلت لمنع محمد على من

---

(١) Speiser, op. cit. p 8.

تأسيس دولة عربية تشمل مصر والمشرق العربى . ولكن حتى فى هذه الفترة تركت تطورات مصر السياسية والثقافية أثرها على الأقطار العربية الأخرى ، وخصوصا على سوريا التى ساهمت فى نهضة مصر الثقافية عن طريق الكتاب البارزين المنتمين إلى أصل سورى .

وصحيح أن مصر كانت خارج تلك الصورة من الحركة العربية التى اتخذت شكل الثورة العربية خلال الحرب العالمية الأولى ، ذلك لأنه بينما عبر عرب آسيا الغربية عن أمانيهم القومية بالقيام بثورة ضد تركيا نفذت بالتحالف مع بريطانيا ، كان النضال من أجل الحرية فى مصر مركزا ضد بريطانيا ، إذ أن مصر كانت قد تحررت من الحكم التركى قبل قرن من الزمن ووقعت فريسة للحكم البريطانى سنة ١٨٨٢ . ونشأت فى فترة ما بين الحربين العالميتين قومية محلية وترعرعت . وخلال النضال الوطنى اتحدعنصرا السكان المسلمون والأقباط على أساس من الأصل والتاريخ الواحد والمدنية الواحدة ، التى تعود إلى ما قبل العصر الإسلامى ـ العربى . وكانت النتيجة التشدد فى الأصول والتاريخ والحضارة الفرعونية ، فخلع على القومية المصرية رداء فرعونى .

وقد استعادت مصر مكانها فى الحركة العربية فى السنوات الأخيرة ، وتزعمت الحركة الرامية إلى التمهيد للجامعة العربية . ووجهت مصر الدعوة إلى مؤتمر الأسكندرية التمهيدى الذى وضع أسس الجامعة العربية وخطوطها الرئيسية ، وإلى المؤتمر العمومى الذى عقد فى القاهرة وتأسست فيه الجامعة العربية ، وقد اتخذت القاهرة مقرا لهذه الجامعة . وقد أيدت مصر الجامعة العربية بثبات ، ولكن سياستها العربية فى عهد فاروق اتجهت إلى توسيع شقة الخلافات بين الدول العربية الأعضاء . وكان ميثاق الضمان الجماعى الذى عرضته مصر على الجامعة العربية محاولة قصد منها مواجهة الضغط العراقى الرامى إلى تأسيس وحدة بلاد الهلال الخصيب .

ولقد اجتاز الترابط العربى تجربة قاسية بعد حرب فلسطين . فإن مصر شعرت

بأن الدول العربية الأخرى خذلتها وكانت تتفرج حين حارب الجيش المصرى الإسرائيليين فى النقب ، وارتفعت أصوات فى مصر تنادى بانسحابها من الجامعة ، وتلاقت هذه الانفعالات مع آراء بعض الدوائر السياسية فى بعض البلاد العربية المعبرة عن الاتجاه إلى حصر الحركة العربية فى الهلال الخصيب .

وقد وقع فى الآونة الأخيرة انقسام أشد خطورة سببه عقد حلف بغداد الذى عارضته مصر بقوة لأنها أدركت جميع متضمناته ونتائجه ، ومن بينها عزل مصر عن البلاد العربية أو إعطاؤها دورا ثانويا فى السياسة العربية ، مما يؤدى إلى إضعاف مركزها فى المنطقة و إلى عرقلة الحركة التى تهدف إلى الوحدة العربية ـ تلك الحركة التى تبنتها مصر بزعامتها الحاضرة بشكل جدى .

وقد قاومت سوريا حلف بغداد بنفس العزم ، إذ أن الرأى العام السورى شديد الحساسية والتنبه لكل خرق لحرية بلاده ولأمانيها فى الوحدة العربية ، وقد تعرض كل منهما للخطر من جراء هذا الحلف . فحلف بغداد مشروع أجنبى ، وضعته ونفذته دول أجنبية من أجل المحافظة على مصالحها فى هذه المنطقة . والمشروع مبنى على أساس تجزئة البلاد العربية ، فغرضه إيجاد كتلة تضم بعض الدول العربية لا جميعها ـ أى تضم دول الهلال الخصيب وحدها . يضاف إلى ذلك أن حلف بغداد كان يرمى إلى تصفية قضية فلسطين على أساس الوضع الراهن و إلى دمج إسرائيل فى المنطقة ، وقد أبلغت نظارة الخارجية الأميركية حكومة سوريا هذا الرأى إثر توقيع ميثاق الحلف من جانب تركيا والعراق .

وقد تعرضت سوريا منذ عقد حلف بغداد ، بل ومنذ أن برزت فكرة هذا الحلف لضغط شديد ومستمر يهدف إلى جرها إلى هذا الحلف . فقد أدركت دول الحلف أن نجاح مشروعها أو فشله يتوقفان إلى حد كبير على موقف سوريا منه ، فإذا انضمت سوريا إليه فإن انضمام لبنان والأردن يصبح متيسرا فيتحقق بذلك الغرض من الحلف .

ولـكن هذا الضغط ، مع أنه أوجد حالة قلق وتوتر ، فإنه أدى إلى تثبيت الرأى العام و إلى التفاف الشعب حول السياسة التى كانت سوريا تنتهجها دوما وهى المحافظة على استقلالها والعمل من أجل وحدة عربية خالصة كاملة .

إن مقاومة سوريا لشتى وسائل الضغط الخارجى كان متوقعا ، ولـكن الأمر الذى أثار الدهشة أن يستطيع الأردن مجابهة الأزمة ـ الأردن الدولة الصغيرة الفقيرة، التى يتكون ثلث سكانهـا من اللاجئين الفلسطينيين والتى تعتمد على المعونة البريطانية ، وترتبط ببريطانيا بمعاهدة ، والتى كان يتحكم فيها الفريق جلوب القائد البريطانى للجيش العربى . وقد جاء رفضها لحلف بغداد مفاجأة أذهلت أولئك الذين لم يكونوا مدركين لمدى إيمان الشعب ووعيه . وقد بدأت سلسلة الضربات التى وجهها الأردن ضد المحاولات الرامية لجره إلى ميثاق بغداد عند ما زار الجنرال تمبلر ، رئيس أركان حرب الجيش البريطـانى ، عمان فى ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٥٥ ، للبحث فى دخول الأردن إلى الحلف . و بنتيجة الهيـاج الشعبى الذى حصل وقتئذ اضطرت ثلاث حكومات للاستقالة وشكلت حكومة رابعة خلال شهر واحد من الزمن . ووضع المشروع على الرف عندما تعذر إيجاد حكومة موالية للميثاق وقادرة على مواجهة الضغط الشعبى .

وتبع إخفاق تمبلر إقالة جلوب من قيادة الجيش العربى فى الثانى من مارس (آذار) سنة ١٩٥٦ . وكان الجيش العربى طيلة بقاء جلوب فى قيادته ، معتمدا فى تسلحه اعتمادا كليا على البريطانيين . كما أن مهمة هـذا الجيش لم تقررها حاجات الأردن الدفاعيـة بل كانت مستوحاة من اعتبارات تتعلق بالمصالح البريطانية فى المنطقة . وعلى أثر استقالة جلوب وقعت اتفاقيات مع مصر وسوريا لتنسيق الخطط العسكرية وتوحيد الجهود فى حالة الحرب .

ولم يتحرر الجيش العربى وحده بعد إزاحة جلوب ، بل تنشق الأردن كله نسيم الحرية . وللمرة الأولى جرت انتخابات حرة وقد تمت فى جو هادئ وسلمى

لأنها كانت حرة . وكان الناخبون يتصرفون بهدوء ونظام لتيقنهم من أنه لن يجرى تدخل فى الانتخابات . وقد أكدت نتائج الانتخابات الاتجاه الجديد . فأكثرية النواب الذين انتخبوا فى ٢١ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٥٦ يؤيدون الاتحاد مع سوريا ومصر . وفى ٢٤ أكتوبر وقعت فى عمان اتفاقية بإنشاء قيادة موحدة لجيوش سوريا والأردن ومصر بقيادة اللواء عبد الحكيم عامر القائد العام للجيش المصرى ، من أجل الدفاع المشترك عن هذه الدول الثلاث التى أصبحت تشكل جبهة واحدة .

وقد تبنت مصر منذ ثورة يوليه (تموز) سنة ١٩٥٣ فكرة الوحدة العربية بحماسة كلية ونصت المادة الأولى من الدستور المعلن فى شهر يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٥٦ أن مصر دولة عربية وأن الشعب المصرى جزء من الأمة العربية . وإن العروبة فى نظر الثورة هى تحقيق للنهضة الشاملة فى الداخل ، وهى تعنى قيام جبهة عربية متماسكة متحررة تستطيع مواجهة مشاكلها القومية بقوة ، وفرض كيانها فى المجال الدولى . إن قادة مصر اليوم يعملون من أجل الوحدة العربية بنفس النشاط والإيجابية اللذين يعالجون بهما جميع القضايا التى تواجههم .

وإن إيمان القادة أخذ يتغلغل إلى الرأى العام المعبر فى مصر . وهذا أمر فى غاية الأهمية بسبب وضع مصر فى العالم العربى وكونها المركز الثقافى لهذا العالم . فالصحافة المصرية منتشرة فى البلاد العربية كلها ، ويدخل آلاف الطلبة العرب كل سنة فى الجامعات المصرية وغيرها من معاهد التعليم ، ويعمل المئات من المعلمين المصريين فى مدارس البلاد العربية . والكتب التى تطبع فى مصر تقرأ فى سائر أرجاء البلاد العربية والعالم الإسلامى . ولمصر أيضا مركز جغرافى ممتاز فى المنطقة العربية إذ تقع فى مكان متوسط بين عرب آسيا وعرب أفريقيا ، وهى أكبر البلاد العربية وأعظمها ثروة . فبسبب الأحوال التى عددناها ، إن إيمان

زعماء مصر بقضية الوحدة العربية قد زاد قوة وسرعة الحركة الرامية لتحقيقها وجعلها تبدو قريبة المنال .

وإذا كانت حركة الوحدة العربية قد اتخذت فى السنة الأخيرة شكل أحلاف عسكرية بين عدد من الدول العربية ، فما ذاك إلا لأن الأحداث فرضت هذا الاتجاه إذ لا مفر للعرب من أن يزيدوا قواتهم الدفاعية ويوحدوها إذا ما أرادوا البقاء . وهذا الاعتبار المبنى على ضرورة مواجهة الخطر الذى يهدد بقاء العرب هو الذى دعا الرئيس جمال عبد الناصر إلى عقد صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا فى شهر سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٥٥ . وقد كان لهذه الخطوة وقع عظيم فى نفوس العرب ، لأنها لم توفر الأسلحة الضرورية لصد العدوان الإسرائيلى فحسب، بل كسرت الطوق الحديدى الذى طوق الغرب به العرب بأن جعلهم معتمدين عليهم فى دفاعهم وبالتالى فى بقائهم . وهذا الاتجاه الذى اعتبر فى كل مكان ضمانا للقوة ، جعل الرأى العام العربى يلتف حول زعامة مصر .

وفى الوقت ذاته قوت سوريا وسائلها الدفاعية بوساطة الأسلحة التى حصلت عليها من الكتلة الشرقية .

ولما كانت سوريا ومصر متفقتين على اتباع سياسة خارجية مشتركة وتعملان بعزم لتقوية الدفاع عن المنطقة دون التورط فى أحلاف عسكرية أجنبية فإنهما عقدتا فى ٢٠ اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٥٥ ميثاقا للدفاع المشترك ، اعتبر بموجبه أى هجوم على أراضى أحد الطرفين أو على قواته هجوما على كلا الطرفين يستدعى تقديم المساعدة الفورية إلى البلد المعتدى عليه . وأنشئ جهاز لتنفيذ الاتفاق مكون من مجلس أعلى يتألف من وزراء الخارجية والحربية فى البلدين ، ومن مجلس حربى يتألف من رؤساء أركان الحرب ، ومن قيادة مشتركة لقوات البلدين بإمرة اللواء عبد الحكيم عامر .

وبعد ذلك بأسبوع ، أى فى ١٧ اكتوبر عقد اتفاق مماثل بين مصر والمملكة

العربية السعودية ، ووسع الميثاق ليشمل اليمن ، وذلك بموجب اتفاقية جدة الموقعة فى ٢١ أبريل (نيسان) سنة ١٩٥٦ . وبعقد اتفاق عمان فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٥٦ أصبحت الأردن الدولة الخامسة المنضمة إلى هذا النظام الدفاعى العربى الصميم .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو: لماذا وضعت هذه الاتفاقيات خارج الجامعة العربية ؟ خصوصا وأن هذه المنظمة توخت صيانة الأمن الإقليمى بوساطة ميثاق الضمان الجماعى الذى انضمت إليه الدول أعضاء الجامعة . إلا أنه علينا أن نتذكر أن هذا الميثاق لم يوضع فى يوم من الأيام موضع التطبيق بسبب نقصين رئيسيين هما الحاجة إلى السلاح ، والحاجة إلى سياسة خارجية موحدة بين الدول الموقعة على الميثاق . أما من حيث السلاح فقد كان للغرب احتكار بتوريده إلى الدول العربية استمر حتى خريف سنة ١٩٥٥ عند ما نجحت مصر فى كسره بما حصلت عليه من أسلحة من الكتلة السوفيتية . وعند ما كان هذا الاحتكار بيد الغرب فإنه بدلا من أن يعمل على بناء الإمكانات الدفاعية لدى العرب ، حاول أن يستبقى المنطقة تحت سيطرته بجعلها معتمدة عليه فى الدفاع عن نفسها . أما بالنسبة للسياسة الخارجية فإن بعض الدول العربية انتهجت سياسة مستقلة ، بعيدة عن أى ارتباط بالشرق أو بالغرب ، وبينما حافظت على علاقات الصداقة مع الغرب ، حاولت أن توسع وتقوى علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية مع الشرق . وظلت دول عربية أخرى ـ أو بالأحرى حكومات أخرى ـ على ارتباطها بالمصالح الغربية وقبولها بالتوجيه الغربى والقيادة الغربية . وإزاء هذا الوضع فإن الدول التى اتبعت سياسة خارجية أكثر تحررا ، قررت أن تؤلف تحالفا أوثق فيما بينها بانتظار الوقت الذى تحرر فيه الدول الأخرى نفسها من الارتباطات الأجنبية وتصبح مستعدة

للاشتراك فى منظمة إقليمية خالصة ، منظمة تنبثق من صميم حاجات المنطقة ولا تفرض عليها من الخارج .

ولم تقتصر عملية الوحدة على بناء قوات دفاعية مشتركة ، وذلك بالرغم من أن الأحلاف العسكرية كانت أخطر وأبرز مظهر لها . بل جرت تطورات أخرى فى اتجاه الوحدة ، منها توقيع اتفاقية الوحدة الاقتصادية بين سوريا والأردن ، والقرار الإجماعى الذى اتخذه البرلمان السورى بالاتحاد مع مصر على أساس إنشاء دولة اتحادية ، وتفويض البرلمان للحكومة السورية بالدخول فى مفاوضات مع مصر لتحقيق هذا الاتحاد .

ومن التطورات الهامة فى الاتجاه نحو تحقيق الوحدة العربية توقيع معاهدة التضامن العربى فى يناير سنة ١٩٥٧ بين المملكة العربية السعودية ومصر وسوريا والأردن ، التى تتعهد بموجبها الدول الثلاث الأولى بدفع مبلغ ١٢/٥ مليون جنيه مصرى كل سنة لمدة عشر سنوات ، لتنفق على الجيش والحرس الوطنى الأردنى ، وذلك بدلا من المبلغ الذى كانت تدفعه الحكومة البريطانية .

وقد ساعدت هذه الخطوة الأردن على التحرر من المعاهدة مع بريطانيا ، وأزالت بذلك العقبة الكبرى فى سبيل الاتحاد مع سوريا ومصر .

إن ترابط الشعور والجهود بين البلاد العربية قد تركز اليوم فى قضايا ثلاث هى فلسطين وقناة السويس والجزائر . وكما أن هذه المشاكل تنبعث من أصل مشترك وترمى إلى هدف واحد هو استمرار السيطرة الأجنبية على شعوب هذه المنطقة وعلى ثرواتها فإنها اندمجت فى العقل العربى والوعى العربى فى قضية كبرى واحدة ، هى قضية الحرية التى تنال عن طريق الاتحاد ومن ضمن نظام تقدمى تسوده العدالة الاجتماعية .

إن الوحدة العربية ليست بدعة ولا هى مظهر طارئ بسبب أحداث وظروف

ما تلبث أن تزول ، كما وأنها ليست مستمدة من مثالية خارجية ، بل هى من صميم الحياة العربية . فما الحركة الساعية إلى وحدة العرب اليوم إلا بعث لنظام اجتماعى عاشه العرب عند ما كان مجتمعهم يزخر بالحيوية والإبداع .

والوحدة العربية تهدف عن طريق البعث الروحى والثقافى العربى والتفتح إلى قوى الخير والمعرفة أنَّى كان مصدرها ، أن تصهر وحدات المجتمع العربى الطارئة فى وحدة شاملة تقوم على كيان سياسى واقتصادى موحد ومكين ، يهيئ للعرب القدرة على اكتشاف رسالتهم واشتراكهم من جديد فى مجهود الإنسانية الإيجابى .

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل السابع عشر

تنافس الدول فى البلاد العربية

إن البلاد العربية ، من العراق على الخليج العربى حتى مراكش على المحيط الأطلسى ، تشغل إقليما موقعه الاستراتيجى من أكثر المواقع حيوية فى العالم كله . فإن المغرب ومصر و بلاد المشرق التى تكون الساحلين الجنوبى والشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، هى مفتاح آسيا وأفريقيا ، والجسر الواصل بين هاتين القارتين و بين أوربا . وفى العراق والجزيرة العربية كميات هائلة من البترول ـ وهو عصب الحضارة الحديثة فى السلم والحرب على السواء . وهذه البلاد كلها تشكل حلقات هامة فى المواصلات العالمية بالبر والبحر والجو ، فالطرق البرية عبر آسيا وأفريقيا لا بد من أن تمر بها ، كما أن شواطئها تمتد على البحرين المتوسط والأحمر اللذين يصلان أوربا بالشرق . وقد أصبحت هذه المنطقة ، بما تتمتع به من أحوال مناخية تلائم الطيران فى جميع فصول السنة ، مركزا ممتازا للمواصلات الجوية العالمية .

والبلاد التى لها مثل هذه المزايا لا بد أن تصبح مطمحا للدول الكبرى فى سعيها لتأمين مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية .

لقد جاءت فرنسا إلى هذه المنطقة قبل غيرها من دول الغرب ، وكان لها ، لفترة من الزمن ، المركز الأول . وتعود علاقتها إلى الحروب الصليبية ، وهى مغامرة أوربية كان للفرنسيين دور رئيسى فيها . ومع أن الحروب الصليبية انتهت بهزيمة الغرب وانسحابه من الشرق ، فإن ذكرى تلك الحقبة لم تنمح بسقوط آخر حصن صليبى على الشواطئ السورية ، بل استمرت فى سجلات الزمن ، ونظمت فيها الملاحم

الشعرية ، وأنشدت فيها الأغانى الشعبية ، وحيكت حولها القصص والحكايات .

وبعد ذلك نالت فرنسا فى عهد السلاطين العثمانيين مركزا ممتازا فى الامبراطورية العثمانية بصفتها الدولة الأوربية الأولى . فالامتيازات التى أعفت الرعايا الأجانب من الضرائب ومن المثول أمام المحاكم المحلية ، كانت منحة من قبل السلاطين أعطيت لفرنسا فى بادىء الأمر ، وفيما بعد شملت الدول الأوربية الأخرى . فسعى رعايا الدول الأخرى الراغبون فى القيام بأعمال تجارية فى الامبراطورية العثمانية لنيل حماية العلم الفرنسى فى البحار وحماية القناصل الفرنسيين فى البر . وقد زاد من مكانة فرنسا أنها مثلت دور حامية الكاثوليك فى الشرق الأدنى . ونال مركزها قوة جديدة عند ما أرسلت البعثات التعليمية التى وصلت طلائعها إلى لبنان فى الربع الأول من القرن السابع عشر .

ثم جاء فى نهاية القرن الثامن عشر الغزو الفرنسى لمصر بقيادة نابليون ، وكانت هزيمة نابليون نكسة أصابت مطامع فرنسا فى هذه المنطقة . ولكن هذا الفشل السياسى لم يعن نهاية النفوذ الفرنسى ، بل على العكس بقيت الثقافة الفرنسية والمصالح الاقتصادية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر مسيطرة فى الامبراطورية العثمانية ، وخاصة فى مصر التى كانت فى محاولاتها لاقتباس المدنية الغربية تتطلع أول ما تتطلع نحو فرنسا مستلهمة ومسترشدة .

ولقد غطى على الأثر الثقافى والمصالح الاقتصادية سيطرة فرنسا السياسية على أفريقيا الشمالية ؛ إذ قامت فرنسا بدافع من الرغبة فى التعويض عما خسرته لبريطانيا فى الهند وكندا فى القرن الثامن عشر ، ومن الرغبة فى استعادة مكانتها بعد الكارثة التى منيت بها فى حربها مع روسيا سنة ١٨٧٠ ، بالتطلع للتوسع فى حوض البحر المتوسط ، فغزت الجزائر وضمتها إليها ، وفرضت حمايتها على تونس . وفى العقد الأول من القرن العشرين أطلقت يد فرنسا فى مراكش إثر اتفاق مع بريطانيا عقد

سنة ١٩٠٤ ، مقابل موافقة فرنسا على احتلال بريطانيا لمصر . وأعطت الحرب العالمية الأولى لفرنسا موطئا فى بلاد المشرق وذلك ما كانت تطمح إليه من قرون . وعند ما استقرت فى طرفى البحر الأبيض المتوسط عقب الحرب العالمية الأولى وصلت مكانتها أوجها . ولـكنها منذ ذلك الحين وهى فى تدهور مستمر .

ومن أسباب هـذا التدهور ضعف فرنسا وتضاؤل مركزها بالنسبة إلى الدول الأخرى ، واستمرارها فى انتهاج سياسة استعمارية جامدة عفى عليها الزمن . ولقد نظرت فرنسا بعين العداء إلى الحركة العربية التى عبرت عن نفسها فى الثورة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى وفى النضال القومى بين الحربين . وكانت الدوائر الفرنسية معادية للثورة منذ بدايتها حتى نهايتها . وللحط من أهميتها أنـكرت تسميتها عربية ودعتها الثورة الشريفية أو الحجازية لتوهم بأنها من صنع شريف مكة ومقتصرة على الحجاز . وعنـد ما اتسعت الثورة وتقدمت ، وسارت الجيوش العربية إلى سوريا بجانب الحلفاء زاد العداء الفرنسى لها . وكانت المملـكة العربية المؤسسة فى سوريا ، ورأسها الملك فيصل ، أهم أهداف العداء الفرنسى . وبعـد أن طردت فرنسا فيصلا من سوريا وفرضت عليها سيطرتها ، اتخذت من الانتـداب غطاء تستر به السياسة الاستعمارية التى طبقتها . وأخفقت تماما فى فهم النضال السورى من أجل الاستقلال ومكان هذا النضال من الحركة العربية الـكبرى . فلم تأبه للزعماء الوطنيين والتأييد الشعبى الملتف حولهم ، ونظرت إلى سوريا لا كبلد عربى ، بل كمجموعة متناثرة من الأقليات الدينية والعرقية ، واحتمت وراء هذه النظرة ، واعتبرت أنها تؤمن لها مركزها . وكان هنالك تباين كبير بين العالم الذى كانت فرنسا تضع فيـه سياستها وبين الحقائق والأمانى العربية ، بحيث لم يلتق العالمان أبدا . وبالتالى فإن فرنسا خسرت تأثيرها السابق على الحركة العربية ، إذ يجدر بنا أن نتذكر أنه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى كانت مكانة فرنسا هى المـكانة الأولى فى البلاد العربية ذات

العلاقة مع أوربا . وكانت حركة التحرر العربى قبل الحرب العالمية الأولى تستلهم من مبادىء الثورة الفرنسية ومن مُثُل الديمقراطية السياسية الفرنسية . وكان لفرنسا من المكانة الثقافية لدى المتعلمين العرب ، أكثر مما لأى بلد أوربى آخر ، وكان هؤلاء المتعلمون يعتبرون اللغة الفرنسية الوسيلة الرئيسية للثقافة . وقد تداعت هذه المكانة الأدبية نتيجة للسيطرة الفرنسية السياسية على سوريا ولبنان .

واستمرت فرنسا فى سياستها البعيدة عن الواقع حتى بعد انهيارها أمام الهجوم الألمانى الذى كشف عن الضعف الداخلى فى الأمة الفرنسية . وبعد استسلامها لألمانيا لم يعد مركزها فى المشرق قادرا على الصمود . فهذا المركز كان معتمدا من حيث الأساس القانونى ، على الانتداب ، ثم على مقدرة فرنسا على تنفيذ الانتداب ، وعلى مالها من مكانة أدبية . أما المكانة الأدبية التى كانت قد تجمعت لفرنسا فى الأيام السابقة للانتداب فإنها تبددت فى أثناء ربع قرن من الحكم الفرنسى . فاستمر وضعها مرتكزا إلى قوتها ، ولكن هذه زالت أيضا . وأخيراً قطع الرباط الأخير عند ما انسحبت فرنسا من عصبة الأمم فى ربيع سنة ١٩٤١ . وخلال ذلك كله كانت القوة العربية تنمو وتشتد .

ونشبث الفرنسيون بطرقهم القديمة إلى أن أكرهوا على الجلاء عن سوريا ولبنان تحت ضغط المقاومة المحلية والتدخل البريطانى ، وتأييد منظمة الأمم المتحدة الذى جاء بعد ذلك .

وبقيت لفرنسا اتصالات ثقافية واقتصادية مع سوريا ، وبالأخص مع لبنان . فالجامعة الفرنسية فى بيروت مركز ثقافى محترم . وقد أسست هذه الجامعة فى عقد ١٨٧٠ ، أى قبل الانتداب الفرنسى بنصف قرن ، وشاركت فى النهضة العربية بما نشرته من نصوص تاريخية ولكنها أصبحت أثناء الانتداب لسان المفوض السامى الفرنسى وأداة للسيطرة الفرنسية فى الثقافة والسياسة . أما الآن وقد انتهى

الانتداب فبوسع هذه الجامعة أن تميز نفسها من جديد بما تقدمه من خدمات للفكر والتعليم . إن فى استطاعة جامعة فرنسية طليقة من الروابط السياسية أن تكون أثرا طيبا فى العالم العربى . إذ بوسعها أن تأتى للعرب بالثقافة الفرنسية فى أحسن مظاهرها ، وتكون وسيطة للثقافة العربية لدى الفرنسيين ، وربما أيضا لدى غيرهم من الشعوب الأوربية .

وكان لانسحاب فرنسا من المشرق أثره على امبراطوريتها فى شمال أفريقيا ، وقد توقعت فرنسا هذا الأثر عندما تشبثت بعناد لتبقى فى سورية ولبنان . أما فى شمال أفريقيا فكانت سيطرة فرنسا أقوى وأرسخ بكثير منها فى بلدى المشرق . ذلك أنه ليس فى المغرب من انتداب ، وبالتالى ليس ثمة حتى شبه مسئولية دولية . وكان لفرنسا يد طليقة فى تونس والجزائر ومراكش التى اعتبرها الفرنسيون امتدادا لفرنسا وراء البحار . ولتأمين دوام الحكم الفرنسى ، استوطن مليون ونصف مليون من المستعمرين الفرنسيين هذه البلاد . ولقد قاوم هؤلاء المستعمرون الذين يسيطرون على الحكومات والموارد فى أفريقيا الشمالية بمرارة وعنف أية تغييرات قد تؤدى إلى زحزحة سيطرتهم الاحتكارية .

وإن العقد الذى تلا الحرب العالمية الثانية ـ رغم كثرة ما مرّ فيه من الحوادث، ومن الاتجاهات الهامة التى سادت جميع مناطق العالم ـ لم يأت بتغيير يذكر فى السياسة الفرنسية التى استمرت فى النظر إلى شمال أفريقيا من زاوية المصالح الفرنسية الضيقة ، التى تعتبرها مستودعا للرجال فى حالة الحرب ـ كما حصل فعلا فى حربين عالميتين ـ وحقلا للاستغلال الاقتصادى فى حالة السلم . وبدلا من أن ترخى فرنسا قبضتها على المغرب بنتيجة ضعف مركزها فى العالم ، فإنها تشبثت بهذا الإقليم فى عناد علها توازن به ضعفها .

أما شعوب المغرب فإنها حافظت على تقليدها القائم على مقاومة الحكم

الفرنسى ، واستأنفت نضالها بقوة أعظم و بجهد أكبر ، مستمدة الحيوية ليس فقط من عدالة قضيتها ، بل أيضا من التأييد المعنوى الذى لقيه نضالها فى سبيل الحرية لدى الرأى العام العالمى الذى أخذ يزداد تبرما بالأساليب الاستعمارية . و بسبب هـذا الاتجاه، عرضت قضية شمـال أفريقيا على منظمة الأمم المتحدة واعتبرت قضية تهم العالم بأسره ، وذلك بالرغم من الجهود الفرنسية الرامية إلى عزلها عن بساط البحث العالمى ، ونالت تأييدا إجماعيا من جانب ممثلى الدول الأفريقية والآسيوية المجتمعين فى مؤتمر باندونج ، وكان من أثر استمرار نضال شعوب أفريقيا الشمالية و إجماع العالم على تأييدها أن اضطرت فرنسا إلى الاعتراف باستقلال مراكش وتونس . إلا أن هذا الاستقلال مشروط بالاعتماد المتبادل بين كل من الدولتين وفرنسا ، كما أنه لم يوطد بعد بسبب بقاء القوات الفرنسية فى الأرض التونسية والمراكشية ، رغم أن الدولتين أصبحتا فى جملة أعضاء منظمة الأمم المتحدة .

أما بالنسبة للجزائر فما زالت فرنسا متمسكة بأساليبها الفاشلة البالية . وأما الزعم بأن قضية الجزائر قضية داخلية لا يجوز حتى للأمم المتحدة أن تتدخل فيها ، فليس سوى مظهر آخر للوهم الذى يسيطر على العقل الفرنسى الرسمى . ومن باب هذا الوهم أيضا محاولة جى موليـه رئيس وزارة فرنسا لتشويه ثورة الجزائر ، إذ زعم فى أبريل سنة ١٩٥٦ ، و بعد مضى ثمانية عشر شهراً من ابتداء الثورة الجزائرية ، بأن الفرنسيين لا يحاربون الجزائريين ، بل يحاربون عصابات مسلحة تمثل أقلية صغيرة منهم . وإن المرء ليتساءل فى عجب ودهشة : لماذا فشلت فرنسا فى سحق هذه « الأقلية الصغيرة » بعد مضى أكثر من عامين على الثورة وتجريد نصف مليون من الجنود الفرنسيين لإخمادها . أما زعم المقيم الفرنسى العام لاكوست بأن فرنسا تحارب فى الجزائر من أجل العالم الغربى الحر فإنه يزيد فى تهاوى سمعة الغرب إذ يشركه فى مسلك فرنسا المخجل فى هذه القضية .

ولقد انحدر هذا المسلك الفرنسى إلى قاع من النذالة باعتقال خمسة من الزعماء الجزائريين غدرا وهم فى طريقهم من مراكش إلى تونس للالتحاق بسلطان مراكش ورئيس وزراء تونس الحبيب أبو رقيبة ، بدعوة منهما ، وذلك عند ما نفذ ربان الطائرة التى أقلتهم مؤامرة السلطات الفرنسية وهبط بالطائرة فى الجزائر بدلا من تونس . وكان السلطان والحبيب أبو رقيبة مجتمعين فى محاولة للتوصل إلى تسوية للمشكلة الجزائرية ، وقد جرى اجتماعهما هذا بموافقة الحكومة الفرنسية التى أشعرت باشتراك الزعماء الجزائريين بهذه المباحثات . وكان اعتقال هؤلاء الزعماء بعيدا عن الشرف بمقدار ما كان بعيدا عن الحكمة السياسية . وكما أن إبعاد زعماء تونس ومراكش بالسجن والنفى والاغتيال لم يحطم المقاومة فى هذين البلدين ، كذلك فإن إبعاد زعماء الجزائر لن يفيد فى تحطيم الثورة الجزائرية ، بل كان من أثره أن أشعل من جديد فى أقطار المغرب العربى الثلاثة تعميما على إنهاء الحكم الفرنسى فى هذه المنطقة .

أما بريطانيا فقد ارتبطت مصالحها بالعالم العربى فى القرن التاسع عشر ، عندما أصبح البحر المتوسط يعتبر شريان الامبراطورية ، وللمحافظة على هذا الشريان استولت بريطانيا على مدخليه ـ أولا جبل طارق ، وفيما بعد قناة السويس ـ كما استولت على الجزر الاستراتيجية فى هذا البحر وهى مالطة وقبرص . إلا أن شريان الإمبراطورية لم يكن ينتهى عند المنافذ الشرقية للبحر المتوسط ، بل كان يتجاوزها إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى . ومن هنا كانت أهمية السيطرة على كلا طرفى البحر الأحمر ـ مضيق باب المندب عند المخرج الجنوبى وقناة السويس فى الشمال ، ومراقبة الخليج العربى وشواطىء الجزيرة العربية .

وفى القرن التاسع عشر كانت سياسة بريطانيا فى البحر المتوسط تواجه منافسين هما فرنسا وروسيا . فأخرجت فرنسا من مصر ، وعوضت بريطانيا عنها هذه الخسارة

فوافقت على توسعها فى أفريقيا الشمالية . وساندت بريطانيا الامبراطورية العثمانية ونادت بمبدأ المحافظة على أراضيها ، وذلك سعيا وراء إحباط المحاولات الروسية الرامية إلى التوسع صوب البحر الأبيض المتوسط .

وكان إصرار بريطانيا على بقاء الوضع الراهن فى الامبراطورية العثمانية سببا فى تصادمها مع الأمانى القومية العربية . فكانت الحكومة البريطانية تعتقد أن بقاء الإمبراطورية العثمانية المحتضرة أضمن لسلامة امبراطوريتها من قيام دولة عربية فتية لا يمكن التنبؤ بما قد يكون لها من شأن ، ومن هنا نشأت المقاومة العنيدة من جانب بريطانيا لمحمد على وابنه إبراهيم فى محاولاتهما الرامية إلى تحرير العرب من الحكم التركى وتأسيس دولة عربية مستقلة فى الولايات العربية من الامبراطورية العثمانية . ومنذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا ، كانت السياسة البريطانية إحدى العوائق الرئيسية فى طريق حرية العرب ووحدتهم .

وأصاب البريطانيون الأمانى العربية فى الصميم عندما جزأوا سوريا بالاتفاق مع فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى ، وأنشأوا أخطر مشكلة فى العالم العربى بخلق الوطن القومى اليهودى . وفى العراق ، كما فى غيره ، أدخلت أقليات جديدة ، وجرى التشديد على الخلافات الطائفية والعرقية . وإن مبدأ « فرق تسد » ، الذى اتخذ أسوأ أشكاله فى سوريا ، طبق فى السودان ، حيث اتخذت الإجراءات التى ترمى إلى فصل السودان عن مصر من جهة ، ومن جهة أخرى إلى تقسيم السودان نفسه ، وذلك بفصل شماله عن جنوبه . وقد طبقت السياسة ذاتها فيما بعد فى ليبيا حيث أنشئت إدارات ثلاث مختلفة ، وشجعت الحركات الانفصالية .

والسياسة التى وضعتها بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى وسارت عليها فى فترة ما بين الحربين كانت تستند إلى الافتراض بأن سلسلة من الدول الضعيفة التابعة لبريطانيا هى أكثر ملاءمة لحاجات الامبراطورية ومصالحها من أمة عربية

قوية متحدة . وكان إقحام الوطن القومى اليهودى فى فلسطين من ضمن هذه الخطة التجزئية .

وفيما بين الحربين تحالفت بريطانيا مع العناصر الرجعية فى البلاد العربية ، واعتمدت عليهم ليكونوا سندا لها . ووقفت وراء الملوك الذين خلقتهم وفضلت النظام الملكى على النظام الجمهورى للعرب ، زاعمة أن الملكية تؤمن الاستقرار والاستمرار . والملكية بحاشيتها و بلاطاتها و بما تتطلبه من احترام خاص للملوك هى نوع من الأفيون للشعب ، فالمجتمعات العليا تحاول تقليد البلاط ، وهؤلاء بدورهم يقلدهم من هم دونهم وهكذا إلى آخر السلم . مما يؤدى إلى إبعاد الشعب عن الاهتمام بالأمور الجدية ، و إلى انحراف تيار التطور عن القضايا الرئيسية .

ومن الطبيعة المحافظة التى يتصف بها البريطانيون ، مضافا إليها ما كانوا يعتقدون أنه مصلحتهم ، انبثقت سياسة تؤيد استبقاء الوضع الراهن ، بحيث لا تسمح إلا بمقدار من التطور يمكن السيطرة عليه وحفظه ضمن حدود ، وتسييره فى الاتجاه الذى ترسمه السلطات البريطانية . وكان النمط العام للتطور يرتكز على بناء استقلال شكلى ، وحكومات ومجالس نيابية تنظمها دساتير تعطى سلطة كبيرة إلى الحاكم الذى يكون بدوره مدينا لبريطانيا بمركزه ومرتبطا معها بمعاهدة . ويدافع بعد ذلك عن هذا التكوين بزعم أنه ممثل لإرادة الشعب ، وبالتالى أنه تكوين شرعى . وكانت المعارضة الشعبية له تسمى إرهابا وفوضى يجب إخمادها بالقوة . وخلعت على المعاهدة صفة القداسة ، واعتبرت محاولات نقضها خروجا على القانون الدولى .

وظهرت فى السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية أمارات تدل على حدوث تغير فى السياسة البريطانية . ومن أسباب هذا التغير ما طرأ على بريطانيا من الضعف عقب الحرب ؛ إذ لم يعد لديها القوة اللازمة لفرض إرادتها . ومن أسبابه أيضا حدوث تطورات فى المجتمع العربى ذاته . فتأييد بريطانيا لفكرة الوحدة العربية

المتمثلة بالجامعة العربيـة ، ومساعدتها لسوريا ولبنان فى صراعهما مع فرنسا ، من مظاهر هذا التغير . ومن المظاهر الأخرى استعداد بريطانيا لإعادة النظر فى معاهداتها مع البلاد العربيـة بقصد تعديلها فى مصلحة السيادة القومية . وكان أرنست بيفن ، وزير خارجية بريطانيا فى الحـكومة العمالية ، من القائلين بالصداقة العربيـة البريطانية ، وقد عبر عن هذا الاتجاه عنـد ما أعلن فى البرلمان البريطانى أن سياسة بريطانيا فى العالم العربى يجب أن ترتـكز على الأساس الوطيد الوحيد ، وهو الصداقة مع العرب [١] .

إلا أن خطوات بريطانيا نحو وضع سياسة عربيـة إيجابية كانت متعثرة . فمع أنها أيدت استقلال سوريا ولبنان إلا أنها اعترفت لفرنسا بمركز ممتاز فى هاتين الدولتين ، كما استمرت فى تعضيد سياسة القمع الفرنسية فى شمال أفريقيا . وكان مشروع تعديل المعاهدة العراقية الانـكليزيةالمعقودة سنة ١٩٣٠ ، كما برز فى معاهدة بورتسموث فى يناير (كانون ثانى) سنة ١٩٤٨ ، عبارة عن إبقاء للقيود القـديمة ولـكن ضمن شكل جديد . وجاء رفض الشعب العراقى الفورى العنيف لها معبرا من جديد عن وجود الهوة الواسعة بين السياسة البريطانية والأمانى العربية .

وكان توقيع الاتفاقية البريطانيـة المصرية فى اكتوبر سنة ١٩٥٤ [٢] خطوة نحو تفاهم أفضل بين بريطانيا والعرب ، كما كانت الاتفاقية المصرية البريطانية حول السودان التى وقعت فى شهر فبراير (شباط) سنة ١٩٥٣ . غير أن ما حققته هاتان الاتفاقيتان زال وانهار بتوقيع ميثاق بغداد فى مطلع سنة ١٩٥٥ ، وما تلاه من تعديل المعاهدة البريطانية العراقية على الأسس التى تضمنتها اتفاقية بورتسموث التى رفضها الشعب العراقى . فقـد اتضح أن بريطانيا لم تـكن تنوى الانسحاب من العالم

---

(١) خطاب بيفن فى مجلس العموم البريطانى ، ٢٤ مايو سنة ١٩٤٦ .

(٢) أنهت الحـكومة المصرية هذه الاتفاقية بعد الاعتداء البريطانى على مصر فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٥٦ .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

العربى ، كما فعلت فى الهند ، بل كانت تعيد تنظيم قواها وتوطد مركزها فى تلك الأقطار التى كانت لا تزال لها فيها سيطرة على الحكومات المحلية أو الحكام .

ويتضح هذا الاتجاه فى شبه الجزيرة العربية ، سواء فى طرفها الجنوبى الغربى حيث يعتدى الانجليز على الأراضى اليمنية ، أو فى مشيخات الخليج . فهنا استغلت المعاهدات الموقعة فى القرن التاسع عشر مع الحكام المحليين بحيث عوملت هذه المشيخات وكأنها مستعمرات بريطانية ، مع أنها من الناحية القانونية مستقلة . وقد أخذت بريطانيا تزيد فى تشديد قبضتها على هذه الأقطار بسبب ضعف مركزها فى باقى البلاد العربية خصوصا بعد اكتشاف النفط فيها .

وبسبب الصراع على البترول قامت بريطانيا بدفع الحكام التابعين لها فى منطقة الخليج للمطالبة بأراض واسعة داخل الجزيرة العربية . وقد نشأ الخلاف مع المملكة العربية السعودية حول واحة البريمى نتيجة لأحد هذه الادعاءات . وعرض الخلاف للتحكيم على لجنة دولية ، قدمت لها كل من بريطانيا والمملكة العربية السعودية وثائق ووقائع كثيرة . غير أن ضعف وجهة النظر البريطانية ظهر جليا عند ما انسحب المندوب البريطانى فى اللجنة فجأة ، فحال بذلك دون نشر تقرير اللجنة الذى تؤكد الدوائر السعودية بأنه كان يتضمن حكما ضد بريطانيا بأكثرية أربعة لواحد . ثم قامت بريطانيا باحتلال واحة البريمى بالقوة . وعومل امام عمان بنفس الطريقة الغاشمة ، وذلك عند ما قامت قوات سلطان مسقط التى تديرها بريطانيا باحتلال عمان فى شهر ديسمبر سنة ١٩٥٥ . وبعد ذلك بأسابيع قليلة ، بدأت إحدى الشركات البريطانية للتنقيب عن البترول ، أعمال التنقيب فى صحراء عمان .

غير أن هذه الأحداث مالبثت أن تضاءلت أمام العدوان البريطانى على مصر ، ذلك العدوان المماثل للحملات الاستعمارية فى القرن التاسع عشر بأبشع أشكالها .

إن بريطانيا لم تعد قادرة على المحافظة على مركزها فى المنطقة من غير عون ، سواء ضد المقاومة والتبرم الداخليين لأية سيطرة أجنبيـة مهما كان شكلها ، أو ضد خطر محتمل الوقوع من الخارج . وجاءت إلى المنطقـة دولة أخرى هى الولايات المتحدة ، بوصفها حليفا لبريطانيا ومنافسا لها أيضا .

والولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى لم يكن لها ماض استعمارى يشوه سمعتها فى العالم العربى ، بل كانت تتّسم بنزاهة القصد ، ونالت لذلك ثقة العرب . وقد قامت المؤسسات الثقافية الأميركية ، خلال المائة السنة الماضية بخدمات تربوية هامة فى عدد من الأقطار العربيـة . وعند ما أعرب المؤتمر السورى الوطنى ، بعد الحرب العالمية الأولى ، عن استعداده لطلب المساعدة الفنية والاقتصادية من أمريكا ، وفضلها على أية دولة أخرى ، فقد فعل ذلك ـ كما جاء فى قرارات المؤتمر ـ على أساس من الاعتقاد بأن الأمة الأمريكية مجردة عن النوايا الاستعمارية وليست لها أية مطامع سياسية فى سوريا . وقد تركت مبادئ ويلسون وبياناته أثرا عميقا لدى العرب وأذكت آمالهم فى جميع أقطارهم الممتدة من العراق إلى شمال أفريقيا . وفى فترة ما بين الحربين ، عند ما أطبقت يدا بريطانيـا وفرنسا على الشعوب العربية ، استمرت أمريكا بهدوء فى عملها التعليمى الإيجابى بين العرب ، وكان العرب ، وغيرهم من الأمم الشرقية ينظرون إلى الولايات المتحدة كحامية الحريات وصديقة الشعوب المناضلة فى سبيل حريتهـا واستقلالها . وهكذا كان للولايات المتحدة بداية موفقة مليئـة بإمكانيات التعاون المثمر لمصلحة العرب والأمريكيين . إلا أن هذه الوضعية الطيبة تلوثت إلى حد خطير بموقف أمريكا من فلسطين .

والولايات المتحدة بعد أن كانت فى المرتبة الثانية بالنسبة لبريطانيـا من حيث مساندة الصهيونية ، أصبحت خلال الحرب العالمية الثانية ، وفى السنوات التى تلت الحرب النصير الأول للصهيونية . وعند ما وصلت بريطانيـا إلى جانب من الضعف

بحيث عجزت عن الاستمرار فى فرض سياستها الصهيونية على العرب بالقوة ، كما فعلت فى سنوات ١٩٢٠ ـ ١٩٣٩ ، وأصبحت مستعدة للاعتراف المتأخر بحقوق العرب على أساس حصر الوطن القومى اليهودى بالحدود التى كان قد وصل إليها ، ألقت الولايات المتحدة كامل ثقلها فى الجانب الصهيونى ، متجاهلة كل التجاهل حقوق العرب فى بلادهم ، ومستهترة بشكل عجيب بمصالح أمريكا نفسها فى هذه المنطقة الحيوية . وحصل ضغط على بريطانيا ، لا بوساطة الصحافة ووسائل النشر الأخرى وحدها ، بل ومن الجهات الرسمية العليا . وكان الرئيس ترومان صهيونيا متحمسا واستعمل صلاحياته ونفوذه لتعضيد الأهداف الصهيونية . وصدرت عن أعضاء الكونجرس تهديدات موجهة إلى بريطانيا بأنها إذا لم تحقق رغبات الصهيونيين ، فستمنع عنها المساعدات المالية الأمريكية المكونة من القروض ومن أموال مشروع ما رشال ، وجمعت مئات الملايين من الدولارات فى الولايات المتحدة للصهيونيين فى فلسطين . وبهذه الملايين موّل الإرهاب اليهودى ، وهرب المهاجرون ، واشترى السلاح .

وحكومة الولايات المتحدة مسئولة أكثر من أية حكومة أخرى عن تقسيم فلسطين وعن تأسيس الدولة اليهودية . فإن ضغط حكومة الولايات المتحدة هو الذى أمن للتقسيم الأصوات اللازمة فى الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، وكان وفد الولايات المتحدة طوال مناقشة قضية فلسطين يساند الصهيونيين ويجمع لهم الأصوات . وهذه التصرفات أوجدت فى العالم العربى موجة من السخط وخيبة الأمل المريرة بالتصرفات الأمريكية التى كانت تناقض المبادئ التى اعتقد العرب أنها مبادئ أمريكا .

واستمرت الولايات المتحدة تؤيد إسرائيل ، رغم أعمالها العدوانية المتكررة ،

ورغم نواياها التوسعية ، واستهتارها بقررات منظمة الأمم المتحدة . ولولا المعونة المالية والأدبية التى تتلقاها إسرائيل من الولايات المتحدة لكانت قد انهارت .

وكان الضغط الأمريكى وراء قرار الحكومة الألمانية بتعويض إسرائيل عن الأضرار التى حلت باليهود فى عهد هتلر ، مع أن الحق فى هذه التعويضات يعود إلى الأفراد من ضحايا النازية ، ولا يعود لدولة إسرائيل التى تمثل الصهيونية المعتدية .

وأصبح الشعب الأمريكى ينظر إلى العرب بمنظار صهيونى . فالدعاية الصهيونية فى محاولتها لاكتساب التأييد الأمريكى و إخفاء الضرر والظلم النازلين بالعرب ، رسمت صورة عن تأخر العرب بعيدة جدا عن الحقيقة والواقع . بل إن تشويه الصهيونيين وأصدقائهم لكل ماهو عربى انحط فى بعض الأحيان إلى درك الشتم والسباب . وكانت صحف الأحرار معادية بشكل خاص ، فزعم بعضها أن العرب هم آخر ماتبقى من المجتمع الإقطاعى وأنهم يناهضون كل محاولة ديمقراطية أو تحضيرية [١] . وقد نشر مقال باسم كاتب معروف ، انتهى فيه إلى القول بأنه ليس للعرب حقوق تستوجب على العالم المتحضر أن يحترمها فى القرن العشرين [٢] .

وهكذا تراكمت الإهانة على الظلم مما أذهل العرب ونفرهم . وكما نظرت أمريكا إلى العرب بمنظار صهيونى كذلك رأى العرب أمريكا وقد وضعت قناعا صهيونيا على وجهها .

وقد جاءت محاولات تنفير الجمهور الأمريكى من العرب ، وسياسة الحكومة الأمريكية المعادية للعرب فى فلسطين ، فى وقت أخذت أهمية العالم العربى تزداد وتأخذ شكلا جديدا بالنسبة لأمريكا .

فإن مصالح الولايات المتحدة فى هذه المنطقة لم تعد مقصورة على المؤسسات

---

(١) The Nation, October 20 ,1945.

(٢) Louis Bromfield, in the Sunday World-Herald Magazine, December 1, 1946.

التعليمية الأمريكية . فقد أصبح للأمريكيين مصالح اقتصادية هامة فى شكل الامتيازات البترولية التى تتزايد أهميتها باستمرار إزاء نقص احتياطى أمريكا وزيادة الطلب العالمى على البترول لإعادة تعمير أوربا ولتصنيع آسيا . والأغراض الاستراتيجية المتصلة بالمنطقة لا تقل أهمية عن المصالح الاقتصادية ؛ ففى الحرب الأخيرة كان الشرق الأوسط من أهم مراكز العمليات العسكرية للحلفاء . ومن هذا الإقليم كان يجرى الدفاع عن الهند وأفريقيا ، ومنذ انتهاء الحرب أصبح الساحل الشرقى للبحر المتوسط يعتبر حيويا لأمن الولايات المتحدة فى سعيها للحد من توسع روسيا .

وتختلف روسيا عن أمريكا فى أن أهدافها السياسية فى الشرق الأوسط ليست حديثة العهد بل تعود إلى القسم الأول من القرن التاسع عشر ، ففى ذلك الحين كانت بريطانيا خصما لروسيا وكانت تسد سبل التوسع الروسى نحو البحر المتوسط بتشبثها ببقاء الإمبراطورية العثمانية . وأعلنت الحكومة البريطانية بالنسبة إلى منطقة الخليج العربى عن عزمها على استبعاد النفوذ الروسى عن وادى دجلة والفرات وعن منع إعطاء روسيا ميناء على الخليج . وكانت تؤكد أن منح روسيا مثل هذا الميناء سيعتبر استفزازاً دوليا يدعو للحرب .

وفى القرن التاسع عشر طرقت روسيا أبواب الإمبراطورية العثمانية محاولة تحطيمها والاستيلاء على بعض أجزائها . وعند ما تحطمت فعلا عقب الحرب العالمية الأولى كانت روسيا نفسها تعانى آلام ثورة جبارة . وفيما بين الحربين انشغلت روسيا بمشاكلها الداخلية . وإذا هى أطلت على المسرح الدولى كانت تفعل ذلك لتؤكد لجيرانها فى آسيا حسن نواياها نحوهم وعطفها عليهم ، وشجبها للاستعمار الغربى الذى كان يستغل شعوب آسيا وأفريقيا .

وأنهت الحرب العالمية الثانية عزلة روسيا ورفعتها إلى الصف الأول بين دول العالم ، وهو مركز لا يشاركها فيه إلا دولة واحدة هى الولايات المتحدة الأمريكية .

وإن روسيا لتحاول من جديد أن تندفع صوب البحار الجنوبية ـ البحر المتوسط فى الغرب ، والخليج العربى والمحيط الهندى فى الشرق .

وللشرق الأوسط ـ الواقع على أبوابها ـ أهمية حيوية بالنسبة لروسيا . فموارده البترولية تشكل ، بموجب تقديرات وضعت فى يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٥٣ ، ٤٦ ، ٥٣ بالمئة من احتياطى البترول المعروف فى العالم . ومياهه الدافئة تعوض عن بحارها المقفلة وموانئها المتجمدة .

وفوق ذلك كله فإن الشرق الأوسط مهم لاعتبارات استراتيجية ، فهو منطقة يمكن منها توجيه الهجمات إلى نقاط مكشوفة من الاتحاد السوفيتى .

ووجود كميات كبيرة من الزيت فى البلاد العربية أكد أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية وزاد من حدة المنافسات الدولية للسيطرة عليها . ولنفهم هذه الناحية من تطاحن القوة لابد لنا من إلقاء نظرة مختصرة على الوضع البترولى فى العالم العربى .

فى العالم حوضان كبيران للبترول ، أحدهما واقع حول البحر الكاريبى ويشمل الولايات المتحدة والمكسيك وفنزويلا ، وكولومبيا ، ويقع الثانى فى الشرق الأوسط من جنوب روسيا إلى الخليج العربى .

وكانت منطقة البحر الكاريبى إلى عهد قريب أكثر المنطقتين تنمية وأعظمها موردا ، ولكن الخليج العربى أخذ سريعا يحتل المركز الأول فى الإنتاج العالمى . فقبل عقد من الزمن ، وقبل أن تكتشف حقول كثيرة للزيت على سواحل الخليج العربى ، ذكر الجيولوجى البترولى الكبير دى جوليو De Golyer أنه عندما يفكر المرء بالاكتشافات العظيمة للبترول فى الشرق الأوسط التى ظهرت بنتيجة التنقيب القليل الذى تم ، وبالإمكانيات العظيمة التى لم تنقب بعد ، والمناطق الواسعة التى لم تدرس حتى الآن ، لا مفر له من أن يستنتج أن كميات هائلة من البترول المخزون فى الأرض

لم يكشف عنها بعد [١] . وقدر احتياطى البترول الثابت فى الشرق الأوسط فى يناير سنة ١٩٥٥ بـ ٩٢ بليون برميل أو ما يعادل ثلثى الاحتياطى الثابت فى العالم كله خارج الاتحاد السوفيتى . أما الاحتياطى غير الثابت فيقدر بـ ٢٠٠ بليون برميل [٢] .

والإنتاج المدهش لهذه الحقول ـ إذ أن إنتاج كل بئر يفوق كثيرا ما هو معروف فى أمريكا أو سواها ـ وانخفاض كلف الإنتاج الناجم عن التكوين الجيولوجى ، ورخص اليـد العاملة ، وضآلة عدد الآبار التى حفرت دون جـدوى تجعل من الامتيازات البترولية الممنوحة فى البلاد العربية ميدانا فسيحا للربح الوفير [٣] .

وهذه الامتيازات خاضعة كلها للسيطرة الانكلو أمريكية ـ فيما عدا شركة نفط العراق (IPC) التى يمتلك الفرنسيون والهولنديون حصصا فيها .

ولشركة نفط العراق أقدم امتياز فى المنطقة العربية من الخليج ، وقد منح لها هذا الامتياز سنة ١٩٢٥ ومدته ٧٥ سنة ثم نقح سنة ١٩٣١ فأصبح يشمل العراق كله ماعدا ولاية البصرة ، التى منح امتيازها فيما بعد لشركة متفرعة عن شركة نفط العراق . وتتكون هذه الشركة من الشركة الانجليزية الإيرانية (انجلو ايرانيان) ـ وهى شركة بريطانية ، ومن شركة شل التى يشترك فيها البريطانيون والهولنديون ، ومن الشركة الفرنسية للبترول ، ومن شركة الإنماء فى الشرق الأدنى ـ وهى أمريكية تملكها شركتا ستاندارد أوف نيوجرزى وسوكونى فاكوم بالتساوى فيما بينهما ، ويمتلك كل من الشركاء الأربعة ٢٣,٧٥ بالمئة من الأسهم . أما الـ ٥ بالمئة الباقية

---

(١) De Golyer : Preliminary Report to the Technical Oil Mission to the Middle East, Bulletin of the American Association of Petroleum Ceologists, Vol. 28, 1949, p. 921.

(٢) Petroleum Press Service, July 1956.

(٣) Sir Olaf Caroe : Wells of Power, p 92 ; Mikesell and Chenery : op cit pp. 20—29.

فيملكها جولبنكيان صاحب الامتياز الأصلى فى العهد العثمانى . وكان الزيت يستخرج من حقل كركوك فى شمال العراق ، وقد اكتشف سنة ١٩٢٧ ، إلى أن اكتشف حقل الزبير غربى البصرة وابتدأ إنتاجه فى شهر يناير (كانون ثانى) سنة ١٩٥٢ . وفى سنة ١٩٣٤ أنشئ خطان للأنابيب بقطر ١٢ بوصة (انش) لربط حقل كركوك بالبحر الأبيض المتوسط ، وينتهى أحد الخطين فى حيفا ، والثانى فى طرابلس . وأنشئ خط بقطر ١٦ بوصة يصل كركوك بطرابلس ، وخط آخر بقطر ٣٠ بوصة ، انتهى العمل فيه سنة ١٩٥٢ وهو يصل كركوك ببانياس على الساحل السورى . وفى كركوك مصفاة صغيرة تؤمن الحاجات المحلية ، وقد وسعت مصفاة طرابلس فأصبحت مقدرتها نصف مليون طن .

وتمتلك فروع شركة نفط العراق امتيازات مدتها ٧٥ عاما على الشواطىء الشرقية لشبه الجزيرة العربية جنوبى المملكة السعودية . فأسست شركة إنماء البترول لقطر سنة ١٩٣٥ ، وشركة إنماء البترول لعمان سنة ١٩٣٧ ، وشركة إنماء البترول للساحل المهادن التى نالت امتيازات بين سنوات ١٩٣٧ ـ ١٩٤٥ وتشمل المشيخات الواقعة على هذا الساحل وابتدأ الإنتاج فى قطر فى مطلع سنة ١٩٥٠ ، أما المناطق الأخرى فلم يبدأ الإنتاج فى أى منها بعد .

أما شركة النفط العربية الأمريكية ـ آرامكو ـ فيملكها الأمريكيون وحدهم ، وهى تعمل فى المملكة العربية السعودية ؛ ففى سنة ١٩٣٣ منح امتياز مدته ٦٦ سنة لاستثمار البترول فى القسم الشرقى من المملكة العربية السعودية إلى شركة ستاندارد أوف كاليفورنيا ، وبموجب ملحق للاتفاقية وضع سنة ١٩٣٩ وسعت منطقة الامتياز بحيث شملت المملكة العربية السعودية كلها ، وحصة السعودية فى المنطقتين المحايدتين بين السعودية والكويت والسعودية والعراق ، وللسعودية نصف الأسهم فى كل من هاتين المنطقتين . وتنازلت الشركة فيما بعد عن حقها فى منطقة الكويت المحايدة

مقابل الحق فى التنقيب تحت مياه الخليج عند سواحل المملكة السعودية . وفى سنة ١٩٣٦ دعت شركة ستاندارد أوف كاليفورنيا شركة تكساس لتشاركها على أساس المساواة فى الامتياز . وذلك لشعورها بالحاجة إلى وسائل التسويق . وكانت شركة تكساس ذات الأسواق الواسعة فى آسيا وأفريقيا وأروبا تحتاج إلى الزيت لتمون به أسواقها ، فاتحدت مصالح الشركتين . ثم انضم إليهما شركتا ستاندارد أوف نيوجوزى وسوكونى فاكوم فى سنة ١٩٤٦ ، بعد أن تبين أن احتياطى البترول الموجود هائل بحيث يلزم لاستغلاله كميات ضخمة من رءوس الأموال (الرساميل) . وتمتلك سوكونى ١٠ بالمئة من أسهم آرامكو بينما تمتلك الشركات الثلاثة الباقية ٩٠ بالمئة موزعة بالتساوى بينهما .

كانت آرامكو ثانى المنتجين فى الشرق الأوسط خلال عام ١٩٥٥ و بلغ مجموع إنتاجها ٤٧ مليون طن . ويضخ الزيت إلى البحر المتوسط بوساطة أنابيب شركة خط الأنابيب عبر البلاد العربية (التابلاين) وقطرها ٣٠ ـ ٣١ بوصة (انشا) ، ويبلغ طولها ١٠٦٨ ميلا معظمها فى الصحراء . وتمتد من الظهران القريبة من الخليج العربى إلى الزهرانى جنوبى صيدا فى لبنان . ويصفى قسم من الزيت محليا فى مصفاة آرامكو برأس التنورة ، ويضخ قسم آخر بوساطة أنابيب ممتدة تحت الماء إلى جزيرة البحرين حيث يكرر فى مصفاة هناك تمتلكها شركة نفط البحرين الموزعة أسهمها بالتساوى بين ستاندرد أوف كاليفورنيا وتكساس بموجب امتياز منح سنة ١٩٣٠ .

وشركة نفط الكويت شركة انجليزية ـ أمريكية مسجلة فى بريطانيا ويمتلكها بالتساوى شركة الانجلو إيرانيان وشركة الخليج للتنقيب وهى أمريكية . ويشمل امتياز الشركة جميع أراضى الكويت ، ومدته ٧٥ سنة تبدأ فى شهر ديسمبر

سنة ١٩٣٩ . وقد اكتشف الزيت سنة ١٩٣٦ فى حقل برقان [١] ، وابتدأ الإنتاج على مقياس تجارى فى سنة ١٩٤٦ . وافتتح حقل آخر هو حقل مقوع سنة ١٩٥٢ . وكانت الكويت أكبر منتج للنفط فى الشرق الأوسط سنة ١٩٥٥ حين بلغ مجموع إنتاجها ٥٥ مليون طن . وتشحن شركة نفط الكويت نفطها الخام بناقلات تعبأ فى الأحمدى ـ ميناء الزيت الواقع جنوب مدينة الكويت بمسافة ٣٠ ميلا . ومصفاة الأحمدى التى ابتدأت أعمالها فى نهاية سنة ١٩٤٩ لها مقدرة إنتاجية سنوية تبلغ مليون طن .

وتمتلك شركتان أمريكيتان حق التنقيب فى منطقة الكويت المحايدة، فشركة النفط الأمريكية المستقلة منحت امتيازاً بحصة الكويت سنة ١٩٤٨ بينما أعطيت حصة المملكة السعودية سنة ١٩٤٩ إلى شركة باسيفيك وسترن . وقد اكتشف الزيت فى المنطقة المحايدة فى مطلع عام ١٩٥٣ . ونالت مجموعة أمريكية هى شركة النفط البحرية الدولية امتياز التنقيب تحت مياه الخليج حول شبه جزيرة قطر .

ومنذ أن أصبح للنفط أهميةخاصة بوصفه مادة استراتيجية مرتبطة أوثق الارتباط بأمن الدولة أصبحت امتيازات البترول من الأمور التى تعنى الدولة فى سياستها الخارجية . فبريطانيا ، وقد فطنت لأهمية النفط فى منطقة الخليج ، وضعت فى معاهداتها مع حكام الخليج بنودا احتفظت بموجبها بحق منح امتيازات البترول فى المناطق التى تشملها المعاهدات . ولم يلق دخول الأمريكيين إلى المنطقة ترحيبا من جانب البريطانيين ، فلم يسمح للشركات الأمريكية بأن تساهم فى تنمية نفط العراق إلى أن احتجت حكومة الولايات المتحدة بأن بريطانيا ـ وكان لها حينذاك الانتداب على العراق ـ قد خرقت سياسة الباب المفتوح التى أقرتهاعصبة الأمم مبدأ للانتدابات،

---

(١) وحقل برقان هو ثانى حقول النفط فى المنطقة ، ولعل حقل الغوار فى المملكة العربية السعودية الذى يبلغ طوله ١٤٠ ميلا هو أكبر الحقول فى العالم احتواء على كمية ثابتة من النفط .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

عندما حجبت الشركات الأمريكية عن الاشتراك فى الامتيازات . وعندما رفضت الحكومة البريطانية الترخيص لشركة الخليج للتنقيب بامتياز فى الكويت، اتصلت الشركة المذكورة بوزارة الخارجية الأمريكية وهذه احتجت إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وأدى ذلك إلى موافقة بريطانيا على تشارك الإنكليز والأميركيين فى استثمار نفط الكويت . والشركة الأمريكية العاملة فى البحرين خاضعة إلى حد كبير للسيطرة البريطانية . وقد رفضت الحكومة البريطانية . إعطاء امتيازات فى قطر والساحل المهادن إلى شركة ستاندرد أوف كاليفورنيا وأعطت الامتيازات فى هذه المناطق لفروع من شركة نفط العراق مع أن شيوخ المنطقة كانوا يفضلون إعطاءها للشركة الأمريكية .

وبلغ من اهتمام الحكومة الأمريكية بالنفط الأجنبى أن أنشأت سنة ١٩٤٣ مصلحة لاحتياطى النفط ذات صلاحيات فى الحصول على احتياطى من موارد النفط الخام خارج الولايات المتحدة وفى بناء وتشغيل المصافى والأنابيب وغيرها من المنشآت فى الخارج .وعين وزير الداخلية رئيسا لهذه المصلحة وكان من أعضاء مجلس إدارتها وزراء الخارجية والحربيةوالبحرية ورئيس الإدارة الاقتصادية والخارجية . وفاوضت مصلحة احتياطى النفط فى سبيل شراء الامتيازات الأمريكية فى المملكة السعودية والبحرين ، غير أن الشركات رفضت بيع امتيازاتها ، وهى واثقة بأن الحكومة الأمريكية ستحمى مصالح النفط حتى ولو لم تمتلكها . وجرت محاولة أخرى لتملك الحكومة للنفط فى مطلع عام ١٩٤٤ عند ما عقد رئيس مصلحة احتياطى النفط اتفاقية تمهيدية مع آرامكو وشركة الخليج للتنقيب عرضت الحكومة بموجبها أن تنشىء خطا للأنابيب يصل حقول المملكة السعودية والكويت بالبحر المتوسط وأن تدير هذا الخط . ولكن المشروع لقى معارضة فأهمل ، وقامت الشركات التى تتشكل منها الآرامكو بإنشاء خط الأنابيب .

وفى علاقات الولايات المتحدة مع البلاد العربيـة كان يجمعها وبريطانيا ، مهما اختلفتا فى بعض القضايا الخاصة ، هدف مشترك هو إبعاد روسيا عن المنطقة . وكانت فرنسا تدور فى فلكهما وتلقى منهما التأييـد . وتشبثت بريطانيا وفرنسا بمراكزهما فى البلاد العربيـة زاعمتين أمام الولايات المتحدة أن انسحابهما يخلق فراغا ستحاول روسيا أن تملأه . ومن هنا كان تشديدهما على أن الاستقرار أهم حاجات المنطقة . وتمثل هـذه النظرية فى البيان الثلاثى وفى مشروع إنشاء قيادة مشتركة للدفاع عن الشرق الأوسط .

فالبيان الثلاثى الصادر فى مايو (أيار) سنة ١٩٥٠ فى لندن ، من جانب وزراء خارجية فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، أعلن أن فى وسع الدول العربيـة وإسرائيل أن تتزود بالسلاح ضمن نطاق حاجاتها للأمن الداخلى والدفاع . وإذا لجأت إحدى هذه الدول إلى استعمال القوة لتغيير الحدود المرسومة فى الهدنة ، فستتخذ الدول الثلاث الإجراءات اللازمة لوقف الاعتـداء ، داخل منظمة الأمم المتحدة وخارجها .

وقد اعتبر الرأى العربى الواعى هـذا البيان بمثابة إعلان بأن الدول الثلاث قد نصبت نفسها وصية على المنطقة . أما فيما يختص بمنع استخدام القوة فلم يطمئن أحد إلى أن البيان الثلاثى سيكون أفعل فى وقف العدوان الإسرائيلى من قرارات منظمة الأمم المتحدة .

أما جواب الدول العربيـة الذى بلغ بوساطة الجامعة العربية فقد أعرب عن المخاوف الناجمة عن نيـة الدول الثلاث بالعمل خارج نطاق منظمة الأمم المتحدة . وفيما يتعلق بموضوع السلاح ذكر الرد أن للعرب أن يقرروا حاجاتهم من السلاح بالنسبة إلى اتساع رقعة بلادهم ، وطول حدودها وعدد سكانها . وطلب الرد تأكيداً بأنه ليس من شأن البيان أن يؤثر على التسوية النهائيـة للقضية الفلسطينية .

وأكد أخيراً أنه لا يمكن تأمين السلام فى الشرق الأوسط إلا إذا حلت مشاكله بموجب مبادىء العدالة والحق .

أما مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط الذى عرض على مصر فى خريف سنة ١٩٥١ ، من جانب بريطانيا ، وبالاشتراك مع الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا ، فقد قصد منه أن يكون بديلا عن معاهدة الدفاع الانكليزية المصرية المعقودة سنة ١٩٣٦ ، والتى ألغتها مصر . وقد رفضت مصر هذا المشروع واعتبرته استبدال الاحتلال البريطانى باحتلال دولى .

كان بالإمكان جعل ميثاق الضمان الجماعى العربى أداة قادرة على الدفاع الإقليمى لو توفر لدوله السلاح . ولكن لما كان الميثاق يرمى إلى تقوية العرب فى دفاعهم ضد إسرائيل ، لم يمكن تزويده بالسلاح من الغرب أصلا . أما مشروع الجدار الشمالى الذى وضعه دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة فقد قصد منه تجاوز القضية الفلسطينية والنزاع بين العرب وفرنسا بشأن المغرب ، وفى الوقت ذاته الاستفادة من نفوذ بريطانيا فى العراق والأردن . وانبثق عن هذا المشروع حلف بغداد الذى انضمت إليه أربع دول إسلامية هى تركيا والعراق وإيران وباكستان . وأخفقت المحاولات المبذولة لجر سوريا والأردن إلى الحلف . وتؤيد الولايات المتحدة هذا الحلف ؛ إذ كانت هى صاحبة مشروعه ، ولكنها لم تنضم إليه رسميا . أما بريطانيا التى اعتبرت الشرق الأوسط لمئة عام خلت منطقة خاصة بها ، والتى لم تتردد عام ١٩٥٦ عن غزو بلد عربى لإعادة سيطرتها المتدهورة ، فهى عضو فى هذا الحلف . ومع أن الحلف وضع بزعم مقاومة الشيوعية ، إلا أنه فى الدرجة الأولى وسيلة للمحافظة على السيطرة الغربية فى المنطقة . وقد رفضت الدول العربية هذه المنظمة ـ باستثناء العراق الذى جرته حكومته إليها رغم إرادة شعبه ـ بسبب مصدرها الأجنبى ، واعتبرتها قيدا جديدا على حريتها وعقبة لوحدتها .

والدول الغربيـة ، سواء عملت مجتمعة أم منفردة ، فإنها دوما كانت تخضع حاجات المنطقة الحقيقية لمصالحها . وقد نظرت إلى الإقليم باعتباره مهما فى التوتر العالمى الحالى كقاعدة للدفاع والهجوم وكمصدر للنفط . أما مشاكله المحلية ومصالحه المشروعة وأمانى شعوبه فاعتبرت كلها تافهة بالقياس إلى مكانه من الاستراتيجية العالمية للدول الغربية .

وبقيت الدول الغربيـة تفترض أن العرب سيقفون إلى جانبها فى حرب مقبلة كما فعلوا فى السابق ، وذلك رغم استمرارها فى تجاهل حقوقهم . وقد ذكر مستر موريسون ، وزير الخارجية البريطانية الأسبق شيئا من هذا القبيل فى مجلس العموم البريطانى فى شهر يوليه (تموز) سنة ١٩٥١ . ولـكن هى تجارب العرب فى الحربين العالميتين الأولى والثانية التى جعلتهم ينفرون من مشروعات الغرب الدفاعية .

ولقد وجه النقد إلى العرب لأنهم لم يقدموا للحلفاء تأييدا قلبيا فى الحرب العالمية الثانية . ويمكن فهم الموقف العربى فهماً أوفى إذا ما قورن بالموقف المشابه فى الهند . فالهند والبلاد العربية التى كان يطلب منها أن تدافع عن قضية الحلفاء كانت لا تزال تحت سيطرة واحدة أو أكثر من هذه الدول الحليفة . ولم يكن من المتوقع أن يتحمس الهنود أو العرب لمحاربة شكل من الحـكم التعسفى بينما هم خاضعون لشكل آخر من هـذا الحـكم ، ولم يكونوا مستعدين لأن يحاربوا من أجل الحرية فى بلاد سواهم ، عندما كانت الحرية تمنع عن بلادهم . ولم ير الهنود فرقا كبيرا بين الدكتاتورية الفاشية التى كانت بريطانيا تحاربها فى أوربا ، وبين حكمها التعسفى فى الهند ، حيث كان نائب الملك يتمتع بسلطات ديكتاتورية غير محدودة ، ولم يكن مسئولا تجاه أحد فى الهند [1] . ولم يستشر الهنود فى الحرب التى كان ينتظر منهم الاشتراك بهـا . ولم تترك لهم الحرية فى تقرير مكانهم ودورهم فى هـذه الحرب .

(١) Jawaharlal Nehru : the Discovery of India, Calcutta, 1945, p. 2.

وفى الوقت ذاته كانت الحكومة البريطانية ترفض باستمرار إعطاء أية تطمينات عن حرية الهند .

وفى هذه الأحوال وعندما كانت بريطانيا منهمكة فى حرب حياة أو موت مع الفاشية ، قامت فى الهند حملة تقول للبريطانيين « اخرجوا من الهند » ، وقد زج بآلاف من الهنود أثناء هذه الحملة فى المعتقلات والسجون بدون محاكمة ، وقتل آلاف آخرون ، وطرد عشرات الألوف من المدارس والكليات ، وعم الهند حكم من الإرهاب [1] . وكان غاندى ونهرو على رأس حركة « اخرجوا من الهند » . إنه يصعب أن نجد فى العالم كله ـ إن فى الشرق أو فى الغرب ـ رجلين أعظم من غاندى ونهرو ، أو من يفوقهما إخلاصا وتكريسا لقضية الحرية والديموقراطية ، أو من يتصف بإنسانية أشمل وأعمق ، ومع ذلك فإن هذين الرجلين لم يترددا فى أن يقودا أمتهما فى حركة كان لا بد لها أن تعرقل المجهود الحربى للحلفاء . وقد فعلا ذلك لأنهما كانا مقتنعين بأن حقهما وواجبهما الأول هو تحرير شعبهما قبل تأييد حروب الحرية فى البلاد الأخرى .

ولم تقم فى البلاد العربية حركة شبيهة بحركة « اخرجوا من الهند » . وما ذلك لأن شكوى العرب كانت أقل من شكوى الهنود ، ولكن لأنه لم تتيسر للعرب مثل الزعامة التى فى الهند اتحدت مع جماهير الشعب وعملت خلال جيل كامل لإيقاظ الروح الشعبية وتنظيم العمل الشعبى وتوجيهه .

وكان بين الجمهور العربى شعور ظاهر بالعداء للحلفاء منبثق عن قضية فلسطين وعن الوضع الذى أوجده الاستعمار فى ديارهم ، أما المفكرون فإنهم بالرغم من كرههم للفاشية ومن قربهم الروحى من المثل الديمقراطية بتقاليدهم و بتعليمهم ، فقد ساورتهم

---

(١) Ibid ; p. 1.

خشية من التسوية التى ستضعها بعد الحرب نفس الدول المسيطرة فى بلادهم . أما على المستوى الرسمى ، فلو استثنينا حركة رشيد عالى الكيلانى فى العراق ، لوجدنا أن قضية الحلفاء نالت كل المساعدة التى استطاعت الحكومات المحلية أن تقدمها . وقد وجهت الموارد الاقتصادية للبلاد العربية فى سبيل المجهود الحربى ، وأعطيت الحاجات العسكرية سبقا فى وسائل المواصلات والموانى . وكانت مصر قاعدة العمليات العسكرية فى الشرق الأوسط ، والاسكندرية قاعدة أسطول شرق البحر المتوسط . وأعطى الملك عبد العزيز آل سعود للحلفاء تأييدا غير متردد طول مدة الحرب ، ووضع فى جانبهم نفوذه المعنوى الذى تعدى نطاق مملكته . أما إذا كانت قوة العرب العسكرية ضئيلة فذلك راجع ، بالنسبة إلى العراق ومصر ، إلى أن بريطانيا المرتبطة معهما بمعاهدات تنص على تدريب جيوشهما وتجهيزها ، تركت هذه الجيوش فى حالة عجز فاضح . وكان الجيش العربى الأردنى خاضعا خضوعا كليا للسيطرة البريطانية ، شأنه فى ذلك شأن جيش سوريا ولبنان الخاضعين لفرنسا .

وكانت السياسة البريطانية تتوخى إبقاء البلاد العربية معتمدة على بريطانيا فى سبيل الدفاع عنها ، ولذلك فقد ترك جيشا مصر والعراق فى تلك الحالة من العجز . وقد نصح رئيس الوزراء ونستون تشرشل الحكومة المصرية بأن تبقى خارج الحرب ، بسبب قلة الأسلحة ولأنه كان من مصلحة بريطانيا أن تكون القاهرة ـ التى أصبحت العاصمة الثانية للامبراطورية ـ مدينة مفتوحة . ولكن عندما طالبت مصر بريطانيا بسداد ما عليها من الدين لها ـ ومقداره ٤٠٠ مليون جنيه استرلينى ـ أعلن مستر تشرشل ذاته فى البرلمان ، وكان إذ ذاك زعيما للمعارضة ، بأن هذا الدين لا يكاد يوازى دفاع بريطانيا عن مصر .

إن مثل هذا الدفاع المفروض من الخارج هو ما لا يمكن للبلاد العربية أن تقبله . ولهذا الدفاع أضراره البالغة ، إذ أنه يهدم معنويات الشعب ويضحى مصالحه فى سبيل

دولة أجنبية . ولقد ظهر جليا فى مناسبات عدة أن مصالح العرب والدول الغربية هى مصالح متباينة . وأظهرت الحرب الكورية للعرب بعض التناقضات الحادة . فعدوان كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية استدعى قيام منظمة الأمم المتحدة بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية باتخاذ الإجراءات الفورية . أما فى فلسطين فإن عدوان شعب غريب على السكان الأصليين نال موافقة منظمة الأمم المتحدة وتكريسها ، وذلك أيضا بزعامة الولايات المتحدة . وفى كوريا درب جيشان قويان وجهزا خلال سنوات قليلة ، أما فى مصر والعراق فقد تركت بريطانيا جيوش البلدين وهى غير صالحة إلا للاستعراضات والاحتفالات . وفى الحرب الكورية كان الجنود الأتراك بين القوات التى أظهرت من الشجاعة ما نال إعجاب الصحافة العالمية ، وكان من نتيجة ذلك أن زادت الولايات المتحدة مساعداتها لتركيا . وهذا الاعتراف يتباين بشكل أليم مع الموقف من جنود المغرب العربى ، الذين حارب مئات الألوف منهم بشجاعة فائقة فى حربين عالميتين إلى جانب الحلفاء . ولكن لما حاربوا بصفة تبعية فإن شجاعتهم وتضحيتهم لم تنل الاعتراف الذى يقدم إلى الشعوب الحرة المحاربة فى سبيل قضاياها . والمغزى الذى لامفر منه أن الشجاعة والتضحية لا تحسبان إلا عندما يسندهما كيان وطنى يعطيهما الكرامة والقيمة .

والدول الغربية ، فى مشروعاتها الدفاعية للشرق الأوسط ، لا تعتبر العرب شركاء لها ، وإنما أدوات فى سياستها . وكل ما تريده هو أن تؤمن منطقة موالية وشعبا ساكنا ومستعدا لأن يضع بتصرفها موارده ومواصلاته وقواعده وعماله ، كما فعل فى الحربين الماضيتين . وتفترض أن العرب سيرضون بهذه المشروعات وتبنى هذا الافتراض على أساس الاعتقاد بأن المجتمع العربى هو فى جوهره معاد للشيوعية ، وأن الجماهير العربية المحافظة الساكنة ، يسهل ضبطها ، وأن الطبقات الحاكمة التى لها مصلحة فى بقاء الوضع الراهن يمكن الاعتماد عليها بالاستجابة لرغبات الدول الغربية .

إلا أن هذه النظرية أصبحت بالية . فالجماهير تتململ بالأفكار والعواطف المختلفة الأصول [١] . والجماعات الحاكمة ساءت سمعتها ، وأخذت تزحزح بسرعة عن مراكز السلطة . وبزغ رجال جدد منبثقون من جماهير الشعب أو وثيقو الصلة بها ، أخذوا يتسلمون زمام الحكم ويديرون الشئون العامة فى سبيل مصلحة الشعب ، فوق كل مصلحة وفوق كل اعتبار . وليس من دواعى السلامة الاطمئنان لعداء العرب للشيوعية ، مهما كان هذا العداء حقيقيا .

صحيح أن كثيرا من الاعتبارات تجعل العرب ينفرون من الشيوعية . فالمثالية الشيوعية المبنية على مفهوم مادى للتاريخ ولمصير الإنسان ، هى نقيض التراث الروحى العربى الذى يعتبر أن الإنسان خلق لينفذ مشيئة الله على الأرض ، وأنه مقدر له الخلود فى الحياة الآخرة . أما المجتمع الشيوعى ، الذى يخضع فيه الفرد والعائلة إلى دولة مرفوعة إلى المقام الأسمى ومزودة بالقوة الكلية ، ومتغلغلة فى الحياة كلها ، فهو مناقض للمفاهيم الأساسية فى المجتمع العربى . إذ يعتبر هذا المجتمع العائلة الوحدة الأساسية والركن الأول للترابط الاجتماعى وبها يجد الفرد الأمن والطمأنينة والاكتمال . والعربى متعلق بالملكية الفردية الخاصة ، ويعتبر الأرض أثمن الممتلكات . والفلاح العربى ـ والأكثرية الساحقة من العرب هم فلاحون ـ مرتبط بالأرض بعد ارتباطه بأقربائه ، والأرض بالنسبة إليه لا تمثل الثروة وحدها ، بل والمكانة فى المجتمع ، والبقاء ، واستمرار الوجود . فالأرض الموروثة عن الأجداد يجب المحافظة عليها بأمانة وتوريثها إلى الأحفاد ، وبذلك يتأمن استمرار الجماعة حول الأرض التى ترتبط بها . على أن من الضرورى أن نقيد هذا القول ، إذ أن قسما كبيراً من

---

(١) « لم أر قرية بين البحر المتوسط والمحيط الهادى إلا وكانت متململة فى قلق » وليام دوجلاس فى كتابه أراض غريبة وشعوب صديقة .

William O. Douglas : Strange Lands and Friendly People, 1951, p. 317.

الفلاحين العرب لا يملكون الأرض التى يشتغلون بها ، ولذلك فإن الشيوعية لا تخلو من جاذبية فى نظرهم .

والمفكرون من العرب لا يرغبون فى رؤية العقائد الشيوعية مستولية على أذهان الشبان العرب ، ومحركة للجماهير العربية فى وقت يختبر فيه المجتمع العربى أزمة داخلية وهو يجاهد ليكشف تراثه مجددا وليرجع الفكر فى هذا التراث بحيث يصبح متلائما مع حاجات الحياة المعاصرة ، وبحيث يصبح من جديد قوة خلاقة فى المجتمع العالمى . وفى مثل هذا الوقت من السعى الفكرى والروحى من الضرورى أن يسمح لجميع تيارات الفكر أن تجرى وتتفاعل بحرية تامة ، وأن لا يفرض مذهب واحد من الخارج ، وأن لا يُمنع أى من الاتجاهات التى تحرك العالم المعاصر .

وسيقاوم العرب الشيوعية بمقدار ما تحاول تقويض التراث العربى وأسس المجتمع الجوهرية .

ولكن يجب أن نذكر أنه مهما كانت العقائد الشيوعية مباينة لجوهر التراث العربى ، فإن الدولة الشيوعية الأولى ، أى الاتحاد السوفيتى ، ليست الغول الذى تحاول الدول الغربية أن تصوره للعرب وتخيفهم به . فالواقع أن روسيا ليست موجودة فى البلاد العربية ، وليس لها جنود فى أى قطر عربى ، ولا تمارس على أى منها سيطرة سياسية ، ولا تشترك فى استغلال مواردها الاقتصادية . فخطر السيطرة الشيوعية المرتقب لا يمكن أن يقنع العرب بالقبول بالسيطرة الغربية الواقعة فعلا . والطغيان الشيوعى وراء الستار الحديدى فاقه الظلم الفرنسى فى المغرب العربى . ومهما كان الخطر الكامن وراء الشيوعية ، فإن الخطر المباشر والأكبر للعرب هو وجود إسرائيل ، ربيبة بريطانيا والولايات المتحدة .

ومن المفيد أن نتذكر أيضا أن الديموقراطيات الغربية ذاتها غيرت موقفها من

روسيا ، ولم يكن هذا التغيير ناجما عن تضارب المبادىء والعقائد بمقدار ما كان ناجما عن توازن القوى فى العالم . فإن روسيا كانت شيوعية بمقدار ما هى اليوم شيوعية عنـد ما أصبحت حليفة الغرب فى نضاله ضد الفاشية . وقول تشرشل بأنه يصادق الشيطان إذا كان فى مصادقته خـدمة لقضيته هو قول غير منبثق عن مثالية بل عن الحافز الطبيعى للسعى وراء العون حيثما وجد .

و بالرغم من أن الشيوعيـة مناقضة من ناحيتها المثالية للتراث العربى والدين الإسلامى ، و بالرغم من أن الأحزاب الشيوعية ممنوعة فى البلاد العربيـة ، إلا أن الأحوال السائدة فى كثير من أنحاء العالم العربى نتيجة الضعف الداخلى أو الضغط الخارجى ، تترك للشيوعية أملا فى المنطقة .

و بما أن الدول الغربية تعتبر مسئولة عن كثير من التوتر والقلق الذى يعيش العرب اليوم فى ظله ، فلا يفيدها أبدا أن تلوح بالخطر الشيوعى . فإذا كانت جادة فى رغبتها باستعادة ثقة العرب فعليها إعادة النظر بكامل سياستها فى البلاد العربية ، بحيث تـكون مستعدة للسير فى اتجاه جديد تماما .

ومن الضرورى أن يدرك الغرب منذ البدء أن رغبة العرب فى الحرية وتصميمهم على أن يحرروا أنفسهم من السيطرة الأجنبية ، وتشديدهم على الحق بالدخول فى اتفاقات حرة متكافئة يتساوى فيها ما لـكل من الطرفين من الحقوق وما يعود عليه من الواجبات ، ليست مستلهمة من الشيوعية ، بل هى رغبات طبيعية وأصيلة وناجمة عن حافز مشابه للحافز الذى أوجد الثورة الأمريكية . فالدعاية الشيوعية لم تختلق مظالم للغرب فى البلاد العربية ، بل هى تستغل هذه المظالم الحقيقية الأساسية والتى يحسها العرب إحساسا قويا عميقا فى سائر أقطارهم و يثورون عليها . فالواقع أن الدعاية الشيوعية لا تهتم بنشر العقائد الشيوعية بمقدار ما تهتم بترديد مظالم الاستعمار الغربى فى البلاد العربية . ولا تحاول الشيوعية أن تسند أصحاب المصالح الخاصة أو العناصر

الرجعية فى المجتمع العربى ـ تلك العناصر التى تؤخر تحرره الداخلى وإعادة بنائه ـ بل بالعكس فإنها تحاول أن تهدم كيان هذه الفئات ، وهى فى عملها هـذا أكثر انسجاما مع العناصر التقدمية من الدول الغربية التى تسند الحكومات غير الديموقراطية لمجرد كونها معادية للشيوعية .

وقد أيدت روسيا حرية العرب واستقلالهم فى مواقف عدة مما ترك أثرا طيبا فى نفوسهم ، وإن كانت فعلت ذلك لإخراج بريطانيا وفرنسا من المنطقة . فكان الاتحاد السوفيتى أول دولة اعترفت اعترافا كاملا باستقلال سوريا ولبنان ، دون أية تحفظات حول أية حقوق أو امتيازات خاصة لأية دولة . وفى النزاع الذى عرض أمام منظمة الأمم المتحدة فى شتاء سنة ١٩٤٦ حول انسحاب الجيوش الفرنسية والبريطانية من دولتى المشرق ، أيد الوفد السوفيتى وفدى الجمهوريتين العربيتين بقوة . وعندما أثير النزاع المصرى الإنكليزى أمام مجلس الأمن فى صيف سنة ١٩٤٧ أيدت روسيا قضية مصر . ووقفت إلى جانب الدول العربية والآسيوية فى النزاع القائم بين المغرب العربى وفرنسا ، كما أحبط موقفهما القرار الذى اقترح قيام مفاوضات مباشرة بين العرب وإسرائيل من غير أن يطلب من إسرائيل أن تنفذ أولا القرارات السابقة للأمم المتحدة . ومع أن روسيا صوتت فى جانب التقسيم ، فإن دورها فى قضية فلسطين كان أهون شرا من دور بريطانيا التى خلقت مشكلة فلسطين ، ومن دور الولايات المتحدة التى زادت فى حدتها .

ولم تعد روسيا اليوم تقف متفرجة على شئون الشرق الأوسط ، بل إن الأحداث والتطورات الأخيرة أدخلتها إلى المنطقة من خلال الباب العريض الذى فتحه مسلك الدول الغربية فيها .

فى سنة ١٩٥٥ التى افتتحت بتوقيع حلف بغداد ، ضوعف العدوان الإسرائيلى ضد الدول العربيـة ، وبالأخص ضد مصر . وفى حين كانت الدول غير المشتركة

بالنزاع العربى الإسرائيلى بشكل مباشر تحصل على السلاح من الغرب - إن الحكومة العراقية بانضمامها إلى حلف بغداد استبعدت نفسها من أى جهد مشترك يقوم به العرب لمواجهة العدوان الإسرائيلى - وفى حين استمرت إسرائيل فى الحصول على شحنات من الأسلحة الثقيلة من الغرب ، تركت مصر وحدها لمواجهة إسرائيل من غير سلاح . وهدد بن غوريون بأنه سيسوى قضية الملاحة فى خليج العقبة بالقوة، إذا دعت الضرورة . وفى الوقت ذاته طفحت الصحف الغربية بالمقالات التى تظهر قوة إسرائيل المسلحة وتورد الأرقام المبينة لمدى تفوقها العسكرى على القوة العسكرية للدول العربية مجتمعة .

وكانت مصر تبذل المحاولة تلو المحاولة للحصول على الأسلحة من الغرب ، ولكن بغير طائل . فقد اشترط الغرب لتزويدها بالسلاح انضمامها إلى نظام الدفاع الغربى والصلح مع إسرائيل . واتفق الضغط الإسرائيلى الصهيونى على الدول الغربية لإبقاء العرب على جانب من الضعف مع سياسة هذه الدول الرامية إلى إبقاء السلطة النهائية عليهم فى يدها . وكان نجاح هذه السياسة مرهونا بسيطرة الغرب على جميع موارد السلاح . ولكن عند ما التفتت مصر إلى الكتلة السوفيتية ، يأسا من الغرب ، وحصلت على السلاح من تشيكوسلوفاكيا ، انهارت خطة الغرب .

وقد رفعت صفقة السلاح التشيكية من مركز الاتحاد السوفيتى كثيرا ، لأنها وفرت للعرب ما كانوا فى أعظم الحاجة إليه ، وهو السلاح الذى يردون به عدوان إسرائيل . وكان من رد الفعل الغربى لهذه الصفقة أن ازدادت مكانة روسيا ارتفاعا . فالصحافة الغربية غيرت فجأة من لهجتها فبعد أن كانت إلى وقت قريب تعلن تفوق إسرائيل العسكرى أخذت تندب الآن مركز إسرائيل تجاه القوة العربية المتزايدة . أما الدوائر الرسمية فأعلنت قلقها لاختلال التوازن فى الشرق الأوسط بعد حصول

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

مصر على السلاح ـ ذلك التوازن الذى كان يعتمد فى المفهوم الغربى على أن تتساوى قوة إسرائيل العسكرية مع مجموع قوى الدول العربية .

وكانت صفقة الأسلحة هذه من الأسباب التى جعلت الولايات المتحدة تتراجع عن عرضها للمساهمة فى تمويل السد العالى ، وتبعتها فى ذلك بريطانيا والمصرف الدولى للتعمير والإنماء .

والسد العالى هو مشروع جبار للتنمية الزراعية : إذ سيجعل فى الإمكان زيادة الأراضى المروية ريا دائما بمقدار الثلث ـ ولتوسيع الصناعة بما يوفره لها من القوة الكهربية الرخيصة . وقد أيدت المراجع الدولية المشتركة مع المهندسين المصريين سلامة المشروع من الناحيتين الاقتصادية والفنية ، ووافق عليه المصرف الدولى للتعمير والإنماء . والمشروع يعتبر حجر الزاوية فى برنامج إنمائى طويل الأمد يرمى إلى توفير مستوى لائق من العيش للشعب المصرى الذى يتزايد بمقدار ٤٠٠,٠٠٠ نسمة كل سنة . وقدرت مجموع كلف السد بـ ١٣٠٠ مليون دولار ، تحتاج مصر إلى ٤٠٠ مليون منها بالعملات الصعبة . وعرضت الولايات المتحدة وبريطانيا تقديم مبلغ ٧٠ مليون دولار ـ تدفع الولايات المتحدة معظمها ـ ووافق المصرف الدولى من حيث المبدأ على إقراض مصر ٢٠٠ مليون دولار . وفجأة وبدون إنذار سابق أعلنت الولايات المتحدة أنها تسحب عرضها ، وفسرت هذا التراجع بأنه ناجم عن التطورات الأخيرة فى مصر وعن الشك فى مقدرة مصر الاقتصادية على إتمام المشروع بعد البدء فيه . أما التطورات الأخيرة فكان منها اعتراف مصر بالصين الشيوعية وتوسيع تجارتها مع بلدان الكتلة الشرقية ، ومصر فى خطوتها هذه تصرفت بما تمليه عليه مصالحها وما تحتمه الحقائق الواقعة فى الموقف العالمى . ومن أبرز هذه الحقائق وجود أمة صينية مكونة من ٦٠٠ مليون نسمة . كذلك كانت التجارة مع الشرق ضرورية لتبادل حاصلات مصر الزراعية بالمكائن والآلات ، كما أنها ساعدت على تحرير محصول

مصر الرئيسى ـ وهو القطن ـ من شبه الاحتكار الذى زاولته بريطانيا عليه والذى كثيرا ما استعملته سلاحا سياسيا . أما بالنسبة إلى المقدرة الاقتصادية فإن مصر أنفقت كثيراً على شراء السلاح ولكنها لم تفعل ذلك إلا للدفاع عن نفسها ضد استمرار العدوان الإسرائيلى الذى لم يكن ممكنا لولا تدفق السلاح الغربى على إسرائيل . وقد ذكر الرئيس جمال عبد الناصر مرارا أنه يريد إنفاق المال على المدارس والمستشفيات ومشروعات التنمية ، ولكن ما فائدة هذه كلها إذا لم يمكن الدفاع عنها ؟ وهل يحتاج العرب إلى نذير أصدق وأوقع من مصير فلسطين وتشرد مليون من أبنائها العرب؟

إن الولايات المتحدة فى سحبها العرض الذى سبق أن تقدمت به كانت تعبر عن عدم موافقتها على سياسة مصر الخارجية . وليس من الصدف أن يجئ إعلانها بالتراجع عن المساعدة عقب مؤتمر بريونى الذى عقد بين الرئيس جمال عبد الناصر والمارشال تيتو ونهرو رئيس وزراء الهند ، والذى أكد فيه الزعماء الثلاثة استقلال سياستهم عن الكتلتين العالميتين ، هذا الاستقلال الذى من شأنه أن يمكنهم من تقريب شقة الخلاف بين الكتلتين وبالتالى خدمة السلم العالمى .

وفى مصر كما فى غيرها من البلاد العربية ، اعتبر قرار الولايات المتحدة ظاهرة غير ودية قصد من ورائها تقويض عهد الثورة المصرية وقائدها جمال عبد الناصر .

وردّت مصر فورا بتأميم شركة قناة السويس . أما مجئ الرد المصرى بشكل مفاجىء وجاف فراجع إلى الشكل المتحدى الذى أعلنت به الولايات المتحدة قرارها.

وقد مارست مصر حقا من حقوق سيادتها عندما أممت شركة القناة ؛ إذ أن الشركة كانت مؤسسة مصرية مسجلة فى مصر وعاملة بموجب القانون المصرى . وجاء فى مرسوم التأميم أن حملة الأسهم سيعوضون تعويضا عادلا وأكدت مصر مجددا عزمها على تأمين حرية الملاحة وسلامتها عبر القناة ، بموجب ميثاق القسطنطينية لعام ١٨٨٨ .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

وقد أدى العمل المصرى ، الذى اعترفت المقامات الدولية بشرعيته ، إلى رد فعل فورى وعنيف فى لندن و باريس . فطبقت العقوبات الاقتصادية على مصر ، ومن بينها تجميد ١١٠ ملايين جنيه استرلينى تدين بها بريطانيا لمصر . وابتدأت الاستعدادات العسكرية حالا ، وردد رئيسا الحكومتين الانجليزية والفرنسية إنذارات الحرب .وشنت حملةمن الكراهية ضدمصر وضد رئيسها جمال عبدالناصر. ونشر رئيسا الوزارتين ووزيرا خارجيتهما سيلا من البيانات المشوشة والبعيدة عن الحقيقة . فوصف تأميم حكومة مصر لشركة مصرية بأنه عملية سلب ونهب تهدد حياة أمم عديدة . ونادت الدولتان بأنه ما لم تؤخذ إدارة القناة من يد مصر وتوضع تحت إشراف دولى فسينجم عن ذلك أوخم الكوارث والعواقب ، لأن مصر فى زعمهم لا تقدر على إدارة القناة ، ولا تؤتمن على حرية الملاحة فيها .

وقد حاولت الحكومتان البريطانية والفرنسية أن تضفيا مظهرا دوليا على موقفهما من مشكلة القناة ، فدعتا ـ باشتراك الولايات المتحدة الأمريكية ـ إحدى وعشرين دولة إلى مؤتمر عقد فى لندن فى منتصف شهر أغسطس (آب) . وكان الغرض من هذا المؤتمر إنشاء سلطة دولية تدير قناة السويس . وقد عقد المؤتمر فى جو من الحرب وأبلغ أعضاؤه بأن التأميم قد عرض السلم للخطر ، وأن السلم لا يتوطد إلا عن طريق السيطرة الدولية على القناة .

ومع أن أكثرية الدول التى اختيرت للاشتراك فى مؤتمر لندن كانت من الدول التى تسير عادة وراء بريطانيا إلا أنه لم تصدر عن المؤتمر النتيجة التى كان الداعون إليه يتوخونها ، وهى استنكار عمل مصر ومجابهتها بشروط توضع بحيث إنها إذا رفضتها اعتبرت خارقة للقانون الدولى . وقد دافع عن قضية مصر الاتحاد السوفيتى ، والهند ، وأندونيسيا وسيلان . وكانت الأكثرية بين الدول الثمانى عشرة التى أقرت مبدأ التدويل معارضة لاستخدام القوة فى سبيل تطبيق هذا المبدأ .

وقد أوضح مؤتمر لندن أن المعارضة للتأميم لم تبلغ من الانتشار المقدار الذى توقعته بريطانيا وفرنسا . واتضح فى الوقت ذاته أنه لم يكن فى نية الحكومتين البريطانية والفرنسية أن تتفاوضا مع مصر ، بل كان قصدهما فرض شروط الاستسلام عليها .

وبالرغم من أن الرأى العام العالمى كان معارضا لاستعمال القوة ، وبالرغم من المعارضة الداخلية التى كانت قوية بشكل خاص فى بريطانيا حيث استنكر حزب العمال بشدة سياسة الحكومة ، كما أعرب قسم كبير من الرأى العام البريطانى عن مثل هذا الاستنكار لاستعمال القوة بوساطة عدد من الصحف المحترمة ، فقد مضت الدولتان فى استعداداتهما العسكرية وفى تعبئة قواتهما فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وقد دبرتا سلسلة من الاستفزازات التى قصد منها استدراج مصر إلى اتخاذ إجراءات يمكن تفسيرها بأنها عرقلة لحرية الملاحة فى القنال بحيث تستعمل ذريعة للتدخل المسلح . وكان استدعاء المرشدين والفنيين البريطانيين والفرنسيين وغيرهم عملا تخريبيا قصد منه تعطيل الملاحة فى القناة لكى يثبت عجز مصر عن إدارتها .

أما مصر ، فعلى النقيض من الجو الهستيرى الذى ساد لندن وباريس ، وعلى الرغم مما تعرض له رئيسها من حملات وقحة ، وفى الوقت الذى كانت فيه الاستفزازات تتوالى بسرعة ، فإنها بقيت مالكة لأعصابها . وكرر الرئيس جمال عبد الناصر استعداده للتفاوض مع جميع الدول التى تنتفع بالقناة لوضع ترتيب يضمن حرية المرور وكفاية الإدارة وتنمية القناة لتأمين حاجات المنتفعين .

وفى خلال ذلك استطاعت الهيئة المصرية أن تؤمن سير الإدارة وتنظم حركة الملاحة فى القناة على أتم وجه دون نقص أو خلل ، حتى بعد أن انسحب المرشدون الأوربيون بالجملة تاركين المرشدين المصريين ـ ومعهم بضعة مرشدين يونانيين ـ ليقوموا بعمل يحتاج فى الأوقات العادية إلى ثلاثة أضعاف عددهم ، إلى أن استجاب

مرشدون من دول صديقة للاشتراك فى العمل معهم .

و بتطور الأزمة ازداد اليقين أن بريطانيا وفرنسا لا تريدان أن تفاوضا مصر بل أن تفرضا الحل الذى تريانه . ومع أنهما كانتا تدعيان القلق على حرية المرور فى القناة ، فإن أفعالهما وتهديداتهما فضحت ما كانتا ترميان إليه من إغلاقها . واستمرت مصر طيلة الوقت ، تعالج المشاكل والاستفزازات التى أوجدتها هاتان الدولتان ، بحيث نالت استحسان الرأى العام العالمى ورضا المنتفعين بالقناة .

ولو وجدت شكوك معقولة حول شرعية التأميم لعرضت القضية بدون إبطاء على محكمة العدل الدولية أو على الأمم المتحدة . وعند ما عرضت بريطانيا وفرنسا القضية فى نهاية الأمر على مجلس الأمن ، كانتا قد سارتا شوطا بعيدا فى الطريق المؤدية إلى تواطئهما مع إسرائيل فى حرب بلغت الغاية فى الغدر والانحطاط .

وقدمت بريطانيا وفرنسا إلى مجلس الأمن ـ بالاشتراك مع الولايات المتحدة ـ مشروعا بتدويل القناة . وقد فشل المشروع بنتيجة الفيتو السوفيتى . وكان وزراء خارجية مصر و بريطانيا وفرنسا ـ فى اجتماعات خاصة عقدوها مع السيد همرشولد ـ اتفقوا على مبادىء ستة . وهذه أقرها مجلس الأمن بالإجماع أساسا للمفاوضة . وقد أكدت هذه المبادىء سيادة مصر على القناة والأهمية الدولية لهذا الممر البحرى .

وقد قوبل قرار مجلس الأمن بالارتياح فى كل مكان واعتبر دلالة على قرب الوصول إلى حل سلمى ، وعلى استبعاد إمكان التصادم . وأخذ الأمين العام للأمم المتحدة فى إعداد الترتيبات لاجتماع ممثلى بريطانيا وفرنسا ومصر للتفاوض من أجل تسوية سلمية على أساس المبادىء الستة . واقترح أن يجرى الاجتماع فى جنيف فى التاسع والعشرين من شهر اكتوبر ، ووافقت مصر على ذلك بدون إبطاء ، غير أن

بريطانيا وفرنسا ماطلتا فى الأمر إذ كانتا فى ذلك اليوم على موعد آخر ، لا مع السلام بل مع الحرب والدمار .

ففى التاسع والعشرين من شهر اكتوبر غزت إسرائيل مصر ، وبعد ابتداء الغزو بأربع وعشرين ساعة أصدرت بريطانيا وفرنسا إنذارا مدته اثنتا عشرة ساعة ، يطالب القوات المصرية والإسرائيلية بأن تبتعد عن ضفتى القناة بمقدار عشرة أميال ، وأن تقوم القوات البريطانية والفرنسية باحتلال مدن القناة الثلاث وهى بور سعيد والإسماعيلية والسويس .

وهكذا طلب من مصر ضحية العدوان أن تنسحب مسافة مئة وخمسين ميلا من حدودها ، ودعيت إسرائيل المعتدية إلى التقدم حتى مسافة عشرة أميال من قناة السويس ، وأعد للضحية عقاب آخر ، وهو قيام دول أجنبية باحتلال مدنها وأراضيها .

وبالطبع رفضت مصر هذا الإنذار الغادر ، وأخذت تنقل قواتها لمواجهة العدوان الإسرائيلى . وهنا برزت خيوط المؤامرة البريطانية الفرنسية الإسرائيلية بكل ما فيها من بشاعة ولؤم .

فلقد كان لكل من الأطراف المتآمرة حقد على مصر . فإن إسرائيل لم تكن تخشى أن تهاجمها مصر كما زعمت ، بل خشيت أن يحد نهائيا من توسعها بعد أن أخذت مصر والدول العربية المتحررة الأخرى تبنى قواتها الدفاعية وتضع الأسس الوطيدة لوحدتها . ورمت بريطانيا وفرنسا إلى تهديم نظام الثورة فى مصر ، وإلى إبعاد جمال عبد الناصر الذى اعتبرته فرنسا مصدرا لمشاكلها فى الجزائر واعتبرته بريطانيا خطرا على مصالحها فى العالم العربى . وما ذاك إلا لأن عبد الناصر قد أصبح الرمز واللواء الذى تلتف حوله الجموع العربية فى كل مكان ، لا فى مصر وحدها ، وتسير وراءه العناصر التقدمية من الرأى العام المتنور ، سعيا وراء حياة أفضل .

أما أزمة قناة السويس وما رافقها من النذر والاستفزازات ، فلم تخلق إلا للتوصل إلى الغاية التى كانت بريطانيا وفرنسا ترميان إليها . غير أن تصرف مصر المتزن ضعضع الخطة ، كما أن قلة الاستعداد العسكرى لدى البلدين أخرت موعد عمليتهما المدبرة .

وتعتقد الأوساط المطلعة ـ وفى مقدمتها وزارة الخارجية الأمريكية ـ أن الغزو البريطانى الفرنسى لمصر بالتواطؤ مع إسرائيل قد اتفق عليه فى الاجتماع الذى عقده فى باريس إيدن ووزير خارجيته مع رئيس الحكومة الفرنسية ووزير خارجيتها بتاريخ ١٦ اكتوبر (تشرين أول) ، وذلك على أثر اجتماع مجلس الأمن الذى اتخذ فيه القرار الإجماعى بالمفاوضة على المبادىء الستة ، وقبل الموعد المحدد لهذه المفاوضة بأيام قليلة .

وقامت المؤامرة على أساس استدراج الجيش المصرى إلى صحراء سيناء لملاقاة الغزو الإسرائيلى ، على أن يتبع ذلك احتلال منطقة القناة من جانب القوات البريطانية والفرنسية ، بحيث يقطع ما بين مصر وجيشها المحارب فى سيناء فيسهل احتلال مصر وبذلك ينتهى عهد عبد الناصر ومعه مشاكل الدولتين الاستعماريتين وتابعتهما إسرائيل .

غير أن المؤامرة أحبطت بنتيجة الانسحاب السريع الذى قامت به القوات المصرية من سيناء ، فى عملية رائعة جرت فى ظروف عسيرة . وقد تكبد الجيش المصرى أثناء الانسحاب خسائر خاصة بوسائطه الآلية من جراء القصف المركز الذى قام به الطيران البريطانى والفرنسى المشترك بالمعركة بكامل قوته .

حصل هذا بينما كانت القوات الجوية البريطانية والفرنسية تمطر المدن المصرية وابلا من قذائفها ، محاولة ترويع الشعب المصرى وتحطيم معنوياته . وكانت النتيجة

عكس ما توقع الغزاة فلم يسبب القصف الجوى خوفا أو رعبا ، بل قوبل بهدوء و بتصميم على مقاومة هذا العدوان الفاجر حتى النهاية .

وفى اليوم الرابع للعمليات تكلم الرئيس عبدالناصر إلى الشعب موضحا له ما حدث . وكان صوته حزينا غير أن إيمانه كان صلبا لا يلين. فقال: إن مصر أنقذت من كارثة أعدت لها الخطة المحكمة ، وأكد للشعب بأن جيشه قد عاد إليه واندمج فى صفوفه ،وأن الأوامر قد صدرت بتوزيع السلاح على الشعب بحيث يساهم السكان جميعا فى الدفاع عن البلاد . أما الشعب فقد تجاوب إلى أبعد حد مع زعيمه الذى حاول الأعداء بما شنوه عليه من الحملات أن يفصلوا بينه و بين الشعب . وجاء دفاع بور سعيد دليلا على ما كان سيلاقيه الأعداء فى مصر لو طالت الحرب واستمرت .

ولم تكن مصر وحدها فى النضال . فلقد استنكر الرأى العام العالمى بشاعة العدوان الثلاثى وخشى نتائجه المريعة ، فجابهه بالعمل السريع . وعندما استعملت بريطانيا وفرنسا حق الفيتو لمنع مجلس الأمن من اتخاذ أى إجراء لوقف العدوان ، دعيت الجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة للانعقاد فى الثانى من شهر نوفمبر (تشرين الثانى) حين أصدرت توصيتها بما يقرب من الإجماع ، إذ صوتت أربع وستون دولة ضد خمس داعية إلى وقف إطلاق النار فورا وانسحاب القوات المعتدية من أرض مصر .غير أن المعتدين تجاهلوا قرار الأمم المتحدة واستمروا فى الحرب وكانت الشروط التى وضعها رئيس وزراء بريطانيا لقبول قرار الأمم المتحدة هى الشروط التى أراد أن يفرضها على مصر بالقوة . كذلك لم تلق نصيحة الرئيس ايزنهاور أية تلبية . وفى الخامس من نوفمبر أنذر رئيس وزراء روسيا بولجانين بأن الاتحاد السوفيتى مصمم على وقف العدوان ، وألمح إلى استخدام الصواريخ ضد الدول المعتدية . وفى اليوم

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

التالى لهذا الإنذار أعلن إيدن فى البرلمان صدور أمر بالتوقف عن إطلاق النار ابتداء من منتصف ليل ذلك اليوم .

غير أن المعتدين استمروا فى المماطلة حول انسحاب قواتهم ، وذلك فى وجه الأمم المتحدة التى كررت فى ٧ نوفمبر قرارها السابق ، ثم عادت هذه الهيئة فى ٢٤ نوفمبر وأوصت بنفس الأغلبية الساحقة التى صدر بها القراران السابقان بدعوة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل إلى سحب قواتها فورا . وأحست أوربا بالعواقب الاقتصادية اللأزمة ، وبالأخص نقص البترول الناجم عن إغلاق قناة السويس وتعطيل مضخات شركة نفط العراق فى سوريا . وفى النهاية أرغمت بريطانيا وفرنسا على قبول الانسحاب من بور سعيد ، وإسرائيل على قبول الانسحاب إلى ما وراء خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩ ، وذلك أمام تصميم مصر على عدم السماح بالبدء فى تنظيف القناة قبل إتمام الانسحاب ، وحزم الرئيس أيزنهاور بعدم تلبية حاجات أوربا من البترول ما دامت القوات الأجنبية فى أرض مصر ، والخشية من مجىء المتطوعين السوفيت إلى الشرق الأوسط إذا استؤنفت العمليات ، وصلابة الرأى العام العالمى المعبر عنها بالقرارات المتعاقبة التى اتخذتها منظمة الأمم المتحدة .

وانتهى الهجوم على مصر بالفشل والعار . واجتاحت العالم العربى موجة من الاستنكار والاحتقار ـ الاستنكار لهذا العدوان المجرد ، والاحتقار للنفاق الذى رافق الجريمة . فالشعوب العربية كلها ـ من مراكش حتى العراق ، اعتبرت العدوان على مصر اعتداء مباشرا على نضالها الذى تتقدمه مصر فى سبيل التحرر والوحدة .

وقضت هذه الحرب على مركز بريطانيا وفرنسا فى العالم العربى . ولن ينسى الناس سريعا أن هاتين الدولتين تواطأتا مع إسرائيل ودبرتا بالاشتراك معها مؤامرة

لتحطيم حرية العرب لأن حرية العرب متعارضة مع مقاصدها ونواياها ، وأنهما بذلك جرتا العالم إلى حافة حرب عالمية شاملة .

أما إسرائيل فقد فهم العرب دوما حقيقتها ، وعرفوا أنها أداة للاستعمار ، وأنها ما خلقت فى قلب العالم العربى لتكون جسرا للقوات المستعمرة . وقد أظهر الاعتداء على مصر للعالم كله توافق المصالح والأهداف بين إسرائيل والدول التى أوجدتها . وهذا التوافق هو الذى يجعل من إسرائيل خطرا رئيسيا على حرية العرب ، وتهديدا للسلام فى الشرق الأوسط .

وانفصلت الولايات المتحدة فى هذا النزاع عن حليفتيها بريطانيا وفرنسا . وقد فعلت ذلك بدافع من تقليدها القائم على الحرية ، وبناء على التقدير الصحيح للوضع العالمى ، ذلك التقدير الذى يرى مصلحة الولايات المتحدة فى تأييد قضايا الشعوب المناضلة للحرية بدلا من مساندة الامبراطوريات المتهاوية البالية . وكانت بيانات الرئيس ايزنهاور فى وسط النزاع جريئة وصريحة . وجاء استنكاره لإسرائيل فى أوج المعركة الانتخابية مؤيدا لمقامه الأخلاقى الرفيع . وقد أظهر انتخابه الذى تم بأكثرية ساحقة البطلان النهائى لخرافة « الأصوات اليهودية » التى استغلتها الصهيونية لمصلحة إسرائيل .

ووقف الاتحاد السوفيتى فى صف واحد مع الولايات المتحدة فى استنكار العدوان على مصر . وإذا كان الاتحاد السوفيتى قد فعل ذلك فى سبيل مصلحته فهذا لا يقلل من أهمية ما فعل .

وقد أكدت الحرب ضد مصر بأنه لم يعد فى الإمكان النظر إلى العالم العربى من خلال زاوية استعمارية أو اعتبار الاهتمام به وقفا على الدول الغربية . فالاتجاه الأكيد فى المنطقة يسير نحو انتقال السلطة النهائية من الدول الاستعمارية ـ وأخصها بريطانيا ـ إلى الشعوب العربية نفسها . وكل من ساعد على إنجاز هذه العملية يساهم

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

فى قضية السلام بإبعاد منازعات الدول الأجنبية للسيطرة على المنطقة ، كما يكسب الصداقة المخلصة من جانب سكانها ـ تلك الصداقة التى لا تشترى بالعون الاقتصادى ولا تستبدل بالأحلاف والتكتلات العسكرية . والشعوب العربية الحرة ستستعمل قوتها ـ وهى قوة بدأ الناس يدركون إمكانياتها ـ فى سبيل الدفاع عن حريتها وفى سبيل القيام بواجباتها الدولية فى عالم أصبحت فيه قضية السلام مرتبطة ارتباطا لا ينفصم بحرية الشعوب كلها .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل الثامن عشر

الجهاد الأكبر

قال النبى عليه السلام لأصحابه لدى عودتهم من إحدى المعارك : « لقد عدتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » . قالوا : « وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ » . قال : « جهاد النفس » .

وهذا هو الجهاد الذى يمرّ به العرب اليوم . ففى السنوات الثلاثين التى تلت الحرب العالمية الأولى ، استنزفت مقاومة الحكم الأجنبى قوة العرب وطاقتهم ، وانصبت جهودهم على التحرر من السيطرة الأجنبية . ولم يتخلّ العرب عن هذه الناحية من نضالهم ، ولن يتخلوا عنها ما دامت بعض الدول العربية خاضعة للحكم الأجنبى ، وما دام بعضها الآخر لم يكتمل تحرره بعد . على أن التشديد أخذ ينتقل إلى التحرير الداخلى . فبعد أن كان العرب مأخوذين كليا بالسعى للحصول على الاستقلال والتحرر من السيطرة الأجنبية ، أخذت تظهر فى الأفق العربى أمارات من نقد الذات ، ومن الحساسية الدقيقة لما فى المجتمع العربى من مساوئ وأخطاء ، ومن التفكير فى واقع الأمور ومقابلة هذا الواقع بما يجب أن يكون عليه الوضع العربى ، ومن المحاولة لتقدير التراث العربى وفهم مدى انطباق الثقافة العربية وإمكانياتها على أحوال العالم الحديث .

فالاستقلال فى الأقطار التى تحقق فيها لم يأت معه بالعهد السعيد المنتظر . بل إن العهود الاستقلالية كانت من حيث الكفاية ، والمقدرة الإدارية ، والنزاهة

فى الشئون العامة مقصرة حتى عن بعض الإدارات الأجنبية ؛ فالرجال الذين آلت إليهم السلطة اعتبروا الحكومة مجالا للنفع الذاتى أكثر منها أمانة عامة ، فملأوا الدوائر بالأقارب والأصدقاء ، ومكنوا أتباعهم وشركاءهم من إجراء الصفقات الرابحة. وأولئك الذين قادوا النضال تخلوا عن المضى فيه بمجرد أن تحقق لهم نوع من الاستقلال ، ولو كان جزئيا . واستكان بعض الزعماء إلى حياة من الرخاء والراحة . فازدادوا بعدا عن الشعب الذى كان قد التف حولهم أثناء النضال الاستقلالى . ولم يهتم أحد منهم بتنظيم الشعوب للجهاد الأكبر . ولم يكن لدى أى منهم منهاج إيجابى للبناء ولا رؤية للمجتمع الذى يجب أن يقوم بعد أن يبزغ فجر الحرية . فمجابهة الحاكم الأجنبى بكلمة « لا » أمر يختلف عن معالجة المشاكل المنبثقة عن بناء الدولة الحديثة .

وكانت القيادة العربية فى ربع القرن الماضى قيادة ناقصة ؛ فالزعماء العرب يشاركون الاستعمار فى المسئولية عن الشرور النازلة بالمجتمع العربى . ولكن لما كان هؤلاء الزعماء نتاج مجتمعاتهم ، فإننا نستطيع أن نفهم نجاحهم وإخفاقهم بشكل أوفى وأدق إذا وضعنا أعمالهم فى إطارها الصحيح .

فالمجتمع العربى الذى انبثق عن الحرب العالمية الأولى كان فى تركيبه الجوهرى من نمط مجتمع القرون الوسطى . فاقتصاده كان يرتكز إلى زراعة تتميز بإنتاج منخفض (فيما عدا مصر) ، وإلى المزارعة بالمحاصة ، وإلى تركيز الأراضى الزراعية فى أيدى قلة من المالكين الغائبين . ولم تكن هنالك صناعة سوى بعض الحرف اليدوية والصناعات البيتية . ولما كان الاقتصاد متخلفا لم تتوافر الوسائل الكافية لتمويل النظم التعليمية الملائمة ، والخدمات الاجتماعية ، والقوات الدفاعية . ولم يكن هنالك جهاز حكومى بالمعنى الحديث ، ولا تقاليد فى حقل الخدمة العامة ، ولم يتوافر

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الخبراء الفنيون بقدر يكفى لسد الحاجات ومعالجة المشاكل .

وعلى الرغم من الوحدة الحضارية الجوهرية ، ومن التماثل فى نمط الثقافة العام ، ومن الخلو من المراتب الطبقية ، فإن المجتمع العربى كان مع ذلك ينقسم إلى فئات ثلاث متمايزة : سكان المدن ، والفلاحين ، والبدو . فأما سكان المدن فكانوا يزورُون الفلاحين و يعاملونهم وكأنهم بقرة حلوب ، ففقد الفلاحون بدورهم ثقتهم بسكان المدن الذين استغلوهم ، وأساءوا الظن بحياة المدن التى بدت لهم وكأنها حياة شريرة و بعيدة عن الأخلاق . واحتقر البدو من جانبهم جميع أشكال الحياة المختلفة عن حياتهم ، واعتزوا بحريتهم فى الصحراء واعتبروها أعظم من ثروات المدن وثمرات الجهد والكد فى زرع الأرض . ولكنهم كانوا خطرا دائما على الحياة المستقرة التى كانوا يشتهون خيراتها ، وكانوا عنصر إزعاج وتحدٍ دائم للسلطات المسئولة . و بسبب انعدام وسائل المواصلات الحديثة ، وصعو بة الانتقال من مكان إلى مكان بقيت هذه الجماعات منعزلة ، و بقيت شكوكها المتبادلة على حالها من غير أن تخفّ حدتها . ونجحت الثورات الوطنية ـ وأخصها ثورة مصر سنة ١٩١٩ وثورة العراق سنة ١٩٢٠ ـ فى توحيد هذه الفئات المختلفة حول قضية مشتركة ، ولكن إلى حين . غير أن التماسك القومى كان عملية بطيئة ، ولم تجر المحاولات المنظمة والجهود الجدية لتحقيقه إلا فى الآونة الأخيرة .

وقد رسم الملك فيصل الأول ملك العراق ، قبل وفاته بوقت قليل ، صورة صادقة للمجتمع العراقى ، فى المذكرة الخاصة التى وزعها على عدد قليل من السياسيين . فقال : إن العراق عبارة عن جمع من الطوائف المفتقرة إلى التوحيد . وجمهرة الشعب جاهلة ، يسهل وقوعها فريسة لجميع الأفكار المضللة والقبائل مسلحة ومناهضة لكل سلطة ، فلا بد من دفع المال لها لتأمين هدوئها . والحكومة ضعيفة بالنسبة إلى الفئات

المختلفة التى تزدريها لضعفها وتستنكر تدخلها فى شئونها . والدولة ، كما رأى الملك فيصل بحاجة إلى قيادة قادرة حكيمة حتى يمكن قيام الثقة بالحكومة ، وبحاجة إلى جيش يحافظ على الأمن والسلطة الحكومية إزاء الجماعات المسلحة ، وإلى تعليم ينشر بين جمهرة الشعب ، وإلى إعطاء البلديات ومجالس المتصرفيات سلطة أوسع حتى يتدرب الشعب على الحكم والمسئولية ، وإلى إيجاد حل لمشكلة الأراضى .

وكان موقف الشعب من الحكومة موقف شك وعدم ثقة ، لا فى العراق وحده بل وبين العرب جميعا بشكل عام . ولقد ترسب هذا الموقف من عصور الحكم الأجنبى الطويلة ، التى لم يكن الناس فى أثنائها يشعرون بالحكومة إلا من خلال ما تفرضه عليهم من أعباء . وبما أن الحكومة كانت غريبة وظالمة وجب تحديها أو التحايل عليها ، وأما القانون الذى يفرضه الظالمون فيجب التملص منه .

وبقيت المركزية التى أنشئت فى ظل الانتدابات على حالها فى العهود الاستقلالية . ولم تنشأ هيئات محلية مسئولة ملائمة ، لتساهم فى عبء الإدارة المركزية ولتدرب الشعب على الحكم الذاتى . وبنتيجة ذلك ثقل عبء الحكومة ، فأخذ الناس يلقون اللوم عليها فى كل فساد ، مع أنه لم يكن لهم فيها اهتمام إيجابى ، وأخذوا فى الوقت نفسه يعتمدون عليها متوقعين أن تفعل لهم مالم يكونوا يفعلونه لأنفسهم لأنهم لم يدربوا عليه ولم ينظموا أنفسهم له .

وقد رافق المركزية الحكومية تركيز جميع الفعاليات الهامة ـ الثقافية والاقتصادية ـ فى المدن الكبرى . فهنا الجامعات والمكتبات والمتاحف والمطابع ودور النشر والجرائد . وابتعد رجال المهن عن الريف وتجمعوا فى المدن وعرضوا خدماتهم فيها دون غيرها . وتجمعت الثروات فى أيدى قلة من مالكى الأراضى والصناعيين والتجار

الذين كانوا يعيشون بالمدن الكبرى ، و بالأخص فى عاصمة البلاد . أما باقى البلاد ، إذا استثنينا العاصمة ، و بلدة أخرى مهمة فى بعض الأحيان ، فقد بقيت كالماء الآسن فى حياتها السياسية والاقتصادية والثقافية .

ونقل إلى هذا المجتمع شكل الحكم الديموقراطى الغربى . ولا عجب أن يفشل ، فإن الشرط الأساسى لنجاح النظام البرلمانى ـ وهو وجود الأحزاب السياسية المنظمة ـ لم يكن متوافرا ؛ فقد وجدت الأحزاب السياسية ولكنها كانت تدور حول الأفراد لا حول المبادئ والمناهج . وحينما أعدت المناهج ، فإنها بقيت حبرا على ورق ، و بقى نشاط الحزب مقصورا على الأحاديث فى الردهات . يستثنى من ذلك حزب الوفد المصرى ، وكان حزبا ضخما حسن التنظيم ، كانت له فى أيامه الأولى رسالة مهمة هى الحد من تصرفات الملك الاعتباطية وتحرير مصر من الحكم البريطانى ، فالتفت الأمة حوله . ولكن الوفد فقد روحه النضالية مع الأيام ، ودخل الفساد إلى صفوفه ووصل إلى بعض زعمائه المقدمين ، وأصبحت زعامته دكتاتورية فاستبعدت العناصر الفتية من مراكز التوجيه ، وتباعدت عن القاعدة الشعبية التى كانت ركازة قوتها .

و بسبب انعدام الأحزاب السياسية المخلصة المستندة إلى التأييد الشعبى الواسع ، أصبحت الحكومة البرلمانية واجهة يختفى وراءها الحكم الأوتوقراطى . فلم ينجح النظام البرلمانى القائم على الضوابط والتوازن ، و بدلا منها أصبح رئيس الدولة ـ سواء أكان ملكا أم وصيا أم رئيسا ـ يحكم بالفعل كما يشاء ، مع أن المفروض عليه أن يرأس ولا يحكم . فكان يقيم الحكومات ويقيلها ، ويعقد البرلمانات ويعطلها ويحلها ، ويعلق الدستور ويلغيه . أما الزعماء السياسيون الذين كانوا يدعون لترأس الوزارات أو الاشتراك بها ، فلم تكن لهم أحزاب يستندون إليها فى البرلمانات ،

ولا تأييد شعبى ، فاعتمدوا على الحاكم ليصلوا إلى المناصب ، وأصبحوا فى واقع الأمر مسئولين تجاهه لا تجاه البرلمان . ولم تكن البرلمانات ذاتها لتمثل الشعوب بقدر ما تمثل الجماعات ذات المصالح والنفوذ . فثقلت الموازين فى جانب طبقة مالكى الأراضى . وكان فى استطاعة الصناعيين أن يعيدوا التوازن المختل ، ولكنهم مالبثوا أن طابقوا بين مصالحهم ومصالح كبار المالكين . يضاف إلى ذلك أن الأجانب كانوا إلى حد كبير ممولى الصناعات الكبيرة والمسيطرين عليها ، وبالتالى لم يكن بمقدور هذه الصناعات أن تدافع بإخلاص عن المصالح الوطنية . ولم يكن للعمال والفلاحين صوت فى البرلمان . وأما الذين كانوا يزعمون التحدث باسمهم فلم يكونوا من أبنائهم ، وبالتالى فإنهم لم يمثلوهم تمثيلا حقا . ونتيجة لذلك أخضعت مصالحهم لمصالح الفئات القليلة العدد الكبيرة النفوذ .

من الخطأ أن نستنتج مما تقدم أن نظام الحكم البرلمانى لا يلائم العرب ، أو أن المجتمع العربى يناهضه بطبيعته ، فالعكس هو الصحيح ، لأن التراث العربى تراث ديموقراطى فى أساسه وجوهره ، وإذا أخفق الحكم الديموقراطى حتى الآن فما ذاك إلا لأن شرائط نجاحه لم تتوافر بعد . وبالرغم من هذا فإن النظام البرلمانى ، بالشكل الذى طبق به خلال السنوات الثلاثين الماضية ، لم يكن نصيبه الإخفاق الكلى ، بل لقد كان خطوة ضرورية للتدرب على الحكم الشعبى ، وقد أسس مبدأ سيادة الشعب وهو المبدأ الذى أعلن الحكام أنفسهم ولاءهم له ، ولو بلسانهم . ويجب أن نذكر أيضا أن هذه البرلمانات مهما كانت ناقصة وبعيدة عن الديموقراطية ، فإنها شكلت معاقل للدفاع عن الحقوق الوطنية ضد الدولة الأجنبية المسيطرة ، وكثيرا ما كانت مسرحا للمناقشات العنيفة التى استنكرت فيها المظالم الاجتماعية والفساد الحكومى .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ويجب أن لا يفهم مما تقدم أن أنواع الوصاية الأجنبية كان يجب استمرارها ، أو أن إنهاءها كان مبكرا وجاء قبل إعداد الشعب للحكم الذاتى . فالحكم الأجنبى لم يوفر فرص التدرب على مسئوليات الحكم الديموقراطى . فحيثما حكمت السلطة الأجنبية حكما مباشرا ، استبعد أهل البلاد عن كل مركز من مراكز السلطة الحقيقية أو المسئولية . وحيثما حكمت السلطة الأجنبية وراء واجهة من الحكم المحلى ، فقد تحالفت مع أصحاب المصالح الخاصة واستعملت سلطتها ونفوذها فى سبيل المحافظة على الوضع الراهن . أضف إلى ذلك أنه ما من إدارة أجنبية كانت قادرة على أن تتوصل إلى جوهر الشعوب الأخرى لتدرك حاجاتها الصحيحة ولتوجه جهودها نحو التحقق الذاتى . وأخيرا ، فإن الحكومات المستقلة ، على علاتها ، قد قامت بإصلاحات هامة — وأهمها الإصلاحات القيمة فى حقل التعليم — ولم يكن ممكنا تحقيق هذه الإصلاحات لو بقيت القوة الأجنبية فى مركزها المسيطر .

كان اقتباس الشكل الغربى فى الحكم واحدا من مظاهر سعى العرب نحو التلاؤم مع العصر ومع الحياة الغربية . ومع أن النفوذ الغربى كان موجودا فى عدة بلاد عربية فى القرن التاسع عشر ، إلا أن العرب لم يشعروا بكامل أثره إلا بعد الحرب العالمية الأولى . وكان هذا التأثير عظيما فترك العرب لفترة من الزمن كالأعشى أو كالمشدوه . وسارعوا يحاولون أن يقتبسوا من الغرب ويقلدوه ليسايروا بذلك عجلة الزمن . فاقتبسوا القوانين والدساتير والنظم المدرسية وأنماط السلوك ، معتقدين أنها تقدم العلاج لتخلفهم عن الدول الغربية التى سيطرت عليهم . وكان طبيعيا أن تغلب السطحية على هذه الجهود ، لأنها اقتصرت على الأشكال والمظاهر الخارجية من الحضارة الغربية . ولم يكن من طبيعة مثل هذا التطور السريع المتناثر أن يسمح بتقدير هاتيك المدنية وبفهم جوهرها وإدراك الموقف العقلى والروحى

الذى خلقها . وفى الوقت نفسه كانت المعرفة الدقيقة بحقيقة المجتمع العربى وحاجاته ناقصة ، ولم تتوافر النظرة الواسعة والإدراك المتين للثقافة العربية ومعناها ورسالتها . ونجم عن ذلك انقطاع فى الروابط التى تشد العرب ، وضياع لثقتهم بأنفسهم . وانتشرت الحيرة ، وعم الشك وسادت اللامبالاة بالقيم الجوهرية وسيطر الاتجاه المادى والقيم المادية . فالخيبة والعقد المسببة عن الحكم الأجنبى وعجز الحكومات الوطنية ، وانعدام فرص التحقق الذاتى ، وخيبة الحكام فى إلهام الشباب وكسب ثقتهم وفى قيادة الشعب للخروج من المأزق الذى وجد فيه ـ هذه كلها أدت إلى المبالغة فى النقد ـ وقلما كان هذا النقد إيجابيا و بنّاء ـ وكادت أن توصل فى بعض الأحيان إلى حالة اليأس .

ولم يساعد على تخفيف القلق أنه فى هذه الأوقات العصيبة لم تتوافر زعامة غير الزعامة السياسية . فالانغماس فى حركة التحرير من الحكم الأجنبى والتوكيد على الناحية السياسية من الحياة جعل من الزعيم السياسى بطلا ومثلا ورمزا يلتف الناس حوله . ولما أخفق الزعماء السياسيون انتشر شعور بالخيبة المريرة . وقد زاد من خطر هذا الوضع عدم قيام أى نوع آخر من أنواع الزعامة لملء الفراغ الذى أوجدته خيبة الأمل فى الزعماء السياسيين وأعمالهم . فالزعامة الدينية كانت عديمة الفعالية ، كما أن الدين كان يخسر مركزه كقوة فى حياة الشعب ، ولم يقدم رجال الدين رسالة مقنعة ومرتبطة بمشاكل هذا العصر وقضاياه . ولم يكن فى المجتمع العربى سوى عدد قليل جدا من أنواع القادة العاملين فى المجتمع الحديث المتوثب ـ من علماء ومكتشفين ، ورجال صناعة وأعمال ، و بناة للمشروعات الاقتصادية الكبرى . وحتى قادة الفكر كانوا يفضلون الانغماس فى الحياة السياسية ، أو الكتابة السريعة فى عدد كبير من الموضوعات ، ليكسبوا الشهرة بأقصر وقت ، وربما ليحصلوا أيضا على المال ، بدلا

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

من أن ينقطعوا بإخلاص إلى دراسة مجتمعهم و إرشاد أمتهم فى حيويتها .

وتركت هذه الحيرة أعظم آثارها على شبان الأمة . ففى هذا المجتمع المائع الذى تتغير القيم فيه بسرعة ، والذى لم يعد الدين فيه ذلك الحصن المنيع ، والذى هددت فيه العائلة بالتفكك ـ وهى الركن الأساسى فى المجتمع العربى ـ والذى لم تتوافر له المؤسسات المدنية التى يستند إليها و يسترشد بها ، والذى أصبحت الحكومة فيه مشروعا احتكاريا مملوءا بالمحاسيب ـ فى هذا المجتمع شعر الشبان بأنهم غير مرغوب فيهم ، وأنهم ضعفاء ، وأنهم يفتقرون إلى الاستقرار ، فانصبّ نشاطهم المكبوت على التحريض السياسى ، وعلى الدعوة للإضراب والمظاهرات والاضطرابات .

والاحتكاك بالغرب ، و إن كان سلبيا فى بعض مظاهره ونتائجه ، كان قوة دافعة نجم عنها تخمر فى الأفكار والاتجاهات ، ليس فقط بين أولئك الذين درسوا فى الغرب أو فى إحدى مؤسساته العلمية الموجودة فى بلادهم أو تجولوا فى ربوعه ، بل كان له تأثير حتى على المفكرين الذى كانت ثقافتهم كلها عربية

ونشأ جيل جديد ، ومهما كانت مشاكل هذا الجيل وهمومه وحيرته فإنه كان أرسخ قدما وأكثر ثقة بالنفس من الجيل الذى اكتملت رجولة أبنائه فى عقد ١٩٢٠ . فنيل الاستقلال أعاد الثقة بالنفس ، كما أن بداية الإنماء الاقتصادية على أيد وطنية شقت طرقا جديدة ،واتسع نطاق الرأى العام المستنير والمعبر بانتشار التعليم. ودخلت أنغام جديدة . فلم يعد الحكم الأجنبى يعتبر المسئول الوحيد عن مفاسد المجتمع العربى . وانتشر الإدراك بأن البلاد العربية لم تخضع للحكم الأجنبى إلا لأنها كانت تعانى ضعفا داخليا ، وأن فقدان الاستقلال قصاص للأمة التى تعجز عن القيام بواجبات محددة . وأدرك الناس أيضا أن الاستقلال ليس غاية فى حد

ذاته ، بل هو وسيلة للبناء الكامل الواسع . وبرز مفهوم جديد للحكومة ـ وهو مفهوم يقول بأن من أهم واجبات الحكومة تأمين العدالة الاجتماعية وذلك بتنمية موارد البلاد كلها لمصلحة الشعب بأسره وإيجاد الخدمات الاجتماعية والتعليمية الكافية ، وإعطاء المواطنين فرصا متساوية وتأمين مستوى من العيش الكريم لهم .

وأظهرت الدراسات الاجتماعية والاقتصادية التى أجريت فى مصر عن أحوال العمال والفلاحين وعن توزيع الدخل الوطنى وأوجه إنفاق هذا الدخل ، وعن مكاسب الرجل العادى بالنسبة للحد الأدنى من حاجاته ، وعن حالة الصحة والسكن ومستوى المعيشة العام بين جمهرة الشعب ـ أظهرت مدى تعاسة الأحوال التى تعيش بها البلاد . وهذه الأحوال لم تكن مجهولة من قبل ولكنها تأيدت الآن بالبينات الدامغة التى أوضحت مدى مافى حقائق الوضع من قبح . وهذه البينات الدامغة نالت انتشارا واسعا فى الصحف .

وعرف الناس أن الفقر هو الشر الأول ، وأنه يجر وراءه الجهل والمرض اللذين لا يمكن إزالتهما إلا إذا زال الفقر أولا ، وأن سبب الفقر لم يكن قلة الموارد الوطنية ، بل التخلف فى تنميتها من ناحية وتركيز الثروات والأرض ووسائل الإنتاج فى أيد قليلة من ناحية أخرى ـ مما أدى إلى فقر الشعب . وماذا فعلت الحكومة سوى تأييد أصحاب المصالح ؟ فعبء الضريبة يقع على الفقير ، فعند ما كانت طبقة أصحاب الأراضى هى الطبقة المسيطرة الحاكمة فى مصر ، كانت عائدات ضريبة الأراضى تقل عما كانت الحكومة تنفقه على إدارة الرى التى ذهب جل منافعها إلى كبار المالكين . وكان نظام الضرائب رجعيا ، فالضرائب غير المباشرة التى تأخذ من دخل

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفقير نسبة أعلى مما تأخـذه من دخل الغنى تشكل معظم الإيراد الحـكومى . وكان نفس الاستهتار بالمصلحة العامة يرى فى إنفاق العائدات الحـكومية . فمثلا كان كبار الموظفين الحـكوميين ينالون رواتب لا تتناسب أبدا مع الرواتب الضئيلة المخصصة لصغار الموظفين . وفى توزيع ميزانية التعليم بين مختلف مستويات التعليم كانت معظم المخصصات تذهب لا لبناء نظام التعليم الابتدائى الذى تشتد الحاجة إليه والذى يخدم جمهرة الشعب ، بل إلى مراحل التعليم العليا التى لا ينتفع منهـا سوى أعداد قليلة نسبيا ـ وهذا القول ينطبق بشكل خاص على مصر قبل الثورة . وفى الأشغال العامة ، إذا استثنينا مصر التى أنشىء فيها نظام متقدم للرى ، وجـدنا أن معظم الأموال كانت تنفق على الطرق والشوارع والمبانى الحـكومية ـ التى كانت هنالك حاجة إليها ولا تعتبر سيئة فى حد ذاتها ـ ولـكن هنالك ما هو أهم وأجدى منهـا مثل المشروعات المنتجة كمشروعات الرى وإحياء الأرض وتنميتها واستثمار موارد المياه لتوليد القوة أو كالخدمات الاجتماعية .

وإن الأحداث التى وقعت فى سوريا بعـد حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ لمن مظاهر التفاعلات التى يختبرها المجتمع العربى . فقـد جاءت الانقلابات العسكرية معبرة عن القلق وعن الحاجة إلى الإصلاح الجذرى . وبما أن العهد العسكرى جاء إثر الفشل فى معركة فلسطين ، فإنه شدد على أهمية القوة واعتبرها الشرط الأول للبقاء . ومع أن سنوات الحـكم العسكرى لم تـكن مستقرة — فالانقلابات المتعاقبة رغم أنها تمت بشكل سلمى ، لم تـكن لتوحى بالطمأنينة — مع ذلك فإن العهد حقق نتائج مهمة فى بناء قوة البلاد . فدخلت فى الحياة العامة روح أكثر جدية من قبل ، وتراجعت الغوغائية وزادت كفاية الجهاز الحـكومى وانصب الجهد على إقامة جيش قوى ، وشجع التقدم الاقتصادى ،

وسنت تشريعات اجتماعية ساعدت على زيادة التماسك بين سكان البلاد .

وفى الوقت ذاته كان يقوم حزب البعث العربى الاشتراكى فى سورية بنشر الدعوة إلى أهمية الإصلاحات الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية وخطورتها . وهذا الحزب ليس حزبا سياسيا فحسب ، بل هو أيضا منظمة لتربيـة الشبان وتثقيفهم بالمشاكل والواجبات العامة ، وحركة وثيقة الصلة بالفلاحين . ويعمل الحزب على قيام دولة اشتراكية تنشأ بجهود الشعب نفسه . ومثل هـذا المجتمع لا يحقق بالإصلاح الجزئى وبالمسكنات بل بالإصلاح الجذرى الذى يحققه نضال واع ومصمم من جانب الشعب ، عندما يدرك إدراكا تاما بأن حيانه وحريته وسعادته رهن بنتائج هذا النضال . وحزب البعث رغم تشديده على النضال والتغير الثورى . هو حزب مناهض للإرهاب .وهو يرمى إلى تحقيق برنامجه بالثورة السلمية. ومع أنه حركة جماهيرية إلا أنه يشدد على أهمية الفرد وحريته ويعتبرهما من الأمور الأساسية فى حرية الأمة . واشتراكية الحزب ـ بالرغم من صلته بالحركات الاشتراكية فى آسيا وأوربا ـ مبنية على حاجات المجتمع العربى . والبعث يرتـكز على القومية العربية ، ويؤمن بأنه مالم تخلق الذات العربية الخالصة من جديد ، لن يستطيع المجتمع العربى أن يطرح شوائب السطحية والأوهام والأباطيل ، ولن يقوى على مواجهة مسئوليات الحياة فى ثقة وأمل . والبعث مثـله فى ذلك مثل العناصر التقدمية الأخرى، يعتقد بأن النضال من أجل تحقيق نظام مبنى على العدالة الاجتماعية لا يمكن فصله عن النضال للتحرر من السيطرة الأجنبية ، وكلاهما مرتبطان بتحقيق الوحدة العربية . والبعث منفتح لقوى الخير والنور المنطلقة من المجتمعات الأخرى ، لأنه يؤمن بوحدة المصالح والقيم فى الإنسانية جمعاء .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

والملاحظ العابر الذى زار البلاد العربية بعد الحرب العالمية الثانية ربما لم يلاحظ أمارات تغيرات هامة كانت فى دور التكوين . أما الذين تسنت لهم دراسة أوفى فقد استطاعوا أن يتنبأوا بالعاصفة المتجمعة . ففى مصر ، حيث كانت الشرور الاجتماعية والسياسية تهدد المجتمع بخطر الانجراف إلى الفوضى التامة ، ارتفعت التحذيرات والصيحات من كل جانب : من البرلمان حيث حذرت التقارير من عدم الاستقرار الاجتماعى والاقتصادى ، ومن العمال الذين عبروا عن قلقهم بالاضرابات والاضطرابات ، ومن الفلاحين الذين قاموا ضد ملاكى الأرض ، ومن الكتاب الذين وضعوا هذه المشاكل نصب أعين الجمهور . وظهر عدد من الكتب الرزينة التى حللت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية واقترحت مشروعات معقولة وعملية لبناء كيان اجتماعى سليم .ونال كتابان صغيران ألفهما الدكتور طه حسين رواجا واسعا، أحدهما كتاب « المعذبون فى الأرض » الذى احتوى صورا صريحة ومقنعة عن الشقاء الإنسانى فى مصر المعاصرة . وثانيهما كتاب « الوعد الحق » الذى يصف ظهور الإسلام والآلام التى عاناها المؤمنون الأوائل وثباتهم وبطولتهم فى وجه الاضطهاد ، وانتصارهم فى آخر الأمر على قوى الشر . وكان القصد من هذا الكتاب تثبيت أقدام الشعب ورفع معنوياته بإطلاعه على الحقيقة الأزلية ؛ وهى أن النصر للأقوياء فى أنفسهم ، العظماء فى قضيتهم ، مهما كان مركزهم وضيعا .

وشنت بعض الصحف اليومية والمجلات المصرية حملات قوية ونشيطة ومثابرة أبانت فيها حقيقة المجتمع المصرى الممزق إلى معسكرين : أحدهما فقير وممتلئ بالمرارة الناجمة عن الكد والحرمان ، والآخر قاس ومنحل الأخلاق بسبب التخمة التى يعيش بها . وأنذرت بأن الجماهير التى كدّت طويلا وتألمت طويلا قد وصلت إلى الحد الذى لن تسمح بعده بتحويل عرقها ودمها إلى ذهب يبعثره الأغنياء

فى إسراف لا يعرف الخجل . وعم الخوف من أن يؤدى الغضب واليأس فى صدور الشعب إلى ثورة كاسحة تحرق كل ما فى طريقها ، مالم يتدارك الأمر بإصلاح جذرى .

وقد أقلقت هذه الحملة الصحافية الملك فاروق الذى كان المصدر الأكبر للفساد والانحلال الأخلاقى فى البلاد . فأكره حكومة الوفد على سن تشريعات جديدة تناقض حرية الرأى والتعبير ، بعد أن كانت هذه الحكومة قد خففت القيود التى كانت مفروضة على الصحف من قبل . واتحدت الصحف فى مقاومة هذه التشريعات ، وأيدها فى ذلك أعضاء البرلمان كما أيدها رجال المهن الحرة والتجار ومنظمات العمال . وإزاء هذه المقاومة الصارخة سحبت هذه التشريعات من البرلمان .

ووجدت حرية الصحافة فى مجلس الدولة سندا صلبا وعظيم الأهمية . فهذا المجلس مستقل عن الحكومة و بعيد عن متناول النفوذ والضغط مهما كان مصدرهما . وفى أحلك لحظات الكبت ، عند ما كانت الأحكام العرفية مفروضة على البلاد ، وكانت القوة الرجعية متربعة فى دست الحكم وكانت العناصر الحرة موضوعة تحت المراقبة ، وقف مجلس الدولة كالصخرة العاتية مدافعا عن الحرية الفردية والحرية العامة إزاء كل هجوم أو تدخل حكومى . وفى كثير من الأحيان عند ما كانت النشرات تصادر ، والجرائد تعطل ، كان مجلس الدولة يصدر الأحكام المدوية التى تطلق النشرات وتعيد الحرية إلى الصحافة المهددة .

وجاء الانفجار المحتوم عند ما استولى الجيش على الحكم فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ . إلا أنه كان انفجارا سلميا ، ولم تنشأ عنه حرب أهلية تهدم البيت على ساكنيه قبل أن تنشئ بناء جديدا . فقد كان انقلاب الجيش سريعا وحاسما ، وجاء

نجاحه نتيجة لتنظيمه المدهش وحسن الاعداد له من ناحية ، وليأس الشعب المطلق من العهد القائم وشوقه لأى تغيير .

وأطاح الجيش بالملك الذى أصبح رمزا لكل ما هو فاسد فى الدولة . وكان فاروق مستبدا ومنحل الأخلاق لا يردعه وازع من النفس ، أو من الاحترام للتقاليد أو الدستور ، أو هيبة المركز . وقد أضاف إلى انحطاطه الشخصى واستهتاره بكل القيم الأخلاقية والواجبات العامة ، الخيانة لبلاده فى أثناء الحرب الفلسطينية يوم قدم شركاؤه وعملاؤه للجيش أسلحة فاسدة أدت إلى موت الجنود المصريين بدلا من موت أعدائهم . وقد ذكر الإنذار الذى وجهه الضباط الأحرار إلى فاروق بطلب تنازله عن العرش ، أن الملك ، بوصفه تجسيدا لهذه المفاسد ، يعتبر مسئولا عن تقويض بنيان الأمة وتعريضها للفوضى ، وعن تشويه سمعة مصر فى الخارج .

وقد أزال تنازل الملك العقبة الرئيسية فى وجه قيام حياة عامة نظيفة ، وفى وجه الإصلاح الاجتماعى الشامل . غير أن تنفيذ هذا الإصلاح كان من المهمات الشاقة التى تتطلب تعبئة جميع موارد الدولة البشرية والمادية . وقد ابتدأ العهد الجديد بأمل التعاون مع الأحزاب السياسية إذا طهرت صفوفها ، وأصلحت خلافاتها الشخصية ، وكرست نفسها للواجب العام ، ولكن عند ما لم يبد منها الاستعداد أو المقدرة على تغيير أساليبها وفهم الحقيقة الواقعة من أن نظاما جديدا قد تأسس ، حلت هذه الأحزاب . وكان البرلمان قد حل قبل انقلاب الجيش . وألغى دستور سنة ١٩٢٣ ، بعد أن اتضح ، لكثرة ما علق ، أن به ثغرات كثيرة تمكن السلطة الاعتباطية من إيجاد منفذ تتوصل به إلى مأربها . وأعلنت فترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات يكون الحكم فيها بيد مجلس قيادة الثورة ووزارة مدنية مسئولة تجاه هذا المجلس .

إن الانقلاب العسكرى لم يقم ضد حكومة ديموقراطية تدار لمصلحة الشعب ، بل أزال نظاما انحطت فيه إدارة الشئون العامة انحطاطا عظيما بسبب مفاسد الملك . وكان الدستور المصرى ودساتير البلاد العربية الأخرى قد وضعت قبل زوال السيطرة السياسية الأجنبية ، ولذلك فإنها كانت تستهدف ضمان مصالح الدولة المسيطرة من جهة ، وإلى تقوية السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية من جهة أخرى . وكانت مراقبة البرلمان لشئون الدولة غير وافية بالمرة . وندر أن استقالت حكومة لأن البرلمان سحب ثقته منها . ومع ذلك فلم يكن هنالك استقرار ، بل كانت الحكومة تتغير حسب هوى رئيس الدولة ، ولم ينجم عن التغيرات الوزارية سوى إعادة الوجوه القديمة ذاتها فى تشكيلات جديدة ، فأدى ذلك إلى حدة المنافسة بين الزعماء السياسيين القلائل ، وإبعاد العناصر الفتية عن الاشتراك فى الحياة العامة على مستوى عال . فالأحزاب السياسية — أو بالأحرى التى كانت تسمى بهذا الاسم — شلت الحياة العامة بالتناحر الشخصى بين زعمائها ، بدلا من أن تنظم هذه الحياة وتوجهها . أما جمهور الشعب ، الذى لم يجد الزعماء الشجاعة الكافية لمواجهته بالحقيقة ، ولا المقدرة أو الكفاية لخدمته وتوجيهه ، فقد بقى فى حالة توتر دائم بين الوعود السخية والخطابات الحماسية الصادرة عن السياسيين ، وبين الحقائق التى يعيش فيها . وضاعت المسئولية وسط هذه الفوضى ، وتساءل الناس : من ترى يحكم البلاد ؟ أهو رئيس الدولة ، أم الحكومة ، أم البرلمان ، أم الشارع ؟ أم لعل الحاكم هو السلطة الأجنبية مهما أخفت نفوذها وتوجيهها للأمور ؟ أم لعل هؤلاء جميعا يحكمون فى آن معا ، ولكن كلا منهم يشتد فى غير اتجاه الآخر ؟

وقد تحملت السلطات العسكرية كامل المسئولية الناجمة عن تسلمها الحكم ، وأدخلت فى الحال روح الجد والتصميم إلى الحياة العامة . وطبقت بسرعة الإصلاحات التى طال انتظارها دون أن تعيقها المنازعات الحزبية ، والمناقشات البرلمانية التى لا تنتهى [1] . وقد انعكس نشاط قادة الثورة ونزاهتهم وحماستهم ، وإيمانهم بالله وبأنفسهم وبشعبهم ، بظهور شعور شامل بالأمل بين أفراد الأمة . وبما أن هؤلاء الرجال الذين استطاعوا أن يحطموا الأصنام التى استعبدت الشعب ، ويقوضوا دعائم الشر والفساد ، هم من صميم الشعب ، فإنهم بذلك رفعوا معنويات جماهير الشعب . وفى الوقت ذاته أكد قادة الثورة وحدة الغاية والهدف بين الجيش والشعب ، إذ أن الثورة السلمية التى قام بها الجيش جاءت لتتمم رسالة العناصر الحرة بين أفراد الشعب — تلك العناصر التى كانت مدركة لحاجات المجتمع دون أن تتوافر لها القوة لتطبيق الإصلاحات التى تريدها .

وثورة الجيش هى ثورة اجتماعية أثرت فى كل ناحية من نواحى الحياة المصرية ، وإن الأهداف التى تسعى إليها تدل على نطاقها ومداها . وهذه الأهداف هى : (١) القضاء على الاستعمار وأعوانه ، (٢) القضاء على الإقطاع ، (٣) القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم ، (٤) إقامة جيش وطنى قوى ، (٥) إقامة عدالة اجتماعية ، (٦) إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وهذه الأهداف متضمنة فى الدستور الذى أقره الشعب فى ٢٣ يونيه سنة ١٩٥٦ .

---

(١) من الخطوات التى اتسمت بالجرأة والحزم إلغاء المحاكم الشرعية والمحاكم الملية كما حققت وحدة القضاء وقضى على الفوضى .

وهذا الدستور منسجم مع حاجات مصر ، فهو ينص على إنشاء حكومة قوية وعلى إقامة دولة على أسس اشتراكية . ومن المبدأ القائل بأن « التضامن الاجتماعى أساس للمجتمع المصرى » ينبثق منهاج شامل للتأمين الاجتماعى . ومن مقتضيات هذا البرنامج ملكية الدولة للموارد الطبيعية وانتهاج سياسة الاقتصاد الموجه . غير أن حق الملكية الفردية مضمون ، والنشاط الاقتصادى الخاص حرٌّ مالم يتعارض مع المصلحة العامة . والدستور يثبت الإصلاح الزراعى الذى طبق فى أول عهد الثورة والذى يحدد الملكية الفردية فى الأراضى الزراعية . ولذلك أصبح إلغاء الملكيات الزراعية التابعة للمالكين الغائبين من الأمور الراسخة .

وقد وضع الدستور باسم الشعب المصرى باعتباره ثمرة لنضال الشعب الطويل المستمر ضد السيطرة المعتدية من الخارج والسيطرة المستغلة من الداخل — ذلك النضال الذى حقق نصرا عظيما فى ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ . ولما كانت قواعد الدستور وأحكامه منبثقة من صميم كفاح الشعب وتجاربه ، وتتضمن مبادئه المقدسة وقيمه الخالدة ، فإن الشعب الذى قرر هذا الدستور وأعلنه معبرا عن إرادته وعزمه الأكيد ، يكفل له القوة والمهابة والاحترام .

وإن توكيد الثورة على أهمية الشعب واضح فى كل ماتقوم به من أعمال ، فالشعب هو حامى الثورة ، ولن تتحقق أهدافها إلا بسعيه المصمم المدرك المتحمس . وسيتحقق العدل الاجتماعى بجهود الشعب وسعيه. وواجب الشعب وحقه أن يراقب الحكومة بحيث لاتتراجع عن مثل الثورة .

ومهما كانت الثورة منهمكة بواجب بناء المجتمع المصرى ، فإنها لم تنس يوما هدفها الأول وهو القضاء على الاستعمار . وهذا الهدف لاينحصر فى مصر وحدها ، بل ينطبق على كل أرض عربية مازال للاستعمار بقية فيها ، إذ أن حرية الشعب

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

المصرى ورفاهه لاينفصلان عن حرية الأمة العربية التى تشكل مصر جزءا لايتجزأ منها . وإن إيمان الرئيس جمال عبد الناصر بهذا المبدأ إيمانا راسخا وسيره فى ثبات نحو تحقيقه هو الذى خلق لدى الدول المستعمرة شعور العداء نحوه ، حتى ذهبت فى هذا الشعور إلى حد القيام بالحرب من أجل تنحيته. ولـكن هذا الإيمان والسياسة التى انبثقت عنه هما اللذان جعلا من عبد الناصر بطلا عربيا ورمزا لقوى التحرر فى المجتمع العربى .

إن تطلع جمال عبد الناصر وسعيه بقوة لتحقيق توحيد الأمة العربية وتحريرها من السيطرة الأجنبية ومن الاستغلال والرجعية فى الداخل ، اتفق مع التعبير القوى عن الإرادة الشعبية الساعية إلى نفس الأهداف فى بعض الأقطار العربية . ففى سوريا التى يتغلغل فيها شعور عميق ووعى شامل للتراث العربى ، والتى توجهها عناصر تقدمية ، ثبت الشعب أمام الضغط الأجنبى ، وأحبط المؤامرات الرجعية الرامية إلى تهديم العناصر المخلصة الدافعة للمجتمع نحو تحقيق ذاته ، فى إطار من الوحدة العربية والحرية والتقدم. وهذه القوى عينها هى التى دفعت شعب الأردن إلى تحدى السلطة البريطانية والصلات التقليدية ، فحررت الأردن من الارتباط بالـكتل العسكرية الأجنبية وثبتته فى جانب الدول العربية المتحررة .

وقد زادت سرعة هذه التطورات بزيادة تنظيم أوجه النشاط فى المجتمع العربى فنشأت على المستوى المهنى والاقتصادى منظمات كثيرة من وقت غير قليل، ولـكنها وسعت مداها فى الآونة الأخيرة . كما أن تنظيم الجماهير من عمال وفلاحين عن طريق الحركة العمالية أخذ يوجه الشعور الشعبى ، الذى لم يكن حتى الآن فعالا إلا بصورة جزئية ، نحو الهدف المشترك فى بناء الأمة .

وإن اتحاد نقابات العمال العربية الذى أنشئ فى دمشق فى أبريل سنة ١٩٥٦

من قبل ممثلى المنظمات العمالية فى العراق وسوريا والأردن ولبنان ومصر وليبيا ، يتطلع إلى أن يضم ملايين العمال فى جميع الأقطار العربية . وقدأذاع برنامجا لم يقتصر على المشا كل العمالية . ومن الأهداف التى يرمى إلى تحقيقها توحيد التشريع العمالى فى الدول العربية ، وتنمية الحركة التعاونية ، وزيادة القوة الإنتاجية بالتدريب المهنى ، وتصنيع الوطن العربى وتنمية موارده كوحدة متكاملة ، ومساهمة العمال فى الحركة الوطنية نحو التحرر والوحدة . وتمشيا مع الروح السائدة فى هذه الأيام أعلن الاتحاد تمسكه بمبادئ باندونج وأعرب عن تأييده لقضية السلم العالمى .

والعمال منظمون تنظيما جيدا فى أقطار المغرب العربى . فإن لدى تونس أقدم وأقوى حركة عمالية فى البلاد العربية . وقد أسست هذه الحركة فى أواخر عقد ١٩٢٠ ونمت جنبا إلى جنب مع الحركة الوطنية وساندتها بقوة واستمرار . ونشأ التنظيم العمالى فى مراكش إبان الغليان الذى عانته البلاد بعد نفى السلطان سنة ١٩٥٣ ، كما نشأ فى الجزائر مع الثورة التى مازالت مستمرة منذ نوفمبر سنة ١٩٥٤ . وقد أصبحت المنظمتان على جانب عظيم من القوة فى البلدين ، وإن جيوش التحرير الجزائرية والمراكشية هى الأخرى تعبيرات منظمة عن الإرادة الشعبية . وقد وحدت جميع عناصر السكان فى النضال من أجل الاستقلال .

وفى الطرف الآخر من العالم العربى ، فى أقطار الخليج العربى ـ وبالأخص البحرين ـ وفى عدن والمحميات ، انضمت منظمات العمال إلى الحركة الرامية إلى الاستقلال وإلى توحيد المشيخات الصغيرة فى اتحادات باعتبار ذلك خطوة نحو الوحدة العربية .

إن فى البلاد العربية اليوم آمالا كبيرة ، وهى آمال منبثقة عن الثقة بالنفس التى استعادها الشعب بنتيجة ماحققه . ومن أهم ما حققته الشعوب العربية ذلك النضال الرائع المستمر للشعب الجزائرى ، والهدوء والتصميم اللذان قابلت بهما مصر الغزو

الثلاثى ، والمقاومة العنيدة التى أظهرها أهالى بور سعيد ، والتأييد الإجماعى الفعال الذى قدمته الأمة العربية لمصر خلال المحنة . إن بروز فكرة الوحدة العربية كحقيقة ملموسة معبر عنها فى الوعى المتسع المتعمق للذات العربية ، وفى بعض التطورات الأخيرة ، كاتفاقية التضامن العربى بين المملكة العربية السعودية ومصر وسوريا والأردن ، ومشروع الاتحاد الفدرالى بين مصر وسوريا قد أثار جماهير الأمة وعناصرها المعبرة أعمق الإثارة .

وإن مشاكل المجتمع العربى على خطورتها وتعقيدها ، لم تعد تبدو مستعصية . فهناك أمل فى إزالة الفقر من بين الجماهير ، وهو أمل مبنى على العلم والمعرفة . وقد حل التخطيط العلمى للتنمية الشاملة بوساطة البرامج المربوطة بفترات زمنية معينة ، محل المحاولات السابقة المتخبطة . ومن المشروعات الكبرى ذات الأهمية للتنمية الاقتصادية وزيادة الترابط فى البلاد العربية مشروع إسكان مليونى فلاح مصرى فى الجزيرة بسوريا الشمالية ، وهى منطقة خصبة لم تنم تنمية وافية بعد .

والنضال مستمر فى عدد من الأقطار العربية ضد المفاسد التى تهدد المجتمع وتعرقل نموه وتمنع تحرره الكلى وانطلاق قواه وإمكاناته . وتتفاوت هذه الأقطار فى قوة النضال وفعاليته . وهنالك زعامة وطنية خالصة عالية القدر ، تعمل على بناء القوى الداخلية فى الأمة . والاقتناع بأن الخلاص لا يأتى إلا من الداخل ، وأنه ملح يجب أن يتحقق فورا ، قد استولى على كثير من العناصر المنظمة ، وأصبح تحقيقه فى متناول اليد .

ولا يمكن للعرب أن يفكروا فى العزلة عن العالم الحديث ورفض مآثره ، وهذا القول يصدق حتى على البلاد البعيدة والمجتمعات النائية . كما أن فترة التقليد السريع المتولد عن الاحتكاك السطحى بالغرب قد انتهت أيضا . وقد وصل المجتمع العربى إلى مرحلة من الاكتشاف المجدد لقيمه ، وأخذ يعمق جذوره فى تراثه

الوطنى ، مدركا دائما لحاجته بالبقاء على أوثق الاتصال بالقوى الخلاقة فى العالم الحديث .

إن الحركة العربية لتحقيق الحرية والوحدة وإعادة خلق المجتمع ، سائرة فى طريقها ، ولا يمكن وقفها من الخارج . وفى مقدور القوى ووسائل الضغط الخارجية التى أظهرنا فى الفصول السالفة آثارها الهدامة أن تعرقل هذه الحركة وتشوه اتجاهها الإيجابى . فإذا تأذى العرب بسبب ذلك ، فإنهم لن يتأذوا وحدهم ، بعد أن أصبح العالم اليوم معتمدا اعتمادا وثيقا بعضه على بعض .

وقد انتهجت الدول العربية الأكثر تحررا فى علاقاتها مع بلاد العالم الأخرى ، سياسة مستقلة عن المعسكرين المتنازعين لأنها تعتقد أنه ليس من مصلحة العرب التورط بأحلاف أجنبية وبكتل عسكرية ، غير أن الغرب ما زال يفكر فى المنطقة وكأنها فراغ يجب أن تملأه الأحلاف العسكرية . ولكن هذه الفكرة أصبحت بالية بالنسبة إلى حقائق العالم اليوم . فإن الغرب لم يعد هو القوة المسيطرة فى العالم ، وبالتالى لم يعد فى مقدوره ممارسة السلطة النهائية فى المنطقة .

وقد تغير الموقف فى الشرق الأوسط تغيراً جوهريا بنتيجة عدد من التطورات ، من بينها منافسة الاتحاد السوفيتى القوية للغرب . ومن التطورات البالغة الأهمية ظهور الشعوب الآسيوية والأفريقية التى كانت مستعمرة فى السابق باعتبارها قوة عظيمة فى العالم ، وهذه القوة تسير فى الغالب باتجاه الحياد بين المعسكرين المتنافسين . وتعتقد هذه الشعوب أن اتجاهها هذا يساعد على تضييق شقة الخلاف بين الكتلتين وأنه بالتالى يخدم حاجتها الأساسية فى التنمية ويخدم السلام العالمى فى آن واحد .

وإلى جانب هذا الاتجاه المتزايد فى محاولة تخفيف التوتر بين الغرب والاتحاد السوفيتى ، أكدت منظمة الأمم المتحدة سلطتها كقوة تعمل للسلام ، وعكس موقفها القوى من غزو مصر المزاج الأخلاقى فى العالم ونفوره من الحرب .

وفى الوقت ذاته تنبه العرب لأهمية منطقتهم ولإمكاناتهم . ويتقوى الاعتقاد بينهم وينتشر بأن مسئولية الدفاع عن المنطقة تقع على عاتقهم ، وأنهم هم وحدهم ،

لا الدول الأجنبية ، قادرون على ملء أى فراغ فى المنطقة . وليمكن بناء القوة اللازمة لهذا الأمر هنالك شرطان أساسيان لا بد من توافرهما: تحقيق الوحدة العربية ، وتنمية موارد المنطقة لمصلحة شعوبها . وإن التأييد الخالص للوحدة العربية سيحقق ما عجزت عن تحقيقه المشروعات الأجنبية من بناء قوة داخلية ورفاهية صحيحة لا يرسخ بدونهما السلام والأمن .

ولما أخذت قوة العرب تزداد وأخذوا يتصرفون على اعتبار أن استقلالهم حقيقى ، تعرضوا لتهمة السماح بالتغلغل الشيوعى . إلا أن هذه التهمة باطلة بقدر ما هى ضارة فهى تسىء إلى العرب بتشويهها للحقيقة وإلى الشعوب الغربية لأنها تضللها .

أليس من العقل والعدل أن نسأل : لماذا يقبل العرب التغلغل الشيوعى فى حين أن أجيالا عديدة منهم ناضلت لتحرير نفسها من السيطرة الغربية . وها هى ذى قضية الجزائر شاهدة على ذلك . فبعد قرن وربع من المحاولات العنيفة لفرنسة الجزائر ، نجد أنها حافظت على ثقافتها وأكدت مجددة شخصيتها المستقلة . ألم يحاول الغرب بمحالفة الصهيونية أن يحطم الإرادة العربية على مدى ثلاثين سنة ، من غير أن يحقق من وراء ذلك سوى الفشل ؟ وهل يعقل أن سوريا ، التى ثبتت على استقلالها فى خمسة انقلابات متعاقبة ، ورغم الضغط والمؤامرات والأخطار المحدقة ، ستسمح لهذا الاستقلال بأن يفلت من يديها . وهل يعقل أن يسمح بذلك شعب مصر الذى واجه الغزو الثلاثى بتصميم ، أو أهالى بور سعيد الذين حاربوا الغزاة من بيت لبيت ، أو الشعوب العربية التى تنادت لتأييد مصر فى كل مكان لأنها أدركت أن الهجوم على مصر هو هجوم مباشر على حريتها ووحدتها وأملها فى حياة أفضل ؟ وهل تسمح الأمة العربية لهذه الأمانى التى لم تعد أحلاما بل أخذت تدخل فى طور التحقق الفعلى أن تغمرها الشيوعية أو أى نوع آخر من أنواع التهديم .

ليس من المحتمل أن مثالية أجنبية يمكن أن تفرض على العرب رغم إرادتهم . فالجماعة العربية تمثل حضارة قديمة ومستقرة ومستمرة ، واجهت بنجاح التحدى

والخطر . ولقد استطاعت البقاء بفضل قدرتها على التكيف مع الاحتفاظ بماهيتها . وفى ذاتها بذور النمو ، والمقدرة على إصدار الحكم المستقل على الاتجاهات المعاصرة ، والموهبة على اختيار ما يتلاءم مع عبقريتها وحاجاتها .

وإذا ما أعيد بناء الحضارة العربية ، فإنها ستقدم رسالة لا يستطيع العالم أن يتجاهلها . فالمدنية العربية ذات جذور فى حضارة الغرب وجذور فى حضارة الشرق ، وهى متميزة بإنسانيتها الواسعة التى وحّدت بين شعوب كثيرة على أساس من المساواة ، ولذلك فإن وساطتها ضرورية لقيام تعاون أوفى بين شعوب الشرق والغرب . وأساسها الروحى ، وتشددها فى الحرص على القيم الأخلاقية التى أدخلها الإسلام فى كل موضوع — سواء أكان علما أم اقتصادا أم سياسة — قد يعيد ما اختل من توازن الحضارة الحديثة التى تشدد على العلم وحده . ومبدأ « الوسط » أو الاعتدال هو المثال المحبب فى التقليد العربى ، وهو ضمانة ضد التطرف والمبالغة ، وقوة مثبتة ضد مخاطر الانحراف .

فإذا كان النقد الذاتى الدقيق ضروريا للعرب ، ولإعدادهم للبناء الأساسى الذى يحتاجه مجتمعهم ، فليس هذا النقد ذاته حاجة ملحة لا مفر منها للغرب أيضا بالنسبة إلى علاقاته مع العرب ؟ فإذا كان لدى الغرب أمور كثيرة يجدر بالعرب أن يتعلموها ، وإذا كان العرب فى حاجة إلى الانضباط الشديد ، والتكريس الذاتى ، والوعى ، ليستطيعوا اللحاق بالزمن ، فهل الغرب أقل حاجة منهم إلى العودة إلى أفضل مافى تراثه ، ليحياه ويجعل منه حقيقة واضحة أمام شعوب ذات ثقافات أخرى .

وليست الأحلاف والتكتلات هى التى تقرب بين شعوب العالم . إذ أن هذه الأحلاف انتهازية ومتقلبة بطبيعتها — بل يكون هذا التقارب فى اكتشاف أوجه الشبه ، والخير ، والقوة فى الثقافات المختلفة . فإذا تقابل الشرق والغرب على المستوى الذى يمثل أفضل ما فى تراثهما ، فإنهما يلتقيان حقا ، ويلتقيان أبدا .

i14712003
B 13009576

DS
62 Ezzedine, Najlā'.
E992x al-'Ālam al-'arabī.

Azza Shawkat 76/472
APR 1973
Olfat Agha (Graduate

DS
62
E992x

APR 1973

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO